

أهل الله والعقل

تأليف

محمد جواد مغنّيّة

الإنسان روح لا جسد

كيف أمنت

ابواب الرحمة

السعادة

نار جهنم

النبوه والعقل

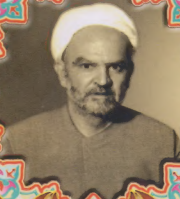
الآخرة والعقل

من خلق الله

صفات الرسول

في وجود الله
وخلود الروح

عقليات اسلامية



منشورات



منشورات الرشاد
الطبعة الأولى: ١٤٢٥ هـ

دار التيار الجديد

الله والعقل

بَحْثُ الْحَقُوقِ بِحِفْظِهَا

الطبعة الأولى

١٤٣٥ هـ / ٢٠١٤ م

مَنْشُورَات



مَنْشُورَات الرِّسَالَةِ

لِلْمَجْلَمَةِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْفَنِّ

الله والعقل

تأليف

محمد جمال محمد مغنيتي

النبوه والعقل

الآخرة والعقل

من خلق الله

صفات الرسول

في وجود الله
وخلود الروح

الإنسان روح لا جسد

كيف آمنت

ابواب الرحمة

السعادة

نار جهنم

عقليات إسلامية



دار التيارات الجديدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فَهْرَس الْمَوْضُوعَات

مُقَدِّمَةٌ ١٩

اللهُ وَالْعَقْلُ

هَذِهِ الصَّفَحَات ٢٣

سَبَبُ الْمَعْرِفَةِ ٢٩

الْحَوَاسِ الْخَمْسُ ٢٩

الْمُلَاحَظَةُ وَالتَّجَرِبَةُ ٣٠

أَسْأَلُوا أَهْلَ الْعِلْمِ ٣٥

مَنْ خَلَقَ اللَّهُ؟ ٣٩

اللَّهُ وَالطَّبِيعَةُ ٤٢

الْأُلُوهِيَّةُ فِكْرَةٌ! ٤٣

أَيْنَ يُوجَدُ اللَّهُ ٤٤

مَنْ رَأَى اللَّهَ؟ ٤٦

كَيْفَ خَفِيَ وَجُودُ اللَّهِ وَهُوَ أَوْضَحُ مِنَ الشَّمْسِ؟! ٤٨

الْإِلَهَ الَّذِي نَعْبُدُ ٥١

٥٥	العَقْلُ وَعَالَمُ مَا بَعْدَ الْمَوْتِ
٥٥	حَرِيَّةُ الْفِكْرِ:
٥٧	الْكَلْبُ الْمُتَدِينُ:
٥٨	الْمَوْتُ:
٦٣	السَّبَبُ
٦٩	عَوْدُ عَلَى بَدْءِ
٧٣	الْأَدْيَانُ وَتَطَوُّرُ الْوَعْيِ
٨١	إِلَهُ أَيْزِنْهَاور
٨٧	عَقَائِدُ الْمُفَكِّرِينَ
٨٨	الدَّكْتُورُ الْكَسَسْ كَارِيلُ
٨٩	الصَّلَاةُ
٨٩	فَرَانزُ وَيِرْفَلُ
٩٠	الدِّينُ بَعْدَ مِلْيُونِ سَنَةٍ

شُبُهَاتُ الْمُلْحِدِينَ وَالْإِجَابَةُ عَنْهَا

٩٣	مُقَدِّمَةٌ
٩٣	مَعَ أَخِ كَرِيمٍ
٩٤	يَقْرَأُ وَيُصَفِّقُ
٩٥	الْأَخْطَاءُ الْمَطْبُوعِيَّةُ
٩٥	أَعْلَامُ وَعَمَائِمُ

- ٩٦..... شَطَحَات فِقْهِيَّة
- ٩٧..... هَذَا الْكِتَاب
- ١٠١..... سَارَتَر وَفِكْرَة الْإِلْحَاد
- ١١١..... بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُلْحِدِينَ
- ١١١..... كَيْفَ يُؤْمِنُ بِمَا لَا يُرَى؟
- ١١١..... حَنْمِيَّة الْإِيمَان بِالْغَيْب
- ١١٣..... خَطَأُ التَّفْسِيرِ الْمِيكَانِيكِيِّ لِلْكَوْنِ
- ١١٥..... الْقُرُودُ وَأَشْعَارُ شَكْسِير
- ١١٧..... فَلَاسَفَات مُتَهَافَتَات
- ١١٨..... لَا إِنْسَانِيَّةَ بِلاَ حُرِيَّةَ
- ١٢١..... حَوْلَ الدِّينِ وَالْعِلْمِ
- ١٢١..... الْأُسْتَاذَان: صَعْبٌ وَالتَّرْكُ
- ١٢١..... تَحْدِيدُ الْمَعْنَى وَالْخَطَأُ الْمُحْتَمَلُ
- ١٢٢..... إِحْدَى الدَّعَوَتَيْنِ ضَلَالَةٌ
- ١٢٣..... الْحَقَائِقُ أَخَوَات
- ١٢٤..... الْفَرْقُ بَيْنَ الْحَقِيقَتَيْنِ
- ١٢٤..... تَعَاوُنُ الْعِلْمِ وَالِدِّينِ
- ١٢٥..... اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ
- ١٢٧..... اللَّادِينِيَّةُ وَالْعِلْمَانِيَّةُ
- ١٢٧..... تَشْكِيلُ الْعُقُولِ

- ١٢٨ مِنْ عِلْمِ الطَّبِيعَةِ
- ١٢٩ مِنْ عِلْمِ الْأَحْيَاءِ
- ١٣٠ مِنْ عِلْمِ النَّفْسِ
- ١٣٣ الشَّبَابُ وَالْدُّعَاةُ إِلَى دِينِ اللَّهِ
- ١٣٧ الْمَادَّةُ وَالْحَيَاةُ
- ١٣٧ بَيْنَ الْحَيِّ وَالْجَامِدِ
- ١٣٨ مَرَاكِلُ الْإِنْسَانِ
- ١٣٩ وَاهِبُ الْحَيَاةِ
- ١٣٩ الْمَادِّيُّونَ وَالْحَيَاةُ
- ١٤٣ أَتَيْنَ الَّذِي يَخْلُقُ مِنْ لَاشَيْءٍ
- ١٤٧ حَوْلَ الْإِسْلَامِ
- ١٤٧ طَرِيقُ الْمَعْرِفَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ
- ١٤٨ عَقِيدَةُ الْإِسْلَامِ وَاضِحَةٌ
- ١٥٠ شَخْصِيَّتُهُ
- ١٥٤ مَرَاكِلُ الدَّعْوَةِ
- ١٥٦ لِمَاذَا عَفَا مُحَمَّدٌ ﷺ عَنْ أَلَدِّ أَعْدَائِهِ
- ١٥٧ الرِّسَالَةُ وَالرَّسُولُ قَبْلَ الْإِسْلَامِ
- ١٥٨ عُمُومُ الرِّسَالَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ
- ١٥٩ هَذِهِ اللَّبَنَةُ الْمُكْمَلَةُ
- ١٦١ دَعْوَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ بِنَفْسِهَا دَلِيلٌ

١٦٣	كِتَابُ الظَّاهِرَةِ الْقُرْآنِيَّةِ
١٦٣	مُفِيدٌ وَلَكِنْ مُعَقَّدٌ
١٦٤	أَرْمَةٌ خَطِيرَةٌ
١٦٤	الظَّاهِرَةُ الدِّينِيَّةُ
١٦٥	مَا وَرَاءَ الطَّبِيعَةِ
١٦٥	مَبْدَأُ النُّبُوَّةِ
١٦٦	الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ
١٦٧	قَبْلَ الْبَغْيَةِ
١٧١	بَعْدَ الْبَغْيَةِ
١٧٣	إِعْجَازُ الْقُرْآنِ
١٧٥	هَلْ أَخَذَ مُحَمَّدٌ مِنَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ؟
١٧٧	بَاقَةٌ مِنْ حَدِيثَةِ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ ﷺ
١٧٧	رُبَّمَا كَانَ الدَّاءُ دَوَاءً
١٧٨	مِنْ خِلَالِهِ الْجُلَى
١٧٩	يَضْحَكُ لِلنُّكْتَةِ
١٨١	أَعْدَاؤُهُ
١٨٤	مَحْوُ الْأُمِّيَّةِ
١٨٥	الْقُرْآنُ يَأْسِرُ الْقَلْبَ وَالْعَقْلَ
١٨٧	الرَّفَقُ بِالْحَيَوَانِ
١٨٩	الْفِرَاسَةُ

- حَوْلَ الْبَغْتِ ١٩١
- لِكُلِّ نَاكِثٍ شُبْهَةٌ ١٩١
- الْإِجَابَةُ عَنِ الشُّبْهَتَيْنِ ١٩٢
- الدَّلِيلُ الْأَصِيلُ ١٩٤
- مِنْ كِتَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ١٩٦
- تَأْرِخُ فِكْرَةِ الْخُلُودِ ١٩٨
- طَرِيقُ الْجَنَّةِ ١٩٩
- بِدْعَةُ التَّعَصُّبِ وَالْإِجْتِهَادِ فِي مَوْرِدِ النَّصِّ ٢٠١
- الْإِجْتِهَادُ ٢٠١
- الْبِدْعَةُ ٢٠٢
- التَّعَصُّبُ ٢٠٢
- الدِّينُ وَمَازَكُسُ وَرَاسِلُ ٢٠٣
- الْيَهُودُ وَالْمَسِيحِيَّةُ وَالتَّعَصُّبُ ٢٠٤
- فَيْتُو الْكَنِيسَةِ صِدِّ الْإِنْجِيلِ ٢٠٥
- الْإِسْلَامُ وَالتَّعَصُّبُ ٢٠٧
- مَنْ الْبَادِيءُ بِتَفْرِيقِ الْمُسْلِمِينَ؟ ٢٠٨
- الْخُلَفَاءُ وَبَعْضُ الْفُقَهَاءِ ٢١٣
- أَمْثَلَةٌ مِنَ التَّعَصُّبِ الْمَذْهَبِيِّ ٢١٥
- الْمُنْعَةُ وَشَيْخُ أَزْهَرِي ٢١٦
- أَسْتَأْجِرُ أَمْرَأَةً لِلزَّانَا ٢١٨

٢١٨.....	الرَّزَا وَشَهَادَةُ الزُّورِ
٢١٩.....	إِلْحَاقُ الْوَلَدِ بِغَيْرِ أَبِيهِ
٢٢٠.....	زَوَاجُ الْمُتَعَةِ وَالزَّوْجِ الْمُؤَقَّتِ
٢٢١.....	صَلَاةُ الشَّيْطَانِ
٢٢٣.....	لِكُلِّ رَأْيَةٍ وَعُدْرَةٍ
٢٢٧.....	مُشْكَلَاتُ نَهْجِ الْبَلَاغَةِ
٢٢٧.....	مُسْحَةُ الْهِيَةِ وَعَبَقَةُ نَبَوِيَّةِ
٢٢٨.....	وَحْدَةُ الذَّاتِ وَالصِّفَاتِ
٢٣٠.....	التَّجَارَةُ بِالصَّدَقَةِ
٢٣١.....	الثَّقَّةُ بِاللَّهِ
٢٣٣.....	قِصَّةُ الشَّامِيِّ مَعَ الْإِمَامِ <small>ع</small>
٢٣٥.....	الْقَضَاءُ وَالْقَدَرُ
٢٣٦.....	مُشْكَلَةُ الْجَبْرِ وَالْإِخْتِيَارِ
٢٣٩.....	أَخْطَرُ مِنَ الْقُنْبُلَةِ الذَّرِّيَّةِ

النُّبُوَّةُ وَالْعَقْلُ

٢٤٥.....	تَفْهِيمُ
٢٥١.....	الْحُسْنُ وَالْقُبْحُ
٢٥٩.....	النُّبُوءَاتُ
٢٥٩.....	صِفَاتُ الرُّسُولِ

٢٦٠	الْغَايَةُ مِنَ الْبِعْثَةِ
٢٦٢	الْبَرَاهِمَةُ
٢٦٣	مَنْ هُوَ الْمُشْرَعُ؟
٢٦٦	دَلَائِلُ النُّبُوَّةِ
٢٦٧	مُعْجَزَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ
٢٧٥	الرِّسَالَةُ وَالرُّسُولُ ﷺ
٢٨٣	الْقُرْءَانُ
٢٨٧	فِي عِلْمِ الْفَلَكَ
٢٨٨	فِي عِلْمِ الْحَيَوَانِ
٢٩٥	مُحَمَّدٌ ﷺ فِي بَعْضِ خَصَائِصِهِ
٣٠٣	مُحَمَّدٌ ﷺ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ
٣٠٧	تَنْبِيْهِ:

الْآخِرَةُ وَالْعَقْلُ

٣١١	تَفْهِيْدُ
٣١٣	أَوْهَامُ الْجَاهِلِيْنَ
٣١٩	فِكْرَةُ الْآخِرَةِ وَتَأْثِيْرَهَا فِي السُّلُوكِ
٣٢٩	الدَّلِيلُ الْآخِرُ
٣٣٥	الْعَالَمُ حَادِثٌ
٣٣٩	الْآخِرَةُ وَالْعِلْمُ الْحَدِيثُ

٣٤٢	بَقَاءُ الرُّوحِ
٣٤٣	يَوْمُ الْآخِرَةِ كَأَلْفِ سَنَةٍ
٣٤٤	إِنْشِقَاقُ الْقَمَرِ
٣٤٧	التَّنَاسُخُ
٣٥٣	مَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى
٣٦٥	الدِّينُ وَالضَّمِيرُ

بَيْنَ اللَّهِ وَالْإِنْسَانِ

٣٧١	مُقَدِّمَةٌ
٣٧١	أَنَا وَأَنْتَ
٣٧٢	الْغَرَضُ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ
٣٧٣	أَقْسَامُ الْكِتَابِ
٣٧٤	نَصِيحَةٌ

الْقِسْمُ الْأَوَّلُ:

فِي وَجُودِ اللَّهِ، وَخُلُودِ الرُّوحِ

٣٧٧	كَيْفَ آمَنْتَ
٣٨٧	اللَّهُ وَأَنْتَ
٣٨٧	الْإِيمَانُ بِاللَّهِ قَدِيمٌ
٣٨٨	الْعَالِمُ مَعَ الدَّلِيلِ

٣٨٩	أَيُّهَا الْمُشْكِكُ.....
٣٨٩	مِنْ الْأَدَلَّةِ الْخَاصَّةِ.....
٣٩٣	أَعْطِ الزَّمْنَ فُرْصَةً.....
٣٩٥	صَانِعِ الْمُضَادَّاتِ.....
٣٩٩	الْإِنْسَانُ رُوحٌ لَا جَسَدَ.....
٣٩٩	أَضْلَانِ أَسَاسِيَّانِ.....
٣٩٩	الدَّلِيلُ.....
٤٠٠	التَّجَرُّبَةُ.....
٤٠١	الْعِلْمُ الرُّوحِي الْحَدِيثُ.....
٤٠٢	كِتَابٌ جَدِيدٌ.....
٤٠٤	عِلْمُ الرُّوحِ يَصْبِحُ جَامِعِيًّا.....
٤٠٤	بَعْضُ الْأَسْمَاءِ.....
٤٠٥	بَيِّنَاتٌ وَوَقَائِعُ.....
٤٠٧	وَصِفُ الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَوْتِ.....
٤١٣	رُؤَادُ الْفَضَاءِ وَرِسَالَةُ الْأَنْبِيَاءِ.....

القِسْمُ الثَّانِي:

مَبَادِيءُ عَامَّةٌ، وَمُقْتَضَفَاتٌ مِنَ الصَّحِيفَةِ السَّجَّادِيَّةِ

٤٢١	مَبَادِيءُ عَامَّةٌ.....
٤٢١	طَرِيقُ الْمَعْرِفَةِ إِلَى الْآخِرَةِ.....

٤٢١	الْخَلَّاصُ مِنَ النَّارِ
٤٢٢	صَلَّاحُ الْآخِرَةِ
٤٢٣	أَتَسْكُتُ أَوْ تَتَكَلَّمُ؟
٤٢٤	هَلْ الْجَهْلُ عُذْرٌ؟
٤٢٥	النِّيَّةُ
٤٢٦	مَنْ لَا يَزْحَمُ
٤٢٦	الثَّوَابُ
٤٢٩	أَبْوَابُ الرَّحْمَةِ
٤٢٩	الْآلَةُ الْكَاشِفَةُ
٤٢٩	عِنْدَ الْإِمَامِ <small>عليه السلام</small>
٤٣١	الدُّعَاءُ عِنْدَ الْإِمَامِ <small>عليه السلام</small>
٤٣٢	الْأَمَلُ
٤٣٥	أَيُّهُمَا نَخْتَارُ؟
٤٣٧	التَّرْغِيبُ فِي الْخَيْرِ
٤٤٢	لَا حُجَّةَ وَلَا عُذْرَ
٤٤٣	مَيِّتَةُ السُّوءِ
٤٤٧	إِنْ حَمَّ نَفْسَكَ
٤٥٠	الْحَجَّاجُ
٤٥٣	السَّعَادَةُ
٤٥٣	مَنْ هُوَ السَّعِيدُ؟

- ٤٥٣.....لَا سَعَادَةَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ
- ٤٥٥.....السَّعَادَةُ الْحَقَّةُ
- ٤٥٥.....بَلَاءُ الدُّنْيَا وَبَلَاءُ الْآخِرَةِ
- ٤٥٧.....الصَّلَاةُ
- ٤٥٧.....الصَّلَاةُ بَيْنَ اللَّهِ وَالْعَبْدِ
- ٤٥٨.....حَقِيقَةُ الصَّلَاةِ
- ٤٥٩.....الْغَايَةُ مِنَ الصَّلَاةِ
- ٤٥٩.....صَلَاةُ الْإِمَامِ زَيْنِ الْعَابِدِينَ (ع)
- ٤٦١.....الْإِنْسَجَامُ
- ٤٦٢.....الْعُجْبُ
- ٤٦٥.....لَا إِيمَانَ مَعَ كَذِبٍ
- ٤٧١.....الثِّقَّةُ بِاللَّهِ
- ٤٧١.....مَغْنَى الثِّقَّةِ بِاللَّهِ
- ٤٧٣.....عَلَى (ع) وَالثِّقَّةُ بِاللَّهِ
- ٤٧٤.....أُبْنَاءُ عَلِيٍّ (ع)
- ٤٧٥.....الثِّقَّةُ بِاللَّهِ لَا تَتَجَرَّأُ
- ٤٧٩.....نَارُ جَهَنَّمَ
- ٤٨٥.....الْحُبُّ فِي اللَّهِ
- ٤٨٥.....مَحَبَّةُ اللَّهِ
- ٤٨٦.....الْحُبُّ فِي اللَّهِ

٤٩١	إِخْوَانِي فِي اللَّهِ
٤٩٧	حُقُوقُ الْجِنِّزَانِ
٥٠١	الْمُخْسِنِ وَالْمُسِيءِ
٥٠١	الْمُسِيءِ
٥٠٣	الْمُخْسِنِ
٥٠٩	فَهْرَسُ الْآيَاتِ
٥٢٧	فَهْرَسُ الْأَحَادِيثِ
٥٣٩	فَهْرَسُ الْمَصَادِرِ

میں نے یہاں پہنچا

میں نے یہاں پہنچا

میں نے یہاں پہنچا

میں نے یہاں پہنچا

میں نے یہاں پہنچا

میں نے یہاں پہنچا

میں نے یہاں پہنچا

میں نے یہاں پہنچا



المُفْتَرِئَةُ

أُحْمَدُ اللهَ سُبْحَانَهُ، وَأَسْتَغِيْنُ بِهِ، وَأُصَلِّي عَلَى النَّبِيِّ الْمُخْتَارِ وَآلِهِ الْأَطْهَارِ.
وَبَعْدُ:

فَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ عَنِ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ ﷺ: «أَصْلُ دِينِي الْعَقْلُ». وَدِينُ مُحَمَّدٍ^(١) يَقُومُ عَلَى دَعَائِمٍ ثَلَاثَةٍ: «الْإِيْمَانُ بِاللَّهِ، وَالتَّوْبَةُ، وَالْيَوْمُ الْآخِرُ، وَتَنْفَرَعُ الْإِمَامَةُ عَنِ النَّبُوَّةِ، لِأَنَّهَا رِيَاسَةٌ عَامَّةٌ فِي أُمُورِ الدِّينِ وَالْدُّنْيَا عَنِ النَّبِيِّ، وَالْمَهْدِيِّ الْمُنتَظَرِ قِسْمٌ مِنَ الْإِمَامَةِ، لِأَنَّهُ الْإِمَامُ الَّذِي يَأْتِي فِي آخِرِ الزَّمَانِ. وَوَضَعْتُ سِلْسَلَةً أَعْرَضَ فِيهَا الدَّلِيلَ الْعَقْلِيَّ عَلَى أَصُولِ الْإِسْلَامِ، وَدَعَائِمِهِ الْأُولَى جَنْبًا إِلَى جَنْبٍ مَعَ الْإِحْسَاسِ الْقَلْبِيِّ فِي عِبَارَةٍ سَهْلَةٍ وَاضِحَةٍ مُكْتَفِيًا مِنَ الْمَوْضُوعِ بِمَعَالِمِهِ الرَّئِيسِيَّةِ مُجْتَنِبًا كُلَّ مَا يَغُوقُ الْفَهْمَ، وَيَأْتَابُهُ الْعَقْلُ... وَجَاءَتْ السِّلْسَلَةُ فِي خَمْسِ حَلَقَاتٍ: (اللهُ وَالْعَقْلُ، التَّوْبَةُ وَالْعَقْلُ، الْآخِرَةُ وَالْعَقْلُ، إِمَامَةُ

(١) أَنْظِرْ، مُسْتَدْرَكُ الْوَسَائِلِ: ١١/١٧٣ ح ٨، عَوَالِي اللَّالِي: ٤/١٢٥ ح ١، الشَّافَا بِتَعْرِيفِ حَقُوقِ الْمُصْطَفَى: ١/١٤٦.

عَلَيَّ وَالْعَقْلُ^(١)، وَالْمَهْدِي الْمُنْتَظَرُ وَالْعَقْلُ^(٢).

وَقَدْ وَفَّقْتُ، بِحَمْدِ اللَّهِ، إِلَى مَا قَصَدْتُ إِلَيْهِ مِنْ تَقْوِيَةِ الرُّوحِ الدِّينِيَّةِ وَتَشْبِيْهِهَا بِالْمَنْهَجِ الْعَقْلِيِّ فِي نَفُوسِ كَثِيرٍ مِنَ الشَّبَابِ، وَحَقَّقْتُ السُّلْسَلَةَ نَجَاحًا كَبِيرًا، فَطُبِعَ بَعْضُهَا أَرْبَعَ مَرَّاتٍ، وَبَعْضُهَا الْآخِرُ ثَلَاثًا... وَبَعْدَ أَنْ نَفَذْتُ النُّسْخَ مِنْ جَمِيعِ الطَّبَعَاتِ، رَأَيْنَا أَنْ نَجْمَعَ الْحُلُقَاتِ الْخَمْسَ، وَنَخْرِجَهَا فِي كِتَابٍ وَاحِدٍ بِأَسْمِ «الْإِسْلَامِ وَالْعَقْلِ» تَسْهِيلاً عَلَى الرَّاعِبِينَ، وَمُسَاهَمَةً فِي نَشْرِ الشَّقَافَةِ الدِّينِيَّةِ، وَالْفَلَسَفَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ... وَاللَّهُ وَلِي التَّوْفِيقِ.

(١) لَقَدْ طُبِعَ كِتَابُ «إِمَامَةِ عَلِيِّ بْنِ الْعَقْلِ وَالْقُرْآنِ» بِشَكْلِ مُسْتَعْدِلٍ لِيَكُونَ فِي مُنْتَائِلِ كُلِّ طَالِبٍ وَرَاغِبٍ فِي مُؤَسَّسَةِ دَارِ الْكِتَابِ الْإِسْلَامِيِّ.

(٢) لَقَدْ طُبِعَ فَصْلُ كِتَابِ «الْمَهْدِيِّ الْمُنْتَظَرِ وَالْعَقْلِ» فِي الْجُزْءِ الْأَوَّلِ فِي مُؤَسَّسَةِ دَارِ الْكِتَابِ الْإِسْلَامِيِّ.

اللهُ وَالْعَقْلُ

1000000

هَذِهِ الصَّفَحَات

بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَالصَّلَاةُ عَلَى صَفِيَّةِ الْمُرْسَلِ وَجَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ وَالصُّلَحَاءِ .
وَبَعْدَ ، فَقَدْ أَتَصَلْتُ بِكُتُبِ الدِّينِ ، وَأَنَا فِي سِنِ الْخَامِسَةِ ، وَأَوَّلَ مَا حَفَظْتُ مِنْهَا
سُورَةُ الْفَاتِحَةِ .

أَمَّا صَلَاتِي بِكُتُبِ التَّشْرِيعِ وَالْعَقَائِدِ فَقَدْ مَرَّ عَلَيْهَا أَرْبَعُونَ عَامًا أَوْ تَزِيدُ قَلِيلًا وَمَا
زِلْتُ أَرَا جَعَلَ هَذِهِ الْمَوْضُوعَاتِ ، وَأَتَابِعُ مَا يَقَعُ فِي يَدِي مِنْ كِتَابٍ أَوْ مَقَالٍ جَدِيدٍ
يَتَّصِلُ بِهَا مِنْ قَرِيبٍ أَوْ بَعِيدٍ ، أُبْحَثُ وَأَنْقِبُ عَنْ فِكْرَةٍ أَوْ كَلِمَةٍ تُشْعِرُ بِتَعْزِيزِ الدِّينِ
وَدَعْمِهِ ، وَقَدْ ظَهَرَ أَثَرُ ذَلِكَ فِيمَا كَتَبْتُهُ رَدًّا عَلَى الْمُلْحِدِينَ وَالطَّاعِنِينَ فِي الْإِسْلَامِ ،
وَمَبَادِئِهِ وَتَعَالِيمِهِ ، وَجَمَعْتُ الْكَثِيرَ مِنْ هَذِهِ الرَّدُودِ فِي كِتَابٍ «مَعَ
الشَّيْخَةِ» وَ«أَهْلَ الْبَيْتِ» وَ«الْإِسْلَامَ مَعَ الْحَيَاةِ» .

مَنْ تَتَّبَعَ مَا كَتَبْتُ وَنَشَرْتُ فِي مَبَاحِثِ الدِّينِ ، وَمَا يَتَّصِلُ بِهِ يَجِدُ أَنِّي أُحَارِبُ
عَلَى جَبْهَتَيْنِ : أَكْأَفِجُ التَّعَصُّبَ وَالْجُمُودَ فِي بَعْضِ الْأَفْرَادِ مِنَ الْمُتَدِينِينَ ، وَأَكْأَفِجُ
الْإِبَاحِيَّةَ الَّذِينَ يُبْهِرُونَ الشُّبُهَاتِ وَالشُّكُوكَ حَوْلَ عَقِيدَةِ الْإِسْلَامِ وَشَرِيعَتِهِ
وَتَعَالِيمِهِ . أَقْفُ وَسَطًا بَيْنَ الْإِثْنَيْنِ رَاغِبًا إِلَيْهِمَا الْعَدْلَ وَالتَّوْازَانَ ، أَدْعُو الْمُؤْمِنَ
الْمُتَدِينَ أَنْ يُلَاحِظَ بَيْنَ إِيْمَانِهِ وَأَهْدَافِ الْحَيَاةِ ، وَأَدْعُو الْإِبَاحِيَّ أَنْ يُؤْمِنَ وَيَدِينُ بِمَا
يَفْرَضُهُ الْعَقْلُ وَالْوَقَاعُ ، وَلَا يَسِيرَ وَرَاءَ الْأَهْوَاءِ وَالْأَحْلَامِ . لَقَدْ أَهْمَلَ هَذَا الدِّينَ

وَتَجَاهَلَهُ، فَوَقَفْتُ مِنْهُ مَوْقِفَ الْمُرْشِدِ الْمُدَافِعِ، وَخَاطَبْتُهُ بِرِفْقٍ وَلَيْنٍ أَسْتَدْرَجُهُ وَأَسْتَمِيلُهُ. وَنَظَرْتُ ذَلِكَ إِلَى نَاحِيَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الدِّينِ، وَأَشَاحَ بِبَصَرِهِ عَنْ غَيْرِهَا، وَأَبَى إِلَّا التَّعَصُّبَ لَتَقَالِيدِ سَيِّئَاتٍ لَيْسَتْ مِنَ الدِّينِ فِي شَيْءٍ، فَهَاجَمْتَهُ وَقَسَوْتُ، لِأَنَّ التَّعَصُّبَ يَخْجِبُ الْحَقَّ عَنِ الْأَبْصَارِ، وَيُلْقِي سِتَارًا كَثِيفًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ يُنْشِدُهُ. وَخَلَقَ لِي هَذَا الْمَوْقِفَ الْمُحَايِدَ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ أَعْدَاءُ مِنْ كُلِّ مِنْهُمَا، وَقَالُوا مَا شَاءَ لَهُمُ الْهَوَى وَالْجَهْلُ، فَأَنْصَرَفْتُ عَنْ لَفْظِهِمْ، وَأَقْبَلْتُ عَلَى الْعَمَلِ مُنْقَطِعًا إِلَيْهِ مُعْظَمًا بِحِكْمَةِ الْإِمَامِ عَلِيِّ عليه السلام: «الْعِلْمُ مَقْرُونٌ بِالْعَمَلِ، فَمَنْ عِلِمَ عَمِلَ، وَالْعِلْمُ يَهْتِفُ بِالْعَمَلِ، فَإِنْ أَجَابَهُ وَإِلَّا أَرْتَحَلَ عَنْهُ» ^(١). وَقَوْلُهُ عليه السلام: «لَيْسَ بِعَاقِلٍ مَنْ أَنْزَعَ بِقَوْلِ الزُّورِ فِيهِ، وَلَا بِحَكِيمٍ مَنْ رَضِيَ بِنِشَاءِ الْجَاهِلِ عَلَيْهِ» ^(٢). وَصَدَقَ الرَّسُولُ الْأَعْظَمُ حَيْثُ قَالَ: «أَعْمَلُوا كُلُّ مَيْسَرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ» ^(٣).

إِنِّي أَتَعَصَّبُ لِلْجَوْهَرِ، وَأَتَسَامَعُ فِي الْعَرَضِ، وَأَجْمَعُ بَيْنَ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: «وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمِعْتُكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ» ^(٤). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَعَرِثَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَرَ بِهِمْ أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا

(١) أنظر، نهج التبليغ: الحِكْمَةُ (٣٦٥).

(٢) أنظر، الكافي: ٥٨/١ ح ١٤، تحف العقول: ٢٠٨.

(٣) أنظر، صحيح البخاري: ٨٦/٦، صحيح مسلم: ٤٧/٨، صحيح ابن مساجه: ٣٠/١، صحيح الترمذي: ٢٢١٩/٩، مُسْتَدْرَأُ أَحْمَد: ٦/١ و ٨٢، سُنَنُ أَبِي دَاوُدَ: ٤١٥/٢.

(٤) أَخْبَرَهُ: ٧٨.

شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ»^(١). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ»^(٢).

قَالَ لِي بَعْضُ الطَّبِيبِينَ مِنَ الْأَصْدِقَاءِ^(٣): مَا بَالُكَ تَجُمَدُ فِي مَوْرِدٍ وَاقِفًا عِنْدَ النَّصِّ الْحَرَفِيِّ، وَتَنْطَلِقُ مَعَ رُوحِ النَّصِّ فِي مَوْرِدٍ آخَرَ؟ فَإِنَّمَا أَنْ تَبْقَى سَائِرًا، وَإِنَّمَا أَنْ تَظَلَّ وَاقِفًا.

قُلْتُ: لَوْ تَرَكْتُ لِي الْخِيَارَ لَفَعَلْتُ، وَلَكِنِّي عَبْدٌ مَأْمُورٌ، أَقِفْ حَيْثُ يَنْهَانِي الدِّينُ عَنِ الْمَسِيرِ، وَيَسِدْ فِي وَجْهِهِ جَمِيعُ الْمَنَافِذِ، وَأَسِيرْ حَيْثُ أَجِدُ طَرِيقَةَ رَحْبًا فَسِيحًا^(٤).

وَالآنَ، وَفِي هَذَا الْكِتَابِ قَدْ أَخَذْتُ عَلَى نَفْسِي أَنْ أَتَقَيَّدَ بِحُكْمِ الْعَقْلِ لَا رَائِدَ

(١) الْأَنْعَامُ: ٧٠.

(٢) أَلْبَيْتَةُ: ٥.

(٣) هُمَا الْأَخُ الْعَلَامَةُ الشَّيْخُ عَبْدُ اللَّهِ نِعْمَةً، وَالْأَخُ الْمُجَاهِدُ صَاحِبُ الْعِرْقَانِ الشَّيْخُ عَارِفُ الرَّيْنِ. (مِنْهُ ﷺ).

(٤) يُقَالُ الْجُمُودُ عَلَى النَّصِّ مَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ الْمُسَافِرَ إِذَا قَطَعَ ثَمَانِيَةَ فَرَسَاحٍ يَقْصُرُ وَيَنْفَطِرُ، يَمُحُّ هَذَا الْحُكْمُ كُلُّ مُسَافِرٍ، سِوَاهُ أَتَافِرٍ طَائِرًا أَوْ مَشِيًّا عَلَى الْأَقْدَامِ، وَسِوَاهُ أَكَّانٍ فِي سَفَرِهِ حَرَجَ أَمْ فَرَجَ، لِأَنَّ الشَّارِعَ أَطْلَقَ وَلَمْ يَقَيِّدِ الْحُكْمَ، وَلَوْ أَرَادَ الْقَصْرَ وَالْإِفْطَارَ فِي حَالِ دُونَ حَالِ لَبِيبٍ، وَحَيْثُ لَمْ يُبَيِّنْ تَحْتَمُّ الشُّمُولِ جَمِيعِ الْحَالَاتِ. أَمَّا يُقَالُ التَّجَاوَزُ إِلَى رُوحِ النَّصِّ فَكَأَلْحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي بَذْلِ الْمَاءِ وَفَضْلِهِ، وَأَنَّ مَنْ شَقَى ظِمَانًا فَلَهُ مِنَ الْأَجْرِ مَا يَفُوقُ الْحَصْرَ، فَإِنَّ مَوْرِدَ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ حَيْثُ يَغْزِي الْمَاءُ وَيَنْدُرُ، كَمَا فِي الْحَالِ فِي عَهْدِ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ، وَيَنْوَعُ خَاصٌّ فِي الصَّحْرَاءِ إِذْ يَكُونُ الْمَاءُ أُنْذَرًا مِنَ الْكِبَرِيَّةِ الْأَحْمَرِ. أَمَّا فِي الْبِلَادِ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا كَالشَّرَابِ وَالْهَوَاءِ فَلَا نَوَابَ إِلَّا بِمَقْدَارِ مَا يَعُودُ النَّفْعُ وَسَدِّ الْخِلَّةِ. (مِنْهُ ﷺ).

لِي سِوَاهُ، فَاسْمُهُ «اللهُ وَالْعَقْلُ» وَسَأَحَاوَلُ أَنْ لَا أُحِيدَ قَيْدَ شَعْرَةٍ عَمَّا يَدِلُّ عَلَيْهِ اللَّفْظُ، وَمَا أَحْوجُنَا الْيَوْمَ إِلَى مُعَالَجَةِ هَذَا الْمَوْضُوعِ الْهَامِ حَيْثُ طَفَنِي تَيَّارُ الْإِلْحَادِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَتَفَشَّى رُوحُهُ فِي كُلِّ قَطْرٍ. فَهَذَا شَابٌ مَضْرِي وَضَعَ كِتَابًا أَسَمَاهُ «اللهُ وَالْإِنْسَانُ» يُنْكِرُ فِيهِ وُجُودَ الْخَالِقِ، وَيَقُولُ:

«اللهُ فِي الْعِلْمِ الْحَدِيثِ مَعْنَاهُ الطَّاقَةُ الْخَامُ الَّتِي فِي دَاخِلِنَا، وَالْحَرَكَةُ الَّتِي كَشَفَهَا الْعِلْمُ فِي الذَّرَّةِ، وَالْمَعْبَدُ بَرْلَمَانُ حَرٍّ وَمَدْرَسَةُ عَصْرِيَّةٍ، وَالصَّلَاةُ هِيَ الطَّعَامُ الْجَيِّدُ، وَالْكِسَاءُ الْجَيِّدُ، وَالْمَسْكَنُ الْجَيِّدُ»^(١).

وَمَضْرِي آخِرُ أَلْفِ كِتَابًا دَعَاهُ «الدِّينُ وَالضَّمِيرُ»، وَهُوَ أَكْبَرُ حَجَمًا وَأَكْثَرُ لَوْمًا، رَأَى هَذَا الْمُؤَلِّفُ أَنْ لَا سَبِيلَ إِلَى انْكَارِ الْخَالِقِ، فَأَعْتَرَفَ بِهِ وَلَكِنْ جَعَلَهُ وَجُودِيًّا قَال:

«إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ جَنَّتَهُ الطَّيِّبَ الرَّشِيدَ وَإِنْ لَمْ يُوَدِّ صَلَاةً وَاحِدَةً، وَلَمْ يَفْعَلْ حَسَنَةً قَطْرًا. وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ. وَإِنَّ الدَّعْوَةَ إِلَى الدِّينِ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَنْبِتَ مِنَ الْأَرْضِ، وَلَيْسَ لَزَامًا أَنْ تَتَّصِلَ إِلَى السَّمَاءِ بِوَحْيٍ وَلَا سَبَبٍ»^(٢).

وَقَدْ رَدَدْتُ عَلَى الْأَوَّلِ فِي صُحُفِ بَيْرُوتِ وَالْقَاهِرَةِ، ثُمَّ أَدْرَجْتُ الرَّدَّ فِي كِتَابِ «الْإِسْلَامَ مَعَ الْحَيَاةِ»، وَرَدَدْتُ عَلَى الثَّانِي فِي جَرِيدَةِ التَّلْغَرافِ تَأْرِيخَ

(١) أنظر، كتاب «اللهُ وَالْإِنْسَانُ» لمُصْطَفَى مُحَمَّدٍ: ٢٤ و ١١١ الطَّبعةُ الأولى سَنَةِ (١٩٥٧م). (مِنْهُ ﷺ).

(٢) كتاب «الدِّينُ وَالضَّمِيرُ» لِمُحَمَّدِ الشَّرْقَاوِي: ٤١ و ٨٥ و ٩٨ و ١٠٠ الطَّبعةُ الأولى سَنَةِ (١٩٥٨م). وَنُشِرَتْ جَرِيدَةُ الْجُمْهُورِيَّةِ فِي عَدَدٍ: (٢ / كَانُونُ الثَّانِي / ١٩٥٩م) مَقَالًا لِلْأَسَازِ عَبْدِ الصُّنْعَمِ التُّرَيْدِ فِيهِ عَلَى الْمُؤَلِّفِ وَقَدْ جَاءَ فِيهِ: «أَنَّ الشَّرْقَاوِي هَذَا عَالِمٌ وَكَاتِبٌ مُجِيدٌ أَشْتَمَلُ بِالصَّحَافَةِ مُدَّةَ حَتَّى اسْتَقَرَّ بِهِ الْمَطَافُ بِالْأَزْهَرِ». قَالَ كَاتِبُ الْمَقَالِ: «عَلِمْتُ أَنَّ وَزَارَةَ الْأَوْقَافِ قَدْ أَشْتَرَتْ مِنَ الْكِتَابِ كَثِيرًا، وَالْمَعْرُوضُ أَنَّهَا لَا تَشْتَرِي كِتَابًا وَتُشْجَعُهُ. وَفِيهِ هَذِهِ الْمَأْخُذُ الدِّينِيَّةُ الْكَبِيرَةُ». (مِنْهُ ﷺ).

(٦/٤/١٩٥٩ م). وسأعرض لأقواله مفصلاً في كتاب «النُّبوة والعقل».

أما الباعث على وضع هذه الصفحات، وفكرة العودة إلى مصطفى محمود فحديث جرى بيني وبين صديق طيب، قال في مجرى الحديث عن كتاب «الله والإنسان». أمثل هذا الكتاب يكتفي بالرد عليه في مقال يُقرأ ثم ينسى ويُهمل؟! وبقيت هذه الكلمة تتردد في نفسي، حتى لاحظت أن الكثير ممن قرأ الرد لم يقرأ الكتا، وأن أكثر الذين قرأوا الكتاب لم يصلهم ردي عليه، لأن مصطفى محمود نشر فصول الكتاب عمّا وراء الطبيعة في مقالات متسلسلة بمجلة «روز اليوسف» التي أضلت الناشئة، وهي - في الغالب - لا تنشر إلا لمصطفى محمود وأمثاله من الذين يروجون للفساد والإلحاد، وهذا القول رددته أمامي أكثر من مرة عدد من المصريين، وفيهم الأجلاء من شيوخ الأزهر الذين أغضبهم سلوك هذه الصحيفة، وبالرغم من مصادرة الحكومة المصرية هذا الكتاب فقد تسرب الكثير من نسخته إلى مصر وبعض البلاد العربية.

ولمصطفى محمود مكانة يعبط عليها بين الشباب والطلاب، فقد رأيتهم يقبلون على كلماته في شوق، ويلتهمونها في لهفة، ويتحدثون عنها بثقة وإيمان كأنها وحي. أما سر هذا الإقبال فأسلوبه الساحر، ومقدرته الفائقة على إغراء المراهقين والتلاعب بعقولهم بالحن لا شيء وراءها سوى أنغام لا تعبر عن معنى سليم.

لذا رأيت من الأفضل أن أصع كتاباً مستقلاً يكون في متناول الجميع، وقد تعرضت فيه للقسم الذي خصصه المؤلف للكلام عن الله سبحانه، وعالم ما بعد الموت. وهدفي الأول أن أبين لمن يثق به وبآرائه أنه غير جدير بهذه الثقة فيما

يَخْتَصُّ بِمَا وَرَاءَ الطَّبِيعَةِ ، لِأَنَّ فَلْسَفَتَهُ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ بِالذَّاتِ وَهُمْ وَخَيَالٌ لَا تَقُومُ عَلَى أَسَاسٍ مِنَ الْوَاقِعِ .

وَنَحْنُ رَجَالُ الدِّينِ ، وَإِنْ حَزَّ الْأَلَمُ قُلُوبَنَا مِنْ هَذَا التَّيَّارِ الْفَاسِدِ الْمُلْحِدِ فَإِنَّا بِحَمْدِ اللَّهِ نَمْلِكُ مِنَ الْحُجَجِ مَا نَذُودُ بِهِ عَنْ عَقِيدَتِنَا ، وَلَا نَطْلُبُ مِمَّنْ يُلْحِدُ وَيُشَكِّكُ إِلَّا أَنْ يَسْتَمَعَ لِمَا نَقُولُ ، وَيَنْظُرَ فِيمَا نَسْتَدِلُّ بِسَلَامَةٍ فِي الْعَقْلِ ، وَتَجَرَّدَ عَنِ الْهَوَى ، ثُمَّ نَدْعُمَهُ إِلَى إِحْسَاسِهِ وَسُجُورِهِ يَتَّخِذُ مِنْهُ رَسُولًا أَمِينًا وَرَائِدًا حَكِيمًا .

أَمَّا مَنْ يَتَكَلَّمُ وَيُجَادِلُ لَأَشْيَاءٍ إِلَّا لِلتَّلْهِيِ وَسَدِّ الْفِرَاقِ ، أَوْ إِظْهَارِ شَخْصِهِ وَفَهْمِهِ ، كَأَكْثَرِ الَّذِينَ يَتَكَلَّمُونَ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ - أَمَّا هَذَا فَيَشِقُ مَعَهُ التَّفَاهُـمُ وَيَعْتَسِرُ ، إِنْ لَمْ يَكُنْ مُحَالًا ، وَمِنْ هُنَا أَتَسَعَّتْ مَسَافَةُ الْخِلَافِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْكَثِيرِينَ مِنَ الشَّبَابِ .

نَحْنُ لَا نُحَرِّمُ الْكَلَامَ عَلَى إِنْسَانٍ ، وَلَا نَفْرُضُ عَلَيْهِ أَقْوَالَنَا فَرَضًا ، غَيْرَ أَنَّنَا لَا نُحَرِّمُ مَنْ يَرْسِلُ نَفْسَهُ مَعَ الظُّنَّةِ وَالتُّهْمَةِ ، وَيَجْزِمُ بِاللَّمْحَةِ وَالشُّبْهَةِ ، وَيَسْتَجَاهِلُ الْحَقَائِقَ الَّتِي آمَنَ بِهَا مِنْ خَلْقُوا الْحَضَارَاتِ ، وَغَيْرُوا وَجْهَ التَّأْرِيخِ ، وَأَخْرَجُوا الْأُمَمَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .

نَحْنُ لَا نَفْرُضُ عَلَى أَحَدٍ الْإِيْمَانَ بِآرَاءِ الْأَلُوفِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْعُلَمَاءِ وَالْفَلَسَفَةِ وَالْمُصْلِحِينَ ، وَإِنَّمَا نَطْلُبُ إِلَيْهِ أَنْ يَقْرَأَ مَا قَالُوا ، وَمَا قِيلَ عَنْهُمْ قَبْلَ أَنْ يَتَّهَمُهُمْ فِي عَقُولِهِمْ وَعَقَائِدِهِمْ ، وَهُمْ الَّذِينَ عَلَّمُوا الْأَجْيَالَ الْبَحْثَ وَالتَّفَكِيرَ .

وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ الْمَسْئُولُ أَنْ يَجْعَلَ هَذِهِ الْأَوْرَاقَ تَبَصُّرَةً لِلْمُشَكِّكِينَ ، وَقُوَّةً فِي يَدِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنِّي تَقَرَّبْتُ بِهَا إِلَيْهِ رَغْبَةً فِي مَرْضَاتِهِ يَوْمَ أَلْقَاهُ أَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

سَبَبُ الْمَعْرِفَةِ

تَرْتَسِمُ فِي أَذْهَانِنَا صُورٌ عَنْ أَشْيَاءِ هَذِهِ الطَّبِيعَةِ مِنَ الْمَادَّةِ الْجَامِدةِ أَوْ الْحَيَّةِ ، كَتَصَوُّرِنَا بِأَنَّ الْأَرْضَ كُرَوِيَّةٌ مُتَحَرِّكَةٌ وَأَنَّ الْمَاءَ يُغْطِي ثَلَاثَةَ أَرْبَاعِهَا . وَتَرْتَسِمُ أَيْضًا فِي أَذْهَانِنَا صُورٌ عَنْ أَشْيَاءٍ غَيْرِ مَادِّيَّةٍ ، لَا تَمُتُ إِلَى هَذِهِ الطَّبِيعَةِ بِسَبَبٍ ، كَتَصَوُّرِنَا وَجُودَ قُوَّةٍ تَكْمُنُ وَرَاءَ هَذَا الْكَوْنِ ، وَهِيَ الَّتِي تُدِيرُهُ وَتُدَبِّرُهُ . وَقَدْ تَأْتِي هَذِهِ الصُّورُ مِنَ الْإِلَهَامِ وَالتَّخْيِيلِ ، أَوْ التَّقْلِيدِ وَالْمُحَاكَمَةِ وَالْمُحَاكَاةِ ، أَوْ النُّقْلِ وَالسَّمَاعِ ، أَوْ الْإِسْتِنَاجَاتِ الْعَقْلِيَّةِ ، أَوْ التَّجَرُّبَةِ الشَّخْصِيَّةِ وَالْمُشَاهَدَةِ الْحِسِّيَّةِ . فَهَلْ هَذِهِ التَّصَوُّرَاتُ بِكَامِلِهَا عِلْمٌ وَحَقَائِقُ ، أَوْ جَهْلٌ وَأَوْهَامٌ ، أَوْ أَنَّ بَعْضَهَا حَقٌّ ، وَبَعْضُهَا الْآخَرُ بَاطِلٌ ؟

الْحَوَاسِ الْخَمْسُ :

ذَهَبَ فَرِيقٌ مِنَ الْفَلَّاسِفَةِ إِلَى أَنَّ كُلَّ صُورَةٍ تَرْتَسِمُ فِي ذِهْنِكَ لَا تَكُونُ عِلْمًا صَاحِبِيًّا وَمَعْرِفَةً حَقَّةً إِلَّا إِذَا أَتَتْ عَنْ طَرِيقِ الْحَوَاسِ الْخَمْسِ : (الْبَصَرُ ، وَالسَّمْعُ ، وَالشَّمُّ ، وَاللَّمْسُ ، وَالذَّوْقُ) ، فَمَا تَذُوقُهُ أَوْ تَلْمَسُهُ أَوْ تَشْمُهُ أَوْ تَسْمَعُهُ أَوْ تَرَاهُ تَحْكِمُ بَأَنَّهُ مَوْجُودٌ وَحَقِيقَةٌ وَاقِعَةٌ ، وَمَا عَدَا ذَلِكَ يَجِبُ أَنْ تَقِفَ مِنْهُ مَوْقِفًا سَلْبِيًّا . وَلَكِنِ الْحَوَاسِ كَثِيرٌ مَا تَخْدَعُنَا ، فَالنَّسِيجُ الَّذِي تَشْتَرِيهِ تَرَى لَوْنَهُ فِي الدُّكَّانِ

غَيْرَ لَوْنِهِ فِي ضَوْءِ الشَّمْسِ وَالْهَوَاءِ الطَّلَقِ، وَهَذِهِ الْمِنْضَدَةُ تَبْدُو لَكَ مُسْتَدِيرَةً، وَأَنْتَ قَرِيبٌ مِنْهَا، وَلَا تَبْدُو كَذَلِكَ إِذَا أَبْتَعَدْتَ عَنْهَا، وَهَذِهِ الْمَرْأَةُ جَمِيلَةٌ فِي نَظْرِكَ، قَبِيحَةٌ فِي نَظَرِ مَنْ تُنَافِسُهَا وَتُزَاحِمُهَا، وَهَذَا الطَّعَامُ تَسْتَطِيبُهُ، وَأَنْتَ جَانِعٌ، وَلَا تَسْتَطِيبُهُ وَأَنْتَ شَبَعَانٌ، وَكَذَلِكَ الْحَالُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الرَّائِحَةِ وَالسَّمْعِ يَخْتَلِفَانِ بِإِخْتِلَافِ الْأَشْخَاصِ، وَكَذَلِكَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْحَرَارَةِ وَالْبُرُودَةِ: ضَعِ إِحْدَى يَدَيْكَ فِي مَاءٍ حَارٍّ، وَالْأُخْرَى فِي مَاءٍ بَارِدٍ، ثُمَّ ضَعُوهُمَا بَعْدَ ذَلِكَ، فِي مَاءٍ فَاتِرٍ، فَيَبْدُو هَذَا الْمَاءُ بَارِدًا بِالنِّسْبَةِ لِإِحْدَى يَدَيْكَ، وَحَارًّا بِالنِّسْبَةِ لِلْأُخْرَى. إِنَّ الْمَعَانِي وَالْحَقَائِقَ أَكْثَرَ مِمَّا يُرَى وَيُسْمَعُ وَمِمَّا يُوكَّلُ وَيُشَمُّ وَيُلْمَسُ. فَكَمَا نَعْرِفُ كَثِيرًا مِنَ الْأُمُورِ بِوَسْطَةِ الْحَوَاسِ مَعْرِفَةً مُبَاشِرَةً كَذَلِكَ نَتَوَصَّلُ إِلَى مَعْرِفَةِ أُمُورٍ أُخْرَى بِصُورَةٍ غَيْرِ مُبَاشِرَةٍ عَنْ طَرِيقِ الْإِسْتِنَاجِ. قَالَ إِفْلَاطُونُ: إِذَا كَانَتِ الْحَقِيقَةُ لَا تَثْبُتُ إِلَّا بِالْحَوَاسِ الظَّاهِرِ فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْقَرْدُ وَالْفِيلُ سَوَاءً بِسَوَاءٍ! لِأَنَّهُمَا يَشْتَرِكَانِ فِي هَذِهِ الْإِحْسَاسَاتِ.

المُلاحَظَةُ وَالتَّجَرِبَةُ:

وَقَالَ آخَرُونَ: أَنَّ أَسْبَابَ الْمَعْرِفَةِ وَالْكَشْفِ عَنِ الْحَقِيقَةِ لَا تَنْحَصِرُ بِهَذِهِ الْحَوَاسِ الْخَمْسِ، بَلْ تَشْمَلُ الْمُلَاحَظَةَ وَالتَّجَرِبَةَ، وَالْمُرَادُ بِالْمُلَاحَظَةِ مُشَاهَدَةُ الْأَشْيَاءِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ فِي الطَّبِيعَةِ، كَمُلَاحَظَةِ النُّجُومِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْأَجْرَامِ السَّمَاوِيَّةِ دُونَ أَنْ تَمْسُهَا يَدُ التَّجَرِبَةِ، أَمَّا التَّجَرِبَةُ فَهِيَ مُشَاهَدَةُ الْأَشْيَاءِ فِي ظُرُوفٍ خَاصَّةٍ يُمَيِّنُهَا الْعَالِمُ، وَيَتَصَرَّفُ بِهَا حَسَبَ إِرَادَتِهِ، وَيُرْتَبِهَا بِآلَاتِهِ الْعِلْمِيَّةِ الدَّقِيقَةِ. وَكُلُّ تَجَرِبَةٍ تَسْتَتِيعُ الْمُلَاحَظَةَ، وَلَا عَكْسَ. وَعَلَيْهِ فَمَا يُمكنُ اسْتِخْدَامُ التَّجَرِبَةِ

وَالْمُلَاحَظَةُ فِيهِ فَهُوَ مَوْجُودٌ، وَمَا يَخْرُجُ عَنْ هَذِهِ الدَّائِرَةِ فَلَا وَجُودَ لَهُ. وَهَذَا الْقَوْلُ قَرِيبٌ مِنْ سَابِقِهِ غَيْرَ أَنَّهُ أَعَمُّ وَأَوْسَعُ، لِأَنَّهُ يَشْمَلُ الْأَشْيَاءَ الَّتِي لَا تُرَى وَلَا تَلْمَسُ، كَالْأَلَكْتُرُونَ وَمَكْرُوبِ السَّرْطَانِ وَمَا إِلَيْهِ.

وَالنَّيْجَةُ الْحَتْمِيَّةُ لِهَذَا الْقَوْلِ أَنَّ الْأُلُوهِيَّةَ، وَمَا يَتَّصِلُ بِهَا مِنْ إِرْسَالِ الرُّسُلِ وَإِنْزَالِ الْكُتُبِ وَالتَّبْعِ وَالتَّنْشِإِ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ لَا تُعْبَرُ عَنْ حَقِيقَةٍ، لِأَنَّ كُلَّ مَا وَرَاءَ التَّجَرِبَةِ وَالْمُلَاحَظَةِ لَا وَجُودَ لَهُ، وَإِنَّ الْأَقْيَسَةَ الْمُنْطَقِيَّةَ وَالْإِسْتِنْتَاجَاتِ الْعَقْلِيَّةِ تَرْكِيبُ أَلْفَاظٍ، وَصُورَ خَيَالِيَّةٍ لَا يَرْبِطُهَا بِالْوَقَاعِ أَيُّ رَابِطٍ. وَيَرِدُ هَذَا الْقَوْلُ:

أَوَّلًا: أَنَّ التَّجَرِبَةَ تَخْتَصُّ بِحَادِثَةٍ جُزْئِيَّةٍ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ تُثَبَّتَ بِهَا قَاعِدَةٌ كَلِمِيَّةٌ عَامَّةٌ، هَذَا مُضَافًا إِلَى أَنَّهَا لَنْ تَكُونَ حَقِيقَةً مِثْلَ بِالْمِثَّةِ، فَقَدْ يَجْزِمُ الْعَالِمُ بِحَقِيقَةِ مَا عَنْ طَرِيقِ التَّجَرِبَةِ، ثُمَّ تَظْهَرُ لَهُ حَادِثَةٌ أُخْرَى يُسْتَكْشَفُ مِنْهَا أَنَّ التَّجَرِبَةَ الْأُولَى كَانَتْ خَاطِئَةً وَغَيْرَ صَالِحَةٍ لِتَفْسِيرِ مَا كَانَ يُفْسَرُهُ بِهَا مِنَ الْحَوَادِثِ. فَهَذَا إِنْشِئَتَيْنِ زَعَمَ: «أَنَّ أَقْصَرَ الْخُطُوطِ هُوَ الْخَطُّ الْمُنْحَنِي، وَأَنَّ الضُّوءَ يَسِيرُ عَلَى خَطِّ مُسْتَقِيمٍ، ثُمَّ اتَّفَقَ أَنْ رُصِدَ ثَانِيَةً بِأَلَاتٍ أَحَدَثَ وَاتَّقَنَ فَتَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ أَقْصَرَ الْخُطُوطِ الْخَطُّ الْمُسْتَقِيمُ، وَأَنَّ الضُّوءَ يَسِيرُ عَلَيْهِ لَا عَلَى خَطِّ مُنْحَنِي».

ثَانِيًا: لَيْسَ مِنْ شَكٍّ أَنَّ لِلتَّجَرِبَةِ مَزَايَا لَا تَوْجَدُ فِي غَيْرِهَا، وَأَنَّهُ كَانَ لَهَا وَمَا زَالَ الْفَضْلُ الْأَوَّلُ فِي تَقَدُّمِ الْعُلُومِ، وَلَكِنْ لَيْسَ مَعْنَى هَذَا أَنَّ التَّجَرِبَةَ هِيَ كُلُّ الْمَعْرِفَةِ، وَأَنَّ غَيْرَهَا لَيْسَ بِشَيْءٍ لِأَنَّ الْعَالِمَ لَا يُمْكِنُهُ إِجْرَاءُ تَجَارِبِهِ فِي جَمِيعِ الْمَوْضُوعَاتِ الَّتِي تُعْرَضُ لَهُ، طَبِيعِيَّةً كَانَتْ أَوْ غَيْرَ طَبِيعِيَّةٍ، فَقَدْ يُعْتَمَدُ عَلَى الْمُلَاحَظَةِ وَحَدِّهَا، كَمَا هِيَ الْحَالُ فِي عِلْمِ الْفَلَكِ، وَعِلْمِ الْحَيَاةِ، حَيْثُ لَا يَسْتَطِيعُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَجْرِيَ

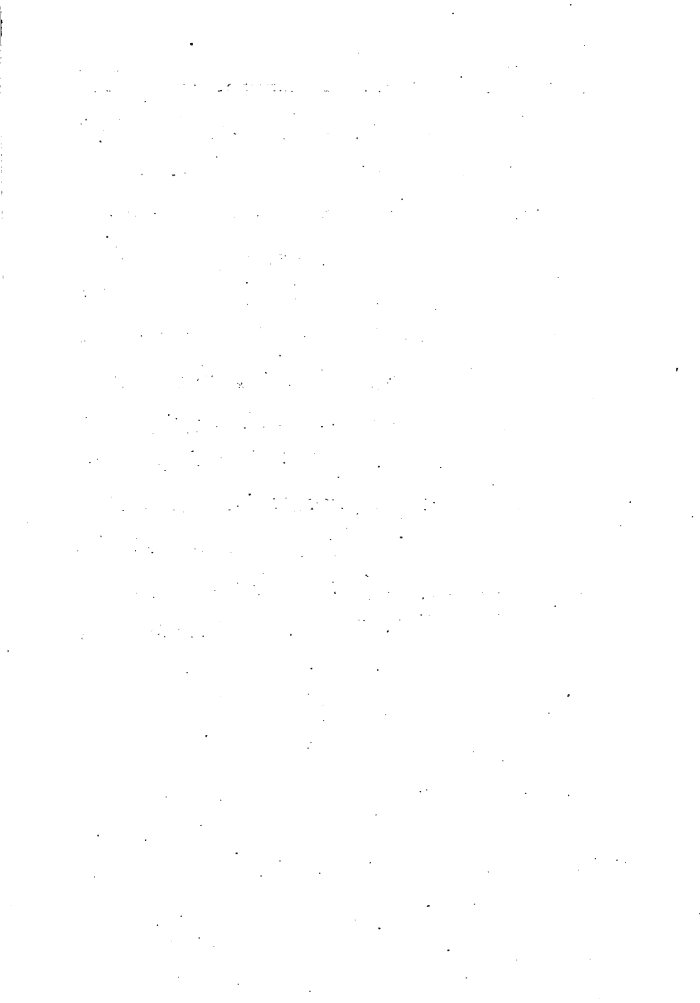
أَيَّةُ تَجَرِبَةٍ عَلَى حَرَكَاتِ الْأَفْلاكِ، كَمَا أَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَخْلُقَ الْحَيَاةَ، أَوْ يُعِيدَهَا بَعْدَ الْمَوْتِ. لَذَا يُقْتَصَرُ فِي عِلْمِ الْفَلَكِ وَعِلْمِ الْحَيَاةِ عَلَى الْمُشَاهَدَةِ وَالْمُلَاحَظَةِ فَقَطْ، كَمَا هِيَ الْحَالُ فِي الْأُمُورِ الْعَقْلِيَّةِ الْمُجَرَّدَةِ عَنِ الْمَادَّةِ وَالْعَالَمِ الْمَحْسُوسِ، حَيْثُ لَا مَجَالَ لِلتَّجَرِبَةِ وَلَا لِلْمُشَاهَدَةِ وَلَا أَيُّ شَيْءٍ سِوَى الْعَقْلِ وَمَنْطَقَةِ السَّلِيمِ وَأَسْتَنْتَاجَاتِهِ الصَّحِيحَةِ، وَإِنَّمَا تَصَحُّ وَتُصَدِّقُ هَذِهِ الْإِسْتَنْتَاجَاتُ إِذَا كَانَتْ مُقَدِّمَاتِهَا صَادِقَةً لَمْ يُكْذِبْهَا الْعَيَانُ وَالتَّجَرِبَةُ وَلَا تَسْتَلْزِمُ شَيْئاً مِنَ الْمُحَالَاتِ الْعَقْلِيَّةِ.

وَلَوْ أَسْقَطْنَا الْعَقْلَ عَنِ الْإِعْتِبَارِ فَهَلْ يَطْبِقُ الْإِنْسَانُ عَلَى إِنْسَانِيَّتِهِ؟! وَبِمَاذَا نُمَيِّزُهُ عَنِ الْحَيَوَانَاتِ وَالْحَشَرَاتِ، وَنَعْرِفُ الصَّحِيحَ مِنَ الْفَاسِدِ، وَالْخَيْرَ مِنَ الشَّرِّ، وَالْجَمَالَ مِنَ الْقُبْحِ؟! بَلْ وَكَيْفَ نُشَاهِدُ نُجُوبَ، ثُمَّ نَنْفِي أَوْ نُثَبِّتُ صِدْقَ التَّجَرِبَةِ إِذَا طَرَحْنَا الْعَقْلَ جَانِباً؟! وَإِذَا تَنَازَلَ غَيْرُنَا عَنْ عَقْلِهِ فَرَاراً مِنَ الْإِيمَانِ بِمَا وَرَاءَ الطَّبِيعَةِ فَتَنْحُنُ غَيْرُ مُسْتَعِدِينَ لِمِثْلِ هَذَا التَّنَازُلِ مَهْمَا كَانَتْ الْحَالُ، بَلْ نَعْتَمِدُ عَلَى خِبْرَةِ الْعَقْلِ تَمَاماً كَمَا نَعْتَمِدُ عَلَى خِبْرَةِ التَّجَرِبِ وَالْمُشَاهَدَةِ، وَلَا نَرَى أَيَّ فَرْقٍ بَيْنَ الْإِثْنَيْنِ سِوَى أَنَّ خِبْرَةَ التَّجَرِبِ عَمَلِيَّةٌ تَطْبِيقِيَّةٌ، وَخِبْرَةُ الْإِسْتَنْتَاجِ عَمَلِيَّةٌ عَقْلِيَّةٌ لَا يُمَكِّنُ فِيهَا التَّطْبِيقَ الْخَارِجِي، أَيُّ أَنَّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا تَصَدِّقُ فِي مَجَالِهَا الْخَاصِّ، فَالْتَّصَوُّرَاتُ الَّتِي تَرْتَسِمُ فِي الذَّهْنِ عَنِ الطَّبِيعَةِ تَكُونُ صَادِقَةً إِذَا كَانَتْ أَنْعَكَاساً عَنِ الوجودِ الْخَارِجِيِّ الْمَلُوسِ، أَمَّا تَصَوُّرَاتُنَا عَنْ مَا وَرَاءَ الطَّبِيعَةِ فَتَصَدِّقُ إِذَا أَقْرَبَهَا وَأَثْبَتَهَا الْعَقْلُ. وَإِنَّ مَوَازِينَ الْحَقِيقَةِ وَشَوَاهِدَ الْمَعْرِفَةِ تَخْتَلِفُ بِإِخْتِلَافِ أَسْبَابِهَا، فَكَمَا أَنَّنَا لَا تَعْلَمُ الْإِنْجِلِيزِيَّةُ بِالْعَرَبِيَّةِ - مَثَلًا - كَذَلِكَ لَا نَسْتَدِلُّ عَلَى كَذِبِ غَيْرِ الْمَرْتَبَاتِ بَعْدَمِ مُطَابَقَتِهَا لِلْمَرْتَبَاتِ.

وَمَرَّةً ثَانِيَةً نُكْرِرُ الْقَوْلَ وَنُؤَكِّدُهُ بِأَنَّهُ لَا مَفَرَّ مِنْ تَفْسِيرَاتِ الْعَقْلِ وَالتَّزَامَاتِهِ بِصِدْقِ هَذِهِ الْفِكْرَةِ أَوْ كَذِبِهَا. وَلَا نَعْرِفُ قَوْلًا بَلَغَ مِنَ الْعَبَثِ وَاللَّغْوِ مَا بَلَغَهُ الْقَوْلُ بِطَرَحِ الْعَقْلِ وَعَدَمِ الثِّقَةِ بِهِ، وَمَا أَبْعَدَ مَا يَبِينُ هَذَا الرَّأْيَ، وَيَبِينُ رَأْيِي مَنْ قَالَ بَأَنَّ الْمَوْجُودَ هُوَ الْمَدْرَكُ بِالْعَقْلِ فَقَطَّ، وَكُلُّ مَا لَا يُدْرِكُهُ الْعَقْلُ لَا وَجُودَ لَهُ.

وَبَعْدَ أَنْ تَبَيَّنَ مَعْنَا أَنْ مَا يَرْجِعُ إِلَى مَا وَرَاءَ الطَّبِيعَةِ هُوَ مِنْ شُؤْنِ الْعَقْلِ وَحْدَهُ يَتَجَهَّ هَذَا السُّؤَالُ: هَلْ فِي أدَلَّةِ الْعَقْلِ مَا يُلْزِمُ بوجُوبِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ؟ وَفِي حَالَةِ قِيَامِ الدَّلِيلِ عَلَى ذَلِكَ فَهَلْ مُؤَدَّاهُ أَنَّ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ مَطْلُوبٌ لِدَاثَةِ كَعَايَةِ، أَوْ مَطْلُوبٌ كَوَسِيلَةٍ إِلَى التَّرْغِيبِ فِي الْخَيْرِ، وَالتَّخْوِيفِ مِنَ الشَّرِّ، بِحَيْثُ لَوْ أَمَكَّنَ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ قَوِيمَ الْأَخْلَاقِ دُونَ هَذَا الْإِيمَانِ لَكَانَ فِي حِلٍّ مِنْهُ؟.

وَسَبَّجِدُ الْقَارِيءِ الْجَوَابَ مُفَضَّلًا عَنْ هَذَا التَّسَاوُلِ فِي الصَّفَحَاتِ التَّالِيَةِ، وَسَتُعْطِيهِ صُورَةٌ صَادِقَةٌ عَنْ أَنَّ رِجَالَ الدِّينِ، وَكُلَّ عَالَمٍ آمَنَ بِاللَّهِ لَا يَغْتَمِدُونَ فِي إِيْمَانِهِمْ عَلَى الْوَرَاثَةِ وَالتَّلْقِينِ، بَلْ وَلَا عَلَى الْوَحْيِ مُسْتَقْلًا عَنْ حُكْمِ الْعَقْلِ، إِنَّمَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ كَعُقْلَاءَ لَا كَمُتَدِينِينَ فَحَسَبَ.



أَسْأَلُوا أَهْلَ الْعِلْمِ

إِنَّ لِلْكَوْنِ مَظَاهِرَ شَتَّى لَا يَجْمَعُهَا عِلْمٌ وَاحِدٌ، لِأَنَّهَا تُفُوقُ الْحَصْرَ عَدًّا بِخَاصَّةٍ فِي هَذَا الْعَصْرِ الَّذِي تَشَعَّبَتْ فِيهِ الْعُلُومُ، وَمَا زَالَتْ تَتَّسِعُ وَتَتَنَوَّعُ كُلَّمَا تَكْشَفَتْ حَقِيقَةُ مِنْ حَقَائِقِ الْكَوْنِ، وَإِذَا أَحَاطَ أَرْسَطُ بُلُغُومِ زَمَانِهِ كَافَّةً، فَيَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ لَوْ وَجَدَ الْيَوْمَ، وَعَلَى أَيِّ عَبْقَرِي سِوَاهُ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَ عُلُومِنَا كُلِّهَا أَوْ جُلِّهَا. لِذَا اضْطَرَّ الْعُلَمَاءُ إِلَى الْإِقْتِصَارِ وَالِإِخْتِصَاصِ، وَأَنْقَسَمَ الْعِلْمُ بَيْنَهُمْ، كَمَا أَنْقَسَمَ الْعَمَلُ بَيْنَ التَّاجِرِ، وَالْفَلَّاحِ، وَالْعَامِلِ. وَهَكَذَا تَقَسَّمَ الْكَوْنُ إِلَى مَنَاطِقَ، وَاكْتَفَتْ كُلُّ طَائِفَةٍ مِنَ الْبَاحِثِينَ بِمَنْطَقَةٍ وَاحِدَةٍ، كَالْأَفْلَاكِ، أَوِ الْأَشْكَالِ الْهَنْدَسِيَّةِ، أَوِ الْإِنْسَانِ أَوِ الْحَيَوَانِ أَوِ النَّبَاتِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَهَذِهِ الْعُلُومُ، وَإِنْ كَانَتْ مُتَبَايِنَةً إِلَّا أَنَّ أَتَّصَالَهَا بِكَوْنٍ وَاحِدٍ، وَأَسْتَخْدَامُهَا جَمِيعاً فِي حَيَاةٍ عَمَلِيَّةٍ وَاحِدَةٍ جَعَلَ بَيْنَهَا أَرْتِبَاطاً قَوِيّاً؛ بَحِثْ إِذَا كَشَفَ بَعْضُ الْعُلُومِ عَنْ حَقِيقَةٍ جَدِيدَةٍ أَدَّى ذَلِكَ إِلَى التَّبْدِيلِ أَوِ التَّعْدِيلِ فِي وَجْهَاتِ النَّظَرِ مِنَ الْعُلُومِ الْأُخْرَى، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ هَذَا الْإِتِّصَالِ الْوَثِيقِ بَيْنَ الْعُلُومِ فَإِنَّكَ إِذَا سَأَلْتَ أَحَدَ الْعُلَمَاءِ عَنْ مَسْأَلَةٍ لَا تَدْخُلُ فِي الْفِرْعِ الَّذِي تَخْصُصُ بِهِ يُجِيبُكَ بِأَنَّ هَذَا خَارِجٌ عَنِ دَائِرَةِ اخْتِصَاصِهِ، كَمَا لَوْ سَأَلْتَ عَالِمَ النَّبَاتِ - مَثَلًا - عَنْ أَمْرٍ يَتَعَلَّقُ بِالنَّشْرِيعِ، بَلْ لَوْ سَأَلْتَهُ مَا هِيَ الْمَادَّةُ الْمُشْرَكَةُ بَيْنَ النَّبَاتِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْمَعَادِنِ لَقَالَ

لَكَ لَا أَعْلَمُ ، وَهُوَ مُحَقٌّ لِأَنَّهُ لَا يُرِيدُ الْكَلَامَ عَنْ جَهْلٍ .

إِذَنْ مَا بَالُ بَعْضِ الشَّبَابِ مِنَ الَّذِينَ دَرَسُوا الْحَقُوقَ أَوِ الطَّبَّ أَوِ الْآدَابَ ، وَلَمْ يَدْرُسُوا فَلَسَفَةً مَا وَرَاءَ الطَّبِيعَةِ ، مَا بَالُ هَؤُلَاءِ يَقِفُونَ مَوْقِفَ الْمُتَكَبِّرِ الْمُعَانِدِ . وَيُصَدِّرُونَ أَحْكَامًا فِي أَشْيَاءَ لَا يَعْرِفُونَ مِنْهَا كَثِيرًا وَلَا قَلِيلًا ؟ ! إِنَّ مُصْطَفَى مَحْمُودَ تَخَرَّجَ مِنْ كُتَيْبَةِ الطَّبِّ ، وَلَمْ يَدْرُسِ اللَّاهُوتَ وَلَا الْفَلَسَفَةَ . وَمَعَ ذَلِكَ أَلْفَ كِتَابًا مَوْضُوعَهُ « اللهُ وَالْإِنْسَانُ » ! لَا يَا أَسْتَاذَ ، أَنْكَ لَا تُصَلِّحُ سَاعَتَكَ عِنْدَ « سُنْكَرِي » وَلَا تُنْظِفُ بَدَلَتَكَ عِنْدَ « إِسْكَافِي » ، وَلَا تَتَعَلَّمُ الطَّبَّ فِي كُتَيْبَةِ الزَّرَاعَةِ . إِذَنْ كَيْفَ تَكَلَّمْتَ عَمَّا وَرَاءَ الطَّبِيعَةِ ، وَعِلْمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا ، وَيَكُونُ بَعْدَهَا وَأَنْتَ لَا تَعْلَمُ عَنْهُ شَيْئًا ؟ ! وَهَلْ تَرْضَى أَنْ تَتَكَلَّمَ نَحْنُ عَنِ الطَّبِّ الَّذِي دَرَسْتَهُ أَنْتَ فِي كُتَيْبَةِ الطَّبِّ بِالْقَصْرِ الْعَيْتِيِّ ؟ ! .

وَمَهْمَا يَكُنْ ، فَإِنَّ كُلَّ فِتْنَةٍ مِنَ عُلَمَاءِ الْكَوْنِ تَقْتَصِرُ عَلَى نَاحِيَةٍ خَاصَّةٍ لَا تَتَجَاوَزُهَا ، فَالْعَالِمُ النَّبَاتِ لَا يَتَعَرَّضُ لِلْمُعَادِنِ وَالْحَيَوَانَ ، وَالطَّبِيبُ الْبَيْطَرِيُّ لَا يَتَبَحَّثُ فِي جِسْمِ الْإِنْسَانِ وَعِلَلِهِ وَأَمْرَاضِهِ ، وَكَذَلِكَ عَالِمُ الْفَلَكِ وَعَالِمُ الْكِيمِيَاءِ فَإِنَّهُ لَا يَرَى إِلَّا نَاحِيَةً وَاحِدَةً مِنَ الْكَوْنِ عَلَى أَنَّ مَعْرِفَتَهُ بِهَا تَبْقَى نَاقِصَةً مَهْمَا اجْتَهِدَ وَتَقَدَّمَ ، فَكَيْفَ بِمَعْرِفَةِ أَسْرَارِ الْوُجُودِ وَأَسْبَابِهِ ، وَطَبِيعَتِهِ وَنُظْمِهِ ! وَمِنْ هُنَا تَخْصِصُ لِمَعْرِفَةِ الْكَائِنِ وَرَاءَ الطَّبِيعَةِ طَائِفَةً مِنَ الْعُلَمَاءِ لَا يُفَكِّرُونَ بِشَأْنِ غَيْرِ شَأْنِهِ ، وَلَا يَهْتَمُّونَ بِأَمْرٍ غَيْرِ أَمْرِهِ .

إِنَّ عُلَمَاءَ الطَّبِيعَةِ يَدْرُسُونَ الْمَادَّةَ ، وَيَطْلُبُونَ أَسْبَابَهَا الْقَرِيبَةَ ، وَيَقِفُونَ عِنْدَ الظُّوَاهِرِ ، وَلَا يَذْهَبُونَ إِلَى الْأَعْمَاقِ ، أَمَّا الْفَلَسَفَةُ ، أَمَّا عُلَمَاءُ مَا وَرَاءَ الطَّبِيعَةِ فَيَبْحَثُونَ عَنْ عِلَّةِ الْعِلَلِ ، وَالسَّبَبِ الْغَامِضِ الْبَعِيدِ عَنِ الْمَادَّةِ وَالْمُحَرِّكَ الْأَوَّلِ لَهَا . لَقَدْ تَجَرَّدَ هَؤُلَاءِ ، وَهُمْ عَدَدٌ غَيْرُ قَلِيلٍ مِنَ الْعُقُولِ الْكَبِيرَةِ الْعَظِيمَةِ ، تَجَرَّدُوا إِلَى

الْبَحْثَ عَنِ خَالِقِ الْكَوْنِ وَمُدَبِّرِهِ، وَوَضَعُوا الْأَسْفَارَ الطُّوَالَ فِي الْبَرَاهِينِ الْقَاطِعَةِ عَلَى جُودِهِ، وَدَفَعُوا عَنْهَا كُلَّ شُبْهَةٍ، حَتَّى أَصْبَحَتْ كَالشَّمْسِ فِي رَايَةِ النَّهَارِ. فَإِلَى هَؤُلَاءِ وَحَدَهُمْ يَجِبُ أَنْ نَرْجِعَ فِي مَعْرِفَةِ الْفِكْرَةِ عَنِ اللَّهِ، وَأَنْ نَدْرُسَ أَقْوَالَهُمْ وَنَحَاكِمَهَا بِتَجَرُّدٍ وَإِحْلَاصٍ. أَمَّا أَنْ نَجْعِدَ وَنُعَانِدَ دُونَ أَنْ نَسْتَمَعَ، إِلَى أَرْبَابِ الْعُقُولِ مِنْ ذَوِي الْإِخْتِصَاصِ فَقَدْ جَادَلْنَا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى.

وَبِالنَّاتِلِي، فَإِذَا بَحَثْنَا عَنْ نَوَاحِي الطَّبِيعَةِ وَحَدَّهَا وَتَرَكْنَا الْبَحْثَ عَمَّا بَعْدَهَا لَطَلَّتْ فِكْرَةُ الْأُلُوهِيَّةِ دُونَ حَلِّ، وَتَصَوَّرَاتِنَا عَمَّا يَتَعَلَّقُ بِهَا دُونَ إِمْتِحَانٍ، لِأَنَّهَا لَا تُعَلَّلُ بِالْمَادَّةِ وَلَا تُطْرَحُ عَلَى بَسَاطَةِ الْبَحْثِ فِي الْمَصْنَعِ وَالْمُخْتَبَرَاتِ، وَلَا يُسْأَلُ عَنْهَا رِجَالُ السِّيَاسَةِ أَوْ عُلَمَاءُ الْأَخْلَاقِ وَالْإِجْتِمَاعِ. إِذَنْ لَا بُدَّ مِنَ الرَّجُوعِ إِلَى عِلْمٍ مَا بَعْدَ الطَّبِيعَةِ الَّذِي يَبْحَثُ عَنْ وَاجِبِ الْوُجُودِ وَامْتِنَاعِهِ وَإِمْكَانِهِ، وَوَاجِبِ الْوُجُودِ هُوَ مَا أَقْتَضَتْ ذَاتُهُ جُودَهُ بِالضَّرُورَةِ، وَالْإِزَامُ الْعَقْلُ بِإِفْتِرَاضِ جُودِهَا عَلَى كُلِّ حَالٍ وَإِنْ عَجَزَ الْعِلْمُ عَنْ إِثْبَاتِهِ بِالطَّرِيقِ الْمَوْضُوعِيَّةِ. وَمُمْتَنِعُ الْوُجُودِ عَلَى الْعَكْسِ، أَيُّ مَا أَقْتَضَتْ ذَاتُهُ امْتِنَاعَ جُودِهِ، وَأَحَالُ الْعَقْلِ أَفْتِرَاضُ جُودِهَا، أَمَّا الْمُمْكِنُ فَهُوَ مَا خَلَا مِنْ هَذَا الْإِقْتِضَاءِ، وَلَمْ يَحْكَمْ الْعَقْلُ لَابْضُرُورَةِ الْوُجُودِ، وَلَا بْضُرُورَةِ الْعَدَمِ فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَوْجُودًا، كَمَا يَحْتَمِلُ أَنْ لَا يَكُونَ لَهُ جُودٌ.

وَمِنْ الْخَيْرِ أَنْ نُشِيرَ إِلَى أَنَّ الْفَلَّاسِفَةَ يَلْتَقُونَ هُنَا مَعَ رِجَالِ الدِّينِ، لِأَنَّ كُلًّا مِنَ الْفَرِيقَيْنِ يَنْطَلِعُ إِلَى مَا وَرَاءَ الطَّبِيعَةِ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ الْفَلَّاسِفَةَ يَعْتَمِدُونَ عَلَى الْعَقْلِ وَحْدَهُ، وَرِجَالُ الدِّينِ يَغْتَمِدُونَ عَلَى الْوَحْيِ وَالْعَقْلِ، لِأَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الْعَقْلَ إِذَا اسْتَقْلَلَ فِي مَعْرِفَةِ جُودِ الْخَالِقِ وَصِفَاتِهِ، وَإِرْسَالِ الرُّسُلِ وَمَا إِلَيْهِ فَإِنَّهُ مُحْتَاجٌ إِلَى مَعُونَةٍ خَارِجِيَّةٍ لِإِدْرَاكِ كَثِيرٍ مِنَ الْمَسَائِلِ.



مَنْ خَلَقَ اللهُ؟

إِنَّ مَنْ يَدَّعِي وجودَ شيءٍ يَفَعُّ عَلَيْهِ عِبءَ الإِثْبَاتِ، سواءَ أَكَانَ ذَلِكَ الشَّيْءُ حَقًّا مِنْ الحقوقِ أَمْ مَسْأَلَةٌ عِلْمِيَّةٌ أَمْ فَنِّيَّةٌ أَمْ تَأْرِيخِيَّةٌ، أَمْ كَانَ شَأْنًا مِنْ شُؤُونِ الْعَقِيدَةِ وَالْإِيمَانِ. وَهَذِهِ الْقَاعِدَةُ - الْبَيِّنَةُ عَلَى مَنْ أَدَّعَى - لَا يَشْذُّ عَنْهَا أَحَدٌ مَهْمَا سَمَّا بِعَظَمَتِهِ وَمَرْكَزِهِ وَمَهْمَا وُصِفَ وَعُرفَ بِالْعَدَالَةِ وَالصِّدْقِ، وَالْوَرَعِ وَالتَّوَدُّدِ، وَإِذَا وَجَبَ الْأَخْذُ بِشَهَادَتِهِ اعْتِمَادًا عَلَى إِخْلَاصِهِ وَتَجَرُّدِهِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بِفَوْقَ أَنْ يُنَاقَشَ فِي ذَاكَرَتِهِ وَأَفْكَارِهِ، وَلَا بِفَوْقَ أَنْ يُطَالَبَ بِالدَّلِيلِ عَلَى صِدْقِ أَقْوَالِهِ، فَاللهُ جَلَّ وَعَلَا قَدْ أَقَامَ الْآيَاتِ، وَضَرَبَ الْأَمْثَالَ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَعَظَمَتِهِ، وَعَلَى يَوْمِ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ، وَدَفَعَ كُلَّ شُبْهَةٍ وَتَعَلَّه تَحُومَ حَوْلِ وَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ، وَمِنْ هُنَا أَمَدُ اللَّهِ أَنْبِيََاءَهُ، بِالْحُجَجِ الدَّامِغَةِ وَالْبَرَاهِينِ الْقَاهِرَةِ، وَشَرَحَ صُدُورَهُمْ لِكُلِّ سَائِلٍ وَمُجَادِلٍ، فَأَفْسَحُوا الْمَجَالَ لِلْمُحَقِّقِ وَالْمُبْطِلِ، لِيَقُولَ كُلٌّ مَا يَشَاءُ، وَيُجَادِلَ دُونَ تَصْنَعٍ وَتَحَفُّظٍ.

إِنَّ لَدَى الْإِنْسَانِ مِنْ أَسْبَابِ الْجَدَلِ وَالنِّقَاشِ مَا لَا يَبْلُغُهُ الْإِحْصَاءُ: «وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جِدْلًا»^(١).

إِنَّ فِي الْإِنْسَانِ مُنْذُ طِفُولَتِهِ مَيْلًا طَبِيعِيًّا إِلَى التَّسَاوُلِ عَمَّا يَجْرِي حَوْلَهُ، وَيَدُورُ فِي خُلْدِهِ، وَرَغْبَةً مُلْحَاحَةً فِي الإِطْلَاعِ عَلَى حَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ وَعِلَلِهَا وَأَسْبَابِهَا، وَفِي اتِّقَادِ الْآخَرِينَ فِي عَقَائِدِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ، وَلَكِنَّ الْإِنْسَانَ كَثِيرًا مَا يَنْخَدِعُ بِالمُشَاهَدَةِ السُّطْحِيَّةِ لِلْوَهْلَةِ الْأُولَى فَيُجَادِلُ وَيُنَاقِشُ عَلَى هَذَا الْأَسَاسِ، أَسَاسَ مَا سَمِعَهُ مِنَ الْأَقْوَالِ، وَأَلْفَهُ مِنَ الْعَادَاتِ وَإِنْقَادَ إِلَيْهِ مِنَ التَّرَعَّاتِ الشَّخْصِيَّةِ. وَإِلَى هَذَا أَشَارَتِ الْآيَةُ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾^(١).

وَقَبْلَ أَنْ نَفْرَضَ أُدْلَةَ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ نَذْكُرُ طَرَفًا مِنْ جَدَلٍ أَوْلَتْكَ الْمُلْحِدِينَ، وَمَا عُلِقَ بِأَذَانِهِمْ مِنَ الْأَوْهَامِ. فَمِنْ أَوْهَامِهِمْ هَذَا السُّؤَالُ الَّذِي يَغْرِضُ لِلْبُسْطَاءِ السُّذْجِ: إِذَا كَانَ اللَّهُ قَدْ خَلَقَ الْعَالَمَ فَمَنْ خَلَقَ اللَّهُ؟.

وَبَقِيلُ مِنَ التَّفَكِيرِ تُدْرِكُ أَنَّ هَذَا التَّسَاوُلَ مِنْ مُخْلَفَاتِ عَهْدِ الطِّفُولَةِ وَبَقِيلِ مَرَحَلَةِ «السَّنِ السَّنُولِ». أَمَّا الَّذِينَ نَضَجَتْ عَقُولُهُمْ فَيَدْرِكُونَ أَنَّ كَلِمَةَ «خَلَقَ اللَّهُ الْعَالَمَ» تَعْنِي أَنَّهُ تَعَالَى خَالِقُ غَيْرِ مَخْلُوقٍ، وَأَنَّ كُلَّ مَا عَدَاهُ يَتَلَقَّى وَجُودَهُ مِنْهُ، وَلَمْ يَتَلَقَّ هُوَ وَجُودَهُ مِنْ أَحَدٍ. إِذَنْ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ التَّسَاوُلُ عَلَى الشَّكْلِ التَّالِيِ: لِمَاذَا يَجِبُ عَلَيْنَا الْإِيمَانُ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْجُودٌ مُنْذُ الْقِدَمِ لَا يَفْتَقِرُ إِلَى مُوْجِدٍ وَأَنَّهُ يَهْبِ الْوُجُودَ لِكُلِّ كَائِنٍ سِوَاهُ؟.

الْجَوَابُ:

لَوْ قُلْنَا: أَنَّ كُلَّ كَائِنٍ لَا بُدَّ أَنْ يَسْتَمِدَّ وَجُودَهُ مِنْ غَيْرِهِ لِلزَّمِ أَنْ لَا يُوجَدَ شَيْءٌ أَبَدًا، لِأَنَّ مَعْنَى قَوْلِنَا لَا يُوجَدُ مَنْ يُعْطَى إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَأْخُذَ، مَعْنَاهُ أَنَّهُ لَا أَحَدَ يُعْطَى

أَبَدًا. مَثَلًا، لَوْ افْتَرَضْنَا أَنَّ التَّقْدَّ لَا يُمْكِنُ أَنْ نَأْخُذَهُ مِنْ شَخْصٍ إِلَّا إِذَا أَخَذَهُ هُوَ مِنْ شَخْصٍ آخَرَ، بِحَيْثُ يَسْتَحِيلُ أَنْ يُوْجِدَهُ فَرْدٌ أَوْ هَيْئَةٌ، لِلزَّمِ أَنْ لَا يُوْجِدَ شَيْءٌ يُسَمَّى نَقْدًا.

وَمَثَلًا آخَرَ: تَعَلَّمْتَ نَظْرِيَّةَ النَّسَبِيَّةِ مِنْ أَسْتَاذِكَ، وَتَعَلَّمَهَا هُوَ مِنْ أَسْتَاذِهِ، وَهَكَذَا إِلَى أَنْ يَصِلَ الدَّوْرُ إِلَى إِبْنِثَيْنِ الَّذِي اكْتَشَفَهَا بِنَفْسِهِ، وَلَوْ افْتَرَضْنَا أَنَّ أَحَدًا لَمْ يَكْتَشِفْهَا مِنْ تِلْقَائِهِ لَكَانَتْ هَذِهِ النَّظْرِيَّةُ مَجْهُولَةً حَتَّى الْيَوْمِ. وَهَكَذَا عِلْمُ النَّحْوِ وَسَائِرِ الْعُلُومِ لَا بُدَّ أَنْ تَنْتَهِيَ إِلَى شَخْصٍ مُعَيَّنٍ، وَإِلَّا لَمْ يَكُنْ لَهَا عَيْنٌ وَلَا أَثَرٌ. وَبِتَقْرِيبِ ثَانٍ لَيْسَ مِنْ شَكٍّ أَنَّهُ قَدْ وَجَدَ شَيْءٌ كَالْأَرْضِ وَالنَّجُومِ، وَإِذَا وَجَدَ شَيْءٌ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ قَدْ وَجَدَ شَيْءٌ مَا بِالضَّرُورَةِ يَحْمِلُ فِي ذَاتِهِ عِلَّةً كَافِيَةً لَوْجُودِهِ مِنْذُ الْأَوَّلِ، لِأَنَّ كُلَّ مَا يُوْجَدُ إِمَّا أَنَّهُ وَجِهَ بَذَاتِهِ دُونَ أَنْ يَتَلَقَّى وَجُودَهُ مِنْ غَيْرِهِ، وَأَمَّا أَنْ يَكُونَ قَدْ تَلَقَّاهُ مِنْ مَوْجُودٍ آخَرَ، فَإِذَا كَانَ وَجُودُهُ مِنْ ذَاتِهِ لَا مِنْ غَيْرِهِ فَهُوَ مَوْجُودٌ بِالضَّرُورَةِ، وَهُوَ اللَّهُ، وَأَمَّا إِذَا كَانَ تَلْقَاهُ مِنْ غَيْرِهِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْغَيْرُ قَدْ وَجَدَ بِالضَّرُورَةِ وَلَمْ يَسْتَمِدَّ وَجُودَهُ مِنْ أَحَدٍ.

وَبِتَبْعِيرِ ثَالِثٍ أَنَّ الْبَاحِثَ الْعِلْمِيَّ إِذَا لَمْ يُدْرِكْ سَبَبَ الْحَوَادِثِ مُبَاشَرَةً لَجَأَ إِلَى الْإِفْتِرَاضِ فَيَفْتَرِضُ وَجُودَ شَيْءٍ يُفَسِّرُ الْحَادِثَ عَلَى أَسَاسِهِ، ثُمَّ يَخْتَبِرُ هَذَا التَّفْسِيرَ. وَهُنَا افْتِرَاضَانِ لَا ثَالِثَ لَهُمَا الْأَوَّلُ: أَنْ نَفْتَرِضَ أَنَّ كُلَّ مَوْجُودٍ يَتَلَقَّى وَجُودَهُ مِنْ غَيْرِهِ بِحَيْثُ لَا يُوْجَدُ شَيْءٌ بِدُونِ سَبَبٍ. الثَّانِي: وَجُودَ شَيْءٍ بِذَاتِهِ وَلَمْ يَتَلَقَّ وَجُودَهُ مِنْ غَيْرِهِ. وَالْفَرَضُ الْأَوَّلُ بَاطِلٌ حَيْثُ يَلْزَمُ مِنْهُ عَدَمُ وَجُودِ شَيْءٍ، فَيَتَعَيَّنُ الثَّانِي وَهُوَ وَجُودُ عِلَّةٍ أُولَى تُعْطِي وَلَا تَأْخُذُ، وَمِنْ هُنَا قَالَ فُولْتِير: «أَنَّ الرَّأْيَ الْقَائِلَ بِأَنَّ اللَّهَ غَيْرَ مَوْجُودٍ يَنْطَوِي عَلَى أُمُورٍ مُسْتَحِيلَةٍ» أَيِ يَلْزَمُ مِنْهُ أَنْ لَا

يُوجَدُ شَيْءٌ أَبَدًا، وَهُوَ خِلَافُ الْمَشَاهِدِ بِالْبَدِيَّةِ وَبِالنَّالِيِّ فَإِنَّ الْأَدْلَةَ الْعَقْلِيَّةَ تَحْمِلُنَا عَلَى الْأَعْتِقَادِ بِوُجُودِ كَائِنٍ بِالضَّرُورَةِ وَهُوَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى. وَتَوْهَمُ الْمُلْحَدُونَ أَنَّ الْكَوْنَ لَا يَحْتَاجُ إِلَى مُوجِدٍ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَدْرِكُوهُ بِالْحِسِّ، وَلَمْ يَسْتَعْمِلُوا فِي مَعْرِفَتِهِ الْعَقْلَ. وَنَذَكِرُ طَرَفًا مِنْ أَقْوَالِهِمُ لِلتَّذِيلِ عَلَى أَنَّهَا أَوْهَامٌ وَتَضْلِيلٌ.

اللَّهُ وَالطَّبِيعَةُ:

فَمِنْ أَوْهَامِهِمْ، أَنَّ الطَّبِيعَةَ قَدْ وَجَدَتْ دُونَ مُوجِدٍ، لِأَنَّهَا تَحْمِلُ عِلَّةَ وَجُودِهَا بِذَاتِهَا، لَا أَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ مِنْ قَبْلِ كَائِنٍ يَتَمَيَّزُ عَنْهَا بِالْإِسْتِقْلَالِ وَالْقَدَمِ وَالْكَمَالِ، أَيْ بِأَنَّ الطَّبِيعَةَ هِيَ اللَّهُ، وَاللَّهُ هُوَ الطَّبِيعَةُ، وَلَا شَيْءٌ غَيْرُهَا وَالْجَوَابُ:

أَوَّلًا: أَنَّ لَازِمَ هَذَا الْقَوْلِ أَنَّ مَا فِي الْكَوْنِ مِنْ نِظَامٍ وَأَنْسِجَامٍ، وَفَنٍّ وَجَمَالٍ، وَزُورَةٍ وَجَلَالٍ قَدْ صَدَرَ عَنْ قُوَّةِ عَمِيَاءَ صَمَاءٍ لَا عِلْمَ لَهَا وَلَا مَشِيئَةَ، تَفْعَلُ عَبَثًا، وَتُتْرَكُ لَا لِسَبَبٍ مُوجِبٍ، وَلَا لِحِكْمَةٍ وَغَايَةٍ، وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ تَخْلُقُ إِنْسَانًا مُسْتَوِيَّ الْخِلْقَةِ تَهَبُّهُ الْعَقْلُ، وَالْعِلْمُ، وَالشَّعُورُ، وَتَضَعُ كُلَّ شَيْءٍ فِي مَقَرِّهِ وَمَكَانِهِ لَا تَخْطِئُ وَلَا تَنْحَرِفُ، مَهْمَا طَالَ الزَّمَنُ! وَبَدِيَّةً بِأَنَّ الْبُرُودَةَ لَا تَلْتَمِسُ فِي اللَّهَيْبِ، وَالْحَرَارَةَ فِي الثَّلُوجِ. وَلِذَا قِيلَ: أَنَّ فَاقِدَ الشَّيْءِ لَا يُعْطِيهِ.

ثَانِيًا: قَالَ عُلَمَاءُ الطَّبِيعَةِ: أَنَّ الْمَادَّةَ تَتَلَاشَى وَتَتَبَخَّرُ إِلَى شُحُنَاتٍ كَهْرَبَائِيَّةٍ، وَإِنَّهَا تَفْقَدُ بِذَلِكَ وَزْنَهَا، وَطُولَهَا، وَعَرْضَهَا، وَعُمَقَهَا، وَسَائِرَ الْخَصَائِصِ الَّتِي تَمْتَازُ بِهَا، وَلَوْ كَانَ وَجُودُهَا ذَاتِيًّا وَضَرُورِيًّا لِإِسْتِحْالِ أَنْ تَتَغَيَّرَ وَتَتَبَدَّلَ، لِأَنَّ الَّذِي يَحْمِلُ عِلَّتَهُ بِنَفْسِهِ لَا يَزُولُ إِلَّا بِزَوَالِ عِلَّتِهِ، وَزَوَالِهَا يَغْنِي أَنَّهَا غَيْرُ ذَاتِيَّةٍ. وَلِذَا قِيلَ: أَنَّ مَا بِالذَّاتِ لَا يَتَغَيَّرُ، ثُمَّ إِنَّمَا نَرْجِعُ بَعْضَ الْحَوَادِثِ إِلَى حَوَادِثٍ أُخْرَى، وَنَعْتَبِرُهَا

السَّبَبُ الْفَاعِلُ، وَأَنَّ بَيْنَهُمَا أَرْتِبَاطًا وَثِيقًا، وَلَوْ كَانَ كُلُّ شَيْءٍ يَحْمِلُ عِلَّةً وَجُودَهُ بِالذَّاتِ لَمَا كَانَ هُنَاكَ عِلَلٌ وَمَعْلُولَاتٌ وَأَسْبَابٌ وَمُسَبِّبَاتٌ.

ثَالِثًا: أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ أَكْتَشَفَ قُوَى الطَّبِيعَةِ، وَسَخَرَهَا فِي مَصَالِحِهِ وَسَدَّ حَاجَاتِهِ، وَكَادَتْ تَصْبِحُ أَطْوَعُ إِلَيْهِ مِنْ بَنَانِهِ. وَمَحَالٌ بِأَنْ يَكُونَ الْخَالِقُ عَبْدًا مُسَخَّرًا لِّلْغَيْرِ.

الْأُلُوهِيَّةُ فِكْرَةٌ!:

وَمِنْ أَوْهَامِهِمْ أَيْضًا:

إِنَّ الْإِلَوهِيَّةَ فِكْرَةٌ أَبْتَدَعَهَا الْإِنْسَانُ، لِيُفَسِّرَ بِهَا الْمَجْهُولَ، وَقَدْ تَطَوَّرَتْ مِنْ عِبَادَةِ الشَّمْسِ وَالنَّارِ وَالْبَقَرِ إِلَى عِبَادَةِ الْحَيَاةِ وَالشَّجَرِ، إِلَى الْمَلَائِكَةِ وَالْأَرْوَاحِ إِلَى إِلَهٍ حَكِيمٍ يَكْمُنُ وَرَاءَ الطَّبِيعَةِ. وَأَخِيرًا أَدْرَكَ الْإِنْسَانُ الْحَقِيقَةَ، وَعِلَّلَ الْحَوَادِثَ بِحَوَادِثٍ طَبِيعِيَّةٍ مِثْلَهَا، وَهَذِي هِيَ غَايَةُ الْعِلْمِ الْحَدِيثِ الَّذِي يَهْدَفُ إِلَى مَعْرِفَةِ الْأَشْيَاءِ كَمَا هِيَ.

وَالْجَوَابُ: إِنَّا نَعْلَلُ بَعْضَ الْحَوَادِثِ بِمَا نَرَاهُ مِنَ الْأَسْبَابِ الْقَرِيبَةِ، وَلَكِنْ هُنَاكَ وَرَاءَ هَذِهِ أَسْبَابٌ أُخْرَى بَعِيدَةٌ فَبِمَاذَا نُفَسِّرُهَا؟ مَثَلًا، نَرْجِعُ وَجُودَ الشَّجَرَةِ إِلَى الْأَرْضِ، وَالْأَرْضِ إِلَى الشَّمْسِ، وَلَكِنْ بِمَاذَا نُفَسِّرُ وَجُودَ الشَّمْسِ، وَإِلَى أَيِّ شَيْءٍ نَرْجِعُهَا؟ أَنْ رَجَعُهَا إِلَى الْمَادَّةِ الْأُولَى، وَمَا هِيَ هَذِهِ الْمَادَّةُ؟ هَلْ هِيَ الْأَثِيرُ - مَثَلًا - وَنَحْنُ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّنا نَجْهَلُ مَا هُوَ الْأَثِيرُ. وَأَنَّهُ هَلْ هُوَ نَوْعٌ مِنَ الْمَادَّةِ أَوْ لَا مَادَّةٍ؟ وَهَلْ هُوَ حَقِيقَةٌ تَحُلُّ الْمُسْكَلَاتِ أَوْ خُرَافَةٌ أُبْتَدِعَتْ لِإِخْفَاءِ الْجَهْلِ نَتَسَاءَلُ: مِنْ أَيْنَ جَاءَ هَذَا الْأَثِيرُ؟ وَكَيْفَ وَجَدَ؟ وَمَنْ أَوْجَدَهُ؟ وَهَلْ هُوَ مِنْ

الكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ أَوْ الْجَوَامِدِ؟ وَكَيْفَ تَجْمَعُ وَتَكْتَلِ؟ وَهَلْ يَسِيرُ إِلَى هَذِهِ مُعَيَّنٌ أَوْ عَلَى غَيْرِ هُدًى؟.

أَمَّا الْجَوَابُ عَنْ هَذِهِ الْأَسْئَلَةِ فَلَا نَجِدُهُ فِي عِلْمِ الطَّبِيعَةِ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ تَقَدُّمِهِ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، لِأَنَّهُ عَاجِزٌ عَنِ الْوُصُولِ إِلَى مَعْرِفَةِ الْحَقِيقَةِ الْمُطْلَقَةِ. إِنَّهُ لَا يَعْرِفُ شَيْئًا إِلَّا عَنْ طَرِيقِ الْمُشَاهَدَةِ وَالتَّجَرُّبَةِ، وَهِيَ أَبْعَدُ مَا تَكُونُ عَنْهُمَا، كَمَا أَنَّنَا لَا نَجِدُ الْجَوَابَ عِنْدَ عُلَمَاءِ النَّفْسِ وَالْإِجْتِمَاعِ، لِأَنَّهُمْ يَرْفُضُونَ الْيَوْمَ مَا آمَنُوا بِهِ فِي الْأَمْسِ، لَا نَجِدُ الْجَوَابَ إِلَّا عِنْدَ الْفَلَسَفَةِ الَّذِينَ يَبْحَثُونَ عَنْ سِرِّ الْكَوْنِ وَأَصْلِهِ وَالسَّبَبِ الْأَوَّلِ لَهُ وَهُوَ الْإِلَهُ الْقَدِيرُ الْحَكِيمُ.

قَالَ فَرَنْسِيْسُ بِيكُون: «أَنَّ عَقْلَ الْإِنْسَانَ قَدْ يَقِفُ عِنْدَ مَا يُضَادِفُهُ مِنْ أَسْبَابِ ثَانَوِيَّةٍ مُبَعَثَةٍ، فَلَا يُتَابِعُ السَّيْرَ وَرَاءَهَا، وَلَكِنَّهُ إِذَا أَمْعَنَ النَّظَرَ فَشَهِدَ سِلْسَلَةَ الْأَسْبَابِ كَيْفَ تَتَّصِلُ حَلَقَاتُهَا لَا يَجِدُ بُدْأً مِنَ التَّسْلِيمِ بِاللَّهِ...».

أَيْنَ يُوجَدُ اللَّهُ:

وَمِنْ أَوْهَامِهِمْ أَيْضًا هَذَا التَّسْأُولُ: أَيْنَ يُوجَدُ اللَّهُ؟.

وَالسَّوَالُ، كَمَا تَرَى، وَجِيهٌ فِي ظَاهِرِهِ، وَلَكِنَّهُ يَحْتَوِي عَلَى مُعَاظَلَةٍ مَنْطِقِيَّةٍ فِي الْوَاقِعِ، لِأَنَّ الَّذِي يَسْأَلُ عَنْ مَكَانٍ وَجُودِهِ هُوَ الَّذِي وَجَدَ بَعْدَ بَأْنٍ صَحَّ التَّعْبِيرُ، حَيْثُ لَا زَمَانَ وَلَا مَكَانَ، أَمَّا الْأَوَّلُ بَلَا أَوَّلَ كَانَ قَبْلَهُ، وَالْآخِرُ بَلَا آخِرَ يَكُونُ بَعْدَهُ، أَمَّا الَّذِي لَا يَحْتَاجُ وَجُودَهُ إِلَى عِلَّةٍ فَلَا يَقَالُ أَيْنَ كَانَ؟.

وَالْمَفْرُوضُ أَنَّ عِلَّةَ وَجُودِ الْخَالْقِ ذَاتِيَّةٌ لَا تَتَفَكَّعُ عَنْهُ بِحَالٍ، وَمَا هُوَ مِنْ لَوَازِمِ الذَّاتِ لَا يَسْأَلُ عَنْهُ بَرَمَانَ أَوْ مَكَانَ، فَلَا يَقَالُ مَتَى كَانَتْ النَّارُ حَارَّةً؟ وَأَيْنَ تُوجَدُ

الْحَرَارَةُ فِيهَا ؟ وَلَا مَتَى كَانَ الثَّلَجُ بَارِدًا ؟ وَفِي أَيِّ مَكَانٍ تَسْتَقَرُّ فِيهِ السُّرُودَةُ ، وَلَا يُقَالُ مَتَى كَانَ الْجِسْمُ قَابِلًا لِلْأَبْعَادِ الثَّلَاثَةِ : الطُّولِ ، وَالْكَثَلَةِ ، وَالزَّمَنِ ؟ وَأَيْنَ تُوجَدُ هَذِهِ الْقَابِلِيَّةُ فِي الْجِسْمِ . وَمَتَى لَمْ تُوجَدْ فِيهِ حَتَّى يُقَالَ مَتَى وَجَدَتْ ؟ ! وَأَيِّ جَانِبٍ مِنَ الْجِسْمِ فَلَا مِنَ الْقَابِلِيَّةِ لِلْأَبْعَادِ حَتَّى يُقَالَ فِي أَيِّ جَانِبٍ تَكْمُنُ ، فَكَذَلِكَ سُؤَالُ « أَيْنَ يُوجَدُ اللَّهُ ؟ وَمَتَى وَجَدَ اللَّهُ » إِذْ مَتَى لَمْ يُوجَدْ حَتَّى يُقَالَ مَتَى وَجَدَ ؟ ! وَأَيِّ مَكَانٍ لَا يُوجَدُ فِيهِ أَثَرُهُ حَتَّى يُقَالَ أَيْنَ يُوْجَدُ ؟ ! أَنَّهُ دَائِمٌ لَا يَزْمَنُ ، وَكَائِنٌ لَا يَحْلُولُ .

إِنَّ الْجَاهِلَ هُوَ الَّذِي يَسْأَلُ هَذَا السُّؤَالَ ، لِأَنَّهُ يُقَيِّسُ الْخَالِقَ بِالْمَخْلُوقِ وَيُشَبِّهَهُ مَنْ لَا يُرَى بِمَا يُرَى ، إِنَّ وَجُودَ اللَّهِ سُُبْحَانَهُ مُبَايِنٌ لَوْجُودِ الْكَائِنَاتِ الَّتِي تُوجَدُ فِي مَكَانٍ دُونَ مَكَانٍ . وَلَوْ شَغَلَ مَكَانًا خَاصًّا لَخَلَّتْ مِنْهُ بَقِيَّةُ الْأَمَكْنَةِ ، وَلَكَانَ جِسْمًا مُفْتَقَرًا إِلَى حَيِّزٍ مَعَ أَنَّهُ غَنِيٌّ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ .

بَقِيَ بَأَنَ تَنْسَاءَلُ : مَاذَا أَرَادَ الْمَتَأَلَّهُوْنَ مِنْ قَوْلِهِمْ : « أَنَّ اللَّهَ لَا مَكَانَ لَهُ ، وَهُوَ مَوْجُودٌ فِي كُلِّ مَكَانٍ » أَلَا يَدُلُّ هَذَا الْقَوْلُ عَلَى أَنَّ اللَّهَ مَوْجُودٌ وَغَيْرُ مَوْجُودٍ ؟ ! أَلَيْسَ هَذَا جَمْعًا بَيْنَ الشَّيْءِ وَنَقِيضِهِ ، مَعَ أَنَّ اجْتِمَاعَ النَّقِيضِ مُحَالٌ كَارْتِفَاعُهُمَا ؟ !

وَمَنْ تَدَبَّرَ مَا قَدَمْنَاهُ مِنَ الْأَدَلَّةِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ لَا يُمَكَّنُ بَأَنَ يُوجَدُ فِي مَكَانٍ أَدْرَكَ أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ وَجُودِهِ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَجُودَ قُدْرَتِهِ وَعَظَمَتِهِ ، وَأَنَّ الْأَشْيَاءَ كُلَّهَا تَشْهَدُ بِوُجُودِ خَالِقِ الْكَوْنِ وَمُدَبِّرِهِ ، وَعَلَيْهِ يَكُونُ مَعْنَى « وَجُودَ اللَّهِ فِي كُلِّ مَكَانٍ » هُوَ مَا عَنَاهُ الشَّاعِرُ بِقَوْلِهِ : فَإِنَّ اللَّهَ فِي كُلِّ شَيْءٍ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ ^(١) .

(١) نُسِبَ هَذَا الْبَيِّنَتِ مِنَ الشُّعْرِ لِأَيِّي الْعَتَايَةِ كَمَا جَاءَ فِي دِيَوَانِهِ : ٦٢ طَبْعَةُ دَارِ الْكُتُبِ الْعِلْمِيَّةِ ، وَسُبُلِ

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ
وَبِالتَّالِي فَإِنَّ الدَّلِيلَ عَلَى عَدَمِ حُلُولِ اللَّهِ وَتَحْيِزِهِ فِي مَكَانٍ خَاصٍّ يَدُلُّ بِنَفْسِهِ
أَيْضاً عَلَى عَدَمِ تَحْيِزِهِ فِي كُلِّ مَكَانٍ إِذَنْ، مَعْنَى لَا مَكَانَ لَهُ أَنَّهُ غَيْرُ حَالٍ فِي مَكَانٍ،
وَمَعْنَى وَجُودِهِ فِي كُلِّ مَكَانٍ أَنَّ أَثَارَ عَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ تَمْلَأُ كُلَّ مَكَانٍ، وَمَعَ اخْتِلَافِ
الْجِهَةِ بِالسَّلْبِ أَوْ الْإِجَابِ يَرْتَفِعُ التَّنَاقُضُ، كَمَا لَوْ قُلْتُ: زَيْدٌ يَكْتُبُ بِالْعَرَبِيَّةِ، وَلَا
يَكْتُبُ بِاللَّاتِينِيَّةِ.

مَنْ رَأَى اللَّهَ؟

وَمِمَّا قَدَّمْنَا يَتَبَيَّنُ مَعْنَى أَنَّ سُؤَالَ « مَنْ رَأَى اللَّهَ » هُوَ تَمَاماً كَسُؤَالَ « مَنْ خَلَقَ
اللَّهُ » أَوْ مَنْ رَأَى مَا لَا يَرَى! إِنَّ الَّذِي يَرَى هُوَ الْكَائِنُ الطَّبِيعِيُّ، بَلْ أَنَّ نَوْعاً مِنْ هَذَا
الْكَائِنِ لَا يَرَى بِحَالٍ حَتَّى بِوَسْطَةِ الْمَجْهَرِ - كَالْأَلَكْتُرُونِ وَمَا إِلَيْهِ، فَكَيْفَ بِمَنْ هُوَ
فَوْقَ الْكَائِنَاتِ الطَّبِيعِيَّةِ! أَنَّ اللَّهَ يُرَى بِالْبَصِيرَةِ لَا بِالْبَصَرِ، وَمَعْنَى هَذَا أَنَّ الْعَقْلَ يَعْلَمُ
بِوَجُودِهِ، لِعِلْمِهِ بِأَفْعَالِهِ وَصِفَاتِهِ، أَمَّا مَعْرِفَتُهُ بِالذَّاتِ فَمَحَالٌ حَتَّى عَلَى الْعُقُولِ
النُّورَةِ. لَذَا قَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ الصَّادِقُ (ع): « تَكَلَّمُوا فِي خَلْقِ اللَّهِ، وَلَا تَكَلَّمُوا
فِي اللَّهِ. أَنَّ التَّلَكُّمَ فِي اللَّهِ لَا يَزِيدُ صَاحِبَهُ إِلَّا تَحْيِيراً »^(١). لِأَنَّهُ مُحَاوَلَةٌ لِلْمَحَالِ.
إِنَّ هَذَا السُّؤَالَ: « مَنْ رَأَى اللَّهَ » يَتَوَجَّهُ إِلَى الْقَائِلِينَ بِأَنَّ اللَّهَ جِسْمٌ، وَمِنْ هَؤُلَاءِ

➤ الْهُدَى وَالرُّشَاد: ٢٧/٣، الْبَدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ: ٣٧٥/١٣، تَأْرِيخُ بَغْدَاد: ٢٥١/٦، تَأْرِيخُ دِمَشْقَ:
٤٥٣/١٣، تَفْسِيرُ الْقُرْطُبِيِّ: ٣١٣/٤، تَفْسِيرُ أَبِي كَبِيرٍ: ٢٦/١ و ٦٢ و ٤٥/٣، تَفْسِيرُ الشَّعَالِيِّ:
١٤٩/٢، شَرْحُ نَهْجِ الْبَلَاغَةِ لِأَبِي أَبِي الْحَدِيدِ: ٤١٢/٦، الْمَجَازَاتُ النَّبَوِيَّةُ لِلشَّرِيفِ الرَّضِيِّ: ٢٢١،
شَرْحُ أَصُولِ الْكَافِي: ١٤٧/٣.

(١) أَنْظَرِ، وَسَائِلَ الشُّعْبَةِ: ١٦/١٩٦ ح ٧، الْهَدَايَةُ لِلشَّيْخِ الصَّدُوقِ: ١٤، رَوْضَةُ الْوَاعِظِينَ: ٣٧.

فُرْقَةً تَنْتَهِي إِلَى الْإِسْلَامِ، أَشْهَرُ مِنْهَا أَبُو عَامِرِ الْقَرَشِيِّ، نَذَرَ لِلْقُرَاءِ مِثَالاً مِنْ أَقْوَالِهِ لِلْمُنْعَةِ وَالتَّسْلِيَةِ، قَالَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ»^(١). أَنَّ اللَّهَ لَا يُمْكِنُ بَأَنْ يُقَارَبَهُ أَحَدٌ فِي الْأُلُوْهِيَّةِ وَأَنَّ هَذِهِ الْآيَةُ كَالْآيَةِ: «يَنْسَاءُ النَّبِيُّ لِنَسْتَنْ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ»^(٢).

أَيُّ بَأَنْ النِّسَاءِ الْأَخْرِيَّاتِ فِي مَكَانٍ أَدْنَى مِنْ مَكَانَتِهِنَّ، وَلَكِنْ يَشَبِهْنَهُنَّ تَمَاماً فِي الصُّورَةِ، كَذَلِكَ اللَّهُ هُوَ مِثْلِي وَمِثْلَكَ فِي هَيْئَتِهِ وَصُورَتِهِ. وَذَكَرَنِي هَذَا الْقَوْلُ بِمَا قَرَأْتُهُ فِي بَعْضِ الْكُتُبِ الْقَدِيمَةِ بِأَنَّ النَّمْلَةَ تَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ شَارِبِينَ كَشَارِبِيهَا. وَبِالتَّالِي، فَإِنَّ الَّذِي حَدَا بِالْإِنْسَانَ إِلَى مِثْلِ هَذَا التَّفَكِيرِ هِيَ نَزْعَتُهُ إِلَى الْمَادَّةِ وَارْتِبَاطُهُ بِهَا فِي جَمِيعِ أَدْوَارِ حَيَاتِهِ. وَرُبَّمَا سَأَلَ سَائِلٌ: إِنَّا نَعِيشُ فِي عَصْرِ انْتِصَارِ الْعُلُومِ، وَمَعَ هَذَا لَمْ يَكْتَشَفْ عَالَمٌ وَاحِدٌ فِي مَعْمَلِهِ وَجُودِ الْخَالِقِ لَا قَصْداً وَلَا عَفْواً. وَلَوْ كَانَ لِبَّانٍ.

الْجَوَابُ:

أَنَّ لِلْمُخْتَبَرَاتِ وَأَدَوَاتِ الْمَعَامِلِ حَدّاً لَا تَتَعَدَاهُ، وَهُوَ أَجْزَاءُ الطَّبِيعَةِ، فَالْعِلْمُ الطَّبِيعِيُّ يَبْحَثُ عَنْ أَجْزَاءِ الْكَوْنِ، وَارْتِبَاطِ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ، وَمَا تَحْوِيهِ مِنَ الْمَوَادِّ، أَمَّا مَا يَتَعَدَّى ذَلِكَ إِلَى مَا وَرَاءَ الْكَوْنِ فَيَبْعِدُ كُلَّ الْبُعْدِ عَنِ التَّجَرُّبَةِ وَالْإِخْتِبَارِ فِي الْمَعَامِلِ وَالْمَصْنَعِ. وَهَلْ وَجُودُ الْعُلَمَاءِ فِي مُخْتَبَرَاتِهِمُ الْعَقْلُ أَوِ النَّفْسُ أَوْ غَرِيزَةٌ مِنْ غَرَائِزِهَا؟!.

أَجَلْ، لَقَدْ أَكْتَشَفُوا فِي مَعَامِلِهِمْ مُعَادِلَاتٍ دَقِيقَةً وَقَوَائِنَ مُحْكَمَةً وَطَاقَاتٍ

(١) الشُّورَى: ١١.

(٢) الْأَخْرَابُ: ٣٢.

تُفَوِّقُ الْحَصْرَ، وَنَحْنُ نَسْأَلُ: مَنْ أَوْجَدَ هَذَا التَّدْبِيرَ وَالْإِنْسَجَامَ؟! وَهَلْ تُفَسِّرُ نَظَرِيَّاتِهِمُ الْحَدِيثَةَ أَسْرَارَ الْكَوْنِ؟! وَمِنْ أَيْنَ جَاءَتْ تِلْكَ الطَّاقَاتُ وَالْمَوَادُّ؟! وَكَيْفَ تَأَلَّفَتْ مِنْهَا الْمَادَّةُ عَلَى مَا بَيْنَهَا مِنْ تَفَاوُتٍ؟! وَلِمَاذَا اخْتَصَّتِ الْحَيَاةَ بِجُزءٍ مِنَ الْكَوْنِ دُونَ جُزءٍ؟! وَمَنْ أَعْطَى هَذِهِ الْحَيَاةَ لِلنَّبَاتِ، وَالْإِحْسَاسَ لِلْحَيَوَانَ، وَالْعَقْلَ لِلْإِنْسَانِ، مَعَ أَنَّ الْعُلَمَاءَ قَدْ اعْتَرَفُوا: «أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ فِي الطَّبِيعَةِ، مُهِمًّا بَدَأَ مُخْتَلَفًا عَنْ غَيْرِهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ، مُكَوَّنٌ مِنَ الْإِكْتِرَوْنَاتِ وَتَدْخُلُ هَذِهِ الْإِكْتِرَوْنَاتُ فِي تَكْوِينِ الْمَادَّةِ مِنْ أَشْجَارٍ وَمَنَازِلٍ وَإِنْسَانٍ، وَغَيْرِهِ مِنَ الْكَائِنَاتِ، كَالزُّجَاجِ وَالْمَعَادِنِ، وَهِيَ بِكَامِلِهَا مُتَشَابِهَةٌ، وَتَتَحَرَّكُ حَوْلَ الْمَرْكَزِ بِحَرَكَاتٍ مُتَمَثِّلَةٍ»^(١) وَعَلَى هَذَا يَجِبُ أَنْ تَكُونَ جَمِيعُ الْمَوْجُودَاتِ مِنْ نَوْعٍ وَاحِدٍ، أَمَّا جَمَادًا وَأَمَّا نَبَاتًا وَأَمَّا حَيَوَانًا وَأَمَّا إِنْسَانًا فَقَطَّ. وَلَكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَرَادَ تَنَوُّعَهَا، وَلَا رَادَّ لِمَشِئَتِهِ: «إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ، وَكُنْ فَيَكُونُ»^(٢).

كَيْفَ خَفِيَ وَجُودُ اللَّهِ وَهُوَ لَوْضَحُ مِنَ الشَّمْسِ؟!

رُبَّمَا يَقُولُ الْقَائِلُ: إِذَا كَانَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كُلِّ شَيْءٍ آيَةً تَدُلُّ عَلَيْهِ، وَكَانَتْ آثَارُهُ تَمَلُّا الْوُجُودَ، فَكَيْفَ جَعَدَهُ الْجَاهِدُونَ؟! وَهَلْ وَجَدَ أَوْ يُوجَدُ وَاحِدٌ يُنْكِرُ ضَوْءَ الشَّمْسِ، مَعَ أَنَّ أَدْلَةَ وَجُودِهِ سُبْحَانَهُ أَوْفَرُ وَأَظْهَرُ؟! وَأُجِيبُ: بَأَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَشْعُرُ بِالْأَحْوَالِ إِذَا اتَّصَلَتْ، فَاللَّذَةُ تَزُولُ إِذَا

(١) كِتَابُ «الْإِكْتِرُونَ وَأَثَرُهُ فِي حَيَاتِنَا» لِجَبِينِ بَنْدَك، تَرْجَمَةُ الدَّكْتُورِ أَحْمَدُ أَبُو الْعَبَّاسِ: ٩، وَكِتَابُ «التَّكَامُلُ فِي الْإِسْلَامِ» لِلْأَسَازِ أَحْمَدُ أَمِينِ الْمُفَنِّشِ بَوْرَازَةِ الثَّرِيَّةِ الْعِرَاقِيَّةِ: ٢٠١. (مِنْهُ ﷺ).

(٢) نِسْ: ٨٣.

اسْتَمَرَّتْ، وَالْأَلَمُ يَنْقُصُ إِذَا اتَّصَلَ، وَطَقْطَقَةُ السَّاعَةِ مَهْمَا تَعْلُو لَا تَكَادُ تُسْمَعُ بَعْدَ أَنْ يَأْنَسَ بِهَا السَّمْعُ، وَالطَّحَانُ لَا يُفَيِّقُ مِنْ جَعَجَعَةِ رَحَاهُ، بَلْ مِنْ انْقِطَاعِهَا. وَقَدِيمًا مَلَّ بَنُو إِسْرَائِيلَ الْمَنَ وَالسَّلَوَى، وَقَالُوا: «لَنْ نُصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُدْبِئُ الْأَرْضُ مِنْ أَبْغِلْهَا وَقِثَّاءِهَا وَقُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلْهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ»^(١). كَمَا قِيلَ: أَنَّ الرَّاحَةَ فِي التَّغْيِيرِ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، وَأَنَّ النُّعْمَةَ لَا تُعْرَفُ إِلَّا بَعْدَ فَقْدِهَا. وَهَكَذَا عُرِفَتِ الشَّمْسُ بَعْدَ غِيَابِهَا، وَلَوْ دَامَ شُرُوقُهَا لَخَفِيَتْ عَلَى كَثِيرِينَ. قَالَ الْإِمَامُ الْغَزَالِيُّ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ: «اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكُوتٍ فِيهَا مِصْبَاحُ الْمِصْبَاحِ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيُّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ»^(٢).

«إِذَا رَأَيْتَ خُضْرَةَ الرَّبِيعِ فِي ضِيَاءِ النَّهَارِ، فَلَا تَشْكُ أَنَّكَ تَرَى الْأَلْوَانَ، وَرُبَّمَا ظَنَنْتَ أَنَّكَ لَا تَرَى مَعَ الْأَلْوَانِ ضِيَاءَ الشَّمْسِ، وَتَقُولُ: لَسْتُ أَرَى مَعَ الْخُضْرَةِ غَيْرَهَا، إِلَّا أَنَّكَ عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ تُدْرِكُ تَفْرِقَةً ضَرُورِيَّةً بَيْنَ اللَّوْنِ حَالٍ وَقُوعِ الضَّوِّ عَلَيْهِ، وَحَالِ عَدَمِ وَقُوعِهِ، فَلَا جَرَمَ تَعْرِفُ أَنَّ النَّورَ مَعْنَى يُخَالِفُ اللَّوْنَ،

(١) الْبَقَرَةُ: ٦١.

(٢) النَّور: ٣٥.

وَأَنَّهُ يُدْرِكُ مَعَ الْأَلْوَانِ، إِلَّا أَنَّهُ لَشِدَّةُ ظُهُورِهِ وَأَتْحَادُهُ بِاللُّونِ يَخْتَفِي، وَقَدْ يَكُونُ الظُّهُورُ سَبَبًا لِلْخَفَاءِ.

وَهَكَذَا لَمَّا تَسَاوَتْ الْأَشْيَاءُ كُلُّهَا عَلَى نَمَطٍ وَاحِدٍ فِي الشَّهَادَةِ عَلَى وَجُودِ خَالِقِهَا، وَأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ لَا بَغْضِ الْأَشْيَاءِ، وَفِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ لَا فِي بَعْضِهَا، لَمَّا تَسَاوَتْ الْأَشْيَاءُ - أَرْتَفَعَتِ التَّفَرُّقَةُ، وَخَفِيَ الطَّرِيقُ، لِأَنَّ الْأَشْيَاءَ كَثِيرًا مَا تُعْرَفُ بِالْأَضْدَادِ، فَمَا لَا ضِدَّ لَهُ تَتَشَابَهُ أَحْوَالُهُ، وَلَا يَبْعَدُ بَأَنَّ يَخْتَفِي، وَيَكُونُ خَفَاؤُهُ لَشِدَّةِ ظُهُورِهِ وَجَلَالَتِهِ. فَسُبْحَانَ الَّذِي دَلَّ عَلَى ذَاتِهِ بِذَاتِهِ، وَتَنَزَّاهُ عَنْ مُجَانَسَةِ مَخْلُوقَاتِهِ، وَأَخْتَفَى عَنِ الْخَلْقِ لَشِدَّةِ ظُهُورِهِ، وَأَحْتَجَبَ عَنْهُمْ بِإِشْرَاقِ نُورِهِ.

الإله الذي نَعْبُد

رَأَيْتُ عَدَدًا غَيْرَ قَلِيلٍ مِنَ الشَّبَابِ يُنْكِرُونَ الْخَالِقَ، لِإِعْتِقَادِهِمْ بِأَنَّهُ وَهُمْ مِنَ الْأَوْهَامِ، وَأُسْطُورَةٍ مِنَ الْأَسَاطِيرِ، فَهُوَ فِي أَذْهَانِهِمْ كَمَا هُوَ فِي خَيَالِ الْإِنْسَانِ الْبَدَائِيِّ قُوَّةٌ سِحْرِيَّةٌ تُفَسِّرُ بِهَا مُقْتَضِيَّاتِ الطَّبِيعَةِ، وَكَمَا هُوَ فِي أَذْهَانِ الْمُنْتَفِعِينَ يَخْدُمُ الْإِسْتِعْمَارَ وَالْإِقْطَاعَ، وَأَرْبَابَ الْبَجَاءِ وَالْمَالِ أَوْ فِي أَذْهَانِ الْعَجَائِزِ يَجْمَعُ بَيْنَ الْعِشَاقِ وَالْأَحْبَابِ، أَوْ كَمَا هُوَ فِي الْإِصْحَاحِ الْأَوَّلِ مِنْ سِفْرِ يُوحَنَّا اللَّاهُوتِيِّ، يَحْمِلُ فِي فَمِهِ سَيْفًا ذَا حَدَّيْنِ، وَفِي يَمِينِهِ سَبْعَةُ كَوَاكِبٍ^(١)، وَمَا إِلَيَّ ذَلِكَ مِمَّا أَبْتَدَعَهُ خَيَالُ الْإِنْسَانِ الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ. قَالَ صَاحِبُ كِتَابِ «الله والانسَان»:

«أَنَّ اللَّهَ عِنْدَ جَدِّي يُدَاوِي مِنَ الرُّومَانِيزِمِ، وَيَقْوِي الْمَفَاصِلَ، وَهُوَ عِنْدَ أُمِّي مَأْذُونٌ يَجْمَعُ رُؤُوسَ بَنَاتِهَا عَلَى رُؤُوسِ عَرْسَانِ أَغْنِيَاءَ فِي الْحَلَالِ، وَهُوَ عِنْدَ الْأَطْفَالِ يَشْبَهُ عَرُوسَةَ الْمَوْلَدِ، وَعِنْدَ إِنْشِيتَيْنِ مُعَادِلَةَ رِيَاضِيَّةٍ، وَهُوَ عِنْدَ عَاشِقٍ مِثْلِي حُبٌّ، وَهُوَ عِنْدَ مَشَايخِ الصُّوفِيَّةِ يُوزَعُ الْكَسَاوِي وَالْإِعَانَاتِ وَالْمَعَاشَاتِ»^(٢).

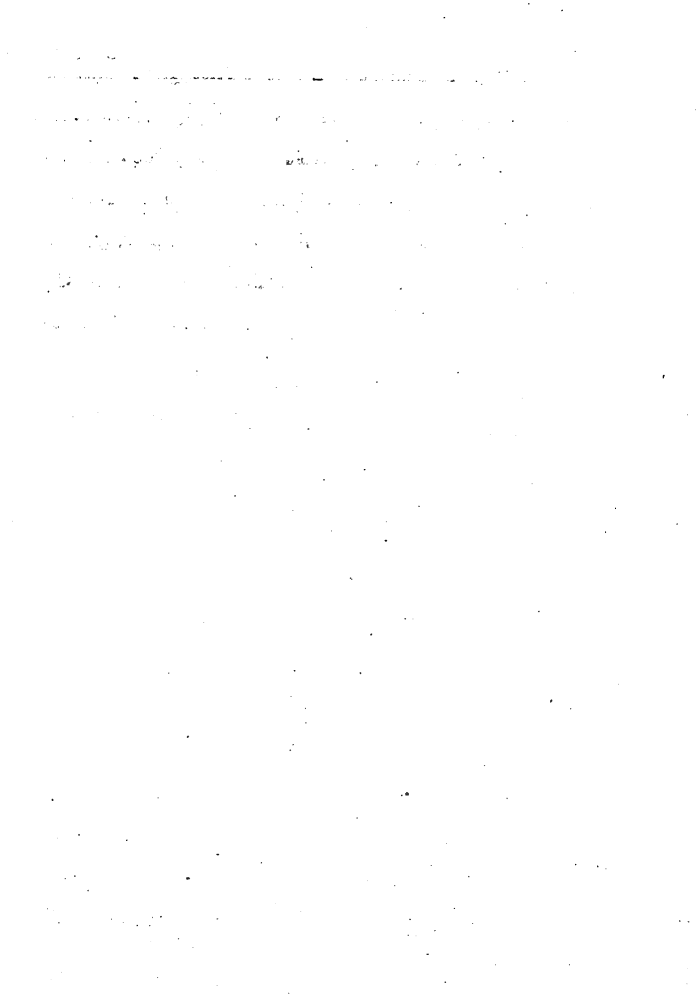
(١) كِتَابُ «بَيْنَ الدِّينِ وَالْعِلْمِ» لِأَنْدَرُ وَدِكسون وَآيت، تَرْجَمَةُ إِسْمَاعِيلِ مُظْهَر: ٦٠ طَبْعَةُ (١٩٣٠ م). (مِنْهُ ﷺ).

(٢) أَنْظَر. كِتَابُ «الله والانسَان» لِمُصْطَفَى مُحَمَّد: ١٠٠ الطَّبْعَةُ الْأُولَى سَنَةِ (١٩٥٧ م). (مِنْهُ ﷺ).

وَنَحْنُ رِجَالُ الدِّينِ نَلْتَقِي مَعَ الْكَاتِبِ فِي أَنَّ هَذَا الرَّبَّ الَّذِي تُصَوِّرُهُ الْأَطْفَالُ وَهَؤُلَاءِ الْمُتَصَوِّفُونَ لَا وَجُودَ لَهُ. وَأَظُنُّ أَنَّ الْكَاتِبَ أَيْضاً يَلْتَقِي مَعَ الرَّاشِدِينَ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ لَوْ عَرَفَ اللَّهُ كَمَا عَرَفُوهُ بِأَوْصَافِهِ وَأَفْعَالِهِ عَلَى حَقِيقَتِهَا، وَعَلَيْهِ تَكُونُ الْمَسْأَلَةُ بَيْنَهُمْ مَسْأَلَةُ الْتِبَاسِ وَسُوءِ تَفَاهُْمٍ: ظَنَّ الْكَاتِبُ أَنَّ الدِّينَ مِنْ صُنْعِ الْإِنْسَانِ، وَأَنَّ الْإِلَهَ مِنْ وَهْمِ الْخَيَالِ فَجَحَدَ وَفَنَدَ، وَهُوَ عَلَى حَقٍّ لَوْ كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، وَلَكِنْ أَنَّى يَكُونُ؟! وَهَلْ يَسْتَطِيعُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَفْرَضَ تَصَوُّرَاتِهِ عَلَى الْكَائِنَاتِ الْمَوْجُودَةِ، بَلِ الْعَكْسُ لَوْ هُوَ الصَّحِيحُ، لِأَنَّ الْكَائِنَ يُوجَدُ مُسْتَقِلاً عَنْ كُلِّ إِحْسَاسٍ وَتَفَكُّيرٍ. وَقَدْ تَصَوَّرَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَأَعْتَقَدُوا أَنَّ الْأَرْضَ مُسَطَّحَةً تَقُومُ عَلَى قَرْنِ الثَّوْرِ، وَأَنَّ الشَّمْسَ تَدُورُ حَوْلَ الْأَرْضِ وَمَا زَالُوا حَتَّى الْيَوْمِ يَقُولُونَ طَلَعَتِ الشَّمْسُ، وَغَرَبَتِ الشَّمْسُ، فَهَلْ لِعَاقِلٍ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ هَذِهِ الْأَوْهَامِ وَالْأَخْطَاءِ دَلِيلًا عَلَى عَدَمِ وَجُودِ الْأَرْضِ وَالشَّمْسِ، لِأَنَّ النَّاسَ رَسَمُوا لَهَا فِي أَدْهَانِهِمْ أَشْكَالاً كَاذِبَةً؟! ...

وَلَا أُدْرِي كَيْفَ اعْتَمَدَ مُصْطَفَى مُحَمَّدٍ وَأَمْثَالُهُ لِنَفْيِ الْخَالِقِ عَلَى تَخِيلَاتِ الْعَجَائِزِ وَالْأَطْفَالِ، وَتَجَاهُلُوا أَفْكَارَ الْأَقْطَابِ الْكِبَارِ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ إِلَهًا لَمْ تَبْتَدِعْهُ الْخَوَاطِرُ وَالظُّنُونُ، بَلْ تَجَلَّى لِلْعُقُولِ النَّبِيرَةِ، وَالْقُلُوبِ الصَّافِيَةِ بِقُدْرَتِهِ، وَأَنَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ، وَهُوَ لَا يَقْتَرِفُ إِلَى شَيْءٍ، وَلَا يَظْلِمُ أَحَدًا، وَيَنْهَى عَنِ الظُّلْمِ وَيُعَاقِبُ عَلَيْهِ، يَحْكُمُ بِالْقِسْطِ وَيَأْمُرُ بِهِ، وَيُكَافِيهِ أَهْلَهُ بِأَضْعَافٍ مَا يَسْتَحِقُّونَ، يُسَاوِي بَيْنَ الْجَمِيعِ دُونَ تَفَاضُلٍ إِلَّا بِالتَّقْوَى وَصَالِحِ الْعَمَلِ، لَا يَعْزِبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، كَرِيمٌ رَحِيمٌ لَا يَبْأَسُ أَحَدٌ مِنْ رَحْمَتِهِ، لِأَنَّهَا أَوْسَعُ مِنْ غَضَبِهِ وَنَقْمَتِهِ. هَذَا جُزْءٌ مِنْ صِفَاتِهِ الْقُدْسِيَّةِ الَّتِي لَا تُحِيطُ بِهَا الْأَفْهَامُ، وَتَجْمَعُهَا

كَلِمَةً وَاحِدَةً، وَهِيَ أَنَّ كُلَّ مَا يُمكن نِسْبَتُهُ إِلَيْهِ تَعَالَى مِنَ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَالْجَمَالِ
فَهُوَ ثَابِتٌ لَهُ بِالضَّرُورَةِ، إِذْ لَا فَرْقَ بِالْقِيَاسِ إِلَيَّ وَاجِبُ الوجود بَيْنَ الْقُوَّةِ وَالْفِعْلِ .
هَذَا هُوَ الْإِلَهَ الَّذِي نَعْبُدُهُ وَنَدْعُو إِلَيْ عِبَادَتِهِ، وَهُوَ يُغَايِرُ الْإِلَهَ الَّذِي يَعْْبُدُهُ
الْإِنْتِهَازِي وَيَدْعُونَا إِلَيْ عِبَادَتِهِ. أَنَّ إِلَهَنَا الْفَضِيلَةَ وَالْخَيْرَاتِ، لَا إِلَهَ إِلَّا الْأَسَاطِيرُ
وَالْخَرَافَاتِ، وَلَا حَامِي الْأَسْطُولِ السَّادِسِ وَالشَّرَكَاتِ وَمَنْ كَفَرَ بِمَا نُدِينُ وَنَعْبُدُ
فَقَدْ كَفَرَ بِالْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَالْجَمَالِ .



العقل... وعالم ما بعد الموت

حرية الفكر:

كُلُّ شَيْءٍ يَقْبَلُ التَّسَاوُلَ وَالنَّقَاشَ حَتَّى الْأَدْيَانُ. هَذَا حَقٌّ لَا رَيْبَ فِيهِ، وَلَكِنْ لِمَنْ يُعْطَى هَذَا الْحَقُّ؟ يَسْأَلُ الطِّفْلُ عَنْ كُلِّ مَا يَرَاهُ: مَا هَذَا؟ مَنْ أَوْجَدَهُ. وَلِمَاذَا وَجَدَ... وَيَفْرُضُ الْأَبُ السَّكُوتَ عَلَى طِفْلِهِ لَا لَعَجْزِهِ عَنِ الْجَوَابِ، بَلْ لِأَنَّ عَقْلَ السَّائِلِ لَا يَتَسَّعُ لَشَيْءٍ. وَمَهْمَا عَظُمَتْ مَقْدَرَةُ الْأَبِ فَإِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَدْخُلَ الْأَرْضَ فِي الْبَيْضَةِ، وَمُهَنْدِسُ الْعِمَارِ لَا يُمَكِّنُهُ أَنْ يَبْنِيَ قَصْرًا مِنْ حَبَّةِ الرَّمْلِ. وَأَجْمَلُ مَا قِيلَ فِي ذَلِكَ: «أَنَّهُ عَجَزَ فِي الْمَقْدُورِ لَا فِي الْقَادِرِ، وَفِي الْفِعْلِ لَا فِي الْفَاعِلِ». كَذَلِكَ نَحْنُ الرُّجَالُ كَالْأَطْفَالِ فِي عَقُولِنَا لَا نُدْرِكُ النُّظَرِيَّاتِ وَالْحَقَائِقَ الْعِلْمِيَّةَ. وَأَنْ تَقْدَمْنَا فِي السَّنِ مَا لَمْ نُؤْهِلْ أَنْفُسَنَا بِالدَّارَسَةِ لِلتَّفَكِيرِ الْعِلْمِيِّ، فَإِذَا دَرَسَ الْإِنْسَانُ وَتَعَلَّمَ أَصْبَحَ عَالِمًا فِي مِهْنَتِهِ فَقَطْ، أَمَّا فِي غَيْرِهَا فَيَبْقَى عَلَى جَهْلِهِ كَالطِّفْلِ لَا فَرْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ إِلَّا بِأَنَّ الْكَبِيرَ يَشْعُرُ بِقُصُورِهِ عَنِ التَّفْهَمِ دُونَ الصَّغِيرِ. إِذْ لَا يَحِقُّ لِلْفِيلَسُوفِ أَنْ يُنْكِرَ عَلَى الْفَلَّاحِ مَعْرِفَتَهُ بِالزَّرَاعَةِ تَمَامًا كَمَا لَا يُسَوِّغُ لِلْفَلَّاحِ أَنْ يُنَاقِشَ الْفِيلَسُوفَ فِي مَنْطِقِهِ وَاسْتِنَاجِهِ، فَكُلٌّ مِنْهُمَا عَالِمٌ بِمَا يَجْهَلُهُ الْآخَرُ، هَذَا، مَعَ الْعِلْمِ أَنَّ مَا تَوَصَّلَ إِلَيْهِ الْعَالِمُ الْمُتَخَصِّصُ فِي مَوْضُوعٍ دَرَسْتَهُ لَيْسَ إِلَّا قَطْرَةٌ مِنْ بَحْرٍ: «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ

مِنْ أَلْعَلِمَ إِلَّا قَلِيلًا»^(١).

إِذَنْ حُرِّيَّةُ الْفِكْرِ تُعْطَى لِأَصْحَابِ الْفِكْرِ الَّذِينَ يَمْتَازُونَ بِالْقُدْرَةِ عَلَى الْمُلَاحَظَةِ وَمَعْرِفَةِ الْمَقَائِيسِ، أَمَّا الْجَاهِلُ فَهُوَ كَالْطِفْلِ لَا يَتَسَّعُ فِكْرُهُ لِإِدْرَاكِ الْحَقِيقَةِ، فَكَيْفَ يُسَمَحُ لَهُ بِأَنْ يَكُونَ صَاحِبَ الرَّأْيِ فِي مَجَالِ الْعِلْمِ وَالتَّحْقِيقِ؟! أَنْ إِطْلَاقَ الْعِنَانِ لِلْجُهَالِ وَالْأَطْفَالِ مَعْنَاهُ الْفَوْضَى وَالْإِنْهْيَارُ. أَنَّ الْقُوَّةَ شَرْطَ أُسَاسِي فِي الْحُرِّيَّةِ بِشَتَّى أَنْوَاعِهَا، فَقُوَّةُ الْوَعْيِ وَالتَّضَوُّجِ شَرْطٌ لِحُرِّيَّةِ التَّفَكُّيرِ؛ وَقُوَّةُ الْمَالِ شَرْطٌ لِحُرِّيَّةِ الشَّرَاءِ؛ وَقُوَّةُ الصَّحَّةِ شَرْطٌ لِحُرِّيَّةِ الْعَمَلِ وَالسَّفَرِ.

وَمُصْطَفَى مُحَمَّدٌ يَعْتَرِفُ بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ، حَيْثُ قَالَ فِي كِتَابِهِ: «اللَّهُ وَالْإِنْسَانُ» لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَخْتَارَ شَيْئًا إِلَّا إِذَا كُنْتَ تَمْلِكُ ثَمَنَهُ، وَإِذَا كُنْتَ لَا تَمْلِكُ شَيْئًا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَتَّخِرَ»^(٢). وَقَالَ فِي مَكَانٍ آخَرَ: «أَسْتَطِيعُ أَنْ أُمْتَنِعَ عَنِ الْأَكْلِ، وَلَكِنِّي لَوْ أُمْتَنَعْتُ عَنِ الْأَكْلِ فَإِنِّي أَمُوتُ، وَبِالنَّالِي تَمُوتُ حُرِّيَّتِي مَعِي»^(٣) وَعَلَى هَذَا الْأَسَاسِ يَصِحُّ الْقَوْلُ: لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُنَاقَشَ وَيَرْفُضَ إِلَّا إِذَا تَوَفَّرَتْ لَهُ قُوَّةُ التَّمَيُّزِ وَالْمَعْرِفَةِ.

وَقَدْ تَكَلَّمَ الْمُؤَلَّفُ عَنِ «اللَّهُ وَالْإِنْسَانِ» وَحَقَّ عَلَيَّ وَعَلَى كُلِّ مُنْصِفٍ أَنْ يَعْتَرِفَ بِأَنَّهُ يَمْلِكُ الْخُبْرَةَ الْكَافِيَةَ فِي كَثِيرٍ مِنْ أَمْرَاضِ الْمُجْتَمَعِ وَعِلَاجِهَا، وَقَدْ ظَهَرَتْ هَذِهِ الْخُبْرَةُ فِي كَلَامِهِ عَنِ الْحُرِّيَّةِ، وَمَنْطِقِ اللَّصِّ، وَمَعْنَى التَّقَدُّمِ، وَأَبْدَى مُلَاحَظَاتٍ دَقِيقَةً وَنَافِعَةً. أَمَّا أُسْلُوبُهُ فَعُطْرٌ وَزَهْرٌ، وَلَيْتَهُ أَطَالَ الْكَلَامَ عَنِ الْإِنْسَانِ

(١) الْإِنْشَاء: ٨٥.

(٢) أَنْظِرْ، كِتَابُ «اللَّهُ وَالْإِنْسَانِ» لِمُصْطَفَى مُحَمَّدٍ: ١٠٢ الطَّبْعَةُ الْأُولَى سَنَةِ (١٩٥٧ م). (مِنْهُ ﷺ).

(٣) أَنْظِرْ، كِتَابُ «اللَّهُ وَالْإِنْسَانِ» لِمُصْطَفَى مُحَمَّدٍ: ١١١ الطَّبْعَةُ الْأُولَى سَنَةِ (١٩٥٧ م). (مِنْهُ ﷺ).

وَحَصَرَ مَوْضُوعَهُ فِيهِ وَحْدَهُ، وَتَرَكَ الْحَدِيثَ عَنْ «الله» لِدَوِي الْإِخْتِصَاصِ، وَلَوْ
فَعَلَ لَسَلِمَ مِنْ تُهْمَةِ الْقَوْلِ بِلَا دَلِيلٍ، وَمِنَ الْجَزْمِ فِي مَقَامِ الشَّكِّ.

الكلب المتدين:

قَالَ الْمُؤَلَّفُ (مُصْطَفَى مَحْمُود):

«هَلْ رَأَيْتِ الْخَوْفَ وَالذُّهُولَ فِي عَيْنِ الْكَلْبِ، وَهُوَ يَتَأَمَّلُ وَرَقَةً طَائِرَةً فِي
الْهَوَاءِ. أَنَّهُ لَا يَرَى الْهَوَاءَ... وَأَرَاهَنَ أَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَى الْوَرَقَةِ كَمَا يَنْظُرُ إِلَى مَخْلُوقٍ
حَتَّى... وَيَظُنُّ أَنَّ بِهَا رُوحًا تُحَرِّكُهَا، أَنَّهُ كَلْبٌ مُتَدِينٌ»^(١).

وَنَحْنُ نَفْتَرِضُ الصِّدْقَ -جَدَلًا- فِي هَذَا الْقَوْلِ، وَلَا نَتَأَقَّشُ مُدَّعِيَهُ، لِأَنَّا نَجْهَلُ
لُغَةَ الْكِلَابِ، وَقِرَاءَةَ أَفْكَارِهَا وَلَكِنَّا نَسْأَلُ الْكَاتِبَ: إِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَمَاذَا
يَكُونُ؟ وَمَا هِيَ النَّتِيجَةُ الْيَقِينِيَّةُ لَخَوْفِ الْكَلْبِ مِنَ الْوَرَقَةِ؟! لِنَفْتَرِضَ أَنَّ النَّتِيجَةَ
هِيَ تَدِينُ الْكَلْبِ، وَأَنَّ هَذَا التَّدِينُ كَانَ بَدَافِعِ الْخَوْفِ مِنَ الْوَرَقَةِ فَهَلْ لَازِمٌ ذَلِكَ أَنَّ
تَدِينُ الْفَيْلَسُوفِ الْحَكِيمِ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ تَمَامًا كَتَدِينِ الْكَلْبِ؟! وَإِذَا كَانَتْ عُقُولُ
الْفَلَّاسِفَةِ وَكُلٌّ مَن آمَنَ بِمَا وَرَاءَ الطَّبِيعَةِ «كِعُقُولُ» الْكِلَابِ، فَمِنْ أَيِّ نَوْعٍ هُوَ عَقْلُ
الْكَاتِبِ؟! وَبِمَاذَا نُسَمِّي هَذَا الْإِسْتِدْلَالَ؟! هَلْ نُسَمِّيهِ دَلِيلَ الْإِسْتِقْرَاءِ، أَيْ أَنَّ
الْكَاتِبَ تَتَّبَعَ عُقُولَ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ مِنَ النَّاسِ وَاحِدًا وَاحِدًا، ثُمَّ تَتَّبَعَ عُقُولَ الْكِلَابِ

(١) انظر، كِتَابُ «اللهُ وَالْإِنْسَانُ» لِمُصْطَفَى مَحْمُود: ١٠٣ الطَّبْعَةُ الْأُولَى سَنَةِ (١٩٥٧م).

أَخَذَ مُصْطَفَى مَحْمُودُ هَذَا الْقَوْلَ بِخَرْفِهِ مِنْ كِتَابِ مَبَاهِجِ الْفَلَسَفَةِ: ١٩٩/٢، تَرْجُمَةُ أَحْمَدَ
الْأَهْوَاني، وَتَنْقُلُ عِبَارَةَ هَذَا الْكِتَابِ لِلْمُقَارَنَةِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ عِبَارَةِ مُصْطَفَى مَحْمُود. قَالَ صَاحِبُ مَبَاهِجِ
الْفَلَسَفَةِ: «أَلَمْ تَرَ الدَّهْشَ الْخَوْفَ فِي عَيْنَيْ كَلْبٍ، وَهُوَ يَرَى وَرَقَةً يَدْفَعُهَا الرِّيحُ، وَأَتَى لِأَرَاهَنَ أَنَّهُ تَحْيَلُ
وَجُودَ رُوحٍ فِي الْوَرَقَةِ تَجْعَلُهَا تَتَحَرَّكُ، أَنَّهُ كَلْبٌ مُتَدِينٌ». (مِنْهُ ﷺ).

« الْمُتَدِينِينَ » الْوَاحِدَ بَعْدَ الْآخِرِ ، وَلَمَّا رَأَاهَا مُتَشَابِهَةً مِنْ جَمِيعِ النَّوَاحِي بِهَذِهِ
النَّاتِجَةِ الْحَتْمِيَّةِ ؟ !.

وَأَقْسِمُ قَسَمَ حَقٍّ وَصِدْقٍ أَنَّ أَدْلَةَ الْمُلْحِدِينَ كُلَّهَا مِنْ هَذَا النَّوعِ تَغْرُقُ فِي بَحْرِ
مِنِ الْمُتَنَاقِضَاتِ ، وَتَتَبَخَّرُ مَعَ الْهَوَاءِ بِلَا مَدْلُولٍ مَعْقُولٍ .

الْمَوْتُ :

قَالَ مُصْطَفَى مَحْمُود :

النَّفْسُ ظَاهِرَةٌ مِنْ ظَوَاهِرِ الْجِسْمِ ، أَتَاهَا الْحَرَارَةُ الْمُتَبَعَّةُ مِنَ الْفِرْنِ . وَإِذَا انْطَفَأَ
الْفِرْنُ ، وَتَحَوَّلَ إِلَى رَمَادٍ انْطَفَأَتْ وَضَاعَتْ ... أَنَّ دَعْوَى الْخُلُودِ الشَّخْصِي لَا
يَسْنِدُهَا الْعِلْمُ كَمَا أَنَّ الدَّوَاعِي الْإِجْتِمَاعِيَّةَ الَّتِي اسْتَلْزَمَتْ افْتِرَاضَ بَقَائِنَا بَعْدَ
الْمَوْتِ قَدْ أَتَتْهُ ... أَنَّ دَوْرَانَ الْعَجَلَةِ فِي الْمَعْمَلِ يَسْتَطِيعُ بَأَنٍ يُوَلِّدُ حَرَارَةَ
وَكَهْرَبَاءَ وَضَوْءٍ وَمُغْنَطِيسِيَّةَ ... وَالْإِنْسَانُ أَيْضاً ظَاهِرَةٌ مُوقْتَةٌ ... وَهُوَ يَمُوتُ
كَغَيْرِهِ مِنَ الظُّوَاهِرِ ^(١) .

يَدْعِي الْكَاتِبُ أَنَّهُ لَا حَشَرَ ، وَلَا نَشَرَ ، وَلَا عَالَمَ آخَرَ غَيْرَ عَالِمِنَا هَذَا ، وَدَلِيلُهُ أَنَّ
النَّارَ إِذَا انْطَفَأَتْ تَحَوَّلَ الْحَطَبُ إِلَى رَمَادٍ ، وَأَنَّ الْعَجَلَةَ فِي مَوْلِدِ الْكَهْرَبَاءِ إِذَا تَوَقَّفَتْ
إِنْقَطَعَ التَّيَّارُ الْكَهْرَبَائِيُّ ، فَكَذَلِكَ الْإِنْسَانُ إِذَا مَاتَ ! وَهَذَا الدَّلِيلُ تَمَاماً كَالدَّلِيلِ
السَّابِقِ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ الْمُؤْمِنَ كَالْكَلْبِ الْمُتَدِينِ الَّذِي خَافَ مِنَ الْوَرَقَةِ ! وَلَا
أَدْرِي مَا هِيَ الْعِلَاقَةُ بَيْنَ إِنْسَانٍ مُتَّقٍ كَمُصْطَفَى مَحْمُودٍ ، وَبَيْنَ الْحَطَبِ الَّذِي
يَسْتَعْمَلُهُ لِلطَّبْخِ وَالتَّدْفِئَةِ ، كَمَا خَفِيَ عَلَيَّ وَجْهُ الشُّبْهِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعَجَلَةِ فِي الْمَعْمَلِ

(١) أنظر . كتاب « الله والإنسان » لمُصْطَفَى مَحْمُود : ١١٨ الطبعة الأولى سنة (١٩٥٧م) . (مِنُهُ ﷺ) .

الَّذِي يُوَلِّدُ الْكَهْرْبَاءَ؟! وَهَلْ تَسْتَطِيعُ الْأَشْجَارُ، وَالْحَيَوَانَاتُ، وَالْمَصَانِعُ وَكُلُّ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ مَا عَدَا الْإِنْسَانَ أَنْ تُكْتُبَ مَقَالًا وَاحِدًا يُشَبِّهَ مَقَالًا مِنْ كَلِمَاتِ الْمُؤَلِّفِ فِي مَجَلَّةِ «رُوزِ الْيُوسُفِ»؟! وَهَلْ لَهَا نَشْرُ كَثْرَةِ السَّاحِرِ الْمُتَمَتِّعِ؟! لَا يَا أَسْتَاذ... أَنْ الْفَرْقَ كَبِيرَ بَيْنِكَ وَبَيْنَ الْقَلَمِ الَّذِي تُكْتُبُ بِهِ.

وَمَهْمَا يَكُنْ، فَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أَنْكَرُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ قَدْ اعْتَمَدُوا لِإِنْكَارِهِمْ عَلَى أَنَّ الْعَقْلَ نَوْعٌ مِنَ الْمَادَّةِ، وَأَنَّهُ فِي جَمِيعِ وَظَائِفِهِ جُزْءٌ مِنَ الْجِسْمِ يَنْمُو بِنَمُوهِ، وَيَفْنَى بِفَنَائِهِ، فَهُوَ أَشْبَهَ شَيْءٍ بِالتَّنَفُّسِ وَالْإِفْرَازِ، فَكَمَا أَنَّهُ لَا تَنْفَسُ وَلَا إِفْرَازَ بِلَا جِسْمٍ كَذَلِكَ لَا عَقْلَ بِدُونِهِ^(١).

الجواب:

أَوَّلًا: إِذَا نَظَرْنَا إِلَى أَدَلَّةِ الْقَائِلِينَ بِأَنَّ الْعَقْلَ نَوْعٌ مِنَ الْمَادَّةِ نَجِدُهَا مَصَادِرَةً عَلَى الْمَطْلُوبِ، حَيْثُ يَتَّخِذُونَ أَدْلَتَهُمْ مِنَ الدَّعْوَى نَفْسَهَا. كَقَوْلِكَ: «زَيْدٌ هُوَ ابْنُ نَزَارٍ بِدَلِيلٍ أَنَّ نَزَارًا أَبٌ لَزَيْدٍ» هَذَا، وَمَعَ الْمَوَافَقَةِ وَالتَّسْلِيمِ بِأَنَّ الْعَقْلَ جِسْمٌ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْعُلَمَاءِ ذَهَبُوا إِلَى أَنَّ الْجِسْمَ لَا يَفْنَى، وَأَنَّ التَّغْيِيرَاتِ الَّتِي تَحْدُثُ فِيهِ إِنْ هِيَ إِلَّا إِنْتِقَالٌ وَتَحْوِيلٌ مِنْ صُورَةٍ إِلَى أُخْرَى بِطَرِيقَةٍ مُطَرَّدَةٍ.

ثَانِيًا: مِنَ الْمَعْلُومِ لَدَى الْجَمِيعِ أَنَّ عَمَلَ الْعَقْلِ هُوَ مُلَاحَظَةُ الْحَوَادِثِ، وَتَمْيِيزُ بَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ، وَالتَّحْقِيقُ عَنْ عِلْلِهَا وَأَسْبَابِهَا، ثُمَّ اسْتِنْتَاجُ الْحَقَائِقِ، وَكَثِيرًا مَا تَنْتَقِلُ مِنْ حَقِيقَةٍ عَقْلِيَّةٍ إِلَى أُخْرَى مِثْلَهَا، فَتَكُونُ الْعَمَلِيَّةُ ذَهْنِيَّةً تَأْمَلِيَّةً صِرْفًا بَحَيْثُ لَا يُمَكِّنُ بِحَالٍ بِأَنَّ تَرْجِعَهَا - مِنْ غَيْرِ جَدَلٍ وَنَقَاشٍ - إِلَى الْمَادَّةِ، لِأَنَّ الْمَادَّةَ لَا تُدْرِكُ نَفْسَهَا بِنَفْسِهَا، وَلَا يُكَذِّبُ مَا شَهِدَتْ بِهِ. أَنَّ الْعَيْنَ تَرَى الشَّمْسَ جُرْمًا

(١) أنظر، كتاب «الله والإنسان» لمصطفى محمود: ١١٩ الطبعة الأولى سنة (١٩٥٧م). (منه ❦).

صَغِيرًا، وَالْعَقْلُ تُكَذِّبُهَا، فَلَوْ كَانَ مَادَّةً كَالْعَيْنِ لَكَذَّبَتِ الْمَادَّةُ نَفْسَهَا وَحَكَمَتِ عَلَى الشَّيْءِ الْوَاحِدِ بِأَنَّهُ كَبِيرٌ وَصَغِيرٌ.

ثَالِثًا: أَنَّ الْعُلَمَاءَ قَارَنُوا مُقَارَنَةً دَقِيقَةً بَيْنَ قُوَى الْإِدْرَاكِ وَوِزْنِ الْمُخِ، وَمُقَدَّارِ سَطْحِهِ، وَعَدَدِ تَلَافِيْفِهِ فَلَمْ يَجِدُوا فَرْقًا بَيْنَ رَأْسِ إِبْنِشْتِينَ وَرَأْسِ أَيِّ هَمَجِي. وَلَوْ كَانَ الْعَقْلُ هُوَ الْمُخُ لَتَنَوَّعَتِ الرُّؤُوسُ بِتَنَوُّعِ الْعُقُولِ، وَلَوْ جَبَّ بِأَنْ نَجِدَ فَجَوَاتٍ وَآفَاتٍ فِي الْمُخِ إِذَا نُسِيَ بَعْدَ الْحِفْظِ، وَأَنْ يَحْصَلَ الْإِلْتِمَامُ إِذَا تَذَكَّرَ بَعْدَ النِّسْيَانِ. أَنَّ الْآلَةَ الَّتِي تُعْطِيكَ صَوْتًا خَاصًّا أَوْ حَرَكَةً مُعَيَّنَةً لَا تُعْطِيكَ غَيْرَهَا إِلَّا إِذَا غَيَّرْتَ فِيهَا وَبَدَلْتَ. وَالظُّوَاهِرُ الْمُخْتَلَفَةُ الْمُتَبَايِنَةُ لَا تَصُدِّرُ عَنْ مَادَّةٍ وَاحِدَةٍ بِشَكْلِهَا وَمَوْضُوعِهَا وَحَقِيقَتِهَا.

وَبَتَقَرِّيبِ ثَانٍ أَنَّ لِلْجِسْمِ خَصَائِصَ، أَظْهَرَهَا إِذَا قِيلَ شَكْلًا مِنَ الْأَشْكَالِ، كَالْتَّلْثِثِ فَلَا يَقْبَلُ غَيْرَهُ مِنَ التَّرْبِيعِ وَالتَّدْوِيرِ إِلَّا بَعْدَ زَوَالِ الشَّكْلِ الْأَوَّلِ، وَإِذَا قِيلَ صُورَةٌ مِنْ نَقْشٍ أَوْ رَسْمٍ فَلَا يَقْبَلُ أُخْرَى. فَإِذَا رُسِمَتْ صُورَةٌ عَلَى لَوْحَةٍ أَوْ وَرَقَةٍ فَلَا يُمْكِنُكَ بِأَنْ تَرَسِمَ عَلَيْهَا شَيْئًا غَيْرَهَا حَتَّى تُمَحِّىَ الْأُولَى، أَمَّا الْعَقْلُ فَتَتَرَاكُمُ فِيهِ الْإِنْطِبَاعَاتُ الْمُخْتَلَفَةُ وَالصُّوَرُ الْمُتَنَوِّعَةُ مِنَ الْمَحْسُوسَاتِ وَالْمَعْقُولَاتِ دُونَ أَنْ تُمَحِّىَ الْأُولَى، بَلْ تَبْقَى كَامِلَةً، وَتَزْدَادُ قُوَّةً بِالثَّانِيَةِ، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يَزْدَادُ فَهْمًا كُلَّمَا أَزْدَادَ عِلْمًا. وَهَذِهِ صِفَةٌ مُضَادَّةٌ لَصِفَاتِ الْأَجْسَامِ الَّتِي يَلْحَقُهَا الْفُتُورُ وَالْكُلُلُ كُلَّمَا تَكَدَّسَتْ عَلَيْهَا الْأَثْقَالُ.

أَمَّا الْقَوْلُ بِأَنَّ الْعَقْلَ لَا يُوْجَدُ مِنْ غَيْرِ مُخٍّ فَأَمْرٌ لَا أَسْتَطِيعُ الْجَزْمَ بِهِ وَكُلَّ مَا أَعْلَمُهُ بِأَنَّ الْجِسْمَ لَا يُدْرِكُ مِنْ غَيْرِ عَقْلٍ، وَأَنَّ الْعَقْلَ أَسْمَ مُجَرَّدٍ نَظْلَقَهُ عَلَى عَمَلِيَةِ التَّفَكِيرِ وَالنَّظَرِ، وَأَنَّهُ يُغَايِرُ الْمَادَّةَ، وَالْمَادَّةُ تُغَايِرُهُ. أَمَّا أَفْتَقَارُ الْعَقْلِ إِلَى الْجِسْمِ

فَعِلْمَهُ عِنْدَ رَبِّي، كَمَا أَنِّي مَا زِلْتُ أَجْهَلُ نَوْعَ الْعِلَاقَةِ بَيْنَ الْعَقْلِ وَالْمُخِّ، وَهَلْ هِيَ
عِلَاقَةٌ حَالٌ وَمَحَلٌ، أَوْ كَعِلَاقَةِ الْحَيَاةِ بِالْجِسْمِ، أَوْ كَعِلَاقَةِ الْآلَةِ بِمُدِيرِهَا. اللَّهُ أَعْلَمُ.
وَإِذَا عَجَزْنَا عَنْ تَصَوُّرِ وَجُودِ الْعَقْلِ بِلَا مُخٍّ، وَعَنْ نَوْعِ الْعِلَاقَةِ بَيْنَهُمَا فَذَلِكَ لِنَقْصِ
فِينَا نَحْنُ لَا لَعَدَمِ إِمْكَانِهِ فِي ذَاتِهِ.

وَبِالْتَّالِي، فَإِنَّ مُصْطَفَى مَحْمُودٍ أَنْكَرَ الْعَالَمَ الْآخَرَ، لِأَنَّهُ عَجَزَ عَنْ رَسْمِ خَرِيطَةِ
أَوْ صُورَةِ هَنْدَسِيَّةٍ لَهُ. أَمَّا سَقَرَاطُ وَأَمْثَالُهُ مِنْ أَرْبَابِ الذِّكَاةِ وَالْفِكْرِ فَقَدْ حَكَمُوا
عَلَى الَّذِينَ جَحَدُوا يَوْمَ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ بِمَا يَعْمَلُونَ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، حَكَمُوا
عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ أَمَوَاتٌ فِي صُورٍ مُتَحَرِّكَةٍ كَصُورِ الْأَفْلَامِ.

وَأَكْتَفَى الْآنَ بِهَذِهِ الْإِشَارَةِ تَارِكاً التَّفْصِيلَ إِلَى كِتَابِ مُسْتَقِلٍّ يَجْمَعُ أَقْوَالَ
الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُلْحِدِينَ وَكُلَّ مَا يَتَّصِلُ بِهَذَا الْمَوْضُوعِ الْخَطِيرِ، وَأَسْمَ الْكِتَابِ
«الْآخِرَةُ وَالْعَقْلُ». وَغَرَضِي مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَةِ أَنْ أَسْتَدْرِكَ بِهَا مَا لَمْ أَتَعَرَّضْ لَهُ فِي
رَدِّي عَلَى الْكَاتِبِ الَّذِي نَشَرَتْهُ فِي صُحُفِ الْقَاهِرَةِ وَبَيْرُوتَ، ثُمَّ أَدْرَجْتَهُ فِي كِتَابِي
«الْإِسْلَامُ مَعَ الْحَيَاةِ».

وَحَتَمًا أَوْدَ التَّنْبِيهِ إِلَيَّ أَنْ كَلَامَ مُصْطَفَى مَحْمُودٍ عَنْ: «لُغْزُ مَا بَعْدَ الْمَوْتِ كَلَامٌ
نَاقِلٌ لَا مُؤَلَّفٌ، وَمُتَرَجِمٌ لَا وَاضِعٌ. أَنَّهُ لَا يَمْلِكُ مِمَّا يَذْكُرُهُ فِي كِتَابِهِ إِلَّا التَّبْسِيطُ
وَالْتَّوْضِيحُ، وَتَحْوِيلُ الْغَامِضِ إِلَى مَفْهُومٍ. فَلَقَدْ سَلَخَ جَمِيعَ الْمُلَاحَظَاتِ الَّتِي
دَوَّنَهَا «وَل ديورانت» تَحْتَ عُنْوَانِ الْمَوْتِ فِي كِتَابِهِ «مَبَاهِجُ الْفَلَسَفَةِ»^(١). أَمَّا
الْأَفْكَارُ الَّتِي ذَكَرَهَا مُصْطَفَى مَحْمُودٍ فِي الْمَوْضُوعَاتِ الْآخِرَةِ فَقَدْ أَسْتَوْحَى الْكَثِيرَ
مِنْهَا مِنْ كِتَابِ «فَلَسَفَةُ مِنَ الصِّينِ» لِلْفِيلَسُوفِ الصِّينِيِّ الشَّهِيرِ «لِين

(١) أنظر، مَبَاهِجُ الْفَلَسَفَةِ: ٣٠٣/٢، تَرْجَمَةُ أَحْمَدَ الْأَهْوَاني، طَبْعَةُ ١٩٥٦ م. (مِنهُ ﷺ).

يوتانغ «وَبَخَاصَّة مَا ذَكَرَهُ بِعُنْوَان: «فِي كَوْنِنَا ذَوِي مِعْدَةٍ»^(١). وَلَيْسَ فِي كِتَاب «الله وَالْإِنْسَان» آيَةٌ إِشَارَةٌ إِلَى أَحَدِ الْكُتَّابِينَ.

وَالْحَقُّ يُقَالُ: أَنَّ مُصْطَفَى مُحَمَّدٍ أُوتِيَ الْمَعِيَّةَ فَائِقَةً فِي تَفْسِيرِ الْأَلْفَازِ وَحَلِّ الطَّلَاسِمِ، كَمَا أُوتِيَ مَقْدَرَةٌ بِالْفَقَّةِ عَلَى الْإِسْتِفَادَةِ مِنْ كُتُبِ الْآخَرِينَ.

وَالْخُلَاصَةُ: أَنَّ الْعَقْلَ لَا يَحْكُمُ بِبُطْلَانِ فِكْرَةٍ، أَوْ اسْتِحَالَةِ شَيْءٍ إِلَّا إِذَا اسْتَلْزَمَ الْقَوْلُ بِهِ إِجْتِمَاعَ النَّقِیْضَيْنِ أَوْ إِجْتِمَاعَ الضَّدِّينِ كَوْجُودِ الظُّلْمَةِ وَالنُّورِ مَعًا، وَالْقَوْلُ بِوُجُودِ الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَوْتِ لَا يَسْتَلْزِمُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ.

(١) أَنْظِرْ، «فَلَسَفَةُ مِنَ الصِّينِ» لِلْفَلَسُوفِ الصِّينِيِّ الشَّهِيرِ «لِين يوتانغ» وَبَخَاصَّة مَا ذَكَرَهُ بِعُنْوَان: «فِي كَوْنِنَا ذَوِي مِعْدَةٍ»: ٥٦: التَّرْجَمَةُ الْعَرَبِيَّةُ طَبِيعَةً (١٩٥٣ م). (وَمِنْهُ ﷺ).

السَّبَب

قَالَ صَاحِبُ كِتَابِ «الله وَالْإِنْسَان» مُصْطَفَى مَحْمُود:

«البَابُ يَصِفُ لَأَنَّ الرِّيحَ تَهْبُ. وَالرِّيحَ تَهْبُ لَأَنَّ هُنَاكَ تَخْلُجُلُ فِي طَبَقَاتِ الْجَوِّ. وَهُنَاكَ تَخْلُجُلُ فِي طَبَقَاتِ الْجَوِّ. لِإِخْتِلَافِ دَرَجَاتِ الْحَرَارَةِ. وَقَائِدُونَ السَّبَبِ الَّذِي يَقُولُ بِتَرَاوُجِ الْحَوَادِثِ فِي سِلْسَلَةٍ مِنَ الْأَسْبَابِ هُوَ مُجَرَّدُ مِلَاحَظَةٍ عِلْمِيَّةٍ مَاخُودَةٍ مِنْ وَقَائِعِ جُزْئِيَّةٍ... وَلَكِنَّهُ لَا يَنْطَبِقُ عَلَى حَدَثٍ كُلِّيٍّ. لَأَنَّ الْكُلَّ غَايَةٌ وَسَبَبٌ فِي ذَاتِهِ، وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى سَبَبٍ مِنَ الْخَارِجِ» ^(١).

أَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ إِنِ عَبَّرَتْ عَنْ شَيْءٍ فَإِنَّهَا تُعْبَرُ عَنْ مَزَاجِ كَاتِبِهَا وَتَفَكِيرِهِ، لَا عَنْ الْكَوْنِ وَأَسْبَابِهِ. رَأَى قَلَمُهُ يَتَحَرَّكُ، لَأَنَّ يَدَهُ هِيَ الْمُحَرِّكُ لَهُ، يَدُهُ تَكْتُبُ بِالْقَلَمِ، لِأَنَّهُ أَرَادَ الْكِتَابَةَ، وَأَرَادَ الْكِتَابَةَ، لِيَقْبِضَ رَاتِبُهُ كَامِلًا مِنْ صَاحِبِ مَجَلَّةٍ «رُوزِ الْيُوسُفِ»؛ وَأَرَادَ الرَّائِبَ لِأَنَّهُ يَرِدُ الْحَيَاةَ وَإِرَادَةُ الْحَيَاةِ لَا تُعْلَلُ وَلَا تَحْتَاجُ إِلَى سَبَبٍ.. كَذَلِكَ الْوُجُودُ فِي مَجْمُوعَةٍ لَا يُعْلَلُ وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى سَبَبٍ!... وَهَذَا الْإِسْتِدْلَالُ تَمَامًا كَالْإِسْتِدْلَالِ بِتَدْيِينِ الْكَلْبِ عَلَى تَدْيِينِ الْفَلَّاسْفَةِ!

أَجَلْ، أَنَّ الشَّجَرَةَ تَحْيَا وَتَمُوتُ وَتُثْمَرُ إِذَا تَوَفَّرَ لَهَا التُّرَابُ وَالْمَاءُ وَالضُّوءُ

(١) أَنْظِرْ، كِتَابُ «الله وَالْإِنْسَان» لِمُصْطَفَى مَحْمُود: ١٢٤ الطَّبْعَةُ الْأُولَى سَنَةِ (١٩٥٧م). (مِنْهُ بَيِّنَاتٌ).

والهواء، وَلَكِنْ مِنْ أَيْنَ جَاءَتْ هَذِهِ الْعَنَاصِرُ؟ وَكَيْفَ تَكُونَتْ؟ وَإِذَا كَانَتْ الْأَرْضُ قِطْعَةً مِنَ الشَّمْسِ، وَالْمَاءُ مِنَ الْبُخَارِ الَّذِي تَصَاعِدُ مِنَ الْأَرْضِ بَعْدَ أَنْ أَخَذَتْ تَبَرْدَ تَدْرِيجِيًّا؛ فَمِنْ أَيْنَ جَاءَتْ هَذِهِ الْعَارَازَاتُ؟! وَمَنْ أَوْجَدَ هَذِهِ الْمَلَائِينَ مِنَ الْكَوَاكِبِ وَالنَّجُومِ الَّتِي تَزْخَرُ بِهَا السَّمَاءُ، وَالَّتِي قَالَ الْعُلَمَاءُ أَنَّ بَعْضَهَا يَبْعُدُ عَنِ الْأَرْضِ مَسَافَةً يَقْطَعُهَا الضُّوءُ فِي أَلْفِ مِلْيُونِ سَنَةٍ. وَمَعْلُومٌ أَنَّ سُرْعَةَ الضُّوءِ تَبْلُغُ (١٨٦) أَلْفَ مِيلٍ فِي الثَّانِيَةِ.

وَمَهْمَا اخْتَلَفَ أَسَاتِذَةُ الْعِلْمِ الْحَدِيثِ فَإِنَّهُمْ يَسْتَفْقُونَ جَمِيعاً عَلَى أَنَّ الْكَوْنَ أَرْحَبُ وَأَعْظَمُ مِنْ أَنْ تَتَصَوَّرَهُ الْعُقُولُ^(١) وَأَنَّهُ لَا حَقَائِقَ مُطْلَقَةً، بَلْ نَسَبِيَّةٌ، وَأَنَّهُ لَا يَقْنُ أَبَداً فِي الطَّبِيعَةِ، أَيْ أَنَّ مِلَاحَظَةَ الْعُلَمَاءِ لظَاهِرَةِ مَا لَا تَصِلُ إِلَى مَرْتَبَةِ عِلْمِ الْيَقِينِ، وَإِنَّمَا هِيَ نَظَرِيَّاتٌ وَأَنْعَكَاسَاتٌ خَاصَّةٌ تَتَبَدَّلُ مِنْ حِينٍ إِلَى حِينٍ وَلَا يَعْتَمِدُ عَلَيْهَا كَحَقِيقَةٍ ثَابِتَةٍ «فَقَدْ أَتَّضَحَ فِي هَذَا الْقَرْنِ أَنَّ كُلَّ الْمَعَارِفِ الطَّبِيعِيَّةِ الَّتِي حَصَلَ عَلَيْهَا الْعِلْمُ لَيْسَتْ إِلَّا مَعْرِفَةٌ إِحْصَائِيَّةٌ تَخْتَفِي وَرَاءَهَا حَقِيقَةُ الْأَشْيَاءِ وَحَقِيقَةُ الدُّنْيَا بِالَّذِي فِيهَا مِنْ عِلَلٍ وَمَعْلُولَاتٍ. وَأَنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا الْمُخْتَفِيَّةَ وَرَاءَ مَا نَعْلَمُ مِنْ ظَوَاهِرِ لَيْسَتْ مَعْرُوفَةً، وَبَنَاءً عَلَى نَظَرِيَّةِ إِنْشِئِينَ غَيْرِ قَابِلَةٍ لَأَنْ تُعْرَفَ، بَلْ غَيْرُ قَابِلَةٍ لِلتَّصَوُّرِ. وَأَنَّ عِلْمَ الطَّبِيعَةِ فِي حَالَةٍ مِنَ الْفَوْضَى لَا يَكَادُ يَعْرِفُ أَيْنَ يَقِفُ. وَالْبَحْثُ الْعِلْمِيُّ لَا يَفْضِي إِلَى مَعْرِفَةِ طَبِيعَةِ الْأَشْيَاءِ الْبَاطِنِيَّةِ^(٢)».

(١) أَقْرَأُ كِتَابَ «اللَّهُ وَالْعِلْمُ الْحَدِيثُ» لِلْأُسْتَاذِ عَبْدِ الرَّزَّاقِ نُوفَلٍ وَكِتَابَ «الْعِلْمُ يَدْعُو إِلَى الْإِيمَانِ» لِكُرْسِيِّ مَوْرِيَّوْنِ تَرْجَمَةَ الْأُسْتَاذِ مُحَمَّدٍ صَالِحِ الْفَلَكِيِّ، وَكِتَابَ «مَعَ اللَّهِ فِي السَّمَاءِ» لِلدَّكْتُورِ أَحْمَدَ زُكِّي، وَكِتَابَ «التَّكَامُلُ فِي الْإِسْلَامِ» لِلْأُسْتَاذِ أَحْمَدَ أَبِي الْيَمِينِ الْمُتَشَشِّ بِوَرَاةِ الثَّرِيَّةِ الْعِرَاقِيَّةِ. (مِنْهُ ﷺ).

(٢) أَنْظِرْ، «مَوَاقِفُ خَاسِمَةٍ فِي تَأْرِخِ الْعِلْمِ» لَجِيمِسَ، تَرْجَمَةَ الدَّكْتُورِ أَحْمَدَ زُكِّي: ٣٤٢، وَكِتَابَ

وَإِذَا قَضَى الْعُلَمَاءُ فِي مُخْتَبَرَاتِهِمْ وَمُعْذَاتِهِمْ أَمْدًا طَوِيلًا يُلَاحِظُونَ وَيُدَقِّقُونَ وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَصْلُوا إِلَى حَقِيقَةٍ مُطْلَقَةٍ يَقِينَةٍ لظَاهِرَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ ظَوَاهِرِ هَذَا الْكَوْنِ الْعَجِيبِ، فَكَيْفَ عَرَفَ مُصْطَفَى مُحَمَّدٍ هَذَا الْكَوْنُ بِكَامِلِهِ؟ وَالَّذِي يَحْوِي مِنْ نَوْعِ التَّجَوُّمِ فَقَطْ مَا يَعِدُ بِالْبَلَاءَيْنِ لَا بِالْمَلَأَيْنِ؟ وَكَيْفَ عَرَفَ، وَهُوَ يُحَرِّرُ مَجْلَّةَ «رُوزِ الْيُوسُفِ» أَنَّ هَذَا الْكَوْنُ الْعَظِيمَ بِأَسْرَارِهِ، وَعَجَائِبِهِ، وَدَقَّتِهِ، وَجَمَالِهِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى سَبَبٍ؟! قَالَ أَفَلَاطُونُ: عَلِمْتُ أَنِّي لَا أَعْلَمُ شَيْئًا. وَقَالَ نِيُوتُنْ: أَنَّنِي عِلْمِي بِحَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ أَقَلُّ مِنْ عِلْمِ الْأَطْفَالِ بِمَا فِي أَعْمَاقِ الْبَحْرِ. وَقَالَ صَاحِبُ كِتَابِ «اللهِ وَالْإِنْسَانِ»: لَا شَيْءَ وَرَاءَ الطَّبِيعَةِ! أَبْهَذِ الشَّرْعَةَ يَا أَسْتَاذَ تُعْطِي أَحْكَامًا عَلَى اللهِ؟! وَبِهَذِهِ السَّهُولَةِ تُطْرَحُ أَقْوَالُ الْأُلُوفِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْفَلَسَفَةِ وَالْعُلَمَاءِ وَالْفُقَهَاءِ؟!... إِذْنِ لَا شَيْءَ أَسْهَلُ وَأَهْوَنُ مِنْ طَرَحِ أَقْوَالِكَ وَآرَائِكَ. وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهَا لَا تَحْتَاجُ إِلَى رَدِّ قَاتِنَاتِنَا نَذْكُرُ الْمُلَاحَظَاتِ التَّالِيَةَ:

أَوَّلًا: قَالَ: أَنَّ الْجُزْءَ يَحْتَاجُ إِلَى سَبَبٍ دُونَ الْكُلِّ، مَعَ أَنَّ الْكُلَّ هُنَا عِبَارَةٌ عَنِ الْمَجْمُوعَةِ الْوَاسِعَةِ مِنَ الْكَائِنَاتِ وَالْحَوَادِثِ، وَلَا يُمَكِّنُ بَأْنَ يُوجَدُ هَذَا الْكُلُّ بِدُونِهَا، وَإِذَا أَحْتَاجَ كُلُّ شَيْءٍ مِنْهَا إِلَى سَبَبٍ يَنْتِجُ أَنَّ الْكُلَّ الَّذِي يَضُمُّ جَمِيعَ الْأَشْيَاءِ مُفْتَقِرٌ إِلَى سَبَبٍ، أَنَّ الْبَيْتَ يَتَأَلَّفُ مِنَ الْحِيطَانِ وَالسَّقْفِ، وَمَعْنَى أَفْتِقَارِ الْحِيطَانِ وَالسَّقْفِ إِلَى الْبَانِي أَنَّ الْبَيْتَ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ - مِثْلًا - إِذَا وَجَدَ جَمَاعَةَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَسْوَدَ فَلَا يَصِحُّ أَنْ نَقُولَ هَؤُلَاءِ مِنَ الْبَيْضِ. وَهَكَذَا نَجِدُ دَائِمًا فِي مَنْطِقِ هَذَا الْكَاتِبِ مَا يَكْفِي لِلرَّدِّ عَلَيْهِ.

ثَانِيًا: أَنَّ التَّفْصِيلَ بَيْنَ الْكُلِّ الْمَوْجُودِ فِعْلًا وَأَجْزَائِهِ خَطَأً ظَاهِرًا، لِأَنَّ قَانُونِ

السَّبَبِيَّةُ عَقْلِي، وَالْقَوَائِنُ الْعَقْلِيَّةُ لَا تَقْبَلُ التَّخْصِصَ وَالِاسْتِثْنَاءَ، وَإِنَّمَا تَقْبَلُهُ الْقَوَائِنُ الْوَضْعِيَّةُ وَالتَّشْرِيعِيَّةُ - مَثَلًا - لَنَا أَنْ نَضَعَ قَانُونًا يَنْصُ عَلَى أَنَّ كُلَّ مَنْ يُخَالِفُ السَّيْرَ يُعَاقَبُ بِكَذَا إِلَّا إِذَا كَانَ غَرِيبًا عَنِ الْوَطَنِ، وَلَيْسَ لَنَا أَنْ نَقُولَ بِأَنَّ الْمُسَاوِيَّينَ لثَلَاثَ مُتَسَاوِيَّانِ إِلَّا إِذَا كَانَا مِنْ خَشَبٍ^(١).

ثَالِثًا: لَوْ كَانَ الْكُلُّ هُوَ سَبَبُ الْأَسْبَابِ لِلزَّمِ أَنْ لَا يَكُونَ هُنَاكَ قُوَّةٌ وَاعِيَةٌ تُنْشِئُ وَتُنْظِمُ، إِذْ لَا شَيْءَ فِي الْوُجُودِ إِلَّا كُنْتُ مِنَ الْمَادَّةِ لَا حَوْلَ لَهَا وَلَا قُوَّةَ، مَعَ أَنَّ الْكَاتِبَ قَالَ مَا نَصَّهُ بِالْحَرْفِ الْوَاحِدِ:

« أَنْ حَقِيقَةُ الْحَيَاةِ غَيْرُ مَعْرُوفَةٍ. أَنَّهَا حَرَكَةٌ دَبَّتْ فِي الْمَادَّةِ. حَرَكَةٌ وَاعِيَةٌ هَادِفَةٌ حُرَّةٌ، وَلَعَلَّهَا مَادَّةٌ. وَلَعَلَّهَا أَيْ شَيْءٌ. وَلَكِنَّهَا لَيْسَتْ الْجُثَّةُ عَلَى كُلِّ حَالٍ »^(٢).

أَلَيْسَ هَذَا اعْتِرَافًا صَرِيحًا بِأَنَّ وَرَاءَ الْمَادَّةِ « الْجُثَّةُ » قُوَّةٌ مُدْرِكَةٌ « وَاعِيَةٌ » وَ « هَادِفَةٌ » تَعْمَلُ لِنَاقِيَةِ حَكِيمَةٍ وَ « حُرَّةٌ » مُخْتَارَةٌ؟! ثُمَّ أَلَا يَتَنَافَى هَذَا مَعَ قَوْلِهِ فِي صَفْحَةٍ أُخْرَى: « اللَّهُ فِي الْعَقْلِ الْحَدِيثِ مَعْنَاهُ الطَّاقَةُ الْخَامُ الَّتِي فِي دَاخِلِنَا »^(٣)؟! وَهَكَذَا نَاقِضَ الْكَاتِبُ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ.

وَقَالَ فِي صَفْحَةٍ أُخْرَى: كَانَ أَسْمُهُ فِي فَلْسَفَةِ شُوْبِنَهَوْرِ الْإِرَادَةِ، وَفِي فَلْسَفَةِ نَيْتْشَةَ كَانَ أَسْمُهُ الْمُطْلَقِ، وَفِي فَلْسَفَةِ مَارْكَسَ كَانَ أَسْمُهُ الْمَادَّةِ، وَفِي فَلْسَفَةِ بَارْجِسُونِ كَانَ أَسْمُهُ الطَّاقَةِ الْحَيَّةِ، وَفِي الْأَدْيَانِ كَانَ أَسْمُهُ اللَّهِ، وَكَثُرَتْ أَمَامِي الْأَسْمَاءُ، وَكَثُرَتْ الْأَصَابِعُ الَّتِي تُشِيرُ، وَاتَّفَقَتْ كُلُّهَا عَلَى رَغْمِ اخْتِلَافِ أَلْوَانِهَا

(١) ذَكَرْتُ هَذَا التَّفَضُّلَ فِي كِتَابِ « الْإِسْلَامُ مَعَ الْحَيَاةِ » وَهُوَ مِنْ جُسْلَةِ التَّقْوُوسِ الَّتِي أَوْرَدْتَهَا عَلَى الْكَاتِبِ: (مِنْهُ ﷺ).

(٢) أَنْظُرْ، كِتَابُ « اللَّهِ وَالْإِنْسَانُ » لِمُصْطَفَى مُحَمَّدٍ: ٩٦ الطَّبْعَةُ الْأُولَى سَنَةِ (١٩٥٧م). (مِنْهُ ﷺ).

(٣) أَنْظُرْ، كِتَابُ « اللَّهِ وَالْإِنْسَانُ » لِمُصْطَفَى مُحَمَّدٍ: ١١١ الطَّبْعَةُ الْأُولَى سَنَةِ (١٩٥٧م). (مِنْهُ ﷺ).

عَلَى أَنَّ هُنَاكَ شَيْئًا دَاخِلَ الْخَبَاءِ يُحْرِكُ الْخِيُوطَ .

أَجَلْ يَا أَسْتَازَ، إِنَّ فِي الْخَفَاءِ حَقِيقَةً مُحَرَّكَةً لَا يُنْكِرُهَا حَتَّى شَوْبِنَهَوْرَ، وَمَارْكَسَ، وَنَيْتْشَةَ الَّذِي قَالَ عَلَى لِسَانِ زَرَادُشْتِ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ مَاتَ». أَعْتَرَفَ هَؤُلَاءِ وَغَيْرُهُمْ بِأَنَّ فِي الْخَفَاءِ قُوَّةَ فَاعِلَةٍ، حَيْثُ لَمْ يَجِدُوا وَسِيلَةً إِلَى الْإِنْكَارِ، وَأَشَارُوا إِلَيْهَا بِعِبَارَاتٍ شَتَّى، وَإِنْ دَلَّ هَذَا عَلَى شَيْءٍ فَإِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ تِلْكَ الْقُوَّةَ لَا يُمَكِّنُ مَعْرِفَتَهَا بِالْكُنْهِ وَالْحَقِيقَةِ، بَلْ بِآثَارِهَا وَأَفْعَالِهَا.

بَقِيَتْ حَقِيقَةُ الْمَاءِ مَجْهُولَةٌ مِثْلَ السَّنِينِ، وَكَانَ فَلَاسَفَةُ الْإِغْرِيقِ كَسُقْرَاطَ، وَأَفْلَاطُونَ، وَأَرِسْطُو يُعْبِرُونَ عَنْهُ بِالْجِسْمِ الْبَسِيطِ السَّائِلِ بِطَبْعِهِ، ثُمَّ أَكْتَشَفَ الْعِلْمُ أَنَّهُ مَرْكَبٌ مِنَ الْأُوكْسِجِينِ وَالْهَيْدْرُوجِينِ. وَحَدِيثًا تَبَيَّنَ لِلْعُلَمَاءِ بِأَنَّ فِيهِ مَوَادًّا أُخْرَى لَا تَدْخُلُ تَحْتَ الْمَجْهَرِ، وَإِذَا كَانَتْ حَقِيقَةُ الْمَاءِ الَّذِي نَسْتَعْمَلُهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ وَفِي كُلِّ آنٍ غَيْرَ مَعْلُومَةٍ بِجَمِيعِ نَوَاحِيهَا عِنْدَ الْعُلَمَاءِ، فَكَيْفَ يَسْتَطِيعُونَ مَعْرِفَةَ خَالِقِ الْكَوْنِ وَحَقِيقَتِهِ؟! قَالَ أَحَدُ الْعَارِفِينَ: أَنَّنِي لِهَذَا الْإِنْسَانِ بِأَنَّ يُحِيطَ بِعَظْمَةِ الْكَوْنِ وَخَالِقِهِ، وَقَدْ كَانَ نُطْفَةً، وَلَا يَزَالُ جَاهِلًا مُسِيرًا إِلَّا مَا كَانَ مِنْ إِرَادَتِهِ فِي اتِّبَاعِ طَرِيقِ الْخَيْرِ وَطَرِيقِ الشَّرِّ؟!

لَقَدْ حَارَ الْعُلَمَاءُ فِي سِرِّ الْكَوْنِ بَعْدَ أَنْ أَدْرَكُوا وَتَحَقَّقُوا أَنَّهُ لَا يَكْتَشَفُ فِي الْمَعْمَلِ، وَلَا فِي جُزْءٍ مِنْ أَجْزَاءِ الطَّبِيعَةِ، وَبَعْدَ أَنْ أَخْطَأَتْ جَمِيعُ الْفَرُوضِ وَالْحُلُولِ الْمَادِّيَةِ أَلْتَجَّأُوا إِلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ وَرَاءَ الطَّبِيعَةِ قُوَّةَ مُدْرَكَةٍ تَخْلُقُ وَتُبْدِعُ.

وَقَدْ يُقَالُ: أَنَّ فِكْرَةَ قَانُونِ السَّبَبِيَّةِ تَعْتَمِدُ عَلَى أَنَّ قَائِلَهَا لَمْ يَرَ مَوْجُودًا بِلَا مُوجِدٍ وَهَذَا لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَوْجَدْ وَلَنْ يَوْجَدْ شَيْءٌ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ، إِذْ مِنْ الْجَائِزِ أَنْ يَتَحَقَّقَ شَيْءٌ كَذَلِكَ، وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ بِهِ. وَقَدْ يَمَّا وَقَبْلَ أَكْتِشَافِ الْكَهْرَبَاءِ

قِيلَ: لَا تُوجَدُ نَارُ بِلَا دُخَانٍ، ثُمَّ وَجَدَتْ هَذِهِ النَّارُ.

وَالْجَوَابُ: أَنَّ الْعَقْلَ هُوَ الَّذِي يَحْكُمُ بِأَنَّ الْوُجُودَ يَحْتَاجُ إِلَى مُوجِدٍ، وَلَا لِلرُّؤْيَةِ وَالْإِسْتِقْرَاءِ، فَهُوَ يَرْفُضُ رَفْضًا بَاتًا بِأَنَّ يَكُونُ الْعَالَمُ فِي جُمْلَتِهِ قَدْ وَجَدَ بِطَرِيقِ الصَّدَقَةِ وَالْإِتِّفَاقِ، لِأَنَّ الصَّدَقَةَ هِيَ الْفَوْضَى بَعَيْنَهَا، وَالْعَالَمُ يَسُودُهُ النِّظَامُ وَالْإِتِّسَاقُ. وَاجْتِمَاعُ النِّظَامِ وَالْفَوْضَى مُحَالٌ، وَمَا أَدَّى إِلَى الْمُحَالِ فَهُوَ مُحَالٌ، يَكُونُ حُكْمُ الْعَقْلِ بِوُجُودِ الْخَالِقِ بَدِيهِيًّا كَحُكْمِهِ بِأَنَّ الْكُلَّ أَكْبَرُ مِنَ الْجُزْءِ.

ثُمَّ مَنْ الَّذِي خَلَقَ فِي كُلِّ صِنْفٍ رَوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى؟ وَلِمَاذَا لَمْ تَكُنْ جَمِيعُ الْأَصْنَافِ ذُكُورًا فَقَطُّ أَوْ أُنْثَى فَقَطُّ؟ وَإِذَا أَجَابَ مُجِيبٌ بِأَنَّ الْغَايَةَ هِيَ حِفْظُ النَّوْعِ قُلْنَا لَهُ: أَحَسَنْتَ، كَذَا نَقُولُ نَحْنُ، وَعَلَيْهِ فَلَا يَبْقَى مَكَانٌ لِلصَّدَقَةِ.

وَإِذَا أُرِدَتْ بِأَنَّ أَذْكَرَ أَمْثَلَةٌ مِنْ نِظَامِ الْكَوْنِ وَأَسْرَارُهُ مَلَأَتْ مُجَلَّدَاتٍ، ثُمَّ لَمْ أَفْعَلْ شَيْئًا. لَذَا أَكْتَفِي هُنَا بِمِثَالِ قَرَأَتِهِ قَرِيبًا فِي كِتَابِ «أَضْوَاءِ عَلَى الْأَرْضِ وَالْفَضَاءِ» لـ «مَارْغِبِ أ. هَايِد»، تَرْجَمَةَ الْأُسْتَاذِ أَسْعَدَ نَجَّارٍ. قَالَ: يُوجَدُ فِي الْقَارَةِ الْجَنُوبِيَّةِ الْمُتَجَمِّدَةِ نَوْعٌ مِنَ الطُّيُورِ يُسَمَّى «الْبَانَجُوبِينَ» تَضَعُ الْأُنْثَى بَيْضَهَا فِي أَشْهُرِ الشِّتَاءِ الْمُظْلَمَةِ، حَيْثُ تَتَلَبَّدُ الثَّلُوجُ فِي الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، تَضَعُهُ فِي جَيْبِ جِلْدِي فِي الطَّرَفِ الْأَعْلَى مِنْ رِجْلِهَا، وَتَبْقَى الصَّغَارُ، فِي ذَلِكَ الْجَيْبِ إِلَى أَنْ تَقْوَى وَيَشْتَدَّ مَرَّاسُهَا. فَهَلْ وَجَدَ هَذَا الْجَيْبُ صَدَقَةً وَجُزْأًا دُونَ إِزَادَةٍ وَحِكْمَةٍ؟! وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَلِمَاذَا وَجَدَ الْجَيْبُ فِي رِجْلِ الْأُنْثَى، وَلَمْ يَوْجَدَ فِي ظَهْرِهَا؟!

وَقَدْ يَقُولُ الْقَائِلُ: إِذَا حَلَّتِ الْحَيَاةُ فِي جِسْمٍ أَخَذَتْ مَجْرَاهَا الطَّبِيعِيَّ وَكَيْفِيَّتَهُ حَسَبَ حَاجَاتِهِ وَمُحِيطِهِ دَافِعَةً بِهِ إِلَى الْأَمَامِ، سَالِكَةً طَرِيقَ التَّرْتِيبِ وَالتَّنْظِيمِ، أَيْ

أَنَّ الْحَيَاةَ هِيَ الْقُوَّةُ الْخَالِقَةُ وَالْمُبْدَعَةُ فِي الْكَائِنِ الْحَيِّ .

الجَوَاب :

أَنَّ الْحَيَاةَ عَامِلٌ طَبِيعِيٌّ مَا فِي ذَلِكَ رَيْبٌ ، وَلَكِنَّهَا لَا تَسِيرُ عَلَى نِظَامٍ وَتَرْتِيبٍ وَاعٍ بَحِثٍ لَا تُجِيدُ عَنْهُ بِحَالٍ ، وَلَوْ كَانَتْ كَذَلِكَ لَأَمَكَّنَ التَّنْبُؤَ عَنْ مَجْرَاهَا وَسُلُوكِهَا فِي كُلِّ شَيْءٍ ، وَأَسْتَطَاعَ الْمَرْءُ أَنْ يَتَنَبَّأَ بِمَقْدَارِ مَا سَتَحْمِلُهُ غَدًا هَذِهِ النَّبْتَةُ الصَّغِيرَةُ مِنَ الشَّجَرِ وَالْوَرَقُ وَالزَّهْرُ ، وَكَمْ تَرَنُّ مِنَ الْخَشَبِ ، وَإِلَى أَيْ جِهَةٍ تُتَجَهَّرُ فُرُوعُهَا ، وَلَكِنْ لَمْ يَدَّعِ أَحَدٌ مِثْلَ هَذِهِ الدَّعْوَى ^(١) .

قَالَ «ول ديورانت» فِي كِتَابِ «مَبَاهِجِ الْفَلَسَفَةِ» : «أَنَّ التَّفْسِيرَ الْمِيكَانِيكِيَّ أَخَذَ يَخْتَفِي مِنَ الْفَلَسَفَةِ ، وَعِلْمُ الْحَيَاةِ ، وَعِلْمُ وَطَائِفِ الْأَعْضَاءِ ، بَلْ وَعِلْمُ الطَّبِيعَةِ» ^(٢) . ثُمَّ نَقَلَ أَقْوَالَ لِعُلَمَاءِ الْعَصْرِ الْحَدِيثِ تَدَلُّ بِصَرَاحَةٍ عَلَى أَنَّ هَذِهِ النَّظَرِيَّةَ أَصْبَحَتْ فِي خَبَرٍ كَانَ . هَذَا إِلَى أَنَّ التَّرْتِيبَ مَوْجُودٌ أَيْضًا فِي جَمِيعِ الْعُنَاصِرِ غَيْرِ الْحَيَّةِ ، حَتَّى كُتْلَةُ الْحَدِيدِ تُمَثِّلُ التَّوَازِينَ بَيْنَ طَاقَتِهَا الدَّاخِلِيَّةِ وَالطَّاقَاتِ الْخَارِجِيَّةِ . وَعَلَيْهِ فَالَّذِي أَوْجَدَ التَّرْتِيبَ وَالتَّوَازِينَ فِي الْجَوَامِدِ أَوْجَدَهَا فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ . وَهِيَ الْقُوَّةُ الْمُدْرِكَةُ الَّتِي تَكْمُنُ وَرَاءَ هَذِهِ الْحَيَاةِ .

(١) أنظر ، «أضواء على الأرض والفضاء» لـ «مارغيت أ. هايد» ، ترجمة الأستاذ أسعد نجار : ٣٤ .

(٢) أنظر ، مَبَاهِجِ الْفَلَسَفَةِ : ١١ / ١ ، ترجمة أحمد الأهواني ، طبعة ١٩٥٦ م . (منه) .

دَامَ وَجُودُ الْخَالِقِ لَمْ يَتَّبِتْ بِالْعِلْمِ .

وَنُجِيبُ بِأَنَّ الطَّرِيقَ الطَّبِيعِيَّ إِلَى مَعْرِفَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَالْإِيمَانُ بِهِ هُوَ الْعَقْلُ ، وَالنَّظَرُ إِلَى مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، لَمَّا قَدَمْنَا ، وَقَدْ رَجَعْنَا إِلَيْهِ فَوَجَدْنَاهُ لَا يَتَقَبَّلُ وَجُودَ الْكَوْنِ بِلَا مُوجِدٍ ، وَأَنَّ مَا فِيهِ مِنْ تَنْظِيمٍ وَأَتَسَاقٍ قَدْ وَجَدَ بِالصَّدْفَةِ وَالْإِتِّفَاقِ ، وَلَوْ وَجَهْنَا هَذَا السُّؤَالَ إِلَى الْمُشَكِّكِينَ : كَيْفَ وَجَدَ الْكَوْنُ ؟ وَمَنْ أَوْجَدَهُ ؟ وَلِمَاذَا وَجَّدَ ؟ لِإِتِّبَاقِهِ ، وَلَمْ يَهْتَدُوا إِلَى جَوَابٍ ، وَلَوْ كَانَ لَهُمْ شَيْءٌ مِنَ الْعِلْمِ وَالْمَنْطِقِ لَأَجَابُوا بِثَقَّةٍ وَأَطْمَئِنَّانَ . لَوْ أَنَّ قَانُونَ الْجَازِيَّةِ وَنَظَرِيَّةَ النَّسَبِيَّةِ وَسُنَنِ الْقُوَّةِ وَالطَّاقَةِ وَمَا إِلَى ذَلِكَ يَكْفِي فِي تَفْسِيرِ النَّظَامِ وَتَعْلِيلِ الْكَوْنِ لِحَاجَتِنَا بِهِ وَاعْتَمَدُوا عَلَيْهِ .

وَإِنْ قَالُوا وَجَدَ الْكَوْنُ مِنْ غَيْرِ مُوجِدٍ ، قُلْنَا : بَلْ أَوْجَدْتَهُ الْعِلَّةُ الْأُولَى . وَإِنْ طَالَبُونَا بِالذَّلِيلِ سَأَلْنَاهُمْ بِدَوْرِنَا عَنْ دَلِيلِهِمْ ، وَإِنْ قَالُوا : أَنَّ كُلًّا مِنَّا لَا يَمْلِكُ أَيْتَهُ حَقِيقَةً يَعْتَمِدُ عَلَيْهَا . فَعَلَيْنَا جَمِيعًا أَنْ لَا تَنْفِي وَلَا تُثَبِّتَ ، أَجْبَنَاهُمْ .

أَوَّلًا : أَنَّ تَفْسِيرَ الْكَوْنِ بِالْإِرَادَةِ الْإِلَهِيَّةِ أَقْرَبُ إِلَى الْعَقْلِ وَالضَّمِيرِ مِنْ فِكْرَةِ وَجُودَةٍ لَا سَبَبَ ، أَيْ أَنَّ أَلْفَةَ الْعَقْلِ تَتَطَلَّبُ سَبَبًا لِهَذَا الْعَالَمِ ، وَأَقْرَبُ الْأَسْبَابِ أَنْ يَكُونَ مِنْ صُنْعِ خَالِقٍ مُبْدِعٍ يُوْجِدُهُ كُلَّ شَيْءٍ نَحْوَ غَايَةِ الْحَكِيمَةِ ، وَثَمَرَتِهِ الْمُفِيدَةِ ، أَمَّا وَجُودُهُ صَدْفَةً مِنْ غَيْرِ عَقْلٍ وَلَا أَخْلَاقٍ وَلَا حَقُوقٍ وَلَا وَاجِبَاتٍ فَجَبِيعٌ عَنِ الْعَقْلِ كُلِّ الْبُعْدِ . وَبَيْنَ هُنَا نَجِدُ الَّذِينَ أَنْكَرُوا عَلَى الْأَنْبِيَاءِ رِسَالَاتِهِمْ لَمْ يَجْحَدُوا لِفِكْرِهِ الْإِلَوهِيَّةِ ، بَلْ رَأَيْنَاهُمْ يَعْتَرِفُونَ بِوُجُودِ خَالِقِ الْكَوْنِ ، وَلَكِنَّهُمْ يُنْكِرُونَ أَنْ يَكُونَ هُوَ لَا رُسُلًا مَبْعُوثِينَ مِنَ اللَّهِ إِلَى عِبَادِهِ .

ثَانِيًا : لَقَدْ تَقَدَّمَ مَعَنَا أَنَّ التَّجَرُّبَةَ لَيْسَتْ كُلُّ الْمَعْرِفَةِ ، وَقَدْ أَعْتَقَدَ الْعُلَمَاءُ بِحَقَائِقِ

كثيرة، مع أن العلم يَعْجَزُ عَنْ إِثْبَاتِهَا بِالتَّجَرُّبَةِ، نَذَرُ مِنْهَا الْمِثَالَ التَّالِيَّ :

قَالَ الْعُلَمَاءُ : أَنَّ كَيْمَةَ الْقُوَّةِ الْمَوْجُودَةِ فِي الْكَوْنِ ثَابِتَةٌ لَا تَزِيدُ وَلَا تَنْقُصُ ، لِأَنَّهَا إِذَا لَمْ تَكُنْ كَذَلِكَ أَصَبَحَتْ جَمِيعُ الْمَقَائِيسِ وَالنَّظَرِيَّاتِ بَاطِلَةً ، حَيْثُ لَا يُمَكِّنُ ضَبْطُهَا وَاسْتِمْرَارُهَا عَلَى نَهْجٍ وَاحِدٍ ، بَلْ تَتَغَيَّرُ بَيْنَ حِينٍ وَحِينٍ تَبَعًا لَزِيَادَةِ الْقُوَّةِ وَنَقْصَانِهَا ، مَعَ أَنَّ لَدَيْنَا مَقَائِيسَ عِلْمِيَّةً تَضْبُطُ الْحَقَائِقَ بِكُلِّ دَقَّةٍ . هَذَا مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّ مَبْدَأَ بَقَاءِ الْقُوَّةِ كَمَا هِيَ لَا يُمَكِّنُ إِثْبَاتَهُ بِطَرِيقِ التَّجَرُّبَةِ . لِأَنَّ الْعُلَمَاءَ مُجْتَمِعِينَ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَطْلُعُوا عَلَى جَمِيعِ مَا فِي الْكَوْنِ مِنْ قُوَى ، ثُمَّ يَتَأَكَّدُوا بِأَنَّهَا ثَابِتَةٌ رَاسِخَةٌ مَدَى الدَّهْورِ وَالْعُصُورِ .

إِذِنْ لَيْسَ مِنَ الضَّرُورِيِّ لِنُؤْمَنِ بِشَيْءٍ أَنْ نَرَاهُ رَأْيَ الْعَيْنِ ، فَقَدْ نُؤْمِنُ بِمَا نَرَاهُ اسْتِنَاجًا وَاسْتِنْبَاطًا مِنَ الْمَعْقُولَاتِ إِيمَانًا بِأَنْفُسِنَا ، كَالْمِثَالِ الْمَذْكُورِ ، وَقَدْ لَا نُؤْمِنُ بِمَا نَرَاهُ رَأْيَ الْعَيْنِ أَحْتِرَاسًا مِنْ خَدَاعِ الْعُيُونِ . وَلَوْ حَصَرْنَا أَسْبَابَ الْمَعْرِفَةِ بِالتَّجَرُّبَةِ فَقَطْ لَتَهَدَمَتْ مَعَارِفُنَا أَوْ أَكْثَرُهَا مِنَ الْأَسَاسِ .

ثَالِثًا : نُعِيدُ هُنَا هَذَا التَّسَاوُلَ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ فِي كِتَابِ « الْإِسْلَامُ مَعَ الْحَيَاةِ » : هَلْ هُنَاكَ مُخْتَرَعٌ وَاحِدٌ وَضَعَ تَصْمِيمَهُ عَلَى أَسَاسِ نَظَرِيَّةِ الْإِلْحَادِ بِحَيْثُ لَوْ وَضَعَهُ عَلَى أَسَاسِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ لَفُشِلَ التَّصْمِيمُ ، وَاسْتَحَالَ أَنْ يَتَوَصَّلَ إِلَى شَيْءٍ ؟ .

1. The first part of the paper is devoted to the study of the properties of the function $f(x)$ defined by the equation

$$f(x) = \int_0^x \frac{1}{1+t^2} dt, \quad (1)$$

where x is a real number. It is well known that the function $f(x)$ is an odd function, i.e., $f(-x) = -f(x)$.

2. In the second part of the paper, we shall study the properties of the function $f(x)$ defined by the equation

$$f(x) = \int_0^x \frac{1}{1+t^2} dt, \quad (2)$$

where x is a real number. It is well known that the function $f(x)$ is an odd function, i.e., $f(-x) = -f(x)$.

3. In the third part of the paper, we shall study the properties of the function $f(x)$ defined by the equation

$$f(x) = \int_0^x \frac{1}{1+t^2} dt, \quad (3)$$

where x is a real number.

4. In the fourth part of the paper, we shall study the properties of the function $f(x)$ defined by the equation

$$f(x) = \int_0^x \frac{1}{1+t^2} dt, \quad (4)$$

where x is a real number. It is well known that the function $f(x)$ is an odd function, i.e., $f(-x) = -f(x)$.

5. In the fifth part of the paper, we shall study the properties of the function $f(x)$ defined by the equation

$$f(x) = \int_0^x \frac{1}{1+t^2} dt, \quad (5)$$

where x is a real number. It is well known that the function $f(x)$ is an odd function, i.e., $f(-x) = -f(x)$.

6. In the sixth part of the paper, we shall study the properties of the function $f(x)$ defined by the equation

$$f(x) = \int_0^x \frac{1}{1+t^2} dt, \quad (6)$$

where x is a real number. It is well known that the function $f(x)$ is an odd function, i.e., $f(-x) = -f(x)$.

7. In the seventh part of the paper, we shall study the properties of the function $f(x)$ defined by the equation

$$f(x) = \int_0^x \frac{1}{1+t^2} dt, \quad (7)$$

where x is a real number. It is well known that the function $f(x)$ is an odd function, i.e., $f(-x) = -f(x)$.

الأديان وتطور الوعي

قال صاحب كتاب «الله والإنسان»، مصطفى محمود:

«أن الأديان تمر بمرحلة إنهاء تشبه المرحلة التي مرت بها ديانة الإغريق، وهنالك صفحة ثانية في طريقها لأن تطوى والسبب هو نفس السبب في الحالين. هو العلم وتطور الوعي وظهور المعارف الجديدة»^(١).

يفترض هذا القائل أن جميع الديانات حتى الإسلام جهل وخرافة تماماً كديانة الإغريق، والنتيجة الحتمية لهذا الافتراض أنه كلما تقدمت العلوم تأخرت الأديان. فالمقدمة بديهية، والنتيجة طبعية!

ذكرني هذا القول بمنطق السفسطائيين وأقيستهم المأجنة... رأى سفسطائي شاباً، فقال له: هل تحب أن أبرهن لك بالعقل على أنك حمار؟

قال الشاب: تفضل وأتحف السمع.

قال السفسطائي للشاب: أنا لست أنت، أليس كذلك؟

الشاب: أجل، أنت غيري؛ وأنا غيرك.

السفسطائي: وأنا لست حماراً.

الشاب: بكل تأكيد أن الحمار يمشي على أربع، وأنت تمشي على رجلين.

(١) أنظر، كتاب «الله والإنسان» لمصطفى محمود: ١٠٨ الطبعة الأولى سنة (١٩٥٧م). (منه ❦).

السَّفْطَانِي، وَقَدْ أَمْتَلَأَ سُرُورًا بِهَذَا الْإِنْتِصَارِ: إِذَنْ أَنْتَ حِمَارٌ.
وَلَا فَرْقَ بَيْنَ هَذَا الْقِيَّاسِ، وَبَيْنَ تَشْبِيهِ الْإِسْلَامِ - مَثَلًا - بِدِيَانَةِ الْإِغْرِيقِ. لَقَدْ
قَضَى الْعِلْمُ عَلَى عَقِيدَةِ الْإِغْرِيقِيِّينَ، لِأَنَّهُمْ عَبْدُوا أَعْضَاءَ التَّنَاسُلِ، وَالتَّنَبَّاتِ،
وَالْحَيَوَانَ، وَالْإِنْسَانَ، وَارْتَكَبَ بَغْضَ آلِهَتِهِمْ، وَهُوَ زِيُوسَ، أَسْوَأُ الْعُيُوبِ وَأَقْبَحُ
الْجَرَائِمِ، فَقَتَلَ أَبَاهُ وَضَاجِعَ بَنْتِهِ، وَطَارَدَ الْعَرَائِسَ وَغَارِزَ النَّبَاتِ.
أَمَّا الْإِسْلَامُ فَقَدْ حَارَبَ الْوَثْنِيَّةَ بِشَتَّى أَلْوَانِهَا، وَبِكُلِّ وَسِيلَةٍ، وَدَعَا إِلَى الْفَضِيلَةِ
وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَحَثَّ عَلَى الْعِلْمِ، وَأَثْنَى عَلَى الرَّاسِخِينَ بِهِ، وَذَمَّ التَّقْلِيدَ وَشَبَّهَ
الْجَهْلَ بِظُلُمَاتٍ، بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، وَالْجَاهِلَ بِالْمَيِّتِ، وَبِالْأَعْمَى الْأَصْمَ الْأَبْكَمَ:
وَهَلْ يَرْفَعُ الْقَدَوْنَ مِنْ شَأْنِ عُدُوهِ؟! وَهَلْ يَقْضِي الْعِلْمُ عَلَى دِينٍ يَقُومُ عَلَى أَسَاسِ
الْحَقِّ، وَالْعَدْلِ، وَيَقُولُ: «يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ
يَدْرَجَتْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ»^(١)؟! وَهَلْ يُنْكِرُ الْعِلْمُ نُبُوَّةَ مَنْ قَالَ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ
تُحْمِ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ»^(٢). وَقَالَ ﷺ: «بُعِثْتُ بِالْحَنِيفَةِ السَّهْلَةِ السَّمْحَةِ»^(٣)!
وَهَلْ يُحَارِبُ الْعِلْمُ دِينًا يَخْرِجُ النَّاسَ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ إِلَى الْحُرِّيَّةِ، وَمِنَ الْجَهْلِ إِلَى
الْعِلْمِ، وَمِنَ الْفَقْرِ إِلَى الْغِنَى؟! وَلَوْ صَحَّ قَوْلُ هَذَا الْكَاتِبِ بِأَنَّ الْعِلْمَ إِذَا تَقَدَّمَ تَأَخَّرَ

(١) الْمَجَادِلَةُ: ١١.

(٢) أَنْظِرْ، بِدَايَةِ الْمُجْتَهِدِ: ٣٢١/٢، الشُّنَنُ الْكُبْرَى: ١٩٢/١٠، تُحْفَةُ الْأَخْوَذِيِّ: ٤٧٠/٥، نُظْمُ دُرَرِ
السُّطَمِيِّينَ: ٤٢، كُنْزُ الْعُمَالِ: ١١/٤٢٠ ح ٣١٩٦٩، فَيْضُ الْقَدِيرِ شَرْحُ الْجَامِعِ الصَّغِيرِ: ٢٠٩/٥،
كُشْفُ الْخُفَاءِ: ١/٢١١ ح ٦٣٨، مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ لِلطَّبْرَسِيِّ: ٨، مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ لِابْنِ أَبِي الدُّنْيَا: ٦،
مُسْنَدُ الشَّهَابِ: ١٩٢/٢ ح ١١٦٤، تَكْمَلَةُ حَاشِيَةِ رَدِّ الْمَحْتَارِ: ١/٢٣٤.

(٣) أَنْظِرْ، تَفْسِيرُ الْقُرْطُبِيِّ: ١٩/٢٠، تَأْوِيلُ مُخْتَلَفِ الْحَدِيثِ: ١١٧/١، نَيْلُ الْأَوْطَارِ: ٣١/١، صَحِيحُ
الْبُخَارِيِّ: ١/١٦، الْأَدَبُ الْمُفْرَدُ: ١٠٩ ح ٢٨٨، عَوْنُ السَّعْبُودِ: ١٠/١٨٤، تُحْفَةُ الْأَخْوَذِيِّ:
١٥٣/٥، مُقَدِّمَةُ فَتْحِ الْبَارِي: ١/١٣٤، سُبُلُ السَّلَامِ: ٣/١١١.

الدِّينَ لَكَانَ الْعِلْمُ عَدُوَّ نَفْسِهِ . وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ الْعَدُوَّ الْأَوَّلَ لِلْعِلْمِ هُوَ الَّذِي يَتَكَلَّمُ عَنِ الدِّينِ وَالْعِلْمُ بِلَا دِينَ وَلَا عِلْمٍ . فَلَقَدْ تَحَدَّثَ الْكَاتِبُ عَنِ الْأَدْيَانِ ، وَهُوَ لَا يَعْلَمُ عَنْهَا إِلَّا أَنَّ دِيَانَةَ الْإِغْرِيْقِ قَدْ زَالَتْ مِنَ الْوُجُودِ ، وَإِذَا زَالَتْ هَذِهِ مِنَ الْوُجُودِ فَلَا بُدَّ أَنْ تَزُولَ جَمِيعُ الْأَدْيَانِ ، وَمِنْهَا الْإِسْلَامُ ! أَلَا يَشْبَهُ قَوْلَهُ هَذَا قَوْلُ السُّفْسَطَانِيِّينَ الَّذِينَ يَلْعُنُونَ بِالتَّهْرِيجِ وَالتَّضْلِيلِ ، وَيَتْلَهُونَ بِالْمُعَالِطَاتِ وَالسَّخَافَاتِ ! .
وَرُبَّمَا اعْتَذَرَ مُعْتَذِرٌ عَنِ الْكَاتِبِ بِأَنَّهُ لَمْ يَتَّعِزْ لِلسَّلَامِ ، وَإِنَّمَا قَالَ أَنَّ الْأَدْيَانِ تَمُرُ بِمَرَحَلَةٍ إِنْهِيَارٍ .

قُلْتُ : أَنَّ تَرْكَهُ لِذِكْرِ الْإِسْلَامِ ، وَعَدَمَ اسْتِثْنَائِهِ مِنَ الْأَدْيَانِ دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ الْإِسْلَامِ وَسَائِرِ الْأَدْيَانِ الَّتِي تَسِيرُ فِي طَرِيقِ الزَّوَالِ وَالْإِنْهِيَارِ .
لَقَدْ أَكْثَرَ الْقُرَّاءُ مِنَ الْحَثِّ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ : « وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا » ^(١) .
وَقَدْ أَوْجَبَ الرَّسُولُ الْأَعْظَمُ عَلَى الذُّكُورِ وَالْإِنثَاءِ : « الْعِلْمُ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ » ^(٢) ، وَأَمَرَ بِإِرْسَالِ الْبِعْثَاتِ الْعِلْمِيَّةِ ، وَقَالَ ﷺ : « أَطْلُبُوا الْعِلْمَ وَلَوْ بِالصَّيْنِ » ^(٣) .

وَقَالَ الْإِمَامُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام : (مَعْرِفَةُ الْعِلْمِ دِينَ يُدَانُ بِهِ ، بِهِ يَكْسِبُ الْإِنْسَانُ الطَّاعَةَ فِي حَيَاتِهِ ، وَجَمِيلَ الْأُخْدُوْثَةِ بَعْدَ وَفَاتِهِ ، وَالْعِلْمُ حَاكِمٌ ، وَالْمَالُ

(١) طه : ١١٤ .

(٢) أنظر ، سنن أبي ماجه : ٨١/١ ح ٢٢٤ ، الْمُعْجَمُ الْأَوْسَطُ : ٤٠٩٦ ح ٢٤٥/٤ ، الْمُعْجَمُ الصَّغِيرُ : ٣٦/١ ح ٢٢ ، مُسْتَدَ أَبِي يَعْلَى : ٢٢٣/٥ ح ٢٨٣٧ ، الْمُعْجَمُ الْكَبِيرُ : ١٩٥/١٠ ح ١٠٤٣٩ ، الْفِرْدَوْسُ بِمَثَوْرِ الْخِطَابِ : ٧٨/١ ح ٢٣٤ .

(٣) أنظر ، كُنْزُ الْعُقَالِ : ١٠/١٣٨ ح ٢٨٦٩٧ ، شَرْحُ أَصُولِ الْكَافِي : ١٥٧/١ ، قِيَاسُ الْقَدِيرِ : ١٦٨/١ ح ١١١٠ و ١١١١ ، وَسَائِلُ الشَّيْعَةِ : ٢٧/٢٧ ، الْجَامِعُ الصَّغِيرُ لِلشُّيُوعِيِّ : ٤٤/١ ، الْبَحْرُ الرَّائِقُ : ٢١/٤ .

مَحْكُومٌ عَلَيْهِ^(١) وَقَالَ الْإِمَامُ عليه السلام: «أَعْلَمَ النَّاسَ مَنْ جَمَعَ عِلْمَ النَّاسِ إِلَى عِلْمِهِ»^(٢).

وهذه دَعْوَةٌ صَرِيحَةٌ إِلَى التَّعَاوُنِ الثَّقَافِيِّ بَيْنَ الْأُمَمِ وَالشُّعُوبِ، بَلْ إِلَى تَوْحِيدِ التَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ الَّذِي هُوَ أَسَاسُ التَّأَلُّفِ وَالتَّكَافُلِ. قُرْبَ شَعْبَيْنِ أَوْ أَخَوَيْنِ تَبَاعُدًا، لِأَنَّ أَحَدَهُمَا يَتَخَبَّطُ فِي ظُلُمَاتِ الْجَهْلِ، وَالْآخَرُ يَهْتَدِي بِنُورِ الْعِلْمِ، أَوْ لِأَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا جَاهِلٌ بِمَا عِنْدَ الْآخَرِ، أَوْ يَتَّجِهُ بِمَعَارِفِهِ وَجِهَةً مُعَاكِسَةً، فَإِذَا تَعَاهَدَا عَلَى التَّعَاوُنِ الثَّقَافِيِّ تَمَّ بَيْنَهُمَا التَّقَارُبُ، وَأَصْبَحَ كُلٌّ مِنْهُمَا قُوَّةً لِأَخِيهِ.

أَمَرَ الْإِسْلَامُ أَتْبَاعَهُ أَنْ يَجْمَعُوا عُلُومَ النَّاسِ إِلَى عُلُومِهِمْ لِيَسِيرُوا فِي طَلِيعَةِ الْأُمَمِ، وَلِيَزِدَادُوا يَقِينًا بِعَقِيدَتِهِمْ، وَدَعَا أَهْلَ الْأَدْيَانِ الْآخَرَى أَنْ يَتَدَبَّرُوا كُلَّ حُكْمٍ مِنْ أَحْكَامِهِ، وَكُلَّ آيَةٍ مِنْ آيَاتِهِ: «أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا»^(٣).

لِيَتَأَكَّدُوا أَنَّهُ دِينَ الْعَقْلِ وَالْعَدْلِ: «وَيَرَى الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ»^(٤).

أَجَل، لَقَدْ رَأَى الْعُلَمَاءُ بَعْدَ أَنْ تَقَدَّمَتْ مَعَارِفُهُمْ أَنَّ فِي الْقُرْءَانِ أَسْرَارًا لَا تُفَسَّرُ

(١) أَنْظَر، نَهْجُ الْبَلَاغَةِ: الْحِكْمَةُ (١٤٦).

(٢) لَمْ أَتَفَ عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ فِي نَهْجِ الْبَلَاغَةِ، وَلَا فِي الْكُتُبِ الْمُتَوَفَّرَةِ لَدَيَّ، لَكِنْ رَوَى ذَلِكَ الْبَرَقِيُّ فِي الْمَحَاسِنِ: ٢٣٠/١ ح ١٧٣، مَنْ لَا يَحْضُرُهُ الْفَقِيه: ٣٩٥/٤، الْبُخَارِيُّ: ٥/١٣، أَمَّا الْيُصْبُورِيُّ: ٧٣ ح ٤، مَقَانِي الْأَخْبَارِ: ١٩٥ ح ١، رَوْضَةُ الْوَاعِظِينَ: ٦، الْأَرَبُوعُونَ حَدِيثًا لِلشَّهِيدِ الْأَوَّلِ: ٥٥ ح ٢٤، سُنَنِ الدَّارِمِيِّ: ٨٧/١، وَلَكِنْ نَسَبَهُ إِلَى الرَّشُولِ عليه السلام.

(٣) مُحَمَّدٌ: ٢٤.

(٤) سَبَأُ: ٦.

إِلَّا بِصِدْقِ الْإِسْلَامِ وَعَظَمَةِ الْمُبْدَعِ وَقَدْ تَجَاوَزَتِ الْآيَاتُ الْوَارِدَةُ فِي وَصْفِ الْكَوْنِ حَدَّ الْإِحْصَاءِ^(١) نَذَرُ بَعْضَهَا عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ . فَقَدْ جَاءَ فِي الْآيَةِ : «وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ»^(٢) .

وَكَانَ الْعِلْمُ إِلَى عَهْدِ قَرِيبٍ يَرَى أَنَّ الشَّمْسَ ثَابِتَةً ، وَلَمَّا تَقَدَّمَتِ الْعُلُومُ الرِّيَاضِيَّةُ وَالْأَتِ الرَّصْدُ اكْتَشَفَ مَا نَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ أَنَّ الْكَرِيمَ مِنْذُ أَكْثَرَ مِنْ (١٣) قَرْنًا مِنْ أَنَّهُمَا تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ ، وَهَذَا الْمُسْتَقَرُّ نَجْمَةٌ تُدْعَى بِالنَّسَرِ الْوَاقِعِ عَلَى شَكْلِ لَوْلَبِي .

وَجَاءَ فِي الْآيَةِ : «وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ»^(٣) .
اِكْتَشَفَ الْعِلْمُ الْحَدِيثُ أَنَّ الزَّوْجِيَّةَ مُتَأَصِّلَةٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى أَنَّ الذَّرَّةَ مُرَكَّبَةٌ مِنَ الْإِلِكْتَرُونِ وَالْبَرُوتُونِ كَهَرَبَاتِيَّةٍ سَالِيَّةٍ ، وَأُخْرَى مُوجِبَةٍ ، وَأَنَّ جَمِيعَ مَا فِي الْكَوْنِ مِنْ حَيَوَانَ وَنَبَاتٍ وَإِنْسَانٍ وَجَدَ بِصُورَةٍ زَوْجِيَّةٍ ، فَمَنْ أَوْجَدَ هَذَا الْإِزْدَوَاجَ ، هَلِ الصَّدْفَةُ أَوْ قُوَّةٌ عَظِيمَةٌ حَكِيمَةٌ تُسَيِّطِرُ عَلَى الْكَوْنِ بَمَنْ فِيهِ وَمَا فِيهِ ؟ .

وَجَاءَ فِي الْآيَةِ : «إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا»^(٤) .

تُشِيرُ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ إِلَى أَنَّ الْجَادِبِيَّةَ لَيْسَتْ بَيْنَ الْأَرْضِ وَمَا عَلَيْهَا فَقَطْ ، بَلْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَا عَدَاهَا مِنَ الْكَوَاكِبِ أَيْضًا ، وَأَنَّ كُلَّ كَوْكَبٍ يَجْذِبُ كُلَّ كَوْكَبٍ بِقُوَّةِ

(١) أَنْظَرُ كِتَابَ «التَّكَاثُلُ فِي الْإِسْلَامِ» لِلْأَسَازِ أَحْمَدَ أَمِينِ الطَّبَعَةُ الْأُولَى سَنَةِ (١٣٧٧ هـ) . وَكِتَابُ «نَظَرَاتُ فِي الْقُرْآنِ» لِلشَّيْخِ مُحَمَّدٍ الْغَزَالِيِّ . (بِمَنْعُهُ) .

(٢) يَسَى : ٣٨ .

(٣) الذَّارِيَاتُ : ٤٩ .

(٤) فَاطِرُ : ٤١ .

مُنَاسَبَةً. وَلَوْ أَنَّ الْعُلَمَاءَ دَرَسُوا الْقُرْآنَ بِإِمْعَانٍ، وَتَدَبَّرُوا مَا أَشَارَ إِلَيْهِ مِنْ حَقَائِقَ، وَوَضَعُوا تَصَاوِيمَهُمْ عَلَى أُسَاسِهَا لَتَكَشَّفَتْ لَهُمْ هَذِهِ الْحَقَائِقَ بِوُضُوحٍ مِنْ خِلَالِ دِرَاسَتِهِمْ وَمُخْتَبِرَاتِهِمْ، وَلَتَوَفَّرَ عَلَيْهِمُ الْكَثِيرُ مِنَ الْوَقْتِ وَالْجُهْدِ، وَلِلَّهِ دَرَأُ أَبْنِ عُبَّاسٍ حَيْثُ قَالَ: «فِي الْقُرْآنِ مَعَانٍ سَوْفَ يُفْسَرُهَا الزَّمَنُ» وَهَذِهِ الْمَعَانِي هِيَ أَسْرَارُ الْكَوْنِ الَّتِي تَكْشَفُ لِلْعُلَمَاءِ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ.

أَيُّنَ تَلَقَّى مُحَمَّدٌ ﷺ هَذِهِ الدَّرُوسَ! وَعَمَّنَ أَخَذَ نَظْرِيَةَ الْجَاذِبِيَّةِ، وَالتَّزَاوُجِ، وَعِلْمِ الْفَلَكَ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا عَجَزَ عَنِ إدْرَاكِهِ كِبَارُ الْمُخْتَرِعِينَ، وَعُظَمَاءِ الْمُكْتَشِفِينَ! وَهَلْ كَانَ لَدَيْهِ آلَاتٌ وَمُخْتَبِرَاتٌ، أَوْ أَنَّ كُلَّ ذَلِكَ وَجَدَ صَدَقَةً، وَنَزَلَ الْوَحْيُ بِهِ عَلَى قَلْبِ الْعَرَبِيِّ الْأُمِّيِّ صَدَقَةً!

ثُمَّ نُوَدُّ بِأَنْ نُوجِّهَ إِلَى مُضْطَفِّي مَحْمُودٍ هَذَا التَّسْأُولَ:

لَقَدْ حَكَمْتَ دُونَ تَرَدُّدِ بَأَنَّ الْأَدْيَانَ تَمُرُ بِمَرَحَلَةٍ إِنْهِيَارٍ. وَبَدِيهَةٌ أَنَّ الْحُكْمَ فِي قَضِيَّةِ مَا يَسْتَدْعِي الْعِلْمَ بِطَرَفَيْهَا، فَهَلْ أَحْطَتْ بِجَمِيعِ أَسْرَارِ الْكَوْنِ وَتَتَبَعْتَهَا وَاحِدًا وَاحِدًا، ثُمَّ اسْتَقْرَأْتَ الْأَدْيَانَ وَالْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةَ وَالْأَحَادِيثَ النَّبَوِيَّةَ بِكَامِلِهَا، وَبَعْدَ أَنْ شَاهَدْتَ وَجَرِبْتَ رَأَيْتَ أَنَّ الدِّينَ وَالْعِلْمَ ضِدَّانِ لَا يَجْتَمِعَانِ وَعَدَوَانِ لَا يَتَفَقَّانِ! ثُمَّ أَنَّكَ أَشَدَّتْ بِفَضْلِ الْعِلْمِ وَعَظَمَتِهِ، لَكِنَّكَ فِي نَفْسِ الْوَقْتِ شَنَنْتَ الْحِمَلَاتَ عَلَى دِينٍ يَدْعُمُ الْعِلْمَ، وَيُوَازِرُهُ الْعَقْلَ، وَيَحِثُّ أَتْبَاعَهُ وَالنَّاسَ أَجْمَعِينَ عَلَى الْبَحْثِ وَالنَّظَرِ وَالتَّأَمُّلِ وَالتَّفَكُّيرِ، فَكَيْفَ جَمَعْتَ بَيْنَ الضَّدَيْنِ! وَعَلَى أَيِّ شَيْءٍ يَدُلُّ هَذَا التَّضَارُّبُ وَالتَّنَاقُضُ! هَلْ يَدُلُّ عَلَى «الْعِلْمِ وَتَطَوُّرِ الْوَعْيِ». وَإِذَا كَانَ الدِّينُ جَهْلًا وَخَرَافَةً يَتَأَخَّرُ كُلَّمَا تَقَدَّمَ الْعِلْمُ، فَبِمَاذَا تُفْسَرُ - يَا أَسْتَاذَ - تَقَدُّمُ الْعَرَبِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ وَتَحَوُّلُهُمْ مِنْ جَاهِلِيَّةٍ جَهْلَاءَ إِلَى حَضَارَةٍ أَدَهَشَتْ الْعَالَمَ،

وَقَلْبَتِهِ رَأْسًا عَلَى عَقَبٍ، مِمَّا جَعَلْتُهُمْ يُدْعَوْنَ بِجَدَارَةِ آبَاءِ الْعِلْمِ الْحَدِيثِ، كَمَا قَالَ
نَهرو رُئِيسَ وَزَرَءِ الْهِنْدِ!.

أَنَّ الْإِسْلَامَ لَنْ يَزُولَ وَلَنْ يَنْهَارَ، لِأَنَّهُ حَقٌّ: «لَا يَأْتِيهِ الْبُتْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا
مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ»^(١).

وَلَأَنَّهُ وَاَقَعَ: «وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ
كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ»^(٢).

أَمَّا الَّذِي يَنْهَارُ إِلَى غَيْرِ رَجْعَةٍ فَهُوَ الَّذِي يَقُولُ بِغَيْرِ عِلْمٍ. وَيَعْتَقِدُ قَبْلَ أَنْ
يَتَّصِرَ... إِنْ صَحَّ التَّعْبِيرُ.

وَبِالنَّالِي، فَتَمَهَّمَا تَقَدَّمَ الْعِلْمُ وَتَطَوَّرَ الْوَعْيُ فَإِنَّ الْإِسْلَامَ أَرْحَبُ وَأَوْسَعُ مِنْ أَنْ
يَضِيقَ بِهِ. أَنَّ عَظَمَةَ الْإِسْلَامِ لَا تَظْهَرُ إِلَّا بِالْعِلْمِ. وَمِنْ هُنَا لَمْ يُنْكَرْ هَذِهِ الْعَظَمَةُ إِلَّا
جَاهِلٌ أَوْ مُكَابِرٌ.

(١) فَصِّلَتْ: ٤٢.

(٢) آلِ عِمْرَانَ: ٧.

1. The first part of the document discusses the importance of maintaining accurate records of all transactions. It emphasizes that proper record-keeping is essential for the transparency and accountability of the organization. This section also outlines the various methods used to collect and analyze data, ensuring that the information is reliable and up-to-date.

2. The second part of the document focuses on the financial aspects of the organization. It provides a detailed overview of the budget, including the projected income and expenses for the upcoming year. This section also discusses the various financial risks and how they are being managed to ensure the organization's financial stability.

3. The third part of the document addresses the operational aspects of the organization. It describes the various processes and procedures that are in place to ensure the efficient and effective delivery of services. This section also discusses the various challenges that the organization is facing and how they are being addressed.

4. The fourth part of the document discusses the human resources aspect of the organization. It provides an overview of the current staff levels and the various roles and responsibilities of the different departments. This section also discusses the various training and development programs that are in place to ensure that the staff is equipped with the necessary skills and knowledge to perform their duties effectively.

5. The fifth part of the document discusses the legal and regulatory aspects of the organization. It provides an overview of the various laws and regulations that the organization is subject to and how they are being complied with. This section also discusses the various legal risks and how they are being managed to ensure the organization's legal compliance.

6. The sixth part of the document discusses the environmental and social aspects of the organization. It provides an overview of the various environmental and social issues that the organization is facing and how they are being addressed. This section also discusses the various initiatives that are in place to promote sustainability and social responsibility.

7. The seventh part of the document discusses the overall performance of the organization. It provides an overview of the various key performance indicators (KPIs) that are being used to measure the organization's performance. This section also discusses the various strategies that are in place to improve the organization's performance and achieve its goals.

8. The eighth part of the document discusses the future of the organization. It provides an overview of the various opportunities and challenges that the organization is facing in the future. This section also discusses the various strategies that are in place to ensure the organization's long-term success and sustainability.

إِلَهُ أَيْزِنْهَاور

بَعْدَ أَنْ تَكَلَّمَ صَاحِبُ كِتَابِ «الله وَالْإِنْسَان» عَنِ الْإِلَهِ بِوَجْهِ عَامٍ عَقَدَ فَصْلاً خَاصّاً فِي آخِرِ كِتَابِهِ لِلْكَلامِ عَنِ إِلَهُ أَيْزِنْهَاور، وَإِذَا أَخْفَقَ فِي آرَائِهِ هُنَاكَ فَقَدْ أَصَابَ كَبَدَ الْحَقِيقَةِ هُنَا... وَلَوْ تَحَدَّثَ مُصْطَفَى مَحْمُودٌ فِي كِتَابِهِ عَنِ الْإِنْسَانِ وَإِلَهُ أَيْزِنْهَاور فَقَطُّ لِأَحْرَزَ الثَّقَةَ وَالْإِعْجَابَ مِنْ جَمِيعِ الْفَنَاتِ، وَلَرَأَيْتَ فِيهِ الْمَنْطِقَ وَالذِّكَاءَ، وَالتَّفَكِيرَ الصَّحِيحَ، وَالصَّدْقَ الَّذِي يَنْبَغُ مِنْ مَعِينِ الْقَلْبِ، وَالْإِبْدَاعَ وَالْفَنَ فِي إِبْرَازِ الْحَقَائِقِ.

وَهَلْ تَسْتَطِيعُ بِأَنْ تَمْلِكَ نَفْسَكَ، وَتَمْنَعَهَا عَنِ الضَّحْكَ وَالْبُكَاءِ فِي آنٍ وَاحِدٍ إِذَا قَرَأْتَ كَلِمَاتِهِ التَّالِيَةَ:

«لَمْ يَنْزِلِ الْقُرْآنُ فِي نِيُوبُورْكَ، وَلَا الْإِنْجِيلُ فِي هُولِيُود. وَلَا التَّوْرَةُ فِي كَابِرِي. وَإِنَّمَا نَزَلَتْ كُلُّهَا فِي بِلَادِنَا، فَلِمَ هَذَا الْقَوْلُ مِنْ جُونْ بُولَ وَالْعَمَّ سَامَ عَلَى تَرَاثِنَا الدِّينِيِّ؟! أَنْ فِي الْأَمْرِ سَرّاً»^(١).

أَجَلْ يَا أَسْتَازَ. وَآيَ سَرٍّ. إِنَّهُ عَمِيقٌ جَدّاً عُمُقُ يَنَابِيعِ الْبِتْرُولِ، وَخَطِيرُ كَشْرَكَاتِ شَلِّ وَفَاكُومِ. وَنَحْنُ نَعْلَمُ جَيْداً أَنَّ الْمُسْتَعْمِرِينَ وَأَعْوَانَهُمْ لَا يَهْتَمُّونَ بِالْدِّينِ وَلَا

(١) انظر. كتاب «الله وَالْإِنْسَان» لمُصْطَفَى مَحْمُودَ: ١٢٩ الطَّبعة الأولى سنة (١٩٥٧م). (مِنْهُ ﷺ).

بِالثَّقَافَةِ وَلَا بِالْقَوْمِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ وَلَا بِالْقِيَمِ الْأَخْلَاقِيَّةِ إِلَّا إِذَا خَافُوا عَلَى مَصَالِحِهِمْ،
فَعِنْدَهَا يَصْرُخُونَ بِحَرَارَةِ «الدِّينِ فِي خَطَرٍ»^(١).

وَقَالَ:

«وَلَنَفْسِ السَّبَبِ تَطْبَعِ السَّفَارَاتِ أُلُوفِ الْمَنْشُورَاتِ تَمْرُجُ فِيهَا إِرَادَةُ اللَّهِ بِإِرَادَةِ
أَيْدِنَ، وَمَوْلِيهِ، وَأَيَزِنَهَاوَرِ، وَتَجْعَلُ مِنَ الْإِسْتِعْمَارِ وَصِيًّا وَقِيَمًا عَلَى شُؤُونِ
الْمَسَاجِدِ، وَالْكَنَائِسِ، وَالْبَطْرَخَانَاتِ. أَنَّهَا تَدْخُلُ عَلَيْنَا مِنَ الْبَابِ الْوَحِيدِ الَّذِي لَا
يَقِفُ عَلَيْهِ حُرَّاسٌ... بَابُ اللَّهِ».

كَلَّا، يَا أَسْتَازَ، أَنَّ عَلَى بَابِ اللَّهِ صَفْوَةَ مِنَ الْحُرَّاسِ الْهَدَاةِ الَّذِينَ نَصَحُوا اللَّهَ
وَرُسُلَهُ وَكُتِبَ لَهُمْ لَا يَسْتَقْبِلُونَ إِلَّا الْمُطَهَّرِينَ مِنَ الدَّنَسِ. أَنَّ الْإِسْتِعْمَارَ يَدْخُلُ مِنَ
بَابِ الْمُزَيَّفِينَ الَّذِينَ يَنْتَظِرُونَ أَوْامِرَ الْعُمَلَاءِ لِلْكَلامِ بِأَسْمِ الدِّينِ، وَهُمْ أَعْدَى
أَعْدَائِهِ. أَنَّهُ يَدْخُلُ مِنَ بَابِ الَّذِينَ لَا يَحْرُصُونَ وَلَا يُعَاوِرُونَ عَلَى الدِّينِ إِلَّا حِينَ
يَقُولُ آيَزِنَهَاوَرِ: «أَنَّ الْكُونُغَرَسَ مُجْتَمِعٌ لِحِمَايَةِ الشَّرْقِ مِنَ الْإِلْحَادِ».

فِي هَذَا الْوَقْتِ بِالذَّاتِ يُنَادُونَ: «وَادِنَاهُ! أَصْبَحَ الدِّينُ فِي خَطَرٍ».
كَلَّا، أَنَّ الدِّينَ فِي حِصْنٍ حَصِينٍ: «لَا يَأْتِيهِ الْبَنَطُلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ
خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ»^(٢).

أَنَّ الْخَطَرَ يُحِيطُ بِالْمُرْتَزَقَةِ مِنْ أَتْبَاعِ آيَزِنَهَاوَرِ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ الْإِلْحَادَ

(١) أَوْضَحَ هَذِهِ الْفِكْرَةَ مُفَصَّلًا فِي كِتَابِ مُسْتَقِلِ الْإِمَامِ الْمَرْحُومِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ الْحُسَيْنِ كَاشَفِ الْغُطَاءِ،
أَسْمَاهُ «الْمَثَلُ الْعَلِيَّ فِي الْإِسْلَامِ لَا فِي بَحْدُونِ». طُبِعَ مَرَّاتٌ عِدَّةٌ فِي سَنَةِ وَاحِدَةٍ. وَأَوْدَ لَوْ يَقْرَأَهُ كُلُّ
شَرْقِيٍّ بِخَاصَّةِ الشُّبَّابِ. لِيَعْلَمُوا أَنَّ فِي الْمُسْلِمِينَ عُلَمَاءَ حَقِيقِيِّينَ يَجْهَرُونَ بِالْحَقِّ وَيُؤَدُّونَ، وَلَا
يَخْدُمُونَ الْإِسْتِعْمَارَ وَالْإِقْطَاعَ وَأَصْحَابَ الْجَوَاءِ وَالْمَالِ وَإِنْ بُذِلَتْ لَهُمُ الْمَلَائِكُ. (مِنْهُ ﷺ).

(٢) قُصِّصَتْ: ٤٢.

السِّيَاسِي، أَمَّا الإِلْحَاد الَّذِي جَاءَنَا مِنَ الْأُجَانِبِ، وَطَغَى طُوفَانُهُ فِي الْمَدَارِسِ وَالْمَسَارِحِ وَفِي كُلِّ مَكَانٍ فَهُوَ عِنْدَهُمْ إِسْمَانُ وَرَوْحُ وَرِيحَانُ. قَالَ مُضْطَفِّي مَحْمُودُ:

«أَنْتَهُمْ يَسْتَعْمِلُونَ كَلِمَةَ «الله» فِي السِّيَاسَةِ الدَّوْلِيَّةِ كَمَا يَسْتَعْمِلُونَ الْجُوكِرَ - البُيْع - أَنَّ الدِّينَ عِلَاقَةٌ بَيْنَ الْمَوَاطِنِ وَرَبِّهِ، وَكُلُّ مُتَدِينٍ حَرٌّ فِي تَصَوُّرِ هَذِهِ الْعِلَاقَةِ وَفَهْمِهَا كَمَا يَجِبُ. أَنَّهَا مَسْأَلَةٌ مِنْ صَمِيمِ مَسَائِلِهِ الشَّخْصِيَّةِ وَلَا عِلَاقَةَ لَهَا بِالسِّيَاسَةِ، وَلَا بِالْقَوْمِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَلَا بِالْوَحْدَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَكُلٌّ مَنْ يَخْرُجُ بِهَذِهِ الْعِلَاقَةِ عَنْ بَسَاطَتِهَا الشَّخْصِيَّةِ إِلَى خِصْمِ الْأَحْدَاثِ الْعَالَمِيَّةِ، وَيَسْتَخْدِمُهَا لِيَخْدَعَ بِهَا الْجَمَاهِيرَ وَيُزَجِّجَهَا بِالسَّمِّ وَالِدِيْنَامِيْتِ وَيُبْرِرَ بِهَا مَشَارِيعَهُ مُشْعُودَ وَنَصَابَ». أَيْ وَاللَّهِ، أَنَّهُ مُشْعُودٌ وَنَصَابٌ وَكَذَابٌ كُلُّ مَنْ يَتَكَلَّمُ بِأَسْمِ الدِّينِ لِمَآرِبِ شَخْصِيَّةٍ وَيَبِيعَهُ سِلَاحًا لِلْمُسْتَغْلِبِينَ وَالسَّفَاحِينَ.

ثُمَّ قَالَ:

«أَنَّ الَّذِي يُدَافِعُ عَنْهُ أَيْزنهاور لَيْسَ هُوَ إِلَهُ الْإِسْلَامِ، وَلَا إِلَهُ الْمَسِيحِيَّةِ وَإِنَّمَا هُوَ غُضُو فِي مَجْلِسِ إِدَارَةِ شَرِكَةِ الزَّيْتِ الْعِرَاقِيَّةِ. إِنَّنَا نَعْلِنُ سَقُوطَ الرَّبِّ الْوُثْنِيِّ الَّذِي يَدْعُو لَهُ أَيْزنهاور».

سَيَسْقُطُ لَا مَحَالَةَ، هَذَا الرَّبُّ الَّذِي يَعْبُدُهُ أَيْزنهاور وَأَعْوَانُهُ الَّذِينَ أَسْتَعَانَ بِهِمْ عَلَى ظُلْمِهِ وَطَغْيَانِهِ، وَاتَّخَذَ مِنْهُمْ دُعَاةَ ضِدِّ الشُّعُوبِ يَحْمُونَ لَهُ الْبَتْرُولَ بِأَسْمِ التَّوْرَةِ، وَالْقُرْآنِ، وَالْإِنْجِيلِ، وَيَبْقَى وَيَدُومُ إِلَهُ الْجَمِيعِ الَّذِي «يُؤْمِنُ الْخَائِفِينَ. وَيُنْجِي الصَّالِحِينَ. وَيَرْفَعُ الْمُسْتَضْعِفِينَ. وَيَضَعُ الْمُسْتَكْبِرِينَ. وَيَقْصِمُ الْجَبَّارِينَ

وَيُبِيدُ الظَّالِمِينَ ، وَيَهْلِكُ مُلُوكًا وَيَسْتَخْلِفُ آخَرِينَ ^(١١) .

وَبِالنَّالِي . فَإِنَّ مَنْ يَرْمِي خُصُومَهُ السِّيَاسِيِّينَ بِالْإِلْحَادِ وَيَتَّهَمُهُمُ بِالْمُرُوقِ مِنَ الدِّينِ بِدَافِعِ السِّيَاسَةِ وَالتَّجَارَةِ . ثُمَّ يَسْكُتُ وَيَرْضَى عَنِ الْمُلْحِدِينَ إِذَا كَانُوا حُلَفَاءَهُ عَلَى الْبَاطِلِ . وَأَنْصَارُهُ عَلَى الْغُدْوَانِ . أَنَّ هَذَا أَسْوَأُ حَالًا مِنَ الْمُلْحِدِ . لِأَنَّهُ مُرَاءُ يُتَاجَرُ بِفِدَاسَةِ الدِّينِ وَيَتَسَتَّرُ بِأَسْمِهِ كَذِبًا وَنِفَاقًا . أَنَّ الْمُؤْمِنَ حَقًّا يُحَارِبُ مِنَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَلَوْ كَانَ مُقِيمًا فِي مَكَّةَ الْمُكْرَمَةِ ، وَالْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ ، لِأَنَّهُ يَكْرَهُ الْإِلْحَادَ مِنْ حَيْثُ هُوَ الْإِلْحَادُ يَقْطَعُ النَّظَرَ عَنِ الْأَشْخَاصِ وَالْأَفْرَادِ ، وَيُسَالِمُ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَلَوْ سَكَنَ فِي الْحَيِّ اللَّاتِينِيِّ بِنَارِيَسَ ، أَمَّا الَّذِينَ يُحَارِبُونَ الْإِلْحَادَ الشَّرْقَ ، وَيَرْكَعُونَ لِكُفْرِ وَاشْنَطِنَ وَلَنْدَنَ فَأُولَئِكَ عَلَيْهِمْ مَا يَسْتَحِقُّونَ .

لَقَدْ دَلَّنَا التَّجَارِبُ أَنَّ أَدْعِيَاءَ الْقَوْمِيَّةِ ، وَالْوَطَنِيَّةِ ، وَالْإِشْتِرَاكِيَّةِ ، وَالْدِّيمُقْرَاطِيَّةِ وَمَا إِلَيْهَا إِنْ هِيَ إِلَّا تَضْلِيلٌ وَتَمْوِيهِ يَخْتَفِي وَرَاءَ هَآءِ الْحُكَامِ وَالرُّعَمَاءِ لَفَايَاتِ شَخْصِيَّةٍ ، وَأَغْرَاضِ دُنْيَوِيَّةٍ ، وَلِذَا لَمْ نَعُدْ نَتَّقِ بِأَحَدٍ مَا لَمْ نَكُنْ عَلَى يَقِينٍ مِنْ دِينِهِ وَإِيمَانِهِ بِاللَّهِ وَالسَّيْرِ عَلَى نَهْجِهِ الْقَوِيمِ . وَبَقَدَرِ مَا فِي نَفْسِهِ مِنَ التَّقْوَى وَالْخَوْفِ مِنَ اللَّهِ بِخِدْمَةِ عِبِيدِهِ وَمَا فِي أَعْمَالِهِ مِنَ الْخَيْرِ وَالْإِحْسَانِ لَوَجْهِ اللَّهِ يَكُونُ حَظُّهُ عِنْدَنَا مِنَ الْإِحْتِرَامِ وَالتَّقْدِيرِ .

(١١) مِنْ دُعَاءِ يَقْرَاهُ الشُّعْبَةُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ أَيَّامِ شَهْرِ رَمَضَانَ الْمُبَارَكِ وَيُسَمُّوهُ دُعَاءَ الْإِفْتِتَاحِ وَلَقَدْ إِنْشَارَةً إِلَى مَا يَتَقَدَّرُ مِنْ أَنَّ الْأَرْضَ سَمْتَلِيَّةٌ . قِسْطًا وَعَدْلًا بَعْدَ مَا مَلَّتْ ظُلْمًا وَجَسُورًا «وَيُؤْمَلِيزُ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ» الرُّومُ : ٤ - ٥ . (مِنْهُ ﷻ) .

وَلَيْتَ شِعْرِي مَاذَا يَبْتَغِي هَؤُلَاءِ النَّاسُ الَّذِينَ يُنَادُونَ بِالْقَوْمِيَّةِ وَالْإِسْتِرَاكِئَةِ ؟
هَلْ يُرِيدُونَ مُحَارَبَةَ الْإِسْتِعْمَارِ ، وَالْفُوضَى ، وَالْفَسَادَ ، وَالْإِقْطَاعَ ، وَالْإِسْتِعْبَادَ أَوْ
يُرِيدُونَ أَنْ يَنْهَجُوا بِالْعَرَبِ ثَقَافِيًّا وَإِقْتِسَادِيًّا .

فَإِذَا أَرَادُوا شَيْئًا مِنْ هَذَا قُلْنَا لَهُمْ : أَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا أَذْلَاءَ مُسْتَعْبِدِينَ فَأَصْبَحُوا
سَادَةَ أَعَزَّاءَ بِمُحَمَّدٍ وَالْإِسْلَامِ وَبِالْعُرُوبَةِ . وَالْأَعْرَابَ كَانُوا أُمَّةَ أُمِّيَّةٍ فَأَصْبَحُوا
أَسَاتِذَةَ الْعُلُومِ بِفَضْلِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَسُنَّةِ الرَّسُولِ الْعَظِيمِ . وَكَانُوا فَقَرَاءَ بَائِسِينَ
فَصَارُوا بَيْنَ عَشِيَّةٍ وَضُحَاهَا وَفِي أَيْدِيهِمْ مَصَادِرُ بِاللَّهِ وَأَتْبَاعُهُمْ رَسُولُ اللَّهِ الَّذِي
هَدَاهُمْ إِلَى الْجَدِّ وَالْعَمَلِ .

لَقَدْ كَانَ الْعَرَبُ فِي جَاهِلِيَّةٍ جَهْلَاءَ ، فَأَرْتَفَعُوا إِلَى أَسْمَى مَكَانٍ بِأَسْمِ اللَّهِ وَأَسْمِ
مُحَمَّدَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ . وَصَدَّقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ
يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ، وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي
ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ ^(١) .

قَالَ الشَّيْخُ أَحْمَدُ حَسَنُ الْبَاقُورِيِّ وَزِيرُ الْأَوْقَافِ السَّابِقِ بِمَضَرَ فِي كِتَابِ
«عُرُوبَةِ وَدِينِ» .

« أَنَّ أُمَّةَ الْعَرَبِ قَدْ عَزَّتْ وَمُجِدَّتْ بِالدِّينِ ، فَلَا سَبِيلَ إِلَى غَيْرِ الدِّينِ أَنْ أَرَادَتْ
الْبُعْثَ وَالْحَيَاةَ ... أَنَّ الْأُمَّةَ الْعَرَبِيَّةَ لَا تُقَدِّمُ إِلَّا بِمَا قَامَ بِهِ أَوَّلُهَا ، وَهُوَ الْإِيمَانُ بِالْحَقِّ
وَبِالْحُرِّيَّةِ وَالْعِزَّةِ وَالْكَرَامَةِ . وَالْحَقُّ أَنْ يَسْتَقِيمَ النَّاسُ عَلَى طَرِيقِ الدِّينِ ، وَيَلْتَزِمُوا
حُدُودَهُ ... وَالْحُرِّيَّةُ أَنْ تَتَحَرَّرَ الْعُقُولُ مِنَ الْأَوْهَامِ وَالْخَرَافَاتِ وَأَنْ تَتَّصِلَ اتِّصَالًا
مُبَاشَرًا بِالْمَعْرِفَةِ ... ذَلِكَ هُوَ الدِّينُ الْحَقُّ ، وَتِلْكَ الْمَعَانِي الَّتِي تَلْقَاهَا الْعَرَبُ أَوَّلَ مَا

تَلَقُّوا مِنْ هَدْيِ السَّمَاءِ : «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ»^(١).

لِذَلِكَ نَحْنُ لَا نَتَّقُ بَرَعِيمَ أَوْ حَاكِمَ أَوْ عَالِمَ إِلَّا عَلَى أَسَاسِ الدِّينِ وَالتَّقْوَى .
وَنَعْنِي بِالدِّينِ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ مَعَ الْبَسَالَةِ وَالْجُرْأَةِ وَالتَّضَحِّيَّةِ وَالْإِسْتِهَانَةِ بِالْمَوْتِ فِي سَبِيلِ الْحَقِّ وَمَنْ سَكَتَ عَنِ الْحَقِّ خَوْفًا مِنَ النَّاسِ لَا مِنَ اللَّهِ فَقَدْ دَعَانَا إِلَى الشُّكِّ فِي دِينِهِ وَعَدَمِ احْتِرَامِهِ .

عقائد المُفكرين

أَنَّ فِكْرَةَ خَالِقِ الْكَوْنِ يَقْتَرِنُ تَأْرِخُهَا بِتَأْرِخِ الْإِنْسَانِ، فَمُنْذُ وَجُودِ الْإِنْسَانِ الْبَدَائِيِّ حَتَّى هَذَا الْيَوْمِ وَفِكْرَةُ مُدَبِّرِ الْكَوْنِ حَسَبَ مَشِيئَتِهِ وَإِرَادَتِهِ تُسَيِّطِرُ عَلَى الْعُقُولِ وَالْقُلُوبِ بِسُلْطَانٍ لَا يُقَهَّرُ وَلَا يُغْلَبُ حَتَّى ظَنَّ كَثِيرٌ مِنَ الْفَلَّاسِفَةِ وَعُلَمَاءِ النَّفْسِ أَنَّ هَذِهِ الْفِكْرَةَ جِبِلَّةٌ مُتَأَصِّلَةٌ فِي الْإِنْسَانِ، وَقَدْ ظَهَرَ سُلْطَانُهَا فِي كُلِّ عَصْرِ بِظَاهِرِ شَتَّى مِنَ الطَّقُوسِ وَالضَّحَايَا وَالْقَرَابِينِ، وَمِنْ بِنَاءِ الْمَعَابِدِ وَالْهَيَاكِلِ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنْ دَلَائِلِ الْإِحْتِرَامِ وَالْإِجْلَالِ.

وَلَوْ أَرَادَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَدْرُسَ تَأْرِخَ الْأَدْيَانِ وَالْأَدْوَارِ الَّتِي مَرَّتْ بِهَا لَظَهَرَتْ أَمَامَهُ صُورُ شَتَّى تَخْتَلِفُ فِي الْمَظْهَرِ، وَتَتَّفَقُ عَلَى وَجُودِ خَالِقٍ قَدِيرٍ. وَفِي نَفْسِ الْوَقْتِ يَجِدُ الْأَدْلَةَ عَلَى وَجُودِ الْخَالِقِ مُخْتَلِفَةً فِي الشَّكْلِ وَالْأُسْلُوبِ، وَمُتَّفَقَةً فِي الْهَدَفِ وَالْقَصْدِ؛ فَلْعُلَمَاءُ الطَّبِيعَةِ أَدْلَةٌ غَيْرُ أَدْلَةِ الْأَدْبَاءِ، وَأَدْلَةُ عُلَمَاءِ النَّفْسِ وَالْإِجْتِمَاعِ غَيْرُ أَدْلَةِ الْإِطْرَاءِ، بَلْ أَدْلَةُ الْفَلَّاسِفَةِ تَخْتَلِفُ عَنْ أَدْلَةِ الْمُتَكَلِّمِينَ وَلَكِنَّهَا تَتَوَافَقُ إِلَى نَتِيجَةٍ يُجْمَعُ عَلَيْهَا الْكُلُّ وَإِنْ دَلَّ هَذَا عَلَى شَيْءٍ فَإِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى صِدْقِ مَا قَالَهُ الشَّاعِرُ^(١):

عَجِبْتُ لِلْعَبْدِ كَيْفَ يُعْصِي إِلَّا لَهُ وَيَجْعَدُ الْآلَاءَ الْجَاهِدِ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ
وَقَدْ أَخَذَ الشَّاعِرُ هَذَا الْمَعْنَى مِنْ قَوْلِ الْإِمَامِ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَا رَأَيْتُ شَيْئًا إِلَّا
رَأَيْتُ اللَّهَ قَبْلَهُ ثُمَّ مِنْهُ» ^(١)، وَتَرَجَعَ هَذِهِ الْحَقِيقَةُ فِي أَصْلِهَا إِلَى الْقُرْءَانِ الْكَرِيمِ:
«وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ، وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا
غَفُورًا» ^(٢).

وَمِنَ الْخَيْرِ وَالْفَائِدَةِ أَنْ تُشِيرَ إِلَى كِتَابِ لِلْأَسْتَاذِ الْعَقَادِ أَسْمَهُ «عَقَائِدُ الْمُفَكِّرِينَ
فِي الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ» جَمَعَ فِيهِ عَدَدًا غَيْرَ قَلِيلٍ مِنْ مُفَكِّرِي هَذَا الْعَصْرِ الَّذِينَ
يَعْتَقِدُونَ بِدَافِعٍ مِنْ تَفْكِيرِهِمْ وَتَجَارِبِهِمْ الْخَاصَّةِ بِوُجُودِ قُوَّةٍ وَرَاءَ الْكَوْنِ تُدِيرُهُ
بِحِكْمَةٍ وَنِظَامٍ. وَلَمْ يَتَأَثَّرْ هَؤُلَاءِ الْمُفَكِّرُونَ بِبَيِّنَةٍ أَوْ مَدْرَسَةٍ أَوْ كِتَابٍ يُمِتُّ إِلَيْهِ
الَّذِينَ بَسَبَبَ، وَفِيهِمُ الْعُلَمَاءُ وَالْأَدَبَاءُ وَالْفَلَسَفَةُ وَالْأَخْلَاقِيُّونَ.

الدُّكْتُورُ الْكَسَسُ كَارِيلُ :

فَمِنَ الْعُلَمَاءِ الدُّكْتُورُ الْكَسَسُ كَارِيلُ، وُلِدَ بِفَرَنْسَا سَنَةَ (١٨٧٣ هـ) وَمَاتَ فِيهَا
سَنَةَ (١٩٤٤ م)، وَهُوَ طَبِيبٌ مُتَخَصِّصٌ فِي بَحْوثِ الْخَلْيَةِ وَنَقْلِ الدَّمِّ وَالْأَعْضَاءِ.

(١) أَنْظِرْ، شَرْحُ أَصُولِ الْكَافِي: ٨٣/٣.

(٢) الْإِسْرَاءُ: ٤٤.

تَسْبِيحُ كُلِّ شَيْءٍ بِحَسَبِهِ فَالْعَاقِلُ يُسَبِّحُ اللَّهَ بِقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ، وَغَيْرُ الْعَاقِلِ يُسَبِّحُ بِدَلَالَةِ الْحَالِ عَلَى
وُجُودِ اللَّهِ وَتَوْحِيدِهِ، إِذْ كُلُّ مَوْجُودٍ سِوَى اللَّهِ مُفْتَقِرٌ إِلَيْهِ تَعَالَى، وَالْإِفْتِقَارُ إِلَيْهِ ذَلِيلٌ قَاطِعٌ عَلَى تَعْظِيمِهِ
وَتَقْدِيرِهِ. قَالَ الرَّازِي فِي تَفْسِيرِهِ: «إِنَّ التَّسْبِيحَ بِاللِّسَانِ لَا يَكُونُ إِلَّا مَعَ الْعِلْمِ وَالْفَهْمِ وَالنُّطْقِ، وَكُلُّ ذَلِكَ
مَخَالٌ فِي الْجَمَادِ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا التَّسْبِيحُ بِلِسَانِ الْحَالِ». (مِنْهُ ﷺ).

أَشْتَغَلَ بِالطَّبِّ عِلْمًا وَجِرَاحَةً وَإِشْرَافًا عَلَى مَعَاهِدِ الْعِلَاجِ، وَصَاحِبَ جَائِزَةِ نُوبَلِ (١٩١٢ هـ)، وَمُدِيرَ مَعْهَدِ الدَّرَاسَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ بِفَرَنْسَا.

يُؤْمِنُ بِأَنَّ اللَّهَ لَا زَمَ لِلْإِنْسَانِ لَزُومِ الْمَاءِ وَالْأُوكْسِجِينِ، لِأَنَّهُ لَا حَظَّ مِنْ تَجَارِبِهِ بِأَنَّ كُلَّ خَلْقَةٍ فِي الْجِسْمِ تَهْتَدِي بِالْعَقْلِ الْأَبَدِيِّ إِلَى مَوْضِعِهَا مِنَ الْبُنْيَةِ الْمَرْسُومَةِ، وَتَعْمَلُ فِي كُلِّ مِنْ خُطَوَاتِهَا كَأَنَّهَا تُرَى تَكْوِينِ الْجِسْمِ كُلِّهِ مِثْلًا أَمَامَهَا.

الصَّلَاةُ:

وَوَضَعَ هَذَا الْعَالَمَ رِسَالَةً فِي الصَّلَاةِ قَالَ فِيهَا:

«إِنَّ الصَّلَاةَ تَسَامُ إِلَى أَوْجِ الْأَمَادِيَةِ مِنَ الدُّنْيَا، وَهِيَ عَلَى أَكْثَرِ مَا تَكُونُ شَكَايَةً أَوْ إِبْتِهَالًا أَوْ صَرْخَةً أَوْ اسْتِغَاثَةً، وَهِيَ فِي بَعْضِ الْأَحْيَائِنِ تَأْمُلُ خَالِصٌ فِي أَصُولِ الْوُجُودِ وَمَصَادِرِهِ، وَيَصْلَحُ أَنْ يُقَالَ: أَنَّهَا إِرْتِفَاعٌ إِلَى الْمَقَامِ الْإِلَهِيِّ وَعُنْوَانٌ لِلتَّوَجُّهِ بِالْحُبِّ وَالْعِبَادَةِ إِلَى الَّذِي مِنْهُ صَدَرَتِ الْأَعْجُوبَةُ الَّتِي هِيَ الْحَيَاةُ. وَبِالصَّلَاةِ يَسْمُو الْإِنْسَانُ إِلَى اللَّهِ وَيَدْخُلُ اللَّهُ سِرِيرَتَهُ وَهِيَ ضَرُورَةٌ لَا غِنَى عَنْهَا لِنُحُو الْإِنْسَانِ فِي أَرْفَعِ حَالَاتِهِ».

فرانز ويرفل:

مِنَ الْأَدْبَاءِ وَكَاتِبِ الْقِصَّةِ الْعَالَمِيِّينَ الْأَدِيبِ التَّمَسَاوِيِّ فِرَانْزِ وَيَرْفِلِ تُوَفِّي سَنَةِ (١٩٤٥ م)، قَالَ فِي كِتَابِ «بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ».

«أَنَّ تَفْسِيرَ الْكَوْنِ بِالْقِيَاسِ وَالتَّعْقِيبِ هُوَ أَنْجَحُ أَحَابِيلِ الشَّيْطَانِ، لِأَنَّ حُجَّتَهُ الَّتِي تَقُومُ عَلَيْهَا جَمِيعُ الْمَذَاهِبِ الْوَضْعِيَّةِ الْمَادِيَّةِ هِيَ أَنَّ الشَّيْءَ يُسَاوِي نَفْسَهُ،

وَالْأُمَّةَ وَلِيَدِهِ الْإِقْلِيمَ الْجُغْرَافِيَّ وَالْفَرْدَ مَحْكُومَ بظُرُوفِهِ، وَمَطَالِبَ الشَّعْبِ تَتَوَقَّفُ عَلَى حَاجَاتِهِ الْاِقْتِصَادِيَّةِ، وَالْفِيلُ لَهُ جِلْدٌ فِيلٌ «لَأَنَّهُ ضَرُورِي لَهُ... وَقَدْ نَجَحَ الشَّيْطَانُ فِي تَرْوِيعِ الْأُصُولِ الْأُولَى مِنَ الْمَسْأَلَةِ كُلِّهَا، وَهِيَ أُصُولُ الْخَلْقِ وَالْكَيُونَةِ وَوُجُودِ اللَّهِ... أَنَّ اللَّهَ أَعْظَمُ جَدًّا مِنْ أَنْ يَحْتَوِيَ كَلَامُ الْإِنْسَانِ بُرْهَانًا عَلَى وُجُودِهِ».

الدِّينُ بَعْدَ مِلْيُونِ سَنَةٍ:

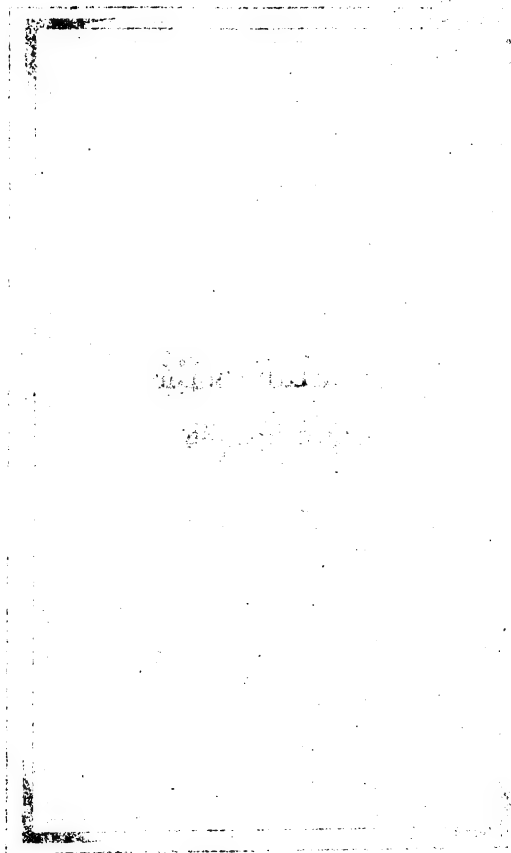
مَا زِلْنَا نَسْمَعُ وَتَقْرَأُ أَنَّ مُسْتَقْبَلَ الدِّينِ فِي خَطَرٍ، وَالَّذِينَ يَقُولُونَ هَذَا الْقَوْلَ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يُغَارُونَ عَلَى الدِّينِ حَقًّا، وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُعَبِّرُونَ عَنْ أَمْنِيَّتِهِمْ وَعَدَائِهِمْ لِلدِّينِ، وَتَأْتِي كَلِمَةُ الْعِلْمِ لَتَرْدَ عَلَى هَؤُلَاءِ، وَتُبَشِّرُ أَوْلَئِكَ.

نَقَلَ الْأُسْتَاذُ الْعَقَادُ أَنَّ لِدَارُونَ الشَّهِيرَ حَفِيدًا، أَسْمَهُ السَّيْرِ شَاوُلَ دَارُونَ، قَدْ بَلَغَ مِنَ الْعِلْمِ مَبْلَغَ الرِّيَاسَةِ وَالْأُسْتَاذِيَّةِ أَلْفَ كِتَابًا أَسْمَهُ «بَعْدَ مِلْيُونِ سَنَةٍ» قَالَ فِيهِ:

«أَنَّ الْإِنْسَانَ سَيَحْتَفِظُ بِالْعَقِيدَةِ الدِّينِيَّةِ فِي الْمِلْيُونِ السَّنَةِ الْمُقْبِلَةِ قِيَاسًا عَلَى الْمَعْهُودِ مِنْ تَأْرِيخِهِ الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ، وَلِهَذَا كَانَتْ الْعَقَائِدُ عَلَى جَانِبِ عَظِيمٍ مِنَ الْأَهَمِّيَّةِ بِالنَّظَرِ إِلَى الْمُسْتَقْبَلِ لِأَنَّ الْعَقِيدَةَ تَبَعَتْ الْأَمَلَ فِعْلًا فِي دَوَامِهَا بَعْدَ صَاحِبِهَا، وَفِي سَيِّطَرَةِ الْإِنْسَانِ عَلَى مَصِيرِهِ بِفَضْلِهَا».

وَبِالتَّالِي، فَإِلَى كِتَابِ «عَقَائِدُ الْمُفَكِّرِينَ فِي الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ» يَا شَبَابَ هَذَا الْعَصْرِ، لَتَسَيِّبُوا أَنَّ مَوْقِفَ الْعُلَمَاءِ وَالْأُدَبَاءِ وَالْفَلَاسِفَةِ فِي عَصْرِ الذَّرَّةِ مِنَ الدِّينِ، مَوْقِفَ التَّسْلِيمِ وَالْإِذْعَانِ.

شُبُهَاتُ الْمُتَلَمِّدِينَ
وَالْإِجَابَةُ عَنْهَا



المُفَرِّتَةُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَالصَّلَاةُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الْأَكْرَمِينَ

مع أخ كريم:

قَالَ لِي أَخ فاضل وَكَرِيم مِنَ السَّادَةِ الْأَشْرَافِ آلِ بَيْتِ الْعُلُومِ: نَحْنُ وَأَنْتَ فِي سَبَاقٍ مَعَ الْفَارِقِ فِي الْمِيدَانِ... أَنْتَ تَكْتُبُ وَنَحْنُ نَقْرَأُ... وَكَانَ فَرَحِي بِقِرَاءَتِهِ أَشَدَّ مِنْ غِبْطَتِي بِمَا يَدْرُهُ عَلَيَّ حَقَّ التَّأْلِيفِ ، لِأَنَّهُ إِلَى زَوَالِ قَلِّ أَوْ كَثْرِهِ ، وَلَكِنْ هَاجَ بِي الطَّمَعُ فِي الْعُقْبَى .

وَأَنَا بَدَوِي سَلَخْتُ أَعْوَاماً مَدِيدَةً فِي الْقِرَاءَةِ... أَتَقَبَّ عَنْ شَوَارِدِ الْأَفْكَارِ وَنَوَادِرِهَا ، أَدْرَبُ بِهَا ذِهْنِي عَلَى النَّمُوِّ وَالتَّنْفِيكِيرِ ، وَأَرْزَمُ مَا فِيهِ مِنْ ثَغَرَاتٍ وَفَجَوَاتٍ قَبْلَ أَنْ أَمْسِكَ بِالْقَلَمِ... وَحَتَّى الْآنَ ، لِأَنَّ تَرْمِيمَ الْبَيْتِ أَوَّلًا ، ثُمَّ السَّكْنَى... وَإِذَا أَهْتَدَيْتُ إِلَى حِكْمَةِ اسْتِضْيَاءِ بَنُورِهَا أَصَابَنِي مَا يَشْبَهُ مَسَّ الْكَهْرَبَاءِ ، وَأَتَذَكَّرُ قَوْلَ مَنْ قَالَ حِينَ يُطَالَعُ وَيُذَاكِرُ: «أَيْنَ السَّلَاطِينُ مِمَّا نَحْنُ

فِيهِ...! أَمَا لَوْ فَطَنُوا لَنَا لَقَاتَلُونَا عَلَيْهِ بِالسَّيُوفِ» ^(١). وَقَالَ غَيْرُهُ: «هَذِي هِيَ اللَّذَّةُ مِنْ غَيْرِ إِيَّامٍ».

يَقْرَأُ وَيُصَفِّقُ:

وَمِنْ جُمْلَةِ مَا قَرَأْتُ فِي هَذَا الْبَابِ: أَنَّ رَجُلًا كَانَ يَقْرَأُ، وَهُوَ مُسْتَلْقٌ فِي فِرَاشِهِ، وَفُجَاءَةً وَبَلَاءَ شُعُورٍ قَفَزَ وَأَخَذَ يَهْتَفُ وَيُصَفِّقُ طَرَبًا!... وَهَكَذَا تَفْعَلُ الْبَذَرَةُ الصَّالِحَةُ فِي الْأَرْضِ الطَّيِّبَةِ، أَوْ كَمَا قَالَ الْإِمَامُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام حِينَ صُعِقَ هُمَامٌ ^(٢) عِنْدَ سَمَاعِهِ الْخُطْبَةَ الشَّهِيرَةَ الْخَطِيرَةَ: «أَهَكَذَا تَصْنَعُ الْمَوَاعِظُ الْبَالِغَةُ بِأَهْلِهَا؟».

فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ: فَمَا بِأَلَاكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟

فَقَالَ عليه السلام: وَيَحْكُ، إِنَّ لِكُلِّ أَجَلٍ وَقْتًا لَا يَعْدُوهُ، وَسَبَبًا لَا يَتَجَاوَزُهُ. فَمَهْلًا، لَا تَعْدُ لِمِثْلِهَا، فَإِنَّمَا نَفَثَ الشَّيْطَانُ عَلَى لِسَانِكَ! ^(٣). وَإِذْنُ الْفِكْرَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ لَيْسَتْ بِشَيْءٍ إِذَا لَمْ تُضَافَ قَلْبًا رَاغِبًا وَمَزَاجًا قَارِنًا... وَقَالَ شَاعِرٌ مِنَ الصِّينِ: «يَحْسُ الْمُفَكِّرُ الَّذِي تَمْضِي عَلَيْهِ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ دُونَ أَنْ يَقْرَأَ شَيْئًا أَنْ حَدِيثَهُ قَدْ فَقَدَ نَكْهَتَهُ، كَمَا يَرَى بَأْنَ وَجْهَهُ أَصْبَحَ كَرِيهًا إِذَا نَظَرَ إِلَيْهِ فِي الْمِرْآةِ»... وَلَيْسَ مِنْ شِكِّ بَأْنَ

(١) قَرَأْتُ هَذَا الْقَوْلَ مَنْسُوبًا إِلَى أَبِي حَنِيفَةَ فِي الْحِكْمَةِ الْخَالِدَةِ لِأَبْنِ مَسْكُوَيْهِ. (مِنْهُ عليه السلام).

(٢) هُوَ هُمَامٌ بَنُ شُرَيْحٍ بَنُ زَيْدٍ بَنُ مَرْثَةَ بَنُ عَمْرُو بَنُ جَابِرٍ بَنُ يَحْيَى بَنُ الْأَصْهَبِ بَنُ كَعْبٍ بَنُ الْخَارِثِ أَبْنِ سَعْدٍ بَنُ عَمْرُو بَنُ ذَهْلٍ بَنُ مُرَانَ بَنُ صَيْفِي بَنُ سَعْدِ الْقَشِيرَةِ. أَنْظِرْ، الْبَحَارُ: ٣١٧/٦٧ وَ: ١٩٢/٦٨ وَ: ١٩٦. شَرَحَ نَهْجَ الْبَلَاغَةِ لِأَبْنِ أَبِي الْخَدِيدِ: ٥٤٧/٢ طَبْعَةٌ مِصْرَ، وَ: ١٣٣/١٠ طَبْعَةٌ أُخْرَى، وَقِيلَ: هُوَ هُمَامٌ بَنُ عَبَادَةَ، وَكَانَ مِنْ شِيعَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَوْلِيَّائِهِ، وَكَانَ عَابِدًا... إلخ.

(٣) أَنْظِرْ، نَهْجَ الْبَلَاغَةِ: الْخُطْبَةُ (١٩٣).

الْوَجْهَ الْقَبِيحَ يَسْتَرِهِ الْعِلْمُ وَسِحْرُ الْحَدِيثِ ، وَالْوَجْهَ الْجَمِيلَ تَشْوَاهُ الْجَهَالَةُ وَالْحِمَاقَةُ .. وَشَاعَ فِي أَوْسَاطِ النَّجَفِ عَنْ عَالِمٍ ذِي شَأْنٍ أَنَّهُ قَالَ : « إِذَا تَرَكْتُ الْمُطَالَعَةَ وَالْمُذَاكِرَةَ بَضْعَةً أَيَّامَ شَعَرْتُ بِأَنِّي عُدْتُ إِلَى حَيْثُ أَبْتَدَأْتُ » .

الْأَخْطَاءُ الْمَطْبَعِيَّةُ :

لَا حَظَّ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ بِأَنَّ صَاحِبَ الْمَزَاجِ الْقَارِيَّ يَتَجَاهَلُ الْأَخْطَاءَ الْمَطْبَعِيَّةَ وَيَتَغَافَلُ عَنْ رَدَاءَةِ الطَّبْعِ وَالْإِخْرَاجِ ، لِأَنَّهُ مُنْصَرَفٌ بِكُلِّهِ وَمِنْ أَعْمَاقِهِ إِلَى الْمَضْمُونِ وَالْمُحْتَوَى لَا إِلَى الشَّكْلِ وَالصُّورَةِ ، كَمَا هُوَ الشَّأْنُ فِيمَنْ يَبْحَثُ عَنْ الْعِبَقَاتِ لَا عَنِ اللَّعْنَاتِ ... وَصَدَقَ اللَّهُ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ : « قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ ، فَرَبُّكُمْ أَغْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا » ^(١) .

وَقَالَ حَكِيمٌ خَبِيرٌ : « مَنْ أَشْتَغَلَ بِتَفْقُدِ اللَّحْنِ نَسِيَ الْحُجَّةَ » .

أَغْلَامٌ وَعَمَائِمُ :

وَرَحِمَ اللَّهُ عُلَمَاءَنَا الْقُدَامَى ، عَاشُوا - عَلَى فَقْرِهِمْ وَحَاجَتِهِمْ - مَعَ كُتُبِ الْوَرَقِ الْأَصْفَرِ الْمَطْبُوعِ بِالْحَجَرِ بِلَا فَوَاصِلٍ وَدَلَائِلٍ وَزُؤُوسٍ أَسْطُرَ وَمَا شَبَّهِ ، وَأَقْبَلُوا عَلَيْهَا بِحُبٍّ وَتَقْدِيرٍ ، وَدَرَسُوهَا بِفَهْمٍ وَعُمُقٍ ، وَنَاقَشُوهَا بِوَعْيٍ وَرَوِيَّةٍ ... يَسْهَرُونَ مَعَهَا حَتَّى الصَّبَاحَ عَلَى مِصْبَاحِ شَاحِبٍ تَحُومُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمُ الْبَعُوضُ اللَّاسِعَةُ ، وَتَدْبُ مِنْ حَوْلِهِمُ الْعَقَّارِبُ اللَّادِغَةُ ، وَمَا زَادَهُمْ ذَلِكَ إِلَّا ظَمَأً لِلْعِلْمِ ، وَنَشَاطًا فِي طَلَبِهِ حَتَّى بَلَغُوا مِنْهُ قِمَّةَ الْقِمَمِ ، وَكَانَ مِنْهُمْ صَاحِبُ الْكِفَايَةِ ، وَالرِّسَائِلِ ،

وَالْمُسْتَمْسِكُ وَالْجَوَاهِرُ، وَمَنْ قَبْلَهُمُ الشَّيْخَانُ: الْمُفِيدُ، وَالطُّوسِيُّ، وَالشَّهِيدَانُ: الْجُرَيْنِيُّ، وَالْجَبْعِيُّ، وَالْمُحَقَّقَانِ: الْجَلِيُّ، وَالْعَامِلِيُّ، وَالْعَلَّامَتَانِ: الْجَلِيُّ وَالْمَجْلِسِيُّ... إِلَى مَا لَا يَبْلُغُهُ عَدَدٌ وَحَصْرٌ.

وَلَا أَدْرِي: هَلْ الْبُؤْسُ يَحْتَثُّ عَلَى الْحَرَكَةِ، وَالْحَاجَةُ عَلَى الْبَحْثِ وَالتَّفَكُّيرِ؟ وَأَيُّمَا كَانَ السَّبَبُ فَإِنَّ الْعَدِيدَ مِنَ الْعُلَمَاءِ، وَالْفَلَّاسِفَةِ، وَالْأَدْبَاءِ - قَدْ حَطَمُوا الْحَوَاجِرَ عَلَى صَخْرَةِ الصَّبْرِ، وَأَنْتَصَرُوا عَلَى الْآلَامِ، وَأَبَدَعُوا فِي كُلِّ مَسِيدَانٍ... وَرَأَيْتُ، وَأَنَا طَالِبٌ فِي النَّجَفِ، أَسَانِدَةً وَتَلَامِذَةً قَدْ عَضَّهُمُ الْجُوعُ، وَأَنَّهُكَهُمْ الشَّدَّةُ، وَبِالرَّغْمِ مِنْ هَذَا كَانُوا عِنْدَ النَّقَاشِ كَالسَّيْلِ الدَّافِقِ... ثُمَّ عُشْتُ وَرَأَيْتُ نَوْعًا مِنَ الطُّلَّابِ لَا يَهْتَمُّ وَاحِدُهُمْ بِدَرْسٍ وَتَحْصِيلٍ، وَشُغْلُهُ الشَّاغل - وَهُوَ طَالِبٌ - بِأَنْ يَبْنِيَ دَارًا فَارَهُةً بِالْأَدَوَاتِ وَالْمُكَيِّفَاتِ... وَالسَّجَادِ، وَالْحُجُرَاتِ، وَإِذَا فَتَحَ كِتَابًا شَعَرَ بِالِاخْتِنَاقِ!... لَا يَا شَيْخٍ... أَمَّا الْعِلْمُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنْتَ حَبِيسٌ فِي طَلَبِهِ، وَأَمَّا الدُّنْيَا وَكَفَى.

شَطْحَاتُ فِقْهِيَّة:

حَيْثُ أَنْتَهَيْتُ مِنْ تَأْلِيفِ الْإِسْلَامِ بِنَظَرَةٍ عَصْرِيَّةٍ - شَرَعْتُ بِكِتَابِ شَطْحَاتِ فِقْهِيَّةٍ، وَسَوَدَتْ مِنْهُ صَفْحَاتٌ، وَعَزِمْتُ عَلَى الْمُضِيِّ فِيهِ حَتَّى التَّهَاقُوتِ، كَمَا هُوَ شَأْنِي فِي سَائِرِ مَا كَتَبْتُ وَنَشَرْتُ... وَدُونَ آيَةٍ سَابِقَةٍ أَصْبَحَتْ ذَاتَ يَوْمٍ، وَقَدْ تَمَلَّكَنِي الْخَوْفُ وَالْهَلَعُ مِنْ هَذِهِ الْفَلَتَاتِ الَّتِي تُبْرِزُ الْمَسَاوِيَّ، وَتُخْفِي الْمَحَاسِنَ، وَقُلْتُ فِي نَفْسِي: يَا سُبْحَانَ اللَّهِ!... وَأَيْنَا الْمَعْصُومُ؟ وَكَيْفَ أَجْمَعُ بَيْنَ هَذَا وَكِتَابِ «مَعَ عُلَمَاءِ النَّجَفِ»؟... وَهَلْ أَنَا مُبْرَأٌ مِمَّا أَرَى بِهِ سِوَايَ؟... وَإِذْنُ فَنَانَا مَغْرُورٍ،

أَوْ مَخْدُوعٍ مِنْ نَفْسِي حِينَ أَثَرْتُ هَذِهِ الْكَبَوَاتِ ، وَإِنْ كُنْتُ فِيهَا مِنَ الصَّادِقِينَ .
وَرَغِمَ ذَلِكَ أَسْتَحِرْتُ اللَّهَ بِكِتَابِهِ وَإِذَا بَايَ غَاضِبَةً لَاهِبَةً تُهَدِّدُنِي بِالْإِحْبَاطِ
وَالْإِنْحِطَاطِ ... يَا سَاتِرَ يَا عَظِيمَ ... مَا هَذَا الصَّارُوخَ الْجَهَنَّمِيَّ بَعْدَ الْعَمَلِ الطَّوِيلِ ،
وَالْجُهْدِ الْجَهِيدِ ؟ . فَعَدَلْتُ عَنِ الْقَصْدِ ، وَشَكَرْتُ اللَّهَ عَلَى لُطْفِهِ وَهَدَايَتِهِ ، وَسَأَلْتُهُ
خَيْرَ الْقَضَاءِ فِي الْعَاجِلَةِ وَالْآجِلَةِ : «وَإِنْ يُمْسِسْكَ اللَّهُ بِضَرٍْ فَلَا كَاشِفَ لَهُ؛ إِلَّا هُوَ
وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ
الرَّحِيمُ قُلْ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أِهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي
لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ
وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ» ^(١) .

وَعَرَبِيَّةُ الْغَرَائِبِ أَنَّ كَبِيرًا مِنْ عُلَمَاءِ النَّجَفِ كَانَ قَدْ أَطْلَعَ عَلَى بَعْضِ مَسَائِلِ مِنْ
الشُّطْحَاتِ ، فَقَالَ لِي بِهِدْوٍ الْوَاقِعِ ، وَهُوَ يَقْرَأُهَا : «سَتَعْدِلُ عَنْهَا لَمْحَالَةً» ^(٢)
فَتَعَجَّبْتُ وَقُلْتُ فِي نَفْسِي : مَاذَا أَرَادَ بِهَذَا ؟ وَمِنْ أَيْنَ جَاءَهُ الْعِلْمُ ؟ وَأَنَا مُحِبٌّ
لِعِلْمِي ، وَأَعْتَزَمُ الْجِدَّ فِيهِ حَتَّى الْحَرْفَ الْأَخِيرَ ، كَمَا سَبَقَتْ الْإِشَارَةُ .

هَذَا الْكِتَابُ :

تَرَكْتُ الشُّطْحَاتِ إِلَى هَذَا الْكِتَابِ ، وَكَانَ اسْمُهُ فِي بَادِيءِ الْأَمْرِ «الدِّينِ
وَالْفِطْرَةِ» ثُمَّ تَبَيَّنَ لِي بِأَنَّ أَكْثَرَ فِصُولِهِ أَوْ الْكَثِيرَ مِنْهَا تَلْتَقِي عِنْدَ الرَّدِّ عَلَى

(١) يُؤَنَسُ : ١٠٧ - ١٠٩ .

(٢) يُقَالُ وَهَذِهِ عَلَى الْقَائِلِ الَّذِي قَالَ لِي : بِأَنَّ صَاحِبَ الْحِكْمَةِ : «سَتَعْدِلُ عَنْهَا لَمْحَالَةً» . هُوَ الْمَرْجِعُ
الدِّينِي الْكَبِيرُ الشَّهِيدُ ، مُحَمَّدٌ بَاقِرُ الصِّدْقِ (ع) .

المُلْحِدِينَ، وَالتَّصْدِيقَ لِأَقْوَالِهِمْ وَنَقَاشَهَا بِمَنْطِقِ هَادِيٍّ وَصَارِمٍ، فَتَرَكْتُ الْإِسْمَ الْأَوَّلَ إِلَى اسْمِ «شُبُهَاتِ الْمُلْحِدِينَ وَالْإِجَابَةِ عَنْهَا» وَمَهْمَا يَكُنْ فَلَيْسَتْ الْعِبرَةُ بِالْإِسْمِ، بَلْ بِمَا يَقَعُ عَلَيْهِ، ... وَلَا بِالْحَجْمِ وَكَثْرَةِ الْأَوْرَاقِ، بَلْ بِالْعِلْمِ وَعَدَدِ الْقُرَاءِ. وَتَسْأَلُ: لَقَدْ كَتَبْتَ كَثِيرًا فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ، وَأَفْرَدْتَ لِكُلِّ أَصْلٍ مِنْ أَصُولِ الْعَقِيدَةِ كِتَابًا خَاصًّا بِهِ، فَهَلْ فِي كِتَابِكَ هَذَا مِنْ جَدِيدٍ؟

الْجَوَابُ:

١- أَنَّ شُبُهَةَ الْإِلْحَادِ تَقُومُ عِنْدَ أَصْحَابِهَا عَلَى الْعَدِيدِ مِنَ الْأَدَلَّةِ، نَاقَشْتُ بَعْضَهَا مِنْ قَبْلِ، ثُمَّ لَاحَظْتُ أَنَّهُمْ يُرَكِّزُونَ، كَثِيرًا مِنْ عَلَى أَنَّ الْعِلْمَ الْحَدِيثَ يُنَافِرُ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ وَيُنَاقِضُهُ مُتَشَبِّهِينَ بِنَتَائِجِ أَتْبَهَاتِ عِلْمِ الطَّبِيعَةِ، وَعِلْمِ الْأَحْيَاءِ وَعِلْمِ النَّفْسِ، كَمَا يَزْعُمُونَ، وَهَذَا الْكِتَابُ يُفَنِّدُ هَذَا الزَّعْمَ وَالْوَهْمَ بَعْدَ أَنْ يَعْزِضَ أَقْوَالَ الزَّاعِمِينَ بِأَوْضَحِ بَيَانٍ.

٢- أَنَّ الْمُلْحِدِينَ لَا يَكْفُفُونَ عَنِ التَّكْرَارِ، وَالْمُعَاوَدَةِ: «وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا»^(١).

٣- لَا بُدَّ لِكُلِّ أَمْرٍ بِمَعْرُوفٍ، وَدَاعٍ لِأَيَّةِ فِكْرَةٍ - مِنْ التَّوَكُّيدِ وَالتَّكْرَارِ، لِأَنَّهَا مِنْ أَقْوَى الْعَوَامِلِ وَأَجْدَاهَا لِتَكْوِينِ الْأَرَاءِ وَأَنْتِشَارِهَا... وَمِنْ هُنَا كَرَّرَ الْقُرْءَانُ الْكَرِيمَ آيَاتِ التَّدْلِيلِ، وَالتَّرْغِيبِ، وَالتَّحْذِيرِ بِشَتَّى الْأَسَالِيبِ، وَمِنْ قَبْلِ قَالِ الْمُشْرِكُونَ لِنَبِيِّهِمْ: «قَالُوا يَنْبَغُ قَدْ جَدَلْتُنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ»^(٢).

(١) الْإِشْرَاءُ: ٨.

(٢) هُودٌ: ٣٢.

وَلَا أَعْرِفُ عَصْرًا ائْتَشَرَ فِيهِ الْإِلْحَادُ، وَكَثُرَتْ وَسَائِلُهُ وَتَنَوَّعَتْ كَهَذَا الْعَصْرِ...
وَعَلَيْنَا أَنْ نَبْدُلَ كُلَّ جُهْدٍ مُخْلِصٍ، وَنَسْلِكَ كُلَّ طَرِيقٍ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُقْنَعَ أَوْ يُقْجِمَ...
هَذَا هُوَ الْأَهَمُّ وَالْأَسَاسُ فِي هَذَا الزَّمَنِ الْعَصِيبِ الْغَرِيبِ... أَمَّا الْإِحْتِفَالُ بِمَوْلِدِ
النَّبِيِّ ﷺ وَأَهْلِ بَيْتِهِ، وَإِحْيَاءُ ذِكْرِي مَا كَانَ وَجَرِي فَهُوَ فَرَعٌ عَنِ الْإِيمَانِ بِاللهِ
وَالْتَّصِيقِ بِوَجُودِهِ حَيْثُ لَا نَقْشَ بِلَا عَرْشٍ، وَلَا عِبَادَةَ بِلَا مَعْبُودٍ.

وَلَكِنَّ الَّذِينَ يَمَكُرُونَ فِي الْخَفَاءِ يَتَجَاهَلُونَ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ، وَيُحِيدُونَ عَنْهَا إِلَى
مُجَرَّدِ الْمَظَاهِرِ وَالشَّعَائِرِ، وَأَلْفِ مُلْحِدٍ وَمُلْحِدٍ يَسْخَرُ مِنْهُمْ وَمِنْهَا... وَلَوْ كَانَ الَّذِينَ
مِنْ هَمِّهِمْ وَأَهْتِمَامِهِمْ لَجَاهَدُوا فِي هَذَا الْمَيْدَانِ أَوَّلًا وَقَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، لِأَنَّهُ أَصْلُ
الْأُصُولِ.

وَهُوَ سُبْحَانَهُ مِنْ وَرَاءِ الْقَصْدِ، وَالْمَسْئُولُ بِأَنْ يُوفِقَنَا جَمِيعًا لِمَا هُوَ خَيْرٌ وَأَبْقَى،
وَيَسْتَعْمِلَنَا بِمَا هُوَ أَزْكَى وَأَرْضَى. وَالصَّلَاةُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الْأَبْرَارِ.

1871

1871

1871

سَارْتَر وَفِكْرَةُ الْإِلْحَادِ

وَجَّهَ بَعْضُ الْمُؤْمِنِينَ سُؤَالَ لَعَالِمٍ مِنْ أَسَاتِذَةِ الْحَوَازَةِ الْعِلْمِيَّةِ وَكَبَارِهَا فِي النَّجَفِ الْأَشْرَفِ، يَقُولُ: مَا رَأَيْكُمْ فِي دَعْوَةِ الْفَيْلَسُوفِ الْفَرَنْسِيِّ وَالْأَدِيبِ الشَّهِيرِ «سَارْتَر» الَّتِي تَحْدِثُ بِهَا الْمُؤْمِنِينَ فِي شَرْقِ الْأَرْضِ وَعَرَبِهَا بِأَنْ يَخْتَارُوا مِنْهُمْ قَدِيرًا يَرْسُلُونَهُ إِلَيْهِ لِلجِدَالِ فِي اللَّهِ، وَعَلَيْهِ نَفَقَاتُهُ فِي ذَهَابِهِ وَإِيَابِهِ... مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ تَجَاهَلُوا هَذَا التَّحْدِي الصَّارِخَ وَسَكَتُوا عَنْهُ!... فَهَلْ يَجُوزُ السَّكُوتُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ؟.

وَأَجَابَ الْمَسْئُولُ الْكَبِيرُ: لَوْ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ دَعَا «سَارْتَر» إِلَى نِقَاشِ الْحِسَابِ عَنْ كُفْرَةِ وَالْحَادَةِ، وَتَعَهَّدُوا بِنَفَقَاتِهِ ذَهَابًا وَإِيَابًا، وَتَجَاهَلُوا هُوَ بِدَوْرِهِ وَأَحْجَمَ - فَهَلْ يَعْنِي هَذَا أَنَّهُ أَفْجَمَ وَأَسْتَسْلَمَ، وَبِأَنَّ الْجَاحِدِينَ مِنْ أَمْثَالِهِ يَتَوَبُّونَ، عَلَى فَرَضِ إِحْجَامِهِ، وَيَتَوَبُّونَ إِلَى الرُّشْدِ لَا مُحَالَةَ؟. (إِنْتَهَى السُّؤَالُ وَالْجَوَابُ).

وَعَبْرَ بَعِيدٍ أَنْ يَكُونَ هَذَا التَّحْدِي مُفْتَعَلًا عَلَى لِسَانِ سَارْتَر... لِمُجَرَّدِ الْإِعْلَامِ وَالِدَّاعِيَةِ إِلَى الْإِلْحَادِ، عَسَى أَنْ يُخَدِّعَ بِهِ سَادِجَ أَهْلِهِ.. وَلَا أَنْزُهُ «سَارْتَر» عَنْ الْكُفْرِ وَالْإِلْحَادِ، كَيْفَ؟ وَهُوَ الرَّائِدُ الْأَوَّلُ فِي هَذَا الْعَصْرِ لِلْجُودِيَّةِ الَّتِي لَا تَتَجَاوَبُ مَعَ دِينِ مِنَ الْأَدْيَانِ السَّمَاوِيَّةِ، وَلَا تَلْتَمِسُ عُذْرًا عِلْمِيًّا لِمُؤْمِنٍ فِي إِيمَانِهِ بِاللَّهِ... وَلَكِنِّي أَسْتَبْعِدُ عَنْهُ هَذَا الْعُرُورَ وَالْحُمُقَ الَّذِي يُسِيءُ إِلَيَّ سَمْعَتَهُ

وَمَكَاتِهِ!... وَأَيَّةُ مَضْلَحَةٍ لَسَارَتَرِ فِي تَحْدِيهِ شَعُورِ أَهْلِ الْأَرْضِ أَوْ جُلُهِمْ،
فَيَصْرُخُ فِي جُوهِهِمْ بَوَاقَاةٍ وَصَلَاةٍ: كُلُّكُمْ عَلَى خَطَأٍ وَضَلَالٍ، وَأَنَا وَحْدِي
عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ، وَفِيهِمُ الْأَدْمَغَةُ الَّتِي تَزْخَرُ بِالْعِلْمِ وَالْعُمُقِ وَتَرْدُ لَهُ الصَّاعِ
صَاعِينَ؟.

هَذَا، إِلَى أَنْ فِكْرَةُ الْإِلْحَادِ كَانَتْ مُنْذُ الْقَدِيمِ وَلَمْ يَبْتَدِعْهَا سَارَتَرُ مِنْ مَوْهَبَتِهِ
وَعَبَقَرِيَّتِهِ... فَمِنْ قَبْلِ وَمِنْ بَعْدِ أَيْضاً لَأَكْهَى الْجَاهِلِ وَالْأَحْمَقِ، وَلَا فَضْلَ لَسَارَتَرِ
فِي طَرَحِهَا الْآنَ وَالِدَفَاعِ عَنْهَا.. وَإِذَا كَانَ لَدَيْهِ شَيْءٌ جَدِيدٌ حَوْلَ الْإِلْحَادِ لَا يَعْرِفُهُ
أَحَدٌ سِوَاهُ، وَيُرِيدُ أَنْ يُعْلِنَهُ عَلَى النَّاسِ - فَلَمَّاذَا يَتَحَمَّلُ النَّفَقَاتِ وَيَبْذِلُ الْأَمْوَالَ مَا
دَامَ قَادِرًا فِي كُلِّ حِينٍ أَنْ يُعْبَرَ عَنْ رَأْيِهِ فِي كُتُبِهِ أَوْ مَجَلَّتِهِ أَوْ فِي آيَةِ صَحِيفَةٍ
يَخْتَارُ، كَمَا هُوَ شَأْنُهُ وَدَيْدَنُهُ فِي سَائِرِ الْمَوْضُوعَاتِ؟.

وَأِنْ أَرَادَ سَارَتَرُ مِنْ دَعْوَتِهِ وَتَضَحِيَّتِهِ بِالْمَالِ أَنْ يَطْلُعَ عَلَى أَدَلَّةِ الْمُؤْمِنِينَ
وَيُحِيطَ بِهَا عِلْماً - فَتِلْكَ حُجَّتُهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَيَدِي كُلِّ طَالِبٍ وَرَاغِبٍ، يَجِدُهَا فِي
كِتَابِ اللَّهِ، وَأَحَادِيثِ النَّبِيِّ وَأَهْلِ بَيْتِهِ وَكَلَامِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، وَأَقْوَالِ الْفَلَّاسِفَةِ
وَالْعُلَمَاءِ، وَآثَارِ أَهْلِ الْفَنِّ وَالْأَدَبِ مِنْ أَبْنَاءِ هَذَا الْعَصْرِ وَكُلِّ عَصَرٍ وَفِيهِمْ مَنْ يَمْلِكُ
أَرْقَى مَا بَلَغَتْهُ الْإِنْسَانِيَّةُ مِنْ مَعَارِفٍ فِي كُلِّ مِيدَانٍ حَتَّى فِي الْعُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ،
وَأَدَلَّتْهُمْ فِي غَايَةِ الْبَسَاطَةِ وَالْوُضُوحِ... فَلْيُنَاقِشْهَا سَارَتَرُ بِمَا حَبَّ... وَمَرَّةً ثَانِيَةً
لَمَّاذَا تَحْمِلُ النَّفَقَاتِ وَبَذِلُ الْأَمْوَالَ؟.

وَكَفَى بِاللَّهِ هَادِيًا وَنَصِيرًا لِبِعَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَحَكَمًا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْجَاهِدِ الَّذِينَ
تَحَدَّاهُمْ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(١).

تَحْدَاهُمْ جَلَّ وَعَلَا بَعْدَ أَنْ دَعَاهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ، وَأَرْشَدَهُمْ إِلَى الْبُرْهَانِ وَقَالَ لَهُمْ فِيمَا قَالَ، عَلَّتْ كَلِمَتُهُ: هَذَا كِتَابُ الْوُجُودِ فَتَعَقَّلُوهُ، وَذَا قُرْآنِي فَتَدَبَّرُوهُ، وَذَاكَ رَسُولِي إِلَيْكُمْ فَأَنْظَرُوا فِي سِيرَتِهِ وَرِسَالَتِهِ بِإِمْعَانٍ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ.

وَبَعْدَ، فَإِنَّ فِكْرَةَ الْإِلْحَادِ لَيْسَتْ بِالْمُشْكَلَةِ الَّتِي تَرْتَفِعُ إِلَى مُسْتَوَى النِّقَاشِ الْحَادِّ وَالْإِسْهَابِ فِي الْجِدَالِ بَيْنَ الْعَارِفِينَ الْمُنْصِفِينَ، لِأَنَّهَا لَا تَقُومُ عَلَى أَسَاسٍ مِنَ الْوَاقِعِ، وَلَا الشُّوَاهِدِ عَلَى وُجُودِ اللَّهِ عَزِيزَةِ الْمَالِ وَفَوْقَ الْعُقُولِ وَالْأَفْهَامِ كَيْفَ وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ؟ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ الْمُلهِمُ.. وَإِنَّمَا الْإِلْحَادُ عَقْدَةٌ نَفْسِيَّةٌ لَدَى بَعْضِ الْمُتَفَلْسِفِينَ وَالْمُتَحَدِّلِينَ، نَشَأَتْ مِنْ كَلِمَةِ الدِّينِ بِالذَّاتِ الَّتِي تُوحِي بَنُوعٍ مِنَ الْفَرْضِيَّةِ الْقَبْلِيَّةِ، كَمَا يَتَوَهَّمُونَ، فَفَرَّوْا مِنْهَا إِلَى «مُودِيل» الْإِنْكَارِ وَالتَّحَرُّرِ مِنْ كُلِّ قَيْدٍ وَقِيَمَةٍ!... وَيُمَثِّلُهُمْ جَمِيعًا مَا قَالَهُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ «مِنَ الْمُسْتَحِيلِ أَنْ يُوجَدَ نِظَامٌ بِمَحْضِ الْإِتِّفَاقِ وَالصَّدَقَةِ، بَلْ لَا بُدَّ أَنَّهُ وَجَدَ نَتِيجَةً لِإِرَادَةِ مُدَبِّرَةٍ، وَلَكِنْ ذِهْنِي لَمْ يَكُنْ عَلَى أَسْتَعْدَادٍ لَتَقَبُّلِ هَذِهِ الْفِكْرَةِ»^(١).

وَعَلَى آيَةٍ خَالٍ، فَإِنَّ وَجُودِيَّةَ سَارْتَرِ تَعْتَبِرُ كُلَّ فَرْدٍ مِنَ الْإِنْسَانِ قَلْعَةً فِي نَفْسِهَا، وَتَضَعُ حُرِّيَّتَهُ فَوْقَ أَيِّ اعْتِبَارٍ آخَرَ، وَيَحْتَازُ عَنْ غَيْرِهِ مِنَ الْكَائِنَاتِ بِالْإِخْتِيَارِ، وَهُوَ يُؤَكِّدُ ذَاتَهُ وَوُجُودَهُ مِنْ خِلَالِ الْمَوَاقِفِ الَّتِي يَخْتَارُهَا وَيَنْخَرِطُ فِيهَا... وَلَا وَجُودَ إِطْلَاقًا قَبْلَ الْإِنْسَانِ أَوْ بَعْدَهُ لِأَيَّةِ قُوَّةٍ أَوْ مَبْدَأٍ أَوْ شَرِيعَةٍ خَارِجَةٍ عَنْهُ يُسَوِّغُ لَهَا أَنْ تَفْرُضَ نَفْسَهَا عَلَيْهِ.

هَذَا تَلْخِيسٌ سَرِيعٌ لِفَلَسَفَةِ سَارْتَرِ أَوْ وَجُودِيَّتِهِ... وَأَيَّةُ كَانَتْ أَوْ تَكُونُ فَلَسْتُ الْآنَ بِصَدِّدٍ شَرْحَهَا وَالرَّدَّ عَلَيْهَا. وَغَرَضِي الْأَوَّلُ هُوَ التَّصْدِيقُ لِتَحْدِيثِهِ فِي دَعْوَتِهِ

(١) انظر، كتاب الإسلام يتحدى لوحيد الدين خان. (مئة ١٩٩٠).

إِلَى الْجِدَالِ فِي اللَّهِ سُبْحَانَهُ، إِنَّ صَحَّ أَنَّهُ دَعَا وَتَحَدَّى... وَقَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ أُشِيرُ إِلَى أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ يَعْتَمِدُونَ فِي إِيمَانِهِمْ عَلَى مَنَظِقِ الْعَقْلِ الذَّكِيِّ وَالْحِسِّ السَّلِيمِ، وَيُخَاطَبُونَ الْجَاحِدِينَ عِنْدَ الْجِدَالِ وَالنَّقَاشِ بِالضَّمِيرِ الْحَيِّ وَالْفِطْرَةِ الصَّافِيَةِ. وَعَلَى هَذَا الْأَسَاسِ أَوْجَهَ الْأَسْئَلَةَ لِسَارْتَرٍ وَغَيْرِهِ مِنَ الْمُشَكِّكِينَ:

١- لِنَفْتَرِضْ أَنَّ الْإِنْسَانَ هُوَ ذَاكَ الْكَائِنِ الْحَيِّ الَّذِي حَدَدَهُ سَارْتَرٌ، فَهَلْ اكْتَشَفَ هُوَ أَوْ أَيُّ عَالِمٍ آخَرَ دَلِيلًا قَاطِعًا عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ بَعْدَ وَجُودِهِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ يَسْتَحِيلُ أَنْ يَمْلِكَ عَقْلًا نَبِيرًا يَهْدِيهِ وَيُرْشِدُهُ، بِمَعُونَةِ الْحِسِّ إِلَى خَالِقِهِ وَخَالِقِ الْكَوْنِ، أَوْ اكْتَشَفَ أَنَّ إِرْشَادَ هَذَا الْعَقْلِ وَهَدَايَتَهُ سَرَابٌ وَتَضْلِيلٌ؟ فَإِنْ كَانَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَلْيَدِلَّنَا عَلَيْهِ سَارْتَرٌ وَغَيْرُ سَارْتَرٍ وَنَحْنُ لَهُ مِنَ الشَّاكِرِينَ.

٢- أَنَّ سَارْتَرًا أَلْفَ كِتَابِ الْمَذْهَبِ الْمَادِّيِّ وَالثَّوْرَةِ: «مَا يَتَلَخَّصُ بِأَنَّ الْمَادِّيَّيْنَ يَنْفُونَ وَجُودَ أَيِّ شَيْءٍ وَرَاءَ الْمَادَّةِ وَالطَّبِيعَةِ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ الْإِيمَانَ بِهِ إِيمَانٌ بِالْغَيْبِ لَا يَعْتَمِدُ عَلَى الْحِسِّ التَّجَرِبَةِ... ثُمَّ رَدَّ سَارْتَرٌ قَوْلَهُمْ هَذَا بِأَنَّ النَّفْيَ الْمُطْلَقَ لِمَا وَرَاءَ الْمَادَّةِ وَالطَّبِيعَةِ هُوَ أَيْضًا فِي حَقِيقَتِهِ إِيمَانٌ بِالْغَيْبِ لَا يَعْتَمِدُ عَلَى الْحِسِّ وَالتَّجَرِبَةِ. فَكَيْفَ أَبْرَمُوا هُنَا مَا نَقَضُوهُ هُنَاكَ»^(١)؟.

وَإِذَا صَحَّ أَنَّ سَارْتَرًا قَدْ دَعَا وَتَحَدَّى بَعْدَ هَذَا الرَّدِّ يَكُونُ تَمَامًا كَالْمَادِّيَّيْنَ يَنْقُضُ مَا أَبْرَمَ، وَيُبْرِمُ مَا نَقَضَ.

٣- لَيْسَ مِنْ شَكٍّ أَنَّ الْقَضَايَا الْإِنْسَانِيَّةَ، وَالْإِجْتِمَاعِيَّةَ لَا وَجُودَ لَهَا قَبْلَ الْإِنْسَانِ لِأَنَّهُ هُوَ مَوْضُوعُهَا وَمُحَوَّرُهَا، فَالْحَقُوقُ وَالْوَاجِبَاتُ الْمُتَبَادَلَةُ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ وَالْجَارَيْنِ وَبَيْنَ الْوَلَدِ وَالْوَالِدِيَّةِ، كُلُّ ذَلِكَ وَمَا إِلَيْهِ إِنَّمَا يُوجَدُ بِوُجُودِ

(١) انظر، المذهب المادي والثورة، ترجمته العربية بقلم سامي الدروبي: ٤٢ وما بعدها. (منه) .

الإنسان، وَيَتَنَفَّى بِإِنْتِفَائِهِ، لِأَنَّهُ الشَّجَرَةُ، وَقَضَايَاهُ الثَّمَرَةُ. أَمَّا الْكَوْنُ وَمَا فِيهِ مِنْ نِظَامٍ وَشَوَاهِدٍ عَلَى وَجُودِ الْخَالِقِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ فَهُوَ مَوْجُودٌ قَبْلَ أَنْ يُوجَدَ الْإِنْسَانُ، وَمِنَ الشَّوَاهِدِ الْكَوْنِيَّةِ يَنْطَلِقُ عَقْلُ الْإِنْسَانِ بَعْدَ وَجُودِهِ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ.

وَقَدْ أَبَاحَ سَارْتَرُ لِلْعُقُولِ وَالْأَفْهَامِ أَنْ تُكْشَفَ قُوَى الْكَوْنِ وَعَنَاصِرُهُ وَأَسْرَارُهُ الْكَامِنَةُ فِيهِ مُنْذُ الْبِدَايَةِ، وَأَنْ تَسْتَغْلِبَهَا لِحِدْمَةِ الْإِنْسَانِ وَمَنَافَعِهِ، مَا يَرَى مِنْهَا كَالْمَعَادِنِ، وَمَا لَا يَرَى كَالْجَاذِبِيَّةِ وَالْإِلَكْتُرُونِ - فَعَلَيْهِ أَيْضاً أَنْ يُبْسِجَ لِلْعُقُولِ الْإِسْتِدْلَالَ بِالشَّوَاهِدِ الْكَوْنِيَّةِ عَلَى وَجُودِ الْمُبْدِعِ وَالْمُدَبِّرِ... أَمَّا أَنْ يَحْجَرَ عَلَيْهَا هُنَا، وَيُطْلِقَهَا هُنَاكَ فَتَفْرِيقٌ بِلَا مُبَرَّرٍ، وَتَقْسِيمٌ لِلشَّيْءِ الْوَاحِدِ إِلَى نَفْسِهِ وَنَقِيضِهِ فِي أَنْ وَاحِدٍ، وَمِنْ جِهَةٍ وَاحِدَةٍ.

وَبَعْدَ، فَإِنَّ أَشْيَاءَ الْكَوْنِ وَأَنْوَاعَهُ لَا يَبْلُغُهَا الْإِحْصَاءُ... وَمِنْ أَجْلِ هَذَا تَقَاسَمَ الْعُلَمَاءُ فِيَمَا بَيْنَهُمْ دَرَاةَ الْكَثِيرِ مِنْهَا، وَتَخَصَّصَ لِكُلِّ نَوْعٍ فِئَةٌ مِنْهُمْ، فَلِلْفَلَكِ - مَثَلًا - عُلَمَاؤُهُ، وَلِلنَّبَاتِ خُبْرَاؤُهُ، وَلِلْحَيَوَانَ أَخْصَاؤُهُ... إِلَى مَا هُوَ وَاضِحٌ وَمَعْرُوفٌ، وَيَسْتَحِيلُ عَلَى الْفَرْدِ أَوْ الْجَمَاعَةِ أَنْ يُحِيطَ وَيُحِيطُوا عِلْمًا بِجَمِيعِ أَشْيَاءِ الْكَوْنِ وَأَنْوَاعِهِ. أَمَّا الْفَلَاسِفَةُ فَقَدْ أَتَجَّهُوا إِلَى الْبَحْثِ عَنِ الْوُجُودِ مُطْلَقًا فِي كُلِّيَّاتِهِ وَجُزْئِيَّاتِهِ وَقِدَمِهِ وَحُدُوثِهِ، وَمَصْدَرِهِ وَمَالِهِ، وَاسْتَنْطَقُوا مَا فِيهِ مِنْ بَيِّنَاتٍ وَشَوَاهِدٍ عَلَى ذَلِكَ، وَبِالْخُصُوصِ عَلَى عِلَّتِهِ الْأُولَى الَّتِي تُحَدِّدُ أَتَجَاهَهُ وَحَرَكَاتِهِ، وَتُنْظِمُ سُنَنَهُ وَقَوَانِينَهُ، وَأَنْتَهَى الْأَقْطَابُ مِنْهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِوُجُودِهَا وَصِفَاتِهَا تَمَامًا كَمَنْ سَمِعَ وَرَأَى.

٤ - لِنَفَرَضَ أَنَّ وَجُودَ اللَّهِ مِنَ الْمَسَائِلِ النَّظَرِيَّةِ تَقَبَّلَ الْجِدَالَ وَالنَّقَاشَ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ وَضُوحِ الدَّلَائِلِ وَكَثْرَةِ الشَّوَاهِدِ، وَلَكِنْ مِنَ الْمَعْرُوفِ وَالْمُؤَكَّدِ بَيِّنَ

الْعُلَمَاءُ مُنْذُ الْقَدِيمِ أَنَّ لِكُلِّ مُجْتَهِدٍ رَأْيَةً وَقَنَاعَتَهُ فِي كُلِّ مَسْأَلَةٍ نَظَرِيَّةٍ، وَلَا يَجُوزُ بِحَالٍ أَنْ يَتَنَازَلَ عَنْ رَأْيِهِ لِمُجْتَهِدٍ آخَرَ يُخَالِفُهُ فِي النَّظَرِ مَا دَامَ كُلُّ مِنْهُمَا يَعْتَمِدُ عَلَى حِجَّةٍ وَدَلِيلٍ عِنْدَهُ، وَلَا بُرْهَانَ وَاضِحٍ وَمُسَلِّمٍ بِهِ عِنْدَ الطَّرَفَيْنِ عَلَى أَنَّ هَذَا مُصِيبٌ قَطْعًا، وَذَلِكَ مُخْطِئٌ يَقِينًا.

وَنَحْنُ نُؤْمِنُ بِاللَّهِ لَدَلِيلٍ عِنْدَنَا وَلَيْسَ عِنْدَ سَارَتَرٍ، وَهُوَ يَكْفُرُ لَشُبْهَةٍ عِنْدَهُ وَلَيْسَتْ عِنْدَنَا، فَهَلْ يُسَوِّغُ لَهُ، وَهُوَ لَا يَمْلِكُ الدَّلِيلَ الْمُسَلِّمَ بِهِ عِنْدَنَا أَنْ يُنْكِرَ عَلَيْنَا الْإِيمَانَ لَشُبْهَتِهِ، وَلَا يُسَوِّغُ لَنَا أَنْ نُنْكِرَ عَلَيْهِ الْإِلْحَادَ لَدَلِيلِنَا؟.

وَمَهْمَا يَكُنْ فَإِنَّ صَخْبَ الْمُلْحِدِينَ وَهَتَافَهُمُ لِأَتَمَةِ الْكُفْرِ وَالْإِلْحَادِ لَا يُشْنِي الْمُؤْمِنَ عَنْ إِيْمَانِهِ، وَلَا يُشَكِّكُ الْعَالِمَ بِاللَّهِ فِي عِلْمِهِ وَيَقِينَتِهِ.

٥ - أَنَّ أَدْلَةَ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ لَيْسَتْ إِرْتَجَالِيَّةً، وَلَا هِيَ جُزْئِيَّاتٌ وَكَلِمَاتٌ مُتَنَازِرَةٌ هُنَا وَهَنَّا لَا يَجْمَعُهَا صَاطِبٌ، وَلَا تَرْجِعُ إِلَى أَصْلٍ وَأَسَاسٍ... كَلَّا، فَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَالْفَلَسَفَةَ حَدَدُوهَا عَلَى أُسُسٍ مَنَهْجِيَّةٍ وَاضِحَةٍ تَعْتَمِدُ مُبَاشَرَةً أَوْ بِالْوَاسِطَةِ عَلَى حَقَائِقَ بَدِيهِيَّةٍ وَمُسْلِمَاتٍ أَوَّلِيَّةٍ، وَخَصَّصُوا لَهَا الْمَعَاهِدَ، وَأَلْفَوْا فِيهَا الْأَسْفَارَ، وَدَعَوْا الْمُؤْمِنَ وَالْجَاهِدَ إِلَى تَحْيِصِهَا وَدِرَاسَتِهَا، وَأَوْجَبَتِ الْأَكْثَرِيَّةُ الْكَاثِرَةُ مِنْ عُلَمَاءِ الدِّينِ عَلَى كُلِّ عَاقِلٍ النَّظَرَ فِيهَا، وَحَرَّمُوا عَلَيْهِ التَّقْلِيدَ وَالْمُتَابَعَةَ الْعَمِيَاءَ، فِي أَيِّ أَصْلٍ مِنْ أَصُولِ الدِّينِ... وَأَمَرَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمَ فِي الْعَدِيدِ مِنْ آيَاتِهِ بِالْإِحْتِكَامِ إِلَى مَنْطِقِ الْحِسِّ، وَالْعَقْلِ، وَالْقَلْبِ فِي كُلِّ مَا يُمِيتُ إِلَى الْعَقِيدَةِ بِسَبَبٍ، وَفِي التَّشْرِيعِ وَشُؤْنِ الْإِجْتِمَاعِ وَأَدَابِ السَّلُوكِ، كَمَا حَثَّ عَلَى النَّظَرِ فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ.

وَلَا أُرِيدُ هُنَا أَنْ أُغْرِقَ الْقَارِيءَ فِي زُحَامِ الْمُقَدَّمَاتِ، وَالتَّنَاجِجِ، وَالتَّفَاصِيلِ،

وَالْأَرْقَامَ، وَأَكْتَفِي بِهَذَا التَّسَاوُلَ عَلَى لِسَانِ مَنْ يَقْنُ بِاللَّهِ وَآمَنَ :

أَنْ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْوُجُودِ مِنَ الذَّرَّةِ الصَّغِيرَةِ إِلَى أَعْظَمِ الْمَجَرَّاتِ يَسِيرُ عَلَى سُنَّةٍ مُحْكَمَةٍ، وَيَنْسَجِمُ مَعَ غَيْرِهِ مِنْ أَشْيَاءِ الْكَوْنِ عَلَى مَا بَيَّنَّهُ وَبَيَّنَّهَا مِنْ تَضَادِّ كَالْحَرَارَةِ وَالْبَرُودَةِ، وَالْحَرَكَةِ وَالسَّكُونِ، وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَالْكُلَّ يَفْعَلُ فِي تَعَاوُنٍ وَاتِّحَادٍ كَامِلٍ، وَيَنْتَهِجُ إِلَى غَايَةٍ وَاحِدَةٍ تَمَامًا كَعَمَلِ الْجِسْمِ الْمُؤَلَّفِ مِنْ أَعْضَاءٍ مُتَبَايِنَةٍ، وَقَوَى مُتَضَادَّةً يُدَبِّرُهَا جَمِيعًا عَقْلٌ وَاعٌ وَإِرَادَةٌ حَكِيمَةٌ.

فَمَنْ الَّذِي أَحْكَمَ وَنَظَّمَ هَذَا الْكَوْنَ بِمَا فِيهِ، وَدَبَّرَهُ وَهَيَّأَ عَلَيْهِ؟ وَوَضَعَ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْمَكَانِ الْمُنَاسِبِ لَهُ حَتَّى أَدَّى الْغَايَةَ مِنْ وَجُودِهِ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهِ؟ وَمِنْ أَيْنَ جَاءَتْهُ الْحَيَاةُ وَالْإِدْرَاكُ وَغَيْرُهُ مِنَ الْإِنْفِعَالَاتِ الْبَشَرِيَّةِ وَغَيْرِ الْبَشَرِيَّةِ؟ وَهَلْ ذَلِكَ كُلُّهُ مِنْ صُنْعِ الطَّبِيعَةِ الْعَمِيَاءِ الصَّمَاءِ؟ وَهَلِ الطَّبِيعَةُ عِلَّةٌ لِنَفْسِهَا وَلَمَّا فِيهَا مِنْ إِرَادَةٍ وَعَقْلٍ وَنَظَامٍ؟ كَيْفَ وَهِيَ تَفْتَقِرُ فِي أَصْلِ وَجُودِهَا إِلَى مُقَوِّمٍ وَمُدَبِّرٍ؟. أَمَّا الصَّدَقَةُ فَلَا تَدْخُلُ فِي عِلْمٍ وَقَانُونٍ، وَلَا يَلْجَأُ إِلَيْهَا إِلَّا مَنْ شَهِدَ عَلَى نَفْسِهِ بِالْجَهْلِ وَالْقُصُورِ عَنْ مَعْرِفَةِ السَّبَبِ الْمَوْجِبِ. وَبِالتَّالِي كَيْفَ يُسَوِّغُ لَنَا أَنْ نَحْتَمِلَ الصَّدَقَةَ فِي وَجُودِ الْكَوْنِ وَعَجَابِهِ، وَلَا يُسَوِّغُ ذَلِكَ فِي وَجُودِ عُودِ ثِقَابٍ وَاحِدٍ؟.

إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الْأَسْئَلَةِ الَّتِي مَا وَجَدْتُ حَتَّى الْآنَ وَلَنْ نَجِدَ أَجْوَبَةً حَاسِمَةً فِي نَظَرِ الْعَاقِلِ الْمُحَايِدِ، بَلِ الْعَكْسُ هُوَ الصَّحِيحُ فَإِنَّ أَقْوَالَ الْمُلْحِدِينَ زَادَتْ الْمُؤْمِنِينَ بَصِيرَةً وَيَقِينًا حَيْثُ تَجَاوَزَتْ مَنْطِقَ الْعَقْلِ وَالْعِلْمِ إِلَى الْخَرَافَاتِ وَالْحِمَاقَاتِ الَّتِي أَكْثَرُهَا فَوْتُنِيرٌ وَنَعَتْ بِهَا الْمُلْحِدِينَ فِي قَوْلِهِ: «أَنَّ فِكْرَةَ وَجُودِ اللَّهِ فَرَضٌ ضَرُورِي لِأَنَّ الْفِكْرَةَ الْمُضَادَّةَ حِمَاقَاتٍ»^(١). وَأَطْرَفَ هَذِهِ الْحِمَاقَاتِ قَوْلُ

(١) انظر، (فولتير تأليف جوستان لانسون ترجمة مُحَمَّد غنيمي هلال: ٧٣ طَبْعَةُ سَنَةِ ١٩٦٢م).

نَيْتَشَه : « لَوْ كَانَ اللَّهُ مَوْجُودًا لَكُنْتُ أَنَا هُوَ . وَكَيْفَ أَسْتَطِيعُ أَنْ لَا أَكُونَ إِلَهًا ؟ ... وَإِذَنْ فَلَيْسَ ثَمَّةُ إِلَهٍ » ^(١) .

وَلَيْسَ مِنْ شَكٍّ أَنَّ نَيْتَشَه لَوْ كَانَ يَمْلِكُ وَسِيلَةً وَاحِدَةً مِنْ وَسَائِلِ الْإِقْنَاعِ - مَا لَجَأَ إِلَى هَذِهِ الْخَرَافَةِ وَالْحَمَاقَةِ ... أَمَّا الْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ فَإِنَّ رَائِدَهُمُ الْعَقْلَ ، وَحَلِيفَهُمُ الْعِلْمَ ، وَمَا تَقَدَّمَ خُطْوَةً فِي أَيِّ مَجَالٍ مِنْ مَجَالَاتِهِ ، وَبِخَاصَّةٍ فِي عَالَمِ الْأَحْيَاءِ ، وَبُصُورِهِ أَخْصَصَ فِي التَّشْرِيعِ وَالْفَلَكَ - إِلَّا وَزَادَ الْأَدَلَّةُ عَلَى وَجُودِ اللَّهِ وَضُوحًا وَقُوَّةً ، وَأَدْلَى بِيْرَاهِينٍ جَدِيدَةٍ ، وَكَشَفَ عَنْ تَنَاجِجِ عِلْمِيَّةٍ لَا تَفْسِيرَ لَهَا إِلَّا بِقُوَّةٍ لَا تُشَبِّهُ شَيْئًا مِنْ أَشْيَاءِ الطَّبِيعَةِ ، وَلَا يَشَبِّهُهَا شَيْءٌ ... وَمِنْ هُنَا يَقْنُ بِاللَّهِ وَأَمِنَ بِهِ الْعَدِيدُ مِنْ رِجَالِ الْعِلْمِ وَأَقْطَابِهِ فِي هَذَا الْعَصْرِ ^(٢) .

وَمِنْ قَبْلِ كَانَ هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءُ لَا يَهْتُمُونَ بِكُفْرٍ وَإِيمَانٍ ، وَلَا يَرُونَ أَيَّ دَاعٍ وَمُوجِبٍ لِلْبَحْثِ عَنْ أَدَلَّةِ الْإِثْبَاتِ أَوْ شُبْهَةِ النَّفْيِ ... وَإِنَّمَا شُغْلُهُمُ الشَّاغلُ وَطِيفَتُهُمْ وَمَا يَدْخُلُ فِي اخْتِصَاصِهِمْ وَكَفَى ، وَلَكِنْ الْوَاقِعُ الَّذِي عَاشُوهُ مُبَاشَرَةً ، وَمَارَسُوهُ فِعْلًا هُوَ الَّذِي فَرَضَ نَفْسَهُ عَلَيْهِمْ ، وَخَلَقَ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ وَيَقْصُدُونَ .

وَرُبَّمَا قَالَ قَائِلٌ : وَلِمَاذَا الْبَحْثُ فِيمَا وَرَاءَ الطَّبِيعَةِ مَا دُمْنَا نَعِيشُ فِيهَا لَا وَرَاءَهَا وَفِي خَارِجِهَا ، وَقَدْ اكْتَشَفْنَا مِنْ أَسْرَارِهَا مَا نَنْتَفِعُ بِهِ ، وَمَا زَلْنَا عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقِ نَجْدَ السَّيْرِ لِلْغَايَةِ نَفْسَهَا ؟ أَلَيْسَ الْأَجْدَرُ وَالْأَنْفَعُ أَنْ نَسْكُتَ عَمَّا لَا يَعْنِينَا مِنْ قَرِيبٍ أَوْ بَعِيدٍ ؟

(١) نَقَلَ هَذَا عَنْ نَيْتَشَه الْفِيلَسُوفُ الْإِنْجِلِيزِي الشَّهِيرُ زَاسِلُ فِي كِتَابِ السُّلْطَانِ : ٢٩٠ تَرْجَمَتُهُ خَيْرِي حَمَّادُ طَبِيعَةِ سَنَةِ (١٩٦٢ م) . (مِنْهُ ﷺ) .

(٢) أَنْظُرْ ، كِتَابُ اللَّهِ يَتَجَلَّى فِي عَصْرِ الْعِلْمِ الَّذِي تُرْجِمُ إِلَى كُلِّ اللُّغَاتِ وَطَبِيعِ الْعَدِيدِ مِنَ الْمَرَاتِ . (مِنْهُ ﷺ) .

الجواب :

أَنَّ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ وَقُدْرَتَهُ وَعَدْلَهُ يَغْنِي أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يُتْرَكُ سُدىً، وَأَنَّهُ مَسْئُولٌ عَمَّا يَفْعَلُ وَيَتْرَكُ، وَأَنَّ الْمُسِيءَ لَا يَفْلَتُ مِنَ الْعِقَابِ، وَأَنَّ الْمُحْسَنَ يُكْرَمُ وَيُنَابَأُ... هَذَا، إِلَى أَنَّ أَثَارَ الدِّينِ وَمُعْطَيَاتِهِ لَا تَقْفُ عَلَى الْعِبَادَةِ فِي الْمَسَاجِدِ وَالْكَتَائِبِ، بَلْ تَتَجَاوَزُهَا إِلَى السِّيَاسَةِ وَالْاِقْتِصَادِ وَنِظَامِ الْأُسْرَةِ وَالْكِتَابِ السَّمَاءِيَّةِ، وَالْأَمَاكِنِ الْمُقَدَّسَةِ، وَكَثِيرٍ مِنَ التَّقَالِيدِ وَالْعَادَاتِ... وَمَنْ أَجَلَ الدِّينِ قَامَتِ حُرُوبٌ أَجَرَتِ الدِّمَاءَ أَنْهْرًا، وَنَازَتْ خَلَاقَاتُ قَسَمَتِ الْبِلَدَ بَلَّ الْبَيْتِ الْوَاحِدِ إِلَى أَجْزَاءٍ، وَشِيدَتِ صُرُوحٌ وَمَعَاهِدُ، أَسْتَهْلَكَتِ الْكَثِيرَ مِنَ الْأَرْزَاقِ وَالْأَقْوَاتِ، وَتَكَوَّنَتِ هَيْئَاتٌ وَدُولٌ وَأَحْزَابٌ، وَوَضَعَتْ مُؤَلَّفَاتٌ بِمُخْتَلَفِ اللُّغَاتِ... حَتَّى الدُّوَلُ الْمُلْحَدَةُ فِيهَا دَوَائِرُ خَاصَّةٌ لِلشُّنُونِ الدِّيْنِيَّةِ.

وَقَالَ كَثِيرٌ مِنَ أَهْلِ الْإِخْتِصَاصِ: «ثَقَافَةُ كُلِّ أُمَّةٍ تَنْطَلِقُ مِنْ دِينِهَا وَإِيمَانِهَا» وَتَرْفُضُ الْكَثِيرَ مِنَ الْفَلَسَفَاتِ وَالْأَنْظِمَةِ، لِأَنَّهَا لَا تَتَجَاوَبُ مَعَ مِمَّا تُدِينُ وَتَعْتَقِدُ... أَبْعَدَ هَذَا وَغَيْرَهُ كَثِيرٌ وَخَطِيرٌ يُقَالُ: لِمَاذَا الْبَحْثُ فِي الدِّينِ وَأَيُّهُمَا أَبْعَدُ أَثَرًا فِي الْحَيَاةِ الدِّينِيَّةِ: أَوِ الْوُجُودِيَّةِ، وَالْبَرْجَمَانِيَّةِ، وَالْمَارْكَسِيَّةِ؟ وَكَيْفَ حُسْنُ الْبَحْثِ فِي هَذَا دُونَ ذَلِكَ؟.

وَبَعْدَ، فَإِنَّ الدِّينَ هُوَ السُّمَّةُ الْعَامَّةُ الَّتِي تُحَدِّدُهُ حَيَاةُ الْبَشَرِيَّةِ كُلُّهَا أَوْ جُلُهَا فِي كُلِّ مَرَحَلَةٍ مِنْ مَرَاكِلِ التَّأْرِخِ.. وَالْإِيمَانُ بِاللَّهِ قَدِيمٌ وَأَصِيلٌ، يَقُومُ بُنْيَانُهُ عَلَى أَسَاسِ الْعِلْمِ وَالْعَقْلِ وَالْحُجَّةِ وَالْفَنَاعَةِ، وَقَدْ وَاجَهَ الْكَثِيرُ مِنَ التَّحْدِيَّاتِ وَالْمُؤَامَرَاتِ، وَكُلُّهَا تَبَخَّرَتْ مَعَ الرِّيحِ... وَبَقِيَ الدِّينُ مُتَوَجَّعًا عَلَى عَرْشِهِ تَرَكَّمَ لَهُ جَبَاهُ الْمُلُوكِ وَالْجَبَابِرَةِ: «بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّهُ قَنِيتُونَ»^(١).

1. The first part of the paper is devoted to a general discussion of the problem.

2. The second part is devoted to a detailed study of the case.

3. The third part is devoted to a study of the case.

4. The fourth part is devoted to a study of the case.

5. The fifth part is devoted to a study of the case.

6. The sixth part is devoted to a study of the case.

7. The seventh part is devoted to a study of the case.

8. The eighth part is devoted to a study of the case.

9. The ninth part is devoted to a study of the case.

10. The tenth part is devoted to a study of the case.

11. The eleventh part is devoted to a study of the case.

12. The twelfth part is devoted to a study of the case.

13. The thirteenth part is devoted to a study of the case.

14. The fourteenth part is devoted to a study of the case.

15. The fifteenth part is devoted to a study of the case.

16. The sixteenth part is devoted to a study of the case.

17. The seventeenth part is devoted to a study of the case.

18. The eighteenth part is devoted to a study of the case.

19. The nineteenth part is devoted to a study of the case.

20. The twentieth part is devoted to a study of the case.

21. The twenty-first part is devoted to a study of the case.

22. The twenty-second part is devoted to a study of the case.

23. The twenty-third part is devoted to a study of the case.

بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُلْحِدِينَ

هَذَا الْفَصْلُ تَابِعٌ لِلْفَصْلِ السَّابِقِ ، أَوْ كُلِّ مِنْهُمَا فَرْدٌ مُسْتَقِلٌ مِنْ مَوْضُوعٍ عَامٍ يَنْطَبِقُ عَلَى الْعَدِيدِ مِنَ الْفُصُولِ .

كَيْفَ يُؤْمِنُ بَهَا لَا يَرَى؟:

قَالَ الْمُلْحِدُونَ: لَقَدْ آمَنَ بِاللَّهِ مَنْ آمَنَ دُونَ أَنْ يَرَاهُ بِحَسِّ ، وَيَتَنَاوَلَهُ بِتَجَرِبَةٍ ، وَإِنَّمَا فُرِضَ وَجُودُهُ لِيُفَسَّرَ بِهِ الْكَوْنُ وَنِظَامُهُ الْحَكِيمُ الدَّقِيقُ بَعْدَ الْعَجْزِ عَنْ تَفْسِيرِهِ بِالْعِلْمِ وَمَنْطِقِ الْحَسِّ ، زَاعِمًا بِأَنَّ مِثْلَ هَذَا النَّظَامِ الْكَوْنِيِّ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَصْنَعَهُ شَيْءٌ إِلَّا قُوَّةَ خَارِقَةٍ فَوْقَ الْمَادَّةِ وَالطَّبِيعَةِ ... ثُمَّ قَالَ الْجَاهِدُونَ وَهَذَا مَرْدُودٌ أَوَّلًا لِأَنَّهُ إِيمَانٌ بِالْغَيْبِ . ثَانِيًا أَنَّ النَّظَامَ الْكَوْنِيَّ تَوَلَّدَ مِنْ نَفْسِ الْكَوْنِ لَا مِنْ قُوَّةٍ خَارِجِيَّةٍ عَنْهُ ، وَقَدْ أَوْدَعَتْ فِيهِ النَّظَامَ وَالْإِنْسَجَامَ - كَمَا يَدْعِي الْمُؤْمِنُونَ - وَيَعْرِفُ هَذَا التَّلْعِيلُ بِالتَّوَلَّدِ الذَّاتِي وَالتَّفْسِيرِ المِيكَانِيكِيِّ .

خُتْمُةُ الْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ:

وَأَجَابَ الْمُؤْمِنُونَ عَنِ الْإِعْتِرَاضِ الْأَوَّلِ بِأَنَّ كُلَّ مَنْ آمَنَ بِشَيْءٍ لَمْ يَرَهُ فَقَدْ آمَنَ بِالْغَيْبِ ، وَالْمُنْكَرُونَ لِلْقُوَّةِ الْخَارِقَةِ الْمُدْبِرَةِ يَعْتَقِدُونَ بِوُجُودِ أَشْيَاءٍ لَا يُمَكِّنُ

أَنْ تَنَالَهَا يَدُ التَّجَرُّبَةِ، وَيَسْتَحِيلُ عَلَى الْحِسِّ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهَا بِأَيَّةِ وَسِيلَةٍ مِنَ الْوَسَائِلِ، وَمِنْ ذَلِكَ - عَلَى سَبِيلِ التَّمْثِيلِ - الْجَازِبِيَّةُ فِي الْمَادَّةِ، وَالْمُغْنَاطِيْسُ فِي الْحَدِيدِ، وَوُجُودُ الْكَتْرُونِ، وَمَا يَجْرِي فِي الْعَقْلِ مِنْ تَفْكِيرٍ وَأَسْتِنْتَاكِجٍ، وَيَرْتَسِمُ فِي الذَّهْنِ مِنْ صُورٍ، وَيَخْتَلِجُ فِي الْقَلْبِ مِنْ مَيُولٍ، وَيَرَسُخُ فِيهِ مِنْ إِيمَانٍ... وَكَيْفَ تَخْزَنُ الذَّاكِرَةُ الْمَعْلُومَاتِ، وَتَحْتَفِظُ بِهَا لَوْقَتِ الْحَاجَةِ... وَقَدْ حَيَّرَ لُغْزُ الذَّاكِرَةِ الْعُلَمَاءَ بَعْدَ أَنْ أَكْتَشَفُوا أَنَّ فِي طَاقَتِهَا أَنْ تَسْتَوْعِبَ بِلَايَيْنِ الْمَعْلُومَاتِ، وَأَيْضاً يَعْتَقِدُ الْمَادِّيُّونَ بِوُجُودِ الْأَثِيرِ الَّذِي تَأَلَّفَ مِنْهُ الْكَوْنُ دُونَ أَنْ يَقَعَ تَحْتَ إِبْتِهَارِهِمْ، وَتَأْتِي الْإِشَارَةُ... وَمِثْلُهُ الرِّزْمُ أَنَّ أَصْلَ الْإِنْسَانِ قِرْدٌ.

هَذَا، إِلَيَّ أَنْ عَالِمِ الْفَلَكَ يُؤْمِنُ بِوُجُودِ كَوْكَبٍ غَائِبٍ عَنْهُ وَيُحَدِّدُ مَكَانَهُ مِنْ حَرَكَةِ كَوْكَبٍ آخَرَ شَاهِدَهُ وَرَآئِهِ، وَالطَّيِّبُ يَكْتَشِفُ نَوْعَ الْمَرَضِ مِنْ ظُهُورِ آثَارِهِ، وَالْقَاضِي يَحْكُمُ بِالذَّمِّ وَالْأَمْوَالِ مِنَ الْقَرَائِنِ الْقَضَائِيَّةِ وَغَيْرِهَا دُونَ أَنْ يَرَى الْجَرِيْمَةَ وَيُشَاهِدَهَا، وَصَاحِبُ الْحَفَرِيَّاتِ يَتَحَدَّثُ عَنِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ، وَالْقُرُونِ الْخَالِيَةِ مِنْ مُشَاهَدَةِ الْبَقَايَا وَالْخُطَامِ، وَكُلُّ النَّاسِ يَحْكُمُونَ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنْ خِلَالِ سُلُوكِهِ دُونَ أَنْ يَطْلُعُوا عَلَى سِيرَتِهِ، بَلْ وَمِنْ صَفَحَاتِ وَجْهِهِ وَقُلُوبَاتِ لِسَانِهِ، وَأَيْضاً يُؤْمِنُونَ بِصِدْقِ الْمُحَدِّثِ أَوْ كَذِبِهِ مِنْ طَبِيعَةِ كَلَامِهِ وَسَيَاقِ حَدِيثِهِ، بَلْ أَتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ وَالْفَلَّاسِفَةُ قَوْلاً وَاحِداً عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ أَنْ يَدْرِكَ ذَاتَ الْأَشْيَاءِ الْمَوْجُودَةِ فِي الْكَوْنِ وَحَقِيقَتَهَا، وَأَنَّ كُلَّ مَا يَعْرِفُهُ عَنْ أَيِّ شَيْءٍ صَغِيرٍ وَحَقِيرٍ هُوَ صِفَاتُهُ وَظَوَاهِرُهُ كُلُّ ذَلِكَ وَغَيْرُهُ كَثِيرٌ - إِيْمَانٌ بِمَا لَمْ تَنْلُهُ يَدُ التَّجَرُّبَةِ وَلَا يَصِلَ إِلَيْهِ الْحِسُّ.

وَبَعْدَ، فَإِنَّ الْكَوْنَ يَزْخَرُ بِالْحَقَائِقِ الْخَفِيَّةِ الَّتِي لَا تُرَى بِالْعَيْنِ ذَاتَ الطَّاقَةِ

المحدودة، وما من عاقل على وجه الأرض إلا يؤمن بالعديد من هذه الحقائق ويرى الإيمان بها من الضرورات الأولية التي لا مفر منها لأحد على الإطلاق وإذن فبالأولى أن يكون الإيمان بالله ضرورياً بعد ظهور آثاره في خلقه الذي تنجز الأوهام والألسن عن وصفه. وقال بعض الفلاسفة: «حدّ العقل بأن ينتقل الإنسان من معلوم إلى مجهول، من شاهد إلى غائب، من حاضر إلى مستقبل لم يحضر بعد أمام البصر، أو إلى ماضٍ ذهب وأنقضى ولم يعد مرئياً مشهوداً... فإذا لم يكن ذلك فلا عقل»^(١).

ومعنى هذا بأن من لا يؤمن بالله لاشيء إلا لأنه لم يره بالذات - فلا عقل له، لأن مهمة العقل أن يرشدنا إلى ما لا يمكن إدراكه بالحس والتجربة وأن يحذرنّا ممّا تحبّسه الأيام، وينفعنا برؤيته وموعظته... والذكي الألمعي هو الذي يفهم من الإشارة، ويدرك المغيبات من القرّائن، ويؤمن بها حتّى كأنّها مجسّدة أمام عينيه. وقد يما قال الشاعر العربي^(٢):

الألمعي الذي يظن بك الظن
كأن قد رأى وقد سَمِعَا

خطأ التفسير الميكانيكي للكون:

وأجاب المؤمنون عن الاعتراض الثاني، وهو التفسير الميكانيكي والتولد الذاتي، أجابوا بأن المادة جامدة عمياء لا روح فيها وشعور، ولا وعي وإدراك

(١) أنظر، كتاب تجديد الفكر العربي للدكتور زكي نجيب محمود، الفصل السابع: (قيم باقية من تراثنا). (مئة سنة).

(٢) ينسب هذا البيت إلى الشاعر أوس بن جبر، شاعر جاهلي تميمي (ت ٦٢٠)، رُوج أم زهير ابن أبي سلمى، وفي شعره حكمة ورقة. أنظر، ديوانه: ٥٣.

فَكَيْفَ نَظَّمَتْ نَفْسَهَا بِنَفْسِهَا، وَقَدَّرَتْ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْكَوْنِ تَقْدِيرًا عَلَى سُنَنِ ثَابِتَةٍ وَنَوَامِيسٍ مُحَكَّمَةٍ؟ ...

وَحَاوِلِ الْمَادِّيُّونَ أَوْ الْكَثِيرُ مِنْهُمْ حَلَّ هَذِهِ الْمُسْكَلَةِ بِفَرْضِ ضَرْوَرِي عِنْدَهُمْ حَدَسًا وَتَخْرَصًا، وَهُوَ أَنَّهُ - فِي بَدَايَةِ ذِي بَدْءٍ وَقَبْلَ أَنْ يُوجَدَ الْكَوْنُ عَلَى وَضْعِهِ الْحَالِيِّ - كَانَ هُنَاكَ أَثِيرُ سَاكِنٍ رَاكِدٍ يَمْلَأُ أَطْرَافَ الْفَضَاءِ ... ثُمَّ حَدَثَتْ حَرَكَةٌ قَوِيَّةٌ فُجْأَةً وَمِنْ بَابِ الصَّدْفَةِ، وَاسْتَمَرَّتْ مَلَائِيْنُ السَّنِينَ، وَمِنْ هَذِهِ الْحَرَكَةِ الدَّائِبَةِ وَحَتْمِيَّةِ تَطَوُّرِ الْمَادَّةِ تَأَلَّفَ هَذَا الْكَوْنُ الْمَوْجُودُ الْآنَ بِأَرْضِهِ وَسَمَائِهِ، وَجَمَالِهِ وَبَهَائِهِ، وَتَخْطِيطِهِ وَنَظَامِهِ وَتَرْتِيبِهِ وَأَنْسَجَامِهِ.

وَتَسَاءَلِ الْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ: مِنْ أَيْنَ جَاءَ الْعِلْمُ بِوُجُودِ هَذَا الْأَثِيرِ الَّذِي سَبَقَ وَجُودَ الْكَوْنِ مِنَ الْقَطْعِ وَالْيَقِينِ بِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ تَحْتَ الْحِسِّ وَلَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْآثَارُ وَالْقَرَائِنُ؟ وَلَوْ سَلَمْنَا جَدَلًا بِوُجُودِهِ فَمَنْ الَّذِي أَوْجَدَهُ؟ ثُمَّ مَنْ الَّذِي حَرَكَهُ؟ وَهَلِ الصَّدْفَةُ وَالْحَرَكَةُ الْعَشَوَائِيَّةُ الْهَوَجَاءُ تَنْتُجُ هَذَا النِّظَامَ الْبَدِيعَ الشَّامِلَ لِأَفْلَاكِهِ وَكَوَاكِبِهِ وَذَرَاتِهِ وَمَجَرَّاتِهِ؟ ...

وَإِذَا وَجَدَ الْكَوْنُ بَمَا فِيهِ وَمَنْ فِيهِ مِنْ بَابِ الصَّدْفَةِ فَلِمَذَا لَا يَكُونُ هَذَا الزَّعْمُ صَادِرًا عَنْ زَاعِمِهِ صَدْفَةً وَعَنْ غَيْرِ قَصْدٍ ... وَكَذَلِكَ قَفَزَ الْإِنْسَانُ إِلَى الْقَمَرِ، وَوُجُودِ الْقُرَى وَالْمَدَنِ، وَالْمَصْنَعِ وَالْمَعَاهِدِ، وَجَمِيعِ الْمُخْتَرَعَاتِ، وَالْأَسْفَارِ وَالْأَشْعَارِ، كُلُّ ذَلِكَ وَمَا إِلَيْهِ مَا كَانَ وَيَكُونُ مِنْ بَابِ الْإِتِّفَاقِ وَالصَّدْفَةِ! ... وَكَيْفَ نَنْسِبُ الْكَوْنَ وَنَظَامَهُ الْعَجِيبَ إِلَى الصَّدْفَةِ، وَلَا نَتْرُكُ لَهَا نَحْنُ أَنْفَهُ الْأُمُورَ؟ ثُمَّ هَلِ يُسَوِّغُ لَنَا بِأَن نَذِمَ وَنُعَاقِبَ مَنْ أَسَاءَ وَأَجْرَمَ، وَنَمْدَحَ وَنُثِيْبَ مَنْ أَحْسَنَ وَأَنْعَمَ، وَنَحْنُ نُوْمِنُ بِنَظَرِيَّةِ الْإِحْتِمَالِ وَقَانُونِ الصَّدْفَةِ؟.

وَهَلْ يَقْبَلُ الْعَاقِلُ الْخَبِيرَ الْعَلِيمَ بَأَنَّ عَقْلَهُ وَشُعُورَهُ تَوْلَدَا مِنْ مَادَّةٍ لَا عَقْلَ لَهَا وَلَا شُعُورَ، وَأَنَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ أَوْجَدَهُمَا مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ؟ وَأَيْضًا هَلْ يَقْبَلُ عَقْلُ عَاقِلٍ بَأَنَّ بَصَمَاتِ الْأَصَابِعِ وَمَلَامَحَ الْوُجُوهِ وَزَوَائِحَ الْأَجْسَامِ قَدْ اخْتَلَفَتْ بَيْنَ الْمَلَائِكِيِّينَ مِنْ أَبْنَاءِ الْبَشَرِ، هَلْ يَقْبَلُ الْعَقْلُ أَنَّ كُلَّ ذَلِكَ حَدَثَ لِمُجَرَّدِ الصَّدْفَةِ؟

الْقُرُودُ وَالْأَشْعَارُ شَكْسِيِيرَ:

وَأَسْتَدِلُّ مُتَفَلِّسِي فِي الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ عَلَى صِحَّةِ قَانُونِ الصَّدْفَةِ - بَأَنَّهُ لَوْ فَرَضْنَا أَنَّ عَدَدًا مِنَ الْقُرُودِ ضَرَبُوا أَجْيَالًا طَوِيلَةً عَلَى آلَاتِ كَاتِبَةٍ، لَوْجَدْنَا بَيْنَ مَا خَطَّتْهُ كُلُّ أَشْعَارِ شَكْسِيِيرَ، وَهَكَذَا حَدَثَ نِظَامُ الْكَوْنِ بَعْدَ الْحَرَكَةِ الْعَشَوَائِيَّةِ الَّتِي طَرَأَتْ عَلَى الْأَثِيرِ.

وَنَقُولُ فِي رَدِّهِ: أَنَّ هَذَا الْفَرَضَ لَيْسَ ضَرُورِيًّا، بَلِ الْأَقْرَبُ إِلَى الْفَلَةِ الْعَقْلُ بَأَنَّ لَا نَجِدُ فِي خُطُوطِ الْقُرُودِ عَيْنًا وَلَا أَثَرًا لِأَشْعَارِ شَكْسِيِيرَ... وَلَوْ سَلَمْنَا جَدَلًا بِهَذَا الْفَرَضِ لَوْجَدْنَا إِلَى جَانِبِ أَشْعَارِ شَكْسِيِيرَ مَلَائِكِيَّيْنِ الْخُطُوطِ بِلَا هُدًى وَمَعْنَى مَعَ الْعِلْمِ بَأَنَّ مَا مِنْ شَيْءٍ فِي هَذَا الْكَوْنِ الْكَبِيرِ الْعَظِيمِ إِلَّا بِتَقْدِيرِ مُحْكَمٍ، وَنِظَامٍ مُسْتَمَرٍّ بِحَيْثُ لَوْ زُحِرَ عَنْهُ لَانْفَرَطَ عِقْدُ الْكَوْنِ وَتَنَاقَرَّ.

وَتَسْأَلُ: إِذَا كَانَ اللَّهُ أَوْجَدَ الْكَوْنَ مِمَّنِ الَّذِي أَوْجَدَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ؟

الْجَوَابُ:

أَنَّ الْكَوْنَ الْمُسْتَمَرَّ التَّغْيِيرَ وَالتَّطَوُّرَ لَا بُدَّ أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى عِلَّةٍ أُولَئِكَ قَائِمَةٌ بِذَاتِهَا، لِأَنَّ تَسْلُسُلَ الْعِلَلِ إِلَى غَيْرِ نَهَايَةٍ يَرْفُضُهُ الْعَقْلُ وَلَا يَأْلَفُهُ، وَلَوْ أَحْتَاجَ كُلُّ شَيْءٍ فِي وَجُودِهِ إِلَى عِلَّةٍ لِإِسْتِحْوَاحِ أَنْ يُوجَدَ شَيْءٌ عَلَى الْإِطْلَاقِ. وَبَقِيَ الْعَالَمُ طَيِّ الْعَدَمِ

وَالْكُتْمَان... وَبِكَلَامٍ آخَرَ كُلُّ مَا لَا يَحْمِلُ فِي طَبِيعَتِهِ السَّبَبَ الْكَافِيَ لَوْجُودِهِ لَا بُدَّ أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى مَوْجُودٍ يَحْمِلُ فِي طَبِيعَتِهِ سَبَبًا كَافِيًا وَافِيًا لَوْجُودِهِ.

وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ مَعْنَا مَكَانَ الْخَطَأِ فِي قَوْلِ مَنْ قَالَ: يَسْتَحِيلُ أَنْ يُوجَدَ شَيْءٌ مِنْ لَا شَيْءٍ... إِذَا أَعْتَبَرْنَا هَذَا الْقَوْلَ أَصْلًا طَبِيعِيًّا وَقَانُونًا حَتَمِيًّا يَطْرُدُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، بِلَا اسْتِثْنَاءٍ، إِذْ يَلْزَمُ، وَالْحَالُ هَذِهِ، أَنْ لَا يُوجَدَ شَيْءٌ مِنَ الْأَسَاسِ مَهْمَا كَانَ وَيَكُونُ حَتَّى هَذَا الْقَوْلَ وَقَائِلَهُ.

وَبَقَصِدِ التَّوَضُّيْحُ نَضْرِبُ مَثَلًا بِالمُخْتَرَعَاتِ: فَكُلُّ اخْتِرَاعٍ مِنْ أَيِّ نَوْعٍ كَانَ لَا بُدَّ أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى مُخْتَرَعٍ أَوَّلٍ ابْتَدَعَهُ مِنْ أَفْكَارِهِ وَبِالذَّاتِ، وَلَمْ يَأْخُذْهُ مِنْ غَيْرِهِ، وَلَوْ افْتَرَضْنَا أَنَّهُ لَا مُخْتَرَعٍ أَوَّلٍ وَجَبَ أَنْ لَا يُوجَدَ اخْتِرَاعٌ عَلَى الْإِطْلَاقِ... مِثَالُ ثَانٍ: كُلُّ مَا كَانَ دَلِيلًا عَلَى غَيْرِهِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْأَوَّلِيَّاتِ الضَّرُورِيَّةِ وَالْمُسْلِمَاتِ الْبَدِهيَّةِ، يُسْتَدَلُّ بِهِ وَلَا يُسْتَدَلُّ عَلَيْهِ، أَوْ يَنْتَهِيَ إِلَى دَلِيلٍ كَذَلِكَ، وَلَوْ أَحْتَاجَ كُلُّ دَلِيلٍ إِلَى دَلِيلٍ مَا كَانَ لِفِكْرَةِ الْإِسْتِدْلَالِ عَيْنٌ وَلَا أَثَرٌ.

سُؤَالُ ثَانٍ: أَجَلٌ، لَا بُدَّ أَنْ نَفْتَرِضَ وَجُودَ عِلَّةٍ قَائِمَةٍ بِذَاتِهَا مَعْلُولَةٌ لغيرها، وَلَكِنْ لِمَاذَا لَا نَفْتَرِضُ بِأَنَّ الْمَادَّةَ هِيَ وَاجِبَةُ الْوُجُودِ، وَأَنَّهَا تَحْمِلُ فِي طَبِيعَتِهَا السَّبَبَ الْكَافِيَ لَوْجُودِهَا؟ وَسَبَقَ الْجَوَابُ عَنْ ذَلِكَ فِي فِقْرَةٍ «خَطَأُ التَّفْسِيرِ المِيكَانِيكِيِّ لِلْكَوْنِ» وَأَنَّ الْمَادَّةَ الْجَامِدَةَ الْعَمِيَاءَ يَسْتَحِيلُ أَنْ تُنْظَمَ نَفْسُهَا بِنَفْسِهَا، وَأَنَّ الْقَوَائِينَ وَالْمَقَادِيرَ لَا تُوجَدُ بِلَا خَالِقٍ قَادِرٍ وَعَالِمٍ وَحَكِيمٍ. وَأَيْضًا تَقْدِّمُ قَوْلَ فُولْتِيرٍ: «أَنَّ فِكْرَةَ وَجُودِ اللَّهِ فَرَضٌ ضَرُورِيٌّ لِأَنَّ الْفِكْرَةَ الْمُضَادَّةَ حِمَاقَاتٌ»^(١).

(١) انظر، (فولتير تأليف جوستان لانسون ترجمة محمد غنيمي هلال: ٧٣ طبعة سنة ١٩٦٢م).

وَتَجْدُرُ الْإِشَارَةُ إِلَيَّ أَنْ بَعْضَ الْمُؤْمِنِينَ قَالُوا: لَا فَرْقَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْمَادِيِّينَ لِأَنَّ كُلًّا مِنَّا يُؤْمِنُ بِفِكْرَةٍ وَاجِبِ الوجودِ سِوَى أَتْنَا نُسَمِّيهِ نَحْنُ اللهُ، وَهُمْ يُسَمُّونَهُ الطَّبِيعَةَ!... وَذَهَلُوا عَنِ أَنَّ التَّفْسِيرَ المِيكَانِيكِي لِلْكَوْنِ مَعْنَاهُ أَنَّ الْعَادَّةَ هِيَ الْمَوْجُودِ الْوَحِيدِ، وَأَنَّهُ لَا شَيْءَ وَرَاءَهَا أَطْلَاقًا. وَهَذَا إِنكَارُ اللهِ الَّذِي لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي ذَاتِهِ وَصَفَاتِهِ.

فلسفات مُتَهافتات:

وَبَعْدَ، فَلَا بَدْعَ إِذَا أَرْتَابْتَ فِتْنَةً قَلِيلَةً أَوْ كَثِيرَةً فِي وجودِ اللهِ، لِأَنَّهَا مَا رَأَتْهُ وَلَا يُمكنُ أَنْ تَرَاهُ، فَإِنَّ السَّفَسْطَانِيِّينَ شَكُّوا فِي وجودِ الْكَوْنِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ وَفِي شَكِّهِمْ أَنَّهُمْ يَشْكُونَ، وَنَظَرُوا إِلَى الْكَوْنِ نَظَرْتَهُمْ إِلَى الْعَدَمِ الْمَحْضِ، لِأَنَّ الْعَقْلَ بَزَعِهِمْ يَعْبِزُ عَنْ مَعْرِفَةِ أَيِّ شَيْءٍ حَتَّى عَنْ مَعْرِفَةِ نَفْسِهِ!.

وَقَالَ أَنْصَارُ الْمَذْهَبِ السَّلُوكِيِّ، كَمَا فِي كِتَابِ «الْفَلَسَفَةِ بِنَظَرَةِ عِلْمِيَّةٍ لِرَاسِل» قَالُوا: لَا وجودَ لِلصُّورِ الذَّهْنِيَّةِ، لِأَنَّهَا لَا تَرَى وَتَحُسُّ، فَإِذَا شَعَرَ الْإِنْسَانُ بِأَنَّهُ يُفَكِّرُ وَيَتَصَوَّرُ فَشَعُورُهُ هَذَا وَهُمْ وَخَرَافَةٌ.

وَقَالَ الْمُثَالِيُونَ، وَفِيهِمْ أَسَاتِذَةُ وَأَقْطَابُ: لَا وجودَ لْعَالَمٍ قَائِمٍ بِذَاتِهِ، وَلَا شَيْءٍ فِي الوجودِ عَلَى الْإِطْلَاقِ إِلَّا إِذَا أَدْرَكَهُ عَقْلٌ مِنَ الْعُقُولِ، وَمَا لَا يَدْرَكَهُ عَقْلٌ فَلَا وجودَ لَهُ.

فَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ الْفِتَنَاتِ أَنْكَرَتْ وجودَ الْمَحْسُوسِ لِفَلَسَفَةٍ تُؤْمِنُ بِهَا، وَتَرَى غَيْرَهَا خَطَأً وَضَلَالًا... وَإِذَنْ فَلَا غَرَابَةَ أَنْ يُجَادَلَ فِي اللهِ لِسَبَبٍ أَوْ لِآخَرٍ مَنْ رَأَى أَنَّهُ فِي خَلْقِهِ دُونَ أَنْ يَرَاهُ! هَذَا اعْتَرَفَ بِالْخَلْقِ وَأَنْكَرَ الْخَالِقَ، وَأَوَّلُكَ

الْمُتَفَلْسِفُونَ أَنْكَرُوا الْخَالِقَ وَالْخَلْقَ الَّذِي رَأَوْهُ بِالْعَيْنِ وَلَمَسُوهُ بِالْيَدِ.. فَكَيْفَ نَتَوَقَّعُ اعْتِرَافَ الْجَمِيعِ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَبِالْحَقِّ وَالْوَاقِعِ مَعَ هَذِهِ الْفَلَسَفَاتِ الْمُتَنَاقِضَةِ الْمُتَضَارِبَةِ ؟. هَذَا بِالإِضَافَةِ إِلَى التَّعَصُّبِ الْأَعْمَى الَّذِي نُشِرَ إِلَيْهِ فِي الْفَقْرَةِ التَّالِيَةِ.

لَا إِنْسَانِيَّةَ بِلَا حُرِّيَّةَ :

وَنَعْتَظُ عَلَى الْفَلَسَفَاتِ الْمُتَهَابَةِ مَنْ أَعْمَاهُمُ التَّعَصُّبُ، شِعْرُهُؤَلَاءَ بِقُصُورِهِمْ وَعَجَزِهِمْ عَنِ مُوَاجَهَةِ الْأَدَلَّةِ الْكُونِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ عَلَى وُجُودِ اللَّهِ فَلَقُوا وَدَارُوا وَحَاكُوا بَعْضَ الشُّبُهَاتِ وَالْأَوْهَامِ، يَلْقُونَهَا فِي عَقُولِ الْبُسْطَاءِ السُّدُجِ، وَمِنْهَا: لَوْ كَانَ اللَّهُ مَوْجُودًا لَانْتَصَرَ لِمَنْ آمَنَ مِنَ الْمُسْتَضْعِفِينَ، وَأَهْلَكَ الْجَبَّارَةَ وَالْجَا حِدِينَ وَزَلَزَلَ الْأَرْضَ بِالْإِسْتِعْمَارِ وَالصَّهْيُونِيَّةِ وَإِسْرَائِيلَ... وَأَسْخَفَ مِنْ هَذَا مَا حَدَّثَنِي بِهِ أَحَدُ الشُّبَابِ: أَنَّ زَمِيلًا لَهُ فِي الدَّرَاسَةِ قَالَ لِرَفَاقِهِ: إِنْ كَانَ اللَّهُ مَوْجُودًا فَلْيَقْطَعْ يَدَهُ أَوْ يَرُدِّهَا إِلَى الْوَرَاءِ !.

الْجَوَابُ :

أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ كَرَّمَ الْإِنْسَانَ بِنِعْمَةِ الْعَقْلِ وَالْإِرَادَةِ وَالْقُدْرَةِ، وَبَيَّنَّ لَهُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ، وَنَهَاهُ عَنْ هَذَا، وَأَمَرَهُ بِذَاكَ، وَفِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ حَثَّهُ عَلَى التَّفَكُّيرِ وَإِعْمَالِ الْعَقْلِ، وَأَعْتَبَرَهُ إِهْمَالَهُ جَرِيْمَةً تَسْتَحِقُّ الْعِقَابَ. وَبِالْعَقْلِ يُمَيِّزُ الْإِنْسَانُ بَيْنَ الْهُدَى وَالضَّلَالِ وَبِالْإِرَادَةِ يَخْتَارُ لِنَفْسِهِ مَا يُحِبُّ.. وَبِالْقُدْرَةِ يَفْعَلُ وَيَنْفَعُ.

وَبِهَذِهِ الْعُنَاوَةِ الثَّلَاثَةِ قَوَامُ الْإِنْسَانِ وَمَاهِيَّتُهُ، إِذْ لَا إِنْسَانِيَّةَ بِلَا عَقْلَ وَقُدْرَةَ وَحُرِّيَّةَ... وَلَوْ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ تَدَخَّلَ بِالْقَهْرِ وَالْغَلْبَةِ فِي أَيِّ شَأْنٍ مِنْ شُؤُونِ الْإِنْسَانِ، أَوْ أَلْبَاهُ إِلَى الْإِيمَانِ الْجَبَّاهِ، أَوْ أَهْلَكَ أَعْدَاءَهُ بِالْخَوَارِقِ وَالْمُعْجَزَاتِ

كَقَطْعِ يَدِ التَّلْمِيزِ الْأَرْعَنِ أَوْ رَدِّهَا إِلَى الْخَلْفِ، لَوْ فَعَلَ اللَّهُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ لَسَلَبَ الْإِنْسَانَ حَقَّهُ فِي أَنْ يُوَافِقَ أَوْ يَرْفُضَ، وَأَنْ يُؤْمِنَ أَوْ يَكْفُرَ، وَأَنْ يَفْعَلَ أَوْ يَتْرَكَ، وَمَعْنَى هَذَا أَنَّهُ لَا وَزْنَ لِعَقْلِ الْإِنْسَانِ، وَلَا لِإِرَادَتِهِ مِنْ مَوْضُوعٍ، وَلَا لِقُدْرَتِهِ مِنْ أَثَرٍ.. وَمِنْ أَجْلِ هَذَا تَرَكَ سُبْحَانَهُ النَّوَامِيسَ الْكَوْنِيَّةَ وَالْإِجْتِمَاعِيَّةَ تَعْمَلُ عَمَلَهَا فِي الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْئُلُوا بِغَضَبِكُمْ بِبَعْضِ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾^(١).

وَمِنْ طَرِيفٍ مَا قَرَأْتُ فِي هَذَا الْبَابِ: أَنَّ الرِّيحَ إِذَا كَانَتْ تَهَبُ جَنُوبًا، وَأَبْحَرَ الْمُؤْمِنَ بِاللَّهِ بِاتِّجَاهِ الشَّمَالِ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَا يَأْمُرُ الرِّيحَ بِالْهَبُوبِ شَمَالًا إِكْرَامًا لِمَنْ آمَنَ بِهِ وَأَخْلَصَ لَهُ.. وَإِذَا أَبْحَرَ الْمُؤْمِنَ بِاتِّجَاهِ الرِّيحِ الْمُؤَاتِيَةِ لِقَصْدِهِ، وَشَكَرَ اللَّهَ عَلَى ذَلِكَ فَإِنَّ شُكْرَهُ هَذَا وَقَاحَةٌ وَأَنَانِيَّةٌ، لِأَنَّهُ يَغْنِي أَنْ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الَّذِينَ أَبْحَرُوا بِالْإِتِّجَاهِ الْمُعَاكِسِ لِإِتِّجَاهِهِ.

وَأَوْفَقَ مِنْ هَذَا وَأَقْبَحَ أَنَّ الْيَهُودَ مَا آمَنُوا بِاللَّهِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا إِلَّا بَزَعَمَ أَنَّهُ لَهُمْ وَحْدَهُمْ، وَمَعَ مَصَالِحِهِمُ الشَّخْصِيَّةِ يَدُورُ مَعَهَا حَيْثَمَا تَدُورُ، فَإِذَا تَرَكَهَا غَضَبُوا عَلَيْهِ، وَمَا آمَنُوا بِمُوسَى ﷺ إِلَّا بَعْدَ أَنْ أَشْتَرَطُوا أَنْ يَكُونَ إِلَهُ قُوَّةٍ عَامِلَةٍ فِي حَيَاتِهِمُ الْيَوْمِيَّةِ. وَفِي التَّوْرَةِ سِفَرُ التَّشْنِيعِ: «أَنَّ الْيَهُودَ هُمْ شَعْبُ اللَّهِ الْمُخْتَارَ وَأَنَّهُمْ فَوْقَ الشُّعُوبِ»^(٢)... وَفِي سِفَرِ الْعَدَدِ، وَالْإِضْحَاحِ مِنْ سِفَرِ التَّشْنِيعِ: «أَنَّ اللَّهَ أَبَاحَ لِلْيَهُودِ دِمَاءَ سَائِرِ الشُّعُوبِ وَأَمْوَالَهُمْ»^(٣).

(١) مُحَمَّدٌ: ٤.

(٢) أَنْظِرِ، التَّوْرَةَ سِفَرِ التَّشْنِيعِ الْفِقْرَةَ (٧) مِنَ الْإِضْحَاحِ (٧) وَالْفِقْرَةَ (٢) مِنَ الْإِضْحَاحِ (١٤). (مِنْهُ ﷺ).

(٣) أَنْظِرِ، التَّوْرَةَ سِفَرِ التَّشْنِيعِ الْإِضْحَاحِ (٣١) مِنْ سِفَرِ الْعَدَدِ وَالْإِضْحَاحِ (١٣). (مِنْهُ ﷺ).

وَبَعْدَ نَكْسَةِ حُزَيْرَانَ سَنَةِ (١٩٦٧ م) جَاءَنِي بَعْضُ الشَّبَابِ يَسْأَلُونِ: كَيْفَ يُسَلِّطُ اللَّهُ الصَّهْيُونِيَّةَ عَلَى الْعَرَبِ وَالْمُسْلِمِينَ؟.

فَضَرَبْتُ لَهُمْ مَثَلًا بِرَجُلَيْنِ: أَحَدُهُمَا يَكْفُرُ بِاللَّهِ وَلَا يُطِيعُهُ فِي شَيْءٍ، وَلَكِنَّهُ يُحْسِنُ فَنَ السَّبَّاحَةِ، وَآخَرُ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ، وَيَعْبُدُهُ بِإِخْلَاصٍ، وَلَكِنَّهُ يَجْهَلُ طَرِيقَ الْعُومِ وَالسَّبَّاحَةِ... فَأَقْتَحَمَا الْبَحْرَ مَعًا بِقَصْدِ الْمُبَارَاةِ، فَزَسَبَ الْمُؤْمِنُ وَهَلَكَ لِأَنَّهُ أَطَاعَ اللَّهَ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَعَصَاهُ فِي التَّزُولِ إِلَى الْبَحْرِ قَبْلَ أَنْ يُعَدَّ لَهُ الْعِدَّةُ، وَعَامَ الْكَافِرِ وَنَجَا لِأَنَّهُ عَصَى اللَّهَ فِي كُلِّ شَيْءٍ وَأَطَاعَهُ فِي التَّزُولِ إِلَى الْبَحْرِ، بَعْدَ أَنْ أُعِدَّ لَهُ عِدَّتُهُ... وَهَكَذَا رَبَحَتْ إِسْرَائِيلُ، وَخَسِرْنَا نَحْنُ (١٩٤٨ م، وَ١٩٦٧ م).

وَالْخُلَاصَةُ: أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَبَى أَنْ يَقْبَلَ الْإِيمَانَ بِهِ إِلَّا إِذَا تَجَسَّدَ فِي الْعَمَلِ الْحَيِّ الْمُثْمِرِ... وَأَيْضًا أَبَى، عَظُمَتْ حِكْمَتُهُ، أَنْ يَجْرِيَ الْأُمُورُ إِلَّا تَبَعًا لِلسُّنَنِ وَالنَّوَامِيسِ الَّتِي لَا تَبَالِي بِمَصِيرِ كَبِيرٍ أَوْ حَقِيرٍ، وَلَا تَدْخُلُ فِي حِسَابِهَا مُؤْمِنٌ أَوْ كَافِرًا.

حَوْلَ الدِّينِ وَالْعِلْمِ

الأستاذان: صغب والتُّرك:

قَرَأْتُ فِي مُلْحَقِ جَرِيدَةِ النَّهَارِ: (٣/٣/١٩٧٤ م) مَقَالاً بَعْنُوان «المُلْحَدُونَ عَنْ طَرِيقِ الْعِلْمِ لَمْ يَفْهَمُوا الْعِلْمَ» لِلأُسْتَاذِ أَدِيبِ صَغْب، ثُمَّ قَرَأْتُ الرَّدَّ عَلَيْهِ بَعْنُوان «حَزَبُ الْمَوَاقِعِ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْإِيْمَانِ» لِلأُسْتَاذِ زِيَادِ التُّرْكِ فِي الْمُلْحَقِ: (٢٤/٤/١٩٧٤ م)... وَلِهَذَا التَّبَحُّثُ أَهْمِيَّتُهُ الْكُبْرَى مِنْ حَيْثُ الْفِكْرُ وَالْعَمَلُ، وَأَتَمَنَّى لَوْ يَكُونُ مَقَالُ صَغْب وَكَلِمَةُ التُّرْكِ بَدَايَةَ حَسَنَةٍ لِحِوَارِ طَوِيلٍ وَمُفِيدٍ بِأَقْلَامِ أَخْصَانَيْنِ يَتَمَنَعُونَ بَرُوءِيَةَ مُجَرَّدَةِ الْإِيْمَانِ وَسَائِلِ الْعِلْمِ وَمَنَاهَجِهِ... وَعَسَى أَنْ تَكُونَ أُمْنِيَّتِي هَذِهِ حَافِزاً لِلْأَقْلَامِ الرَّاشِدَةِ النَّاقِدَةِ.

تَحْدِيدُ الْغَضَنِ وَالْغَطَا الْمُحْتَمل:

وَقَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ أُمِّهْدُ بِمَا يَلِي:

أَوَّلًا: تَحْدِيدُ الْمُرَادِ بِكَلِمَةِ الْعِلْمِ وَالدِّينِ كَيْلًا نَقَعَ فِي سُوءِ الْفَهْمِ الَّذِي يَجْرُنَا إِلَى خِلَافَاتٍ جَانِبِيَّةٍ، وَيَقِفُ حَائِلًا دُونَ الْإِتِّفَاقِ عَلَى رَأْيٍ. وَالْعِلْمُ بِمَعْنَاهِ الْعَامِ مَعْرِفَةُ الشَّيْءِ بِمَا هُوَ عَلَيْهِ عَنْ أَيِّ طَرِيقٍ كَانَ، وَنُرِيدُ بِهِ هُنَا مَعْنَاهُ الشَّائِعَ النَّابِعَ مِنَ الْحِسِّ وَالتَّجَرُّبَةِ. وَلِلدِّينِ مَعَانٍ شَتَّى، وَنُرِيدُ بِهِ الْإِيْمَانُ بِاللَّهِ: «إِنَّ هَذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي

هِيَ أَقْوَمُ وَيُتَّبَعُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنْ لَهُمْ أُجْرًا كَبِيرًا»^(١)، وَلَا يُرِيدُ بَعَادَهُ إِلَّا الْخَيْرَ وَالْيُسْرَ، وَهَذَا الْإِيمَانُ هُوَ أَصْلُ الْأُصُولِ، وَلَا يُمْكِنُ الْحَدِيثُ عَنِ الثَّبُوتِ وَالْوَحْيِ، وَحَلَالِ اللَّهِ وَحَرَامِهِ إِلَّا بَعْدَ الدَّلِيلِ الْقَاطِعِ عَلَى وَجُودِ اللَّهِ وَصِدْقِ الْإِيمَانِ بِهِ.

ثَانِيًا: يَنْبَغِي لِلْعَالِمِ أَنْ يَتَذَكَّرَ عَلَى الدَّوَامِ أَنَّ مَا غَابَ عَنِ عِلْمِهِ أَكْثَرَ بِكَثِيرٍ مِمَّا أَحَاطَ بِهِ عِلْمًا... حَتَّى هَذَا قَدْ يَكُونُ خَطَأً وَجَهْلًا مُرَكَّبًا، وَأَنْ يَتَقَبَّلَ التَّقَدُّمَ الْوَاعِي بِهِمْ وَتَوَاضِعَ... وَفِي نَهْجِ الْبَلَاغَةِ أَنْ مُنَافِقًا أَتْنِي عَلَى الْإِمَامِ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ لَهُ: «أَنَا دُونَ مَا تَقُولُ، وَفَوْقَ مَا فِي نَفْسِكَ»^(٢). وَأَتْنِي عَلَيْهِ مُؤْمِنٌ فَقَالَ لَهُ: «فَإِنِّي لَسْتُ فِي نَفْسِي بِفَوْقَ أَنْ أُخْطِئَ، وَلَا آمَنُ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِي، إِلَّا أَنْ يَكْفِيَ اللَّهُ مِنْ نَفْسِي مَا هُوَ أَمْلَكُ بِهِ مِنِّي، فَإِنَّمَا أَنَا وَأَنْتُمْ عَبِيدُ مَعْلُوكُونَ لِرَبِّ لَا رَبَّ غَيْرُهُ»^(٣). أَبَدًا لَا تَرَى عَالِمًا بِحَقٍّ، وَلَنْ تَرَاهُ إِلَّا مُتَهَمًا لِنَفْسِهِ خَائِفًا مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْخَطَأِ.

إِخْذِي الدَّعْوَتَيْنِ ضَلَالَةً:

رَكَزَ الْأُسْتَاذُ صَغَبَ مَقَالَهُ عَلَى أَنَّ مُعْطِيَاتِ الْعِلْمِ الْحَدِيثِ بَشْتَى أَنْوَاعَهَا لَا تَتَنَافَى مَعَ الْإِيمَانِ، لَا مِنْ حَيْثُ هِيَ وَلَا مِنْ حَيْثُ مَصْدَرُهَا... وَإِبْتَدَأَ كَلَامَهُ بِتَقْسِيمِ هَذِهِ الْمُعْطِيَاتِ إِلَى أَقْسَامٍ ثَلَاثَةٍ، وَقَارَنَ بَيْنَ كُلِّ قِسْمٍ مِنْهَا وَبَيْنَ الدِّينِ وَأَنْتَهَى إِلَى أَنَّهُ لَا تَنَاقُضَ بَيْنَهُمَا، وَأَنَّ مَنْ قَالَ بِوُجُودِ التَّنَاقُضِ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ

(١) الْأَنْزَاء: ٩.

(٢) أَنْظَرِ، نَهْجُ الْبَلَاغَةِ: الْحِكْمَةُ (٨١).

(٣) أَنْظَرِ، نَهْجُ الْبَلَاغَةِ: الْخُطْبَةُ (٢١٦).

بالله فهو جاهل أو شرير .

وَقَالَ الْأُسْتَاذُ التُّرْكُ : أَنَّ الصَّرَاحَ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالدِّينِ قَائِمٌ وَدَائِمٌ وَلَا يَتَّفَقُ الدِّينُ وَيَتَعَايَشُ إِلَّا مَعَ الْفَلَسَفَةِ الْمَثَالِيَةِ الْقَائِلَةِ أَنَّ الْفِكْرَةَ لَا تَسْبِقُ الْوَاقِعَ ، وَهُوَ أَنْعَكَاسٌ عَنْهَا عَلَى الضَّدِّ مِنَ الْفَلَسَفَةِ الْمَادِيَةِ الْقَائِلَةِ أَنَّ الْوَاقِعَ يَسْبِقُ الْفِكْرَةَ ، وَهِيَ أَنْعَكَاسٌ عَنْهُ .

وَبَعْدَ هَذِهِ الْإِشَارَةِ الْخَاطِطَةِ إِلَى قَوْلِ صَعْبٍ وَالتُّرْكِ - أَعْرَضَ الْحَقِيقَةُ كَمَا هِيَ فِي فَهْمِي وَمَعْرِفَتِي ... وَلَيْسَ مِنْ غَرَضِي أَنْ أُؤَيِّدَ أَوْ أُفَنِّدَ هَذَا أَوْ ذَاكَ ، وَلَكِنْ الْحَقِيقَةُ تُعَرَّفُ وَجْهَ صَاحِبِهَا ، وَتَشْهَدُ لَهُ .

الحقائق أخوات :

يَضَعُ عَلَى الْفَهْمِ أَنْ يُحَدِّدَ الْمَعْنَى لِكَلِمَةِ الْحَقِيقَةِ مُطْلَقَةً مِنْ غَيْرِ قَيْدٍ - تَحْدِيداً جَامِعاً مَانِعاً ، لِأَنَّهَا تَعْمُ وَتَشْمَلُ حَقَائِقَ عَدِيدَةً وَمُتَنَوِّعَةً فِي كَوْنِهَا وَمَاهِيَّتِهَا ... وَهُوَ ذَلِكَ إِذَا أَرَدْنَا تَحْدِيدَ آيَةِ حَقِيقَةٍ بِطَابَعِهَا وَنَوْعِهَا الْخَاصِّ مُسْتَقْلَةً عَنْ غَيْرِهَا مِنَ الْحَقَائِقِ كَالْحَقِيقَةِ اللَّغَوِيَّةِ أَوِ الْاِقْتِصَادِيَّةِ وَمَا إِلَيْهَا . وَالَّذِي يَهْمُنَا فِي هَذَا الْبَحْثِ هُوَ تَحْدِيدُ الْحَقِيقَةِ الدِّينِيَّةِ وَالْعِلْمِيَّةِ : هَلْ بَيْنَهُمَا صِرَاعٌ وَأَصْطِدَامٌ تَمَاماً كَالْإِيمَانِ وَالْإِلْحَادِ ؟ .

وَفِي رَأْيِنَا أَنَّ الْإِصْطِدَامَ لَا يَخْذُثُ ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَحْدُثَ بَيْنَ آيَةِ حَقِيقَةٍ وَأُخْرَى مِنْ أَيِّ نَوْعٍ تَكُونُ مَا دَامَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا تَدُورُ فِي فَلَكِهَا الْمَحْدَدِ وَلَا تَتَعَدَاهُ وَتُقَاسُ بِمُقْيَاسِهَا وَلَا تَتَجَاوَرُهُ ، وَكَيْفَ يَخْذُثُ الْإِصْطِدَامُ بَيْنَ الْحَقَائِقِ ، وَالْإِنْسَانُ بِحَاجَةِ إِلَيْهَا جَمِيعاً ؟ ... أَجَلٌ إِذَا حُرِفَتِ الْحَقِيقَةُ عَنْ مَوَاضِعِهَا ، وَتَكَلَّمَ

بَاسْمِهَا جَاهِل مُتَطَفِّل، أَوْ خَائِن مُنَافِق - يَحْدُثُ عِنْدَئِذِ الصَّرَاحُ وَالنِّزَاعُ، وَلَكِنْ بَيْنَ هَذَا الدَّخِيلِ وَالطَّرْفِ الْأَصِيلِ .

وَيَجْدُرُ التَّوَكُّيدُ عَلَى أَنَّ عَدَمَ الصَّرَاحِ بَيْنَ الْحَقَائِقِ، لَا يَعْنِي أَنَّ بَعْضَهَا يَدُلُّ عَلَى صَحَّةِ بَعْضٍ... كَلَّا، فَإِنَّهُ عِلَاقَةٌ بَيْنَ تَفْتِيَتِ الذَّرَّةِ - مَثَلًا - وَبَيْنَ الْحَقِيقَةِ السِّيَاسِيَّةِ، أَوْ بَيْنَ زِيَادَةِ الْإِنْتِاجِ وَالْإِلْحَادِ؟. وَإِنَّمَا يَعْنِي أَنَّ طَبِيعَةَ آيَةِ حَقِيقَةٍ لَا تُعَانِدُ طَبِيعَةَ غَيْرِهَا مِنَ الْحَقَائِقِ، سِوَاءِ التَّقَاتِ الْحَقِيقَتَيْنِ فِي النِّهَايَةِ عَلَى صَعِيدِ وَاحِدٍ كَالْعِلْمِ وَالَّذِينَ يَلْتَقِيَانِ فِي خِدْمَةِ الْإِنْسَانِ وَتَحْقِيقِ رَغْبَاتِهِ وَأَمَانِيهِ، أَمْ لَمْ يَلْتَقِيَا أَصْلًا.

الْفَرْقُ بَيْنَ الْحَقِيقَتَيْنِ:

تَفْتَرِقُ الْحَقِيقَةُ الدِّيْنِيَّةُ - أَيُ الْإِيْمَانِ بِاللَّهِ - عَنِ الْحَقِيقَةِ الْعِلْمِيَّةِ بِأَنَّ مَوْضُوعَ الْأَوَّلَى وَرَاءَ الطَّبِيعَةِ، وَمَوْضُوعُ الثَّانِيَةِ الطَّبِيعَةُ... أَجَلْ، الْأَحْكَامُ الْإِلَهِيَّةُ مَوْضُوعُهَا عَقِيدَةُ الْإِنْسَانِ وَأَقْوَالُهُ وَأَفْعَالُهُ، وَلَكِنْ مَوْضُوعُ أَحْكَامِهِ تَعَالَى شَيْءٌ، وَالْإِيْمَانُ بِهِ شَيْءٌ آخَرُ.

هَذَا مِنْ نَاحِيَةِ الْمَوْضُوعِ، أَمَّا مِنْ نَاحِيَةِ الطَّرِيقِ وَالْمَنْهَجِ فَالْحِسُّ لِلْحَقِيقَةِ الرِّيَاضِيَّةِ، وَهُمَا مَعًا لِلْإِيْمَانِ بِاللَّهِ... تَنْظُرُ الْعَيْنُ إِلَى الْكَوْنِ وَنِظَامِهِ الْعَجِيبِ فَيَحْكُمُ الْعَقْلُ - مُسْتَنْدًا إِلَى مَبْدَأِ الْعَلِيَّةِ - بِوُجُودِ الْمُكُونِ الْعَظِيمِ، وَالْمُنْظَمِ الْحَكِيمِ.

تَعَاوُنُ الْعِلْمِ وَالْدِّينِ:

وَإِذَا اخْتَلَفَ الدِّينُ وَالْعِلْمُ مَوْضُوعًا وَمِنْهَا جَأً فَإِنَّهُمَا يَلْتَقِيَانِ عَلَى صَعِيدِ وَاحِدٍ، وَهُوَ خِدْمَةُ الْإِنْسَانِ وَمَصْلَحَتُهُ - كَمَا سَبَقَتْ الْإِشَارَةُ - وَمِنْ هُنَا حَثُ الْأَنْبِيَاءِ

وَالْكِتَابَ السَّمَاوِيَّةَ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ، وَجَعَلَهُ الْإِسْلَامَ فَرِيضَةً، وَرَفَعَ أَهْلَهُ
دَرَجَاتٍ، وَأَثْنَى عَلَى الرَّاسِخِينَ فِيهِ... وَالْعَدُوَّ لَا يَرْفَعُ مِنْ شَأْنِ عَدُوِّهِ... أَمَّا
الْمُضَادَّاتُ الَّتِي ظَهَرَتْ فِي التَّأْرِيخِ بَيْنَ الْمُتَنَسِّبِينَ إِلَى أَهْلِ الدِّينِ وَالْعِلْمِ فَهُوَ مِنَ
الدُّخْلَاءِ وَاللُّصَقَاءِ.

وَبَعْدَ، فَإِنَّ الدِّينَ يَهْدِي لِحَيَاةٍ أَفْضَلَ، وَيُبَارِكُ كُلَّ مَا يَعُودُ بِالنَّفْعِ عَلَى الْفَرْدِ
وَالْمُجْتَمَعِ، وَالْعِلْمُ يُسَهِّمُ عَمَلِيًّا فِي هَذَا الْمَيْدَانِ إِلَى أَبْعَدِ الْحُدُودِ، وَإِذَنْ مِنْ أَيْنَ
يَأْتِي الصَّرَاحُ وَالنِّزَاجُ!.. وَعَلَى الْأَقْلِ يَقِفُ كُلُّ مَنِهْمَا مِنَ الْآخِرِ مَوْقِفَ الْحَيَادِ، لَا
صِرَاعَ وَلَا أَصْطِدَامَ.

أَتَخَذِ إِلَهَهُ هَوَاهُ:

جَاءَ فِي آخِرِ مَقَالِ الْأُسْتَاذِ صَغْبٍ: «الشَّرَّيرُ هُوَ مَنْ قَالَ فِي ذَاتِهِ: أَنَا هُوَ
الْإِلَهُ». وَخَتَمَ الْأُسْتَاذُ التَّرِكَ كَلِمَتَهُ بِقَوْلِهِ: الْفَلَسَفَةُ الْمَثَالِيَّةُ تَجْعَلُ الْإِنْسَانَ يَقُولُ:
أَنَا هُوَ اللَّهُ.

وَفِي ظَنِّي أَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ أَلِيقَ بِالْفَلَسَفَةِ الْمَادِّيَّةِ وَالصَّقِ، لِأَنَّهَا تُعْتَبَرُ الْمَادَّةُ هِيَ
الْمَوْجُودُ الْوَحِيدُ، وَلَا شَيْءَ قَبْلَهَا وَلَا بَعْدَهَا وَهَذَا الْوَصْفُ مِنْ أَخْصِ خَصَائِصِ
الْإِلَهِ... وَفِي كِتَابِ تَفْكِيرِ كَارْل مَارْكَسِ نَقْدِ الدِّينِ وَالْفَلَسَفَةِ، تَرْجَمَةُ سَامِي
الدَّرُوبِي وَجَمَالِ الْأَتَّاسِي: أَنَّ فُورْبَاخَ قَالَ: الْإِنْسَانُ هُوَ إِلَهُ الْإِنْسَانِ... وَكَانَ
فُورْبَاخُ مِنْ أَقْطَابِ الْمَادِّيِّينَ، كَمَا فِي كِتَابِ تَفْسِيرِ الْإِشْتِرَاكِيَّةِ لِلتَّأْرِيخِ تَأَلَّفِ
إِنْجِلْزَ، تَرْجَمَةُ الدَّكْتُورِ رَاشِدِ بَرَاوِي.

وَقَالَ سُبْحَانَهُ فِي قُرْآنِهِ الْكَرِيمِ: «أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ

عَلَيْهِ وَكِيلًا»^(١).

وَتُومِيءُ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ إِلَى أَنْ نَزَعَةَ الْإِيمَانَ الَّذِي يَدْفَعُ عَلَى الْعَمَلِ
وَالثَّبَاتِ وَالْإِصْرَارِ هِيَ أَصِيلَةٌ فِي فِطْرَةِ الْإِنْسَانِ^(٢)، وَأَنَّهُ إِذَا تَخَلَّى عَنِ الْإِيمَانِ
بِالْحَقِّ آمَنَ وَتَعَبَّدَ بِهِوَاهُ... وَقَدْ يَتِمَثَّلُ هَذَا الْهَوَى بِالْجَاهِ وَالْمَالِ، أَوْ بِالتَّعَصُّبِ
لِلْأَهْلِ وَالْعَشِيرَةِ، أَوْ لِأَيِّ صَنَمٍ مِنَ الْأَصْنَامِ.

وَبِالْتَّالِي فَتَحْنُ نُؤْمِنُ بِاللَّهِ عَنْ طَرِيقِ الْحِسِّ وَالْعَقْلِ، وَأَيْضًا بِأَنَّهُ تَعَالَى مَا شَرَعَ
حُكْمًا مُنَافِيًا لِلْعِلْمِ، وَلَا لِلطَّبِيعَةِ وَنَوَامِيْسِهَا، وَلَا لِمَصْلَحَةِ أَيِّ إِنْسَانٍ، وَإِنْ نُسِبَ
شَيْءٌ إِلَى دِينِ اللَّهِ يَتَنَافَى مَعَ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ فَهُوَ مِنْ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ، أَوْ دَسَائِسِ
الْمُفْتَرِينَ.

(١) أَلْفُرْقَان: ٤٣.

(٢) إِقْتِبَاسٌ مِنَ الْحَدِيثِ التَّرْوِيِّ: (كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ...)، أَنْظِرْ، صَحِيحُ مُسْلِمٍ: ٤/٢٠٤٧ ح ٢٦٥٧، صَحِيحُ أَبِي حَتَّابٍ: ٧/٣٣٦ ح ١٢٨، سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ: ٤/٤٤٧ ح ٢١٣٨، سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ: ٤/٢٣٠ ح ٤٧١٦، الْمُصَنَّفُ لِعَبْدِ الرَّزَاقِ: ٣/٥٣٣ ح ٦٦١١، الْمُعْجَمُ الْأَوْسَطُ: ٤/٢٢٧ ح ٤٠٥٠.

اللّادِينِيَّة وَالْعِلْمَانِيَّة

هَذَا الْفَصْل مِنْ تَوَابِعِ الْفَصْلِ السَّابِقِ وَذِيُولَهُ ، أَوْ جُزْءٍ مِنْهُ وَمُكْمَلٌ لَهُ ، وَأَفْرَدْتَهُ بِالْبَحْثِ لِأَهَمِّيَّتِهِ ، وَلِأَنَّ الْفَصْلَ السَّابِقَ كَانَ مِنْ وَحْيٍ مَقَالٍ صَغُبٍ وَرَدَ التَّرْكُ عَلَيْهِ .

تَشْكِيلُ الْعُقُولِ :

لِلْإِعْلَامِ فِي الْعَصْرِ الْحَاضِرِ عِلْمٌ مُسْتَقِلٌ ، لَهُ أَصُولُهُ وَقَوَاعِدُهُ وَعُلَمَاءُ بَارِزُونَ وَأَسَاتِذَةٌ فِي عِلْمِ النَّفْسِ وَالْإِجْتِمَاعِ ، أَمَّا أَجْهَزَتُهُ وَوَسَائِلُهُ فَقَدْ بَلَغَتْ الْغَايَةَ وَالنَّهَايَةَ مِنَ الدَّقَّةِ وَالتَّطَوُّرِ حَتَّى أَصْبَحَ الْقَائِمُونَ عَلَيْهَا يُشْكِلُونَ عُقُولَ السُّذْجِ ، وَيَتَّجَهُونَ بِهَا عَنْ طَرِيقِ التَّضْلِيلِ وَالتَّمْوِيَةِ إِلَى حَيْثُ يَشَاوُونَ .

فَبِأَسْمِ السَّلْمِ يَسِيرُونَ بِالْعَالَمِ إِلَى حَاقَةِ الْهََاوِيَةِ ، وَبِأَسْمِ الدَّفْعِ عَنْ الْحُرِّيَّةِ يَقْتُلُونَ الْأَحْرَارَ ، وَيَنْعَتُونَ قَوَى الشَّرِّ وَالْبَغْيِ « بِالْعِلْمِ الْحَرِّ » وَبِأَسْمِ التَّجَدُّدِ وَالتَّطَوُّرِ يُحَارِبُونَ الدِّينَ وَالْقِيَمَ الْإِنْسَانِيَّةَ ، وَمِنْ ذَلِكَ - عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ - تَسْمِيَةُ اللَّادِينِيَّةِ بِالْعِلْمَانِيَّةِ ، وَيَعْنُونَ بِهَا أَنَّ الدِّينَ وَالْعِلْمَ ضِدَّانِ لَا يَجْتَمِعَانِ ، لِأَنَّ الدِّينَ غَيْبٌ كُلُّهُ ^(١) وَفَوْقَ الْحِسِّ وَالْعَقْلِ ، كَمَا يَزْعُمُونَ ، وَالْعِلْمُ يَدْرُسُ الشَّيْءَ

(١) يَنْطَبِقُ هَذَا عَلَى الْمَسِيحِيَّةِ دُونَ الْإِسْلَامِ... وَلَكِنْ بَعْضُ الْمُعْظِمِينَ يَصِرُ فِيْمَا يَخْطُبُ وَيَكْتُبُ بَأَنَّ

الْمَحْسُوس الَّذِي يَخْضَعُ لِلْمُلَاحَظَةِ وَالتَّجَرُّبَةِ .
وَحَزَدَدُ الْمُلْحَدُونَ أَهَمَّ الْقَضَايَا الْعِلْمِيَّةَ الَّتِي تُتَافَرُ الدِّينَ وَتُعَانَدُهُ ، وَهِيَ بَزَعْمِهِمْ
ثَلَاثٌ :

الأولى : أَكْشَفَهَا عِلْمُ الطَّبِيعَةِ .

والثَّانِيَّةُ : عِلْمُ الْأَحْيَاءِ .

وَالثَّالِثَةُ : عِلْمُ النَّفْسِ ، وَالتَّفْصِيلُ فِيمَا يَلِي :

مِنْ عِلْمِ الطَّبِيعَةِ :

قَالُوا : كَانَ الْبَدَائِيُّونَ يُعَلِّلُونَ مَا يَحْدُثُ بِالْكُونِ بِقُوَّةِ تَكْمُنٍ وَرَآءَهُ وَخَارِجَةً
عَنْهُ ، وَمَعَ الْأَيَّامِ أَكْشَفَ عُلَمَاءُ الطَّبِيعَةِ أَنَّ فِي الْكُونِ نَفْسَهُ قَوَانِينَ ثَابِتَةً وَصَارِمَةً
لَا تَتَغَيَّرُ وَلَا تَتَبَدَّلُ ، وَبِهَا وَحْدَهَا تَرْتَبِطُ حَرَكَاتُ الْأَفْلَاكِ وَكُلُّ ظَاهِرَةٍ طَبِيعِيَّةٍ مِنْ
أَكْبَرِ كَبِيرَةٍ إِلَى أَصْغَرِ صَغِيرَةٍ ، وَمِنْ هَذِهِ الْقَوَانِينِ الْجَادِبِيَّةِ ، وَحَرَكَةُ الذَّرَّةِ وَأَغْلَفَتِهَا
الْأَلَكْتُرُونِيَّةُ وَغَيْرَ ذَلِكَ ... وَإِذْنٌ فَلَا شَيْءَ وَرَاءَ الطَّبِيعَةِ يَدْعُو إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ .

الْجَوَابُ :

أَبْدَأْ لَا عِلْمَ وَلَا فِلْسَفَةَ بِلَا عَقْلِ مَادِيَّةٍ كَانَتْ أَوْ مِثَالِيَّةٍ ، وَالْفَرْقُ أَنَّ وَجُودَ
الْحَقَائِقِ سَابِقٌ عَلَى وَجُودِ الْعَقْلِ فِي الْفِلْسَفَةِ الْمَادِيَّةِ عَلَى الْعَكْسِ مِنَ الْفِلْسَفَةِ
الْمِثَالِيَّةِ الَّتِي تَعْتَبَرُ وَجُودَ الْعَقْلِ هُوَ السَّابِقُ . وَأَيْضاً تَعْتَمِدُ الْمِثَالِيَّةُ عَلَى التَّأَمُّلِ

﴿١﴾ الْإِسْلَامُ كُلُّهُ غَيْبٌ فِي غَيْبٍ حَتَّى الْإِجْتِهَادُ ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ مَعَ أَعْدَاءِ الدِّينِ مِنْ حَيْثُ يُرِيدُ أَوْ لَا يُرِيدُ ، وَفِي
كُتَابِي الْإِسْلَامِ بِنَظَرَةٍ عَصْرِيَّةٍ فَضَّلَ الدِّفَاعَ عَنِ الدِّينِ أَتَبَتُ أَنَّ قَضَايَا الْإِسْلَامِ عَلَى أَنْوَاعٍ ، وَلَيْسَتْ
بِكَامِلِهَا غَيْباً . (مِنْهُ ﷺ) .

التجريدي، والمادية على التأمل الناشيء من الممارسة والتجربة الحية... والمهم أنه لا غنى عن العقل إطلاقاً لأية فلسفة كانت وتكون.

وإعتاماداً على العقل ومنطقه نسأل: إذا فسرنا حركات الكون وحوادثه وضروب نشاطاته، إذا فسرنا كل ذلك بالقوانين الموجودة في الكون نفسه - فبأي شيء تفسر هذه القوانين الموجودة في نفس الكون؟ ومن الذي أودعها فيه لتحفظ عليه نظامه ووحده، وتكون سبباً مباشراً لأشياءه وأحداثه؟.

وهل يسوغ في منطق العقل أن نترك كل ذلك للفوضى والصدفة؟ وعلى حد ما قال شوقي أمير الشعراء: «الطبيعة من طبعها؟». وهل من جواب عند العقل السليم إلا القول: أن وراء هذه القوانين الدقيقة الصارمة علة أولية ذات قصد، وغاية، وعلم، وقدرة ينتهي إليها كل شيء، ولا تنتهي هي إلى شيء. بل لا يعقل بحال أن يكون غيرها علة لها وإلا لما وجد شيء على الإطلاق.

ولمجرد التوضيح نضرب مثلاً بالساعة وصانعها... أن نظم آلاتها وربط بعضها ببعض على شكل هندسي معين بحيث تعمل بمجموعها تلقائياً لتدل على الدقيقة والساعة، بل واليوم والشهر تماماً كما أراد الصانع المنظم... وهكذا الكون: كواكبه وأشياؤه كالآلات الساعة، وترتيب كل شيء وكوكب في فلكه ومكانه كنظيم آلات الساعة، وكل من ظواهر الكون وحركة الساعة تستند إلى السبب المباشر الملائق، وينتهي هذا السبب إلى الصانع والمنظم.

من علم الأحياء:

وأيضاً قالوا: ثبت في علم الأحياء أن أصل الإنسان قرد، والدين ينكر هذا

وَيَقُولُ: وَجَدَ الْإِنْسَانَ أَوَّلَ مَا وَجَدَ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ الْآنَ.
وَنُجِيبُ بِإِيجَازٍ شَدِيدٍ: مَا مِنْ أَحَدٍ شَهِدَ خَلْقَ الْإِنْسَانَ الْأَوَّلِ، وَرَأَاهُ كَيْفَ وُلِدَ وَتَكَوَّنَ... وَهَلْ مِنَ الْمُسْتَطَاعِ أَنْ يُثَبَّتَ ذَلِكَ بِالْمُمَارَسَةِ الْحِسِّيَّةِ، أَوِ الْبَرَاهِينِ الرِّيَاضِيَّةِ؟ أَمَّا مُجَرَّدُ التَّشَابُهِ بَيْنَ كَاتِنَيْنِ فِي شَيْءٍ أَوْ أَشْيَاءٍ - فَلَا يَسْتَدْعِي أَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمَا أَصْلًا لِلْآخَرِ... وَقَالَ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْجَدِّدِ: أَنَّ أَصْلَ الْإِنْسَانَ غَامُضٌ وَمَجْهُولٌ، وَأَنَّ الْقَوْلَ بِتَطَوُّرِهِ مِنَ الْأَحْيَاءِ السُّفْلَى مُجَرَّدُ حَدْسٍ وَتَخْمِينٍ».

وَأَخْرَ مَا قَرَأْتُ حَوْلَ هَذِهِ النَّظَرِيَّةِ مَا نَشَرْتُهُ مَجَلَّةَ «الْإِيكونوميست» الْبَرِيطَانِيَّةِ: «أَنَّ الْمَجْلِسَ التَّعْلِيمِي الْحُكُومِي بِوَلَايَةِ كَالِيفُورْنِيَا الْأَمْرِيكِيَّةِ قَرَّرَ أَنْ تَشِيرَ جَمِيعُ الْكُتُبِ الْمَدْرَسِيَّةِ لِلْعُلُومِ إِلَى أَنَّ نَظَرِيَّةَ دَارُونِ هِيَ افْتِرَاضِيَّةٌ، وَلَيْسَتْ حَقِيقِيَّةً»^(١). وَتَكَلَّمْتُ عَنْ هَذَا الْمَوْضُوعِ مُفَصَّلًا فِي كِتَابِ الْإِسْلَامِ بِنَظَرَةٍ عَصْرِيَّةٍ فَضَّلَ الْإِنْسَانَ وَالْقِرْدَ.

مِنْ عِلْمِ النَّفْسِ:

وَقَالُوا الَّذِينَ لَا يَتَّفَقُ مَعَ التَّحْلِيلِ النَّفْسِيِّ فِي نَظَرِيَّةِ فِرْوَيْدِ الَّذِي أَدَّى دَوْرًا إِجْبَاطِيًّا فِي تَطَوُّرِ عِلْمِ النَّفْسِ... وَتَلَخَّصَ هَذِهِ النَّظَرِيَّةُ بِأَنَّ نَفْسَ الْإِنْسَانِ فِي طَبِيعَتِهَا وَمَلَامَحَتِهَا - لَا تُحَدَّدُ بِعَقْلِ أَوْ دِينٍ، وَإِنَّمَا تُحَدَّدُ بِغَرَائِزِهِ وَمَيُولِهِ اللَّاشَعُورِيَّةِ، وَبِخَاصَّةِ الْجِنْسِ الَّذِي يَكَادُ يَبْتَلَعُ كُلَّ شَيْءٍ، وَلَا سَبِيلَ عَلَى

(١) انظر، مَجَلَّةُ «الْإِيكونوميست» الْبَرِيطَانِيَّةِ فِي عَدَدِ (١٠ / آذار / سَنَةِ ١٩٧٣ م) وَتَقَلَّتْ عَنْهَا جَرِيدَةُ الْأَخْبَارِ النَّصْرِيَّةِ تَارِيخَ (٢٣ آذار) مِنْ السَّنَةِ نَفْسَهَا. (مِنْهُ ﷺ).

الإِطْلَاقَ لِإِصْلَاحٍ وَتَغْيِيرٍ هَذِهِ النَّفْسِيَّةُ أَوْ الشَّخْصِيَّةُ، لِأَنَّ اللَّادُعِيَّ وَاللَّاشْعُورَ طَبِيعَةٌ ثَابِتَةٌ لَهَا، وَلَيْسَ وَصْفًا عَارِضًا عَلَيْهَا... وَمِنْ هُنَا لَمْ يَفَرِّقْ فَرْوِيدُ بَيْنَ مَا يَفْعَلُهُ الْإِنْسَانُ فِي نَوْمِهِ وَيَقْظَتِهِ... أَبَدًا كِلَاهُمَا بِمَنْزِلَةِ سَوَاءٍ.

أَجَلُ مَا زَالَ الْحَدِيثُ عَنْ نَظَرِيَّةِ فَرْوِيدَ - قَدْ تَضَطَّعَدَ رَغَبَاتُ الْفَرْدِ وَغَرَائِزُهُ اللَّادُعَاةِ، وَبِالْأَخْصِ الْجِنْسِ، بَلْ كَثِيرًا مَا تَضَطَّعَدَ مَعَ الْبَيْتَةِ وَالزَّامَاتِهَا، فَيَضْطَرُّ الْإِنْسَانُ مُرْغَمًا - فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ - إِلَى كِبْتِ غَرَائِزِهِ، وَتَصْلُحَ نَفْسُهُ مُسْتَوْدَعًا لِلْمَكْبُوتَاتِ وَالْمَحْرُومَاتِ إِلَى أَنْ تَجِدَ مَخْرَجًا وَمُنْطَلَقًا... وَبِكَلِمَةٍ إِنَّ أَفْعَالَ الْإِنْسَانِ عِنْدَ فَرْوِيدَ تَخْضَعُ لِمَبْدَأِ الضَّرُورَةِ وَالْحَتَمِيَّةِ وَلَا أَثَرَ فِيهَا لِلْعَقْلِ وَالْحَرِيَّةِ تَمَامًا كَظَوَاهِرِ الطَّبِيعَةِ الْخَاصَّةِ لِقَوَائِنِ الْكَوْنِ الثَّابِتَةِ الصَّارِمَةِ، وَإِذْنُ لَا مَكَانَ إِطْلَاقًا لِلدِّينِ وَالْقِيمِ فِي السَّلُوكِ الْبَشَرِيِّ. هَذَا تَلْخِيصٌ شَدِيدٌ لِنَظَرِيَّةِ فَرْوِيدَ.

الْجَوَابُ:

١ - أَنَّ غَرَائِزَ الْإِنْسَانِ وَمَلَكَتَهُ لَا تَنْحَصِرُ بِاللَّاشْعُورِ، بَلْ فِيهِ قُوَى أُخْرَى تَرَى وَتُمَيِّزُ، وَتَخْتَارُ وَتُدَبِّرُ وَإِلَّا كَانَ الْإِنْسَانُ كَرَبِشَةٍ فِي مَهَبِ الرِّيحِ غَيْرِ مَسْئُولٍ عَنْ شَيْءٍ، وَلَا يَسْتَقِيمُ حِسَابُهُ عَنْ فِعْلٍ أَوْ تَرَكَ.

٢ - أَنَّ فَرْوِيدَ يَتَجَاهَلُ أَبْسَطَ الْحَقَائِقِ وَأَوْضَحَهَا حِينَ يَقُولُ: «لَا سَبِيلَ إِلَى تَغْيِيرِ الْبُنْيَةِ النَّفْسِيَّةِ، لِأَنَّهَا ذَاتُ طَبِيعَةٍ ثَابِتَةٍ»! وَإِذْنُ لِمَاذَا الْمُرَبِّيُّ وَالتَّرْبِيَّةُ؟... أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ فِينَا وَحَوْلَنَا يَتَغَيَّرُ، وَالْجُمُودُ وَالثَّبَاتُ مِنْ طَبِيعَةِ الْأَمْوَاتِ... وَهُنَا نَحْنُ بَنِي آدَمَ نُرْمِمْ أَنْفُسَنَا وَحَيَاتَنَا وَنَتَحَكَّمُ فِيهَا وَفِي الطَّبِيعَةِ، وَنَعْمَلُ جَاهِدِينَ لِنَصِلَ إِلَى أَعْدَدِ مَدَى مِنَ الرُّقِيِّ وَالتَّقَدُّمِ فِي كُلِّ مِيدَانٍ.

تَغْيِيرُ الْبُنْيَةِ النَّفْسِيَّةِ، لِأَنَّهَا ذَاتُ طَبِيعَةٍ ثَابِتَةٍ! وَإِذْنُ لِمَاذَا الْمُرَبِّيُّ وَالتَّرْبِيَّةُ؟...

أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ فِينَا وَحَوْلَنَا يَتَغَيَّرُ، وَالْجُمُودُ وَالثَّبَاتُ مِنْ طَبِيعَةِ الْأَمْوَاتِ... وَهُنَا نَحْنُ بَنِي آدَمَ نُرَمِّمُ أَنْفُسَنَا وَحَيَاتَنَا وَنَتَحَكَّمُ فِيهَا فِي الطَّبِيعَةِ، وَنَعْمَلُ جَاهِدِينَ لِنَصِلَ إِلَى أَبْعَدِ مَدَى مِنَ الرُّقِيِّ وَالتَّقَدُّمِ فِي كُلِّ مِيدَانٍ.

٣- قَرَأْتُ مَقَالاً مُطَوَّلًا وَمُتَحَمًّا بِالْعِلْمِ لِلدُّكْتُورِ فُوَادِ زَكْرِيَّا، جَاءَ فِيهِ: «أَوْجَدَ الْعِلْمُ الْحَدِيثَ أَنْفَصَالاً قَاطِعاً بَيْنَ عَالَمِ الطَّبِيعَةِ وَعَالَمِ الْإِنْسَانِ، وَقَضَى عَلَى التَّدَاخُلِ بَيْنَ الْمَجَالَيْنِ... لِأَنَّ التَّعَارُضَ أَضْبَحَ وَاضِحاً وَقَاطِعاً بَيْنَ الشُّعُورِ الْإِنْسَانِيِّ بِالْحُرِّيَّةِ، وَبَيْنَ الضَّرُورَةِ الْكُونِيَّةِ»^(١).

٤- أَلْفَ «جَاسْتَرُو» الْبُولَنْدِيِّ كِتَاباً فِي جُزْأَيْنِ رَدَّ فِيهِ عَلَى فَرْوَيْدٍ، وَأَسْمَى الْكِتَابَ الْأَخْلَامَ وَالْجِنْسَ، وَتَرَجَمَهُ فَوْزِي الشَّتَوِي، وَمِمَّا جَاءَ فِيهِ: «أَنَّ الْعُلَمَاءَ دَرَسُوا بَضْعَةَ آلَافٍ مِنَ الْأَخْلَامِ لِبُضْعِ مِثَالٍ مِنَ النَّاسِ، فَوَجَدُوا أَلَّا أَقْلَ مِنْ (٥٠) بِالْمِئَةِ مِنْهَا لَا يُمَكِّنُ تَفْسِيرَهَا بِنَظَرِيَّةِ فَرْوَيْدٍ، وَأَنَّ هَذِهِ النَّظَرِيَّةَ تَتْرَكَ كَثِيراً مِنَ الْأَسْئَلَةِ بِلَا أَجْوَبَةٍ.

وَبَعْدَ فَإِنَّ الدَّعْوَةَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَالْإِيمَانَ بِهِ يَتَعَمَّدُ عَلَى الْحُجَّةِ الْقَاطِعَةِ الْمَائِلَةِ فِي الْكَوْنِ وَعَجَائِبِهِ، وَلَا شَيْءَ فِي حَقَائِقِ الْعِلْمِ، أَيْ عِلْمِ، يُنَافِرُ هَذِهِ الْحُجَّةَ الْإِلَهِيَّةَ وَيُعَانِدُهَا، بَلْ قَالَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْإِخْتِصَاصِ: كُلَّمَا تَقَدَّمَ الْعِلْمُ تَزَدَادَ الدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ قُوَّةً وَوُضُوحاً حَتَّى أَصْبَحَ الْعِلْمُ الْحَدِيثُ مَصْدَرًا جَدِيداً مِنْ مَصَادِرِ الْإِيمَانِ بِهِ وَوُجُوبِهِ... وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ الْعِلْمَ يُنَاقِضُ الدِّينَ وَيُنَازِلُهُ فَهُوَ غَافِلٌ أَوْ مُضَلَّلٌ يُلْبِسُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ عَنْ عِلْمٍ وَقَصْدٍ.

(١) أنظر، مجلة عالم الفكر الكويتية، الدُّكْتُورُ فُوَادِ زَكْرِيَّا: م ١ / المَدَد ٤. (مِنْهُ ﷺ).

الشَّبَابُ وَالدُّعَاةُ إِلَى دِينِ اللَّهِ:

لِلشَّبَابِ ثَوَرَاتٌ وَأَنْتَفَاضَاتٌ مُبَارَكَةٌ تَتَّبِعُ مِنْ ضَمِيرٍ حَيٍّ لَا مِنْ إِنْفَعَالٍ عَابِرٍ، وَمِنْ الشُّعُورِ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ لَا مِنْ مَصَالِحِ ضَيْعَةٍ... وَمَا أَكْثَرَ الشَّوَاهِدَ عَلَى هَذِهِ الْحَقِيقَةِ، فَمُنْذُ أَمَدٍ قَرِيبٍ انْفَجَرَتْ ثَوْرَةُ الشَّبَابِ فِي أَمْرِيكََا، وَارْتَفَعَتْ مُوجَتُهَا إِلَى أُوْرُوْبَا، وَهَدَفَهَا الْأَوَّلُ النَّظَامُ الْقَائِمُ عَلَى حُكْمِ الْمُؤَسَّسَاتِ الْعَسْكَرِيَّةِ، وَأَرْبَاحِ الشَّرَكَاتِ الْإِخْتِكَارِيَّةِ... وَحَاوَلَتْ أَجْهَزَةُ التَّضْلِيلِ وَالِدَّعَايَةِ الرَّائِفَةِ أَنْ تُفَسِّرَ هَذِهِ النُّقْمَةَ وَالثَّوْرَةَ بِأَنَّهَا ضِدُّ الْأَشْخَاصِ الْقَائِمِينَ عَلَى النَّظَامِ، وَلَيْسَتْ ضِدَّ النَّظَامِ، كَيْفَ وَهُوَ يُوفِّرُ لِلشَّبَابِ الْمَطْلَبَ الْمَادِّيَّ الَّتِي تَحْسَدُهُمْ عَلَيْهَا الشُّعُوبُ النَّامِيَّةُ وَالْإِشْتِرَاكِيَّةُ؟.

وَلَكِنْ الشَّائِرِينَ فَتَدُوا هَذَا الزَّعْمَ، وَأَعْلَنُوا عَلَى الْمَلَأِ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَهْدِفُونَ الْأَشْخَاصَ، بَلْ أَسْلُوبَ الْحَيَاةِ، وَتَحْطِيمَ النَّظَامِ الرَّاهِنِ، وَالتَّحَالَفَ الشَّرِيرَ بَيْنَ الدَّوْلَةِ وَالصَّنَاعَةِ الْعَسْكَرِيَّةِ لِيَحِلَّ مَكَانَهُ الْعَدْلُ وَالْأَمْنُ لِجَمِيعِ الشُّعُوبِ الْمُسَالِمَةِ... وَكَتَبَ الدُّكْتُورُ فُوَادُ زَكَرِيَّا كَلِمَةً حَوْلَ ثَوْرَةِ الشَّبَابِ، جَاءَ فِيهَا:

«أَنَّ الشَّبَابَ الْأَمْرِيكِي فِي أَيَّامِنَا هَذِهِ لَا يَهْدَفُ إِلَى أَقْلٍ مِنْ إِنْقَاذِ الْعَالَمِ بِأَكْمَلِهِ»^(١).

وَمَا مِنْ أَحَدٍ يَعْمَلُ لِتَحْقِيقِ هَذَا الْهَدَفِ إِلَّا وَيَلْتَقِي مَعَ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ كَأَنَّهُمَا مَنْ كَانَ، قَالَ سُبْحَانَهُ مُحَدِّدًا هَذِهِ الرِّسَالَةَ الْكَرِيمَةَ: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً

(١) انظر، كَلِمَةً حَوْلَ ثَوْرَةِ الشَّبَابِ. الدُّكْتُورُ فُوَادُ زَكَرِيَّا، نَشَرَتْهَا مَجَلَّةُ الْفِكْرِ الْمُعَاوِرِ فِي عَدَدِ كَانُونِ الْأَوَّلِ سَنَةِ (١٩٦٩م). (مِنْهُ بَيِّنَةٌ).

لِلْعَالَمِينَ»^(١).

وَأَيْضًا يَلْتَقِي مَعَ رِسَالَةِ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ ﷺ الَّذِي قَالَ: «لَمْ آتِ لِأَدِينِ الْعَالَمَ بَلْ لِأُخَلِّصَ الْعَالَمَ»^(٢). وَحُمَاةُ الدِّينِ مِنْ مُسْلِمِينَ وَمَسِيحِيِّينَ أَعْلَمَ النَّاسَ بِهِذِهِ الْحَقِيقَةَ وَمَعَ هَذَا يَتَجَاهَلُونَ ثَوْرَةَ الشَّبَابِ عَلَى قَوَى الْبَغْيِ وَالشَّرِّ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤَاوِزُ هَذِهِ الْقَوَى الطَّاعِيَةَ الْبَاغِيَةَ، وَيُدَافِعُ عَنْ مَفَاهِيمِهَا وَأَهْدَافِهَا، وَيَعْدُقُ عَلَى الشَّبَابِ الثَّائِرِ ضِدَّهَا أَقْذَرُ الْأَوْصَافِ وَأَقْبَحُهَا... وَمِنْ هُنَا أَتَسَعَّتِ الْهُوَّةُ بَيْنَ الشَّبَابِ وَشُيُوخِ الدِّينِ، وَزَجَمَ كُلُّ فَرِيقٍ صَاحِبَهُ بِالتَّهْمِ وَالظَّنُونِ.

وَلَوْ وَقَفْنَا نَحْنُ أَهْلُ الدِّينِ مَعَ الشَّبَابِ فِي كُلِّ عَمَلٍ وَنَضَالٍ يَهْدَفُ إِلَى الْخَيْرِ، وَبَارَكَنَاهُ بِاسْمِ الدِّينِ وَشَرِيعَتِهِ، لَوْ فَعَلْنَا ذَلِكَ لَوَثَّقُوا بِنَا وَأَسْتَجَابُوا طَاعَةَ اللَّهِ، وَأَقْبَلُوا عَلَيْهَا مُهْتَدِينَ... هَذِي هِيَ الْوَسِيلَةُ، أَوْ خَيْرُ الْوَسَائِلِ فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ لَجَذَبِ الشَّبَابِ إِلَى الدِّينِ، وَأَكْثَرَ نَفْعًا مِنْ أَلْفِ كِتَابٍ وَخُطَابٍ فِي الْوَعظِ وَالْإِعْلَانِ عَنْ عَظَمَةِ الدِّينِ وَمَنَافِعِهِ، وَالتَّصَدِّي لِأَعْدَائِهِ بِشَرْحِ الْبَيِّنَاتِ، وَدَفْعِ الشُّبُهَاتِ.. وَلَكِنْ - يَا اللَّهُ وَلَدَيْنَ اللَّهِ - مِنْ فِتْنَةٍ تَقِفُ مِنَ الشَّبَابِ مَوْقِفًا يُنْفَرُ وَلَا يُبْشِرُ، وَيُبْعَدُ وَلَا يُقَرَّبُ... ثُمَّ تَدْعُو بِالْوَيْلِ وَالشُّبُورِ، وَتُنَادِي وَادِينَاهُ... كَفَرَ الْجِيلُ الْجَدِيدُ، وَتَحُولُ إِلَى الزُّنْدَقَةِ وَالْهَرَقَةِ، وَهِيَ أَوَّلُ الْمَسْئُولِينَ عَنْ هَذَا الْخَطَرِ وَالْخَطْلِ.

وَرُبَّمَا قَالَ قَائِلٌ: كَيْفَ يُسَانِدُ حُمَاةُ الدِّينِ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ؟
وَنُجِيبُ:

(١) الْأَنْبِيَاءُ: ١٠٧.

(٢) أَنْظُرْ، إِنْجِيلَ يُوحَنَّا الْإِصْحَاحَ ١٢ قَرَّةً ٤٨. (مِنْهُ ﷺ).

أَوَّلًا: أَنَّ الْغَرَضَ مِنْ هَذِهِ الْمُؤَاوَزَةِ وَالْمُسَانَدَةِ أَنْ نَحْتَوِيَ الشَّبَابَ، وَنَضْمَهُمْ إِلَى رَحَابِ الدِّينِ قَبْلَ أَنْ تَتَجَاذِبَهُمْ تَيَّارَاتُ الْكُفْرِ وَالْإِلْحَادِ.

ثَانِيًا: أَنَّ مَفْهُومَ الشَّرِّ وَالرَّذِيلَةِ لَا يُنَاطُ الْإِلْحَادَ وَحْدَهُ وَإِلَّا كَانَ الْكَذِبُ مِمَّنْ آمَنَ بِاللَّهِ خَيْرًا وَفَضِيلَةً، وَالصَّدَقُ مِمَّنْ كَفَرَ بِهِ شَرًّا وَرَّذِيلَةً!... أَنَّ الْأَعْمَالَ تُقَاسُ بِمَا فِي طَبِيعَتِهَا مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ أَوْ رَّذِيلَةٍ. أَنَّ الْأَعْمَالَ تُقَاسُ بِمَا فِي طَبِيعَتِهَا مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ وَمَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهَا مِنْ فُسَادٍ أَوْ صَلَاحٍ، وَعَلَيْنَا أَنْ نَعْتَرِفَ بِالْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ وَنُبَارِكَهُ، وَنَشْجِبَ الشَّرَّ وَالْفُسَادَ وَنُنْكِرَهُ أَيَّا كَانَ فَاعِلُهُ... وَلَيْسَ مِنَ الْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ أَنْ نُدِينِ الشَّبَابَ وَغَيْرَ الشَّبَابِ إِذَا أَسَاؤُوا وَتَتَجَاهَلَهُمْ إِذَا أَحْسَنُوا.

المادة والحياة

بين الحي والجامد:

في الطبيعة أجسام مادية بحت، أي جامدة لا حياة فيها، وهي على أنواع كالصخر، والتراب، والمعادن... وأيضاً في الطبيعة أجسام حية ومتنوعة كالنبات والحيوان، والإنسان، ويفترق الجسم الحي عن الجامد من وجوه عديدة نُشير إلى طرف منها فيما يلي:

١- أن الجامد لا يتحرك - كما يبدو للعيان - إلا بدافع من الخارج حتى الطائفة بلا طيار تسير بموجه من الأرض، أما الجسم الحي نباتاً كان أم إنساناً فإنه يتحرك بدافع من داخله ومؤهلاته، ويتجه تلقائياً إلى هدف مفروض عليه، وهو القيام بوظيفته، وإتمام طبيعته.

٢- أن جسم الحي يفتقر إلى التغذية وإلا فارقته الحياة.

٣- أن الحي ينمو ويفوز ويموت، وإذا أشترك النبات مع الحيوان بالتغذية والنمو فإن الحيوان يفتقر عن النبات بالسمع، والبصر، والذوق، والشم والألم، وفوق ذلك يملك الحيوان غريزة الجنس، ويتقي الأخطار، وكل هذه الصفحات موجودة في الإنسان، ويريد عليه بحب الإطلاع، والسعي إلى حياة أفضل عن طريق العقل الذي يستدل ويستنبط، ويحفظ ويدبر، ويعمل ويبرز.

مراحل الإنسان :

مَرَّ الْإِنْسَانُ بِالْعَدِيدِ مِنَ الْمَرَاحِلِ ، وَتَدْرَجُ مِنَ الْأَدْنَى إِلَى الْأَعْلَى ، مِنْ شَرِيفٍ إِلَى أَشْرَفٍ فَأَشْرَفَ حَتَّى بَلَغَ الْقِمَّةَ الَّتِي عَبَّرَ عَنْهَا سُبْحَانَهُ بِالْأَشَدِّ ، تَدْرَجُ الْإِنْسَانُ مِنْ لَا شَيْءٍ إِلَى الْوُجُودِ التُّرَابِيِّ أَيْ الْجَمَادِ ، وَمِنْهُ إِلَى الْوُجُودِ الْمَائِيِّ أَيْ النُّطْفَةِ ، ثُمَّ إِلَى أَوَّلِ مَرَاتِبِ الْحَيَاةِ أَيْ النَّمُو بِلَا سَمْعٍ وَبَصَرٍ ، ثُمَّ إِلَى الْوُجُودِ الْحَيَوَانِيِّ ، ثُمَّ الْوُجُودِ الْإِنْسَانِيِّ .. وَتُؤْمِي هَذِهِ الْمَرَاحِلُ إِلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ يَسِيرُ بِطَرَفٍ وَهُوَ أَدَاةٌ فِي تَكْوِينِهِ وَقُوَّتِهِ وَصِحَّتِهِ وَعِلْمِهِ وَإِدْرَاكِهِ ، بَلْ وَفِي رَصِيدِهِ وَشَهْرَتِهِ تَمَامًا كَالصَّرْحِ يَقُومُ عَلَى أَسَاسٍ ، وَيَبْنِي لُبَّةً فَلُبَّةً حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ وَكَمَّلَ تَعَذَّرَ هَدْمُهُ وَالتَّيْلُ مِنْهُ ، وَأَنَّ أَيْ شَيْءٍ يَأْتِي دُفْعَةً وَفُجَاءَةً فَهُوَ عَلَى غَيْرِ الْأُصُولِ وَالْقَوَاعِدِ لَا يَلْبَثُ حَتَّى يَزُولَ كَالْتَّهْرِيجِ وَالْإِعْلَانِ الْكَاذِبِ .

وَقَدْ جَمَعَ سُبْحَانَهُ كُلَّ الْمَرَاحِلِ الَّتِي مَرَّ بِهَا الْإِنْسَانُ فِي الْآيَةِ (٦٧) مِنْ غَاوِرٍ قَالَ ، عَظُمَتْ كَلِمَتُهُ :

١ - ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ مِنْ عَالَمِ الْجَمَادِ .

٢ - ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ عَالَمِ الْمَاءِ .

٣ - ﴿ثُمَّ مِنْ عِلْقَةٍ﴾ تَحَوَّلَتْ إِلَى مُضْغَةٍ ، وَمِنْهَا إِلَى اللَّحْمِ وَالْعَظْمِ ، وَفِي هَذَا التَّحَوُّلِ نَوْعٌ مِنَ النَّمُو يَشْبَهُ نَمُو النَّبَاتِ .

٤ - ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ يَسْمَعُ ، وَيُبْصِرُ ، وَيَشْمُ ، وَيَتَذَوَّقُ ، وَيَتَأَلَّمُ ، وَلَكِنَّهُ لَا يَقْعَلُ تَمَامًا كَالْحَيَوَانِ .

٥ - ﴿ثُمَّ لِيَتَّبِعُوا أَشْدُّكُمْ﴾ فَتَعَقَّلُوا وَتَدَبَّرُوا ، وَكُلُّ مَرَحَلَةٍ لَاحِقَةٌ مِنْ هَذِهِ الْمَرَاحِلِ هِيَ أَعْلَى وَأَشْرَفُ مِنَ السَّابِقَةِ ، فَالْنَّبَاتُ يَمْتَازُ عَنِ التُّرَابِ بِالنَّمُو

وَالْحَرَكَةُ، وَيَمْتَازُ الْحَيَوَانُ عَنِ النَّبَاتِ بِالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ، وَالْإِنْسَانُ عَنِ الْحَيَوَانِ بِالْعَقْلِ وَالْإِذْرَاكَ الْمَشَارِ إِلَيْهِ فِي الْآيَةِ بِالْأَشَدِّ، وَهُوَ قِمَّةُ الْقِمَمِ.

ولهيب الحياة:

دَعَا سُبْحَانَهُ إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ، وَدَلَّ عَلَى طُرُقِ الْهُدَى إِلَى هَذَا الْإِيمَانِ، وَمِنْهَا أَنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هُوَ الَّذِي وَهَبَ الْحَيَاةَ، قَالَ جَلَّ وَعَزَّ: «وَأَيُّهُ لُهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ»^(١) وَقَالَ: «أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ»^(٢).

وَوَجْهَ الْإِسْتِدْلَالِ بِإِخْتِصَارٍ وَإِيجَازٍ - أَنَّ الْأَمْرَ هُنَا لَا يَخْلُو مِنْ أَحَدٍ فَرَضَيْنِ: إِمَّا أَنْ تَكُونَ الْحَيَاةُ مِنْ خَوَاصِ الْمَادَّةِ، وَمَظْهَرًا مِنْ مَظَاهِرِهَا الذَّاتِيَّةِ، وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ مِنْ صُنْعِ قَادِرٍ مُرِيدٍ أَوْدَعَهَا فِي الْمَادَّةِ... وَعَلَى الْأَوَّلِ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ الْمَادَّةُ حَيَّةً بِشَتَّى أَنْوَاعِهَا مِنْ غَيْرِ تَفْرِيقَةٍ بَيْنَ مَادَّةٍ وَمَادَّةٍ أَيْنَمَا كَانَتْ وَتَكُونَ، وَهَذَا خِلَافَ الْوَاقِعِ الْمَلْمُوسِ، وَإِذَنْ يَتَعَيَّنُ الْفَرَضُ الثَّانِي، وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ هُوَ خَالِقُ الْحَيَاةِ وَمَالِكُهَا.

المادَّيون والحياة:

مُنْذُ الْقَدِيمِ وَالْعُلَمَاءُ يَدْرُسُونَ، وَمَا زَالُوا يَبْحَثُونَ عَنْ سِرِّ الْحَيَاةِ وَمَصْدَرِهَا

(١) يُس: ٣٣.

(٢) يُوس: ٣١.

« وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَصْلُوا بَعْدَ إِلَى حَلِّ لِهَذَا السِّرِّ ، وَرُبَّمَا لَمْ يَصْلُوا إِلَيْهِ إِلَى الْأَبَدِ » عَلَى حَدِّ مَا قَالَ الدُّكْتُورُ عَلَمُ الدِّينِ كَمَالُ الْأُسْتَاذِ بِكَلِيَّةِ الْعُلُومِ جَامِعَةِ الْقَاهِرَةِ - فِي مَقَالَ بِعُنْوَانِ تَطَوُّرِ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ ، وَفِي كِتَابِ فَجْرِ الْحَيَاةِ : « مِنْ الْمُوَكَّدِ أَنَّ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ تُبْدِي مِنَ الظَّوَاهِرِ مَا لَا يُمَكِّنُ تَفْسِيرَهُ طَبَقًا لَخَوَاصِّ الْمَوَادِّ الطَّبِيعِيَّةِ » ^(١) .

وَفِي كِتَابِ مَوَاقِفِ حَاسِمَةِ فِي تَارِيخِ الْعِلْمِ ، قَالَ الْمُؤَلَّفُ بِعُنْوَانِ أَصْلِ الْأَحْيَاءِ وَنَشَأَتِهَا : « أَنَّ الْأَرَاءَ الَّتِي تَحَاوَلُ تَفْسِيرَ أَصْلِ الْحَيَاةِ كَثِيرَةٌ ، وَلَكِنْ كُلُّ عَشْرَةٍ مِنْهَا بِقِرْشٍ » أَيْ لَا تُسَاوِي شَيْئًا ... وَأَيْضًا قَالَ عَنْ هَذِهِ الْأَرَاءِ : « لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَسْمِيَهَا بِأَكْثَرِ مِنْ خَوَاطِرَ وَعَلَيْنَا أَنْ نَتْرَكَ الْحَدِيثَ عَنْ أَصْلِ الْحَيَاةِ » ^(٢) .

وَهَذَا الْعَجْزُ عَنْ إِدْرَاكِ أَصْلِ الْحَيَاةِ هُوَ الَّذِي يُوكِّدُ إِيمَانَنَا بِأَنَّهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ الَّذِي قَالَ : « وَمَا أَوْتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » ^(٣) .

وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ قَالَ الْمَادِّيُّونَ أَوْ بَعْضُهُمْ : أَنَّ الْحَيَاةَ تَنْشَأُ وَتَتَوَلَّدُ تَلَقَّائِيًّا مِنَ الْمَوَادِّ الْجَامِدةِ ، إِمَّا لِعَفَوْنَتِهَا كَتَوَلَّدَ الْحَشَرَاتُ مِنَ الْقَذَارَةِ ، وَإِمَّا لِتَرْكِيبِ أَجْزَاءِ الْجِسْمِ الْحَيِّ عَلَى شَكْلِ خَاصٍّ كَالْأَجْهَزةِ الْعِلْمِيَّةِ ، وَبِخَاصَّةِ الْآلَةِ الْحَاسِبَةِ .

الْجَوَابُ :

(١) أنظر ، عَلَمُ الدِّينِ كَمَالُ الْأُسْتَاذِ بِكَلِيَّةِ الْعُلُومِ جَامِعَةِ الْقَاهِرَةِ - فِي مَقَالَ بِعُنْوَانِ تَطَوُّرِ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ النُّشُورِ فِي مَجَلَّةِ عَالَمِ الْفَدَا الْكُوَيْتِيَّةِ ج ٣ ع ٤ ، وَفِي كِتَابِ فَجْرِ الْحَيَاةِ لْجُوزِيْفِ هَارْوِلْد ، تَرْجَمَةُ الدُّكْتُورِ عَبْدِ الْحَلِيمِ مُنْتَصَرٍ وَزَيْفِيَّةِ . (مِنْهُ ﷺ) .

(٢) أنظر ، مَوَاقِفِ حَاسِمَةِ فِي تَارِيخِ الْعِلْمِ لِلْعَالِمِ الْأَمْرِكِيِّ الْمُعَاوَرِ رَئِيسِ جَامِعَةِ هَارْفَارْدِ الدُّكْتُورِ « جَمِيسْ كُونَانْتِ » تَرْجَمَةُ الدُّكْتُورِ أَحْمَدَ زَكِي . (مِنْهُ ﷺ) .

(٣) الْإِسْرَاءُ : ٨٥ .

١- أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ مُجَرَّدُ إِحْتِمَالٍ وَخَوَاطِيرُ بِلَا دَلِيلٍ، كَمَا سَبَقَتْ الْإِشَارَةُ وَفِي كِتَابِ الطَّبِيعَةِ وَمَا بَعْدَ الطَّبِيعَةِ لِيُوسُفَ كَرَمَ: (أُثْبِتَ «بَاسْتُور» بِالتَّجَرِبَةِ الْفَاطِمَةِ أَنَّ دُودَةَ الْعَفُونَةِ، وَحَشَرَةَ الْقَذَارَةِ تَتَوَلَّدُ مِنْ جَرَائِمٍ حَيَّةٍ لَا يَنَالُهَا الْبَصَرُ الْمُجَرَّدُ، وَأَنَّ كُلَّ حَيٍّ فَهُوَ مِنْ حَيٍّ)... وَفِي كِتَابِ اللَّهِ يَتَجَلَّى فِي عَضْرِ الْعِلْمِ... أَنَّ («رُسل تشارلز» قَالَ: «جَمِيعُ الْجُهُودِ الَّتِي بُذِلَتْ لِلْحُصُولِ عَلَى الْمَادَّةِ الْحَيَّةِ مِنْ غَيْرِ الْحَيِّ قَدْ بَاءَتْ بِخُذْلَانٍ، وَفَشَلٍ ذَرِيعِينَ»). وَهَذَا يُؤَكِّدُ الْقَوْلَ: أَنَّ الْمَادَّةَ لَا طَاقَةَ لَهَا بِتَوَلِيدِ الْقُوَّةِ الْحَيَوِيَّةِ، وَلَكِنَّهَا إِذَا بَلَغَتْ مَبْلَغًا مَعْلُومًا مِنَ الْإِسْتِعْدَادِ صَلَحَتْ لِحُلُولِ الْحَيَاةِ فِيهَا، وَتَهَيَّأتْ لخدمَتِهَا مِثْلَ الْجِهَازِ الَّذِي يَصْلُحُ بِالتَّرْكِيبِ لِقَبُولِ الْكَهْرَبَاءِ، أَوْ لَتَلْقَى الصَّوْتِ وَالصُّورَةَ.

٢- لَيْسَتْ الْحَيَاةُ مَظْهَرًا لِأَزْمَاءِ طَبِيعَةِ الْمَادَّةِ، وَلَا هِيَ نَتِيجَةُ حَتَمِيَّةٍ لِتَرْكِيبِ الْأَجْزَاءِ عَلَى شَكْلِ خَاصٍّ... وَإِلَّا وَجَبَ أَنْ لَا يَمُوتَ الْحَيُّ نَبَاتًا كَانَ أَمْ حَيَوَانًا مَا دَامَ هَذَا التَّرْكِيبُ قَائِمًا، لِأَنَّ عِلَّةَ الْوُقُوعِ هِيَ بِالذَّاتِ عِلَّةُ الْبَقَاءِ وَالْإِسْتِمْرَارِ مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّ الْحَيَاةَ تُفَارِقُ جِسْمَ الْحَيِّ دُونَ أَيِّ نَقْصٍ أَوْ خَلَلٍ فِي شَيْءٍ مِنْ أَعْضَائِهِ وَتَرْكِيبِهَا... وَقَدْ يَحْدُثُ الْخَلَلُ فِي التَّرْكِيبِ وَالتَّرْتِيبِ، أَوْ النِّقْصِ وَالسَّلَلِ فِي الْأَعْضَاءِ وَلَا تَزُولُ الْحَيَاةُ عَلَى الْعَكْسِ تَمَامًا مِنَ الْجِهَازِ الْعِلْمِيِّ الَّذِي يَتَأَثَّرُ وَيَحْدُثُ فِيهِ التَّخْرِيبُ لِأَدْنَى عَارِضٍ يَطْرَأُ عَلَيْهِ.

بَلْ شَاهِدُنَا وَشَاهِدُ كَثِيرُونَ كَيْفَ يَنْبُضُ بَعْضُ الْأَعْضَاءِ بَعْدَ فَصْلِهِ وَأَنْتَزَاعِهِ مِنَ الْجِسْمِ الْحَيِّ... وَفَوْقَ ذَلِكَ لَا نَعْرِفُ جِهَازًا عِلْمِيًّا وَاحِدًا كَمَا الْإِنْسَانُ يَحْسُ الْمُسْمُوعَاتِ، وَالْمَرْتَبَاتِ، وَالْمُلُوسَاتِ، وَالرَّوَاتِحِ، وَالْمَذَاقَاتِ، وَيُعَيَّرُ بَيْنَهَا فِي آيٍ وَاحِدٍ... وَالْإِذْنُ فَقِيَّاسُ الْإِنْسَانِ عَلَى الْجِهَازِ الْآلِيِّ قِيَّاسٌ مَعَ الْفَارَقِ،

وَلِلتَّوَضُّيْحِ نُشِيرُ إِلَى مَا قَالَهُ الْفِيلَسُوفُ الشَّهِيرُ «رَاسِل» حَوْلَ هَذَا الْمَوْضُوعِ
وَيَتَلَخَّصُ بِأَنَّ الْفَارِقَ الْجَوْهَرِيَّ بَيْنَ الْأَجْسَامِ الْحَيَّةِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْأَجْهَرَةِ الْعِلْمِيَّةِ
هُوَ أَنَّ الْأَجْسَامَ الْحَيَّةَ تُقَلِّدُ الْغَيْرَ، وَتَفْهَمُ بِالْإِشَارَةِ تِلْقَائِيًّا دُونَ الْآلَةِ الصَّنَاعِيَّةِ...
وَضَرَبَ مَثَلًا عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: نَضَعُ الْقُرْشَ فِي الْجِهَازِ الْآلِيِّ فَيَخْرُجُ لَنَا قِطْعَةٌ
حَلَوَى، وَلَكِنَّهُ لَا يَفْعَلُ شَيْئًا بِرُؤْيَةِ الْقُرْشِ، أَوْ بِسَمَاعِ كَلِمَةِ قُرْشٍ^(١).

٣- إِذَا سَلَمْنَا - جَدَلًا - أَنَّ التَّرْكِيْبَ أَوْ الْعَفْوِيَّةَ عِلَّةُ الْحَيَاةِ فَمَنْ الَّذِي رَكَّبَ
وَهَنْدَسَ؟ وَهَلِ الْعُقُوْنَةُ وَحْدَهَا سَبَبٌ لَتَوْلِدِ الْحَيَاةِ، أَوْ حَدَثَ ذَلِكَ لِمُجَرَّدِ
الصَّدَقَةِ؟

٤- أَنَّ الْقَوْلَ بِآلِيَةِ الْحَيَاةِ وَأَنَّهَا مِنْ ثَمَرَاتِ الطَّبِيعَةِ - يَسْتَلْزِمُ الْقَوْلَ بِأَنَّ الْعَقْلَ
أَيْضًا مِنْ ثَمَرَاتِ الطَّبِيعَةِ، وَأَنَّهُ آلِي لَشُعُورِي: يَخْتَرَعُ، وَيَكْتُبُ، وَيُوَلِّفُ وَيَسْتَدِلُّ
وَيَسْتَنْبِطُ وَيَسْتَنْبَأُ بِالْمُسْتَقْبَلِ، كُلُّ ذَلِكَ وَمَا إِلَيْهِ يَصْدُرُ عَنِ الْعَقْلِ قَهْرًا وَتِلْقَائِيًّا...
حَتَّى هَذَا الْقَوْلُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ صَادِرًا عَنْ قَائِلِهِ بِغَيْرِ وَعِي وَشُعُور!... وَهَلِ مِنْ
شَيْءٍ أَتَقَهُ مِنْ هَذَا وَأَسْخَفُ؟

وَالْخُلَاصَةُ:

وَبَعْدَ، فَإِنَّ مَمْلَكَةَ الْحَيَاةِ وَاسِعَةٌ وَمَتْنُوعَةٌ... وَمِنْهَا الْأَعْشَابُ، وَالْأَشْجَارُ،
وَالطُّيُورُ، وَالْأَسْمَاكُ، وَالْحَشَرَاتُ، وَالْجَرَائِمُ، وَالْحَيَوَانَ، وَالْإِنْسَانُ، وَمِنْهَا مَا لَا
نَعْرِفُ كُنْهَهُ وَأَسْمَهُ، وَلِكُلِّ نَوْعٍ مِنْ هَذِهِ الْعَوَالِمِ أَصْنَافٌ^(٢) وَلِكُلِّ صِنْفٍ أَفْرَادُهُ،

(١) انظر، الفلسفة بنظرة علمية ترجمة زكي نجيب محمود.

(٢) انظر، مجلة عالم الفكر الكويتية: ١٦/٣ العدد ٤: أحصى ما يقارب من مليون نوع من الحيوانات،
وحوالي ربع مليون نوع من النباتات... وفي كتاب الطيور «روبرت لسن» ترجمة مصطفى بدزأن:

وَلِكُلِّ فَرْدٍ مَلَامَحَةٌ وَبَصَائِثُهُ، وَخَصَائِصُهُ، وَسَمَاتُهُ الَّتِي لَا يُشَابِهُ بِهَا أَحَدًا سِوَاهُ
فَهَلِ السَّبَبُ الْأَوَّلُ وَالْأَخِيرُ لِهَذَا التَّنَوُّعِ هُوَ الْمَادَّةُ الْجَامِدَةُ، أَوِ الصَّدْفَةُ؟ وَهَلِ
مَاهِيَّةُ مِنْ حَطَمِ الذَّرَّةِ، وَقَفَزَ مِنَ الْأَرْضِ إِلَى الْقَمَرِ عَيْنُ مَاهِيَّةِ الصَّخْرِ وَالْحَجَرِ؟
وَإِذَنْ لَا فَرْقَ - عَلَى هَذَا - بَيْنَ الْأَسَدِ وَالنَّمْلَةِ إِلَّا فِي الْحَجْمِ وَالشَّكْلِ!.

أَنَّ الْحَيَاةَ لَيْسَتْ بِجِسْمٍ وَلَا مِنْ جِسْمٍ، وَإِنَّمَا هِيَ رُوحٌ يَسْكُبُهَا الْخَالِقُ الْمُبْدِعُ
فِي الْجِسْمِ الْجَامِدِ الْمَيِّتِ فَيَتَقَلَّبُ خَلْقًا جَدِيدًا يُبْهِرُ الْعُيُونَ، وَيُذْهِلُ الْعُقُولَ تَمَامًا
كَمَا بَدَأَ سُبْحَانَهُ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ طِينٍ، وَلَمَّا نَفَعَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ أَصْبَحَ الطِّينُ
إِنْسَانًا سَوِيًّا... وَكَذَلِكَ يَسْكُبُ الْعَبْقَرِيُّ عَلَى اللَّفْظِ الْجَامِدِ مِنْ أَدْبِهِ، وَفَنَّهُ فَيَتَقَلَّبُ
حَيًّا يَسْحَرُ وَيَبْهَرُ.. وَالْخُلَاصَةُ أَنَّ جَوْهَرَ الْحَيَاةِ شَيْءٌ، وَجَوْهَرَ الْمَادَّةِ شَيْءٌ آخَرُ،
وَلَكِنَّمَا يَتَفَاعَلَانِ، وَيُؤَثِّرُ كُلُّ بَصَاحِبِهِ.

أَيْنَ الَّذِي يَخْلُقُ مِنْ لَاشَيْءٍ:

فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ أَرَادَتْ جَرِيدَةُ «النَّهَارِ» الْبَسِيرُ وَتَبَتِ أَنْ تَمْلَأَ صَفَحَاتِ
الْمُلْحَقِ الَّذِي تَصُدْرُهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الْآحَادِ فَرَعَبَتْ إِلَى جَمَاعَةٍ - وَأَنَا مِنْهُمْ -
أَنْ يُجِيبُوا عَنْ هَذَا السُّؤَالِ: «إِذَا تَوَصَّلَ الْعِلْمُ يَوْمًا إِلَى خَلْقِ خَلْقَةٍ فَمَاذَا يَكُونُ
مَصِيرُ اللَّهِ؟».

وَلَعَلَّ وَاضِعَ السُّؤَالِ أَرَادَ مَصِيرَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ، وَمَهْمَا يَكُنْ فَقَدْ تَطَوَّعَ لِلْإِجَابَةِ
كَثِيرُونَ: مِنْهُمْ الْمُتَعَلِّمُ الْأَصِيلُ، وَمِنْهُمْ الْمُتَطَفِّلُ الدَّخِيلُ... وَمَا وَجَدَتْ مِنْ نَفْسِي

❦ فِي الطُّيُورِ ثَمَانِيَّةُ آلَافٍ أَوْ تِسْعَةُ آلَافٍ صِنْفٍ مُتَمَايِزٍ غَلَاوَةٌ عَلَى عَدَدِ كَثِيرٍ مِنْ أَنْوَاعِ قَرِيبَةِ الشَّيْبِ بِهَا.
(مِنْهُ ۞).

آنذاك آية رغبة في المشاركة، والآن، وأنا أشرح نهج البلاغة، مررت بالإشارة إلى هذا الموضوع، فكتبتُ حوله ما يلي:

تقدّم العلم خطوات تدعونا إلى الإيمان به، إيماناً نَعْجَزُ عَنْ وصفه وتحديدِه؟ لأنَّ ما من أحدٍ في وسعِه - بالغا ما بلغ من العلم - أن يضع مُعَادَلَاتٍ يَتَبَّأُ بِسَبِيلِهَا عَنْ كُلِّ مَا يَتَوَصَّلُ إِلَيْهِ الْعِلْمُ مِنْ مُكْتَشَفَاتٍ وَمُخْتَرَعَاتٍ، كيف؟ وكُلَّمَا بَلَغَ الْعِلْمُ أَفْقًا بَدَتْ لَهُ أَفَاقٌ لَا حَدَّ لَهَا وَلَا نَهَايَةَ... أَنَّهُ يَرَى الْمَجْهُولَ مَا فِي ذَلِكَ رَيْبٍ، وَلَكِنَّهُ عَلَى الدَّوَامِ يَرَى أَيْضًا مِنْ خِلَالِ اكْتِشَافَاتِهِ أَنَّ مَا غَابَ عَنْهُ أَكْثَرُ بِكَثِيرٍ مِمَّا ظَهَرَ لَهُ... وَإِذْنٌ فَمِنْ الْجَائِزِ أَنْ يَكْتَشِفَ الْعُلَمَاءُ سِرَّ الْحَيَاةِ، بَلْ مِنَ الْجَائِزِ أَنْ يَخْتَرِعُوا فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ إِنْسَانًا فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، وَلَكِنْ هَذَا لَا يُؤَثِّرُ إِطْلَاقًا فِي إِيْمَانِنَا بِاللَّهِ حَتَّى وَلَوْ كَانَ الْإِنْسَانُ الْمُخْتَرَع - بِفَتْحِ الرَّاءِ كَارَسُطُو فِي فِلْسَفَاتِهِ، وَإِنْشِئَتَيْنِ فِي نَظَرِيَّاتِهِ، وَشَكْسِيرٍ فِي شِعْرِهِ وَمَسْرَحِيَّاتِهِ... ذَلِكَ لِأَنَّ الْعُلَمَاءَ لَا يَخْتَرِعُونَ شَيْئًا - وَلَوْ كَانَ تَافَهُأً - إِلَّا بِمَعُونَةِ الْأَسْبَابِ التَّالِيَةِ:

١ - أَنْ يَكُونَ لَهُمْ عُقُولٌ يُخَطِّطُونَ بِهَا، وَيُجْهِدُونَهَا فِي الرُّؤْيَةِ وَالتَّفْكِيرِ، لِأَنَّ الْعَقْلَ أَصْلَ، وَالْعِلْمَ فَرْعٌ وَثَمَرَةٌ مِنْ ثَمَرَاتِهِ.

٢ - أَنْ تَنْهَيَّاً لِلْعُلَمَاءِ الْمَادَّةُ الَّتِي يُحَوِّلُونَهَا إِلَى الْإِنْسَانِ، سَوَاءَ أَكَانَتْ جَمَادًا أَمْ نَبَاتًا أَمْ نُطْفَةً حَيَوَانٍ، إِذْ يَسْتَحِيلُ عَلَى الْعِلْمِ وَالْعُلَمَاءِ إِيجَادُ شَيْءٍ مِنْ لَا شَيْءٍ وَلَيْسَ مِنْ شَكٍّ أَنَّ الْمَادَّةَ الَّتِي يُكَيِّفُونَهَا وَيُحَوِّلُونَهَا إِلَى آخِرِ لَيْسَ مِنْ صَنَعِهِمْ.

٣ - أَنْ تَتَوَافَرَ لَدَيْهِمُ الْمُخْتَبِرَاتُ وَالْأَدَوَاتُ الْفَنِيَّةُ، لِأَنَّهَا الْوَسِيلَةُ لِإِيجَادِ أَيْ شَيْءٍ فَضْلًا عَنْ إِيجَادِ إِنْسَانٍ بِعَقْلِهِ وَطَاقَاتِهِ.

هَذِهِ الْأَسْبَابُ أَوْ الشَّرُوطُ الثَّلَاثَةُ لَا بُدَّ مِنْهَا، وَلَا غَنَى عَنْهَا لِكُلِّ مَنْ حَاوَلَ

وَيُحَاوَلُ غَزْوَ الطَّبِيعَةِ وَتَسْخِيرَهَا لِحَاجَتِهِ مِنْ حَاجَاتِهِ وَغَايَةِ مِنْ غَايَاتِهِ.

وَاللهُ الَّذِي نُؤْمِنُ بِهِ، وَنَعْبُدُهُ غَنِيٌّ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَكَامِلٌ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ وَلَوْ إِحْتِاجَ إِلَى شَيْءٍ لِإِسْتِحَالِ أَنْ يَسْتَقِلَّ بِإِحْدَاتِ شَيْءٍ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يَسْتَعِينَ بغيرِهِ، وَمَعْنَى هَذَا أَنَّهُ نَاقِصٌ وَمَحْدُودٌ، وَمُفْتَقِرٌ إِلَى شَيْءٍ خَارِجٍ عَنْ ذَاتِهِ يَتِمُّ بِهِ وَيَكْمُلُ، وَمِنْ الْبَدَاهَةِ أَنَّ الْفَقِيرَ النَّاقِصَ وَالْمَحْدُودَ يَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ إِلَهًا... أَنَّ ذَاتَ الْإِلَهِ الْحَقُّ الَّذِي نُؤْمِنُ بِهِ - تَمْنَحُ الْوُجُودَ لِغَيْرِهَا بِطَبِيعَتِهَا، وَبِمَا هِيَ بِلَا وَاسِطَةٍ شَيْءٍ عَلَى الْإِطْلَاقِ... أَنَّهُا تُرِيدُ فَيُوجَدُ الْمُرَادُ بِالْفِعْلِ، كَمَا شَاءَتْ وَأَرَادَتْ.

أَنَّ الْإِلَهِ الَّذِي نُؤْمِنُ بِهِ يَقُولُ لِلشَّيْءِ: «كُنْ فَيَكُونُ»^(١). بِلَا جَوْلَةٍ فِكْرٍ، وَلَا هِنْدَسَةٍ وَتَخْلِيطٍ، وَعِلَاجِ آلَاتٍ، وَأَذْرُعِ وَحَرَكَاتٍ، وَإِذَنْ فَإِيْمَانُ الْعَارِفِينَ بِاللَّهِ لَا يُرْزَعُهُ شَيْءٌ، إِلَّا إِذَا اسْتَطَاعَ الْعُلَمَاءُ أَنْ يَوْجِدُوا شَيْئًا أَيْ شَيْءٍ مِنْ لَا شَيْءٍ، وَبِمُجَرَّدِ أَنْ يُرِيدُوا إِيجَادَهُ بِلَا رُؤْيَةٍ وَتَفَكِيرٍ، وَآلَاتٍ وَمُخْتَبِرٍ، وَأَعْيُنٍ وَأَذْرُعٍ وَمَتَى تَمَّ لَهُمْ ذَلِكَ «فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ»^(٢).

وَبِكَلَامٍ آخَرَ يَجِبُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ أَنْ نَنْظُرَ إِلَى نَفْسِ الْإِلَهِ الَّذِي آمَنَ بِهِ مَنْ آمَنَ نَنْظُرَ إِلَى حَقِيقَتِهِ وَهَوِيَّتِهِ: فَإِنْ كَانَ مِنْ جِنْسِ طَبِيعَةِ الْمَادَّةِ الْمُنْفَعِلَةِ الَّتِي لَا تَسْتَقِلُّ بِإِيجَادِ شَيْءٍ، أَوْ كَانَ عِبَارَةً عَنْ فِكْرَةٍ مُجَرَّدَةٍ، وَنَظَرِيَّةٍ ذَهْنِيَّةٍ كَالشَّرَفِ وَالْكَرَامَةِ - مَثَلًا - إِنْ كَانَ مِنْ هَذَا النُّوعِ، أَوْ ذَاكَ يَكُونُ مَصِيرُ الْإِيْمَانِ بِهِ إِلَى فَنَاءٍ وَزَوَالٍ لَا مُحَالَةَ سِوَاءِ اكْتَشَفَ الْعُلَمَاءُ سِرَّ الْحَيَاةِ، أَمْ عَجَزُوا عَنْ اكْتِشَافِهِ، أَمَّا إِذَا كَانَ الْإِلَهِ الْمَعْبُودُ هُوَ قُوَّةٌ فَعَالَةٌ لَهَا جَمِيعُ صِفَاتِ الْكَمَالِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ وَتَوَثَّرَ وَلَا تَتَأَثَّرُ، وَإِلَيْهَا

(١) نِسْ: ٨٣.

(٢) أَلْزُخْرُف: ٨١.

يَفْتَقِرُ كُلُّ شَيْءٍ وَلَا تَفْتَقِرُ هِيَ إِلَى شَيْءٍ وَلَيْسَ كَمِثْلِهَا شَيْءٌ ، وَهِيَ الْمَبْدَأُ الْأَوَّلُ
 لِلخَلْقِ وَالتَّدْبِيرِ ، أَمَّا الْإِيمَانُ بِهَذَا الْإِلَهِ فَهُوَ أَرْسَخٌ مِنَ الرَّاسِيَّاتِ حَتَّى وَلَوْ أَكْتَشَفَ
 الْعِلْمُ سِرَّ الْحَيَاةِ ، وَاخْتَرَعَ أَلْفُ إِنْسَانٍ وَإِنْسَانٌ : «إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ
 يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمْ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ
 الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ » ^(١) .

حَوْلَ الْإِسْلَامِ

طريق الخفرقة إلى الإسلام:

قَالَ لِي شَابٌ مُتَعَلِّمٌ وَمُسْلِمٌ بِالْأَتُونِ: أَحْسَنُ مِنْ نَفْسِي أَنَّهَا تَعُوجُ فِي الشُّكِّ وَالْحَيْرَةِ مِنْ كُلِّ الْأَدْيَانِ، وَأَوْدَلُو أَقْتَنَعَ بِالْإِسْلَامِ لِأَنَّهُ دِينُ آبَائِي وَأَجْدَادِي... فَهَلْ لَكَ أَنْ تَرشِدَنِي إِلَى مَا يَطْمَنُّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ، وَيَرْضَى بِهِ الْعَقْلُ الَّذِي يَشْهَدُ شَهَادَةَ عِلْمٍ وَإِيقَانٍ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾^(١).

قُلْتُ لَهُ: الْأَمْرُ سَهْلٌ يَسِيرٌ إِذَا كُنْتَ جَادًّا فِي قَصْدِكَ وَعَزْمِكَ، وَلَمْ تَكُنْ أُمْنِيَّتِكَ هَذِهِ مُجَرَّدَ بَارِقَةٍ مَرَّتْ بِخَاطِرِكَ وَخَيَالِكَ... أَنَّ الْإِسْلَامَ لَا يُرِيدُ مِنْ أَحَدٍ أَنْ يُؤْمِنَ بِهِ عَنْ جَبْرِ وَإِكْرَاهٍ، وَلَا عَنْ جَهْلِ وَتَقْلِيدٍ، بَلْ عَنْ مَعْرِفَةٍ وَقَنَاعَةٍ، وَتَعَقُّلٍ وَزَوِيَّةٍ، وَحَذَرٍ مِنَ الْإِنْسِيَاقِ وَرَاءَ الظَّنِّ، وَأَنْكَرَ أَشَدَّ الْإِنْكَارِ عَلَى مَنْ يُؤْمِنُ أَوْ يَقُولُ أَوْ يَفْعَلُ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ، كَمَا فِي الْآيَةِ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾^(٢). وَالْمُرَادُ بِالْعِلْمِ هُنَا الْحِسُّ وَالْعَيَانُ، وَبِالْهُدَى الْعَقْلُ وَالْبُرْهَانُ، وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ الْوَحْيُ الثَّابِتُ تَقْلًا وَعَقْلًا... وَالْعَقْلُ

(١) آلِ عِمْرَانَ: ٨٥.

(٢) الْحَجَّ: ٨.

هَبَّةَ اللَّهِ لِعِبَادَةِ لِيَتَنَفَّعُوا بِهِ فِي كُلِّ شَأْنٍ مِنْ شُؤْنِهِمْ، وَحُجَّتُهُ عَلَى مَنْ تَصَرَّفَ بِالْهَوَىِّ وَأَنَحَرَافَ عَنِ الْهُدَى، وَالْعِلْمُ ثَمَرَةُ الْعَقْلِ، وَإِدْرَاكُ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ عَمَلُهُ وَمِهْنَتُهُ.

وَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: «رُبَّ حَسَنٍ عِنْدَ زَيْدٍ هُوَ قُبْحٌ عِنْدَ بَكْرٍ»؟.

قُلْنَا فِي جَوَابِهِ: أَنَّ جَوْهَرَ الْعَقْلِ وَاحِدٌ فِي كُلِّ إِنْسَانٍ شَرْقِيًّا كَانَ أَمْ غَرْبِيًّا، وَمَدْلُوهُ وَاحِدٌ حَسَنًا كَانَ أَمْ قَبِيحًا، وَالْفَرْقُ إِنَّمَا هُوَ فِي أَسْلُوبِ التَّفَكُّيرِ تَبَعًا لِلْبِيئَةِ وَالتَّرْبِيَةِ وَأَيًّا كَانَ نَوْعُ الْإِخْتِلَافِ فَإِنَّ الْعُقَلَاءَ بِكَامِلِهِمْ مُتَنَفِّقُونَ قَوْلًا وَاحِدًا عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْحَقَائِقِ، وَيَطْلُقُونَ عَلَيْهَا أَسْمَ الْأَوَّلِيَّاتِ الْمُسَلَّمَاتِ الْبَدِيعِيَّاتِ كَالْبَرَاهِينِ الرِّيَاضِيَّةِ، وَمَا هُوَ بِمَنْزِلَتِهَا فِي الْوُضُوحِ وَالْبَدِيعَةِ، وَمِنْهَا هَذِهِ الْحَقِيقَةُ: كُلُّ مَنْ شَكَّ فِي شَيْءٍ فَلَا يَسُوعُ لَهُ الْحُكْمُ عَلَيْهِ بِسَلْبٍ أَوْ إِيْجَابٍ إِلَّا بَعْدَ الْبَحْثِ الْمُؤَدِّي إِلَى مَعْرِفَتِهِ حَقًّا وَبَقِيْنًا.

عَقِيدَةُ الْإِسْلَامِ وَاضِحَةٌ:

وَعَقِيدَةُ الْإِسْلَامِ وَاضِحَةٌ بِأُصُولِهَا وَأَهْدَافِهَا^(١)، وَشَرِيعَتُهُ بَيِّنَةٌ بِفَرَائِضِهَا وَسُنَنِهَا، أَبْدًا لَا أَلْغَازَ وَتَعْمِيمَاتٍ غَامِضَةٍ فِي شَيْءٍ مِنْ تَعَالِيمِهِ وَمَبَآئِئِهِ.. أَمَّا الَّذِي جَاءَ بِهِ فَهُوَ بَشَرٌ مِثْلُنَا: «يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ»^(٢)، وَتَأْرِخُ حَيَاتِهِ مَعْرُوفٌ لِكُلِّ جِيلٍ، وَسِيرَتُهُ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهَا مُنْتَشِرَةٌ فِي شَرْقِ الْأَرْضِ وَغَرْبِهَا، وَبَيْنَ يَدَي كُلِّ طَالِبٍ وَرَاغِبٍ.

(١) أَشْرْتُ إِلَى هَذِهِ الْأَهْدَافِ فِي كِتَابِ «الْإِسْلَامُ بِنَظَرَةِ عَصْرَتِهِ». (مِنْهُ ﷺ).

(٢) الْفَرَقَانُ: ٧.

وَمَنْ أَحَبَّ وَأَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ: هَلِ الْإِسْلَامُ دِينُ الْحَقِّ؟ وَهَلْ مُحَمَّدٌ جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؟ - فَعَلَيْهِ قَبْلُ كُلِّ شَيْءٍ أَنْ يَتَجَرَّدَ عَنْ آيَةٍ فِكْرَةٍ سَابِقَةٍ، ثُمَّ يَذْرُسَ دَرَأَسَةَ مَوْضُوعِيَّةَ حَيَاةِ مُحَمَّدٍ ﷺ مُنْذُ نَشَأَتِهِ إِلَى أَنْ أُلْحِقَ بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَى، أَنْ يَذْرُسَ أُسْلُوبَهُ فِي الْحَيَاةِ، وَمَنْهَجَهُ فِي التَّفَكُّيرِ، وَتَصَرُّفَاتِهِ قَبْلَ الْبُعْثَةِ كَأَنسَانٍ أُمِّيٍّ عَاشَ فِي بَيْئَةِ الشُّرْكِ وَالْجَاهَلِيَّةِ، وَيَذْرُسُ تَصَرُّفَاتِهِ بَعْدَ الْبُعْثَةِ كَمُنْقِذٍ لِلْبَشَرِيَّةِ جَمْعَاءَ مِنَ الْعِمَايَةِ وَالضَّلَالَةِ، وَالْجُمُودِ وَالتَّخَلُّفِ وَأَيْضاً يَذْرُسُ رِسَالَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ كُكُلَ أَصُولاً وَفُرُوعاً، وَمَدَى تَأْثِيرِهَا فِي حَيَاةِ الْأَفْرَادِ وَالْجَمَاعَاتِ... وَلَيْسَ مِنْ شَكِّ أَنَّهُ سَيَنْتَهِي - بَوْحِي مِنْ دَرَأَسَةِ هَذِهِ - إِلَى الْإِيمَانِ بِالْإِسْلَامِ وَنَبِيِّ الْإِسْلَامِ.

وَمِنْ الْبُرْهَانِ عَلَى ذَلِكَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا وَآمَنُوا بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ قَدِيماً وَحَدِيثاً عَنْ هَذِهِ السَّبِيلِ بِالذَّاتِ، وَفِيهِمْ مَشَاهِيرُ الْعُلَمَاءِ وَكِبَارُ الْفَلَسَفَةِ وَالْأَدَبَاءِ، وَكَتَبُوا وَنَشَرُوا عَلَى الْمَلَأِ: كَيْفَ آمَنُوا بِمُحَمَّدٍ، وَأَقْنَعُوا بِأَنَّ رِسَالَاتِهِ مِنْ وَحْيِ السَّمَاءِ، وَتُرْجِمَتْ أَقْوَالُهُمْ إِلَى الْعَدِيدِ مِنَ اللُّغَاتِ، مِنْهَا اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ، وَوَضَعَ بَعْضُ الْبَاحِثِينَ الْعَرَبِ كُتُباً خَاصَّةً فِي إِسْلَامِ الْعَدِيدِ مِنْهُمْ مَعَ أَقْوَالِهِمْ فِي النَّبِيِّ وَالْقُرْآنِ. وَمِنْ تِلْكَ الْكُتُبُ كِتَابُ لِمَاذَا أَخْتَرْنَا الدِّينَ الْإِسْلَامِيَّ لِلرَّضَاوِيِّ، وَكِتَابُ مُحَمَّدٍ وَالْقُرْآنُ لِكَاظِمِ آلِ نُوحٍ... وَفِي كِتَابِ التَّكَاْمُلِ لِأَحْمَدَ أَمِينِ الْعِرَاقِيِّ، وَكِتَابُ مَا يُقَالُ عَنِ الْإِسْلَامِ لِلْعَقَّادِ - عَدَدٌ لَا يُسْتَهَانَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءِ وَالْفَلَسَفَةِ.

وَإِذَا كَانَ الْمَجَالُ هُنَا لَا يَتَسَعُّ لِلْحَدِيثِ الْوَافِي بِرِسَالَةِ الرَّسُولِ وَسِيرَتِهِ الْعِطْرَةِ - فَلَا أَقْلَ مِنْ إِشَارَةِ خَاطِفَةٍ إِلَى شَخْصِيَّتِهِ، وَمَرَاحِلِ دَعْوَتِهِ، وَعُمُومِهَا لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ... عَسَى أَنْ تَضِيءَ هَذِهِ الْإِشَارَةُ إِلَى بَدَايَةِ الطَّرِيقِ أَمَامَ مَنْ أَحَبَّ سُلُوكَهُ.

شَخْصِيَّتُهُ:

أَنَّ شَخْصِيَّةَ الْفَرْدِ لَا تُفَرِّضُ عَلَيْهِ مِنَ الْخَارِجِ... أَنَّهَا نَفْسُهُ وَحَقِيقَتُهُ، فَإِذَا قِيلَ: لَا شَخْصِيَّةَ لِفُلَانٍ فَهَمْنَا مِنْ هَذَا الْقَوْلِ أَنَّهُ لَيْسَ بِشَيْءٍ يُذَكَّرُ، وَالْعَكْسُ بِالْعَكْسِ أَيْ إِذَا قِيلَ: لَهُ شَخْصِيَّةٌ كَانَ الْمَعْنَى أَنَّ لَهُ ضَرْبًا مِنَ الْوُجُودِ، وَأَنَّهُ أَخَذَ مِنَ الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ شَيْئًا مِنْ صِفَاتِهَا وَخَصَائِصِهَا.

وَقَدْ أَخَذَ مُحَمَّدٌ ﷺ مِنَ الْإِنْسَانِيَّةِ أَنْبَلُ مَا فِيهَا، وَأَقْصَى مَا يُمكن أَنْ يَتَصَوَّرَهُ الْعَقْلُ مِنَ عَظَمَةِ الْإِنْسَانِ وَكَمَالِهِ، وَقَدْ أَوْجَزَ سُبْحَانَهُ صِفَاتَ نَجْوَاهُ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ الْجَامِعَةِ الرَّائِعَةِ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(١).

وَمِنْ هَذَا الْخُلُقِ النَّبِيلِ الْعَظِيمِ الصَّدَقِ وَالْأَمَانَةِ، وَالشَّجَاعَةِ، وَالْإِثَارَ، وَالْإِعْتِدَالَ فِي كُلِّ الْأُمُورِ، فَالصَّادِقُ الْأَمِينُ لِقَبِهِ بَيْنَ قَوْمِهِ وَعَارِفِيهِ^(٢).

أَمَّا إِشَارَتُهُ فَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى الْمَحَاوِجِ كُلِّ مَا يَمْلِكُ، وَلَا يُبْقِي مِنْهُ لِنَفْسِهِ وَأَهْلِهِ إِلَّا دُونَ الْكَفَافِ مِنْ قُوْتٍ مَن لَا يَمُوتُ، قَالَ أَبُو ذَرٍّ:

« خَرَجْتُ مَرَّةً مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، نَحُو جَبَلٍ أَحَدٍ، فَقَالَ لِي: أَتَبْصُرُ أَحَدًا؟ قُلْتُ: نَعَمْ، يَا رَسُولَ اللَّهِ.

قَالَ: « مَا أَحَبُّ أَنْ يَكُونَ لِي مِثْلُ أَحَدٍ ذَهَبًا أَنْفَقَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَمُوتَ وَأَثْرَكَ مِنْهُ قَيْرَاطَيْنِ »^(٣).

(١) أَلْفَلَمَ: ٤.

(٢) أَنْظَرُ، مُشْنَدُ الشَّهَابِ: ٧٥/١ ح ٦٨، أَمْثَالُ الْحَدِيثِ: ١/١٥٣ ح ١١٧، شُعْبُ الْإِيمَانِ: ١٧٥/٥ ح ٦٢٦٠، الْفِرْدَوْسُ بِمَثَوْرِ الْخَطَّابِ: ٢/٥٥ ح ٢٣١٣، السِّيَرَةُ النَّبَوِيَّةُ لِابْنِ هِشَامٍ: ٣/١٨٢، كِتَابُ سُبُلِ الْهُدَى وَالرَّشَادِ: ١/٤٧٨، تَارِيخُ الْيَقُوتِيِّ: ٢/٨، تَارِيخُ الطَّبَرِيِّ: ١/٥٨١.

(٣) حَقًّا مَا تَرَكَ دِينَارًا، وَلَا دِرْهَمًا، وَلَا عَبْدًا، وَلَا وَلِيدَةً، بَلْ تَرَكَ دِرْعَهُ مَرْهُونَةً عِنْدَ يَهُودِيٍّ عَلَى ثَلَاثِينَ

وَمِنَ الْبُرْهَانِ عَلَى شَجَاعَةِ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ ﷺ قَوْلُ الْإِمَامِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ: «لَقَدْ رَأَيْنَا يَوْمَ بَدْرٍ وَنَحْنُ نَلُودُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ أَقْرَبُنَا إِلَى الْعَدُوِّ، وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ بَأْسًا»^(١).

وَقَالَ ﷺ: «كُنَّا إِذَا أَحْمَرَّ النَّاسُ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَّا أَقْرَبَ إِلَى الْعَدُوِّ مِنْهُ»^(٢)، وَكَانَ فَحْلٌ مِنَ الْأِبِلِ قَدْ جَمَعَ وَتَوَحَّشَ وَأَصْبَحَ مِنَ الْكَوَاسِرِ الضَّارِيَةِ حَتَّى فَرَّ الشَّجْعَانُ مِنْ أَمَامِهِ، فَأَقْتَحَمَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ وَجَذَبَهُ بِقُوَّةٍ فَأَخْضَعَهُ وَكَبَحَ جِمَاحَهُ، وَلَمْ تَكُنْ قُرَيْشٌ قَدْ تَعَوَّدَتْ الْإِقْدَامَ عَلَى مِثْلِ هَذَا الْخَطَرِ مِنْ أَجْلِ الْآخَرِينَ، وَلَا عَرَفَتْ أَحَدًا بِمِثْلِ هَذَا الْإِسْتِيسَالِ^(٣).

أَمَّا الْقَصْدُ وَالْإِعْتِدَالُ فَيُؤَيِّدُ إِلَيْهِ قَوْلُهُ: «خَيْرُ الْأُمُورِ أَوْسَطُهَا - أَوْسَطُهَا»^(٤) وَقَالَ الرَّسُولُ الْأَعْظَمُ ﷺ: «لَيْسَ خَيْرُكُمْ مَنْ تَرَكَ الْحَيَاةَ، وَطَبِيعَتَهَا لِغَيْرِهِ»^(٥).

➤ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ. أَنْظَرُ، مَجْمَعُ الزَّوَائِدَ: ١٢٠/٣، كَنْزُ الْعُمَالِ: ٣٥٦/٦ ح ١٦٠٢٨، مُسْنَدُ أَحْمَدَ: ٣٠٠/١، السُّنَنِ الْكُبْرَى: ٧/٤، تَرْكَهُ النَّبِيُّ ﷺ لِحِمَادِ بْنِ زَيْدِ الْبَغْدَادِيِّ، ٧٦، الْبِدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ: ٣٠٥/٥.

(١) أَنْظَرُ، مُسْنَدُ أَحْمَدَ: ٨٦/١، مَجْمَعُ الزَّوَائِدَ: ١٢/٩، الْمُصَنَّفُ لِلْكُوفِيِّ: ٥٧٨/٧، نُظُمُ دُرِّ السُّمَطَيْنِ: ٦٢، كَنْزُ الْعُمَالِ: ٣٩٧/١٠ ح ٢٩٩٤٣، تَأْرِيخُ دِمَشْقَ: ١٤/٤، الْبِدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ: ٣٤٠/٣، الشُّفَا بِتَحْرِيفِ حَقُوقِ الْمُصْطَفَى: ١١٦/١، السِّيَرَةُ النَّبَوِيَّةُ لِابْنِ كَثِيرٍ: ٤٢٥/٢، سُبُلُ الْهُدَى وَالرَّشَادِ: ٤٦/٤.

(٢) أَنْظَرُ، نَهْجُ الْبَلَاغَةِ الْحِكْمَةِ: ٢٦٠.

(٣) أَنْظَرُ، سُبُلُ الْهُدَى وَالرَّشَادِ: ١٣٩/٢.

(٤) أَنْظَرُ كَثْرَ الْمَنَاوِي فِي هَامِشِ جَامِعِ الصَّغِيرِ: ١٢٤/١ ح ١٢٤، بَحَارُ الْأَنْوَارِ: ١١/٧٥ ح ٧٠.

فَتْحُ الْبَارِي: ٢٣٤/١١، شَرْحُ نَهْجِ الْبَلَاغَةِ مُحَمَّدَ عَبْدَهُ: ١٠٠/٢، شَرْحُ نَهْجِ الْبَلَاغَةِ لِابْنِ أَبِي الْحَدِيدِ: ١١٧/١٦، تَفْسِيرُ الْقُرْطُبِيِّ: ١٥٤/٢، الدَّرُ الْمَشْتُورُ: ١٧٩/٤، الْأَحْكَامُ لِلْأَمْدِيِّ: ٢١١/١.

التَّبَسُّوْتُ لِلشَّرْحِيِّ: ١٦٥/٣، بَدَائِعُ الصَّنَائِعِ: ٢٣/١، حَاشِيَةُ رَدِّ الْمَحْتَارِ: ٦٦٦/٦.

(٥) أَنْظَرُ، كَشَفُ الْخَفَاءِ لِلتَّجَلُونِيِّ: ٢٢٠/٢ ح ٢١٣٩، ذِكْرُ أَخْبَارِ إِصْبَهَانَ: ١٩٧/٢، الْفِرْدَوْسُ بِمَثُورٍ

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْسَ خَيْرُكُمْ مَنْ تَرَكَ الدُّنْيَا لِلْآخِرَةِ، لِلدُّنْيَا، وَلَكِنْ خَيْرُكُمْ مَنْ أَخَذَ مِنْ هَذِهِ لِهَذِهِ»^(١). وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَيَّ اللَّهُ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ»^(٢).

«مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذَا وَكَذَا، لَكِنِّي أَصْلِي، وَأَنَا، وَأَصُومُ، وَأَفْطِرُ، وَأَتَرُوجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»^(٣).

وَأَشَدُّ مَا تَمَنَّا بِهِ شَخْصِيَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ الْوُضُوحَ وَالْبَسَاطَةَ وَالْإِنْجَامَ... وَأَعْلَنَ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ أَنَّهُ لَا سُلْطَانَ لَهُ عَلَى أَحَدٍ، وَأَنَّ حَسَابَهُ وَحِسَابَ الْخَلَائِقِ عَلَى اللَّهِ، وَأَنَّهُ وَالنَّاسُ سَوَاءٌ أَمَامَهُ تَعَالَى، وَأَنَّهُ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا، وَلَا يَدْرِي مَا يَفْعَلُ بِهِ، وَأَنَّهُ «وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»^(٤)، وَحِينَ قَالَ الْمُسْلِمُونَ: كُسِفَتْ

↔ الْخِطَاب: ٤٠٩/٣ ح ٥٢٤٩، عِلَالُ ابْنِ أَبِي حَاتِمٍ: ١٢٤/٢ ح ١٨٦٧، حَلِيَّةُ الْأَوْثِيَاء: ٢٧٨/١.

(١) أَنْظَر، الْفِرْدَوْسُ بِمَأْثُورِ الْخِطَاب: ٤٠٩/٣ ح ٥٢٤٩، كَشَفُ الْخَفَاء: ٢٢٠/٢ ح ٢١٣٩، ذِكْرُ أَخْبَارِ إِصْبَهَانَ: ١٩٧/٢.

(٢) أَنْظَر، صَحِيحُ مُسْلِمٍ: ٢٠٥٢/٤ ح ٢٦٦٤، مُسْنَدُ الْحَمِيدِيِّ: ٤٧٤/٢ ح ١١١٤، نَوَادِرُ الْأُصُولِ فِي أَحَادِيثِ الرَّسُولِ: ٤٠٤/١، فَتْحُ الْبَارِي: ٢٢٧/١٣، التَّحْفَةُ لِابْنِ عَبْدِ الْبَرِّ: ٢٨٧/٩، تَحْفَةُ الْأَحْوَذِيِّ: ٢٢٦/٥، شَرْحُ التَّوْوِي عَلَى صَحِيحِ مُسْلِمٍ: ٢٢/٦، فَيْضُ الْقَدِيرِ: ٨٣/١، تَهْذِيبُ الْكَمَالِ: ١٣٥/٩.

(٣) أَنْظَر، صَحِيحُ مُسْلِمٍ: ١٠٢٠/٢ ح ١٤٠١، شَرَائِعُ الْإِسْلَامِ: ٤٩٢/٢، الْمُهَذَّبُ الْبَارِعُ: ١٥٣/٣، صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ: ١٩٤٩/٥ ح ٤٧٧٦، جَامِعُ الْمَقَاصِدِ: ٩/١٢، صَحِيحُ أَبِي حَتِّابٍ: ١٩٠/١ ح ١٤، الْمُسْنَدُ الْمُسْتَخَرَجُ عَلَى صَحِيحِ الْإِمَامِ مُسْلِمٍ: ٦٤/٤ ح ٣٢٣٨، سُنَنِ الدَّارِمِيِّ: ١٧٩/٢ ح ٢١٦٩، سُنَنِ النَّسَائِيِّ: ٦٠/٦ ح ٣٢١٧، وَسَائِلُ الشَّيْخَةِ: ١٠٧/٢٠، الْمُصَنَّفُ لِعَبْدِ الرَّزَاقِ: ١٦٧/٦ ح ١٠٣٧٤، مُسْنَدُ أَحْمَدَ: ١٥٨/٢.

(٤) الْأَعْرَافُ: ١٨٨.

الشَّمْسُ لَوْفَاةٌ وَلَدَهُ إِبْرَاهِيمَ، رَدَّ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِ حَاسِمٍ: «أَنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَا تَكْشِفَانِ لَمَوْتِ أَحَدٍ مِنَ الْبَشَرِ»^(١).

وَنُقِلَ عَنِ الْجُلَنْدِيِّ مَلِكِ عُمان أَنَّهُ قَالَ: «وَاللَّهِ لَقَدْ دَلَّنِي عَلَى هَذَا النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ إِنَّهُ لَا يَأْمُرُ بِخَيْرٍ إِلَّا كَانَ أَوَّلَ آخِذٍ بِهِ، وَلَا يَنْهَى عَنْ شَيْءٍ إِلَّا كَانَ أَوَّلَ تَارِكٍ لَهُ، وَأَنَّهُ يَغْلِبُ فَلَا يَنْتَظِرُ، وَيُغْلَبُ فَلَا يَضْجُرُ، وَيَفِي بِالْعَهْدِ، وَيَنْجِزُ الْوَعْدَ، وَأَشْهَدُ أَنَّهُ نَبِيِّ»^(٢).

وَقَالَ عَمْرٍو: «تَدْمَعُ الْعَيْنُ، وَيَحْزَنُ الْقَلْبُ فَلَا نَقُولُ مَا يُسِخِطُ الرَّبَّ؛ وَلَوْ لَا أَنَّهُ قَوْلٌ صَادِقٌ، وَوَعْدٌ جَامِعٌ، وَسَبِيلٌ نَاطِقٌ، وَأَنْ آخَرْنَا سَيَّبِعُ أَوْلَنَا؛ لَوْجَدْنَا عَلَيْكَ أَشَدَّ مَنْ وَجَدْنَا بِكَ، وَإِنَّا عَلَيْكَ يَا إِبْرَاهِيمَ لَمَحْزُونُونَ»^(٣).

وَبَعْدَ فَإِنَّ خَيْرَ مَا يُحَدِّدُ شَخْصِيَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ هَذَا الْأَثَرُ الْكَبِيرُ الضَّخْمُ الَّذِي تَرَكَهُ، وَالتَّحْوِلُ الْخَطِيرُ فِي حَيَاةِ الْعَالَمِ كُلِّهِ... قَالَ «د. ل. ديورانت» فِي قِصَّةِ الْحَضَارَةِ: «أَخَذَ مُحَمَّدٌ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَرْفَعَ الْمُسْتَوَى الرُّوحِي وَالْأَخْلَاقِي لِشَعْبِ

(١) أنظر، صحيح البخاري: ١/٣٥٣ ح ٩٩٣، صحيح مسلم: ٢/٦٢٣ ح ٩٠٤، صحيح ابن خزيمة: ٢/٣٠٨ ح ١٣٧٠، صحيح ابن جبان: ٧/٦٧ ح ٢٨٢٧، المستدرک علی الصحیحین: ١/٤٨٠ ح ١٢٣١، مجمع الزوائد: ٢/٢٠٨، تاريخ بغداد: ٣/٤٢٨.

(٢) أنظر، الرُّوضُ الْأَنْفُ: ٤/٢٥٠، الشَّفا بِتَرْغِيفِ حَقُوقِ الْمُصْطَفَى: ١/٢٤٩ و ٤٨٤، تبيين الرضا: ٢/٤٤٧، شَرْحُ الْقَارِي، بِهَامِشِهِ: ٤٤٧.

(٣) أنظر، صحيح البخاري: ٢/٨٤ و ٨٥، كنز العمال: ح ٤٠٤٧٩، السنن الكبرى للبيهقي: ٤/٦٩، الذكري: ٧٠، دَعَائِمُ الْإِسْلَامِ: ١/٢٢٤، بدائع الصنائع: ١/٣١٠، المغني: ٢/٤١١، المحلى: ٥/١٤٦، مُسْتَدْرَأُ أَحْمَدَ: ٣/١٩٤، صحيح مسلم: ٧/٧٦، سنن ابن ماجه: ١/٥٠٧، سنن أبي داود: ٢/٦٤، مُسْتَدْرَأُ أَبِي يَعْلَى: ٦/٤٣، الْمُصَنَّفُ: ٣/٢٦٧، الْأَحْكَامُ لِإِمَامِ يَحْيَى الْهَادِي: ١٠٥، الْكَافِي: ٢/٢٦٢، دَعَائِرُ الْمُغْنِي: ١/٢٢٤.

عَاشَ فِي دِيَارِ جِيرِ الْهَمَجِيَّةِ... وَقَدْ نَجَحَ فِي هَذَا الْعَرَضِ نَجَاحًا لَمْ يُدَانِهِ فِيهِ أَيْ مُصْلِحٌ آخَرٌ فِي التَّأْرِخِ كُلِّهِ، وَقَدْ وَصَلَ إِلَى مَا يَتَّبِعُهُ... وَأَقَامَ فَوْقَ الْيَهُودِيَّةِ وَالْمَسِيحِيَّةِ وَدِينِ بِلَادِهِ الْقَدِيمِ - دِينًا سَهْلًا وَاضِحًا، وَصَرِيحًا قَوَامَهُ الْبَسَالَةُ وَالْعِزَّةُ، وَاسْتَطَاعَ فِي جِيلٍ وَاحِدٍ أَنْ يَنْتَصِرَ فِي مِئَةِ مَعْرَكَةٍ، وَفِي قَرْنٍ وَاحِدٍ أَنْ يُنْشِئَ دَوْلَةً عَظِيمَةً، وَأَنْ يَبْقَى إِلَى يَوْمِنَا هَذَا قُوَّةَ ذَاتِ خَطَرٍ عَظِيمٍ فِي الْعَالَمِ». وَقَالَ «مُونْتِجَمَرِي وَات» فِي كِتَابِ مُحَمَّدٍ فِي الْمَدِينَةِ: «كُلَّمَا فَكَّرْنَا فِي تَأْرِخِ مُحَمَّدٍ تَمَلَّكْنَا الذُّهُولَ أَمَامَ عَظَمَةِ مِثْلِ هَذَا الْعَالَمِ»... وَلَا يَدْعُ أَنْ لَا يُوَازِي مُحَمَّدًا فِي عَظَمَتِهِ - أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ... فَإِنَّهُ سَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ.

مَرَاكِلُ الدَّعْوَةِ:

لَاقَتْ دَعْوَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ قَوَى الشَّرِّ وَالْبَغْيِ - مَا تُلَاقِيهِ كُلُّ دَعْوَةٍ إِصْلَاحِيَّةٍ، وَمَرَّتْ مَعَ أَعْدَائِهَا بِالْعَدِيدِ مِنَ الْمَرَاكِلِ، وَلَكِنْ مُحَمَّدًا تَخْطَأُهَا جَمِيعًا بِحِكْمَتِهِ وَتَدْبِيرِهِ، وَصَبْرِهِ وَتَخْطِيطِهِ، وَهَذَا مِنْ أَوْضَحِ الدَّلَائِلِ عَلَى عَظَمَةِ شَخْصِيَّتِهِ. جَهَرَ بِدَعْوَةِ الْإِسْلَامِ، فَقُبِلَ أَوَّلُ الْأَمْرِ بِالسُّخْرِيَّةِ وَالِاسْتِهْزَاءِ، فَصَبَرَ وَمَضَى فِي دَعْوَتِهِ، وَانْتَشَرَ الْإِسْلَامُ فِي مَكَّةَ بَيْنَ جَمَاعَةٍ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، فَاشْتَدَّ غَضَبُ الْأَشْرَارِ، وَاجْتَمَعَتْ كَلِمَتُهُمْ عَلَى إِبْدَاءِ مَنْ أَسْلَمَ بِكُلِّ أَلْوَانِ التَّعْذِيبِ وَالتَّنْكِيلِ، وَحَاوَلُوا إِغْرَاءَ النَّبِيِّ بِالْمَالِ وَالْمَالِ، وَلَكِنَّهُ رَفَضَ بِحَزْمٍ وَصَلَابَةٍ، فَلَجَّأُوا إِلَى الْحَصَارِ وَالْمُضَافِقَةِ، وَتَعَاقدُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ أَنْ يَقَاطِعُوا النَّبِيَّ وَأَهْلَهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِقْتِصَادِيًّا وَاجْتِمَاعِيًّا... وَأَسْتَمَرَ الْحَصَارُ فِي الشُّعْبِ ثَلَاثَةَ أَعْوَامٍ حَتَّى أَشْتَدَّ الْبَلَاءُ وَالْجُهْدُ بِالْمَحْصُورِينَ، وَتَعَالَتْ أَصْوَاتُ الصِّبْيَانِ بِالْبُكَاءِ، وَكَانُوا

يَأْكُلُونَ وَرَقَ الشَّجَرِ الْمُرِّ... وَرَوَى بَغْضَ مَنْ كَانَ مَعَ النَّبِيِّ فِي الْحَصَارِ: أَنَّهُ وَجَدَ قِطْعَةً جِلْدِ جَافَةٍ قَبِلَهَا بِالماءِ، وَوَضَعَهَا عَلَى النَّارِ وَأَكَلَهَا^(١).

وَرَغِمَ ذَلِكَ أَرَادَ الْمُؤْمِنُونَ إِيمَانًا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَبَانَ الْحَقُّ لَا بُدَّ أَنْ يَنْتَصِرَ، فَعَزَمَ الطُّغَاةَ عَلَى إِغْتِيَالِ مُحَمَّدٍ مُجْتَمِعِينَ بِضَرْبَةِ رَجُلٍ وَاحِدٍ كَيْ يَتَفَرَّقَ دَمُهُ فِي الْقَبَائِلِ... وَلَكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ هَدَمَ بَنِيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ... وَهَاجَرَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ^(٢)، فَجَمَعُوا الْجِيُوشَ لَهُ، وَأَعْلَنُوا عَلَيْهِ حَرْبًا مُنْظَمَةً، وَظَلُّوا يَقَاتِلُونَهُ زِهَاءَ عَشْرِ سِنِينَ... وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغِيظِهِمْ^(٣)... وَبَعْدَ الْعِجْزِ وَالْيَأْسِ اسْتَسْلَمُوا صَاحِرِينَ... هَكَذَا أَرَادَ اللَّهُ، وَكَانَ لَهُ مَا أَرَادَ... وَهَكَذَا سَارَتْ دَعْوَةُ الْإِسْلَامِ وَحَيَاةُ الدَّاعِي وَصَحَابَتِهِ: يَنْصُرُونَ اللَّهَ، وَاللَّهُ يَنْصُرُهُمْ وَقَاءَ بَوْعَدِهِ، وَعَمَلًا بِقَوْلِهِ: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأُخْلُ أَعْمَلَهُمْ﴾^(٤).

(١) أنظر، تَارِيخُ الْيَعْقُوبِيِّ: ٣١/٢، تَارِيخُ الطَّبْرِيِّ: ٧١/٢، الْبِدَايَةُ وَالنَّهَايَةُ: ١٢٠/٣، السِّيَرَةُ النَّبَوِيَّةُ لِابْنِ هِشَامٍ: ٢٥٣/١، السِّيَرَةُ النَّبَوِيَّةُ لِابْنِ كَثِيرٍ: ٦٨/٢، سُبُلُ الْهُدَى وَالرَّشَادِ: ٤١٤/٢.

(٢) أنظر، شَوَاهِدُ التَّنْزِيلِ لِلْحَاكِمِ الْحَسْكَانِيِّ: ١٢٣/١ ح ١٣٣، وَالتَّعْلِيلُ فِي الْكَشْفِ وَالْبَيَانِ: ١١٧/١، وَالزَّازِي فِي تَفْسِيرِهِ: ١٥٢/٢، نَهْجُ الْبَلَاغَةِ: ٧٨٩/١، الْمُسْتَرْشِدُ فِي إِمَامَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ: ٤٣٣، الْخَصَائِصُ لِابْنِ الْبَطْرِيقِ: ٩٨، كَشَفُ الْبَيِّنَاتِ: ٩٠، تَذَكُّرَةُ الْخَوَاصِّ لِسَبْطِ بْنِ الْجَوْرِيِّ: ٤٠، تَارِيخُ الْيَعْقُوبِيِّ: ٣٣/٢، الطَّرَائِفُ لِابْنِ طَاوُسٍ: ٤٠٧، كَفَايَةُ الطَّلَّابِ: ١١٥، يَتَابِعُ الْمُؤَدَّةُ: ١٠٥.

(٣) أنظر، السِّيَرَةُ النَّبَوِيَّةُ لِابْنِ هِشَامٍ: ٧٨/٥، فَتَحُ الْبَارِي: ٢٨٠/٧، ثَعْبَةُ الْأَحْوَذِيِّ: ٢٦٣/٥، شَرْحُ الزُّرْقَانِيِّ: ٥٣٢/٢، تَفْسِيرُ الْقُرْطُبِيِّ: ١٩١/٤ و ٢١٤، مُسْتَدْرَأُ أَبِي عَوَانَةَ: ٣٦٥/٤، الْكَامِلُ لِابْنِ الْأَثِيرِ: ١١٦/٢، السِّيَرَةُ الْحَلِيبِيَّةُ بِهَامِشِ السِّيَرَةِ النَّبَوِيَّةِ: ١٤٣/٢، تَارِيخُ دِمَشْقَ: ٣٠٢/١٤٣/١، تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ: ٣٧٠/٤، صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ: ١٥١٦/٤ ح ٣٩٠٦، الْمُسْتَدْرَكُ عَلَى الصَّحِيحَيْنِ: ٥٩٤/٣ ح ٦٢٠٣، مَجْمَعُ الزَّوَائِدِ: ١٤٢/٦.

(٤) مُحَمَّدٌ: ٧-٨.

لِمَاذَا عَفَا مُحَمَّدٌ ﷺ عَنْ أَلَدِ أَعْدَائِهِ:

يَبْقَى هَذَا السُّؤَالُ: وَمَاذَا فَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ بِأَعْدَائِهِ حِينَ تَمَكَّنَ مِنْ رِقَابِهِمْ؟ ...
وَقَدْ وَجَّهَ النَّبِيُّ نَفْسَهُ هَذَا السُّؤَالُ إِلَى الَّذِينَ اسْتَسْلَمُوا بَعْدَ أَنْ قَاوَمُوا وَقَالَ لَهُمْ: يَا
مَعْشَرَ قُرَيْشٍ مَا تَظُنُّونَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ؟
قَالُوا: خَيْرًا، أَخَ كَرِيمٍ، وَأَبْنُ أَخٍ كَرِيمٍ.
قَالَ: إِذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلُقَاءُ^(١).
مَا هَذَا؟ هَلْ هُوَ رَحْمَةٌ، أَمْ أَرِيحِيَّةٌ؟.

كَلَّا، أَنَّهُ سَمُو الْمَبْدَأِ، وَشَرَفَ الْمَقْصَدِ، وَخُلِقَ الْمُصْلَحُ الَّذِي لَا يَفْعَلُ الْفِعْلَ
بِوَحْيٍ مِنْ مَنَافِعِهِ، أَوْ دَافِعٍ مِنْ أَغْرَاضِهِ... لَقَدْ أَرَادَ النَّبِيُّ ﷺ بِهَذَا الْعَفْوِ أَنْ يُفْهِمَ
الْأَعْدَاءَ وَالْعَالَمَ كُلَّهُ أَنَّهُ لَا يَبْتَغِي مِنْ وَرَاءِ النَّصْرِ عَلَى مَنْ يُرُومُ قَتْلَهُ وَتَسْذِيمَ رِجْلِهِ إِلَّا
إِحْقَاقَ الْحَقِّ وَإِزْهَاقَ الْبَاطِلِ، فَإِذَا تَمَّ ذَلِكَ وَتَحَقَّقَ فَلَا تَشْفِي وَشِمَاتَةٍ، وَلَا تَقْتِيلَ
وَتَنكِيلَ... وَلَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ وَشِيعَتِهِ أَنْ يَسْتَنْدِلَ أَحَدًا حَتَّى وَلَوْ كَانَ أَلَدُ أَعْدَائِهِ، لِأَنَّ
هَذَا الْخُلُقَ لَا يَجْتَمِعُ بِحَالٍ مَعَ نَزَاهَةِ الْهَدَفِ، وَالْإِخْلَاصِ لِلْمَبْدَأِ وَمِنْ هُنَا تَجَابُوبُ
مَعَ الدَّعْوَةِ وَالِدَّاعِي كُلِّ مَنْ عَرَفَ مُحَمَّدًا عَلَى حَقِيقَتِهِ، وَدَرَسَ سِيرَتَهُ بَحْثًا عَنْ
الْحَقِّ لَوَجْهِ الْحَقِّ.

(١) أَنْظِرْ، تَفْسِيرَ الْقُرْطُبِيِّ: ٢٥٨/٩، مُنْهِجُ الْبَيْهَقِيِّ الْكُبْرَى: ١١٨/٩، مُسْتَدَرَكُ الرَّيْبِيِّ: ١٧٠/١ ح ٤١٩،
الْجَامِعُ الصَّغِيرُ: ١/٢٢٠ ح ٣٦٨، نَوَاذِرُ الْأُصُولِ فِي أَحَادِيثِ الرَّسُولِ: ١/٣٢٥، فَتْحُ الْبَارِي: ١٨/٨ ح
٤٣٨، فَيْضُ الْقَدِيرِ: ٥/١٧٥، الثَّقَاتُ: ٥٦/٢، الْإِصَابَةُ: ٣/٢١٣، الْأُمُّ: ٧/٣٦١، تَارِيخُ
الْطَّبْرِيِّ: ٢/١٦١، السِّيَرَةُ النَّبَوِيَّةُ: ٥/٧٤.

الرَّسَالَةُ وَالرَّسُولُ قَبْلَ الْإِسْلَامِ:

اختلف القصاصون القدماء في عدد الأنبياء، فمن قائل: ثلاثمائة وثلاثة عشر نبياً، وقائل: مئة وأربعة وعشرون ألفاً^(١)، وقال آخر: مليون وأربع مئة وأربعة وعشرون ألفاً. ولا أدري: كيف تم هذا الإحصاء، والله سبحانه يقول لنبيه: ﴿مِنْهُمْ مَّنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾^(٢).

ومهما يكن فنحن غير مكلفين بالبحث عن عدد الأنبياء وعِدَّتْهُمْ، ويكفينا الإيمان على سبيل الإجمال بما جاء فيهم من آية قرآنية أو سنة نبوية.

ومن تتبع أي الذكر الحكيم يجد أن رسالة كل نبي - غير محمد - تقف على قومه فحسب، أو على أهل زمانه، ولا تتجاوزها إلى جميع العالمين من بعده، بل أن رسالة بعض الأنبياء كانت مقصورة في مضمونها على محاربة الأصنام، وعبادة الله وحده لا شريك له، كما توميء الآية: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَبْقُومَ آعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾^(٣).

ومثلها رسالة هود، وصالح كما في الآية: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَبْقُومَ آعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾^(٤). و: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَبْقُومَ آعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ

(١) أنظر، مجمع الزوائد: ١/١٥٩، فتح الباري: ٦/٢٥٦، البحر الرائق: ١/٢٨٣، الخصال: ٢/٦٤١ باب ما يتعد الألف، الأمالي: ٣٠٧ المجلس ٤١ ح ١١، الكليني في الكافي: ١/٢٢٤ باب أن الأنبياء ورثوا علم النبي ﷺ ح ٢، عنه البرهان: ٧/٢٠٠ ح ٢.

(٢) غافر: ٧٨.

(٣) الأعراف: ٨٥.

(٤) الأعراف: ٦٥.

اللَّهُ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ»^(١).

مَعْنَى الرِّسَالَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ:

أَمَّا رِسَالَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ فَقَدْ خَاطَبَتْ كُلَّ إِنْسَانٍ أَيْنَمَا كَانَ، وَمَتَى يَكُونُ، قَالَ تَعَالَى: «قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا»^(٢)، وَقَالَ تَعَالَى: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ»^(٣).

أَمَّا مَبَادِيءُ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَإِنَّهَا تَتَّسِعُ لِلْحَيَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ مِنْ شَتَى جَوَانِبِهَا، وَفِي جَمِيعِ مَرَاحِلِهَا؛ لِأَنَّهَا تُلْغِي كُلَّ مَا هُوَ خَاصٌّ بِزَمَانٍ أَوْ مَكَانٍ، وَعُنْصُرِيَّةٍ، أَوْ طَبَقِيَّةٍ، وَلَا تُبْقِي إِلَّا النَّافِعَ الصَّالِحَ فِي كُلِّ عَصْرٍ وَمَضَرٍ: «وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَنْفَعُ فِي الْأَرْضِ»^(٤).

آيَةُ أَرْضٍ فِي الشَّرْقِ أَمْ فِي الْغَرْبِ، فِي الْقَدِيمِ أَمْ الْحَدِيثِ.
وَمِنَ الْبُرْهَانِ عَلَى ذَلِكَ أَوَّلًا: إِيْمَانُ الْإِسْلَامِ بِالْعَقْلِ، وَثِقَتُهُ بِقُدْرَتِهِ عَلَى مَعْرِفَةِ الْحَقِيقَةِ.

ثَانِيًا: إِيْمَانُهُ بِالْعِلْمِ وَالْحَقِّ عَلَى طَلَبِهِ، وَالتَّنْذِيدُ بِالتَّقْلِيدِ وَالْمُتَابَعَةِ الْعَمِيَاءِ.
ثَالِثًا: إِيْمَانُهُ بِالْجُهْدِ وَالْعَمَلِ لِحَيَاةٍ أَرْفَى وَأَقْوَمَ.
رَابِعًا: إِيْمَانُهُ بِالْعَدْلِ، وَالْحُرِّيَّةِ، وَالْمَسَاوَاةِ، وَبِالثَّوْرَةِ ضِدَّ الْجَهْلِ، وَالظُّلْمِ

(١) الْأَعْرَافُ: ٧٣.

(٢) الْأَعْرَافُ: ١٥٨.

(٣) الْأَنْبِيَاءُ: ١٠٧.

(٤) الرُّعْدُ: ١٧.

وَالِإِسْتِغْلَالَ، وَكُلَّ مَبْدَأٍ مِنْ هَذِهِ الْمَبَادِيءِ يُسْقِطُ مَا هُوَ خَاصٌّ، وَيَسْتَبْقِي مَا هُوَ عَامٌّ، وَمُشَاعَ بَيْنَ كُلِّ النَّاسِ.

وَأَيْضاً مِنْ مَظَاهِرِ الْإِنْسَانِيَّةِ الشَّامِلَةِ فِي رِسَالَةِ الْإِسْلَامِ، الْجَمْعُ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَجَعَلَ الدُّنْيَا مَطْيَّةً لِلْآخِرَةِ، وَوَجُوبُ الْإِيمَانِ بِكُلِّ نَبِيٍّ وَرَسُولٍ دُونَ فَرْقٍ فِي ذَلِكَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ... وَيَحْمِلُ هَذَا الْإِيمَانُ مَعْنَى عِرْفَانِ الْجَمِيلِ لَجُهِدِ كُلِّ كَرِيمٍ، وَأَيْضاً مِنْ مَظَاهِرِ شُمُولِ الرِّسَالَةِ وَجُوبُ التَّعَاوُنِ مَعَ كُلِّ فِتْنَةٍ وَجَهَةٍ عَلَى خِدْمَةِ الْإِنْسَانِ وَمَصْلَحَتِهِ، وَقَدْ حَدَّدَ مُحَمَّدٌ ﷺ رِسَالَتَهُ وَتَكَامُلَهَا دُونَ سَائِرِ الرِّسَالَاتِ، وَصَوَّرَهَا بِأَبْلَغِ صُورَةٍ وَأَكْمَلَهَا حَيْثُ قَالَ: «إِنَّمَا مِثْلِي وَمِثْلُ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي كَمِثْلِ رَجُلٍ أَبْتَنَى بُنْيَاناً فَأَحْسَنَهُ، وَأَكْمَلَهُ إِلَّا مَوْضِعَ لَبَنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَاوِيَاهُ، فَجَعَلَ النَّاسَ يَطِيفُونَ بِهِ، وَيَعْجَبُونَ مِنْهُ، وَيَقُولُونَ: هَلَّا وَضَعْتَ هَذِهِ اللَّبَنَةَ، فَأَنَا اللَّبَنَةُ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ»^(١).

هَذِهِ اللَّبَنَةُ الْمُكْمَلَةُ:

وَهَذِهِ اللَّبَنَةُ الْمُكْمَلَةُ لَصَرَحِ التَّعَالِيمِ الْإِنْسَانِيَّةِ، إِنَّ هِيَ الْأَكْنَائِيَّةَ عَنْ شُمُولِ الرِّسَالَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ، وَأَنَّهَا تَتَجَاوَبُ بِمَبَادِئِهَا مَعَ مَطَالِبِ الْحَيَاةِ فِي كُلِّ الْعُصُورِ وَالْأُمَمِ، وَفِي جَمِيعِ الْحَالَاتِ تَمَاماً كَالَّذِي يَبْنِي دَاراً تُصَلِحُ لِلسَّكَنِ فِي كُلِّ الْفُصُولِ وَالْعُصُورِ.

(١) أنظر، صحيح البخاري: ١٦٣/٤، مُسْنَدُ أَحْمَدَ: ٢٥٦/٢ و ٣١٢، صحيح مُسْلِمَ: ٦٤/٧، فَتَحُ الْبَارِي: ٤٠٧/٦، السَّنَنِ الْكُبْرَى: ٣٤٦/٦، نُظْمُ دُرَرِ السَّمْعَيْنِ: ٥٣، مُسْنَدُ الشَّامِيِّينَ: ٢٦٦/٤، سُبُلُ الْهُدَى وَالرَّشَادِ: ٣٠٢/١٠، مَعَ إِخْتِلَافِ يَسِيرٍ فِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ.

وَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: أَنْ مَا يَصْلَحَ لِعَصْرِ مَضَى لَا يُمكن تَطْبِيقُهُ عَلَى عَصْرِ أَتَى وَيَأْتِي، لِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ فِينَا وَحَوْلَنَا يَتَغَيَّرُ وَيَتَحَرَّكُ، شِئْنَا ذَلِكَ أَمْ أُبَيِّنَا، وَعَلَيْهِ فَلَا يُمكن بِحَالٍ أَنْ تَصْلَحَ شَرِيعَةٌ وَاحِدَةٌ لِكُلِّ النَّاسِ فِي كُلِّ الْأَزْمَنَةِ وَالْأَمَكَنَةِ، إِذَا قَالَ هَذَا قَائِلٌ فَلْنَا فِي جَوَابِهِ:

أَوَّلًا: أَنَّ التَّغْيِيرَ وَالتَّبْدِيلَ إِنَّمَا هُوَ فِي الْأَفْرَادِ لَا فِي الْمَفَاهِيمِ.

ثَانِيًا: أَنَّ الْإِسْلَامَ قَدْ حَثَّ عَلَى الْعَمَلِ مِنْ أَجْلِ التَّطَوُّرِ وَالتَّحَوُّلِ، وَلَكِنْ إِلَى الْأَحْسَنِ وَالْأَقْوَمِ، كَمَا نَصَّتِ الْآيَةُ: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾^(١). وَمَعْنَى هَذَا أَنَّ الْإِسْلَامَ مَعَ مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فِي جَمِيعِ الْحَالَاتِ، وَهَهُمَا تَغَيَّرَتِ الظُّرُوفُ وَالْبَيِّنَاتُ.

وَلَيْسَ مِنْ شَكٍّ أَنَّ الْإِنْتَفَعَ وَالْأَصْلَحَ لَجَمِيعِ النَّاسِ لَا يَتَحَقَّقُ وَلَنْ يَتَحَقَّقَ إِلَّا مَعَ التَّعَاوُنِ الشَّامِلِ الْكَامِلِ، وَهَذَا النَّوعُ مِنَ التَّعَاوُنِ لَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا إِذَا أُلْغِيَتْ جَمِيعُ الْحَوَاجِزِ وَالْفَوَارِقِ، وَامْتَزَجَ الْمَاضِي بِالْحَاضِرِ، وَالْحَاضِرُ بِالْمُسْتَقْبَلِ، وَالشَّرْقُ بِالْغَرْبِ، وَالْأَسْوَدُ بِالْأَبْيَضِ، وَعَاشَ الْكُلُّ تَحْتَ رَايَةِ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ بِلَا شَيْعُوِيَّةٍ... وَلَا رَأْسْمَالِيَّةٍ... وَلَا وَجُودِيَّةٍ... وَلَا بَرَجْمَاتِيَّةٍ... وَلَا صِرَاعٍ وَمُنَافَسَةٍ... أَبَدًا لَا شَيْءَ إِلَّا تَعَاوُنَ الْكُلِّ بِإِخْلَاصٍ لِمَصْلَحَةِ الْكُلِّ... وَهَذَا هُوَ الْأَسَاسُ الَّذِي بَنَى عَلَيْهِ الْإِسْلَامَ جَمِيعَ أَحْكَامِهِ وَتَعَالِيمِهِ: «وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ»^(٢)، وَقَالَ تَعَالَى: «مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا

(١) الْأَنْزَاء: ٩.

(٢) الْمُنَافَسَةُ: ٢.

النَّاسَ جَمِيعًا»^(١).

دَعْوَةُ مُحَمَّدٍ بِنَفْسِهَا ذَلِيلٌ :

وَبَعْدَ، فَإِنَّ خَيْرَ حُجَّةٍ وَرَكِيزَةٍ لِلْإِيمَانِ بِنُبُوءَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ هِيَ دَعْوَاهُ بِالذَّاتِ، وَمُجَرَّدَ قَوْلِهِ: «إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ»^(٢)... أَلَمْ تَشْهَدْ الْوَثَائِقَ التَّأْرِيخِيَّةَ الْقَاطِعَةَ بِأَنَّ مُحَمَّدًا كَانَ كَامِلًا فِي عَقْلِهِ، وَصَادِقًا فِي قَوْلِهِ، وَأَمِينًا عَلَى عَهْدِهِ وَتَرْبِيهَا فِي قَصْدِهِ، وَعَظِيمًا فِي خُلُقِهِ...؟ وَإِذْنٌ يَسْتَحِيلُ أَنْ يَدَّعِيَ النُّبُوَّةَ إِلَّا إِذَا أَفْتَنَعَ، وَلَا وَلَنْ يَفْتَنَعَ إِلَّا بِالْحَسَنِ وَالتَّجَرُّبَةِ، وَكَفَى بِتَجَرُّبَةِ مُحَمَّدٍ ضَمَانًا وَبُرْهَانًا.

وَكُلَّ النَّاسِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا يُطْبِقُونَ هَذَا الْمَبْدَأَ عَلَى كُلِّ دَعْوَةٍ مُخْلِصَةٍ وَتَرْبِيَةٍ يَدَّعِيهَا عَالِمٌ مُجَرَّبٌ، وَأَمِينٌ مُتَثَبِتٌ... يَبْنَحُ الْعَالِمَ وَيُنْقَبُ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَ الْحَقِيقَةَ أَعْلَنَهَا عَلَى النَّاسِ، فَيَقْبَلُونَهَا شَاكِرِينَ أَمَانَةً مَنْقُولَةً، وَيُدِينُونَ بِهَا تَمَامًا كَمَا يَقْبَلُوا «الْجَاذِبِيَّةَ» مِنْ نِيُوتِن، وَ«التَّسْبِيَّةَ» مِنْ إِينَسْتَيْن... وَمِنْ الْفَلَكَي وَالْجُغْرَافِي، وَعَالِمِ الْإِجْتِمَاعِ وَالنَّفْسِ... وَمِنْ سَيَّوِيهِ، وَنَفْطُويَّة، وَأَبْنِ دَرَسْتُويهِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَرْأَاءِ وَالْمُعْتَقَدَاتِ الَّتِي تَتَلَقَّاهَا بِالتَّصَدِيقِ عَنِ الْعُلَمَاءِ الْأُمْنَاءِ دُونَ أَنْ تُجَرَّبَ كَمَا جَرَّبُوا، وَتُسْتَبْطَ كَمَا اسْتَبْطُوهَا حَتَّى وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ مُمَكِّنًا لَنَا وَمَقْدُورًا.

وَأَخْتُمُ هَذَا الْفَضْلَ بِكَلِمَةٍ لِلدُّكْتُورِ مُحَمَّدٍ سَعَادٍ جَلَّالٍ. وَهَذَا نَصُّهَا بِالْحَرْفِ الْوَاحِدِ:

«أَمَعْنُ الْقُرَّاءُ الْكَرِيمُ فِي الْإِسْتِدْلَالِ بِالْمَصْنُوعَاتِ الْكُونِيَّةِ، وَظَوَاهِرِ الْوُجُودِ

(١) الْفَنَائِدَةُ: ٣٢.

(٢) الشُّعْرَاءُ: ١٠٧.

الْمُتَنوعَةِ فِي الْأَرْضِ، وَالْأَنْهَارِ، وَالنَّبَاتِ، وَالشُّحْبِ، وَالْأَمْطَارِ، وَأَخْتِلَافِ
الْأَلْوَانِ، وَالْأَلْسِنَةِ، وَالْجِبَالِ، وَالنَّاسِ، وَالْأَنْعَامِ وَغَيْرَهَا، وَفِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ، وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَالنُّجُومِ، وَالْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ، مِمَّا حَفَلَ الْقُرْءَانُ
بِذِكْرِهِ وَغَدَا يُكَرِّرُهُ وَيُعِيدُ تَكَرَّارَهُ دَائِمًا.

فَلَقَدْ نَظَرِي ذَلِكَ وَتَسَاءَلْتُ: أُنَّ الْإِسْتِدْلَالَ عَلَى وَجُودِ اللَّهِ وَحِكْمَتِهِ وَعِلْمِهِ
بِخَطَاطِ الْمَوْجُودَاتِ وَدَلَالَتِهَا هُوَ قِمَّةُ الْقِمَمِ فِي الْفَلَسَفَةِ الْإِلَهِيَّةِ، وَالثَّقَافَةِ الدِّيْنِيَّةِ
الْعَقْلَانِيَّةِ، وَإِنْ تَكَرَّرَ هَذَا الْإِسْتِدْلَالُ بِصُورَةٍ تُمَثِّلُ نَهَايَةَ الْإِمْعَانِ وَالْإِغْرَاقِ، إِنَّ هَذَا
لَيَدِلُّ عَلَى قَصْدٍ مَقْصُودٍ، وَبَاعَثَ عَظِيمَ الْوَعْيِ لِهَذَا الْجَانِبِ مِنَ الْإِسْتِدْلَالِ وَإِبْقَاطِ
الْبَصَائِرِ وَالْأَبْصَارِ إِلَيْهِ، وَلَا يَكُونُ مُضَادَّةً وَاتِّفَاقًا، وَهُوَ عَمَلٌ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَضْدُرَّ
إِلَّا عَنْ ثِقَافَةٍ فِلْسَفِيَّةٍ، وَدَرَّاسَاتٍ عِلْمِيَّةٍ مُتَنوعَةٍ، وَتَرْبِيَةِ ذَهْنِيَّةٍ مَنْطِقِيَّةٍ لِلْمُسْتَدَلِّ
بِهِ، فَأَيْنَ كَانَتْ نَشْأَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ وَتَرْبِيَّتُهُ مِنْ هَذَا الْحِسَابِ كُلِّهِ، وَهُوَ الْيَسِيمُ الْأُمِّيُّ
الْمَنْشَأُ فِي بَيْتَةٍ جَاهِلِيَّةٍ، وَأُمَّةٍ أُمِّيَّةٍ؟

لَقَدْ كَانَ مِنَ الْمُسْتَحِيلِ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ أَنْ يَلْتَفِتَ ذِهْنَهُ بِحُكْمِ بَيْتِهِ وَمُكَوَّنَاتِهِ
الطَّبِيعِيَّةِ وَإِنِّطِبَاعَاتِهِ الْإِجْتِمَاعِيَّةِ وَالثَّقَافِيَّةِ، وَأَنْ يَنْجَهَ وَعْيُهُ إِلَى هَذَا الْأَسْلُوبِ
النَّادِرِ الْخَفِيِّ الدَّقِيقِ فِي الْإِسْتِدْلَالِ بِصُورَةٍ تَدُلُّ عَلَى شِدَّةِ الْقَصْدِ وَقُوَّةِ الْوَعْيِ،
كَانَ مِنَ الْمُسْتَحِيلِ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ لَوْ لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا يَتَلَقَّى وَحْيَ ذَلِكَ الْمَنْهَجِ مِنَ
السَّمَاءِ، وَمِنْ لَدُنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَهَذَا الْمَنْهَجُ مِنَ الْإِسْتِدْلَالِ، وَصُدُورُهُ عَمَّنْ لَا
يَمْلِكُ شَرْوْطَهُ - دَلِيلٌ قَاطِعٌ عَلَى صِدْقِ صَاحِبِهِ حِينَمَا يَدْعِي الْوَحْيَ وَالْبَلَاغَ عَنْ
اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ^(١).

(١) انظر، جَرِيدَةُ الْجُمْهُورِيَّةِ الْمَصْرِيَّةِ (١٠/٧/١٩٧٣م). مَقَالُ، لِلدُّكْتُورِ مُحَمَّدٍ سَعَادِ جَلَّالٍ. (مِنْهُ ﷺ).

كِتَابُ الظَّاهِرَةِ الْقُرْءَانِيَّةِ

مُفِيدٌ وَلَكِنْ مُتَقَدِّدٌ:

أَلَّفَ الْكَاتِبُ الْجَزَائِرِيُّ الشَّهِيرُ مَالِكُ بْنُ نَبِيِّ كِتَابًا فِي اللُّغَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ، أَسْمَاهُ الظَّاهِرَةُ الْقُرْءَانِيَّةُ، وَتَرَجَمَهُ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ الْأُسْتَاذُ عَبْدِ الصَّبُورِ شَاهِينَ، وَالْهَدَفُ الْأَوَّلُ مِنَ الْكِتَابِ إِثْبَاتُ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِمَنْطِقِ الْحِسِّ وَالْعَقْلِ، لَا بِالنَّصُوصِ وَالْمُغْيِيَّاتِ، وَالْأَسْرَارِ وَالْمُعْجَزَاتِ... وَقَدْ أَنْارَ الطَّرِيقَ لِكُلِّ تَائِهٍ وَخَائِرٍ، وَأَفْحَمَ كُلَّ مُعَانِدٍ وَمُكَابِرٍ.

وَلَا عَيْبَ فِيهِ إِلَّا الْغَمُوضُ وَالتَّعْقِيدُ... إِنَّهُ أَسْلُوبٌ عَتِيقٌ، يَرْجِعُ إِلَى عَضْرِ مَا قَبْلَ الْمَطَابِعِ وَالْجَرَائِدِ، وَلَوْ كَانَ فِي أَسْلُوبِ هَذَا الْعَضْرِ لَكَانَتْ فَائِدَتُهُ أَكْمَلَ وَأَعَمَّ. وَعَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ أَذْكَرُ مِنْهُ هَذِهِ الْعِبَارَةُ: «أَنَّ إِنْفِرَادَ النَّبِيِّ بِكَوْنِهِ الشَّاهِدُ الْوَحِيدُ عَلَى الظَّاهِرَةِ يَخْلَعُ عَلَى هَذِهِ الْحَقِيقَةِ قِيَمَةً إِسْتِثْنَائِيَّةً خَاصَّةً».

وَالْمَعْنَى بِإِخْتِصَارٍ كَامِلٍ وَوَاضِحٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ عَلِيمُ الْوَحْيِ بِطَرِيقِ الْحِسِّ وَالْمُشَاهَدَةِ وَهَذَا الطَّرِيقُ يَتَعَذَّرُ عَلَى غَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ، وَعَلَيْهِمْ أَنْ يَبْحَثُوا عَنْ طَرِيقِ آخِرٍ لِمَعْرِفَةِ الْوَحْيِ.

وَمِنْ أَجْلِ هَذَا رَأَيْتُ مِنَ الْمُفِيدِ أَنْ أُعْرِضَ بَعْضَ أَفْكَارِ الْكِتَابِ بِإِيجَازٍ وَبِكَثِيرٍ مِنَ التَّصَرُّفِ فِي الشَّكْلِ دُونَ الْمُحْتَوَى.

لُزُومَةُ خَطِيئَةٍ:

يَمُرُّ الْإِسْلَامُ وَالْمُسْلِمُونَ الْآنَ بِأَزْمَةٍ خَطِيئَةٍ جَدًّا... أَحَدَتْهَا وَأَثَارَهَا عَدَدٌ مِنْ شَبَابِنَا الْمُسْلِمِ بِالْأَبْوَيْنَ الَّذِينَ تَخْرُجُوا مِنْ جَامِعَاتٍ أَعْجَنِيَّةٍ، وَأَصْرُوا عَلَى تَرْدِيدِ الْأَفْكَارِ الَّتِي زَكَّاهَا أَسَاتِذَتُهُمْ مِنْ غَيْرِ تَمْحِصٍ وَرَوِيَّةٍ... وَمَا كَانَ فِي هَذَا مِنْ بَأْسٍ لَوْ وَقَفَ عِنْدَ الْحَقَائِقِ الْعِلْمِيَّةِ، أَوْ التَّقَالِيدِ الْعُرْفِيَّةِ «الْأُتَيْكِيَّت» وَلَكِنْ تَعَدَّاهُ إِلَى الْهَوَى، وَالتَّعَصُّبِ الصَّاحِبِ وَالتَّمَسُّتِ بِسِتَارِ الْعِلْمِ وَحُرِّيَةِ الْفِكْرِ، وَعَنْ هَذَا الطَّرِيقِ تَوَغَّلَ الْإِلْحَادُ وَالتَّشْكِيكُ فِي كُلِّ تَرَاثٍ إِسْلَامِيٍّ وَعَرَبِيٍّ إِلَى دَرَجَةٍ كَبِيرَةٍ. وَمِنَ الْمُؤَلَّمِ أَنْ يُوجَدَ إِلَى جَانِبِ هَؤُلَاءِ جُمْهُورٌ يَنْتَسِي إِلَى الدِّينِ، وَهُوَ يَخْمَلُ أَفْكَارًا خُرَافِيَّةً، وَعَقْلًا مَشْلُوعًا عَنْ كُلِّ تَقَدُّمٍ! مِمَّا سَاعَدَ عَلَى زَعَزَعَةِ الثِّقَةِ فِي الدِّينِ وَأَهْلِهِ.

الظَّاهِرَةُ الدِّينِيَّةُ:

أَظْهَرَ عِلْمُ الْآثَارِ أَنَّ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ قَدِيمٌ بِقَدَمِ الْأَزْمَانِ، فَمِنْ الْكَعْبَةِ إِلَى كِهُوفِ الْعِبَادَةِ فِي الْعَصْرِ الْحَجَرِيِّ، وَمِنْهَا إِلَى مَعْبَدِ سُلَيْمَانَ، وَعَهْدِ الْمَعَابِدِ الْفَخْمَةِ، وَمِنْ هَذِهِ الْمَعَابِدِ أَشْرَقَتِ الْحَضَارَاتُ، وَأَزْدَهَرَتِ الْجَامِعَاتُ، وَدَارَتِ الْمُنَاقَشَاتُ السِّيَاسِيَّةُ، وَالْعِلْمِيَّةُ، وَالْفَلَسَفِيَّةُ، وَأَيْضًا كُلُّ الْقَوَانِينِ، لَاهُوتِيَّةٍ فِي أَصْلِهَا وَأَسَاسِهَا، أَمَّا مَا يَطْلُقُونَ عَلَيْهِ أَسْمَ الْقَانُونِ الْمَدَنِيِّ فَإِنَّهُ دِينِي فِي جَوْهَرِهِ وَلَا سِيَّمًا فِي فَرَنَسَا حَيْثُ تَعَرَّفَ الْفَرَنَسِيُّونَ عَلَى الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ أَثْنَاءَ حَمَلَةِ نَابِلْيُونِ عَلَى مَضَرٍّ، وَأَشْتَقُّوا مِنْهَا قَوَانِينَهُمْ.

ما وراء الطَّبيعة:

المادَّة قاصِرة قصوراً ذاتياً عن خلق نفسها، وعن إيجاد نظامها وتركيبها، لأنَّها عبارة عن مُجرّد حوادث مُتتَابعة، كما قال علماء الطَّبيعة، وبالتالي فإنَّ المادَّة تُعجز عن تزويدنا بنظرة علميَّة، أو فلسفيَّة عن الخلق وما فيه من تطوُّر ونظام.. وإذن فمن الضروري أن نفرض وجود قوَّة وراء المادَّة، ومُتميِّزة عنها... وهذه القوَّة وحدها هي التي تمدُّنا بالتفسير السَّحيح لوجود الكون ونظامه، ولكلِّ ما تُعجز العلوم الطَّبيعيَّة عن تفسيره.

هذا ما يقرُّه العقل الذي يربط المُسببات بأسبابها، والنتائج بمُقدِّماتها... أمَّا الماديُّون فإنَّهم يلجأون إلى الصدفة حين يعجز العلم عن التفسير، ومعنى هذا أنَّ الصدفة هي الإله المعبود للماديِّين، وأنَّ الله سبحانه هو إله المؤمنين. وكلِّما تقدَّم العلماء اكتشف العلماء أنَّ وراء ملايئِن السنين الضوئيَّة أشياء وحقائق يستحيل الوصول إلى معرفتها بأي طريق.. وحسب المؤمن بالله أن لا يضطدَّ إيمانه مع مُكتشفات العلم الحديث... هذا إذا لم يدلِّ ببراہين جديده على وجود الله، ويزد الأدلَّة القديمة قوَّة ووضوحاً... والإختلال الرُّوحي هو الذي يخلق الصراع بين العلم والدين.

مبدأ النبوَّة:

منذ إبراهيم الخليل إلى مُحَمَّد ﷺ جاء أنبياء كثر وخاطبوا النَّاس بأسم الله الواحد الأحد، وقالوا: أنَّهُم مرسلون من عند الله ليبلغوا كلمته إلى خلقه، كما

أَشَارَتِ الْآيَةُ: «قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ»^(١).

وَكُلَّ ظَاهِرَةٍ طَبِيعِيَّةٍ كَانَتْ أَوْ إِجْتِمَاعِيَّةٍ إِذَا تَكَرَّرَتْ وَاسْتَمَرَّتْ بِإِنْتِظَامٍ - تُغْتَبَرُ شَاهِدًا عِلْمِيًّا عَلَى أَنَّهَا حَقِيقَةٌ ثَابِتَةٌ بِالضَّرُورَةِ، وَأَنَّ لَهَا خَصَائِصَهَا وَمُمَيِّزَاتَهَا.

وَإِذَا دَرَسْنَا حَيَاةَ الْأَنْبِيَاءِ نَجِدُ أَنَّ مِنْ أَخَصِّ خَصَائِصِهِمُ الْكَمَالَ الْجِسْمِي، وَالْعَقْلِي، وَالْخُلُقِي، وَأَنَّ رِسَالَةَ الْآلَاحِقِ مِنْهُمْ أَمْتَدَادٌ لِرِسَالَةِ السَّابِقِ فِي جَوْهَرِهَا وَهَدَفِهَا، وَأَنَّهُمْ مِنْ أَجْلِهَا كَانُوا فِي صِرَاحٍ دَائِمٍ وَمَرِيرٍ مَعَ قَوَى الْبَغْيِ، وَالشَّرِّ حَتَّى قُتِلَ مِنْهُمْ الْعَدِيدُ، وَشُرِدَ آخَرُونَ بَعْدَ التَّعْذِيبِ وَالتَّنْكِيلِ، لَا لَشَيْءٍ إِلَّا فِي سَبِيلِ دَعْوَةِ الْخَيْرِ، وَالْحَقِّ، وَالْعَدْلِ، وَالْمُسَاوَاةِ، كَمَا أَشَارَتِ الْآيَةُ: «كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ»^(٢).

وَهَذَا يُؤَدِّي بِنَا حَتَمًا إِلَى الْإِيمَانِ بِصَدَقِهِمْ وَأَمَانَتِهِمْ، كَمَا هُوَ الشَّانُ مِنْ شُهَدَاءِ الْمَبْدَأِ وَالْعَقِيدَةِ، لَا شَأْنَ الْمُتَهَوِّسِينَ وَأَرْبَابِ الْأُمْرَاضِ النَّفْسِيَّةِ.

الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ:

يَمْتَازُ الْإِسْلَامُ مِنْ بَيْنِ الْأَدْيَانِ فِي الْعَالَمِ كُلِّهِ - بِأَنَّهُ الدِّينُ الْوَحِيدُ الَّذِي ثَبَّتَ كِتَابَهُ السَّمَاوِيُّ مُنْذُ اللَّحْظَةِ الْأُولَى لَوْجُودِهِ، وَتَنَقَّلَ طَوَالَ أَرْبَعَةِ عَشَرَ قَرْنًا دُونَ أَنْ يَتَعَرَّضَ لِأَدْنَى تَحْرِيفٍ أَوْ رَيْبٍ، أَمَّا التَّوْرَةُ فَقَدْ وَضَعَتْ بَعْدَ مُوسَى، وَالْإِنْجِيلُ بَعْدَ عِيسَى بَعْدَ طَوِيلٍ، وَنَالَتُهُمَا يَدُ التَّقْلِيمِ وَالتَّطْعِيمِ بِاعْتِرَافِ الشُّرَاحِ وَالنَّاقِدِينَ

(١) الْأَحْقَافُ: ٩.

(٢) الْأَنْبَاءُ: ٧٠.

مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِينَ^(١). وَإِذَنْ فَلَيْسَتْ هُنَاكَ آيَةٌ مُشْكَلَةٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْقُرْآنِ، كَمَا هُوَ الْأَمْرُ بِالْقِيَاسِ إِلَى التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ. وَبِهَذَا نَجِدُ تَفْسِيرَ الْآيَةِ: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ»^(٢).

قَبْلَ الْبُعْثَةِ:

أَنَّ الْخُطْوَةَ الْأُولَى إِلَى الْحُكْمِ بِأَنَّ نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ حَقٌّ وَصِدْقٌ هِيَ أَنْ نَدْرُسَ نَفْسِيَّتَهُ مِنْ حَيْثُ عَقْلُهُ وَإِخْلَاصُهُ، لِأَنَّهُمَا الْأَسَاسُ الْجَوْهَرِيُّ لِكُلِّ دَلِيلٍ يُمَكِّنُ الْإِعْتِمَادَ عَلَيْهِ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ، وَلَكِي نَخْرُجَ بِنَتِيجَةٍ صَحِيحَةٍ فَعَلِينَا أَنْ نَنْظُرَ إِلَى حَيَاةِ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي عَصْرِ مَا قَبْلَ الْبُعْثَةِ، وَيَعْتَدَّ أَرْبَعِينَ سَنَةً^(٣)، وَعَصْرِ الْوَحْيِ، وَالْبُعْثَةِ، وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ ثَلَاثَةِ وَعَشْرِينَ عَامًا^(٤).

فَقَضَى مُحَمَّدٌ ﷺ حَوَالِي خَمْسِ سَنَوَاتٍ فِي الصَّحَرَاءِ عِنْدَ مُرَضَعَتِهِ «حَلِيمَةَ»^(٥) وَكَانَ لَهَا مُضْدَرُّ خَوْفٍ وَسُرُورٍ، خَوْفٌ عَلَيْهِ، وَسُرُورٌ بِهِ، وَبَعْدَ قَلِيلٍ

(١) أنظر، كِتَابُ إِظْهَارِ الْحَقِّ لِلشَّيْخِ رَحْمَةِ اللَّهِ الْهِنْدِيِّ. (مِنْهُ ص: ١٠٠).

(٢) الْحَجَر: ٩.

(٣) أنظر، مُسْنَدُ أَحْمَدَ: ٣/٢٤٠ ح ١٣٥٤٣، مُسْنَدُ أَبِي يَعْلَى: ٦/٣١٩ ح ٣٦٤٣، فَتَحُ الْبَارِي: ١٦٤/٧ ح ٣٦٣٨، تَحْفَةُ الْأَخْوَذِيِّ: ١٠/٦٧، التَّهْمِيدُ لِأَبْنِ عَبْدِ الْبَرِّ: ٣/١٣، شَرْحُ التَّوْوَيْ عَلَى صَحِيحِ مُسْلِمٍ: ١٥/٩٩، حَلِيمَةُ الْأَوَّلِيَاءِ: ٣/٢٦٢، صَفْوَةُ الصَّفْوَةِ: ١/١٥٢، تَارِيخُ الطَّبْرِيِّ: ١/٥٢٦، مُسْتَدْرَكُ الْحَاكِمِ: ٢/٦٢٢، تَارِيخُ أَبِي كَثِيرٍ: ٣/١٢٢.

(٤) أنظر، صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ: ١/٢٦، مُسْنَدُ أَحْمَدَ: ٣/١٨، كَنْزُ الْعُمَالِ: ١٢/٢٦٢ ح ٣٤٩٦٦، الطَّبَقَاتُ الْكُبْرَى: ٢/٢٠٤، مَجْمَعُ الرُّوَاثِدِ: ٩/٢٤، سُنَنِ الدَّارِمِيِّ: ١/٣٧، الْمُعْجَمُ الْكَبِيرُ لِلطَّبْرَانِيِّ: ٢٢٤/٣٤٧.

(٥) أنظر، الطَّبَقَاتُ الْكُبْرَى: ١/٣٣٧، تَارِيخُ الطَّبْرِيِّ: ٢/١٥٧، الْمُعْجَمُ الْكَبِيرُ لِلطَّبْرَانِيِّ: ٢٤/٢١٢.

مَاتَتْ أُمُّهُ آمَنَةٌ^(١)، فَضَمَّهُ جَدُّهُ عَبْدِ الْمُطَّلَبِ، وَمَا بَلَغَ الثَّامِنَةَ مِنْ عُمرِهِ حَتَّى مَاتَ جَدُّهُ^(٢)، فَكَفَّلَهُ عَمَّهُ أَبُو طَالِبٍ^(٣)، وَقَضَى مُحَمَّدٌ مَرَحَلَةَ الشَّبَابِ دُونَ أَنْ يَنْزِلَ ق

↪ الإِسْتِغَابَ: ١٨١٢/٤، تَارِيخُ دِمَشْقَ: ٧٢/١، شَرَحَ الْهَمَزِيَّةَ تَقْلَافًا عَنْ هَامِشِ السِّيَرَةِ الْخَلْبِيَّةِ: ٥٦، بِيْرَةُ أَبِي هِشَامٍ: ١٥٨/١ - ١٦٧، أَبُو الْفَتْوحِ الرَّازِي فِي تَفْسِيرِهِ الْكَبِيرِ: ٤/٢١٠، التَّعْطِيمُ وَالْبَيْئَةُ لِلْسَّيْطَوِيِّ: ٢٥، شَرَحَ النَّجَّحُ، لِأَبْنِ أَبِي الْحَدِيدِ: ٣/٣١١، ذَخَائِرُ الْمُقْبَنِ: ١٦٥، تَهْذِيبُ أَبِي عَسَاكِرَ: ٦/٣٩٠، فَتَحُ الْبَارِي: ١/٢٧، تَارِيخُ دِمَشْقَ: ٢٣/٤٣١، مُجْمَعُ الزُّوَانِدِ: ٥/٣٠٦.

(١) خَرَجَتْ بِهِ أُمُّهُ إِلَى الْمَدِينَةِ لَزِيَارَةِ أَخُوَالِهِ مِنْ بَنِي التَّجَارِ أَيِ أَخُوَالِ جَدُّهِ عَبْدِ الْمُطَّلَبِ فَمَرَضَتْ وَهِيَ رَاجِعَةً بِهِ. وَمَاتَتْ وَدُفِنَتْ بِالْأَبْوَاءِ. وَالْأَبْوَاءُ: قَرْيَةٌ مِنْ أَعْمَالِ الْمَدِينَةِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْجَحْفَةِ وَمِثْلُهَا يَلِي الْمَدِينَةَ ثَلَاثَةُ وَعِشْرُونَ مِيلًا. وَقِيلَ: جَبَلٌ عَلَى بَيْنِ الْمَضْعَدِ إِلَى مَكَّةَ مِنَ الْمَدِينَةِ. أَنْظِرْ، مُعْجَمُ الْبُلْدَانِ: ١/٧٩، الْمُتَعَارِفُ لِأَبْنِ قُتَيْبَةَ: ١٥٠، الْمُتَنَاقِبُ لِأَبْنِ شَهْرَآشُوبَ: ٣/٤٣٧، السِّيَرَةُ لِأَبْنِ هِشَامٍ: ١/١٦٩، تَارِيخُ الْيَعْقُوبِيِّ: ٢/٦٧، دَلَالَةُ النَّبُوَّةِ لِلْبَيْهَقِيِّ: ١/١٨٣.

(٢) أَنْظِرْ، شَرْحُ صَحِيحِ مُسْلِمٍ: ٩/١٤٠، وَ: ١٧/١٣٣، الدِّيْنَانُ عَلَى مُسْلِمٍ: ٣/٤٠٨، وَ: ٦/١٤٨، تَلْخِيصُ الْحَبِيرِ لِأَبْنِ حَجَرٍ: ٤/٥٩٥، مُسْتَدْرَأُ أَحْمَدَ: ١/٣٦٣، وَ: ٥/٨٩، الشُّنَنُ الْكُبْرَى: ٣/١٩٦، دَلَالَةُ النَّبُوَّةِ لِلْبَيْهَقِيِّ: ٢/١٥٣، سُنَنُ الدَّارِمِيِّ: ١/١٥٠، وَ: ١٨ وَ: ٣٦٦، مُجْمَعُ الزُّوَانِدِ: ٢/١٨٢، وَ: ٨/٢٩٨، الْبِدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ: ٦/١٤١، وَ: ٨/٣٠٨، الْمُصَنَّفُ لِأَبْنِ أَبِي شَيْبَةَ الْكُوفِيِّ: ٧/٤٣٣، صَحِيحُ أَبِي خُرَيْمَةَ: ٣/١٤٠، الْمُعْجَمُ الْكَبِيرُ: ١٢/١٤٥، وَ: ٢٣/٢٥٥، الطَّبَقَاتُ الْكُبْرَى: ١/٢٥٢، تَارِيخُ دِمَشْقَ: ٤/٣٩٠، وَ: ٧/٢٠٢، أَسَدُ الْغَابَةِ: ١/٢٩، الْكَامِلُ فِي التَّأْرِيخِ: ٣/٢٨٨، تَهْذِيبُ الْكَمَالِ: ١/٢٣٥، أَسَدُ الْغَابَةِ لِأَبْنِ الْأَثِيرِ: ١/١٤٠، الشَّافِعِيُّ بِتَعْرِيفِ حَقُوقِ الْمُصْطَفَى، الْقَاضِي عِيْنِيَّاسُ: ١/٥٦.

(٣) أَصَابَهُ ﷺ فِي السَّنَةِ السَّابِعَةِ رَمَدٌ شَدِيدٌ، وَلَمَّا مَرَضَ جَدُّهُ عَبْدِ الْمُطَّلَبِ مَرَضَ الْمَوْتِ أَوْصَى بِهِ إِلَى عَمَّتِهِ أَبِي طَالِبٍ لِفَخَامَتِهِ وَكَوْنِهِ شَقِيقَ أَبِيهِ عَبْدِ اللَّهِ فَأَقْتَضَرَ بِشَرَفِ كِفَالَتِهِ، وَتَرْبِيَتِهِ ﷺ، وَكَانَ يَرَى مِنْهُ الْخَيْرَ وَالتَّرَكَّةَ كَشِيْعِ عِيَالِهِ إِذَا أَكَلَ مَعَهُمْ وَعَدَمَ شَبِيْعِهِمْ إِذَا لَمْ يَأْكُلْ مَعَهُمْ، وَنَزُولِ الْمَطَرِ الْفَرَزِيرِ حِينَ اشْتَقَى بِهِ لِقَاطِ أَصَابِ أَهْلِ مَكَّةَ، وَسَافَرَ بِهِ إِلَى الشَّامِ فِي تِجَارَةٍ، فَلَمَّا نَزَلَ الرُّكْبَ بِمَرْيَ رَأَى ﷺ زَاهِبًا بِهَا يُقَالُ لَهُ بُعِيْرًا، وَهُوَ فِي صَوْمَعَتِهِ، وَكَانَ قَدْ أَتَتْهُ إِلَى عِلْمِ النَّصْرَانِيَّةِ فَصَنَعَ لِلْقَوْمِ طَعَامًا كَثِيرًا لِأَجْلِهِ ﷺ، وَكَثِيرًا أَمَا كَانُوا يَعْمُرُونَ بِهِ فَلَا يَكْلَمُهُمْ وَلَا يَعْزِضُ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ قَالَ لِمَنْ أَرْجَعَ بِأَبْنِ أَخِيكَ، وَاحْذَرْ عَلَيْهِ مِنَ الْيَهُودِ، فَلَمَّا فَرَغَ أَبُو طَالِبٍ مِنْ تِجَارَتِهِ رَجَعَ مُسْرِعًا إِلَى مَكَّةَ، أَنْظِرْ، الْبِدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ: ↪

فِي إِثْمٍ أَوْ شَهْوَةٍ مَعَ أَنَّ فُرْصَ الْفَسَادِ كَانَتْ وَافِرَةً فِي مَكَّةَ، وَكَانَ فِي أَعْيُنِ قَوْمِهِ الصَّادِقِ الْأَمِينِ^(١)، وَهَذِهِ شَهَادَةٌ تَأْرِخِيَّةٌ تُعْطِيَانَا صُورَةً مُفْصَلَةً وَثَمِينَةً عَنِ نَفْسِيَّتِهِ.

وَفِي سَنِ الْخَامِسَةِ وَالْعِشْرِينَ تَزَوَّجَ خَدِيجَةَ^(٢)، وَتَرَكَ هَذَا الزَّوَاجَ وَثَائِقَ قِيَمَةٍ فِي سِيرَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْهَا الْخُطْبَةُ الَّتِي أَلْفَاهَا عَمَّهُ أَبُو طَالِبٍ فِي زَوَاجِ ابْنِ أَخِيهِ حَيْثُ قَالَ:

➡ ٣٤٥/٢، الْكَاشَفُ: ٢٦٤/٣، تَقْرِيبُ التَّهْذِيبِ: ٣٨٤/٢، وَأَخْرَجَهُ أَبُو نَعِيمٍ عَنِ الْوَاقِدِيِّ عَنْ شَيْخُوهُ، وَذَكَرَهُ ابْنُ حَجَرٍ فِي الْإِصَابَةِ: ١٧٩/١، وَأَبْنُ سَعْدٍ فِي الطَّبَقَاتِ: ١٢١/١، وَالتَّسْوِيطِيُّ فِي الْخَصَائِصِ: ٢٠٨/١، وَدَلَّاهُ النَّبِيُّ: ٢١٥/١، وَ: ٢٤/٢، أَبُو هِشَامٍ فِي السِّيَرَةِ: ١٨٠/١، وَالتِّرْمِذِيُّ بِرَقْمٍ «٣٦٢٤»، وَالْفَتْحُ: ٣٤٥/١٠، الْبِدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ: ٣٤٥/٢، تَقْرِيبُ التَّهْذِيبِ: ٣٨٤/٢، الْإِصَابَةُ: ١٧٩/١، الطَّبَقَاتُ الْكُبْرَى: ١٢١/١، وَالتَّسْوِيطِيُّ فِي الْخَصَائِصِ: ٢٠٨/١، دَلَّاهُ النَّبِيُّ: ٢١٥/١، وَ: ٢٤/٢، أَبُو هِشَامٍ فِي السِّيَرَةِ: ١٨٠/١، عُمْدَةُ الْقَارِيءِ لِلْغَنِيِّ: ٤٣٤/٣، الْمَوَاهِبُ اللَّدِّيَّةُ: ٤٨/١.

(١) أَنْظِرْ، مُسْنَدُ الشَّهَابِ: ٧٥/١ ح ٦٨، أَمْثَالُ الْحَدِيثِ: ١٥٣/١ ح ١١٧، شُعَبُ الْإِيمَانِ: ١٧٥/٥ ح ٦٦٠، الْفَرَزْدَقُ سَمَّا تَوْرَ الْخَطَّابِ: ٥٥/٢ ح ٢٣١٣، السِّيَرَةُ النَّبَوِيَّةُ لِابْنِ هِشَامٍ: ١٨٢/٣، سُبُلُ الْهُدَى وَالرَّشَادِ: ٤٧٨/١، تَأْرِخُ الْيَمْعُومِيِّ: ٨/٢، تَأْرِخُ الطَّبْرِيِّ: ٥٨١/١.

(٢) أَوَّلُ أَزْوَاجِهِ ﷺ: خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ بِنِ اسْدٍ بِنِ عَبْدِ الْعَزَى بِنِ قُصَيٍّ، تَزَوَّجَهَا ﷺ قَبْلَ الْوَحْيِ وَعُمُرُهُ حِينَئِذٍ خَمْسٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً، وَقِيلَ: إِحْدَى وَعِشْرُونَ سَنَةً، وَكَانَ عُمُرُهَا حِينَئِذٍ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَأَقَامَتْ مَعَهُ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ سَنَةً، وَلَمْ يَنْكَحْ عَلَيْهَا امْرَأَةً حَتَّى مَاتَتْ، وَأَمَّا: فَاطِمَةُ بِنْتُ زَائِدَةَ بِنِ الْأَصَمِّ، مَنِ بَنِي غَامِرٍ بِنِ لُؤْيٍ.

وَكَانَتْ خَدِيجَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَوْسَطَ نِسَاءِ قُرَيْشٍ نَسَبًا، وَأَعْظَمَهُنَّ شَرَفًا، ثَوَقِيَتْ بَعْدَ أَبِي طَالِبٍ ﷺ بِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، وَسَمَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَلِكَ الْيَوْمَ يَوْمَ الْحُزْنِ، (أَنْظِرْ، جَوَامِعُ السِّيَرَةِ: ٣١، أَسَدُ النَّسَابَةِ: ٧٨/٧، الْمَعَارِفُ لِابْنِ قُتَيْبَةَ: ١٣٢، تَعْقِيقُ ثُرْوَةِ عَكَاشَةَ طَبْعَةً قَدِّمَ، السِّيَرَةُ النَّبَوِيَّةُ لِابْنِ هِشَامٍ:

«أَمَا تَعُدُّ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا مِمَّنْ لَا يُوزَنُ بِهِ فَتَى مِنْ قُرَيْشٍ إِلَّا رَجَحَ بِهِ شَرَفًا وَنُبْلًا، وَفَضْلًا وَعَقْلًا، وَإِنْ كَانَ قُلًّا فَإِنَّ الْمَالَ ظِلُّ زَائِلٍ، وَعَارِيَّةٌ مُسْتَرْجَعَةٌ وَلَهُ فِي حَدِيثَةٍ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ رَغْبَةٌ، وَلَهَا فِيهِ مِثْلُ ذَلِكَ»^(١).

وَهَذِهِ الْكَلِمَاتُ تَصَلُّنَا تَمَامًا بِصُورَةِ الصَّادِقِ الْأَمِينِ، وَتَتَّفَقُ مِنْ كُلِّ وَجْهِ مَعَ الصُّورَةِ التَّأْرِيخِيَّةِ لِبُطْلِ أَعْظَمِ مَلْحَمَةٍ فِي الْعَالَمِ كُلِّهِ.

وَكَانَ مُحَمَّدٌ أَمِيًّا، وَعَاشَ فِي بَيْتَةٍ جَاهِلَةٍ مُشْرِكَةٍ... وَلَكِنَّهُ كَانَ حَنِيفًا يُؤْمِنُ بِإِلَهِ وَاحِدٍ، وَقَدْ أَتَاهُ هَذَا الْإِيمَانُ مِنَ الْإِلَهَامِ الْفِطْرَةِ، وَصَفَاءِ الْعَقْلِ، وَمِنْ الْوَرَاثَةِ عَنْ جَدِّهِ الْبَعِيدِ إِسْمَاعِيلَ، وَلَمْ يَكُنْ فِي مَقْدُورِهِ أَنْ يَحْصَلَ عَلَى آيَةٍ مَعْلُومَاتٍ مِنْ مَصْدَرٍ خَارِجٍ، وَكَانَ يَمِيلُ إِلَى الْعُزْلَةِ بِخَاصَّةٍ بَعْدَ زَوَاجِهِ.

وَلَا شَيْءَ عَلَى الْإِطْلَاقِ يُشِيرُ، وَلَوْ مِنْ بَعِيدٍ، إِلَى أَنَّهُ كَانَ يَحْلُمُ وَيُفَكِّرُ فِي أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا الْمُسْتَقْبَلِ، بَلْ لَدَيْنَا شَاهِدٌ تَأْرِيخِيٌّ غَيْرُ قَابِلٍ لِلطَّعْنِ وَالتَّجْرِيعِ - عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ أَدْنَى أَمَلٍ فِي أَنْ يَقُومَ بِدَوْرِ النَّبِيِّ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَمَا كُنْتُ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ»^(٢).

وَهَذِهِ الْآيَةُ صُورَةٌ صَحِيحَةٌ وَصَادِقَةٌ لِحَالَةِ النَّفْسِ عِنْدَ مُحَمَّدٍ أَيَّامَ غَارِ حِزَاءٍ^(٣)، وَإِذْنُ فَلَيْسَ هُنَاكَ مِنْ سَبَبٍ لِأَنْ يُنْسَبَ إِلَى الصَّادِقِ نَبِيَّةٌ مُبَيَّنَةٌ لِدَعْوَةِ

(١) انظر، صفوة الصفوة: ٧٤/١، السيرة الحلبية: ١٣٨/١، الرُّوضُ الْأَنْفُ: ٢٣٨/٢، المعارف: ١٦٧.

السيرة النبوية: ١٢٠/١، الوفا بأحوال المصطفى: ١٤٥/١، منية الرَّاغِب: ٥٧.

(٢) الْفَقْص: ٨٦.

(٣) انظر، تفسير ابن كثير: ١٣٨/٢، صحيح مسلم: ١٨١/٥، كتاب الهوائف لإبْنِ أَبِي الدُّنْيَا: ١٦.

صحيح ابن جِبَّان: ٥١٧/١٤، شرح النووي على صحيح مسلم: ١٥٥/١٢، الرُّوضُ الْأَنْفُ:

١٦٨/٢، شرح الأزهار: ١٢٠/١، تلخيص الحبير: ٣/٧، المحلى: ١٠٥/٥.

النُّبُوَّةَ، كَمَا زَعَمَ بَعْضُ الْمُسْتَشْرِقِينَ وَالْمُبَشِّرِينَ ضِدَّ الْإِسْلَامِ.
وَالْخُلَاصَةُ: أَنَّ جَمِيعَ صِفَاتِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَأَحْوَالِهِ قَبْلَ الْبِعْثَةِ كَانَتْ تُرَشِّحُهُ
لِلرِّسَالَةِ الْإِلَهِيَّةِ، وَلِكُلِّ مَا حَدَّثَ بَعْدَ الْبِعْثَةِ دُونَ أَنْ يَشْعُرَ هُوَ بِذَلِكَ.
وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ وَالنَّاسُ هَذِهِ الصِّفَاتِ الْجَلِيَّةِ مِنَ الصَّادِقِ الْأَمِينِ وَسَجَّلَ سُبْحَانَهُ
فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ بِقَوْلِهِ: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾^(١)، وَقَوْلُهُ: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ
فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^(٢).

بَعْدَ الْبِعْثَةِ:

وَجَاءَتْ سِيرَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ بَعْدَ الْبِعْثَةِ أَمْتَدَادًا لِسِيرَتِهِ قَبْلَهَا كَمَالًا فِي الْعَقْلِ
وَالْإِدْرَاكِ، وَعَظَمَةٍ فِي الصِّفَاتِ وَالْأَخْلَاقِ، ذَلِكَ هُوَ الْأَسَاسُ وَالْخَطُّ الْعَرِيزُ
لِلْأَقْوَالِ وَأَفْعَالِهِ فِي شَتَّى مَرَاحِلِ حَيَاتِهِ، وَكُلَّ مَا فِي الْأَمْرِ أَنَّهُ اخْتَفَى مِنْ مَسْرَحِ
التَّأْرِيخِ قَبْلَ الْبِعْثَةِ، وَظَهَرَ بَعْدَهَا كَالشَّمْسِ فِي وَضْعِ النَّهَارِ.
وَمَرَّ مُحَمَّدٌ ﷺ بِفِتْرَةِ عَصِيَّةٍ، وَشَمَلَهُ أَلَمٌ بَعْدَ أَنْ أَتَمَّ الْأَرْبَعِينَ مِنْ عُمُرِهِ
الشَّرِيفِ، ذَلِكَ أَنَّهُ سَمِعَ صَوْتًا يُنَادِيهِ وَيَقُولُ لَهُ: أَقْرَأُ.
فَقَالَ: مَا أَنَا بِقَارِيءٍ فَضَمَّهُ حَتَّى بَلَغَ مِنْهُ الْجَهْدَ، ثُمَّ أَطْلَقَهُ.
فَقَالَ لَهُ: أَقْرَأُ.
فَقَالَ: مَا أَنَا بِقَارِيءٍ فَضَمَّهُ كَذَلِكَ ثُمَّ أَطْلَقَهُ.
فَقَالَ لَهُ: أَقْرَأُ.

(١) الْأَنْعَامُ: ١٢٤.

(٢) يُونُسَ: ١٦.

فَقَالَ : مَا أَنَا بِقَارِيءٍ فَضَمَّهُ كَذَلِكَ ، ثُمَّ أَطْلَقَهُ .
فَقَالَ لَهُ : أَقْرَأُ .

فَقَالَ : مَا أَنَا بِقَارِيءٍ فَضَمَّهُ كَذَلِكَ ثُمَّ أَطْلَقَهُ .

فَقَالَ لَهُ : « أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ أَفَرَأَى أَلَّا تُكْرِمُ
الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » ^(١) .

فَوَقَفَ حَائِزاً لِهَذِهِ الْمَفَاجَأَةِ ، وَهَبَ كَأَنَّمَا مَسَّهُ الْحُمَى ، وَفَكَرَ مَلِيّاً : مِنْ أَيْنَ
جَاءَ هَذَا الصَّوْتُ ؟ وَهَلْ مُجَرَّدَ سَمَاعِهِ كَافٍ لِلتَّصْدِيقِ ^(٢) ؟ .

أَبَداً... لَا يَأْخُذُ مُحَمَّدٌ بِالشُّبْهَةِ ، وَلَا يَجْزُمُ بِاللَّمَحَةِ ، وَلَا يَتَّقِي إِلَّا بِالْحُجَّةِ الْبَالِغَةِ
وَالْبَرَاهِينِ الْفَاطِعَةِ ، كَمَا هُوَ شَأْنُ كُلِّ عَظِيمٍ يُسَيِّطِرُ عَلَى ذَاتِهِ ، وَيُقَدِّرُ كُلَّ خُطْوَةٍ مِنْ
خُطَوَاتِهِ بِخَاصَّةٍ إِذَا كَانَ الْأَمِينُ عَلَى التَّنْزِيلِ ، وَلَكِنَّ الصَّوْتَ يُعَاوَدُهُ وَيَتَكَرَّرُ... ثُمَّ
يُظْهِرُ لَهُ جَبْرِيلَ عَلَى هَيْئَةِ رَجُلٍ ، وَيَسْتَيْقِنُ النَّبِيَّ ، وَيَخْشَعُ قَلْبُهُ ، وَتَنْزُولُ الرِّيْبَةِ
وَالْحَيْرَةِ... قَالَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ : حِينَ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ : « فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا
أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَفْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ
فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ » ^(٣) .

(١) أَلْتَلَقَ : ١- ٥ . وَأَنْظُرْ . صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ : ٣/١ ، مُسْنَدُ أَحْمَدَ : ٢٣٣/٦ ، فَتَحُ الْبَارِي : ٢٢/١ ،
الدُّيْنَانِيُّ عَلَى صَحِيحِ مُسْلِمَ : ١٨٣/١ ، الْمُصَنَّفُ لِعَبْدِ الرَّزَّاقِ الصَّنْعَانِيِّ : ٣٣٥/٥ ، الذُّرِّيَّةُ الطَّاهِرَةُ
النَّبَوِيَّةُ : ٣٤ .

(٢) أَنْظُرْ . مُسْنَدُ أَحْمَدَ : ٢٤٠/٣ ح ١٣٥٤٣ ، مُسْنَدُ أَبِي يَعْلَى : ٣١٩/٦ ح ٣٦٤٣ ، فَتَحُ الْبَارِي :
١٦٤/٧ ح ٣٦٣٨ ، ثُعْفَةُ الْأَخْوَذِيِّ : ٦٧/١٠ ، التَّهْمِيدُ لِابْنِ عَبْدِ الْبَرِّ : ١٣/٣ ، شَرْحُ النَّوَوِيِّ عَلَى
صَحِيحِ مُسْلِمَ : ٩٩/١٥ ، حَلِيَّةُ الْأَوْزَلِيَاءِ : ٢٦٢/٣ ، ضَفْوَةُ الصَّفْوَةِ : ١٥٢/١ ، تَأْرِيخُ الطَّبْرِيِّ :
٥٢٦/١ ، مُسْتَدْرَكَ الْحَاكِمِ : ٦٢٢/٢ ، تَأْرِيخُ أَبِي كَثِيرٍ : ١٢٢/٣ .

(٣) يُؤَنَسُ : ٩٤ .

فَعَقَّبَ النَّبِيُّ عَلَيْهَا وَقَالَ: لَا أَشْكُ وَلَا أَسْأَلُ^(١).

وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا الْإِقْتِنَاعَ وَالْيَقِينَ بُرْهَانَ مُبَاشِرَ عَلَى نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ، لِأَنَّهُ لَمْ يَحْدُثْ عَنْ حَدْسٍ وَوَهْمٍ، بَلْ عَنْ حِسٍّ وَعِلْمٍ... عَلَى أَنَّ هَذَا الدَّلِيلَ يَصْحَبُهُ دَلَالِيلُ كَثِيرَةٌ، مِنْهَا الدَّلِيلُ التَّالِي:

إِعْجَازُ الْقُرْآنِ:

«وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ، وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ»^(٢).

وَمَا ذَكَرَ التَّأْرِيخُ أَنَّ أَحَدًا قَدْ أَجَابَ عَنْ هَذَا التَّحْدِي، وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ إِعْجَازَ الْقُرْآنِ الْأَدْبِي قَدْ أَفْحَمَ فِعْلًا عِبَرِيَّةَ ذَلِكَ الْعَصْرِ... هَذَا مُلَخَّصُ مَا قَالَهُ عُلَمَاءُ الْمُسْلِمِينَ.

وَلَكِنْ لَدَيْنَا دَلِيلٌ آخَرٌ، وَهُوَ أَنَّ النَّفْسَ الْبَدَوِيَّةَ طَرُوبُ فِي جَوْهَرِهَا، وَقَدْ تَجَلَّى ذَلِكَ فِي تَعْبِيرِ مُوسِيقَى مَوْزُونٍ هُوَ بَيْتُ الشَّعْرِ الَّذِي أَسْتَوَحَاهُ الْعَرَبُ مِنْ خُطْوَةِ الْجَمَلِ الْقَصِيرَةِ أَوْ الطَّوِيلَةِ، وَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ عَبَّرَ عَنْ هَذِهِ النَّفْسِ الْبَدَوِيَّةِ الطَّرُوبُ بِصُورَةٍ جَدِيدَةٍ، وَهِيَ النَّثْرُ الْقُرْآنِيُّ الَّذِي أَقْصَى الشَّعْرَ وَأَبْقَى الْوِزْنَ وَالْمُوسِيقَى... وَهَذَا يُكْمِّنُ سِرَّ الْإِعْجَازِ الْأَدْبِيِّ^(٣). وَبِهِ يُفَسَّرُ قَوْلُ الْوَلِيدِ بْنِ

(١) أنظر: تفسیر جامع البیان: ٢١٨/١١، المصنف لقبد الرزاق الصنعاني: ١٢٦/٦ ح ١٠٢١١، الأذکار النووية: ١٢٨، تفسیر ابن کثیر: ١٧٣/٢، تفسیر الجلالین: ٢١٨، الدر المنثور: ٣١٧/٣، تفسیر التعلیبي: ٢٦٦/٣.

(٢) الأنقرة: ٢٣.

(٣) أيضاً نحنُ لَدَيْنَا وَجْهٌ آخَرُ أَشْرْنَا إِلَيْهِ فِي التَّفْسِيرِ الْكَاشِفِ: ٤٣٧/٥، وَيَتَلَخَّصُ بِأَنَّ أَسْلُوبَ الْكَلَامِ

الْمُغِيرَةِ: «وَاللَّهُ لَقَدْ سَمِعْتُ كَلَامًا مِنْ مُحَمَّدٍ مَا سَمِعْتُ مِثْلَهُ قَطَّ، وَاللَّهُ مَا هُوَ بِالشَّعْرِ وَلَا بِالْكَهَانَةِ»^(١). وَهُنَاكَ الْعَدِيدُ مِنَ الشَّوَاهِدِ عَلَى أَنَّ كَثِيرًا مِنْ بُلَغَاءِ الْعَرَبِ تَحَوَّلُوا مِنَ الشُّرْكِ إِلَى الْإِسْلَامِ بِفِعْلِ هَذَا التَّأثيرِ.

هَذَا مِنْ حَيْثُ الشَّكْلِ، أَمَّا مِنْ حَيْثُ الْمَضْمُونِ فَإِنَّ رَحَابَةَ الْمَوْضُوعَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ وَتَنَوُّعَهَا لَشَيْءٍ فَرِيدٍ فَهُوَ يَبْدَأُ حَدِيثَهُ مِنَ الذَّرَّةِ فِي الصَّخْرَةِ، وَفِي الْأَرْضِ وَفِي السَّمَاءِ، كَمَا فِي الْآيَةِ: «يَبْنِيْ إِنَّهَا إِنْ تَكُنْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ»^(٢)، ثُمَّ يَتَحَدَّثُ عَنِ النُّجْمِ الَّذِي يَسْبَحُ فِي فُلْكِهِ نَحْوُ مُسْتَقَرِّهِ الْمَعْلُومِ، وَعَنِ الْكَوْنِ وَمَا وَرَاءَهُ، وَعَنِ الْإِنْسَانِ، وَالْأَدْيَانِ، وَالْعَادَاتِ، وَالْأَخْلَاقِ، وَالتَّشْرِيعِ، وَالْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ، وَالْقُرُونِ الْخَالِيَةِ... إِلَى كَثِيرٍ... وَأَمَامَ هَذَا الْمَشْهَدِ الْعَظِيمِ وَقَفَ الْفِيلَسُوفُ «تُومَاسُ كَارِلِيل» وَصَرَخَ مِنْ أَعْمَاقِهِ صَرْخَةً الْإِعْجَابِ وَقَالَ: «هَذَا الْقُرْآنُ صَدَى مُتَجَبَّرٍ مِنْ قَلْبِ الْكَوْنِ نَفْسِهِ».

فَهَلْ كَانَ عِنْدَ مُحَمَّدٍ عِلْمُ الْكَوْنِ كُلِّ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ عِلْمٍ، ثُمَّ جَمَعَهُ فِي كِتَابٍ كَمَا يَفْعَلُ الْمُؤَلِّفُونَ وَالْمُصَنِّفُونَ؟... كَلَّا، أَنَّ عَبَقِيَّةَ الْإِنْسَانِ مَهْمَا بَلَغَتْ مِنَ الْعَظَمَةِ فَإِنَّهَا تَحْمِلُ بِالضَّرُورَةِ طَائِعَ الْأَرْضِ، تَخْضَعُ لِقَانُونِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ، بَيْنَمَا يَتَخَطَّى الْقُرْآنُ دَائِمًا هَذَا الْقَانُونِ... وَفَضْلًا عَنْ ذَلِكَ لَوْ كَانَ الْقُرْآنُ مِنْ عِنْدِ مُحَمَّدٍ ﷺ لَتَحَدَّثَ فِيهِ كَثِيرًا عَنْ نَفْسِهِ، وَعَنِ النَّازِلَةِ الَّتِي أَصَابَتْهُ فِي أَوْجِ دَعْوَتِهِ

«فِيهِ رُوحُ الشَّكْلِ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ» لَيْسَ كَمِثْلَيْ شَيْءٍ الشُّرُوءُ: ١١. فَكَذَلِكَ كَلَامُهُ. (مِنْهُ ﷺ).

(١) انظر، تَفْسِيرُ الْقُرْطُبِيِّ: ٣٣٩/١٥، تَفْسِيرُ الطَّبْرِيِّ: ١٥٧/٢٩، الْإِغْتِقَادُ: ٢٦٧/١، السِّيَرَةُ النَّبَوِيَّةُ:

بِفَقْدِ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ، وَزَوْجَتِهِ خَدِيجَةَ، وَقَدْ كَانَ حَتَّى آخِرِ لَحْظَةٍ مِنْ حَيَاتِهِ يَبْكِيهِمَا بِخَاصَّةٍ إِذَا ذُكِرَ أَسْمُ أَحَدِهِمَا أَمَامَهُ، وَرَغَمَ هَذَا لَا نَجِدُ أَيَّ صَدَى لِمَوْتِهِمَا فِي الْقُرْآنِ.

هَلْ أَخَذَ مُحَمَّدٌ ﷺ مِنَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ؟

وَقَالَ قَائِلٌ: أَنَّ مُحَمَّدًا تَلَقَّى تَعْلِيمًا شَخْصِيًّا وَمُبَاشَرًا عَنِ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ! وَنَقُولُ فِي جَوَابِهِ:

أَوَّلًا: أَنَّ الدُّكْتُورَ بَشَرَ فَارِسَ تَسَاءَلَ فِي إِحْدَى الدَّرَاسَاتِ: هَلِ الْإِسْلَامُ مِنْ صُنْعِ الْيَهُودِ النَّصَارَى؟

ثُمَّ أَجَابَ: بِأَنَّ الْأَبَّ لِأَمَانَسِ الْمَعْرُوفِ بَعْدَانِهِ لِلْإِسْلَامِ قَدْ نَفَى ذَلِكَ.

ثَانِيًا: لَمْ يَكُنْ فِي عَهْدِ الرَّسُولِ ﷺ آيَةٌ تَرْجِمُهُ عَرَبِيَّةً لِلتَّوْرَةِ أَوِ الْإِنْجِيلِ، وَلَا كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ أَوْ غَيْرُهُ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ يَتَقَنَّ اللُّغَةَ الْعِبْرِيَّةَ^(١).

ثَالِثًا: أَنَّ الْقُرْآنَ تَحَدَّى الْيَهُودَ فِيمَا دَارَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَقَالَ لَهُمْ: «فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلَوْهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ»^(٢).

وَأَيْضًا تَحَدَّى أَهْلَ الْكِتَابِ بَوَاحٍ فِي الْآيَةِ: «فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ»^(٣).

فَأَيْنَ مَكَانُ الدَّلَالَةِ عَلَى السَّرَقَاتِ وَالْفَلَتَاتِ... أَجَلْ، أَخَذَ الْقُرْآنُ مِنَ التَّوْرَةِ

(١) وَإِلَى هَذَا تُشِيرُ الْآيَةُ: (١٠٣) مِنَ النَّحْلِ: «وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ». (بُنْهَ ٢٠).

(٢) آلِ عِمْرَانَ: ٩٣.

(٣) الصَّافَّاتِ: ١٥٧.

هَذِهِ الْآيَةُ الَّتِي رَسَمْتُ لِلْيَهُودِ هَذِهِ الصُّورَةُ: «مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطُّغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ»^(١).

وَأَيْضًا أَخَذَ الْقُرَّاءُ مِنَ الْإِنْجِيلِ هَذِهِ الْآيَةُ: «لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ»^(٢)؛ وَهَذِهِ الْآيَةُ: «يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لِمَنْ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ»^(٣).

(١) التَّائِيْدَةُ: ٦٠.

(٢) التَّائِيْدَةُ: ٧.

(٣) آلِ عِمْرَانَ: ٧١-٧٢.

بَاقَةُ مِنْ حَدِيثِ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ ﷺ

رُبَّمَا كَانَ الدَّاءُ دَوَاءً:

شَعَرْتُ مِنْذُ أَيَّامٍ بِالْمَلَلِ وَالْعُزُوفِ عَنِ الْقِرَاءَةِ وَالْكِتَابَةِ... وَلَكِنِّي حِثْتُ فِي أَمْرِي وَتَسَاءَلْتُ: بِمَاذَا أَلْهُو وَأَسْدُ الْفِرَاعَ؟... وَأَيُّنَ هُوَ الْمُحَدِّثُ اللَّبِقُ أَوِ الْمُسْتَمِعُ الْفَهِيمُ... وَالْمُسْكَلَةُ أَنَّ الْكِتَابَ وَالْقَلَمَ هُمَا مُتَعْتِي الْوَحِيدَةُ، وَمَهْنَتِي الْأُولَى وَالْآخِرَةُ، فَإِذَا تَعَذَّرَا فَمَا عَسَى أَنْ يَبْقَى؟.

وَأَجَابَ الْإِمَامُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ بِقَوْلِهِ: «رُبَّمَا كَانَ الدَّوَاءُ دَاءً، وَالدَّاءُ دَوَاءً»^(١). وَنَظَّمَ أَبُو نُؤَاسٍ هَذِهِ الْحِكْمَةَ فَقَالَ: «وَدَاوَنِي بِأَلَّتِي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ»^(٢). وَإِذَنْ لَا طَرِيقَ إِلَى الْخَلَاصِ إِلَّا بِالْقَلَمِ أَوِ الْكِتَابِ، وَأَخْتَرْتُ الْقِرَاءَةَ لِأَنَّهَا أَيْسَرُ مَوْوَنَةٍ، وَأَكْثَرُ مُنْتَعَةٍ.

وَلَكِنْ مَاذَا أَقْرَأُ، وَلَا جَدِيدَ عَلَيَّ فِي مَكْتَبَتِي؟ وَهَلْ أُعِيدُ وَأُكْرَّرُ مَا سَبَقَ؟ كَيْفَ وَأَنَا هَارِبٌ مِنَ السَّامَةِ وَالْمَلَامَةِ... وَبَلَا شَرْحٍ طَوِيلٍ أَوْ قَصِيرٍ فَقَدْ دَبَّرَهَا سُبْحَانَهُ

(١) أَنْظِرْ، نَهْجُ الْبَلَاغَةِ: الرِّسَالَةُ (٣١).

(٢) أَنْظِرْ، الدِّيَّانُ: ٢٣١، شَرْحُ نَهْجِ الْبَلَاغَةِ لِأَيِّنِ أَبِي الْحَدِيدِ: ١٦/١٠١، وَصَدَرَ النَّيِّبُ:

دَعِ عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّ اللُّومَ

إِغْرَاءٌ

بَلُطْفِهِ، وَالْأَهْمَنِي إِلَى السَّيْرِ النَّبِيرَةِ الْعَطْرَةِ، سِيرَةِ الْمُصْطَفَى وَالرَّسُولِ الْمُجْتَبَى... وَمَا أَنْ قَرَأْتُ أَوَّلَ سَطْرِ وَقَعْتَ عَيْنِي عَلَيْهِ حَتَّى عَبَقْتُ رَائِحَةَ النُّبُوَّةِ، وَهَبْتُ أَنْسَامَهَا فِي قَلْبِي فَأَحْيَيْتَهُ وَأَنْعَشْتَهُ... وَأَقِفْ هُنَا عِنْدَ الْبَاقَةِ التَّالِيَةِ مِنْ حَدِيثَةِ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ.

مِنْ خِلَالِهِ الْجُلَى:

كَانَ النَّبِيُّ أَوَّلَ مَنْ يَجُوعُ وَآخِرَ مَنْ يَشْبَعُ، وَكَانَ فِي طَعَامِهِ لَا يَرِدُ مَوْجُودًا وَلَا يَتَكَلَّفُ مَفْقُودًا وَمَا عَابَ طَعَامًا قَطَّ وَإِذَا لَمْ يَجِدْهُ صَبَرَ حَتَّى أَنَّهُ لَيَرْبِطُ حَجَرَ الْمَجَاعَةِ عَلَى بَطْنِهِ أَنَّهُ كَانَ يَشُدُّ عَلَى بَطْنِهِ حَجْرًا مِنَ الْمَجَاعَةِ^(١)، وَصَلَّى مَرَّةً وَهُوَ جَالِسٌ مِنْ شِدَّةِ الْجُوعِ، وَتُوَفِّي وَدَرَعَهُ مَرْهُونَةٌ هَذَا^(٢)، وَتَرَوُةَ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ طَوَّعَ بَنَانَهُ، وَلَكِنْ مَا دَامَ فِيهَا جَائِعٌ وَاحِدٌ فَعَلَى وَلِي الْأَمْرِ أَنْ يُسَاوِيَهُ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ، وَإِلَّا كَانَ مُغْتَصِبًا لِحَقِّهِ وَمُعْتَدِيًا عَلَيْهِ.

وَكَانَ يُحِبُّ النِّظَافَةَ وَحُسْنَ الْمَظْهَرِ، وَكَانَ أَكْثَرَ النَّاسِ أَبْتِسَامًا، وَلَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا فِيمَا رَجَا ثَوَابَهُ مِنَ اللَّهِ، وَمَا ذَمَّ أَحَدًا، أَوْ غَيَّرَهُ بِشَيْءٍ أَوْ طَلَّبَ لَهُ عَثْرَةً وَعَوْرَةً، وَلَا سَأَلَ أَحَدًا حَاجَةً إِلَّا وَرَّجَعَ بِهَا أَوْ بَمَيُّسُورٍ مِنَ الْقَوْلِ، وَكَانَ يَضْرِبُ عَلَى جَفْوَةِ السَّائِلِ، وَلَا يَقْبَلُ ثَنَاءً إِلَّا مِنْ لَكَافِيٍّ، وَلَا يَقْطَعُ عَلَى أَحَدٍ كَلَامَهُ إِلَّا إِذَا تَجَاوَزَ

(١) أنظر، مَجْمَعُ الزَّوَائِدَ: ٣٠٧/٨، الْمُصَنَّفُ لِابْنِ أَبِي شَيْبَةَ: ٣٧٧/٧ ح ٣٦٨١١، شَرَحَ مَعَانِي الْأَنْبَارِ:

١٦/٢، الْمُعْجَمُ الْأَوْسَطُ: ٣٦٧/٣، مُسْتَدْرَأُ أَحْمَدَ: ٤٤/٣ ح ١١٤١٩، الزُّهْدُ لَهْثَادَ: ٣٩٤/٢ ح ٧٦٥.

فَتْحُ الْبَارِي: ٥٨٩/٦، صَفْوَةُ الصَّفْوَةِ: ١/١٩٩، الْمُعْجَمُ الْكَبِيرُ: ١٠٦/٢٥.

(٢) أنظر، مَجْمَعُ الزَّوَائِدَ: ١٢٠/٣، كُنْزُ الْعُمَالِ: ٣٥٦/٦ ح ١٦٠٣٨، مُسْتَدْرَأُ أَحْمَدَ: ٣٠٠/١، السُّنَنِ

الْكَبِيرُ: ٧/٤، تَرْكَةُ النَّبِيِّ ﷺ لِحَمَادِ بْنِ زَيْدٍ الْبَغْدَادِيِّ: ٧٦، الْبِدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ: ٣٠٥/٥.

فِينَهَا أَوْ يَقُومُ، وَإِذَا دَخَلَ عَلَى قَوْمٍ قَعَدَ حَيْثُ يَنْتَهِي بِهِ الْمَكَانُ، وَ يُعْطَى كُلُّ جَلِيسٍ حَقَّهُ، بَلْ مَا جَالَسَ أَحَدًا إِلَّا وَحَسَبَ أَنَّهُ أَكْرَمُ النَّاسِ عَلَيْهِ، وَإِذَا بَلَغَهُ عَنْ أَحَدٍ مَا يَكْرَهُ فَلَا يُسَمِّيه، وَيَكْتَفِي بِقَوْلِهِ: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَفْعَلُونَ كَذَا وَكَتَيْ»^(١).
لَا تَغْضِبُهُ الدُّنْيَا، وَلَا مَا كَانَ فِيهَا، فَإِذَا أَعْتَدَى عَلَى الْحَقِّ لَمْ يَقَمْ لِفَضْلِهِ شَيْءٌ حَتَّى يَنْتَصِرَ لَهُ وَلَا يَغْضَبَ لِنَفْسِهِ، وَلَا يَنْتَصِرَ لَهَا، يُحْسِنُ الْحَسَنَ وَيُقَوِّيه، يُقَبِّحُ الْقَبِيحَ وَيَرُدُّعَهُ.

يُضْحِكُكَ لِلتُّكْتَةِ:

كَانَ نُعَيْمَانُ الْأَنْصَارِيُّ يُمَارِسُ الدَّعَابَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَسَمَّ كُلَّمَا رَأَاهُ، وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ وَتَرَكَ نَاقَتَهُ بِالْقُرْبِ مِنْهُ.. فَقَالَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ لِنُعَيْمَانَ: لَوْ نَحَرْتَهَا، فَقَدْ مَضَى عَلَيْنَا أَمَدٌ لَمْ نَذُقْ فِيهِ اللَّحْمَ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَدْفَعُ ثَمَنَهَا لِلْأَعْرَابِيِّ، فَبَادَرَ نُعَيْمَانٌ وَنَحَرَهَا، ثُمَّ أَطْلَقَ سَاقِيهِ مَعَ الرِّيحِ، وَلَمَّا خَرَجَ الْأَعْرَابِيُّ ذَهَلَ مِمَّا رَأَى بِنَاقَتِهِ، وَصَاحَ: وَاعْقَرَاهُ يَا مُحَمَّدُ.
فَخَرَجَ يَسْأَلُ: مَا الْخَبَرُ؟

قَالُوا: نُعَيْمَانُ فَعَلَ مَا تَرَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَمَرَ بِالْبَحْثِ عَنْهُ، وَكَانَ قَدْ اخْتَبَأَ فِي خَنْدَقٍ، فَأَخْرَجُوهُ، وَجِيءَ بِهِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: مَا حَمَلَكَ عَلَى هَذَا؟
قَالَ: الَّذِينَ وَشَوُا بِي هُمْ أَغْرَوْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ، وَدَفَعَ ثَمَنَ النَّاقَةِ.
كَانَ نُعَيْمَانُ يَشْتَرِي الْأَطْعَمَةَ وَالْفَاكِهَةَ، وَيَأْتِي بِهَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَيَقُولُ لَهُ: كُلْ يَا

(١) أنظر، شرح النووي على صحيح مسلم: ٤٨/٣، الديباج: ٨٠/١ ح ٥٨، فيض القدير: ٦٣/١.

البيان والتعريف: ١١/١، أبجد العلوم: ٥٣٧/٢.

رَسُولُ اللَّهِ، هِيَ هَدِيَّةٌ مِنِّي إِلَيْكَ، إِذَا طَالَبَ صَاحِبُ السَّلَاقَةِ نُعَيْمَانُ أَخَذَهُ إِلَى النَّبِيِّ وَقَالَ لَهُ: أَعْطَهُ ثَمَنَ مَتَاعِهِ. فَيَقُولُ لَهُ النَّبِيُّ: أَلَمْ تُهْدِهِ لَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُ نُعَيْمَانُ: بَلَى، وَلَكِنْ أَنْتَ الَّذِي أَكَلْتَهُ، وَلَيْسَ أَنَا، فَيَضْحَكُ النَّبِيُّ، وَيَدْفَعُ الثَّمَنَ^(١).

وَقَبِلَ رَجُلٌ أَمْرًا أَجْنَبِيَّةً كَانَتْ مَارَّةً فِي طَرِيقِهَا، فَشَكَّتْهُ إِلَى النَّبِيِّ، وَلَمَّا سَأَلَهُ اعْتَرَفَ وَقَالَ: مَرَّهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ تَقْتَصَّ مِنِّي. فَتَبَسَّمَ النَّبِيُّ وَقَالَ: اسْتَغْفِرَ اللَّهُ، وَلَا تَعُدْ إِلَيَّ مِثْلَهَا.

فَقَالَ: لَنْ أَعُودَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَتَجَاوَزَ عَنْهُ^(٢). وَقَالَ لَهُ أَعْرَابِي: بَلَّغْنَا أَنَّ الدَّجَالَ يَأْتِي النَّاسَ بِالثَّرِيدِ، وَقَدْ هَلَكُوا جُوعًا، أَتَرَى أَنْ أَكْفَ تَعَفُّفًا وَأُمُوتَ جُوعًا؟

فَضَحِكَ النَّبِيُّ وَقَالَ: يُغْنِيكَ اللَّهُ بِمَا يُغْنِي الْمُؤْمِنِينَ^(٣). وَجَاءَهُ رَجُلٌ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَقَالَ لَهُ: هَلَكْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ لَهُ: وَمَا هَلَكْتُ؟

قَالَ: وَقَعْتُ عَلَى أَهْلِي فِي رَمَضَانَ. قَالَ: هَلْ تَجِدُ رَقَبَةً تَعْتَقُهَا؟ قَالَ: لَا.

قَالَ: هَلْ تَسْتَطِيعُ إِطْعَامَ سِتِّينَ مِسْكِينًا؟

(١) أنظر، تاريخ مدينة دمشق: ١٤٦/٦٢ و ١٤٧، أسد الغابة: ٣٦/٥، الإصابة: ٣٦٦/٦، الأعلام: ٤١/٨.

(٢) أنظر، بخار الأنوار: ٦/٦، باب مزاحه وضحكه. (مئة جزء).

(٣) أنظر، مناقب آل أبي طالب: ١٢٩/١، بخار الأنوار: ٢٩٥/١٦، مستدرک الوسائل: ٤١١/٨.

قَالَ: لَا.

فَجَاءَ النَّبِيُّ بِوَعَاءٍ مِنْ تَمْرٍ وَقَالَ: تَصَدَّقْ بِهِ.

قَالَ: وَاللَّهِ مَا عَلَيَّ وَجْهٌ الْأَرْضُ مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ أَحْوَجَ مِنَّا.

فَضَحِكَ النَّبِيُّ وَقَالَ: إِطْعِمْهُ أَهْلَكَ. وَهَكَذَا فَازَ الرَّجُلُ بِاللَّدُنَيْنِ^(١).

أَعْدَلُهُ:

كَانَ الصَّدَقُ وَالْإِحْلَاصُ عِدَّةَ النَّبِيِّ وَدِرْعَهُ الْوَاقِيَةَ، وَكَانَ يُقَاوِمُ قِيَوَى الْعَثُوِّ وَالْبَغْيِ بِالصَّبْرِ وَالْإِحْتِمَالِ، وَالثِّقَةِ بِاللَّهِ وَالْحَقِّ..

قَالَتْ لَهُ زَوْجَتُهُ حَدِيثَةً، وَهِيَ أَعْرَفُ النَّاسِ بِهِ: «كَلَّا أَبْشِرْ فَوَاللَّهِ لَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا إِنَّكَ لَتَصِلَ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقَ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلَ الْكَلَّ، وَتُقْرِىَ الضَّيْفَ، وَتُعِينَ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ». ثُمَّ أَنْطَلَقَتْ بِهِ حَدِيثَةً حَتَّى أُتِيَتْ بِهِ وَرَقَةٌ مِنْ نُوفَلٍ^(٢) هُوَ ابْنُ عَمِّ حَدِيثَةٍ وَكَانَ أَمْرًا تَتَصَرَّفُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعَرَبِيَّ، وَفِي رَوَايَةِ الْعِبْرَانِي فَيَكْتُبُ بِالْعَرَبِيَّةِ مِنَ الْإِنْجِيلِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ.

فَقَالَتْ لَهُ حَدِيثَةً: يَا أَبْنِ الْعَمِّ أَسْمَعْ مِنْ أَبْنِ أَخِيكَ!.

(١) أنظر، صحيح البخاري: ٢/٢٣٦، مُسْنَدُ أَحْمَد: ٥١٦/٢، الْمُحَلَّى لِابْنِ حَزْم: ٦/١٩٠، السُّنَنِ

الْكُبْرَى: ٢/٢١٢ ح ٣١١٧، مُسْنَدُ أَبِي يَعْلَى: ١٠/٨٩ ح ٥٧٢٥، دَعَائِمُ الْإِسْلَام: ١/٣٧٣.

(٢) أنظر، مُجْمَعُ الرُّوَاثِد: ٩/٤١٥، سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ وَرَقَةٍ مِنْ نُوفَلٍ، فَقِيلَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ كَانَ

يَسْتَقْبِلُ الْقِبْلَةَ، وَيَقُولُ: إِلَهِي إِلَهَ زَيْدٍ، وَدِينِي دِينَ زَيْدٍ». فَقَالَ: «رَأَيْتَهُ يَمْشِي فِي بَطْنَانِ الْجَنَّةِ عَلَيْهِ حُلَّةٌ

مِنْ سُنْدُسٍ». كَمَا جَاءَ فِي دَلَالَةِ النُّبُوَّةِ، لِأَبِي نَعِيمٍ: ح ٥٥، تَارِيخُ الطَّبْرِيِّ: ٥/٤٢، الطَّبَقَاتُ الْكُبْرَى

لِابْنِ سَعْدٍ: ٣/١٠٢، ٢٥٨/١، فَتُوْحُ الْبُلْدَانِ لِلْبَلَاذُرِيِّ: ٤٦٠.

فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا أَبْن أَخِي! مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَبْرَ مَا رَأَى.
فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَلَ عَلَى مُوسَى^(١). يَأْتِيَنِي فِيهَا جِدْعًا، لَيْتَنِي
أَكُونُ حَيًّا إِذَا يَخْرُجُكَ قَوْمُكَ.
فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَوْ مُخْرِجِي هُمْ؟.

قَالَ: نَعَمْ. لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتُ بِهِ إِلَّا عُودِي، وَإِنْ يَدْرِكْنِي يَوْمَكَ
أَنْصُرُكَ نَصْرًا مُؤَزَّوًّا، ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوْفِّي، وَفَتَرَ الْوَحْيَ فِتْرَةً حَتَّى حَزَنَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حُزْنًا شَدِيدًا، وَكَانَ مُدَّةَ فِتْرَتِهِ ثَلَاثَ سِنِينَ كَمَا جَزَمَ بِهِ أَبْنُ إِسْحَقَ.
ثُمَّ نَزَلَ عَلَيْهِ جِبْرِيلُ بِسُورَةِ: «يَتَأْتِيهَا الْمُدَّتُّرُ فَمَنْ فَنَذِرْ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ
وَالرُّجْزَ فَاهْجُزْ»^(٢).

وَإِذَا رَأَاهُ أَعرَابِي قَالَ: مَا هَذَا الْوَجْهَ وَجْهَ كَذَّابٍ... وَلَكِنْ أَعْدَاءَهُ قَالُوا: هُوَ
سَاحِرٌ، لِأَنَّهُ أَتَى بِمَا عَجَزُوا عَنْ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ، وَقَالُوا: مَجْنُونٌ، لِأَنَّهُ سَفَهَ عَقُولَهُمْ،
وَقَالُوا: كَاهِنٌ، لِأَنَّهُ أَخْبَرَ بِالْغَيْبِ... وَسُرْعَانَ مَا أَفْتَضَحُوا بِأَكَاذِبِهِمْ وَأَضَالِيلِهِمْ
وَاسْتَسْلَمُوا لِلْحَقِّ صَاعِرِينَ.

كَانَ النَّبِيُّ يَوْمًا فِي الْمَسْجِدِ، وَالصَّحَابَةُ مِنْ حَوْلِهِ، يُحَدِّثُهُمْ وَيَسْتَمْعُونَ إِلَيْهِ،
فَقَالَ لَهُمْ مِنْ جُمْلَةٍ مَا قَالَ: سَيَدْخُلُ عَلَيْكُمْ مِنْ هَذَا الْبَابِ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ،
وَمَا أَنْتُمْ كَلَامُهُ حَتَّى دَخَلَ رَجُلٌ مِنْ سَائِرِ النَّاسِ لَا أَحَدٌ يَعْرِفُ لَهُ سَابِقَةَ تُذَكَّرُ،
فَتَعَجَّبَ الصَّحَابَةُ، وَتَسَاءَلُوا فِي أَنْفُسِهِمْ: مَا الَّذِي رَفَعَ هَذَا الشَّخْصَ عَلَى سِوَاهُ؟
وَبَأَيِّ شَيْءٍ اسْتَحَقَّ هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ وَالشَّهَادَةَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ؟.

(١) أنظر، السيرة النبوية لابن هشام: ٢٣٧/١، بالإضافة إلى المصادر السابقة.

(٢) الْمُدَّتُّرُ: ١-٥.

فَتَقَصَّى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ أَخْبَارَهُ، وَظَلَّ يُرَاقِبُهُ أَيَّامًا عَسَى أَنْ يَهْتَدِيَ إِلَى طَرِيقِهِ فَيَسْلُكَهُ... وَلَكِنْ مَا وَجَدَهُ أَكْثَرَ عِبَادَةً وَعِلْمًا، وَلَا جِهَادًا وَكِرَمًا مِنْ أَيِّ رَجُلٍ مِنَ الصَّحَابَةِ، فَذَهَلَ وَأَسْتَوَلَتْ عَلَيْهِ الْحَيْرَةُ، وَقَالَ لِلرَّجُلِ: أَنْ رَسُولَ اللَّهِ أَخْبَرَنَا أَنَّكَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَا زَايْتُ مِنْكَ مَا تَمْتَازُ بِهِ عَمَّنْ سِوَاكَ، فَمَا هُوَ السِّرُّ؟

قَالَ الرَّجُلُ: أَبَدًا لَا سِرَّ وَلَا شَيْءَ وَرَاءَ مَا زَايْتُ... أَجَلَ أَنِّي لَا أَحْقِدُ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا أَحْسَدُ أَحَدًا عَلَى خَيْرٍ أَعْطَاهُ اللَّهُ لَهُ. قَالَ أَبُو عُمَرَ: هُنَا يَكْمُنُ السِّرُّ^(١).

أَجَلَ، هَذَا هُوَ ثَمَنُ الْجَنَّةِ فِي رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ: أَنْ لَا تَحْقِدَ وَتَحْسَدَ، لَا تُتْلِقَ وَتُتَافَقَ، لَا تُشْمِتَ بِالْمُصِيبَةِ، وَتَحْسَدَ عَلَى النُّعْمَةِ... أَمَّا الْعِبَادَةُ فَالْحِكْمَةُ مِنْهَا التَّذْكِيرُ بِاللَّهِ، وَالِاسْتِعْدَادُ لِلتَّامِّ لَطَاعَتِهِ، وَالْكَفُّ عَنِ مَعْصِيَتِهِ، وَمَا عُصِيَ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِثْلَ الْإِسَاءَةِ إِلَى عِبَادِ اللَّهِ وَعِيَالِهِ.

وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ قَالَ لِأَبِي ذَرٍّ: كَفَّ أَدَاكَ عَنِ النَّاسِ فَإِنَّهُ صَدَقَ عَنْ نَفْسِكَ^(٢).

وَقَالَ الْإِمَامُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: «يَنْسُ الرَّادُّ إِلَى الْمَعَادِ الْعُدْوَانَ عَلَى الْعِبَادِ»^(٣). وَمِنْ أَقْوَالِ الْإِمَامِ عليه السلام: «أَسْوَأُ النَّاسِ حَالًا مَنْ لَمْ يَثِقْ بِأَحَدٍ لِسُوءِ ظَنِّهِ، وَلَمْ يَثِقْ بِهِ أَحَدٌ لِسُوءِ فِعْلِهِ»^(٤).

(١) أنظر، كتاب الصُّمْتِ وَآدَابِ اللِّسَانِ لِأَبْنِ أَبِي الدُّنْيَا: ٩٤.

(٢) أنظر، صُحُوحُ أَبِي جَبَّانَ: ١٧١/٨ ح ٣٣٧٧، شُعْبُ الْإِيْتَانِ: ١٠٦/٦ ح ٧٦١٨.

(٣) أنظر، نَهْجُ الْبَلَاغَةِ: الْحِكْمَةُ (٢٢١).

(٤) أنظر، كَنْزُ الْفَوَائِدِ: ٢٨٣، بَحَارُ الْأَنْوَارِ: ٩٣/٧٥ ح ١٠٤. وَفِي شَرْحِ نَهْجِ الْبَلَاغَةِ لِأَبْنِ أَبِي الْحَدِيدِ:

٣١١/٢٠. وَرَدَّتْ الْحِكْمَةُ (٥٦٨) هَكَذَا: «مَنْ لَمْ يَثِقْ لَمْ يُوَثَّقْ بِهِ».

وَقَالَ ﷺ: «وَرُبَّ بَعِيدٍ أَقْرَبُ مِنْ قَرِيبٍ، وَقَرِيبٍ أَبْعَدُ مِنْ بَعِيدٍ، وَالْقَرِيبُ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَبِيبٌ مَنْ تَعَدَّى الْحَقَّ صَاقَ مَذْهَبُهُ، وَمَنْ أَقْتَصَرَ عَلَى قَدْرِهِ كَانَ أَبْنَى لَهُ، وَأَوْتَقَى سَبَبٌ أَخَذَتْ بِهِ سَبَبٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ»^(١).

مَحْوُ الْأَمِيَّةِ:

أَوَّلُ آيَةٍ نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ: «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ»^(٢).
وَقَضَى النَّبِيُّ فِي أَسْرَى بَدْرٍ أَيْ يَطْلُقُ كُلَّ أَسِيرٍ يُعَلِّمُ عَشْرًا مِنْ صِبْيَانِ الْمُسْلِمِينَ، وَمِنْ الْأَتُسِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَأُصُولِهَا وَجُوبِ التَّعْلِيمِ وَالتَّعَلُّمِ، وَمَنْ أَهْمَلَ وَقَصَرَ اسْتَحَقَّ اللُّومَ وَالْعِقَابَ^(٣).

وَكَانَ فِي قَبِيلَةِ الْأَشْعَرِيِّينَ فُقَهَاءٌ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَنْفَرُونَ إِلَى مَنْ حَوْلِهِمْ مِنَ الْقَبَائِلِ لِيُفْقَهُوهُمْ فِي الدِّينِ... فَخَطَبَ النَّبِيُّ ﷺ النَّاسَ وَقَالَ غَاضِبًا: «مَا بَالِ أَقْوَامٍ لَا يُفْقَهُونَ جِيرَانَهُمْ وَيُعَلِّمُونَهُمْ؟ وَمَا بَالِ أَقْوَامٍ لَا يَتَعَلَّمُونَ مِنْ جِيرَانِهِمْ وَلَا يَتَفَقَّهُونَ وَعَرَفَ الْأَشْعَرِيُّونَ أَنَّ النَّبِيَّ يَقْصِدُهُمْ بِقَوْلِهِ: «لَا يُفْقَهُونَ جِيرَانَهُمْ» فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَقَدْ ذَكَرْتَنَا بَشَرًا: قَالَ: لِيَعْلَمَنَّ قَوْمُ جِيرَانِهِمْ، أَوْ لِأَعْجَلَنَّهُمْ

(١) أنظر، نهج التبلاغة: من وصية له ﷺ إلى أنبيي الأتباع الحسن ﷺ رقم الرسالة (٣١).
وأنظر، قريب من هذا بلفظ: «القريب من قرنته الأخلاق» في الكافي: ٦٤٣/٢ ح ٧، وتُحَفُّ الْقَوْلُ: ٢٣٤، وسَائِلُ الشَّيْعَةِ: ٥٢/١٢ ح ٤، كُنْزُ الْمُتَالِ: ١٦/١٢٢ و ١٨١ ح ٤٤١٤٣ و ٤٤٣٩٢.
تَارِيخُ بَغْدَادَ: ٣٠٨/٣، عُيُونُ الْحِكْمِ وَالْمَوَاعِظُ: ٢٦٦.

(٢) أَلْفَلَقِ: ١.

(٣) أَهْمَلَتْ الدُّوْلُ الْإِسْلَامِيَّةُ هَذَا الْمَبْدَأَ وَهُوَ مِنْ صَمِيمِ الْإِسْلَامِ عَلَى رَغْمِ مَا تَمَلَّكَ مِنْ فُرُوتٍ وَطَاقَاتٍ، وَلِإِهْمَالِ هَذَا الْأَصْلِ بِالْخُصُوصِ، وَغَيْرِهِ عَلَى الْعُمُومِ تَأَخَّرَ الْمُسْلِمُونَ عَنْ رَكَبِ الْحَيَاةِ، وَتَسَلَّطَ عَلَيْهِمْ شَرُّ أَهْلِ الْأَرْضِ الصَّهْيُونِيَّةِ وَالْإِسْتِعْمَارِ. (مِنْهُ ﷺ).

بِالْمَقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا» ^(١)... وَأَيَّامًا كَانَ رَاوِي هَذَا الْحَدِيثِ فَتَحْنُ لَا نَشْكُ فِي صِدْقِهِ، لِأَنَّهُ قَانِمٌ عَلَى أَسَاسِ صُلْبٍ وَمَتِينٍ فِي مُكَافَحَةِ الْجَهْلِ وَالْأُمِّيَّةِ.

أَلْقُرْآنُ يَا سِرَّ الْقَلْبِ وَالْعَقْلِ :

كَانَ ثُمَامَةُ بْنُ أَنَّثَالٍ يَغْتَرُّ بِرِيَاسَتِهِ عَلَى قَوْمِهِ بَنِي حَنِيفَةَ، وَكَانَ يَشْتَطُّ وَيَفِرُّطُ فِي عَدَائِهِ لِلْإِسْلَامِ وَنَبِيِّهِ... يُؤَلِّبُ عَلَيْهِ، وَيَسْعَى لِقَتْلِهِ بِكُلِّ سَبِيلٍ، وَكَانَ النَّبِيُّ يَدْعُو رَبَّهُ بِأَنْ يُمَكِّنَهُ مِنْ ثُمَامَةَ... وَقَدْ اسْتَجَابَ سُبْحَانَهُ دُعَاءَ نَجِيِّهِ، وَجِيءَ بِثُمَامَةَ أُسِيرًا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، فَأَمَرَ بِحَبْسِهِ فِي الْمَسْجِدِ، وَوَكَّلَ بِهِ بَعْضَ الصَّحَابَةِ، وَكَانَ النَّبِيُّ إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ يُؤَمُّ الْمُسْلِمِينَ فِي الصَّلَاةِ - يَقْتَرِبُ مِنْ ثُمَامَةَ وَيَقُولُ لَهُ: مَالِكَ يَا ثُمَامَةَ؟ فَيُجِيبُ: قَدْ كَانَ ذَلِكَ يَا مُحَمَّدٌ... إِنْ تَقَتَّلَ فَإِنَّ وَرَائِي قَوْمًا، وَإِنْ تَعَفَّ، تَعَفَّ عَنْ شَاكِرٍ، وَإِنْ طَلَبْتَ مَا لَمْ حَمَلْتَهُ إِلَيْكَ. وَتَكَرَّرَ السُّؤَالُ مِنَ النَّبِيِّ كُلَّ يَوْمٍ، وَالْجَوَابُ وَاحِدٌ مِنْ ثُمَامَةَ.

وَكَانَ النَّبِيُّ فِي كُلِّ مَرَّةٍ يُوصِي بِثُمَامَةَ، وَيُنْصَرِفُ إِلَى الصَّلَاةِ، وَيَتْلُو مِنْ آيِ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ، وَالْمُسْلِمُونَ خَلْفَهُ يَرْكَعُونَ وَيَسْجُدُونَ، يَسْتَوِي بَيْنَهُمُ الصَّغِيرُ وَالْكَبِيرُ، وَالْفَقِيرُ وَالْغَنِيُّ، وَبَعْدَ الصَّلَاةِ يَتَحَلَّقُونَ حَوْلَ النَّبِيِّ يَسْتَمْعُونَ إِلَيْهِ بِقُلُوبِهِمْ وَعُقُولِهِمْ رَاجِينَ خَاشِعِينَ، كُلُّ ذَلِكَ وَثُمَامَةَ يَسْمَعُ وَيَرَى وَيَعْجَبُ مِنْ هَذِهِ الْوَحْدَةِ وَالْفَلَةِ، وَهَذِهِ الرُّوحَ الْقُدْسِيَّةَ الَّتِي تُسَيِّطِرُ عَلَى الْجَمِيعِ، وَكَيْفَ يُسَاوِي الدِّينَ الْجَدِيدَ بَيْنَ النَّاسِ جَمِيعًا لَا سَيِّدَ وَمُسُودَ وَلَا نَسَبَ وَحَسَبَ، وَلَا جَاهَ وَثَرَاءَ...

(١) أنظر، مُجْمَعُ الرُّوَايَدِ: ١/١٦٤، كَثْرَةُ الْعُمَالِ: ٣/٦٨٤ ح ٨٤٥٧ و ٩/٥٨ ح ٢٤٩٣، التَّارِغِيبُ

والتَّارِغِيبُ: ١/٧١ ح ٢٠٤.

وَأَيْضاً يُدْهَشُ ثُمَامَةً مِنْ حِفَاوَةِ الصَّحَابَةِ النَّبِيِّ، وَحُبِّهِمْ لَهُ، يَفْتَدُونَهُ بِالْمُهَجِ
وَالْأَرْوَاحِ، وَالْآبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ!... وَفَوْقَ ذَلِكَ كَانَ ثُمَامَةً مَأْخُوداً بِسِحْرِ الْقُرْآنِ
وَإِعْجَازِهِ نَاسِياً قَوْمَهُ وَأَهْلَهُ، وَذُلَّهُ وَأَسْرَهُ، وَلَمْ يَعِدْ يَشْعُرُ بِشَيْءٍ إِلَّا بِعَظَمَةِ الْإِسْلَامِ
وَنَبِيِّ الْإِسْلَامِ وَصَحَابَتِهِ.

فَحَاسِبَ نَفْسَهُ، وَنَدِمَ عَلَى مَا فَعَلَتْ، وَتَمَنَّى لَوْ كَانَ قَدْ سَبَقَ إِلَى الْإِسْلَامِ وَجَاهَدَ
أَعْدَاءَهُ بِالنَّفْسِ وَالتَّنَافُسِ، أَمَّا الْآنَ فَلَا يَتَّبِعُ مُحَمَّداً مِنْ مَوْقِفِ الْأَسْرِ وَالضَّعْفِ
خَوْفاً مِنَ الْعَارِ، وَأَنْ يُقَالَ: مَا أَسْلَمَ بَلْ أَسْتَسَلَّمَ حِرْصاً عَلَى حِشَاشَتِهِ. وَقَرَأَ النَّبِيُّ
مَا فِي نَفْسِ ثُمَامَةَ فَقَالَ لَهُ: مَا لَكَ؟ فَأَبَى أَنْ يَلِينَ وَهُوَ أَسِيرٌ وَقَالَ: إِنْ تَقْتُلْ فَإِنَّ
وَرَأْيِي قَوْمًا، وَإِنْ تَعَفَّ، تَعَفَّ عَنْ شَاكِرٍ.

فَقَالَ النَّبِيُّ: بَلْ عَفَوْتَ عَنْكَ.

فَقَالَ ثُمَامَةً: أَمَّا الْآنَ فَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ.

كَيْفَ تَحُولُ ثُمَامَةً، وَاتَّعَلَّ بِمَا يَشَبَّهُ الطَّفَرَةَ مِنَ الْعَدَاءِ إِلَى الْوَلَاءِ، وَمِنْ الْكُفْرِ
إِلَى الْإِيمَانِ؟ أَنَّهَا لظَاهِرَةٌ فَرِيدَةٌ لِلْوَهْلَةِ الْأُولَى، وَلَكِنْ إِذَا تَأَمَّلْنَا قَلِيلاً اتَّضَحَ
السَّبَبُ وَزَالَ الْعَجَبُ... أَنَّ الْحَقَّ بِطَبْعِهِ يَأْسِرُ الْقَلْبَ وَالْعَقْلَ إِلَّا أَنْ يَحُولَ دُونَهُ
حَائِلٌ مِنَ الْهَوَى وَالْجَهْلِ.. وَالْحَائِلُ الْعَارِضُ يَزُولُ لِسَبَبٍ أَوْ لآخر.... وَمَا تَتَكَرَّرُ
ثُمَامَةً لِلْإِسْلَامِ وَمُحَمَّدٍ ﷺ إِلَّا لِلْجَهْلِ وَتَضْلِيلِ الدَّعَايَاتِ الْكَاذِبَةِ وَبَعْدَ أَنْ شَاهَدَ
وَرَأَى ظَهَرَ الْحَقِّ، وَأَثَرُ أَثَرِهِ وَأَسْرَ قَلْبِهِ تَلَقَّائِيًّا وَمِنْ غَيْرِ قَضْد^(١). وَصَدَقَ عَلَيْهِ

(١) أنظر، قصّة ثُمَامَةَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ: ١٥٨٩/٤ ح ٤١١٤، تَفْسِيرُ الْقُرْطُبِيِّ: ١٤٣/١٢، تَفْسِيرُ

أَبْنِ كَثِيرٍ: ١٧٤/٤، تَفْسِيرُ الطَّبْرِيِّ: ٤٢/٢٦، صَحِيحُ أَبِي خُرَيْمَةَ: ١٢٥/١ ح ٢٥٢، صَحِيحُ أَبِي

جَبَّانَ: ٤٢/٤ ح ١٢٣، مَوَارِدُ الظُّلَمَانِ: ٥٦٨/١ ح ٢٢٨١، مُسْنَدُ أَبِي عَوَانَةَ: ٢٥٧/٤ ح ٦٦٩٦.

مَجْمَعُ الزَّوَائِدِ: ٢٨٣/١، سُنَنِ التَّبَهَقِيِّ الْكُبْرَى: ١٧١/١ ح ٧٧٧.

قَوْلُ الْإِمَامِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: « مَا جَالَسَ هَذَا الْقُرْءَانَ أَحَدٌ إِلَّا قَامَ عَنْهُ بِزِيَادَةٍ، أَوْ نَقْصَانٍ: زِيَادَةٍ فِي هُدًى، أَوْ نَقْصَانٍ مِنْ عَمَى. وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى أَحَدٍ بَعْدَ الْقُرْءَانِ مِنْ فَاقَةٍ، وَلَا لِأَحَدٍ قَبْلَ الْقُرْءَانِ مِنْ غِنًى، فَاسْتَشْفُوهُ مِنْ أَدْوَانِكُمْ، وَاسْتَمِينُوا بِهِ عَلَى لَأْوَائِكُمْ، فَإِنَّ فِيهِ شِفَاءً مِنْ أَكْبَرِ الدَّاءِ: وَهُوَ الْكُفْرُ وَالنَّفَاقُ، وَالْعَنَى وَالضَّلَالُ، فَاسْأَلُوا اللَّهَ بِهِ، وَتَوَجَّهُوا إِلَيْهِ بِحُبِّهِ، وَلَا تَسْأَلُوا بِهِ خَلْقَهُ، إِنَّهُ مَا تَوَجَّهَ الْعِبَادُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِمِثْلِهِ » ^(١).

وَقَالَ مَنْ يَنْطِقُ بِلُغَةِ الْوَحْيِ: « مِثْلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا قَيْتَةٌ قَبِلَتْ الْمَاءَ، فَانْتَبَتِ الْكَلَأُ وَالْعُشْبُ الْكَثِيرُ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَفَقَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرَبُوا وَسَقُوا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَ مِنْهَا طَائِفَةٌ أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قَيْعَانٌ لَا تَمْسُكُ مَاءً، وَلَا تَنْبُتُ كَلَأً » ^(٢).

الرَّفْقُ بِالْحَيَوَانِ:

كَانَ ﷺ يَسْقِي الْهَرَّةَ بِيَدِهِ، وَيَمِيلُ لَهَا الْإِنَاءَ لَتَشْرَبَ، وَرَأَى جَمَلًا هَزِيلاً فَقَالَ: أَتَقُوا اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ أَطْعَمُوهَا وَارْكَبُوهَا صَالِحَةً » ^(٣). وَرَأَى فَرَسًا طَائِرًا فِي يَدِ

(١) أنظر، نهج التبليغ: الخطبة (١٧٦).

(٢) أنظر، صحيح البخاري: ٤٢/١ ح ٧٩، تفسير ابن كثير: ٢٢٣/٢، صحيح مسلم: ١٧٨٧/٤ ح ٢٢٨٢، صحيح ابن جبان: ١٧٧/١ ح ٤، مسند أبي يعلى: ٢٩٦/١٣، السنن الكبرى: ٤٢٧/٣ ح ٥٨٤٣، مسند الزَّيَّار: ١٤٩/٨ ح ٣١٦٩، إعتقاد أهل السنة: ٧٨/١ ح ٨٧، التَّوْبَةُ وَالتَّوْبَةُ: ٤٦/١٥ ح ٥٥/١، شرح النووي على صحيح مسلم: ٤٦/١٥ ح ١١، مكارم

(٣) أنظر، المجموع: ٣٩١/٤، تاريخ المدينة: ٥٣٦/٢، وسائل الشريعة: ٥٤٢/١٦ ح ١١، مكارم الأخلاق: ٢٩، مناقب آل أبي طالب: ١٠٤/١، فيض القدير شرح الجامع الصغير: ٢٤٧/٥، كشف الحفاء: ١٧٤/١ ح ٥١٧.

رَجُلٌ وَأُمُّهُ تَحُومُ حَوْلَهُ وَتُزْفَرُ فَقَضِبَ وَقَالَ: «أَرَدْتُ إِلَيْهَا وَلَدَهَا».
وَمَرَّتْ بِهِ شَاةٌ، وَهُوَ يَأْكُلُ الرُّطْبَ فَأَشَارَ إِلَيْهَا بِالنُّوَى، فَذَنَّتْ وَأَطْعَمَهَا بِيَدِهِ
وَرَأَى كَلْبَةً مَعَ صَغَارِهَا فَأَمَرَ بِرِعَائَتِهَا... وَعَلَّقَ الْكَاتِبُ الْإِنْجِلِيزِي (مونتجمري)
عَلَى هَذِهِ الْحَادِثَةِ فِي كِتَابِ مُحَمَّدٍ - يَقُولُ: «هَذَا شَيْءٌ رَائِعٌ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ».
وَمِنْ أَحَادِيثِهِ: «الرَّفَقُ يُنَمِّ، وَالْحَرَقُ شُوْمٌ»^(١)... أَنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفِيقَ..
لَكُمْ فِي كُلِّ كَبَدٍ أَجْرٌ... الْمُثَلَّةُ حَرَامٌ حَتَّى بِالْكَلْبِ الْعَقُورِ»^(٢)... أَنَّ لِلدَّابَّةِ عَلَى
صَاحِبِهَا سِتُّ خِصَالٍ: (يَعْلِفُهَا إِذَا نَزَلَ عَنْهَا، وَيَعْرِضُ عَلَيْهَا الْمَاءَ إِذَا مَرَّ بِهِ، وَلَا
يَضْرِبُ وَجْهَهَا، وَلَا يَقِفُ عَلَى ظَهْرِهَا، وَلَا يُحْمِلُهَا فَوْقَ طَاقَتِهَا، وَلَا يُكَلِّفُهَا مِنْ
الْمَشْيِ مَا لَا تَسْتَطِيعُ... رُبَّ دَابَّةٍ مَرْكُوبَةٍ خَيْرٌ مِنْ رَاكِبِهَا)^(٣). وَهَكَذَا يُحَرِّمُ
الْإِسْلَامُ أَذَى كُلِّ ذِي نَفْسٍ إِنْسَانًا كَانَ أَمْ حَيَوَانًا.
وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُوصِي زَوْجَتَهُ خَدِيجَةَ أَنْ تُعَامَلَ جَوَارِيهَا كَمَا لَوْ كُنَّ حَرَائِرَ.

(١) أنظر: كُنْزُ الْعُمَالِ ٥١/٢ ح ٥٤٤٧ و ٥٤٤٨. الْأَحْكَامُ لِلْإِمَامِ يَحْيَى بْنِ الْحُسَيْنِ: ٥٣٧/٢.
الْكَافِي: ١١٩/٣ ح ٤، نُحْفُ الْمُقُول: ٣٩٥. مِيزَانُ الْإِعْتِدَالِ فِي نَقْدِ الرُّجَالِ: ١٩/٢ ح ٧٨٣٤.
التَّأْرِيخُ الْكَبِيرُ لِلْبُخَارِيِّ: ١٥٧/١ الرُّقْمُ «٤٦٩». الْكَامِلُ فِي التَّأْرِيخِ: ١٨٨/٦، التَّأْرِيخُ الصَّغِيرُ:
١٦٢/٢.

(٢) أنظر: ذَخَائِرُ الْمُقْبَى: ١١٦، مَجْمَعُ الرُّوَاثِد: ٢٤٩/٦ و ١٤٢/٩، الْمُعْجَمُ الْكَبِيرُ: ١٠٠/١ و:
٤٠٣/١٢ ح ١٣٤٨٥ و ١٥٧/١٨ ح ٣٤٣ و ٣٤٥، الْبِدَايَةُ فِي تَخْرِيجِ أَحَادِيثِ الدَّزَايَةِ: ٣٨/٢ ح
٤٩٨، نَصَبُ الرِّيَاضَةِ: ٢٢٤/٣، الْمَبْسُوطُ لِلشَّرْحِيِّ: ١٣٥/٩، السُّبُرُ الْكَبِيرُ لِلشَّيْبَانِيِّ: ١١٠/١ و:
١٠٢٩/٣، تَنْزِيهِ الْأَنْبِيَاءِ: ٢١٨، وَهَذَا أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ تَنْهَى عَنِ الْمُثَلَّةِ كَمَا جَاءَ فِي مُشْنَدِ أَحْمَدَ:
٢٤٦/٤ و ٤٤٠ و ١٢/٥، شَرْحُ مَقَانِي الْأَثَارِ: ١٨٣/٣، الشُّنَنُ الْكُبْرَى: ٦٩/٩.

(٣) أنظر: الْكَافِي: ٥٣٧/٦ ح ١، دَعَائِمُ الْإِسْلَامِ: ٣٤٧/١، وَسَائِلُ الشَّيْخَةِ: ٤٨٠/١١ ح ٦، مَكَارِمُ
الْأَخْلَاقِ: ٢٦٢، الْمَحَاسِنُ: ٦٢٧/٣ ح ٩٦، الْخِصَالُ: ٣٣٠ ح ٢٨.

وَأَنْ تُسَمِّيَ مَنْ تَمْلِكُ الْفَتَيَانَ وَالْفَتَيَاتِ بَدَلًا مِنْ كَلِمَةِ الْجَوَازِي وَالْعَبِيدِ .
وَكَانَ يَشْعُرُ بِحَنَانٍ خَاصٍّ نَحْوِ الْأَطْفَالِ ، فَإِذَا مَرَّ بِصَبِيَّةٍ أَبْتَسَمَ لَهُمْ وَأَقْرَأَهُمُ
السَّلَامَ ، وَتَحَدَّثَ إِلَيْهِمْ وَقَالَ : « خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي » ^(١) .
وَلَمَّا أَصِيبَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ ذَهَبَ إِلَى بَيْتِهِ فَبَكَتْ أَبْنَتُهُ ، فَبَكَى ^(٢) ، وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ مَرَّ
بِصَبِيٍّ فَرَأَاهُ حَزِينًا ، وَلَمَّا سَأَلَهُ عَنِ السَّبَبِ قَالَ : أَنَّ بُلْبُلَهُ قَدْ مَاتَ . فَعَزَّاهُ وَخَفَّفَ
عَنْهُ ^(٣) . . . وَمِنْ أَحَادِيثِهِ : « مَنْ كَانَ لَهُ صَبِيٌّ فَلْيَسْتَصَابْ لَهُ » ^(٤) . أَيُّ يُعَامِلُهُ كَمَثِيلٍ
وَنَظِيرٍ .

الفِرَاسَةُ :

كَانَ إِذَا سَأَلَ النَّبِيَّ سَائِلٌ تَفَرَّسَ فِي وَجْهِهِ ، ثُمَّ يُجِيبُهُ بِمَا يَنْتَاسِبُ مَعَ حَالِهِ .

(١) أنظر ، صحيح ابن حبان : ٤٨٤ / ٩ ح ٤١٧٧ . موارد الطَّغْنَان : ٣١٨ / ١ ح ١٣١٢ . سنن الترمذي : ٧٠٩ / ٥ ح ٣٨٩٥ . سنن البيهقي الكبير : ٤٦٨ / ٧ ح ١٥٤٧٧ . سنن ابن ماجه : ١٦٣٦ / ١ ح ١٩٧٧ .
مُعْتَصَرُ الْمُخْتَصَرِ : ٣٠٣ / ١ . مُسْنَدُ الْبَزَارِ : ٢٤٠ / ٣ ح ١٠٢٨ . الْآخَادُ وَالْمَثَانِي : ٤٦٥ / ٤ ح ٢٥١٩ .
تُحْفَةُ الْأَخْوَذِيِّ : ٢٧٣ / ٤ . كَشَفُ الْخَفَاءِ : ٤٦٣ / ١ ح ١٢٣٤ .

(٢) أنظر ، سير أعلام النبلاء : ٢٣٠ / ١ . تَارِيخُ دِمَشْقَ : ٣٧١ / ١٩ . الطَّبَقَاتُ الْكُبْرَى : ٤٧ / ٣ .
الدَّرَجَاتُ الرَّفِيعَةُ : ٤٣٩ . فَيْضُ الْقَدِيرِ شَرْحُ الْجَامِعِ الصَّغِيرِ : ٦٩٥ / ٣ ح ٤١٨٣ . الْإِخْوَانُ لِابْنِ أَبِي
الدُّنْيَا : ١٥٢ . مُسْكَنُ الْفَوَادِ : ٩٦ . بَحَارُ الْأَنْوَارِ : ٢٣٦ / ١٦ . مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ لِلطَّبْرَسِيِّ : ٢٢ . مُسْتَدْرَكُ
الرَّوَايَاتِ : ٤٦٤ / ٢ .

(٣) أنظر ، سنن أبي داود : ٤٧٠ / ٢ ح ٤٩٦٩ . مُنْتَخَبُ مُسْنَدِ عَبْدِ بْنِ حَمِيدٍ : ٤١٤ ح ٦٤١٥ و ٦٤١٦ .
الْأَدَبُ الْمُفْرَدُ : ١٨٢ ح ٧٤٧ . شَرْحُ مُسْنَدِ أَبِي حَنِيفَةَ : ٣٣٩ . تَارِيخُ دِمَشْقَ : ٣٨ / ٤ . سُبُلُ الْهُدَى
وَالرَّشَادِ : ١١٦ / ٧ .

أنظر ، كتاب توماس ووكر آرنولد (تعاليم الإسلام) .

(٤) أنظر ، كَنْزُ الْعُمَالِ : ٥٥٧ / ١٦ ح ٥٥٤١٣ . وَدَّاعْتِبَارُ الْجَامِعِ الصَّغِيرِ : ٢٣ ح ٥٨١٢ .

وَمِنْ أَمْثَلَةِ ذَلِكَ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لَهُ: أَوْصِنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ لَهُ: لَا تَغْضَبْ فَكَرَّرَ السُّؤَالَ، وَلَكِنَّ الْجَوَابَ لَمْ يَخْتَلَفْ... ثُمَّ تَبَيَّنَ أَنَّ السَّائِلَ يَتَوَرَّعُ لِأَتْفَةِ الْأَسْبَابِ^(١). وَقَالَ لَهُ آخِرًا: أَيُّ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ؟

فَقَالَ لَهُ: «فَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ، وَيَدِهِ»^(٢).

وَجَاءَ آخِرُ وَقَالَ: أَيُّ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ؟

فَقَالَ لَهُ: تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتُقْرِئُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ تَعْرِفُ^(٣)... وَأَخِيرًا ظَهَرَ أَنَّ الْأَوَّلَ كَانَ يُعِيبُ النَّاسَ، وَالثَّانِي كَانَ شَحِيحًا.

وَبَعْدَ، أَلَيْسَتْ هَذِهِ الصِّفَاتُ آيَاتٌ وَدَلَائِلُ عَلَى نُبُوَّةِ صَاحِبِهَا وَرِسَالَتِهِ؟

(١) أنظر، صحيح البخاري: ٢٢٦٧/٥ ح ٥٧٦٥، فقه الرضا لابن بابويه: ٣٥٤، صحيح ابن جبان:

٣٧١/٤ ح ٥٠٤/١٢، المستدرك على الصحيحين: ٧١٣/٣ ح ٦٥٧٨، سنن الترمذي: ٣٧١/٤

ح ٢٠٢٠، مجمع الفائدة: ٣٦٩/١٢، سنن التيهي الكبير: ١٠٥/١٠، مجمع الزوائد: ٦٩/٨

و ٧٠، المصنف لابن أبي شيبة الكوفي: ٦٧/٧ ح ٣٤٢٤٥.

(٢) أنظر، صحيح البخاري: ١٣/١ ح ١٠، مجمع الزوائد: ٢٦٨/٣، المنعم الأوسط: ٥٦/٤ ح

٣٥٩٨ و ٣٧٤٥ و ٤٢٣١، مستند أحمد: ٢١٢/٢ ح ٦٩٨٢ و ٦٩٨٣ و ٢٢/٦ ح ٢٤٠١٣، مستند

الشمسين: ٤٤٣/٢ ح ١٦٦٧، المنعم الكبير: ٢٩٣/٣ ح ٣٤٤٤ و ٣٤٦٢ و ١٧٥/١٩ ح ٤٠٠،

الزهد لهناد: ٥٤٧/٢ ح ١١٣١، كشف الخفاء: ٢/٢٧٤ ح ٢٣٠٤، الإيمان لابن مئدة: ٤٥٢/١ ح

٣١٥، الشهيد: ٢٤٤/٩، التاريخ الكبير: ٣/٣٣٤ ح ١١٣٢، فيض القدير: ٢٧٠/٦.

(٣) أنظر، صحيح البخاري: ١٣/١ ح ١٢ و ٢٨ و ٢٣٠٢/٥ ح ٥٨٨٠، صحيح ابن جبان: ٢٥٨/٢ ح

٥٠٥، صحيح مسلم: ٦٥/١ ح ٣٩، صحيح ابن ماجه: ١٠٨٣/٢ ح ٣٢٥٣، مستند أحمد: ١٦٩/٢

ح ٦٥٨١، سنن أبي داود: ٣٥٠/٤ ح ٥١٩٤.

حَوْلَ الْبَعْثِ

لِكُلِّ نَاصِبٍ شُبْهَةٌ:

تَعْلَقُ مَنْ أَنْكَرَ الْبَعْثَ بِشُبْهَتَيْنِ:

الأولى: أَنَّهُ غَيْرُ مُمَكَّنٍ، لِأَنَّ مَنْ مَاتَ فَاتَ، وَكَيْفَ تَحْيَا الْعِظَامَ، وَهِيَ رَمِيمٌ؟
الشُّبْهَةُ الثَّانِيَّةُ: مَعَ التَّسْلِيمِ جَدَلًا بِأَنَّ الْبَعْثَ مُمَكَّنٌ فَإِنَّهُ غَيْرُ وَاقِعٍ حَيْثُ لَمْ نَجِدْ
لَهُ أَى أَثَرٍ يَدُلُّ عَلَيْهِ - مَثَلًا - تَنْظُرُ الْعَيْنُ إِلَى الْكَوْنِ وَإِتْقَانُهُ فَيَحْكُمُ الْعَقْلُ بِوُجُودِ
الْمُكُونِ وَالْمُتَنِّ كَمَا هُوَ شَأْنُهُ دَائِمًا فِي الْإِنْتِقَالِ مِنَ الشَّاهِدِ إِلَى الْغَائِبِ أَسْتِنَادًا
لِمَبْدَأِ الْعِلْيَةِ ... وَأَيْضًا نَقْرَأُ سِيرَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَرِسَالَتَهُ فَنَعْتَقِدُ بِصِدْقِهِ وَعَظَمَتِهِ ...
أَمَّا الْبَعْثُ فَلَا نَحْسَ لَهُ مِنْ أَثَرٍ، أَوْ نَسْمَعُ لَهُ صَوْتًا فَكَيْفَ يَسُوعُ الْإِيمَانَ بِهِ؟.

وَمِنْ هُنَا أَهْتَدَى خَلْقٌ كَثِيرٌ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ دُونَ الْبَعْثِ، بَلْ أَنَّ أَكْثَرَ الْمُشْرِكِينَ
أَوَ الْكَثِيرَ مِنْهُمْ رَفَضُوا دَعْوَةَ مُحَمَّدٍ وَقَاوَمُوهَا لَا لِشَيْءٍ إِلَّا لِأَنَّهَا جَمَعَتْ بَيْنَ
الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَكَانُوا عَلَى أَتَمِّ الْأَسْتِعْدَادِ لِلتَّصَدِيقِ بِرَسُولِ اللَّهِ لَوْ
أَعْفَاهُمْ مِنَ الْبَعْثِ، وَيَوْمِيءَ إِلَى ذَلِكَ عَدَدٌ مِنَ الْآيَاتِ، مِنْهَا: «وَقَالُوا أَءِذَا كُنَّا
عِظْمًا وَرُفَاتًا أَعْمِنَّا لِمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا»^(١).

وَجَاءَ أَحَدَ الْمُشْرِكِينَ إِلَى النَّبِيِّ سَاحِرًا بَعْظَمَةً بِأَلِيَّةٍ وَفَتْهَا بِيَدِهِ، وَنَشَرَهَا فِي
الْهَوَاءِ ثُمَّ سَأَلَ النَّبِيَّ سَاحِرًا: مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ؟ فَنَزَلَتِ الْآيَةُ: ﴿قُلْ
يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾^(١).
وَلَمْ تَكْ شَيْئًا مِنْ قَبْلِ.

الإِجَابَةُ عَنِ الشُّبْهَتَيْنِ:

وَعَنِ الشُّبْهَةِ الْأُولَى نَجِيبٌ أَنَّ الْعُلَمَاءَ وَالْفَلَاسِفَةَ فَرَّقُوا بَيْنَ الْقَانُونِ الطَّبِيعِيِّ
وَالْقَانُونِ الْعَقْلِيِّ وَقَالُوا: الْقَانُونُ الْعَقْلِيُّ يَطْرُدُ حَتْمًا، وَلَا يُمَكِّنُ خَرْقَهُ بِحَالٍ مِثْلَ
الْوَاحِدِ نِصْفِ الْإِثْنَيْنِ، وَالْمُسَاوِيَيْنِ لِثَلَاثِ مُتَسَاوِيَانِ، أَمَّا الْقَانُونُ الطَّبِيعِيُّ فَلَا
ضَرُورَةَ تَخْتِمَ أَطْرَادَهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ فِي نَظَرِ الْعَقْلِ، وَيَجُوزُ حَدُوثُ الْخَوَارِقِ
وَالْمُعْجَزَاتِ فِي نَوَامِيسِ الطَّبِيعَةِ، وَلَا يَسُوعُ لِأَيِّ عَاقِلٍ أَنْ يَقُولَ: هَذَا مُسْتَحِيلٌ
عَقْلًا لَمَنْ حَدَّثَ وَقَالَ: كَانَتْ النَّارُ بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى فُلَانٍ، أَوْ قَالَ: تَوَقَّفَتْ
الْأَرْضُ عَنِ الدَّوْرَانِ حَوْلَ الشَّمْسِ فِي حِينٍ مِنَ الْأَحْيَانِ... أَجَلٌ. لَهُ كُلُّ الْحَقِّ أَنْ
يُطَالِبَهُ بِالْإِثْبَاتِ وَدَلِيلِ الْوُقُوعِ، أَمَّا دَعْوَى الْإِمْتِنَاعِ عَقْلًا فَلَا أَسَاسَ لَهَا عَلَى
الْإِطْلَاقِ.

وَإِذَا أَجَازَ الْعَقْلُ خَرْقَ الْقَوَانِينِ الطَّبِيعِيَّةِ فَبِالْأُولَى أَنْ يُجِيزَ إِعَادَةَ الْحَيَاةِ بَعْدَ
الْمَوْتِ، إِذْ هِيَ أَهْوَنُ وَأَيْسَرُ، غَايَةُ الْأَمْرِ أَنَّهَا تُخَالِفُ الْعُرْفَ وَالْعَادَةَ... وَلَيْسَ أَكْثَرَ
مِنَ الشَّوَاهِدِ عَلَى تَغْيِيرِ الْمُعْتَادِ وَالْمَعْرُوفِ، وَمِنْهَا الصَّعُودُ عَلَى الْقَمَرِ... وَرُبَّمَا
كَانَ لَا شَيْءَ بِالْقِيَاسِ إِلَى الْآتِي.

وَنُجِيبُ عَنْ الشُّبْهَةِ الثَّانِيَةِ بِأَنَّ الْإِسْلَامَ لَمْ يُوجِبِ الْبَعْثَ لِمُجَرَّدِ الْبَعْثِ وَكَفَى، وَإِنَّمَا أَوْجِبَهُ لِهَدَفِ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ عَلَى فِعْلِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَمَعْنَى هَذَا أَنَّ الْبَعْثَ نَتِيجَةُ حَتْمِيَّةِ الْعَدَالَةِ الْإِلَهِيَّةِ لَا لِقَانُونِ الطَّبِيعَةِ وَنَظَامِهَا كَمَا يَرَى وَيَحْسُ... وَأَيْضاً مَعْنَى هَذَا أَنَّ الْإِيمَانَ بِالْبَعْثِ يَرْتَبِطُ حَتَمًا بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَعَدْلِهِ وَحِكْمَتِهِ وَأَنَّهُ لَا حُجَّةَ بِدَلِيلِ الْبَعْثِ عَلَى مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، بَلْ يَحْتَجُّ عَلَيْهِ بِالْدَّلِيلِ الْقَاطِعِ عَلَى وَجُودِهِ تَعَالَى... فَأِلَى هُنَاكَ.

وَتَسْأَلُ: وَأَيَّةُ عِلَاقَةٍ بَيْنَ عَدَالَتِهِ تَعَالَى وَبَيْنَ الْبَعْثِ؟

الْجَوَابُ:

لَا يَسْتَقِيمُ أَبَدًا مَعَ الْعَدْلِ الْإِلَهِيِّ أَنْ يَسْتَوِيَ مَصِيرُ الْمُجْرِمِينَ وَالْأَبْرِيَاءِ، فَيَذْهَبَ هَؤُلَاءِ بِلاَ ثَوَابٍ، وَأُولَئِكَ بِلاَ عِقَابٍ.

سُؤَالُ ثَانٍ: أَجَلٌ، وَلَكِنْ لِمَاذَا لَا يَكُونُ الْجَزَاءُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا؟

وَالْجَوَابُ وَاضِحٌ، لِأَنَّهُ تَعَالَى لَوْ عَجَّلَ الْجَزَاءَ لِعِبَادِهِ، أَوْ كَشَفَ لَهُمْ عَنْهُ - لَكَانَ، جَلَّتْ صِفَاتُهُ، كَالْمُعْزِ الْقَاطِمِي حِينَ دَعَا الْكُبْرَاءَ وَسَلَ السَّيْفَ بِيَدٍ وَقَالَ: هَذَا نَسَبِي وَنَقْدَ الذَّهَبِ بِيَدٍ وَقَالَ: هَذَا حَسْبِي. فَقَالُوا جَمِيعًا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا^(١)! إِنَّ اللَّهَ

(١) هُوَ الْمُعْزَرُ لِلدِّينِ اللَّهِ، أَبُو تَيْمِيمٍ مَعْدُ بْنُ الْمُتَنَصِّرِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ الْقَائِمِ، الْعُبَيْدِيِّ، الْمَهْدَوِيِّ، الْمَغْرِبِيِّ، الَّذِي بُنِيَتْ الْقَاهِرَةُ الْمُعْزَرِيَّةُ لَهُ، كَانَ صَاحِبَ التَّغْرِبِ، وَكَانَ وَلِيَّ عَهْدِ أَبِيهِ. وَلِيَّ سَنَةِ (٣٤١ هـ)، وَسَارَ فِي نَوَاحِي إفريقية يُنْهَدُ مُلْكُهُ، فَذُلُّ الْخَارِجِينَ عَلَيْهِ. وَأَشْتَمَلَ مَتَالِيكُهُ عَلَى الْمَدِينِ، وَأَشْتَخَذَ الْجُنْدَ، وَأَنْفَقَ الْأَمْوَالَ، وَجَهَّزَ مَمْلُوكَهُ جَوْهَرَ الْقَائِدِ فِي الْجِيُوشِ.

وَضُرِبَتِ السَّكَّةُ عَلَى الدِّينَارِ بِمِصْرَ وَهِيَ: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، عَلَيَّ خَيْرُ الْوَصِيِّينَ)، وَالْوُجْهَةُ الْآخَرُ أَسْمُ الْمُعْزَرِ وَالتَّأْرِيخِ، وَأُغْلِنَ الْأَذَانُ بِحَيٍّ عَلَى خَيْرِ الْعَمَلِ، وَتُودِي: مَنْ مَاتَ عَنْ بَشَرٍ وَأَخٍ أَوْ أُخْتٍ فَالْعَمَلُ كُلُّهُ لِلْبَشَرِ. كَانَ الْمُعْزَرُ لِلدِّينِ اللَّهِ مُتَّقِفًا، وَمُؤَلِّعًا بِالْعُلُومِ وَالْآدَابِ، كَمَا عُرِفَ بِحُسْنِ

سُبْحَانَهُ يُثِيبُ وَيُعَاقِبُ، مَا فِي ذَلِكَ رَيْبٌ، وَلَكِنْ بَعْدَ أَنْ تَظْهَرِ الْأَفْعَالُ بِالْإِزَادَةِ وَالِاخْتِيَارِ، لَا بِالضَّغْطِ أَوْ بِالرَّشْوَةِ.

الدَّلِيلُ الْأَصِيلُ :

وَمِمَّا تَقَدَّمَ يَتَبَيَّنُ مَعْنَى أَنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْبُعْثِ لَا يَغْتَمِدُونَ عَلَى أَسَاسٍ سِوَى الْجَهْلِ أَوْ الْعِنَادِ تَمَامًا كَمَنْ كَذَّبَ بِرَحَلَاتِ الْفَضَاءِ فِي بَادِيءِ الْأَمْرِ... أَمَّا الدَّلِيلُ الْأَصِيلُ عَلَى وَقُوعِ الْبُعْثِ وَحُدُوثِهِ فَيَسْلَخُصُ بِأَنَّ الْبُعْثَ مُمَكِّنٌ بِحُكْمِ الْعَقْلِ، وَثَابِتٌ بِصَحِيحِ النَّقْلِ عَنِ الْمَعْصُومِ فَيَجِبُ التَّصَدِيقُ.

➡ التَّنْذِيرُ، وَأَحْكَامُ الْأُمُورِ، لَذَاذَاتُ لَهُ تُبَالِغُ الْبَرِّيرِ، وَأَطَاعَتُهُ عَلَى مَا يَتَنَبَّهُ مِنْ اخْتِلَافٍ، وَقَدْ رَأَى بَعْدَ أَنْ أَسْتَبَّ الْأَمْنُ فِي رُبُوعِ الْمَغْرِبِ، وَأَطْمَأْنَنَ بِهِ الْحَالُ أَنْ يَبْدَأَ الْعِدَّةَ لِعَزْوِ مَضَرٍ، لِشُرُوتِهَا، وَمَوْقِعِهَا الْجُغْرَافِيِّ الَّذِي يُنْهَدُ السَّبِيلُ لِإِمْتِدَادِ النُّفُودِ وَالشَّيْطَرَةِ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْأَقْطَارِ، بِخَاصَّةِ الشَّامِ، وَالْحِجَازِ، وَكَانَ هَذَا الْقَطْرَانِ خَاضِعَيْنِ لِلْأَخْشِيدِيِّينَ حُكَّامِ مَضَرٍ فِي ذَلِكَ الْجَيْنِ.

وَفِي سَنَةِ (٣٥٦هـ) أَمَرَ الْمُعَزُّ بِإِنْشَاءِ الطَّرِيقِ، وَخَفَرَ الْأَجَارَ فِي طَرِيقِ مَضَرٍ، وَأَقَامَ الْمَنَازِلَ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مَرَحَلَةٍ، وَلَمَّا وَصَلَتْهُ الْأَخْبَارُ بِوَفَاةِ كَافُورِ سَنَةِ (٣٥٧هـ) أَخَذَ فِي إِعْدَادِ الْجَيْشِ، وَالسَّالِ، وَبَعَثَ إِلَى دُعَاتِهِ فِي مَضَرٍ يَغْلُمُهُمْ بَعْرُهُ، لِيَتَهَدَّوْا سُبُلَ الْغَزْوِ، وَعَهْدَ إِلَى قَائِدِهِ جَوْهَرَ الصَّقْلِيِّ بِقِيَادَةِ الْحَتَلَةِ، فَسَارَ جَوْهَرٌ بِجَيْشِهِ سَنَةَ (٣٥٨هـ) حَتَّى وَصَلَ بَرْقَةَ، فَقَدَّمَ لَهُ صَاحِبُهَا الطَّاعَةَ، ثُمَّ مَضَى إِلَى الْإِسْكَندَرِيَّةِ، فَدَخَلَهَا مِنْ غَيْرِ مُقَاوَمَةٍ.

أَنْظُرْ، الْمُثْنِي لِأَبْنِ قُدَامَةَ: ١٦٨/٦، الْمُسْتَنْظَمُ لِأَبْنِ الْجَوْرِيِّ: ٨٢/٨، الْكَامِلُ فِي التَّأْرِيخِ: ٤٩٨/٨، تَأْرِيخُ أَبْنِ خُلْدُونٍ: ٤٥/٤، النُّجُومُ الزَّاهِرَةُ: ٢٦١/٤، سِيرُ أَعْلَامِ الثُّبُلَاءِ: ٣٥١/١٥، الْبِدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ: ٢٨٣/١١، خُطَطُ الْمُتَقَرِّزِيِّ: ٣٥١/١، أَتَمَّاطُ الْحَنْفَا: ١٣٤-٢٦٥.

وَمَاتَ الْمُعَزُّ سَنَةَ (٣٦٥هـ) يَبْدَأُ أَنَّهُ لَمْ يُقَادَرِ هَذِهِ الْحَيَاةَ، حَتَّى كَانَتْ الْخِلَافَةُ الْفَاطِمِيَّةُ تَبْسُطُ سُلْطَانَهَا، وَإِمَامَتَهَا عَلَى الْمَغْرِبِ، وَمَضَرٍ، وَالشَّامِ، حَتَّى حَلَبَ وَالْحَرَمَيْنِ. وَقَالَ أَبُو الْأَثِيرِ: «كَانَ الْمُعَزُّ عَالِمًا، قَاضِلًا، جَوَادًا، شَجَاعًا، جَارِيًا عَلَى يَنْهَاجِ أَبِيهِ مِنْ حُسْنِ السَّيَرَةِ، وَإِنْصَافِ الرُّعْيَةِ».

أَنْظُرْ، الْحَاكِمُ بِأَمْرِ اللَّهِ لِلْمُحَمَّدِ عَبْدِ اللَّهِ عَتَانَ: ٧٩ طَبْعَةً ثَانِيَةً، الْكَامِلُ فِي التَّأْرِيخِ: ٦٦٣/٨.

وَهَذَا الدَّلِيلُ - كَمَا تَرَى - يَعْتَمِدُ عَلَى الْعَقْلِ وَالنَّفْلِ حَيْثُ لَا شَيْءَ غَيْرُهُمَا مِنْ قَبْلِ، أَمَّا الْآنَ، وَقَدْ تَطَوَّرَ الْعِلْمُ وَوَسَائِلُهُ الْحِسِّيَّةُ، فَإِنَّ النَّاسَ سَوْفَ يُشَاهِدُونَ لَا مُحَالَةَ الرُّوحَ بَعْدَ فَرَاقِهَا لِلْجَسَدِ تَمَامًا كَمَا شَاهَدُوا الْإِنْسَانَ عَلَى الْقَمَرِ... وَكُلٌّ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْعِلْمِ يَنْتَحِمُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَّقَ بِذَلِكَ مِنْ غَيْرِ تَرَدُّدٍ... وَلَوْ أَنَّ الْعُلَمَاءَ الَّذِينَ أَنْصَرَفُوا بِكُلِّ طَاقَاتِهِمْ لِدِرَاسَةِ الْعَالَمِ الْمَادِّي، أَهْتَمُّوا بَعْضُ الْإِهْتِمَامِ بِعَالَمِ الرُّوحِ - لَوَضُّعُوا أَيْدِيَهُمْ مِنْذُ زَمَانٍ عَلَى هَذِهِ الْحَقِيقَةِ، عَلَى أَنَّ التَّبَاشِيرَ بَدَأَتْ الْآنَ بِالظُّهُورِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ.

فَقَدْ نَشَرْتُ جَرِيدَةَ الْأَخْبَارِ الْمَصْرِيَّةَ مَقَالًا جَاءَ فِيهِ: «لَقَدْ نَجَحَتْ الْبَحُوثُ الْعِلْمِيَّةُ فِي تَصْوِيرِ خُرُوجِ الرُّوحِ مِنَ الْجَسَدِ بِأَشْعَةٍ غَيْرِ مَنْظُورَةٍ، وَاسْتِخْدَامِ أَلْوَابِ حَسَّاسَةٍ خَاصَّةٍ... وَالَّذِي تَتَّبَعُ تَطَوُّرَ الْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ فِي مَيْدَانِ الرُّوحِ، لَا بُدَّ أَنْ يَفْتَنَعَ بَأَنَّا أَوْشَكْنَا أَنْ نَضَعَ أَيْدِينَا عَلَى الْحَقِيقَةِ... أَنْ كُلَّ مَا أَبْدَعَهُ الْخَالِقُ فِي هَذَا الْكَوْنِ لَيْسَ سِوَى وَسِيلَةٍ لِلتَّدْلِيلِ عَلَى وَجُودِهِ، وَحَثَّنَا عَلَى التَّفَكُّيرِ فِيمَا وَرَاءَهُ، لِأَنَّ مِنْ طَبِيعَةِ هَذَا الْكَوْنِ عَدَمُ الْإِسْتِمْرَارِ. أَنْ كُلَّ الْمَادِّيَّاتِ مَصِيرُهَا إِلَى التَّحَوُّلِ... وَلَا يُعْقَلُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ قَدْ خَلَقَ لَنَا هَذَا الْعَقْلَ لِنَرَى جُزْءًا مِمَّا أَبْدَعَهُ، وَلِفَتْرَةٍ قَصِيرَةٍ هِيَ عُمُرُ الْإِنْسَانِ، فَيَكُونُ مِثْلَنَا فِي ذَلِكَ مِثْلَ النَّبَاتِ» ^(١).

وَنَشَرْتُ جَرِيدَةَ الْجُمْهُورِيَّةِ الْمَصْرِيَّةَ مَقَالًا جَاءَ فِيهِ: «إِنَّ الطَّبِيبَ السُّوَيْدِيَّ يَلْتَمِزُ ظَهْرَ لَهُ أَخِيرًا فِي دَسْلَدُورَفِ كِتَابِ بَعْنُوانِ الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَوْتِ أَكَّدَ فِيهِ أَنَّ هَذِهِ الْحَيَاةَ كَانَتْ تَبْدُو وَكَأَنَّهَا حُلُمٌ، وَلَكِنَّ التَّشَابَهَ كَبِيرَ بَيْنِ الْحَيَاةِ قَبْلَ الْمَوْتِ

(١) انظر، جَرِيدَةَ الْأَخْبَارِ الْمَصْرِيَّةِ (١٩٦٣م / ٦ / ٢٨) مَقَالًا بِعُنْوَانِ عَصْرِ الْفَضَاءِ أَمْ عَصْرِ الرُّوحِ؟

لِلْأَسْتَاذِ عَبْدِ السَّلَامِ دَاوُدَ. (مِنْهُ ﷺ).

وَبَعْدَهُ... حَتَّى كَأَنَّ الْمَيِّتَ لَا يَحْسُ أَنَّ الرُّوحَ قَدْ خَرَجَتْ مِنْ جَسَدِهِ، بَلْ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ مَا زَالَ يَعْيشُ»^(١).

مِنْ كِتَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ:

أَلَّفَ الْأُسْتَاذُ عَبْدِ الرَّزَّاقِ نُوفَلَ كِتَابًا أَسَمَاهُ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَفِيهِ خَمْسَةُ فُصُولٍ، أَرْبَعَةٌ مِنْهَا مِنَ التُّرَاثِ الَّذِي قَرَأَهُ أَوْ سَمِعَنَاهُ، وَفَصْلٌ وَاحِدٌ وَلَيْدَ هَذَا الْعَصْرِ وَأَبْنُ الْعِلْمِ الْحَدِيثِ، وَهُوَ فَصْلُ «مِنَ الْمَوْتِ حَتَّى يَوْمَ الْقِيَامَةِ» حَيْثُ ذَكَرَ فِيهِ آخِرَ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ الْعِلْمُ عَنِ الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَأَنَّهُ لَأَخْطَرُ مِنَ الصَّعُودِ إِلَى الْمَرِيقِ وَالْقَمَرِ، فَقَدْ أَثَبَتَ حَقِيقَةَ كَانِ يَرَاهَا أَكْثَرُ النَّاسِ مِنَ الْخَرَافَاتِ وَالْأَسَاطِيرِ، وَتَوَجَّزَهَا فِيمَا يَلِي بِشَيْءٍ مِنَ التَّصَرُّفِ فِي الشَّكْلِ دُونَ الْمُحْتَوَى - أَهَمُّ مَا جَاءَ فِي كِتَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ:

لَقَدْ أَكْشَفَ عُلَمَاءُ الطَّبِيعَةِ وَالتَّشْرِيعِ أَنَّ لِكُلِّ عَضْوٍ وَجْهَازَ فِي جِسْمِ الْإِنْسَانِ خَلَائِيَاهُ الْحَيَّةَ الْخَاصَّةَ بِهِ، وَأَنَّ جَمِيعَ الْخَلَائِيَا بِشَتَّى أَنْوَاعِهَا تَمُوتُ بِمَوْتِ الْإِنْسَانِ مَا عَدَا خَلَائِيَا الْجِهَازِ الْعَصَبِيِّ فَإِنَّهَا تَبْقَى حَيَّةً بَعْدَ مَوْتِهَا مَهْمَا طَرَأَ عَلَى الْجِسْمِ، وَأَنَّهُ عَنِ طَرِيقِهَا يَحْسُ الْمَيِّتُ وَيَشْعُرُ بِمَا حَوْلَهُ، وَلَكِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ الْحَرَكَةَ وَالْحَدِيثَ، لِأَنَّ الْخَلَائِيَا الَّتِي كَانَتْ تَتَحَرَّكُ وَيَتَكَلَّمُ بِوَاسِطَتِهَا مَاتَتْ بِكَامِلِهَا. وَبِكَلِمَةٍ تَمُوتُ كُلُّ الْخَلَائِيَا إِلَّا الْخَلَائِيَا خَلَائِيَا الشُّعُورِ.

وَهَذَا يُفَسِّرُ عَذَابَ الْقَبْرِ... وَأَيْضًا يُفَسِّرُ مَا تَوَاتَرَ عَلَى لِسَانِ أَهْلِ التَّأْرِخِ وَالسِّيَرِ: أَنَّ الرَّسُولَ الْأَعْظَمَ ﷺ خَاطَبَ الْقَتْلَى مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ يَوْمَ بَدْرٍ، وَنَادَاهُمْ

(١) أنظر، جريدة الجمهورية المصرية: (١٩/١٢/١٩٧٢م). (منه:).

بَأَسْمَائِهِمْ قَائِلًا: «يَا أَهْلَ الْقَلِيلِ، يَا عَتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، يَا شَيْبَةَ ابْنَ رَبِيعَةَ، يَا أُمَيَّةَ بْنَ خَلْفٍ، يَا أَبَا جَهْلَ بْنَ هِشَامٍ، هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا».

فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَتُنَادِي قَوْمًا جَيْفُوا؟.

قَالَ: مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُجِيبُونِي»^(١).

(١) وقد أمر رسول الله ﷺ أن تطرح القتلى في القليب، فطرحوا فيه، ولما ألقوا في القليب وقف عليهم ﷺ وقال: (يا أهل القليب بئس عشيّة التي كنتم لتبيحكم! كذبتُموني وصدقتني الناس.... ثم قال: يا عتبّة، يا شيبّة، يا أُميّة بن خلف، يا أبّا جهل بن هشام، وعدّد من كان في القليب، هل وجدتم ما وعدكم ربّكم حقّا؟ فإنّي وجدت ما وعدني ربّي حقّا). فقال له أصحابه: أنكلّم قوماً موتى؟.

فقال ﷺ: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني.... ثم استوصى بالأمرى خيرًا.

أنظر، الكامل في التاريخ لابن الأثير: ١٢٩/٢، صحيح البخاري: ١٠١/٢، فتح الباري: ٢٣٥/٧، مقدّمه فتح الباري: ٢٦٧، مُسند أبْن زَاهِرِيه: ٥٧٣/٢، مُسند أحمد: ١٣١/٢ و: ٢٧٦/٦، المُصنّف لابْن أَبِي شَيْبَةَ: ٣٧٩/١٤، دلائل النبوة للبيهقي: ٣٣٢/٢ و ٣٣٩، الكامل في التاريخ: ١٢٩/٢، المغازي للواقدي: ١١٢/١، مُنتخب مُسند عبد بن حميد: ٢٤٦ ح ٧٦٢، صحيح أبْن جِبَّان: ٥٦٢/١٥، كُنز المُعَال: ٣٧٧/١٠ ح ٢٩٨٧٧-٢٩٨٧٥ و ٢٩٩٧٦، الثقات لابْن حُبَّان: ١٧٥/١، أسد الغابة: ٣٨٢/٢، الإصابة: ١٩٥/٣ ح ٣٦٤٤، البداية والنهاية: ١٥٨/١ و ٣٥٧/٣، السيرة لابْن هشام: ٢٨٠/٢، السيرة الحلبية: ١٩٠/٢، تاريخ الطبري: ١٥٥/٢، المُعْجَم الصّغير: ١١٣/٢، المُعْجَم الكبير: ١٦٥/٧ و ١٦٠/١٠ ح ١٠٣٢٠، شرح نهج الألبلاغة لابْن أَبِي الْحَدِيد: ١٧٨/١٤.

وقال جابر: لبس الإتمام علي ثقله وألقى إزاره على منكبيه وخرجنا نساء، فذهب بنا إلى الجبّة - جبّة الكوفة - فسلم على أهل القبور، فسمعت صرّة، وهجّة فقلت: ما هذا يا أمير المؤمنين؟

وَقَرَأْتُ فِي قِصَّةِ الْفَلَسَفَةِ تَأْلِيفَ وَل. ديورانت: «أَنَّ السَّمْلَةَ الْإِسْتِرَالِيَّةَ إِذَا انْقَسَمَتْ إِلَى قِسْمَيْنِ تَبْدَأُ الْمَعْرَكَةَ بَيْنَ الرَّأْسِ وَالذَّنْبِ وَقَدْ تَدْوَرُ نِصْفَ سَاعَةٍ، ثُمَّ يَمُوتَانِ مَعًا أَوْ تَسْحِبُهُمَا بَقِيَّةُ النَّعْلِ».

تَأْرِيعُ فِكْرَةِ الْخُلُودِ:

تَدُلُّ الْأَخْبَارُ وَبَقَايَا الْأَثَارِ أَنَّ فِكْرَةَ الْخُلُودِ قَدِيمَةٌ بِقَدَمِ الْإِنْسَانِ، فَقَدْ كَانَتْ مَعْرُوفَةً فِي الدِّيَانَةِ الْفِرْعَوْنِيَّةِ وَالْفَارَسِيَّةِ، أَمَّا الْفَلَسَفَةُ الْيُونَانِيَّةُ فَيَقُولُ أَسْتَاذُهَا الشَّهِيرُ إِفْلَاطُونُ: «لَوْ لَمْ يَكُنْ لَنَا مَعَادُ نَرْجُو فِيهِ الْخَيْرَاتِ لَكَانَتْ الدُّنْيَا فُرْصَةً الْأَشْرَارِ، وَكَانَ الْقِرْدُ أَفْضَلَ مِنَ الْإِنْسَانِ».

﴿ قَالَ: هَؤُلَاءِ بِالْأَمْسِ كُنَّا أَوْ مَعَنَا وَاليَوْمَ فَأَرْقُونَا، أُنْسَأَلُ عَنْ أَحْوَالِهِمْ فَمَنْ إِخْوَانُ لَا يَتَزَاوَرُونَ وَأَوْدَاءُ لَا يَتَعَاوَدُونَ. ثُمَّ خَلَعَ تَعْلِيهِ وَحَسَرَ عَنْ ذِرَاعِيهِ، وَقَالَ: يَا جَابِرُ أَعْطُوا مِنْ دُنْيَاكُمْ الْفَانِيَّةَ لِأَجْرِتِكُمْ الْبَاقِيَّةِ، وَمِنْ حَيَاتِكُمْ لِمَوْتِكُمْ، وَمِنْ صِحَّتِكُمْ لِسُقْمِكُمْ، وَمِنْ غِنَاكُمْ لِفَقْرِكُمْ، الْيَوْمَ أَنْتُمْ فِي الدُّورِ وَغَدًا فِي الْقُبُورِ وَإِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ. ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ: كَمَا جَاءَ فِي نَظْمِ دُرِّ السَّمُطَيْنِ: ١٧٣، الْمَنَاقِبُ لِلخَوَارِزْمِيِّ: ٣٧٠، نُورُ الْأَبْصَارِ: ٨٥، الْفُصُولُ الْمُهَيَّمَةُ لِابْنِ الصَّبَاحِ الْمَالِكِيِّ: ١/٥٦٩، يَتَحَقَّقُنَا. »

سَلَامٌ عَلَى أَهْلِ الْقُبُورِ الدَّوَارِسِ
وَلَمْ يَشْرَبُوا مِنْ بَارِدِ الْمَاءِ شَرْبَةً
أَلَا فَأَخْبِرُونِي أَيْنَ قَبْرِ ذِكْلِكُمْ
وَلَهُ ﷻ:

وَاللهُ لَوْ عَاشَ الْفَنَى مِنْ دَهْرِهِ
مُسْتَلْذِئًا فِيهَا بِكُلِّ هَيْئَةٍ
لَا يَعْرِفُ إِلَّا الْمَوْتَ فِيهَا مُرَّةً
مَا كَانَ ذَلِكَ يُقِيدُهُ مِنْ عَظَمِ مَا

كَانَتْهُمْ لَمْ يَجْلِسُوا فِي الْمَجَالِسِ
وَلَمْ يَأْكُلُوا مَا يَبْنِي رَطْبَ وَيَسَابِسِ
وَقَبْرِ الْعَزِيزِ الْبَاذِخِ الْمُتَنَافِسِ
أَلْفًا مِنَ الْأَعْوَامِ مَالِكًا أَمْرَهُ
وَمُبْلَغًا كُلِّ النَّاسِ مِنْ دَهْرِهِ
كَذَا وَلَا جَرَتْ الْهَمُومُ بِفِكْرِهِ
يَلْقَى بِأَوَّلِ لَيْلَةٍ فِي قَبْرِهِ

وَمِنْ قَبْلِهِ قَالَ الْفِيلَسُوفُ الْيُونَانِي فِينَاغُورِس: «أَنَّ النَّفْسَ الطَّاهِرَةَ تَسْكُنُ بَعْدَ الْمَوْتِ فِي الْمَكَانِ اللَّائِقِ بِهَا، وَتَصْحَبُ مَعَهَا جَانِباً مِنَ الْجَسَدِ الَّذِي كَانَتْ تَحْتَلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَهُوَ لَطِيفٌ مُهَذَّبٌ مِنْ كُلِّ ثَقَلٍ وَكَدَرٍ».

وَيَلْتَقِي هَذَا مَعَ مَا رَوَاهُ الشَّيْخُ الْبَهَائِي عَنِ الْإِمَامِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ عليه السلام وَهَذَا نَصُّ الرِّوَايَةِ بِالْحَرْفِ: «إِذَا قَبِضَ اللَّهُ أَرْوَاحَ الْمُؤْمِنِينَ صَيَّرَهَا فِي قَالِبٍ كَقَالِبِهَا فِي الدُّنْيَا، فَيَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ وَيَتَعَارَفُونَ» ^(١).

طريق الجنة:

حَدَّدَ الْقُرْآنُ طَرِيقَ الْجَنَّةِ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ فِي الْعَدِيدِ مِنْ آيَاتِهِ. وَجَاءَ التَّحْدِيدُ فِي بَعْضِ الْآيَاتِ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ: «وَأُزْلِفَتْ أَلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ» ^(٢).

وَالْمُرَادُ بِالْمُتَّقِينَ الَّذِينَ عَنَاهُمْ سُبْحَانَهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ» ^(٣). وَالْآيَةُ: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ» ^(٤).

وَقَالَ الرَّسُولُ الْأَعْظَمُ ﷺ: «أَقْرَبُكُمْ مِنِّي مَجْلِساً يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسَنُكُمْ أَخْلَاقاً» ^(٥). وَقَالَ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْماً سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقاً إِلَى

(١) أنظر، كِتَابُ الْأَرَبَيْنِ حَدِيثاً، الشَّيْخُ الْبَهَائِي: ١٩٠. (مِنْهُ).

(٢) الشُّمَرَاءُ: ٩٠.

(٣) التَّوْبَةُ: ١١١.

(٤) آلِ عِمْرَانَ: ١٤٢.

(٥) أنظر، مُسْنَدُ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ: ٤٧٩، كُنُزُ الْعُمَالِ: ٣/١٠ ح ٥١٧٨، الْمُهُودُ الْمُحَمَّدِيَّةُ: ٣٠٦، كَشَفَ

الْجَنَّةِ»^(١). وَلَا خُلِقَ أَكْرَمَ وَأَحْسَنَ مِنَ الْجِهَادِ بِالنَّفْسِ وَالْمَالِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ... أَمَّا الْعِلْمُ فَلَيْسَ الْمُرَادُ مَا يَتْرَكَ شَيْئًا جَدِيدًا وَمُفِيدًا لِبَنِي الْإِنْسَانِ... وَعَلَيْهِ فَأَيُّ مَعْبَدٍ لَا يَتَجَهَّ بِالْعَابِدِ إِلَى الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ النَّافِعِ - فَمَا هُوَ بِالطَّرِيقِ الْمُؤَدِّي إِلَى الْجَنَّةِ، وَأَيُّ مَصْنَعٍ أَوْ مُخْتَبَرٍ يَنْفَعُ النَّاسَ بِجِهَةٍ مِنَ الْجِهَاتِ فَهُوَ طَرِيقٌ، الْفَوْزُ بِالْجَنَّةِ، وَالنَّجَاةُ مِنَ النَّارِ.

وَحَتَامًا نُسَجِّلُ هَذِهِ الْحِكْمَةَ الْبَالِغَةَ: «أَلَا وَمَنْ أَكَلَهُ الْحَقُّ فَإِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ أَكَلَهُ الْبَاطِلُ فَإِلَى النَّارِ»^(٢). وَ«أَكَلَهُ» الْأَوَّلَى تَغْنِي التَّضَحِّيَةَ بِالنَّفْسِ وَالْمَالِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَ«أَكَلَهُ» الثَّانِيَّةُ تَغْنِي الْخُسْرَانَ فِي طَاعَةِ الشَّيْطَانِ كَمَنْ أَتْلَفَ مَالَهُ فِي الْفُسُوقِ وَالْفَجُورِ، أَوْ قَتَلَ نَفْسَهُ مَعَ قَائِدٍ ضَلَّ بِهِ... وَهَذِهِ الْحِكْمَةُ الْقِيَمَةُ الْغَالِيَةُ لِلْإِمَامِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَرَضِيَ عَنْهُ، وَكَرَّمَ وَجْهَهُ الَّذِي أَدْرَكَتْهُ بَرَكَتَةُ سَيِّدِ الْكَوْنَيْنِ ﷺ حِينَ دَعَا لَهُ بِقَوْلِهِ: «اللَّهُمَّ أَهْدِ قَلْبَهُ، وَثَبِّتْ لِسَانَهُ، وَأَعْظِهِ فَهْمَ مَا يُخَاصِمُ فِيهِ»^(٣).

﴿الخفاء: ١٦٠/١ ح ٤٨٠﴾

(١) أنظر، صحيح ابن ماجه: ٨/١ ح ٢٢٣، صحيح الترمذي: ١٣٧/٤ ح ٢٧٨٤، مُسْتَدْرَكُ أَحْمَدَ: ٣٢٥/٢، سُنَنُ أَبِي دَاوُدَ: ١٧٥/٢ ح ٣٦٤١، المُسْتَدْرَكُ عَلَى الصَّحِيحَيْنِ: ٨٩/١، الثَّوْرِيُّ الدَّانِي: ٧٢١، الْمُجْمُوعُ: ١٩/١، مُسْنَدُ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ: ٣٨٣، مُغْنِي الْمُحْتَاجِ: ٨/١، إِعَانَةُ الطَّالِبِينَ: ٢٣/١.

(٢) أنظر، نَهْجُ الْبَلَاغَةِ: أَلْفَ رِسَالَةٍ (١٧).

(٣) أنظر، «أَخْبَارُ الْقُضَاةِ» لَوَكَيْعٍ - مِنْ عُلَمَاءِ الثُّنَّةِ فِي الْقَرْنِ الثَّالِثِ الْهَجْرِيِّ: ٨٨/١ طَبْعَةُ سَنَةِ ١٩٤٧ م. وَمُسْنَدُ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ: ٢٩٤، دَعَايِمُ الْإِسْلَامِ: ٥٢٩/٢ ح ١٨٨٠، مَنَاقِبُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ لِلْكُوفِيِّ: ٦٠٥/٢ ح ١١٠٤، تَارِيخُ مَدِينَةِ دِمَشْقَ: ٤٩٠/٢، الْمُصَنَّفُ لِابْنِ أَبِي شَيْبَةَ: ٥٨/١٢، الْمُسْتَرْشِدُ فِي الْإِمَامَةِ: ٣٥٢، شَرْحُ الْأَخْبَارِ: ٣٠١/٢ ح ٦٢٠، الطَّبَقَاتُ الْكُبْرَى: ٣٣٧/٢، مُسْنَدُ

بِدْعَةُ التَّعَصُّبِ وَالْإِجْتِهَادِ فِي مَوْرِدِ النَّصِّ

الإِجْتِهَادُ:

يَتَلَخَّصُ الْإِجْتِهَادُ فِي الْفِقْهِ بِأَنَّهُ اسْتِخْرَاجُ الْفَرْعِ الشَّرْعِيِّ مِنْ أَضْلِهِ، وَالْإِسْتِدْلَالُ عَلَيْهِ بِدَلِيلِهِ، وَأَوْضَحَ مِثَالٌ عَلَى ذَلِكَ - لِمُجَرَّدِ التَّوْضِيحِ - قِصَّةُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَالْمَرْأَةِ حِينَ أَرَادَ أَنْ يَجْعَلَ لِلْمَهْرِ حَدًّا أَعْلَى، فَعَارَضَتْهُ وَقَالَتْ: لَيْسَ ذَلِكَ لَكَ يَا عُمَرُ، لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَأَتَيْنَهُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَاتَتْهَا وَاتَّخَذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾^(١).

فَكَانَ قَوْلُهَا بِدَلِيلٍ، وَقَوْلُهُ بِلَا دَلِيلٍ. بَلْ إِجْتِهَادٌ فِي مَوْرِدِ النَّصِّ بِاعْتِرَافِهِ حَيْثُ قَالَ: «أَصَابَتْ أَمْرًا، وَأَخْطَأَ عُمَرُ»^(٢)، وَقَالَ: «كُلُّ النَّاسِ أَفْقَهُ مِنْ عُمَرَ حَتَّى رَبَّاتِ الْحِجَالِ»^(٣).

➡ أَحْمَدُ: ١٣٦/١، سُنَنِ أَبِي مَاجَةَ: ٧٧٤/٢، أُنْسَابُ الْأَشْرَافِ: ١٠١/٢، مُسْتَدْرَأُ أَبِي يَعْلَى: ٢٦٨/١، تَارِيخُ بَغْدَادَ: ٤٤٣/١٢، الصَّوَاغِقُ الْمُخْرِقَةُ: ١٢٢.

(١) الْأَنْشَاءُ: ٢٠.

(٢) أَنْظَرِ، تَفْسِيرَ الْقُرْطُبِيِّ: ٩٩/٥، الْإِحْكَامُ فِي أَصُولِ الْأَحْكَامِ، لِعَلِيِّ أَبِي مُحَمَّدٍ الْآتَمْدِيِّ: ١٩٣/٤.

(٣) أَنْظَرِ، مَجْمَعُ الزَّوَائِدِ: ٢٨٤/٤، الْكَشَافُ لِلزَّمْخَشَرِيِّ: ٤٩١/١، قَبِيضُ الْقَدِيرِ: ٨/٢، ح ١١٨٧.

كَشَفُ الْخَفَاءِ: ٢٦٩/١، ح ٨٤٤، الْمَجْمُوعُ لِلنُّوَيْ: ٣٢٧/١٦، الْمَبْسُوطُ لِلشَّرَحِيِّ: ١٥٣/١٠.

البِدْعَةُ:

البِدْعَةُ فِي الدِّينِ إِحْدَاثُ مَا لَيْسَ لَهُ أَصْلٌ فِي الشَّرِيعَةِ ^(١)، وَهِيَ بِهَذَا الْمَعْنَى مِنْ كِبَائِرِ الْمُحْرَمَاتِ إِجْمَاعًا وَعَقْلًا وَشَرْعًا، قَالَ الرَّسُولُ الْأَعْظَمُ ﷺ: «كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ سَبِيلُهَا إِلَى النَّارِ» ^(٢)... إِذَا رَأَيْتُمْ أَهْلَ الْبِدْعِ مِنْ بَعْدِي فَأَظْهِرُوا الْبِرَاءَةَ مِنْهُمْ ^(٣)... مَنْ تَبَسَّمَ فِي وَجْهِ مُبْتَدِعٍ فَقَدْ أَعَانَ عَلَى هَدْمِ دِينِهِ ^(٤).

التَّعَصُّبُ:

التَّعَصُّبُ مِنَ الْعَصِيَّةِ، وَهِيَ الْمِيلُ إِلَى الْجَانِبِ الَّذِي تُحِبُّ وَإِنْ كَانَ عَلَى خَطَأٍ وَضَلَالٍ، وَالْجَوْرُ عَلَى الْجَانِبِ الَّذِي تَكْرَهُ، وَإِنْ كَانَ عَلَى حَقٍّ وَصَوَابٍ. وَبَعْدَ هَذَا التَّمْهِيدِ نُشِيرُ فِيمَا يَأْتِي إِلَى قَوْلِ مَنْ آتَمَّ الدِّينَ بِالتَّعَصُّبِ، وَإِلَى أَوَّلِ مَنْ أَبْتَدَعَ الْقَتْلَ وَالْقِتَالَ بَيْنَ الصَّحَابَةِ، وَمَهَّدَ السَّبِيلَ لِمَا حَدَثَ مِنَ الْفِتَنِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَكَانَ السَّبَبُ الْمَوْجِبُ لِفَتْحِ بَابِ الْإِجْتِهَادِ فِي مَوْرَدِ النَّصِّ، وَالتَّحَايِلِ

﴿ شرح نهج ألبلاغه لابن أبي الحديد: ١٨٢/١ و: ١٧١/١٧، المصنف لعبد الرزاق: ١٦٠/٦، سنن البيهقي: ٤٤٢/٧، سبل السلام: ١٤٩/٣، الدر المنثور: ٤٦٦/٢، كنز العمال: ٥٣٧/١٦ ح ٤٥٧٩٨، تفسير ابن كثير: ٤٧٨/١، علل الدار قطني: ٢٣٩/٢، فتح القدير: ٤٤٣/١.

(١) أنظر، لسان الغريب: ٦/٨، مختار الصحاح: ١٨/١.

(٢) أنظر، سنن أبي داود: ٤/٢٠٠ ح ٤٦٠٧، سنن الدارمي: ٤٤/١، سنن ابن ماجه: ١/١٥ ح ٤٢، كنز العمال: ٢٢١/١ ح ١١١٣، مسند أحمد: ٣/٣١٠، سنن النسائي: ٣/١٨٩، تحفة الأحوذى: ٧/٢٧٠، المهود المحدثية: ١٧.

(٣) أنظر، الكافي: ٢/٣٧٥ ح ٤، وسائل الشيعة: ١٦/٣٦٧ ح ١.

(٤) أنظر، مناقب آل أبي طالب: ٣/٢٧٥، دفع الشبه عن الرسول ﷺ: ٦٧، مستدرك الوسائل:

عَلَى دِينِ اللَّهِ ، وَمَا إِلَيَّ ذَلِكَ مِمَّا يَجْرِي بِهِ الْقَلَمُ ^(١) .

الدِّينُ وَمَارْكَسُ وَرَاسِلُ :

قَالَ الْفِيلَسُوفُ الْإِنْجِلِيزِيُّ الشَّهِيرُ رَاسِلُ : أَبَاحَ الدِّينَ التَّعَصُّبَ وَالْبَغْضَاءَ وَكَرْسَهُمَا . (كِتَابُ رَاسِلِ يَتَحَدَّثُ مِنْ مَشَاكِلِ الْعَصْرِ) . وَهَذَا الْقَوْلُ يَشْبَهُ إِلَى حَدٍّ كَبِيرٍ قَوْلَ مَارْكَسُ : « الدِّينُ أَفْيُونُ الشُّعُوبِ » ^(٢) .

وَفِي ظَنِّي أَنَّ رَاسِلَ وَمَارْكَسَ أَرَادَ بِكَلِمَةِ الدِّينِ هُنَا الْيَهُودِيَّةَ وَالْمَسِيحِيَّةَ فَقَطْ دُونَ الْإِسْلَامِ ، لِأَنَّ نُصُوصَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةَ النَّبَوِيَّةَ تُنْكَرُ التَّعَصُّبَ وَتَعَدُّهُ مِنْ كِبَائِرِ السَّيِّئَاتِ ، وَتَأْمُرُ بِالْإِعْتِمَادِ عَلَى الْعِلْمِ ، وَالْإِخْتِكَامِ إِلَى الْعَقْلِ ، وَتَعْتَبِرُ إِهْمَالَهُ وَعَدَمَ الزُّكُونِ إِلَيْهِ جَرِيْمَةً تَسْتَحِقُّ الْعِقَابَ وَالتَّوْبِيخَ ... وَمَعْنَى هَذَا أَنَّ أَيَّ مُسْلِمٍ لَا يَنْظُرُ بِعَقْلِهِ وَبَصِيرَتِهِ ، أَوْ يَتَّعَصُّبُ لِهَوَاهُ وَعَشِيرَتِهِ فَهُوَ مُنَابِذٌ لِدِينِهِ وَالْحُجَّةُ قَائِمَةٌ عَلَيْهِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ .

(١) انظر ، الأصول العامة للفقهاء المقارن ، مدخل إلى دراسة الفقه المقارن ، العلامة السيد محمد تقي الحكيم : ٥٧٩ ، الإجتihad والتقليد ، جوار على الورق ، إعداد محمد الحسيني : ١٤ - ١٥ ، الفكر القانوني الإسلامي ، الأستاذ فتحي عثمان : ٣٦٠ ، في ميدان الإجتihad للشيخ الصعدي : ٩ ، خاطرات جمال الدين الأفغاني ، محمد باشا الخوارزمي : ١٧٧ ، الإحكام في أصول الأحكام ، لعلّي ابن محمد الأثري : ٤ / ٢٣٠ .

(٢) ألقى الفيلسوف الفرنسي « روجيه جارودي » محاضرة في القاهرة بدار الأهرام ، نشرتها مجلة الطليعة المصرية بتاريخ آذار (١٩٧٠ م) ، وجاء فيها : أَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ قَالَهَا مَارْكَسُ فِي أَوَّلِ كِتَابٍ لَهُ ، وَكَانَ عِمْرُهُ آنَ ذَاكَ (٢٥) سَنَةً ، وَأَنَّهُ لَمْ يَرُدَّهَا بَعْدَ ذَلِكَ . (مِنْهُ) .
انظر ، كِتَابُ أَفْيُونِ الشُّعُوبِ لِلْعَقَادِ ، وَسُيْلُ الْهُدَى وَالرَّشَادِ : ١ / ٣١ .

اليهود والمسيحية والتعصب:

التَّعَصُّبُ عِنْدَ الْيَهُودِ دِينٍ وَعَقِيدَةٌ، لِأَنَّهُمْ - كَمَا يَزْعُمُونَ - شَعَبَ اللَّهِ الْمُخْتَارِ بَنَصِ الثَّوْرَةِ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ لَهُمْ وَحَدَهُمْ، وَلَا يَغْنِيهِ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ سِوَى مُشْكَلَاتِهِمْ^(١). وَكَفَى دَلِيلًا عَلَى تَعَصُّبِ الْمَسِيحِيَّةِ مَا سَجَلَهُ التَّأْرِيخُ مِنْ فَجَائِعِ الْكَنِيسَةِ فِي الْقُرُونِ الْوَسْطَى.

وَتَسْأَلُ: لِمَاذَا نُسِبَتْ عَصِيَّةٌ مِّنْ تَعَصُّبٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى ذَاتِهِ وَمُعَانَدَتِهِ لِدِينِهِ، لَا إِلَى الْإِسْلَامِ، وَنُسِبَتْ عَصِيَّةٌ مِّنْ تَعَصُّبٍ مِنَ الْمَسِيحِيِّينَ إِلَى الْمَسِيحِيَّةِ لَا إِلَى ذَاتِ الْمُتَعَصِّبِ وَمُعَانَدَتِهِ لِدِينِهِ، مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّ إِنْجِيلَ مَتَّى يَقُولُ: «أَحْبَبُوا أَعْدَاءَكُمْ، بَارِكُوا لِلَّذِينَ يُبْغِضُونَكُمْ، أَحْسِنُوا إِلَيَّ مُبْغِضِيكُمْ»^(٢). أَلَيْسَ هَذَا تَحْزِينًا مِنْكَ وَتَعَصُّبًا؟

الجواب:

لَقَدْ نَصَّ الْفُرْعَانُ الْكَرِيمُ صَرَاحَةً عَلَى حُرْمَةِ التَّعَصُّبِ - كَمَا سَيَأْتِي وَأَيْضًا نَصَّ عَلَى أَنَّ «الْحَلَالَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ، وَالْحَرَامَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ»^(٣). وَمَا لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ أَنْ يُسْرَعَ مِنْ عِنْدِهِ، وَيَحْكُمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ. قَالَ سُبْحَانَهُ: «وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ»^(٤)؛ وَقَالَ: «فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ»^(٥).

(١) أنظر، سِيفَرُ التَّشْيِيعِ الْإِسْصَاح: ٦ فِقرَةٌ ٦. (مِثْنَةُ ٦٠).

(٢) أنظر، إِنْجِيلُ مَتَّى الْإِسْصَاح: (٥٠ فِقرَةٌ ٤٣). (مِثْنَةُ ٦٠).

(٣) أنظر، خُطْبَةُ نَهْجِ الْبَلَاغَةِ: ٢ / ٩٤، جُزْءٌ مِنْ خُطْبَةٍ لَهُ (١٧٦).

(٤) أَلْمَائِدَةُ: ٤٥.

(٥) أَلْنِسَاءُ: ٥٩.

أَمَّا إِنْجِيلُ مَتَّى الَّذِي يَقُولُ: «أَحْبَبُوا أَعْدَاءَكُمْ، بَارَكُوا لَأَعْيُنِكُمْ، أَحْسِنُوا إِلَيَّ مُبْغِضِيكُمْ» فَإِنَّهُ قَالَ أَيْضاً لِرِجَالِ الْكَنِيسَةِ: «كُلَّ مَا تَرْبُطُونَهُ فِي الْأَرْضِ يَكُونُ مَرْبُوطاً فِي السَّمَاءِ، وَكُلَّ مَا تَحْلُونَهُ فِي الْأَرْضِ يَكُونُ مَحْلُولاً فِي السَّمَاءِ»^(١). وَمَعْنَى هَذَا أَنَّ الدِّيَانَةَ الْمَسِيحِيَّةَ تُؤْخَذُ مِنْ رِجَالِ الْكَنِيسَةِ لَا مِنَ الْأَتَاخِيلِ فَقَطْ وَكَذَلِكَ الدِّيَانَةُ الْيَهُودِيَّةُ تُؤْخَذُ مِنْ رِجَالِ الْبَيْعِ لَا مِنَ الثَّوَرَةِ وَحْدَهَا، فَقَدْ جَاءَ فِي إِصْحَاحِ إِشَعْيَا: «مِنْ صَهْيُون تَخْرُجُ الشَّرِيعَةُ، وَمِنْ أُورُشَلِيمَ كَلِمَةُ الرَّبِّ»^(٢). عَلَى الْعَكْسِ تَمَاماً مِمَّا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الَّذِي قَالَ لِمُحَمَّدٍ ﷺ: «لَيْسَ لَكَ مِنْ الْأَمْرِ شَيْءٌ»^(٣)؛ وَقَالَ تَعَالَى: «قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ»^(٤)؛ وَقَالَ تَعَالَى: «وَيَكُونُ الَّذِينَ كُلُّهُ لِلَّهِ»^(٥).

فِيئُو الْكَنِيسَةِ فَبِدْعَةِ الْإِنْجِيلِ:

كَانَ الْمَسِيحِيُّونَ يَلْعَنُونَ الْيَهُودَ فِي كُلِّ صَلَوَاتِهِمْ، لِأَنَّهُمُ السَّبَبُ الْأَوَّلُ لصلب السَّيِّدِ الْمَسِيحِ، كَمَا يَزْعُمُونَ، وَفِي سَنَةِ (١٩٦٥ م) حَصَلَ الْيَهُودَ عَلَى وَثِيقَةٍ بَابَا رُومًا بِتَبَرُّئِهِ الْيَهُودَ مِنْ دَمِ الْمَسِيحِ... وَهَذِهِ الْوَثِيقَةُ تُعَارِضُ نَصّاً صَرِيحاً فِي إِنْجِيلِ مَتَّى، وَهِيَ «أَنَّ دَمَ الْمَسِيحِ عَلَى الْيَهُودِ وَأَوْلَادِهِمْ»^(٦)، وَمَعَ ذَلِكَ وَافِقُ الْكَاثُولِيكِ

(١) أَنْظِرْ، إِنْجِيلُ مَتَّى الْإِصْحَاحِ: (١٨ فِقْرَةَ ١٨). (مِنْهُ ﷺ).

(٢) أَنْظِرْ، الْإِصْحَاحِ إِشَعْيَا: (٢ فِقْرَةَ ٣). (مِنْهُ ﷺ).

(٣) آلِ عِمْرَانَ: ١٢٨.

(٤) آلِ عِمْرَانَ: ١٥٤.

(٥) الْأَنْفَالِ: ٣٩.

(٦) أَنْظِرْ، إِنْجِيلُ مَتَّى الْإِصْحَاحِ (١٦ فِقْرَةَ ٢٦). (مِنْهُ ﷺ).

وَالْبُرُوتَسَّانَتِ عَلَى وَثِيقَةِ الْبَابَا وَبَارَكُوهَا وَتَرَكُوهَا لَعَنَ الْيَهُودُ فِي صَلَوَاتِهِمْ!... وَمَعْنَى هَذَا أَنَّ لِلْكَنِيسَةِ كُلَّ الْحَقِّ فِي إِسْتِعْمَالِ الْفَيْتُو ضِدَّ الْإِنْجِيلِ، فَتَنْسَخُ مِنْهُ مَا تَشَاءُ حِينَ تُرِيدُ.

وَمِنْ طَرِيفٍ مَا قَرَأْتُ حَوْلَ هَذِهِ التَّبَرُّتَةِ مَا نَشَرَتْهُ جَرِيدَةُ الْأَخْبَارِ الْمَصْرِيَّةِ: «أَنَّ مُحَامِيًّا يَهُودِيًّا أَصَرَ عَلَى بَقَاءِ لَعَنَ الْيَهُودِ، وَأَسْتَأْنَفَ الْحُكْمَ بِتَبَرُّتِهِمْ مِنْ دَمِ الْمَسِيحِ بِزَعْمِ أَنَّ لَعَنَ النَّصَارَى شَرَفٌ كَبِيرٌ لَمَنْ يَلْعَنُوهُ، وَلَكِنَّ الْمَحْكَمَةَ الَّتِي أَسْتُونَفَ إِلَيْهَا الْحُكْمَ رَفَضَتْ دَعْوَى الْمُحَامِي الْيَهُودِي، لِأَنَّهَا قَضِيَّةٌ تَأْرِيخِيَّةٌ، وَلَيْسَ لَهَا أَطْرَافٌ مُتَخَصِّمَةٌ»^(١).

وَعَلَى آيَةٍ حَالٍ فَقَدْ أَتَّضَحَ مَعَ الْأَيَّامِ أَنَّ الْهَدَفَ مِنْ هَذِهِ التَّبَرُّتَةِ هُوَ دَعْمُ الصَّهْيُونِيَّةِ وَإِسْرَائِيلَ لِكَيْ تُحَقِّقَ أَطْمَاعَهَا عَلَى حِسَابِ الْعَرَبِ وَالْمُسْلِمِينَ... وَلَا ضَيْرَ إِطْلَاقًا فِي إِعْتِدَاءِ إِسْرَائِيلَ عَلَى الْمُقَدَّسَاتِ الْمَسِيحِيَّةِ فِي فَلَسْطِينَ مَا دَامَتْ الصَّهْيُونِيَّةُ فِي طَرِيقِهَا لِإِجَادِ الدَّوْلَةِ الَّتِي نَصَّتْ عَلَيْهَا التَّوْرَةُ، وَحَدَّدَتْهَا مِنَ النَّيْلِ إِلَى الْفُرَاتِ^(٢).

كُلُّ هَذَا وَغَيْرِهِ كَثِيرٌ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْإِنْجِيلَ الْمَوْجُودَ الْآنَ يُجِيزُ لِرَجَالِ الْكَنِيسَةِ أَنْ يَتَجَاوَزُوا أَيَّ نَصٍّ مِنْ نَصُوصِهِ. أَمَّا الْقُرَّاءُ الْكَرِيمُ فَقَدْ أَعْلَنَ بوضوحٍ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ»^(٣)؛ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ»^(٤).

(١) أنظر، جريدة الأخبار المصرية تاريخ (١٩٧٢/٧/٩ م). (منه ٥٥).

(٢) أنظر، سفر التكوين الإصحاح (١٥) فقرة (١٨). (منه ٥٥).

(٣) الحجر: ٩.

(٤) فصلت: ٤٢.

الْإِسْلَامُ وَالتَّعَصُّبُ:

سَبَقَ أَنْ أَشْرْنَا إِلَى أَنَّ نُصُوصَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةَ النَّبَوِيَّةَ تَنْهَى عَنِ التَّعَصُّبِ وَتَأْمُرُ بِالِاجْتِهَادِ إِلَى الْعَقْلِ، وَنَذَرُ الْآنَ أَمْثَلَهُ مِنْ هَذِهِ النُّصُوصِ ... قَالَ سُبْحَانَهُ فِي الْآيَةِ: «وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى»^(١).

وَالْمُرَادُ بِالْقَوْلِ هُنَا مَا يَشْمَلُ كُلَّ قَوْلٍ حَتَّى الْحُكْمَ بِالْإِعْدَامِ وَالشَّهَادَةَ الْمُؤَدِّيَةَ إِلَيْهِ. وَفِي الْآيَةِ: «لَا يَنْهَيْنَكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ»^(٢).

أَيُّ الَّذِينَ يَنْصَفُونَ النَّاسَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَيَتَّقُونَ الْمُحَقَّ بِإِخْلَاصِهِمْ، وَيَخْشَوْنَ الْمُبْتَطِلَ مِنْ عَدْلِهِمْ.

وَقَالَ الرَّسُولُ الْأَعْظَمُ ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ رَبِّكُمْ وَاحِدٌ، وَأَبُوكُمْ وَاحِدٌ، كُلُّكُمْ مِنْ آدَمَ، وَآدَمٌ مِنْ تَرَابٍ»^(٣)، وَمَا دَامَ مُضَدَّرُ الْكُلِّ وَمَعْدَنُهُمْ وَاحِدٌ فَمَا هُوَ الْمُبَرَّرُ لِلْعَصِيَّةِ؟ وَأَيْنَ الْفَوَارِقُ الَّتِي تُفْصِلُ وَتُمَيِّزُ بَيْنَ الْقَرَشِيِّ وَالْحَبَشِيِّ، وَالْعَدَنَانِيِّ وَالْفَحْطَانِيِّ، وَالْأَرِيَّ وَالسَّامِيِّ؟. وَأَيْضًا قَالَ: «وَمَنْ خَرَجَ قَيْدَ شَيْءٍ عَنِ الْجَمَاعَةِ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ عَنْ عُنُقِهِ»^(٤)... «وَمَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ مَاتَ مِيتَةً

(١) الْأَنْعَامُ: ١٥٢.

(٢) الْمُنْتَجَنَةُ: ٨.

(٣) أَنْظَر، سُنَنِ النَّبَهِيِّ: ١١٨/٩، سُبُلُ الْهُدَى وَالرَّشَادِ: ٢٤٢/٥، شَرْحُ نَهْجِ الْبَلَاغَةِ لِابْنِ أَبِي الْحَدِيدِ: ٢٨١/١٧، بَحَارُ الْأَنْوَارِ: ٣٥/٣١.

(٤) أَنْظَر، التَّجْمُوعُ: ١٩٠/١٩، الْمَبْسُوطُ لِلرُّخْصِيِّ: ٢٦٣/٧، رَوْضَةُ الطَّالِبِينَ: ٢٧/٧، مُغْنِي الْمُحْتَاجِ: ١٢٤/٤، حَوَاشِي الشَّرَوَانِيِّ: ٦٥/٩، كَشَفُ الْقِتَاعِ: ٢٠٦/٦، إِعَانَةُ الطَّالِبِينَ: ١٧٨/٤، نَيْلُ الْأَوْطَارِ: ٣٥٧/٧، الْمَحَاسِنِ: ٩٤/١، الْكَافِي: ٤٠٥ ح ٤.

جَاهِلِيَّة»^(١). وَمَعْنَى هَذَا فِي ظَاهِرِهِ أَنَّ التَّعَصُّبَ كُفْرَ وَإِرْتِدَادَ.

مَنْ الْبَادِي. بِتَفْرِيقِ الْمُسْلِمِينَ؟

كَانَ الصَّحَابَةُ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَبْذُلُونَ الْمُهْجَ وَالْأَرْوَاحَ مِنْ أَجْلِ مَصْلَحَةِ الْإِسْلَامِ وَمُقَدَّسَاتِهِ، وَلَا يَشْهَرُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ السَّيْفَ عَلَى أَخِيهِ أَيًّا كَانَتْ الْأَسْبَابُ حَتَّى وَلَوْ تَنَافَسُوا عَلَى الرِّيَاسَةِ وَالْخِلَافَةِ.... أَبَدًا لَا يَلْقَوْنَ بِأَسْهُمٍ إِلَّا عَلَى أَعْدَاءِ التَّوْحِيدِ وَعَصَابَةِ الشُّرْكَ وَالْإِلْحَادِ.

وَأَوَّلُ مَنْ خَرَجَ عَلَى هَذَا الْمَبْدَأِ الْقُرْآنِي، وَفَتَحَ الْبَابَ بِأَبَابِ الْقَتْلِ وَالْقِتَالِ بَيْنَ الصَّحَابَةِ أَنْفُسَهُمْ هُمَا طَلَحَ وَالزُّبَيْرُ فِي وَقْعَةِ الْجَمَلِ^(٢)... وَقَدْ دَفَعَ الْعَالَمَ

(١) انظر، مُنْتَهَى الْمَطْلَبِ لِلْعَلَمَةِ الْجَلِيِّ: ٩٨٣/٢، سُبُلُ السَّلَامِ: ٢٦١/٣ ح ٥، نِيلُ الْأَوْتَارِ: ٣٥٦/٧ ح ٣١٨١، سُنَنِ الْبَيْهَقِيِّ: ١٥٧/٨، تَيْسِيرُ الْوُصُولِ: ٣٩/٢، صَحِيحُ مُسْلِمٍ: ٢١/٦.

(٢) ذَكَرَ قِصَّةَ الْجَمَلِ، وَكِلَابَ الْخَوَابِ، الطَّبْرِي فِي تَارِيخِهِ: ٤٧٥/٣، وَأَسْمَ جَمَلِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ يَسْمَى «عَسْكَرًا» وَكَانَ عَظِيمَ الْخَلْقِ شَدِيدًا، فَلَمَّا رَأَتْهُ أَعْجَبَهَا، وَأَنْشَأَ الْجَمَالُ يُحَدِّثُهَا بِقُوَّتِهِ، وَشِدَّتِهِ، وَيَقُولُ فِي أَثْنَاءِ كَلَامِهِ «عَسْكَر» فَلَمَّا سَمِعَتْ هَذِهِ اللَّفْظَةَ اسْتَرْجَعَتْ، وَقَالَتْ: رَدَّوهُ لَا حَاجَةَ لِي فِيهِ، وَذَكَرَتْ جِئْنَ سُمِّلَتْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ذَكَرَ لَهَا هَذَا الْإِسْمَ، وَنَهَاها عَنِ رُكُوبِهِ وَأَمَرَتْ أَنْ يُطْلَبَ لَهَا غَيْرُهُ، فَلَمْ يَوْجَدْ لَهَا مَا يُشَبِّهُهُ فَغَيَّرَ لَهَا بِجَلَالٍ غَيْرِ جَلَالِهِ، وَقِيلَ لَهَا: قَدْ أَصَبْنَا لَكَ أَعْظَمَ مِنْهُ خَلْقًا، وَأَشَدَّ مِنْهُ قُوَّةً، وَأَثَبَتْ بِهِ فَرَضَتْ!

انظر، شَرْحُ النَّهْجِ لِأَبْنِ أَبِي الْخَدِيدِ: ٢٢٤/٦، وَفِي: ٢٢٧/٦ (أَنَّ عَائِشَةَ رَكِبَتْ يَوْمَ إِلَى الْجَمَلِ الْمُسَمَّى عَسْكَرًا فِي هَوْدَجٍ قَدْ أُلْبِسَ الزَّفُوفَ، ثُمَّ أُلْبِسَ جِلْدُودَ النَّمْرِ، ثُمَّ أُلْبِسَ فَوْقَ ذَلِكَ دُرُوعَ الْخَدِيدِ)، فِي تَارِيخِ أَبِي أَعْنَمٍ: ١٧٦، وَمِثْلُهُ، وَزَادَ الطَّبْرِيُّ فِي تَارِيخِهِ: ٢١٢/٥، وَأَبْنُ الْأَثِيرِ: ٩٧/٣ أَنْ ضَبَّتْ، وَالْأَرْدَ أَطَافَتْ بِعَائِشَةَ يَوْمَ الْجَمَلِ، وَإِذَا رَجَالَ مِنَ الْأَرْدِ يَأْخُذُونَ بِعَرِ الْجَمَلِ يَتَّقُونَهُ - يَكْسِرُونَهُ بِأَصَابِعِهِمْ - وَيَسْمُونَهُ وَيَقُولُونَ: بَعْرُ جَمَلٍ أَثْنَا رِيحَهُ رِيحُ الْمِسْكِ...

مُرُوجُ الذَّهَبِ: ٣٦٦/٢، تَارِيخُ الطَّبْرِيِّ: ١٧٨/٥، وَطَبْعَةُ أُوْرُوبَا: ٣١٢٧/١، أَبْنُ كَثِيرٍ فِي

الْإِسْلَامِي الثَّمَنُ فَادْحًا لِهَذِهِ الْوَقْعَةِ الْمِشْوَمَةِ .

وَالَيْكَ بَعْضُ آثَارِهَا وَأَسْوَأُهَا :

١ - جَرَّاتٌ مُعَاوِيَةَ أَنْ يُنَازِعَ الْإِمَامَ الْخِلَافَةَ ، وَيَحْشَدَ الْجِيُوشَ لِحَرْبِهِ فِي صِفِّينَ ^(١) . وَتَمَخَّضَتْ هَذِهِ الْحَرْبُ عَنْ وَقْعَةِ التَّهْرَوَانِ ^(٢) .

تأريخه : ٢١٢/٦ ، الشُّيُوطِي فِي خُصَائِصِهِ : ١٣٧/٢ ، وَالْبَيْهَقِيُّ ، وَالْمُسْتَدْرَكُ : ١١٩/٣ ، وَالْإِصَابَةُ : ٦٢ ، السِّيَرَةُ الْخَلْقِيَّةُ : ٣٢٠/٣ ، مُسْنَدُ أَحْمَدَ : ٩٧/٦ ، السَّمْعَانِيُّ فِي تَرْجَمَةِ الْخُؤَابِ فِي الْأَنْسَابِ ، وَالسِّيَرَةُ الْخَلْقِيَّةُ : ٣٢٠/٣ ، وَمُتَخَبُّ الْكَنْزِ : ٤٤٤/٥ .

(١) عَلَى وَرْدٍ سَجِّينَ . مَوْضِعٌ قَرِيبٌ مِنَ الرَّقَّةِ بِشَاطِئِ الْفُرَاتِ وَهُوَ مِنَ الصَّفِّ أَوْ مِنَ الصُّفُونِ فَقَعْلَى الْأَوَّلِ التُّونَ زَائِدَةً ، وَعَلَى الثَّانِي أُصْلِيَةً كَذَا فِي الْمَصْبَاحِ .

أَنْظُرْ ، مَصْبَاحُ الْمُتَبَرِّ : ٢٥٤ ، ثَمَّةُ صِفِّينَ : ١٣١ ، وَالْفَهْرَسْتُ لِابْنِ النَّدِيمِ : ١٣٧ ، أَبْنِ خِلْكَانَ : ٥٠٦/١ ، الطَّبْرِيُّ فِي تَأْرِيخِهِ : ٢٣٥/٥ ، الْإِسْتِقْبَالُ : ١٥٢ ، غَيْرُهُمْ كَثِيرٌ .

وَلَمَّا اتَّفَقَ مُعَاوِيَةُ وَعَمَرُو عَلَى حَزْبِ عَلِيٍّ قَدِيمِ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ عَلَى عَلِيٍّ فَاعْلَمَهُ بِذَلِكَ .

فَالْ صَاحِبُ الْفُصُولِ الْمُهَمَّةِ : فَخَرَجَ وَعَسَكَرَ بِالنُّخَيْلَةِ . أَنْظُرْ ، الْفُصُولُ الْمُهَمَّةُ فِي مَعْرِفَةِ الْأُئِمَّةِ لِابْنِ الصَّبَّاحِ الْمَالِكِيِّ : ٤٤٦/١ ، بِتَحْقِيقِنَا ، الْفَتْوحُ لِابْنِ أَغَثَمَ : ٥٧١/١ ، الْإِمَامَةُ وَالسِّيَاسَةُ لِابْنِ قُسْتَيْبَةَ : ١٢٠ ، تَأْرِيخُ الطَّبْرِيِّ : ٥٦٣/٣ .

(٢) التَّهْرَوَانُ ، مَكَانٌ بَيْنَ بَدَادٍ وَخَلْوَانٍ ، وَقَدْ حَصَلَتْ فِيهِ أَلْوَقَعَةُ الْمَعْرُوفَةُ بِوَقْعَةِ الْخَوَارِجِ سَنَةِ (٣٧هـ) . وَسَبَّحَهَا أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَمَّا عَادَ مِنْ صِفِّينَ أَنْحَرَفَتْ طَائِفَةٌ مِنْ جَيْشِهِ فِي أَرْبَعَةِ آلَافٍ فَارَسَ . وَهُمْ الْعُبَادُ وَالنَّسَاكُ أَصْحَابُ الْجَبَاهِ السُّودِ ، وَقَالُوا لِلْإِمَامِ : تُبَّ مِنْ خَطِيئَتِكَ فِي تَحْكِيمِ الرِّجَالِ .

فَقَالَ لَهُمُ الْإِمَامُ : « أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ : أَنَّ أَهْلَ الشَّامِ يَخْدَعُونَكُمْ بِالْمَصَاحِفِ فَإِنَّ إِنْ قَدْ عَفْتَهُمْ ، فَذَرُونِي أَنْاجِزَهُمْ ، فَأَتَيْتُمُ إِلَّا التَّحْكِيمَ ، وَأَرَدْتُ أَنْ أَنْصِبَ ابْنَ عَتِيٍّ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ حَكَمًا ؛ فَإِنَّهُ رَجُلٌ لَا يُخْدَعُ ، فَأَتَيْتُمُ إِلَّا أَبَا مُوسَى الْأَشْعَرِيَّ ، وَقُلْتُمْ رَضِينَا بِهِ حَكَمًا ، فَأَجَبْتُمْ كَارَهَا ، وَلَوْ وَجَدْتُ أَعْوَانًا غَيْرَكُمْ فِي ذَلِكَ لَمَّا أَجَبْتُكُمْ ، وَشَرِطْتُ عَلَى الْحَكِيمِينَ بِحُضُورِكُمْ أَنْ يَحْكُمَا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ مِنْ فَاتِحَتِهِ إِلَى خَاتِمَتِهِ ، وَإِنْ هُمَا لَنْ يَفْعَلَا فَلَا طَاعَةَ لَهُمَا .

٢- فَرَقَتِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى شَبَعٍ وَطَوَائِفَ: طَائِفَةٌ تَقُولُ: كِلَا الْفَرِيقَيْنِ كَافِرٌ، وَثَانِيَةٌ: كِلَاهُمَا فَاسِقٌ، وَثَالِثَةٌ: كِلَاهُمَا تَأْوِلُ فَأَخْطَا، وَرَابِعَةٌ: أَحَدُهُمَا فَاسِقٌ وَالْآخَرُ مُؤْمِنٌ، وَخَامِسَةٌ: أَرْجَاتُ وَأَمْسَكَتِ عَنِ الْقَوْلِ^(١).

﴿ فَلَمْ يَسْمَعُوا لَهُ، وَأَنْصَرَفُوا عَنْهُ، وَهُمْ يَقُولُونَ: «لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ» ۖ وَهِيَ تَعْبِيرٌ ثَانٍ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: «إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ» ۖ يُؤْشَفُ: ٦٧. وَلَكِنَّ الْخَوَارِجَ اسْتَدَلُّوا بِقَوْلِ اللَّهِ عَلَى تَبْيِيرِ مُنْصِيَةِ اللَّهِ الَّذِي قَالَ: «أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ». أَلْنِسَاءُ: ٥٩. وَالْإِيمَانُ مِنْ أَوَّلَى الْأَمْرِ. وَالْخَوَارِجُ مَرْقُوبِينَ الَّذِينَ لَا تُهْمُ عَصَا الْإِيمَانِ وَأَفْسَدُوا فِي الْأَرْضِ. وَتَبَيَّنَ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ بِالتَّوَاتُرِ أَنَّهُ وَصَفَ الْخَوَارِجَ بِقَوْلِهِ: «يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ الشَّهْمُ مِنَ الرِّمِيَةِ». أَنْظِرْ، صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ: ٢١/٩، صَحِيحُ مُسْلِمٍ: ٧٤١/٢، كَنْزُ الْعُمَالِ: ٢٠٨/١١. وَفِي الْخُطْبَةِ (٤٠) ذَكَرَ الْإِمَامُ قَوْلَ الْخَوَارِجِ، وَزَدَ عَلَيْهِ بِمَنْطِقِ الدِّينِ وَالْعَقْلِ، وَشَرَحَنَا ذَلِكَ مُفَصَّلًا، وَتَكَلَّمْنَا عَنِ الْخَوَارِجِ بِمَا فِيهِ الْكِفَايَةُ.

وَأَمَرُوا عَلَيْهِمْ رَجُلًا يُقَلِّبُ بِذِي الثَّدْيَةِ، لِأَنَّهُ يَدُهُ كَانَتْ كَثْدَى الثَّرَاةِ، عَلَيْهَا شَعْرَاتُ كَشَارِبِ الْهَرَمِ. أَنْظِرْ، الْمُخَاوَرَةُ الَّتِي دَارَتْ بَيْنَ الْإِمَامِ عَلِيِّ ﷺ وَبَيْنَ أَهْلِ الْعِرَاقِ. فَقَالَ لَهُمْ عَلِيُّ ﷺ: قَدْ عَصَيْتُمُونِي فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ، وَلَا تَعْصُونِي الْآنَ لَا أَرَى أَنْ تَوَلَّوْا أَبَا مُوسَى الْحُكُومَةَ فَإِنَّهُ يَضَعِفُ عَنْ عَمْرُو، وَمَكَائِدِهِ، فَقَالَ الْأَشْعَثُ، وَزَيْدُ بْنُ حَصِينِ الطَّائِي، وَمَسْعَرُ بْنُ قَدَاكِي: لَا تَرْضَى إِلَّا بِهِ: فَإِنَّهُ قَدْ حَدَرْنَا مِمَّا وَقَعْنَا فِيهِ فَلَمْ نَسْمَعْ مِنْهُ.

أَنْظِرْ، وَفَقَّةٌ صِفَيْنِ: ٤٩٩، الْإِصَابَةُ لِابْنِ حَجَرٍ رَقْمَ ٢٨٨٧ وَقَدْ سَبَقَتْ خُطْبَتُهُ لَهُ فِي وَفَقَةِ صِفَيْنِ: ٩٩ و ١٠٠، الْفُتُوحُ لِابْنِ أَغَثَمَ: ١٩٣/٢، وَأَنْسَابُ الْعَرَبِ: ٣٧٨، وَالطَّبَرِيُّ: ٢٨/٦، و: ٣٦/٤ طَبْعَةٌ أُخْرَى. فَقَالَ عَلِيُّ ﷺ: إِنَّ أَبَا مُوسَى لَا يَكْمَلُ فِي هَذَا الْأَمْرِ، وَلَكِنْ هَذَا ابْنُ عَبَّاسٍ دَعَوْنِي تَوَلِيهِ: فَإِنَّهُ أَدْرَى مِنْهُ بِهَذِهِ الْأُمُورِ. فَقَالُوا: وَاللَّهِ لَا نُبَالِي أَنْتَ كُنْتَ أَمَّ ابْنِ عَبَّاسٍ لَا تُرِيدُ إِلَّا رَجُلًا هُوَ مِنْكَ وَمِنْ مُعَاوِيَةَ سَوَاءٌ، فَقَالَ: قَدْ عَوْنِي أَجْعَلُ الْأَشْثَرَ، قَالُوا: وَهَلْ سَرَّ الْأَرْضَ نَارًا إِلَّا الْأَشْثَرَ؟!

الْفُتُوحُ لِابْنِ أَغَثَمَ: ١٩٤/٢، وَالْأَخْبَارُ الطَّوَالُ: ١٩٢، وَتَأْرِيخُ الطَّبَرِيِّ: ٣٧/٤، يَنْتَابِعُ الْمُؤَدَّةُ: ١٧/٢، وَفَقَّةٌ صِفَيْنِ: ٢٧١ و ٥٠٣، تَهْذِيبُ ابْنِ عَسَاكِرَ: ١٣٢/٥، الطَّبَرِيُّ: ٢٥/٦، و: ٣٧/٤ طَبْعَةٌ أُخْرَى. وَفَقَّةٌ صِفَيْنِ: ٥٠١.

(١) أَنْظِرْ، شَرْحُ التَّهْجِ لِابْنِ أَبِي الْحَدِيدِ: ٢٦٦/٢ تَحْقِيقُ مُحَمَّدٍ أَبِي الْفَضْلِ، الْكَامِلُ فِي التَّأْرِيخِ:

٣- فَتَحَتْ وَقْعَةَ الْجَمَلِ الْبَابَ لِبِدْعَةِ الْإِجْتِهَادِ فِي مَوْرِدِ النَّصْرِ، وَالتَّحَايِلِ عَلَى حَلَالِ اللَّهِ وَحَرَامِهِ... قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَمَّارُ تَقْتُلُهُ الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَّةُ، يَدْعُوهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَى النَّارِ»^(١). وَقَالَ لِلزُّبَيْرِ: «أَمَا إِنَّكَ سَتُقَاتِلُ عَلِيًّا، وَأَنْتَ لَهُ ظَالِمٌ»^(٢)! وَقَالَ الْمُبْتَدِعُونَ: كَلَّا، مَا بَغِيَ مَنْ قَتَلَ عَمَّارًا، وَلَا ظَلَمَ مَنْ قَاتَلَ عَلِيًّا، بَلْ إِجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ، وَ«أَنْتُمْ كَانُوا فِيهَا مُتَأَوِّلِينَ وَلِلْمُجْتَهِدِ الْمَخْطِئِ أَجْرٌ»^(٣). وَقَالَ الْإِمَامُ الشُّوْكَانِيُّ: «إِنَّ حَدُوثَ التَّمْذِهِبِ بِمَذْهَبِ الْأُتْبَعَةِ الْأَرْبَعَةِ

١٩٠/٣ و ٣٤٣-٣٤٦، تاج القُرُوس: ٣٧٩/٤، النهاية: ١٩/٢، تاريخ الطبري: ٧٢/٥، مروج الذهب: ٤١٥/١، تذكرة الخواص: ١٠٠، المُشْتَرَشِدُ فِي الْإِمَامَةِ: ٦٧٣، صحيح البخاري: ٢١/٩، صحيح مسلم: ٧٤١/٢، الفِئْتَةُ الْكُبْرَى - ٢ - علي وبنوه للذكور، طه حسين، طبعة دار المعارف بمصر.

(١) أنظر، المُشْتَرَكُ عَلَى الصَّحِيحَيْنِ: ٤٣٢/٣ ح ٥٦٤٦ و ٥٦٦٦، مَجْمَعُ الزَّوَادِ: ٢٩٣/٩، الْمُعْجَمُ الْأَوْسَطُ: ٤١٦/٢ ح ١٥٠٨، الْمُعْجَمُ الْكَبِيرُ: ٧٦٩/٢٤، شُعَبُ الْإِيمَانِ: ٢٣٩/٢ ح ١٦٣١، تَهْذِيبُ الْكَمَالِ: ٢١٦/٢١، تاريخ بغداد: ١٥٠/١ رَقْم «٦» و: ٣١٤/٣ و: ٣٤٣/١١، الإِسْتِيعَابُ: ٥٨٩/٤ ح ٢٨٢٢، الطَّبَقَاتُ الْكُبْرَى: ٢٤٩/٣ و: ١٣٦/٤، الإِصَابَةُ: ٢٦٦/٤ رَقْم «٥٠٣٤» و ٥٧٠٨، و: ٦٣٩/٦ رَقْم «٩٢١٤» و: ٧١٢/٧ رَقْم «١١٣٣٦»، تَهْذِيبُ الْأَسْمَاءِ: ٣٥٢/٢ و ٤٤٦، عِلَلُ الدَّارِ قُطْنِي: ٣٥/٣ ح ٢٧٢، السِّيَرَةُ النَّبَوِيَّةُ: ١٦٢/٢.

أنظر، صحيح البخاري: ١٢٢/١، صحيح مسلم: ٢٢٣٥/٤، صحيح الترمذي: ٦٦٩/٥، مُشْتَدُّ أَحْمَدُ: ١٦١/٢ و ١٦٤، و: ١٩٧/٤، و: ٢٨٩/٦، مُشْتَدُّ أَبِي دَاوُدَ الطَّيَالِسِيِّ: ٩٠/٣، حَلِيَّةُ الْأَوْثَانِ: ١١٢/٤.

(٢) أنظر، الفَتْوحُ لِأَبْنِ أَغَثَمَ: ٤٧٥/١، الطَّبَرِيُّ: ٥١١/٣، آيُنُ قُتَيْبَةَ فِي الْإِمَامَةِ وَالسِّيَاسَةِ: ٩٣/١، الْبَدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ: ٢٧٧/٧، مَرْجُوحُ الذَّهَبِ: ٣٦٢/٢، الْأَشْيَاعُ: ٢٠٣، تاريخ الطبري: ١٩٩/٥، و: ٥٤٠/٣، طَبَقَةُ أُخْرَى، الْأَغَانِي: ١٢٦/١٦، آيُنُ أَبِي الْحَدِيدِ فِي الشَّرْحِ: ٧٨/١، تَهْذِيبُ آيُنِ عَسَاكِرِ: ٣٦٤/٥، أَسَدُ الْغَابَةِ: ١٩٩/٢، آيُنُ الْأَثِيرِ فِي تَارِيخِهِ: ٩٤/٣، الْعِقْدُ الْفَرِيدُ: ٣٢٢/٤، المُشْتَرَكُ: ٣٦٦/٣، كُنْزُ الْعُمَالِ: ٨٢/٦ ح ١٢٨٣ و ١٢٩٠ و ١٣١٨ و ١٣٢٠، الذَّهَبِيُّ فِي النَّبَلَاءِ: ٣٨/١، تاريخ اليعقوبي: ١٥٨/٢، الإِصَابَةُ: ٥٢٧/١، مُشْتَدُّ أَحْمَدُ: ١٦٥.

(٣) أنظر، الإِصَابَةُ لِأَبْنِ حَجَرَ: ٢٦٠/٧، شَرْحُ الْمُحَلِّي عَلَى جَمْعِ الْجَوَامِعِ: ٩٧/١١ ح ٢١٥٤، شَرْحُ

إِنَّمَا كَانَ بَعْدَ أَنْقَرِاضِ الْأُتَمَّةِ الْأَرْبَعَةِ، وَإِنَّمَا أَحْدَثَهَا الْعَوَامُّ الْمُقْلِدَةُ مِنْ دُونِ أَنْ يَأْذَنَ بِهَا إِمَامٌ مِنَ الْأُتَمَّةِ الْمُجْتَهِدِينَ، وَكَأَنَّ هَذِهِ الشَّرِيعَةَ الَّتِي بَيَّنَّ أَظْهَرُنَا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ قَدْ صَارَتْ مَنْسُوخَةً، وَالتَّاسِخَ لَهَا مَا أَبْتَدَعُوهُ مِنَ التَّقْلِيدِ فِي دِينِ اللَّهِ»^(١). طَائِفَةٌ تَفَقَّهَتْ فِي مَذْهَبٍ مَنْ أَنْتَسَبَتْ إِلَيْهِ، وَحَفَظَتْ فَتَاوِيهِ وَفُرُوعَهُ، وَأَقَرَّتْ عَلَى نَفْسِهَا بِالتَّقْلِيدِ الْمَحْضِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ، فَإِنْ ذَكَرُوا الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ يَوْمًا مَا فِي مَسْأَلَةٍ فَعَلَى وَجْهِ التَّبَرُّكِ وَالْفَضِيلَةِ، لَا عَلَى وَجْهِ الْإِحْتِنَاجِ وَالْعَمَلِ، وَإِذَا رَأَوْا مِنَ الصَّحَابَةِ قَدْ أَفْتَوْا بِفُتْيَا وَوَجَدُوا لِإِمَامِهِمْ فُتْيَا تُخَالِفُهُمْ أَخَذُوا بِفُتْيَا إِمَامِهِمْ وَتَرَكُوا فَتَاوِيَ الصَّحَابَةِ»^(٢).

وَهَذَا الْإِجْتِهَادُ الْمَاكِرُ الْخَادِعُ هُوَ الَّذِي أَغْرَى شَيْخًا مِنْ مَشَاهِيرِ الْمَذْهَبِ الْحَنْفِيِّ، يَدْعِي الْكَرْخِي، وَجَرَّاهُ أَنْ يَقُولَ: كُلُّ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ، أَوْ رَوَايَةٍ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تُخَالِفُ مَا قَرَّرَهُ مَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ فَهِيَ مُوَأَوَّلَةٌ أَوْ مَنْسُوخَةٌ^(٣). وَعَلَّقَ الْمُؤَلَّفُ عَلَى هَذِهِ الْبِدْعَةِ بِقَوْلِهِ: «يَا اللَّهُ لِلْمُسْلِمِينَ!... أَلَيْسَ مَعْنَى هَذَا أَنَّ قَوْلَ عُلَمَاءِ الْأَحْنَافِ هُوَ الْمُتَحَكِّمُ وَالْمُهَيْمِنُ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ، فَإِنْ أَمَكُنْ تَأْوِيلَهَا وَمَوَافَقَتُهَا لِمَذْهَبِ أَبِي حَنِيفَةَ فَذَاكَ وَإِلَّا حَكَمَ عَلَيْهِمَا بِالْإِعْدَامِ» أَيِ

➤ صحيح مسلم: ١٦٨/٧، مُسْتَدَ أَبِي يَعْنَى: ٦/٢ ح ٦٣٠.

(١) أنظر، رسالة القول المبيد في أدلة الإجتهد والتقليد، مُحَمَّدُ عَلِيُّ الشُّوكَانِي: ١٧.

(٢) أنظر، أعلام الموقعين، عَنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ: ٢١٢/٤. وَزَاجِعُ الْأُصُولِ الْعَامَّةِ لِلْفِقْهِ الْمُقَارَنِ، مُدْخَلٌ إِلَى دِرَاسَةِ الْفِقْهِ الْمُقَارَنِ، التَّلَامَةُ السَّيِّدُ مُحَمَّدُ تَقِي الْحَكِيمِ، وَالْوَافِيَةُ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ لِلْفَاضِلِ التُّونِي.

(٣) أنظر، تفسیر المنار للآية (١٦٧): «وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنْ لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَبَرَّأُ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يَرْبِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلُهُمْ خَسِرَتْ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ» مِنَ الْبَقَرَةِ. وَكِتَابٌ مَا لَا يَجُوزُ فِيهِ الْخِلَافُ لَوْزِيرِ الْأَزْهَرِ الشَّيْخِ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَيْسَى الْفَضْلِ الثَّامِنِ. (مِنْهُ ﷺ).

النسخ.

وهذا الإشكال وارد على كل من اجتهد في مورد النص، ولكنه يرد أيضاً على جميع المذاهب الأربعة، لأنها تعتمد بكاملها على القياس، وأن اختلفت في استعماله سعة وضيقاً، وهو كما حدّوه يؤول إلى إثبات النص في مورد عدم النص ونسبته إلى النبي مع علمهم بأنه سكّت عنه، وهذا أعظم من الاجتهاد في مورد النص... واختصاراً أن السنة سدّوا باب الاجتهاد في استخراج الحكم من النص الثابت، وفتحوا باب الاجتهاد في إثبات النص حيث لا نص^(١).

الخلفاء وبغض الفقهاء:

٤- أن الخلفاء وبغض الفقهاء رأوا في تلك البدع سابقة من سنة الأولين يقتدون بها في التحايل على الدين. وتكليفه طبعاً لأهوائهم وأغراضهم... وعلى سبيل المثال نذكر الحادثة التالية:

(١) وقد لاحظت هذا الواقع في كثير من علماء الإسلام من أهل السنة يوم سدّوا على أنفسهم أبواب الاجتهاد، وحسروا التقليد بخصوص أيّتهم، حيث ظلت الحركة الفكرية واقعة عند حدودها لديهم قبل قرون، وما ألفت بعد ذلك كان يفقد في غالبه عنصر الأصالة والإبداع.

فقد أقفل باب الاجتهاد فيها، بتأثير عوامل مختلفة، وذلك منذ منتصف القرن الرابع الهجري. انظر، الاجتهاد في الإسلام أصوله، أحكامه، آفاقه، للدكتورة نادية شريف العمري: ٢١٨.

وقال السيد جمال الدين الأفغاني: «ما معنى باب الاجتهاد مسدود؟ وبأي نص سدّ باب الاجتهاد...؟» وقال أيضاً: «لأزتاب في أنه لو فُيِّح من أجل أبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وأبى حنبل وعاشوا إلى اليوم لظلّوا مجتهدين ومُجدّين، يستنبطون لكل قضية حكماً من القرآن، والحديث، وكلّما ازداد تعصّبهم وتمعّنهم ازدادوا فهماً دقيقاً».

انظر، خاطرات جمال الدين الأفغاني، محمد باشا الخوارزمي: ١٧٧.

قَالَ أِبْنُ خَلِّكَانَ فِي «وَفَيَاتِ الْأَعْيَانِ» تَرْجَمَةَ الْقَاضِي أَبِي يُوسُفَ صَاحِبِ أَبِي حَنِيفَةَ: «إِنَّ هَارُونَ الرَّشِيدَ أَحَبَّ جَارِيَةِ عِيسَى بْنِ جَعْفَرٍ، فَسَأَلَهُ هَبْتَهَا لَهُ، أَوْ بَيْعَهَا فَأَبَى، وَقَالَ: بِالطَّلَاقِ، وَالْعِتَاقِ، وَصَدَقَةَ جَمِيعِ مَا أَمْلَكَ إِنْ بَعْتَهَا أَوْ وَهَبْتَهَا، فَطَلَبَ الرَّشِيدُ مِنْ أَبِي يُوسُفَ، أَنْ يُوجِدَ لَهُ حَلًّا شَرْعِيًّا لِهَذِهِ الْمُغْضَلَةِ. فَقَالَ أَبُو يُوسُفَ لِعِيسَى: هَبْهُ نِصْفَهَا، وَلَا حَنْتَ فِي ذَلِكَ، لِأَنَّكَ مَا بَعْتَهَا كُلَّهَا وَلَا وَهَبْتَهَا كُلَّهَا.

فَفَعَلَ عِيسَى، وَحُمِلَتِ الْجَارِيَةُ إِلَى الرَّشِيدِ، وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ، فَقَالَ الرَّشِيدُ لِأَبِي يُوسُفَ بَقِيَّتْ وَاحِدَةٌ. قَالَ: وَمَا هِيَ؟ قَالَ: هِيَ جَارِيَةٌ وَلَا بُدَّ أَنْ تَسْتَبْرَى، وَإِذَا لَمْ أَبْتَ مَعَهَا لِيَلِي هَذَا خَرَجَتْ نَفْسِي. قَالَ أَبُو يُوسُفَ: أَعْطَيْتَهَا فَتَصَبَّحَ حُرَّةً، وَأَعْقَدَ عَلَيْهَا بَعْدَ الْعِتْقِ فَإِنَّ الْحُرَّةَ لَا تَسْتَبْرَى، فَأَعْطَيْتَهَا الرَّشِيدَ، وَعَقَدَ لَهُ عَلَيْهَا أَبُو يُوسُفَ، وَقَبَضَ مِئْتَى أَلْفٍ... كُلُّ ذَلِكَ حَدَّثَ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ، وَقَبْلَ أَنْ يَقُومَ الرَّشِيدُ مِنْ مَكَانِهِ! (١).

(١) أنظر، وفَيَاتِ الْأَعْيَانِ: ٢٥٤/٤، وتَارِيخُ بَغْدَادَ: ٢٥٣/١٤.

وعندما أَفْضَتِ الْخِلَافَةَ بِوِاسْطَةِ الْبَيْتَةِ الْمُتَقِيَّةِ، وَوَلَايَةِ الْمُهْدِ السَّيِّمَةِ، أَخَذَتْ نَزَوَاتِ الرَّشِيدِ الَّتِي غَابَ عَنْهَا الْقَانُونُ الشَّرْعِيُّ وَالْأَخْلَاقُ تَطْفُو عَلَى السُّطْحِ، فَقَدْ وَقَعَتْ فِي نَفْسِهِ جَارِيَةٌ مِنْ جَوَارِيِ التَّهْدِي فَرَاوَدَهَا عَنْ نَفْسِهَا فَقَالَتْ لَا أَضِلُّكَ لَكَ، أَنْ أَبَاكَ قَدْ طَلَفَ بِي، لَكُنْهُ شَفَفَ بِهَا، فَأَرْسَلَ إِلَى أَبِي يُوسُفَ قَاضِيهِ الشَّهْرِ وَالْمُلَقَّبِ بِ«فَقِيهِ الْأَرْضِ وَقَاضِيهَا»، فَسَأَلَهُ الرَّشِيدُ: أَعِنْدَكَ فِي هَذَا شَيْءٌ؟ وَجَاءَ الْجَوَابُ: «إِهْنِكَ حُرْمَةُ أَبِيكَ، وَأَقْضِ شَهْوَتَهُ، وَصَبِرْ فِي رَقَبَتِي». أَنْظَر، تَارِيخُ الْخُلَفَاءِ: ٢٩١. وَكَانَ قَاضِي الْقَضَا صَاحِبَ دُكَّانٍ أَوْ بَقَالِيَةٍ عِنْدَمَا يَسْأَلُهُ الرَّشِيدُ أَعِنْدَكَ شَيْءٌ؟ وَتَمَّ الْأَسَفُ الشَّدِيدُ فِعْلًا أَصْبَحَ قَاضِي الْقَضَا صَاحِبَ بَقَالِيَةٍ، وَلَكِنْ مَا يَنْدِثُهَا مِنَ الْمَوَادِّ الْمُحَرَّمَةِ الَّتِي لَا يَجُوزُ التَّكْسِبُ بِهَا؟ وَفِعْلًا أَفْتَى الْقَاضِي الشَّهِيرُ بِفَتْوَاهِ لِإِرْضَاءِ مَقْهَوَاتِ الْحَاكِمِ وَالْخَلِيفَةِ، وَصَاحِبِ الْبَيْتَةِ: وَوَلَايَةِ الشَّهَدِ

كُلَّ هَذَا الْعَبَثِ فِي الدِّينِ، وَأَكْثَرُ مِنْ هَذَا كَانَ يَحْدُثُ فِي الْمُجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ بَعْدَ تِلْكَ السَّابِقَةِ الَّتِي أَبْتَدَعَهَا الْمُجْتَهِدُونَ فِي مَوْرِدِ النَّصِّ لِتَبْرِيرِ الْخُرُوجِ عَلَى الْإِمَامِ، وَحَشْدِ الْجُيُوشِ لِحَرْبِهِ فِي الْبَصَرَةِ وَصَفِّينَ.

أُمثلة من التعصب المذهبي:

وَالْآنَ وَبَعْدَ أَنْ عَرَضْنَا بَعْضَ الْأُمثلةِ مِنْ بِدْعَةِ الْإِجْتِهَادِ فِي مَوْرِدِ النَّصِّ - نَعْرِضُ أُمثلةً مِنَ التَّعَصُّبِ الْمَذْهَبِيِّ. قَالَ أَحْمَدُ تَيْمُورُ فِي كِتَابِ الْمَذَاهِبِ الْأَرْبَعَةِ: «جَاءَ فِي مُعْجَمٍ يَأْقُوتُ أَنَّ أَهْلَ الرَّيِّ كَانُوا ثَلَاثَةَ طَوَائِفَ: شِيعَةً، وَحَنْفِيَّةً، وَشَافِعِيَّةً، فَتَضَافَرَتِ الطَّائِفَتَانِ الْأَخِيرَتَانِ عَلَى الشَّيْعَةِ فَأَفْنَوْهُمَ، ثُمَّ قَامَتِ إِلَى بَيْنِ الشَّافِعِيَّةِ وَالْحَنْفِيَّةِ فَكَانَ الظُّفَرُ لِأُولَئِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ، وَخَرَجَتْ مَحَالُ الشَّيْعَةِ وَالْحَنْفِيَّةِ، وَبَقِيَتِ مَحَلَّةُ الشَّافِعِيَّةِ»^(١).

وَقَالَ الشَّيْخُ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَيْسَى فِي كِتَابِ مَا لَا يَجُوزُ الْخِلَافُ: «سُئِلَ بَعْضُ فُقَهَاءِ الشَّافِعِيَّةِ عَنْ حُكْمِ الطَّعَامِ الَّذِي وَقَعَتْ فِيهِ قَطْرَةٌ نَبِيذٍ؟ فَقَالَ: يُرْمَى لِلْكَلْبِ أَوْ حَنْفِي! لِأَنَّ الْحَنْفِيَّةَ يَقُولُونَ بِطَهَارَةِ النَّبِيذِ وَالشَّافِعِيَّةُ

❖ وَالْإِخْتِيَارُ، مِنْ قَبْلِ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْمَقَدِّ، وَأَهْلِ الشُّورَى، وَ... وَ... ثُمَّ لَمْ يَكْتَفِ بِهَذِهِ الرَّشِيدِ، بَلْ أَنَّهُ ذَاتَ مَرَّةٍ سَأَلَ قَاضِي الْقَضَاةِ: أَيْنِ اشْتَرَيْتَ جَارِيَةً، وَأَرِيدُ أَنْ أَطَاهَا الْآنَ قَبْلَ الْإِسْتِبْرَاءِ، فَهَلْ عِنْدَكَ حِيلَةٌ؟ قَالَ: نَعَمْ! تَهْنِئُهَا لِبَعْضٍ وَلِذَاكَ، ثُمَّ... اللَّهُ أَكْثَرُ! هَذَا قَبْلَهُ الْأَرْضُ وَقَاضِيهَا فَلَا تَمْنَعُهُمُ الدَّرَاهِمُ وَالْدَّنَائِيرُ مِنْ أَيِّ فِتْنَةٍ، وَلَا بُدَّ لِلرَّشِيدِ أَنْ يُعْجَلَ بِهَا لِقَبْلِ الصُّبْحِ، فَقَالُوا لَهُ أَنْ الْخَازِنَ فِي بَيْتِهِ وَالْأَبْوَابُ مَغْلُوقَةٌ، فَقَالَ أَبُو يُونُسَ: «قَدْ كَانَتْ الْأَبْوَابُ مَغْلُوقَةً حِينَ دَعَانِي فَفُتِحَتْ!!». الْمَصْدَرُ السَّابِقُ: ٢٩٢.

(١) أَنْظَرِ، أَحْمَدُ تَيْمُورُ فِي كِتَابِ الْمَذَاهِبِ الْأَرْبَعَةِ: ٤٩ طَبْعَةُ ١٩٦٥ م. (مِنْهُ ﷺ).

بَنَجَاسَتَهُ» ^(١).

وَسُئِلَ بَعْضُ فَقَهَاءِ الْحَنْفِيَّةِ عَنْ زَوَاجِ حَنْفِي بِشَافِعِيَّةٍ ؟
فَقَالَ : يَجُوزُ الزَّوَاجُ بِهَا ، لَا عَلَى أَنَّهَا مُؤَمَّنَةٌ ، بَلْ قِيَاسًا عَلَى الزَّوَاجِ بِالْيَهُودِيَّةِ
وَالنَّصْرَانِيَّةِ» ^(٢).

وَأَيْضًا نَقَلَ الشَّيْخُ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَيْسَى فِي كِتَابِهِ الْمَذْكُورِ أَنَّ حَنْفِيًّا وَشَافِعِيًّا كَانَا
يُصَلِّيَانِ جَمَاعَةً ، فَقَرَأَ الشَّافِعِيُّ الْفَاتِحَةَ ، وَلَمَّا سَمِعَهُ الْحَنْفِيُّ ضَرْبَهُ ضَرْبَةً قَوِيَّةً
عَلَى صَدْرِهِ وَقَعَ مِنْهَا عَلَى ظَهْرِهِ حَتَّى كَادَ يَمُوتُ ، لَا لِشَيْءٍ إِلَّا لِأَنَّ الْحَنْفِيَّةَ لَا
يَتَابِعُونَ الْإِمَامَ فِي قِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ» ^(٣).

الْمُتَنَعَةُ وَشَيْخُ أَزْهَرِي :

وَحَدَّثَنِي أَخِي كَرِيمٌ أَنَّهُ اجْتَمَعَ بِشَيْخٍ مِنْ كِبَارِ عُلَمَاءِ الْأَزْهَرِ وَمَشَاهِيرِهَا ،
وَعِنْدَمَا عَرَفَ أَنِّي شَيْعِي قَالَ ، بَحْدَةٌ كَادَتْ تُخْرِجُهُ عَنْ رُشْدِهِ : الشَّيْعَةُ يُجِيزُونَ
زَوَاجَ الْمُتَنَعَةِ ، وَالزَّوْجَا خَيْرٌ مِنْهَا وَأَفْضَلُ !.

وَلَا أَدْرِي لِمَاذَا نَسِيَ هَذَا الشَّيْخُ أَوْ تَنَاسَى مُشْكَلَةَ الْإِلْحَادِ وَإِعْرَاضِ النَّاسِ
عَنِ الدِّينِ وَالْقِيمِ ، وَمُشْكَلَةَ قَوَى الشَّرِّ وَأَسْلَحَتِهَا الْمُدْمِرَةِ . وَمُشْكَلَةُ التَّفْرِقَةِ
الْعُنْصَرِيَّةِ وَالصَّهْوُونِيَّةِ وَوُجُودِ إِسْرَائِيلَ عَلَى الْخَرِيطَةِ ، وَغَيْرِهَا مِنَ الْمَشْكَلَاتِ
وَالْوَيْلَاتِ ، نَسِيَ كُلَّ ذَلِكَ ، وَمَا تَذَكَّرَ وَذَكَرَ إِلَّا الْمُتَنَعَةَ حَتَّى كَانَتْهَا مَرَكَزَ الثَّقَلِ مِنَ

(١) أَنْظِرْ ، الشَّيْخُ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَيْسَى فِي كِتَابِ مَا لَا يَجُوزُ الْخِلَافَ ، الْفَصْلُ الثَّامِنُ . (مِنْهُ ﷺ) .

(٢) أَنْظِرْ ، الشَّيْخُ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَيْسَى فِي كِتَابِ مَا لَا يَجُوزُ الْخِلَافَ ، الْفَصْلُ الثَّامِنُ . (مِنْهُ ﷺ) .

(٣) أَنْظِرْ ، الشَّيْخُ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَيْسَى فِي كِتَابِ مَا لَا يَجُوزُ الْخِلَافَ ، الْفَصْلُ الثَّامِنُ . (مِنْهُ ﷺ) .

التوتر الذي يسود العالم في شرقه وغربه!... وأيضاً لا أدري كيف أطلق الحكم بالزنا على المُنْتَعَةِ مِنْ غَيْرِ تَحْفَظَ وَتَرَدَّدَ مَعَ الْعِلْمِ بِأَنْ كُلَّ مَنْ أَبْطَلَ الْمُنْتَعَةَ مِنْ فُقَهَاءِ السُّنَّةِ أَدْخَلَهَا فِي بَابِ الشُّبْهَةِ وَالْجَهْلِ بِالتَّحْرِيمِ؟.

وإذا كان غَضَبُ الشَّيْخِ لِدِينِ اللَّهِ، وَخَافَزَهُ الْغَيْرَةُ عَلَى الشَّرِيعَةِ فَكَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَنْسَجِمَ مَعَ دِينِهِ وَضَمِيرِهِ، وَيُنْكَرَ مَا جَاءَ فِي فِقْهِ مَذَاهِبِ السُّنَّةِ مِنْ أَحْكَامٍ تَمَجُّهَا الْأَسْمَاعُ وَالْأَفَنَدَةُ، وَتُسَيِّءُ إِلَى الْإِسْلَامِ وَشَرِيعَتِهِ، وَفِيمَا يَلِي نَعْرُضُ طَرَفًا مِنْهَا عَلَى سَبِيلِ التَّمْثِيلِ^(١).

(١) مِنْ مَعَانِي الْمُنْتَعَةِ الزَّوْاجُ إِلَى أَجَلٍ، وَقَدْ اتَّفَقَ الْمُسْلِمُونَ قَوْلًا وَاحِدًا السُّنَّةُ مِنْهُمْ وَالشَّيْعَةُ عَلَى أَنَّ الْإِسْلَامَ شَرَعَهَا، وَرَسُولُ اللَّهِ أَتَاهَا، وَأَسْتَدَلُّوا بِآيَةِ: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرْضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾. أَلَسَاءَ: ٢٤.

وَجَاءَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ لِأَصْحَابِهِ فِي بَغْضِ حُرُوبِهِ: «قَدْ أَذَنْ لَكُمْ أَنْ تَسْتَمْتَعُوا فَاسْتَمْتَعُوا... أَيْمًا رَجُلٌ أَوْ امْرَأَةٌ تَوَافَقَا فَعَشْرَةٌ مَا يَنْتَهُمَا ثَلَاثَ لَيَالٍ، فَإِنْ أَحَبَّا أَنْ يَتَزَايِدَا أَوْ يَنْتَارَكَا تَرَكََا». أَنْظِرْ، صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ: ٧/ كِتَابُ النِّكَاحِ: ١٩٦٧/٥ ح ٤٨٢٧، الْمُعْجَمُ الْكَبِيرُ: ٧/ ٢٤ ح ٦٢٦٦، تَقْلِيْقُ التَّلْمِيْقِ: ٤/ ٤١٢ ح ٥١١٩، فَتَحُ الْبَارِي: ٩/ ١٧٣.

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيِّ أَنَّهُ قَالَ: «أَسْتَمْتَعْنَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ، وَأَبَى بَكْرٌ، وَعُمَرُ». أَنْظِرْ، صَحِيحُ مُسْلِمٍ: ٢/ ١٠٢٣، الْإِصَابَةُ: ٢/ ٦٣، الْمُوطَأُ: ٢/ ٥٤٢، سُنَنِ النَّسَائِيِّ: ٦٧/٦، كَنْزُ الْمُتَالِ: ١٦/ ٥٢٠، وَعَنْ جَابِرٍ، قَالَ فِيهِ: «ثُمَّ نَهَانَا عَنْهُ عُمَرُ». أَنْظِرْ، صَحِيحُ مُسْلِمٍ: ٢/ ١٠٢٥ ح ١٤٠٦، صَحِيحُ أَبِي خَتَّانٍ: ٩/ ٤٥٨، السُّنَنِ الْكُبْرَى: ٣/ ٣٢٦ ح ٥٥٣٨، الْمُصَنَّفُ لِعَبْدِ الرَّزَّاقِ: ٧/ ٥٠٦ ح ١٤٠٤٨، شَرْحُ مَعَانِي الْأَخْبَارِ: ٣/ ٢٦، فَتَحُ الْبَارِي: ٩/ ١٧٠، التَّهْمِيدُ لِابْنِ عَبْدِ الْبَرِّ: ١٠/ ١١١، تَهْذِيبُ الْكَمَالِ: ٨/ ٣٠٧، نَيْلُ الْأَوْطَارِ: ٦/ ٢٧٤.

وَبَعْدَ أَنْ اتَّفَقَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى شَرْعِيَّتِهَا وَإِبَاحَتِهَا فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ، اخْتَلَفُوا فِي نَسْخِهَا: وَهَلْ صَارَتْ حَرَامًا بَعْدَ أَنْ أَحْلَاهَا اللَّهُ؟.

ذَهَبَ السُّنَّةُ إِلَى أَنَّهَا نُسَخَتْ، وَحُرِّمَتْ بَعْدَ الْإِذْنِ بِهَا قَالَ أَبُو حَجَرٍ الْعَسْقَلَانِيُّ: وَزَدَتْ عِدَّةَ أَحَادِيثَ

أَسْتَأْجِرُ امْرَأَةً لِلزَّوْنَا:

جاءَ فِي مِيزَانِ الشَّعْرَانِي، بَابِ الزَّوْنَا، مَا نَصَّه بِالْحَرْفِ الْوَاحِدِ: «أَتَّفَقَ الْأُتِمَّةُ عَلَى أَنَّ مَنْ أَسْتَأْجَرَ امْرَأَةً لِتَزْنِي بِهَا فَفَعَلَ فَعَلِيهِ الْحَدَّ إِلَّا مَا يُحْكِي عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ مِنْ قَوْلِهِ: لَا حَدَّ عَلَيْهِ». وَنَقَلَ الْغَزَالِيُّ هَذَا الْقَوْلَ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ فِي كِتَابِ الْمَنْخُولِ وَعَلَّقَ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: «وَمَنْ يَبْغِي الْبَغَاءَ - أَيْ الزَّوْنَا بِمُؤَسَّسَةٍ - كَيْفَ يَعْجَزُ عَنْ أَسْتِئْجَارِهَا؟ وَمَنْ عَذِيرُنَا مِمَّنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ^(١)؟».

وَتُعَلَّقُ عَلَيْهِ نَحْنُ بِأَنَّ كُلَّ مَا يَحْرُمُ فِعْلُهُ يَحْرُمُ بَيْعُهُ وَشِرَاؤُهُ وَإِجَارُهُ كِتَابًا وَسُنَّةً وَإِجْمَاعًا وَعَقْلًا.

الزَّوْنَا وَشَهَادَةُ الزُّور:

وَأَيْضًا نَقَلَ الْغَزَالِيُّ، وَالْقَرَّافِيُّ، وَأَبْنُ هَمَّامٍ الْحَنْفِيُّ، وَأَبْنُ قُدَّامَةَ، نَقَلُوا عَنْ أَبِي

صَحِيحَةً وَصَرِيحَةً بِالنَّهْيِ عَنِ الْمُتَمَتَّةِ بَعْدَ الْإِذْنِ بِهَا». أَنْظِرْ، أَبْنُ حَجَرٍ الْمَسْقَلَانِيُّ فِي كِتَابِ «فَتْحِ الْبَارِي بِشَرْحِ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ: ٧٠ / ١١ طَبْعَةٌ (١٩٥٩ م).

وَجَاءَ فِي الْمُغْنِيِّ، مَا نَصَّ بِالْحَرْفِ: قَالَ الشَّافِعِيُّ: «لَا أَعْلَمُ شَيْئًا أَحَلَّهُ اللَّهُ، ثُمَّ حَرَّمَهُ، ثُمَّ أَحَلَّهُ ثُمَّ حَرَّمَهُ، إِلَّا الْمُتَمَتَّةَ». أَنْظِرْ، الْمُغْنِيُّ لِأَبْنِ قُدَّامَةَ: ٦٤٥ / ٦ طَبْعَةٌ ثَالِثَةٌ.

وَقَالَ الشَّيْخُ: أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى إِبَاحَةِ الْمُتَمَتَّةِ، وَأَخْتَلَفُوا فِي نَسْخِهَا. وَمَا ثَبَتَ بِالْيَقِينِ لَا يَزُولُ بِمُجَرَّدِ الشُّكِّ وَالظَّنِّ. وَأَيْضًا أَشْتَدُّوا عَلَى غَدَمِ النَّسْخِ بِأَنَّ الْإِمَامَ الْعَصَادِقَ سُئِلَ: «هَلْ نَسَخَ آيَةُ الْمُتَمَتَّةِ شَيْءٌ قَالَ: لَا، وَلَوْلَا مَا نَهَى عَنْهَا غُتِرَ، مَا زَنَى إِلَّا شَقِي». أَنْظِرْ، النَّهَايَةُ: ٢ / ٢٤٩ و ٤٨٨، الْمُصَنَّفُ لِعَبْدِ الرَّزَّاقِ: ٥٠٠ / ٧، تَفْسِيرُ الْفَخْرِ الرَّازِيِّ: ٢٠٠ / ٣، تَفْسِيرُ الْقُرْطُبِيِّ: ١٣٠ / ٥، تَفْسِيرُ أَبِي حَيَّانٍ: ٢١٨ / ٣، الْهِدَايَةُ الْكُبْرَى: ٤٢٤، تَفْسِيرُ الطَّبْرِيِّ: ١٧ / ٥، تَفْسِيرُ الدَّرِّ الْمَشْهُورِ: ٤٠ / ٢.

(١) أَنْظِرْ، الْمَنْخُولُ: ٥٠٢ طَبْعَةٌ أُولَى، نَقَلَ الْغَزَالِيُّ هَذَا الْقَوْلَ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ. (مِنْهُ ﷺ). وَأَنْظِرْ، الْمُغْنِيُّ لِأَبْنِ قُدَّامَةَ: ٢١١ / ٨، الطَّبْعَةُ الثَّالِثَةُ، الْمَبْسُوطُ لِلرَّخْصِيِّ: ٥٨ / ٩ و ٦١ و ٨٥، اللَّبَّابُ: ٨٣ / ٣، الْهِدَايَةُ الْكُبْرَى: ١٤٤ / ٤، تَبَيَّنَ الْحَقَائِقُ: ١١٩ / ٣، الْمَجْمُوعُ: ٢٥ / ٢٠، الْبَحْرُ الرَّائِقُ: ٣٠ / ٥.

حَنِيفَةً: أَنَّهُ قَالَ: لَوْ أَنَّ رَجُلَيْنِ تَعَمَّدَا شَهَادَةَ الزُّورِ عَلَى رَجُلٍ أَنَّهُ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ، وَفَرَّقَ الْقَاضِي بَيْنَهُمَا اعْتِمَادًا عَلَى الشَّهَادَةِ الْكَاذِبَةِ - لَجَازَ لِأَحَدِ الشَّاهِدَيْنِ الْكَاذِبَيْنِ الْعَالِمِ بِتَعَمُّدِهِ الْكَذِبِ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا^(١).

وَأَيْضًا نَقَلَ صَاحِبُ الْمُغْنِيِّ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ: لَوْ أَنَّ رَجُلًا ادَّعَى كَاذِبًا أَنَّ فُلَانَةَ زَوَّجَتْهُ، وَأَقَامَ شَاهِدِي زُورٍ فَحَكَمَ الْقَاضِي بِالزَّوْاجِ فَحَلَّتْ لَهُ، وَصَارَتْ زَوْجَتَهُ، وَكَذَا لَوْ أَنَّ امْرَأَةً اسْتَأْجَرَتْ شَاهِدِي زُورٍ بِأَنْ زَوَّجَهَا طَلَقَهَا، وَحَكَمَ الْقَاضِي بِالطَّلَاقِ - لَحَلَّ لَهَا أَنْ تَتَزَوَّجَ بِمَنْ تَشَاءُ^(٢)!

وَأَصَاغِرُ الطَّلَبَةِ يَعْرِفُونَ أَنَّ مَا بُنِيَ عَلَى الْفَاسِدِ فَهُوَ فَاسِدٌ... وَإِذَا سَقَطَ الْأَصْلُ سَقَطَ الْفَرْعُ.

إِلْحَاقُ الْوَلَدِ بِغَيْرِ أَبِيهِ:

قَالَ أَبُو يُوسُفٍ تَلْمِيزُ أَبِي حَنِيفَةَ: «إِذَا غَابَ الزَّوْجُ عَنْ زَوْجَتِهِ، ثُمَّ نُعِيَ إِلَيْهَا فَأَعْتَدَتْ وَتَزَوَّجَتْ بِرَجُلٍ آخَرَ، وَرُزِقَ مِنْهَا أَوْلَادٌ، ثُمَّ جَاءَ زَوْجُهَا الْأَوَّلُ - فَلَا أَوْلَادَ كُلُّهُمْ لِلأَوَّلِ الَّذِي كَانَ غَائِبًا وَبِحُكْمِ الْمَيِّتِ»^(٣).

(١) أنظر، المنحول: ٥٠٣ طبعة أولى، نقل الغزالي هذا القول عن أبي حنيفة، والقرافي في كتاب الفروق: ٣١/٤ طبعة ١٣٤٦ هـ، وأبن هشام الحنفي في فتح القدير: ٣٨٩/٢، وأبن قدامة في كتاب المغني: ٥٩/٩ طبعة سنة ١٣٦٧ هـ. (مئة ٥٩).

(٢) أنظر، المغني: ٤٠٨/١١، الشرح الكبير: ٤٠٨/١١ و ٤٦٥، كشف التناع: ٣٩١/٥، المصنف لإبن أبي شيبه الكوفي: ٤٢٦/٨ مسألة (١١٢).

(٣) أنظر، إختلاف أبي حنيفة، وأبن أبي ليلى: ١٨٣ طبعة أولى. (مئة ٦٩). أنظر، رحمة الأمة: ٦٩/٢، البيهزان الكبير: ١٨٢/٢، بدآية المجتهد: ١١٧/٢، الشرح الكبير: ٦٥/١٠، المجموع:

وَفِي كِتَابِ الْأَحْوَالِ الشَّخْصِيَّةِ لِمُحَمَّدٍ مُحْيِي الدِّينِ عَبْدِ الْحَمِيدِ: «أَنَّ أَبَا حَنِيفَةَ قَالَ: لَوْ وَكَلَ رَجُلٌ فِي مَضَرٍ رَجُلًا فِي الْأَنْدَلُسِ بِأَنْ يُزَوِّجَهُ فُلَانَةً، فَقَعَدَ لَهُ عَلَيْهَا، وَلَمْ يَلْتَقِ أَصْلًا، ثُمَّ تَجَيَّءَ بَوْلَدٍ بَعْدَ الْعَقْدِ يُنْسَبُ الْوَلَدُ لَزَوْجِهَا الْمُقِيمِ فِي مَضَرٍ!»^(١).

يَا سُبْحَانَ اللَّهِ! الْخَاقِ الْوَلَدَ بَغَيْرِ أَبِيهِ شَرَعَ وَدِينَ وَحُكْمَ الْقَاضِي إِعْتِمَادًا عَلَى الزُّورِ حَقٍّ وَعَدْلٍ، وَمُجَرَّدَ الْإِسْتِجَارِ عَلَى الزَّانَا يُحْلَلُ الْحَرَامُ، أَمَّا الْعَقْدُ عَلَى الْمَرْأَةِ الْخَلِيَّةِ بِمَهْرٍ وَأَجَلٍ فَأَشَدُّ مِنَ الزَّانَا!... وَمَرَّةً ثَانِيَةً يَا سُبْحَانَ اللَّهِ!.

زَوَاجُ الْمُتَعَةِ وَالزَّوْاجِ الْمُؤَقَّتِ:

وَبِهَذِهِ الْمُنَاسِبَةِ نُشِيرُ إِلَى أَنَّ جَمَاعَةً مِنْ فُقَهَاءِ السُّنَّةِ يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الزَّوْاجِ الْمُتَعَةِ وَالزَّوْاجِ الْمُؤَقَّتِ مِنْ أَوْجِهٍ ثَلَاثَةٍ:

الْأَوَّلُ: أَنَّ الْمُتَعَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا بِلَفْظِ مَتَعْتُ، وَالْمُؤَقَّتُ يَكُونُ بِلَفْظِ الزَّوْاجِ. الثَّانِي: أَنَّ الْمُتَعَةَ لَا تَحْتَاجُ إِلَى شَهُودٍ، وَهُمْ شَرَطُوا فِي الْمُؤَقَّتِ.

الثَّالِثُ: أَنَّ تَعْيِينَ الْوَقْتِ شَرَطٌ فِي الْمُتَعَةِ وَلَيْسَ بِشَرَطٍ فِي الْمُؤَقَّتِ بَلْ يَجُوزُ بِمُجَرَّدِ كَلِمَةِ «وَقْتُ أَوْ زَمَنٍ أَوْ أَجَلٍ» مِنْ غَيْرِ تَعْيِينٍ.

وَقَالَ بَعْضُ فُقَهَاءِ الْحَنْفِيَّةِ: فِي الزَّوْاجِ الْمُؤَقَّتِ يُبْطَلُ الْأَجَلُ وَيَصَحُّ الْعَقْدُ. وَقَالَ جُمْهُورُ السُّنَّةِ: لَا فَرْقَ مِنْ حَيْثُ فَسَادُ الْعَقْدِ وَبُطْلَانُهُ بَيْنَ الْمُتَعَةِ وَالْمُؤَقَّتِ^(٢).

(١) انظر، الأحوال الشخصية لمحمد محيي الدين عبد الحميد: ٤٧١ طبعة سنة ١٤٩٢ م. (منه).

(٢) انظر، الأحوال الشخصية لمحمد محيي الدين عبد الحميد: ٤٧١ طبعة سنة ١٤٩٢ م. الأحوال

وَقَالَ الشَّيْخَةُ: الْمُتَعَهُ كَالزَّوْاجِ الدَّائِمِ فِي خُلُوِّ الْمَرْأَةِ مِنَ الزَّوْاجِ وَالْعِدَّةِ، وَفِي الْحَاقِ الْوَلَدُ بِأُمِّهِ وَأَبِيهِ، وَوَجُوبُ أَصْلِ الْعِدَّةِ بَعْدَ انْتِهَاءِ الْمُدَّةِ، وَالْعَقْدُ الْمُشْتَمِلُ عَلَى الْإِجْبَابِ وَالْقَبُولِ. وَالْفَرْقُ أَنَّ الْمُتَعَةَ تَقَعُ بِلَفْظِ مَتَعْتُ أَوْ زَوَّجْتُ أَوْ أَنْكَحْتُ فَقَطْ لَا غَيْرَ، أَمَّا الزَّوْاجُ الدَّائِمُ فَلَا يَقَعُ إِلَّا بِزَوَّجْتُ أَوْ أَنْكَحْتُ وَلَا يَصَحُّ بِمَتَعْتُ وَحْدَهَا وَلَا بُدَّ مِنْ تَعْيِينِ الْأَجَلِ وَتَحْدِيدِهِ فِي الْمُتَعَةِ دُونَ الزَّوْاجِ الدَّائِمِ، وَأَيْضًا ذِكْرُ الْمَهْرِ رُكْنٌ فِيهَا دُونَهُ... وَلَيْسَ لِلْمَتَمَتِّعِ بِهَا نَفَقَةٌ وَلَا إِرْثٌ إِلَّا مَعَ الشَّرْطِ، وَلِلدَّائِمِ النَّفَقَةُ وَالْإِرْثُ حَتَّى مَعَ شَرْطِ عَدَمِهَا. وَالْتَفْصِيلُ فِي كُتُبِ الْفِقْهِ، وَمِنْهَا كِتَابُ فِقْهِ الْإِمَامِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَام).

ضَلَاةُ الشَّيْطَانِ:

سُؤَالٌ آخَرُ نُوجِّهُهُ إِلَى الشَّيْخِ الْأَزْهَرِيِّ الَّذِي قَالَ: الزَّيْنُ خَيْرٌ مِنَ الْمُتَعَةِ، وَتَطْلُبُ مِنْهُ الْجَوَابُ. فَقَدْ أَشْتَهَرَ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ أَنَّ مَنْ أَدَّى الصَّلَاةَ الْوَاجِبَةَ عَلَى الصُّورَةِ التَّالِيَةِ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَسَقَطَ عَنْهُ الْوَجُوبُ، وَهِيَ:

أَنْ يَغْمَسَ الْإِنْسَانُ جِسْمَهُ فِي بَرْمِيلٍ مِنْ نَبِيدٍ، وَيَلْبَسَ جِلْدَ كَلْبٍ مَدْبُوعٍ^(١) وَيَدْخُلَ فِي الصَّلَاةِ بِلَا نِيَّةٍ، وَيُكَبِّرَ تَكْبِيرَةَ الْأَحْرَامِ بِالْهِنْدِيَّةِ أَوْ بِأَيَّةِ لُغَةٍ غَيْرِ عَرَبِيَّةٍ، وَيَقْرَأَ فِي الصَّلَاةِ «مُدْهَامَّتَانِ»^(٢) بِلَا فَاتِحَةٍ^(٣) ثُمَّ يَتْرَكَ الرُّكُوعَ الْمُطْمَئِنِّ

➡ الشَّخْصِيَّةُ لِأَبِي زُهْرَةَ: ٣٦، طَبْعَةُ ١٩٤٨ م. (مِنْهُ عَزَّ وَجَلَّ).

(١) فِي بَدَايَةِ الْمُجْتَهِدِ لِأَبْنِ رُشْدٍ أَنَّ أَبَا حَنِيفَةَ أَجَازَ الْوُضُوءَ بِنَبِيدِ التَّمْرِ، وَجِلْدَ الْكَلْبِ الْمَدْبُوعِ. (مِنْهُ عَزَّ وَجَلَّ).

(٢) أَلْرُخْمَتَيْنِ: ٦٤.

(٣) قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ فِي فَتْحِ الْبَارِي شَرْحَ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ: ٢ / ٣٨٤ طَبْعَةُ سَنَةِ (١٩٥٩ م). بَابُ وَجُوبِ

المُسْتَقَرَّ^(١) ثُمَّ يُحَدِّثُ عَمْدًا - أَي يَخْرُجُ الرِّيحُ مِنْ بَطْنِهِ - بِلَا تَسْلِيمٍ فِي آخِرِ الصَّلَاةِ.

وَسَلَّطْتُ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ عَنْ هَذِهِ الصَّلَاةِ وَصَحَّةَ نِسْبَتِهَا إِلَى أَبِي حَنِيفَةَ؟ وَمَنْ الَّذِي ذَكَرَهَا؟ وَفِي أَيِّ كِتَابٍ؟ وَكُنْتُ أُجِيبُ بِأَنَّ أَجْزَاءَ هَذِهِ الصَّلَاةِ وَأَرْكَانَهَا مَوْجُودَةٌ فِي فِقْهِ السُّنَّةِ، وَلَكِنَّهَا ذُكِرَتْ أَشْتَاتًا وَفِي مَسَائِلٍ مُتَفَرِّقَةٍ... ثُمَّ رَأَيْتَهَا مَلْمُومَةً وَمَجْمُوعَةً فِي كِتَابِ الْمَنَحُولِ لِلغَزَالِيِّ عَلَى الشَّكْلِ التَّالِيِ^(٢):

«إِذَا عَرَضَ أَقْلُ صَلَاتِهِ - أَي صَلَاةُ أَبِي حَنِيفَةَ - عَلَى عَامِّي جِلْفٍ أَمْتَنَعَ عَنْ تَقْلِيدِهِ وَاتَّبَاعِهِ، فَإِنَّ مَنْ انْعَمَسَ فِي مُسْتَنَفَعٍ نَبِيذٍ، فَخَرَجَ فِي جِلْدِ كَلْبٍ مَدْبُوعٍ وَلَمْ يَنْوِ، وَيُحْرَمُ فِي الصَّلَاةِ مُبْدَلًا صِغَةَ التَّكْبِيرِ بِتَرْجَمَتِهِ تُرْكِيًّا أَوْ هِنْدِيًّا، وَيَقْتَصِرُ فِي قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ عَلَى «مُذْهَابَيْنِ»^(٣)، ثُمَّ يَتْرُكُ الرُّكُوعَ، وَيَنْقَرُ نَقْرَتَيْنِ لَا قَعُودَ بَيْنَهُمَا، وَلَا يَقْرَأُ التَّشَهُّدَ، ثُمَّ يُحَدِّثُ عَمْدًا فِي آخِرِ صَلَاتِهِ بِدَلِّ التَّسْلِيمِ، وَلَوْ أَنْفَلَتَ مِنْهُ بِأَنَّ سَبْقَهُ الْحَدَّثَ يُعِيدُ الْوُضُوءَ فِي أَثْنَاءِ صَلَاتِهِ، وَيُحَدِّثُ بَعْدَهُ عَمْدًا، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ قَاصِدًا فِي حَدِّثِهِ الْأَوَّلِ - تَحَلُّلٍ مِنْ صَلَاتِهِ عَلَى الصُّحَّةِ ».

❖ القِرَاءَةُ لِلإِنَامِ وَالْمَأْمُومِ: أَنَّ الْفَاتِحَةَ وَاجِبَةٌ فِي الصَّلَاةِ عِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ، وَلَكِنْ مَنْ تَرَكَهَا عَمْدًا تَصَحَّ صَلَاتُهُ، وَلَا تَجِبُ الْإِعَادَةُ عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا يَأْتِمُ قَطَطٌ، ثُمَّ قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ: أَنَّ بَعْضَ الْأَحْنَافِ يَتْرُكُ الْفَاتِحَةَ فِي صَلَاتِهِ عَمْدًا وَيَقْصِدُ الْإِثْمَ لَا الشَّيْءَ، إِلَّا مُتْبَاعَةً فِي مُخَالَفَةِ مَذْهَبِ الْغَيْرِ أَبِي الشَّافِعِيِّ. (مِنْهُ ﷺ).

(١) فِي كِتَابِ الْفِقْهِ عَلَى الْمَذَاهِبِ الْأَرْبَعَةِ: أَنَّ الرُّكُوعَ عِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ يَحْصُلُ بِطَأْطِئَةِ الرَّأْسِ بِأَنْ يَنْحَنِيَ إِنْحِنَاءً يَكُونُ لَهُ إِلَى الرُّكُوعِ أَقْرَبُ؟ وَلَيْسَ مِنْ شَكٍّ أَنَّ الْقَرِيبَ أَوْ الشَّيْءَ بِالرُّكُوعِ لَيْسَ بِرُّكُوعٍ. (مِنْهُ ﷺ).

(٢) أَنْظِرْ، الْمَنَحُولُ: ٥٠١ طَبْعَةُ أُولَى. (مِنْهُ ﷺ).

(٣) أَنْظِرْ، الْمَنَحُولُ: ٥٠٢ طَبْعَةُ أُولَى، نَقَلَ الْغَزَالِيُّ هَذَا الْقَوْلَ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ. (مِنْهُ ﷺ). وَأَنْظِرْ، الْمُضْنِي

لِابْنِ قُدَامَةَ: ٢١١/٨، الطَّبْعَةُ الثَّلَاثَةُ، الْمَبْسُوطُ لِلشَّرْحِ: ٥٨/٩ و ٦١ و ٨٥، اللَّبَّتَابُ: ٨٣/٢.

الْهِدَايَةُ الْكُبْرَى: ١٤٤/٤، تَبَيُّنُ الْحَقَائِقِ: ١١٩/٣، الْمَجْمُوعُ: ٢٠/٢٥، الْبَحْرُ الرَّائِقُ: ٣٠/٥.

وَعَلَى الْغَزَالِيِّ عَلَى ذَلِكَ بَقَوْلِهِ: «وَالَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُقَطَّعَ بِهِ كُلُّ ذِي لُبٍّ أَنْ مِثْلَ هَذِهِ الصَّلَاةِ لَا يَنْبَغَتْ لِلَّهِ لَهَا نَبِيًّا، وَمَا بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ لِيَدْعُو النَّاسَ إِلَى مِثْلِ هَذِهِ الصَّلَاةِ، وَهِيَ قُطْبُ الْإِسْلَامِ وَعِمَادُ الدِّينِ»^(١).

وَأَكْرَرَ ثَانِيَةً وَثَالِثَةً لِمَاذَا يَتَنَاسَى الْمُتَعَصِّبُونَ هَذِهِ الْعَوَرَاتِ فِي مَذْهَبِهِمْ، وَيَقِيمُونَ الْكَوْنَ عَلَى رُؤُوسِ الشَّيْعَةِ مِنْ أَجْلِ الْمُتَعَةِ، وَهِيَ لَا تَخْلُو مِنْ أَحَدٍ فَرَضَيْنِ: أَمَّا زَوَاجٌ شَرْعِيٌّ كَمَا يَقُولُ الشَّيْعَةُ، وَأَمَّا شُبْهَةٌ بِلَا إِثْمٍ كَمَا يَقُولُ السُّنَّةُ، أَوْ تَقُولُ مَبَادِئُهُمْ وَقَوَاعِدُهُمْ.

لِكُلِّ رَأْيَةٍ وَعُذْرَةٍ:

مِنَ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ وَالْمَقْطُوعِ بِهِ عِنْدَ السُّنَّةِ وَالشَّيْعَةِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَجَازَ الْمُتَعَةَ وَأَبَاحَهَا، ثُمَّ اخْتَلَفُوا فِي النَّسْخِ فَقَالَ السُّنَّةُ: ثَبَّتَ عِنْدَنَا بِرَوَايَةِ الشَّقَاتِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَسَخَهَا وَحَرَّمَهَا بَعْدَ أَنْ حَلَّهَا وَأَذَنَ بِهَا.. فَقَالَ لَهُمُ الشَّيْعَةُ: لَكُمْ رَأْيُكُمْ وَعُذْرُكُمْ فِي ذَلِكَ مَا دَامَ رَاوِي النَّسْخِ مَقْبُولًا وَمُعْتَمَدًا عِنْدَكُمْ... وَالْفَقِيهَ الْمُحَقِّقَ الْمُثْبِتَ هُوَ الَّذِي يَفْخَصُ وَيَبْحَثُ جَاهِدًا عَنِ النَّصِّ، وَيَعْمَلُ بِهِ بَعْدَ أَنْ تَثْبِتَ أَمَانَتَهُ الرَّاَوِي عِنْدَهُ لَا عِنْدَ غَيْرِهِ.

وَنَحْنُ الشَّيْعَةُ قَدْ فَحَصْنَا وَبَحَثْنَا جَاهِدِينَ عَنِ النَّسْخِ فَلَمْ نَعْرِ لَهُ عَلَى عَيْنٍ وَلَا أَثَرَ فِي الثَّقَلِ الْمَوْثُوقِ الْأَمِينِ عِنْدَنَا... وَمِنَ الْبِدَاهَةِ بِمَكَانٍ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ الْقَوْلُ

(١) نَقَلَ الْغَزَالِيُّ هَذَا الْقَوْلَ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ . (مِنْهُ ﷺ). أَنْظَرِ، الْفِقْهَ عَلَى الْمَذَاهِبِ الْأَرْبَعَةِ: ٢٦/١ و ٢٣٠.

الْمَجْمُوع: ١٩٢/٣، تَفْسِيرُ الْقُرْطُبِيِّ: ٢٣١/٥، الْمَبْسُوطُ لِلشَّرْحِيِّ: ٨٨/١، بِدَائِعُ الصَّنَائِعِ:

١٥/١، بِدَايَةُ الْمُجْتَهِدِ: ٣٣/١.

بَنَسَخِ الْحُكْمَ الثَّابِتَ عِنْدَنَا قَطْعاً وَبِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ جَمِيعاً إِلَّا إِذَا تَجَلَّى ذَلِكَ
بَوْضُوحٍ كَامِلٍ، لِأَنَّ مَا ثَبَتَ بِالْيَقِينِ لَا يَرْتَفِعُ وَيَزُولُ إِلَّا بَيِّقِينَ مِثْلَهُ عِنْدَ مَنْ أَيْقَنَ
بِالثَّبُوتِ لَا عِنْدَ غَيْرِهِ كَمَا أَشَرْنَا، وَلَوْ قُلْنَا بِالنَّسخِ؛ وَالحَالُ هَذِهِ، لَكُنَّا مِمَّنْ يُحْلَلُ
حَرَامُ اللَّهِ مِنْ غَيْرِ دَلِيلٍ - مَا زَالَ الْكَلَامُ لِلشَّيْعَةِ - وَإِذْنُ فَتَكْلِيفِنَا الشَّرْعِي هُوَ إِبْقَاءُ مَا
كَانَ عَلَى مَا كَانَ مَا دَامَ لَمْ يَثْبِتِ الْعَكْسُ، وَلَا عُذْرُ لَنَا عِنْدَ اللَّهِ إِطْلَاقاً لَوْ قُلْنَا
بِالنَّسخِ... فَلَمَّاذَا لَا يَعْذَرُنَا إِخْوَانُنَا السُّنَّةُ كَمَا عَذَرْنَا هُمْ؟ وَهَلْ يَرْتَابُ أَحَدٌ أَنَّ
النَّسخَ لَوْ لَمْ يَثْبِتْ عِنْدَ السُّنَّةِ لَقَالُوا بِقَوْلِ الشَّيْعَةِ، وَأَنَّهُ لَوْ ثَبَتَ عِنْدَ الشَّيْعَةِ لَقَالُوا
بِقَوْلِ السُّنَّةِ؟.

وَبَعْدَ، فَقَدْ كُنْتُ فِي غِنَى عَنْ هَذَا النِّقْضِ وَالْجِدَالِ لَوْلَا ذَلِكَ الْأَزْهَرِيُّ الْعَجُوزُ
وَمَنْ عَلَى شَاكِلَتِهِ الَّذِينَ يُلْجَأُونَ الْآخِرِينَ لِلرَّدِّ عَلَيْهِمْ خَوْفاً مِنْ وَبَاءِ التَّقْلِيدِ
الْأَعْمَى، وَانْتِشَارِ الْمُحَاكَاةِ لِلْجَهْلِ وَالتَّعَصُّبِ الَّذِي يُبَدِّدُ الشَّمْلَ وَيُشَلِّ الْعِزْمَ فِي
وَقْتٍ نَحْنُ أَوْجَحُ إِلَى الْعَمَلِ يَدَاً وَاحِدَةً وَقَلْباً وَاحِداً لِتَحْقِيقِ مَا نَصَبُوا جَمِيعاً
إِلَيْهِ^(١).

(١) أَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَحْسِبُونَ الْمُتَعَةَ ضَرْباً مِنَ الرِّثَا وَالْفُجُورِ، جَهْلًا بِحَقِيقَتِهَا، وَيَتَعَدُّونَ أَنَّ أَبْنَ الْمُتَعَةِ
عِنْدَ الشَّيْعَةِ، لَا تَصِيبُ لَهُ مِنْ مِيرَاثِ أَبِيهِ، وَأَنَّ الْمُتَعَةَ بِهَا لَا عِدَّةَ لَهَا وَأَنَّهَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَنْتَقِلَ مِنْ رَجُلٍ إِلَى
رَجُلٍ إِنْ شَاءَتْ... وَمِنْ أَجْلِ هَذَا اسْتَقْبَحُوا الْمُتَعَةَ، وَأَسْتَكْرَوْهَا، وَشَعَرُوا عَلَى مَنْ أَبَاحَهَا.
وَالْوَاقِعُ أَنَّ الْمُتَعَةَ عِنْدَ الشَّيْعَةِ الْإِثْنِي عَشَرِيَّةِ كَالزَّوْاجِ الدَّائِمِ، لَا تَنْتَمِ إِلَّا بِالْقَدْرِ الدَّالِّ عَلَى قَصْدِ
الزَّوْاجِ ضَرَاخَةٍ، وَأَنَّ الْمُتَعَةَ بِهَا يَجِبُ أَنْ تَكُونَ خَالِيَةً مِنْ جَمِيعِ الْمَوَانِعِ، وَأَنَّ وَلَدَهَا كَالْوَلَدِ مِنَ الدَّائِمَةِ
فِي جُوبِ الثَّوَارِثِ. وَإِيفَاقُ، وَشَائِرِ الْحُقُوقِ الْمَادِيَّةِ وَالْأَدَبِيَّةِ وَأَنَّ عَلَيْهَا أَنْ تَتَّعِدَ بَعْدَ انْتِهَاءِ الْأَجْلِ مَعَ
الدُّخُولِ بِهَا، وَإِذَا مَاتَ زَوْجُهَا وَهِيَ فِي عِصْمَتِهِ، اعْتَدَتْ كَالدَّائِمَةِ مِنْ غَيْرِ تَفَاوُتٍ إِلَيْنِ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ
الْأَتَارِ وَالْأَحْكَامِ. أَنْظَرِ، صَحِيحِ مُسْلِمٍ: ١٠٢٣/٢، الإِصَابَةُ: ٦٣/٢، الْمُوطَأُ: ٥٤٢/٢، سُنَنِ

النَّسَائِي: ٦٧/٦، كُنْزُ الْمُتَال: ١٦/٥٢٠، الْفِقْهُ عَلَى أَلْتَدَاهِبِ الْخَمْسَةِ، وَالَّذِي حَقَّقْنَاهُ، وَطَبَّقْتَهُ مُؤَسَّسَةُ دَارِ الْكِتَابِ الْإِسْلَامِيِّ: ١١٠/٢، الْمُغْنِي: ٦/٦٤٤، الطَّبَقَةُ الثَّالِثَةُ، صَحِيحُ مُسْلِمٍ: ١٠٢٧/٢، كِتَابُ الْأُمِّ: ٧٩/٥، أَحْكَامُ الْقُرْآنِ لِلْجِصَّاصِ: ١٥٠/٢، الشُّنَنُ الْكُبْرَى: ٢٠١/٧، الْمَجْمُوعُ: ١٦/٤٢٩، التَّبْصُوتُ لِلرَّخِيصِيِّ: ٥/١٥٢، مَنْ لَا يَحْضَرُهُ الْفَقِيهَةُ: ٣/٢٩٧، الْكَافِي: ٥/٤٦٥، الْوَسَائِلُ: ١٤/٤٤٢، الْإِسْتِثْنَاءُ: ٣/١٥٠، التَّذَكُّرَةُ: ٢/٦٤٦، صَحِيحُ مُسْلِمٍ: ٢/١٠٢٣، الْإِصَابَةُ: ٢/٦٣، سُنَنُ النَّسَائِيِّ: ٦/٦٧، وَيُسَمُّونَهَا بِالزَّوْجِ الْمُتَقَطِّعِ، وَبِالزَّوْجِ إِلَى أَجَلٍ، وَهِيَ كَالزَّوْجِ الدَّائِمِ لَا تَنْتَمِ إِلَّا بِعَقْدٍ صَحِيحٍ دَالٍ عَلَى قَصْدِ الزَّوْجِ صَرَاحَةً، وَيَحْتَاجُ الْقَعْدَ إِلَى إِبْجَابٍ، وَهُوَ قَوْلُ الْمَرْأَةِ أَوْ وَكِيلِهَا: زَوَّجْتُ أَوْ أَنْكَحْتُ أَوْ مَتَّعْتُ، وَلَا يَكُونُ بَغْيَرُ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ الثَّلَاثَةِ أَبَدًا، وَإِلَى قَبُولِ مِنَ الرَّجُلِ، وَهُوَ قَبْلُ أَوْ وَصِيَّتُ.

وَكُلُّ مُقَارَبَةٍ تَحْصُلُ بَيْنَ رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ مِنْ دُونِ هَذَا الْقَعْدِ فَهِيَ سِفَاحٌ، وَلَيْسَتْ بِنِكَاحٍ حَتَّى مَعَ الشَّرَاضِيِّ، وَالزَّغْيَةِ الْأَكِيدَةِ، وَإِذَا كَانَ الْقَعْدُ بَلْفَظٍ أَجْزَتْ، أَوْ وَصِيَّتُ أَوْ أَتَبَحَّتْ وَنَحَوَهَا، فَهُوَ لَعْوٌ لَا أَتَرُلُهُ أَبَدًا، وَمَتَى تَمَّ الْقَعْدُ كَانَ لَازِمًا يَجِبُ الْوَفَاءُ بِهِ، وَالزَّمُّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الطَّرْفَيْنِ بِالْعَمَلِ عَلَى مُقْتَضَاهُ، وَلَا بُدَّ فِي عَقْدِ الْمُتَعَةِ مِنْ ذِكْرِ الْمَهْرِ، وَهُوَ كَمَهْرِ الزَّوْجَةِ الدَّائِمَةِ لَا يَتَقَدَّرُ بِقِلَّةٍ أَوْ كَثْرَةٍ، فَيَصَحُّ بِكُلِّ مَا يَتَرَاضَى عَلَيْهِ الرَّجُلُ وَالْمَرْأَةُ، وَيَسْقُطُ نِصْفُهُ بِهَبَةِ الْأَجَلِ، أَوْ إِنْقِصَاثِهِ قَبْلَ الدُّخُولِ، كَمَا يَسْقُطُ نِصْفُ مَهْرِ الزَّوْجَةِ بِالطَّلَاقِ قَبْلَ الدُّخُولِ.

وَلَا يَجُوزُ لِلرَّجُلِ أَنْ يَتَمَتَّعَ بِذَاتِ مُحَرَّمٍ كَأُمِّهِ، وَأَخْتِهِ، وَبِنْتِهِ، وَبِنْتِ أَخِيهِ، وَبِنْتِ أخته، وَعَمَتِهِ، وَخَالَتِهِ، نَسَبًا وَلَا رِصَاعًا، وَلَا بِأَمِّ زَوْجَتِهِ وَلَا بِبَنَتِهَا، وَأَخْتِهَا، وَلَا بِمَنْ تَزَوَّجَ أَوْ تَمَتَّعَ بِهَا أَبَوَهُ أَوْ ابْنَهُ، وَلَا بِمَنْ فِي الْعِدَّةِ مِنْ نِكَاحٍ غَيْرِهِ، وَلَا بِمَنْ زَنَى بِهَا وَهِيَ فِي عِصْمَةِ غَيْرِهِ، فَالْمُتَعَةُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ كَالزَّوْجَةِ الدَّائِمَةِ مِنْ غَيْرِ تَفَاوُتٍ.

وَعَلَى الْمُتَمَتِّعِ بِهَا أَنْ تَعْتَدَ مَعَ الدُّخُولِ بَعْدَ انْتِهَاءِ الْأَجَلِ، كَالْمُطَلَّغَةِ، سِوَى أَنْ الْمُطَلَّغَةَ تَعْتَدُ بِثَلَاثِ حِيصَاتٍ، أَوْ ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ، وَهِيَ تَعْتَدُ بِحِيصَتَيْنِ أَوْ بِخَمْسَةِ وَأَرْبَعِينَ يَوْمًا، أَمَّا الْعِدَّةُ مِنَ الْوَفَاةِ فَهِيَ فِيهَا سِوَاهُ، وَمُدَّتُهَا أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَعَشْرَةُ أَيَّامٍ، سِوَاهُ أَحْصَلَ الدُّخُولَ أَمْ لَمْ يَحْصُلْ.

وَالْوَلَدُ مِنَ الْمُتَعَةِ كَالْوَلَدِ مِنَ الزَّوْجَةِ الدَّائِمَةِ فِي الْبَيْرَاثِ، وَالتَّفَقُّعِ وَسَائِرِ الْحَقُوقِ الْمَادِيَّةِ، وَالْأَدَبِيَّةِ، وَلَا بُدَّ مِنْ أَجَلٍ مُعَيَّنٍ فِي الْمُتَعَةِ يُذَكَّرُ فِي مَتْنِ الْقَعْدِ، وَبِهَذَا تَفْتَرِقُ الْمُتَعَةُ عَنِ الزَّوْجِ الدَّائِمِ، وَلَكِنْ الطَّلَاقُ يَقْصَمُ عَرَى الزَّوْجِ، كَمَا يَقْصَمُهُ انْتِهَاءُ الْأَجَلِ فِي الْمُتَعَةِ، فَانْتِهَاءُ الْأَجَلِ طَّلَاقٌ فِي الْمَعْنَى،

« وَلَكِنْ يَغْيِرُ أَسْلُوبَهُ .

وَلَا يَمِيرَاتُ لِلْمَتَمَتِّعِ بِهَا مِنَ الرَّوْجِ ، وَلَا تَفْقَهُ لَهَا عَلَيْهِ ، وَالرَّوْجَةُ الدَّائِمَةُ لَهَا الْمِيرَاتُ ، وَالتَّفْقَةُ وَلَكِنْ لِلْمَتَمَتِّعِ بِهَا أَنْ تَشْتَرِطَ عَلَى الرَّجُلِ ضِمْنَ الْعَقْدِ الْإِنْفَاقَ وَالْمِيرَاتَ ، وَإِذَا تَمَّ هَذَا الشَّرْطُ كَانَتْ الْمَتَمَتِّعُ بِهَا كَالرَّوْجَةِ الدَّائِمَةِ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ أَيْضًا ، وَيُكْرَهُ التَّمَتُّعُ بِالرَّأْنِيَّةِ ، وَالْيَكْرُ .

هَذِهِ هِيَ الْمُتَمَتُّعَةُ ، وَهَذِي حُدُودُهَا وَقِيُودُهَا ، كَمَا هِيَ مُدَوَّنَةٌ فِي جَمِيعِ الْكُتُبِ الْفِقْهِيَّةِ لِلشَّيْخَةِ الْإِمَامِيَّةِ ، وَلَمْ تَسْتَعْمَلِ الْمُتَمَتُّعَةُ شَيْعَةً سُورِيَا ، وَلُبْنَانَ ، وَلَا عَرَبَ الْعِرَاقِ ، وَالتَّنْقُولُ أَنَّ بَعْضَ الْمُسْنَدَاتِ فِي بِلَادِ إِيْرَانِ يَسْتَعْمِلْنَ الْمُتَمَتُّعَةَ .

وَالْخُلَاصَةُ : أَنَّ الشَّيْخَةَ الْإِمَامِيَّةَ يَقُولُونَ بِإِبَاحَةِ الْمُتَمَتُّعَةِ ، وَلَكِنْ عَلَى الْأَسَاسِ الَّذِي بَيَّنَّاهُ . وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ فَإِنَّهُمْ لَا يَقَعْلُونَهَا ، وَمَا هِيَ بِشَائِقَةٍ فِي بِلَادِهِمْ . وَإِنَّمَا الزَّوْجُ الشَّانِعُ بَيْنَهُمْ هُوَ الزَّوْجُ الدَّائِمُ الْمَعْرُوفُ الْمَأْلُوفُ عِنْدَ جَمِيعِ الطَّوَائِفِ ، وَالْأُثْمُ . وَلَا أَثَرَ لَهَا فِي مُحَاكِمِهِمُ الشَّرْعِيَّةِ .

وَفِي الْحَدِيثِ مَا ذَكَرَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : « أَشْتَمَتْنَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ، وَأَبِي بَكْرٍ ، وَعُمَرُ » . أَنْظِرْ ، صَحِيحُ مُسْلِمٍ ١٠٢٣/٢ ، الْأِصَابَةُ : ٦٣/٢ ، الْمَوْطَأُ : ٥٤٢/٢ ، سُنَنِ النَّسَائِيِّ : ٦٧/٦ ، كَنْزُ الْعُمَالِ : ١٦/٥٢٠ .

وَلَكِنْ الشُّبُهَةُ قَالُوا : إِنَّ الْمُتَمَتُّعَةَ نُسَخَتْ وَأَصْبَحَتْ حَرَامًا بَعْدَ أَنْ أَحْلَاهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ . وَقَالَ الشَّيْخَةُ : لَمْ يَبْثُتِ النُّسخُ عِنْدَنَا ، كَانَتْ خَلَاةً ، مَا زَالَتْ عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ . أَنْظِرْ ، الْفِقْهُ عَلَى الْمَذَاهِبِ الْخَمْسَةِ ، وَالَّذِي حَقَّقْنَاهُ ، وَطَبَعْتَهُ مُؤَسَّسَةُ دَارِ الْكِتَابِ الْإِسْلَامِيِّ : ١١٠/٢ ، الْمُغْنِي : ٦٤٤/٦ ، الطَّبَعَةُ الثَّالِثَةُ ، صَحِيحُ مُسْلِمٍ : ١٠٢٧/٢ ، كِتَابُ الْأُثْمِ : ٧٩/٥ ، أَحْكَامُ الْقُرْآنِ لِلجَمَّاسِ : ١٥٠/٢ ، الشُّنَنِ الْكُبْرَى : ٢٠١/٧ ، الْمَجْمُوعُ : ٤٢٩/١٦ ، الْمَبْسُوطُ لِلشَّرْحِيسِيِّ : ١٥٢/٥ ، وَأَنْظِرْ ، مَنْ لَا يَحْضَرُهُ الْفَقِيْهَةُ : ٢٩٧/٣ ، الْكَاسَانِيُّ : ٤٦٥/٥ ، الْوَسَائِلُ : ٤٤٢/١٤ ، الْإِسْتِصْبَارُ : ١٥٠/٣ ، التَّذَكُّرَةُ : ٦٤٦/٢ ، صَحِيحُ مُسْلِمٍ : ١٠٢٣/٢ ، الْأِصَابَةُ : ٦٣/٢ ، الْمَوْطَأُ : ٥٤٢/٢ ، سُنَنِ النَّسَائِيِّ : ٦٧/٦ ، كَنْزُ الْعُمَالِ : ١٦/٥٢٠ .

مُشْكَلَات نَهْجِ الْبَلَاغَةِ

مُسَخَّةُ الْهِتَةِ وَعَبَقَةُ نَبْوِيَّةِ:

قَرَأْتُ أَكْثَرَ مِنْ كِتَابٍ فِي مُشْكِـلِ الْقُرْءَانِ، وَغَرِيبِ الْحَدِيثِ وَعُلُومِهَا وَمَجَازَاتِهَا، وَمَا رَأَيْتُ كِتَابًا وَاحِدًا أَفْرَدَ بَتَأْوِيلِ الْمُشْكَلَاتِ فِي نَهْجِ الْبَلَاغَةِ مَعَ أَنَّ فِيهِ الْعَدِيدَ مِنَ الْمُتَشَابِهَاتِ الَّتِي يَدُورُ حَوْلَهَا التَّسَاوُلُ، وَيَكْثُرُ الْجِدَالُ وَالنَّفَاشُ.

وَإِذَا لَمْ يَكُنْ «النَّهْجُ» وَحِيدًا فَإِنَّ صَاحِبَهُ رَبِيبَ الْوَحْيِ وَكَاتِبَهُ، وَأَخُو الرَّسُولِ وَبَقِيَّةُ النَّبَوَةِ، وَأَدْرَكَتْهُ دَعْوَةُ النَّبِيِّ الْأَعْظَمِ ﷺ حِينَ قَالَ: «اللَّهُمَّ أَهْدِ قَلْبَهُ، وَثَبَّتْ لِسَانَهُ، وَأَعْطِهِ فَهْمَ مَا يُخَاصِمُ فِيهِ»^(١). وَقَالَ الشَّرِيفُ الرَّضِيُّ: «أَنَّ كَلَامَ الْإِمَامِ عَلَيْهِ مُسَخَّةٌ مِنَ الْعِلْمِ الْإِلَهِيِّ، وَفِيهِ عَبَقَةٌ مِنَ الْكَلَامِ النَّبَوِيِّ»^(٢). وَقَالَ الشَّيْخُ الدُّكْتُورُ أَحْمَدُ الشَّرْبَاصِي: «إِذَا كَانَ الْإِمَامُ قَدْ نَثَرَ الْمِثَالَ مِنْ كَلِمَاتِهِ، وَجَعَلَ كُلَّ حِكْمَةٍ مِنْهَا تَسِيرَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ مَسِيرَ الْمَثَلِ الشَّرُودِ، فَإِنَّهُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ يَجْمَعُ الْمَجْمُوعَةَ مِنْ كَلِمَاتِهِ الْحَكِيمَةِ فِي عَقْدٍ وَاحِدٍ يَنْتَظِمُهَا كَلِمَةٌ بِجَوَارِ

(١) تَقَدَّمَتْ تَخْرِيجَاتُهُ.

(٢) انْظُرْ، شَرْحَ نَهْجِ الْبَلَاغَةِ لِابْنِ أَبِي الْعَدِيدِ: ٤٥/١، خُطْبَ شَرْحِ نَهْجِ الْبَلَاغَةِ لِمُحَمَّدِ عَبْدِهِ: ١١/١.

كَلِمَةً»^(١).

وَنَعْرُضُ فِي هَذَا الْفَضْلِ طَرَفًا مِنْ مُشْكَلَاتِ النَّهْجِ، عَسَى أَنْ يَكُونَ حَافِزًا لِلْعَالِمِ
بَيَّانِي قَدِيرٍ، عَلَى أَنْ يُؤَلِّفَ كِتَابًا خَاصًّا بِهَذَا الْمَوْضُوعِ الَّذِي يَنْطَوِي عَلَى أَدَقِّ
الْحَقَائِقِ وَأَعَمَّقِهَا.

وَحَدَّةُ الذَّاتِ وَالصِّفَاتِ:

قَالَ الْإِمَامُ عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي أَوَّلِ خُطْبَةٍ مِنْ خُطَبِ النَّهْجِ: «أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ،
وَكَمَالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصَدِيقُ بِهِ، وَكَمَالُ التَّصَدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ، وَكَمَالُ تَوْحِيدِهِ
الْإِخْلَاصُ لَهُ، وَكَمَالُ الْإِخْلَاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ أَوَّلُ الدِّينِ عَنْهُ، لِشَهَادَةِ كُلِّ صِفَةٍ
أَنَّهَا غَيْرُ الْمَوْصُوفِ، وَشَهَادَةِ كُلِّ مَوْصُوفٍ أَنَّهُ غَيْرُ الصِّفَةِ»^(٢). «سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى...
وَهُنَا سُؤَالٌ يَقْرُضُ نَفْسَهُ، وَيَخْطُرُ فِي فِكْرِ أَيِّ قَارِيءٍ، وَهُوَ كَيْفَ يَكُونُ الْإِيمَانُ
بِاللهِ كَامِلًا وَخَالِصًا لَوَجْهِهِ الْكَرِيمِ بِنَفْيِ الصِّفَاتِ عَنْهُ، وَهُوَ جَلَّتْ كَلِمَتُهُ قَدْ نَعَتْ
نَفْسَهُ بِالْعَدِيدِ مِنَ الصِّفَاتِ، كَالرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَالْقَدِيرِ الْعَلِيمِ، وَالْعَفُورِ
الْوَدُودِ... وَأَيْضًا وَصَفَهُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ بِكُلِّ كَمَالٍ وَجَلَالٍ حَتَّى كَلَامُ الْإِمَامِ
مُتَخَمٌّ بِالنُّعُوتِ الْأَلِهِيَّةِ، وَالصِّفَاتِ الْقُدْسِيَّةِ؟.

الجواب:

الصِّفَاتُ بِمَا هِيَ عَلَى نَوْعَيْنِ: الْأَوَّلُ وَصْفُ الشَّيْءِ بِحَقِيقَتِهِ وَطَبِيعَتِهِ بِحَيْثُ
الْوَصْفُ تَكَرَّرًا وَبَيَانًا لَذَاتِ الْمَوْصُوفِ بِلَا زِيَادَةٍ عَلَيْهَا، كَوَصْفِ الْإِنْسَانِ

(١) أنظر: مجلة الهلال، شهر أيلول سنة (١٩٧٣م)، مقال للشَّيْخِ الدُّكْتُورِ أَحْمَدَ الشَّرْبَاصِي. (مِنْهُ بَيِّنَةٌ).

(٢) أنظر: نهج البلاغة: الخطبة (١).

بِالْإِنْسَانِيَّةِ ، فَإِنَّ هَذَا الْوَصْفَ غَيْرَ مُنْفَصِلٍ عَنِ طَبِيعَةِ الْمَوْصُوفِ ، وَلَا يُضِيفُ إِلَيْهَا شَيْئاً لَا نَعْرِفُهُ مِنْ قَبْلِ .

النَّوعُ الثَّانِي وَصَفَ الشَّيْءَ بِمَا هُوَ خَارِجٌ عَنْ ذَاتِهِ وَحَقِيقَتِهِ وَزَائِدٍ عَلَيْهَا ، كَوَصْفِ الْإِنْسَانِ بِالْعِلْمِ ، فَإِنَّ حَقِيقَةَ الْعِلْمِ الْكَشْفُ عَنِ الْوَاقِعِ ، وَحَقِيقَةُ الْإِنْسَانِ الْحَيَوَانِ النَّاطِقِ ، كَمَا هُوَ شَائِعٌ ، فَإِذَا وَصَفْنَا الْإِنْسَانَ بِالْعِلْمِ فَقَدْ أَضَفْنَا إِلَيْهِ جَدِيداً وَزَائِداً عَلَى ذَاتِهِ وَهُوِيَّتِهِ .

وَالْإِمَامُ أَرَادَ بِنَفْيِ الصِّفَاتِ عَنْ اللَّهِ النَّوعَ الثَّانِي أَيْ الْخَارِجَةَ عَنِ الذَّاتِ وَالزَّائِدَةَ عَلَيْهَا ... وَأَنَّ الصِّفَاتَ الْإِيجَابِيَّةَ الثَّبُوتِيَّةَ الَّتِي وَصَفَ اللَّهُ بِهَا ذَاتَهُ الْقُدْسِيَّةَ كَالْعِلْمِ ، وَالْقَدَرِ هِيَ مِنَ النَّوعِ الْأَوَّلِ ، لِأَنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَاجِبُ الْوُجُودِ ، وَوَاحِدٌ أَحَدٌ ، وَمُنَزَّهٌ عَنِ الْأَعْرَاضِ وَالْحَوَادِثِ . وَلَا بُدَّ مِنْ مُرَاعَاةِ هَذِهِ الْأُصُولِ وَالْحِرْصِ عَلَيْهَا فِي كُلِّ مَا يُنسَبُ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ ، فَإِذَا نُسِبَ إِلَيْهِ مَا يَتَنَافَى مَعَ الْوُجُوبِ أَوْ التَّوْحِيدِ أَوْ التَّنْزِيهِ بِوَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ - كَانَتْ النِّسْبَةُ كَذِباً وَافْتِرَاءً عَلَيْهِ تَعَالَى ... مَثَلاً إِذَا وَصَفَ اللَّهُ بِالْعِلْمِ عَلَى أَنَّهُ عَيْنُ ذَاتِهِ لَا غَيْرَهَا وَلَا زَائِدٌ عَلَيْهَا فَهَذَا الْوَصْفُ حَقٌّ وَصِدْقٌ ، لِأَنَّهُ يَنْسَجِمُ تَمَاماً مَعَ الْوُجُوبِ وَالتَّوْحِيدِ وَالتَّنْزِيهِ ، أَمَّا إِذَا وَصَفَتْهُ بِالْعِلْمِ عَلَى أَنَّهُ غَيْرُ الذَّاتِ الْوَاجِبَةِ وَالْوَاحِدَةِ الْمُنَزَّهَةِ وَزَائِدٌ عَلَيْهَا - فَالْوَصْفُ زُورٌ وَبُهْتَانٌ لِأَنَّ الْمُغَايِرَ الزَّائِدَ عَلَى الذَّاتِ إِنْ كَانَ وَاجِبُ الْوُجُودِ لَزِمَ تَعَدُّدُ الْوَاجِبِ وَهُوَ عَيْنُ الشُّرْكِ ، وَإِنْ كَانَ مُمَكِّناً لَا وَاجِباً لَزِمَ أَنْ يَكُونَ عِلْمُهُ تَعَالَى بِالْإِكْتِسَابِ لَا بِالذَّاتِ تَمَاماً كَعِلْمِ الْمَخْلُوقِينَ ، وَأَنْ تَكُونَ ذَاتُهُ الْقُدْسِيَّةُ مَحَلّاً لِلْأَعْرَاضِ وَالْأَحْدَاثِ ، وَكَلَّا الْفَرَضَيْنِ بَاطِلٌ مِنَ الْأَسَاسِ ، لِأَنَّ الْأَوَّلَ ضِدُّ التَّوْحِيدِ ، وَالثَّانِي ضِدُّ الْوُجُوبِ وَالتَّنْزِيهِ .

التَّجَارَةُ بِالصَّدَقَةِ:

قَالَ الْإِمَامُ عليه السلام: «أَسْتَنْزِلُوا الرِّزْقَ بِالصَّدَقَةِ» ^(١).

وَفِي مَعْنَاهَا: «إِذَا أَمْلَقْتُمْ فَتَاجِرُوا اللَّهَ بِالصَّدَقَةِ» ^(٢).

وَقَالَ الشَّيْخُ مُحَمَّدٌ عَبْدُهُ: «هَا هُنَا سِرٌّ لَا يُعْلَمُ» ^(٣). وَقَدْ يَكُونُ السِّرُّ هُوَ مُجَرَّدُ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ، وَالْإِنْقِطَاعِ إِلَيْهِ بِصَدَقٍ وَإِخْلَاصٍ، وَعَدَمِ الْيَأْسِ مِنْ فَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ وَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ كَفَاهُ.

وَذَلِكَ أَنَّ ظَاهِرَ الْكَلَامِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الصَّدَقَةَ تَدْرُ الرِّزْقَ تَمَامًا كَالْكَدْحِ وَالسَّعْيِ الدَّائِبِ، أَوْ أَنْفَعُ وَأَعْوَدُ! وَهَذَا بَعِيدٌ عَنْ قَضَايَا الْحَيَاةِ وَالْخِبْرَةِ الْحَسَنَةِ، وَلَوْ كَانَ مِنْ وَاقِعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَحَقِيقَةِ مَلْمُوسَةٍ - لَمَا وَجَدَ بَخِيلٌ وَقَفِيرٌ.

الْجَوَابُ:

١ - أَجَلٌ، أَنَّ التَّجَرِبَةَ لَا تُثَبِّتُ ذَلِكَ، وَإِذَنْ لَيْسَ مِنْ قَصْدِ الْإِمَامِ عليه السلام أَنَّ الصَّدَقَةَ وَسِيلَةٌ لِلرِّزْقِ عَلَى سَبِيلِ الْحَتَمِ وَلَا ضَرُورَةَ، بَلِ الْقَصْدُ أَنَّ لِلصَّدَقَةِ بَعْضَ التَّأثيرِ فِي ذَلِكَ كَعَنَايَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَهَدَايَتِهِ إِلَى السَّعْيِ النَّاجِحِ، وَالْعَمَلِ الَّذِي يُثْمِرُ الرِّزْقَ.

٢ - أَنَّ الْخِطَابَ فِي «أَسْتَنْزِلُوا، وَتَاجِرُوا» غَيْرُ مُوجَّهٍ لِلْفُقَرَاءِ كَيْفَ وَفَاقِدِ الشَّيْءِ لَا يُعْطِيهِ؟. وَإِنَّمَا الْمُرَادُ بِهِ الْأَغْنِيَاءُ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِأَمْوَالِهِمْ، وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَوْفًا مِنَ الْفَقْرِ، وَعَلَيْهِ يَكُونُ الْمَعْنَى الْمُرَادُ مِنْ تَاجِرُوا اللَّهَ بِالصَّدَقَةِ وَنَحْوِهِ هُوَ عَيْنُ الْمُرَادِ مِنَ الْآيَةِ أَوْ يَوْمِيءَ إِلَيْهِ، وَهِيَ: «الْشَّيْطَانُ يَعِدُّكُمْ أَنْفَقَرُ

(١) أَنْظِرْ، نَهْجُ الْبَلَاغَةِ: الْحِكْمَةُ (١٣٦).

(٢) أَنْظِرْ، نَهْجُ الْبَلَاغَةِ: الْحِكْمَةُ (٢٥٧).

(٣) أَنْظِرْ، خُطْبٌ شَرَحَ نَهْجَ الْبَلَاغَةِ: ٥٨/٤.

وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا^(١).
وَالْمُرَادُ بِالْفَضْلِ هُنَا الْغِنَى فِي مَقَابِلِ الْفَقْرِ الَّذِي وَعَدَهُمْ بِهِ الشَّيْطَانُ.

الثِّقَّةُ بِاللَّهِ:

قَالَ الْإِمَامُ عليه السلام: «فَإِنَّ الْعَبْدَ إِنَّمَا يَكُونُ حُسْنُ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ عَلَى قَدَرِ خَوْفِهِ مِنْ رَبِّهِ، وَإِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ ظَنًّا بِاللَّهِ أَشَدَّهُمْ خَوْفًا لِلَّهِ»^(٢).

وَتَسْأَلُ: أَنَّ حُسْنَ الظَّنِّ مَعْنَاهُ الثِّقَّةُ، وَهِيَ تَسْتَدْعِي الْأَمَانَ. وَالْخَوْفُ ضِدُّ الْأَمَانِ، فَكَيْفَ يَكُونُ أَحْسَنُ النَّاسِ ظَنًّا بِاللَّهِ أَشَدَّهُمْ خَوْفًا مِنْهُ؟ وَمَا هُوَ الْقَاسِمُ الْمَشْتَرِكُ وَالْقَدَرُ الْجَامِعُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالنَّارِ؟ وَأَوْضَحْ مِثَالًا لِحُسْنِ الظَّنِّ بِاللَّهِ رَوَايَةً نَقُولُ: أَنَّ أَعْرَابِيًّا سَأَلَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ يَلِي حِسَابَ الْخَلْقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟»

فَقَالَ النَّبِيُّ: اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.

فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: هُوَ نَفْسُهُ؟

قَالَ النَّبِيُّ: نَعَمْ. فَتَبَسَّمَ الْأَعْرَابِيُّ. وَلَمَّا سَأَلَهُ النَّبِيُّ عَنْ ذَلِكَ؟

قَالَ: نَجُونَا وَرَبَّ الْكَعْبَةِ، إِنَّ الْكَرِيمَ إِذَا قَدَّرَ عَقَابًا، وَإِذَا حَاسَبَ سَمَحَ.

قَالَ النَّبِيُّ: لَا كَرِيمَ أَكْرَمَ مِنْ اللَّهِ.....^(٣). وَلَيْسَ مِنْ شَكِّ أَنْ قَوْلَ النَّبِيِّ وَعَلَيَّ وَاحِدٌ فَمَا هُوَ وَجْهُ الْجَمْعِ؟

الْجَوَابُ:

إِنَّ الْإِمَامَ عليه السلام يُشِيرُ بِقَوْلِهِ هَذَا إِلَى مَعْنَى جَلِيلٍ وَعَمِيقٍ، وَهُوَ أَنَّ الثِّقَّةَ بِاللَّهِ شَرْطُ

(١) الْبَقَرَةُ: ٢٦٨.

(٢) أَنْظِرْ. نَهْجُ الْبَلَاغَةِ: أَلْوَاسَالَةُ (٢٧).

(٣) أَنْظِرْ. تَنْبِيهُ الْخَوَاطِرِ: ٩/١، كَنْزُ الْمُتَالِ: ١٤/٦٢٨ ح ٣٩٧٤٩، كَشَفُ الْخَفَاءِ: ٢/١١٠ ح ١٩٢٥.

أَسَاسِي لَصِدْقِ الْإِيمَانِ بِهِ وَالْإِخْلَاصَ لَهُ، وَمِنْ أَقْوَالِهِ فِي ذَلِكَ: «لَا يَصْدُقُ إِيْمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَكُونَ بِمَا فِي يَدِ اللَّهِ أَوْثَقَ مِنْهُ بِمَا فِي يَدِهِ»^(١).

وَلَكِنِ الْإِمَامُ عليه السلام يُعَدِّدُ هَذِهِ الثِّقَةَ بِأَنْ تَكُونَ تَصَرُّفَاتِ الْعَبْدِ بِكَامِلِهَا لِلَّهِ وَحْدَهُ، فَلَا يَرْجُو ثَوَابًا عَلَى فِعْلٍ أَوْ تَرْكِ إِلَّا ثَوَابَ اللَّهِ، وَلَا يَخَافُ عِقَابًا عَلَى شَيْءٍ إِلَّا عِقَابَ اللَّهِ عَلَى أَنْ يَكُونَ رَجَاءُ الثَّوَابِ عَلَى الْحَسَنَةِ تَمَامًا عَلَى قَدَرِ الْخَوْفِ مِنَ الْعِقَابِ عَلَى السَّيِّئَةِ لَوْ وَرَّنا مَعَا لَمْ تَرْجَحْ كَفَّةُ أَحَدُهُمَا عَلَى كَفَّةِ الْآخَرِ... وَبَتَّعِيرِ ثَانٍ أَنَّ الثِّقَةَ تَجْمَعُ بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالرَّغْبَةِ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ الْوَاسِعَةِ، وَبَيْنَ الْخَوْفِ وَالرَّهْبَةِ مِنْ عَذْلِهِ الصَّارِمِ. وَمَعْنَى هَذَا أَنَّ مَوْضُوعَ الْخَوْفِ غَيْرَ مَوْضُوعِ الرَّجَاءِ، وَأَنَّ هَذَيْنِ الضَّدَيْنِ لَمْ يَجْتَمِعَا فِي مَوْضُوعٍ وَاحِدٍ كَيْ يُسْأَلَ وَيُقَالَ: كَيْفَ جَمَعَ الْإِمَامُ بَيْنَهُمَا؟

وَمَا قَرَأْتُ كَلِمَةً دَفَعَتْ بِي إِلَى الْعَمَلِ لَوَجْهِ اللَّهِ وَالْإِخْلَاصَ لَهُ، وَمَلَأَتْ قَلْبِي ثِقَةً بِهِ وَبِرَحْمَتِهِ - مِثْلَ هَذِهِ الْعِظَةِ الْبَالِغَةِ لِلْإِمَامِ زَيْنِ الْعَابِدِينَ عليه السلام حِينَ يَقُولُ: «لَوْ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى كِتَابًا إِنَّهُ مُعَذِّبٌ رَجُلًا وَاحِدًا خِفْتُ أَنْ أَكُونَهُ، أَوْ أَنَّهُ رَاحِمٌ رَجُلًا وَاحِدًا لَرَجَوْتُ أَنْ أَكُونَهُ، أَوْ أَنَّهُ مُعَذِّبِي لَا مَحَالَةَ، مَا أَرَدَدْتُ إِلَّا اجْتِهَادًا، لِئَلَّا أَرْجِعَ إِلَى نَفْسِي بِالسَّلَامَةِ»^(٢). وَمَعْنَى هَذَا أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَوْ قَالَ لِلْإِمَامِ: وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الْقَدْسِيِّ: قَالَ عليه السلام، قَالَ تَعَالَى: «وَعِزَّتِي وَجَلَالِي إِنِّي لَا أَتَقَبَّلُ الصَّلَاةَ إِلَّا لِمَنْ تَوَاضَعَ لِعَظَمَتِي، وَكَفَّ نَفْسَهُ عَنِ الشَّهَوَاتِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي، وَقَطَعَ نَهَارَهُ

(١) أنظر، نهج التبليغ: الحكمة (٣١٠).

(٢) أنظر، شرح نهج التبليغ لابن أبي الحديد: ١٠٠/٢ و ١٦٧/١٥.

فِي ذِكْرِي وَلَمْ يَبْتَ مُصْرّاً عَلَى الْخَطِيئَةِ، وَلَمْ يَتَعَاضَمْ عَلَى خَلْقِي...»^(١). لَكَانَ هَذَا أَقْوَى الْبَوَاعِثِ فِي نَفْسِ الْإِمَامِ عَلَى الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ وَالتَّعَبُّدِ لَهُ خَوْفاً مِنَ الْإِهْمَالِ وَالتَّقْصِيرِ إِذَا هُوَ تَرَكَ الْعَمَلَ وَالْإِجْتِهَادَ لِمُجَرَّدِ التَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ بِالْعَذَابِ. وَبَعْدَ، فَهَلْ حَدَّثَتْ أَوْ مَرَّ بِخَيْالِكَ مِثْلَ هَذَا الْعِلْمِ بِاللَّهِ، وَالثِّقَةِ بِرَحْمَتِهِ، وَاليَقِينِ بِعَظَمَتِهِ؟. وَهَلْ فِي الْقَدِيمِ وَالْجَدِيدِ أَسْلُوبٌ فِي الدَّعَايَةِ وَإِعْلَامِ يُضَارِعُ هَذَا الْأَسْلُوبَ فِي جَذْبِهِ وَتَأْثِيرِهِ؟. وَأَنْصَحُ كُلَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ أَنْ يَلْحَ عَلَيْهِ وَيُلْحِفَ بِالسُّؤَالِ مِنْ فَضْلِهِ، فَإِنَّهُ تَعَالَى لَيْسَ كَأَحَدِنَا يَضِيقُ بِالسَّائِلِينَ وَالْمُلْحِفِينَ... وَفِي أَصُولِ الْكَافِي عَنْ الْإِمَامِ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «أَنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ كَرِهَ الْحَاحَ النَّاسَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْمُسَآلَةِ، وَأَحَبَّ ذَلِكَ لِنَفْسِهِ»^(٢).

قِصَّةُ الشَّامِيِّ مَعَ الْإِمَامِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ):

رَوَى جَمَاعَةٌ، مِنْهُمْ الْكَلِينِيُّ فِي «أَصُولِ الْكَافِي»، وَأَبُو الْحُسَيْنِ فِي كِتَابِ «الْعُرَرِ»، وَالشَّرِيفُ الرَّضِيُّ: قَالَ: قَامَ شَيْخٌ إِلَى عَلِيِّ (عَلَيْهِ السَّلَامُ)، فَقَالَ: أَخْبِرْنَا عَنْ مَسِيرِنَا إِلَى الشَّامِ، أَكَانَ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ؟ فَقَالَ: فَوَ الَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، مَا وَطِئْنَا مَوْطِئاً، وَلَا هَبَطْنَا وَادِياً إِلَّا بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ. فَقَالَ الشَّيْخُ: فَعِنْدَ اللَّهِ أَحْتَسِبُ عَنَائِي! مَا أَرَى لِي مِنَ الْأَجْرِ شَيْئاً!.

(١) أنظر: التَّأْرِيخَ الْكَبِيرَ لِلْبُخَارِيِّ: ١٥/٨ الرِّقْمَ «١٩٨١». الْكَامِلُ فِي التَّأْرِيخِ: ٤٢١/٢، مِيزَانُ الْإِعْتِدَالِ: ٥١٩/٢.

(٢) أنظر: الْكَافِي: ٤٧٥/٢ ح ٤، تُحْفُ الْمَقُولِ: ٢٩٣، وَسَائِلُ الشَّيْعَةِ: ٥٨/٧ ح ٢.

فَقَالَ: مَهْ أَتَيْهَا الشَّيْخُ، لَقَدْ عَظَّمَ اللَّهُ أَجْرَكُمْ فِي مَسِيرِكُمْ وَأَنْتُمْ سَائِرُونَ، وَفِي مُنْصَرَفِكُمْ وَأَنْتُمْ مُنْصَرِفُونَ، وَلَمْ تَكُونُوا فِي شَيْءٍ مِنْ حَالَاتِكُمْ مُكْرَهِينَ، وَلَا إِلَيْهَا مُضْطَرِّينَ.

فَقَالَ الشَّيْخُ: وَكَيْفَ الْقَضَاءُ وَالْقَدَرُ سَاقَانَا؟

فَقَالَ: وَيْحَكَ! لَعَلَّكَ ظَنَنْتَ قَضَاءً لَا زِمًا، وَقَدَرًا حَاتِمًا!...^(١)

وَفِي هَذَا الْجَوَابِ حَلَقَةٌ مَفْقُودَةٌ، وَهِيَ سَكُوتُ الْإِمَامِ عَمَّا أَرَادَ مِنَ الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ فِي جَوَابِهِ الْأَوَّلِ لِلشَّامِيِّ، وَهُوَ يَقُولُ لَهُ: «مَا وَطِئْنَا مَوْطِنًا، وَلَا هَبَطْنَا وَادِيًا إِلَّا بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرَةٍ». وَقَدْ تَرَكْتَ هَذِهِ الْحَلَقَةَ الْمَفْقُودَةَ الْكَثِيرَ مِنْ قُرَاءِ النَّهْجِ فِي حَيْرَةٍ، وَالْبَعْضُ مِنْهُمْ خَلَطَ بَيْنَ مَسْأَلَةِ الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ، وَمَسْأَلَةِ الْجَبْرِ وَالْإِخْتِيَارِ، وَظَنَّ أَنَّ الْإِمَامَ يَتَكَلَّمُ عَنْ مَعْنَى الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ فِي قَوْلِهِ لِلشَّامِيِّ: «لَعَلَّكَ ظَنَنْتَ قَضَاءً لَا زِمًا، وَقَدَرًا حَاتِمًا! لَوْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ لَبَطَلَ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ، وَسَقَطَ الْوَعْدُ وَالْوَعِيدُ. إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَمَرَ عِبَادَهُ تَخْيِيرًا، وَنَهَاهُمْ تَحْذِيرًا، وَكَلَّفَ يَسِيرًا، وَلَمْ يُكَلِّفْ عَسِيرًا، وَأَعْطَى عَلَى الْقَلِيلِ كَثِيرًا؛ وَلَمْ يُغْصَ مَغْلُوبًا، وَلَمْ يُطْعَ مُكْرِهًا، وَلَمْ يُزِيلِ الْأَنْبِيَاءَ لِعِبَاءٍ، وَلَمْ يُنْزِلِ الْكُتُبَ لِلْعِبَادِ عَبَثًا، وَلَا

(١) أنظر، الكافي: ١/١٥٥ ح ١، التوحيد للشيخ الصدوق: ٢٨٢، وسائل الشئد المرتضى: ٢/٢٤١،

الإرشاد للشيخ المفيد: ١/٢٢٥، عوالي اللئالي: ٤/١٠٨، بحار الأنوار: ٥/١٢٦، خصائص الأئمة:

٩٣، شرح نهج البلاغة لابن أبي عمير: ٥/٢٧٨، روضة الواعظين: ٤٠، الفصول المختارة: ٧١،

أمالي الشئد المرتضى: ١/١٠٥، ومما يجدر ذكره أَنَّ الشَّيْخَ فِي آخِرِ الْأَمْرِ نَهَضَ مُسْرُورًا وَهُوَ يَقُولُ:

أَنْتَ الْإِمَامُ الَّذِي نَرْجُو بِطَاعَتِهِ يَوْمَ الثُّمُورِ مِنْ أَلْوَحْشِ رِضْوَانَا

أَوْضَحْتَ مِنْ دِينِنَا مَا كَانَ مُلْتَبِسًا جَسْرَكَ رَبُّكَ عَنَّا فِيهِ إِحْسَانَا

أنظر، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١٨/٢٢٧.

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا»^(١). مَعَ أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ خَاصٌّ بِالْجَبْرِ وَالْإِخْتِيَارَ لَا فِي الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ... وَفِيمَا يَلِي الْبَيَانُ:

الْقَضَاءُ وَالْقَدَرُ:

لِكَلِمَةِ الْقَضَاءِ مَعَانٍ عَدِيدَةٌ، مِنْهَا اللَّزُومُ وَالْحَتْمُ الَّذِي هُوَ تَعْبِيرٌ ثَانٍ عَنِ الْجَبْرِ وَعَدَمُ الْإِخْتِيَارِ... وَمِنْهَا عِلْمُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ بِالطَّرِيقِ الَّذِي سَوَّلَهُ الْعَبْدُ فِي جَمِيعِ أَفْعَالِهِ الْإِخْتِيَارِيَّةَ خَيْرًا كَانَتْ أَمْ شَرًّا. وَأَيْضًا لِكَلِمَةِ الْقَدَرِ مَعَانٍ عَدِيدَةٌ، مِنْهَا اللَّزُومُ وَالْحَتْمُ كَالْمَعْنَى الْأَوَّلَ لِلْقَضَاءِ، وَمِنْهَا إِجْبَادُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِلْمُسَبِّبَاتِ عِنْدَ وَجُودِ أَسْبَابِهَا إِرَادِيَّةً كَانَتْ أَمْ قَهْرِيَّةً.

وَحِينَ قَالَ الْإِمَامُ: «مَا وَطَّنَا مَوْطِنًا، وَلَا هَبَطْنَا وَادِيًا إِلَّا بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ». فَهَمَّ الشَّامِي مِنْ كَلِمَةِ الْقَضَاءِ وَكَلِمَةِ الْقَدَرِ مَعْنَى وَاحِدًا، وَهُوَ اللَّزُومُ وَالْحَتْمُ، وَلِذَا قَالَ: «مَا أَرَى لِي مِنَ الْأَجْرِ شَيْئًا!، فَزَجَرَهُ الْإِمَامُ وَنَفَى أَنْ يَكُونَ أَرَادَ هَذَا الْمَعْنَى، وَقَالَ: «وَيْحَكَ! لَعَلَّكَ ظَنَنْتَ قَضَاءً لَازِمًا، وَقَدَرًا حَاتِمًا!». وَاكْتَفَى الْإِمَامُ بِهَذَا النَّفْيِ دُونَ أَنْ يُبَيِّنَ الْمَعْنَى الَّذِي أَرَادَهُ مِنَ الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ، وَأَنْتَقَلَ إِلَى مَسْأَلَةٍ ثَانِيَةٍ، وَهِيَ مَسْأَلَةُ الْجَبْرِ وَالْإِخْتِيَارِ.

وَمَهْمَا يَكُنْ فَإِنَّ الْإِمَامَ ﷺ أَرَادَ مِنَ الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ الْمَعْنَى الَّذِي يَنْسَجِمُ مَعَ إِخْتِيَارِ الْعَبْدِ فِي أَفْعَالِهِ، وَلَا يُنَاقِضُ صِحَّةَ التَّكْلِيفِ، وَجَوَازَ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ ظَاهِرُ كَلَامِهِ. وَالْمَعْنَى الَّذِي يَتَّفِقُ وَيَنْسَجِمُ مَعَ حُرِّيَّةِ الْعَبْدِ، وَيُرِيدُهُ

(١) أَنْظَرِ، نَهْجُ الْبَلَاغَةِ: الْجُمُعَةُ (٧٦).

الإمام هو أن تُفسر القضاء هنا بعلم الله أن العبد سَيَفْعَلُ كَيْتَ وَكَيْتَ بِإِرَادَتِهِ وَإِخْتِيَارِهِ، وَتُفسَّرُ الْقَدْرُ بِأَنَّ اللَّهَ يُوجِدُ الْأَفْعَالَ عِنْدَ وُجُودِ أَسْبَابِهَا، وَمِنْ جُمْلَةِ أَسْبَابِهَا إِرَادَةُ الْعَبْدِ وَقُدْرَتُهُ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَلِكَ وَغَيْرِهِ.

مُشْكَلَةُ الْجَبَرِ وَالْإِخْتِيَارِ:

تَكَلَّمْنَا عَنْ هَذِهِ الْمُشْكَلَةِ فِي التَّفْسِيرِ الْكَاشِفِ، وَفِي ظِلَالِ نَهْجِ الْبَلَاغَةِ، وَمَعَالِمِ الْفَلَسَفَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا كَتَبْنَا وَنَشَرْنَا، وَأَطَلْنَا الشَّرْحَ وَالْكَلَامَ عَنْهَا وَعَنْ مَسْأَلَةِ الْقَضَاءِ وَالْقَدْرِ، وَالْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَالْهُدَى وَالضَّلَالِ فِي كِتَابِ فَلَسَفَةِ التَّوْحِيدِ وَالْوَلَايَةِ وَنُشِيرُ هُنَا إِلَى مَذْهَبِ الْإِنْسَانِ الْقُدْرَةِ عَلَى مَعْرِفَتِهِ وَالْإِيمَانِ بِوُجُودِهِ، وَعَلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَهَذِهِ الْقُدْرَةُ مَوْجُودَةٌ فِي عَقْلِ الْإِنْسَانِ... وَأَيْضًا وَهَبَ سُبْحَانَهُ الْإِنْسَانِ الْقُدْرَةَ فِي بَدَنِهِ عَلَى الْكَدْحِ وَالْعَمَلِ مُخِيرًا لَا مُسِيرًا. وَقَالَ السُّنَّةُ أَوْ جُلْهُمْ: أَنَّ الْقُدْرَةَ مَوْجُودَةٌ فِي الْإِنْسَانِ، مَا فِي ذَلِكَ رَيْبٌ، وَلَكِنَّهَا مُعْطَلَةٌ وَمَسْئُولَةٌ لَا يَسْتَنْدِ إِلَيْهَا فِعْلٌ وَلَا تَرْكٌ، وَوُجُودَهَا فِيهِ تَمَامًا كَوُجُودِ الشَّعْرِ عَلَى بَدَنِهِ، وَالْفَاعِلُ لِكُلِّ مَا يَصْدُرُ عَنِ الْإِنْسَانِ هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ، وَلَيْسَ الْإِنْسَانُ إِلَّا مُجَرَّدُ ظَرْفٍ وَوَعَاءٌ لِلْفِعْلِ الَّذِي يُخَيَّلُ إِلَيْنَا أَنَّهُ صَادِرٌ عَنْهُ... وَيُسَمَّى أَهْلُ هَذَا الْمَذْهَبِ الْجَبَرِيَّةَ^(١).

وَقَالَ آخَرُونَ: إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَهَبَ الْإِنْسَانِ هَذِهِ الْقُدْرَةَ عَلَى أَنْ تَكُونَ مُلْكًا مُطْلَقًا لَمْ لَا يَعَارِضُهُ فِيهَا أَحَدٌ حَتَّى اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، لِأَنَّهُ نَقَلَهَا مِنْ سُلْطَانِهِ الْقَاهِرِ

(١) أنظر، الهداية للشيخ الصدوق: ١٩، وسَائِلُ السُّيَعَةِ: ٢٨/٣٤٠ ح ٤، الإحتجاج للطبرسي:

١٩٨/٢، مُسْنَدُ الْإِمَامِ الرِّضَا: ١/٣٧ ح ٥٢، نُرْهَةُ النَّاطِرِ وَتَنْبِيهِ الْخَاطِرِ لِلْحُلُولَانِي: ١٣١ ح ٢٢.

إِلَى سُلْطَانِ الْإِنْسَانِ تَمَامًا كَمَا تَنْتَقِلُ مُلْكِيَّةُ الْمَتَاعِ مِنَ الْبَائِعِ إِلَى الْمُشْتَرِي، وَمِنْ الْمَوْرَثِ إِلَى الْوَارِثِ، غَايَةُ الْأَمْرِ أَنَّهُ عَزَّوَجَلَّ أَمَرَ الْعَبْدَ أَنْ يَسْتَعْمَلَ قُدْرَتَهُ فِي الْخَيْرِ لَا فِي الشَّرِّ، وَتَرَكَ لَهُ الْخِيَارَ، إِنْ شَاءَ أَطَاعَ، وَإِنْ شَاءَ عَصَى... وَيُسَمَّى أَهْلُ هَذَا الْمَذْهَبِ الْمُفَوِّضَةَ^(١)، أَيَّ أَنَّ اللَّهَ فَوَّضَ أَمْرَ الْقُدْرَةِ لِعِبَادِهِ، وَقَطَعَ كُلَّ عِلَاقَةٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا، كَمَا يَزْعُمُونَ.

وَقَالَ أَهْلُ النَّبِيتِ: كَلَّا «لَا جَبْرَ وَلَا تَفْوِيزَ بَلْ أَمْرٌ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ»^(٢). وَالْمُرَادُ بِلَا جَبْرٍ هُنَا أَنَّ أَفْعَالَ الْإِنْسَانِ تَسْتَنْدُ إِلَى قُدْرَتِهِ مُبَاشَرَةً. وَالْمُرَادُ بِلَا تَفْوِيزٍ أَنَّ

(١) انظر، أوائل المقالات: ٧٧، شرح عقائد الصُّدُوق - باب الفُلوِّ والتفويض. وكتابنا: «الجذور التاريخية والتفسيّة للفُلوِّ. والفَلَاة، دراسة تحليلية في الهوية والجذور لواقع الفرق المُعَالِيَةِ»: ٢٩٩.

(٢) الإسلام دين التَّوْحِيد، والتَّوْحِيدُ هُوَ الْأَسَاسُ الَّذِي يَنْطَلِقُ مِنْهُ الْمُسْلِمُ فِي بِنَاءِ عَقِيدَتِهِ، وَبِدُونِهِ لَا يَكُونُ مُسْلِمًا. وَلِذَا كَانَ ابْنُ بَابُوَيْهِ نَوَاقِإًا إِلَى دَفْعِ وَدَحْضِ التَّهْمَةِ الْقَائِلَةِ بِأَنَّ أَحَادِيثَ الْإِمَامِيَّةِ مُتَضَارِبَةٌ مَعَ التَّوْحِيدِ، وَلِذَا يَقُولُ فِي مُسْتَهْلِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ «إِنَّ الَّذِي دَعَانِي إِلَى تَأْلِيفِ كِتَابِي هَذَا أَنِّي وَجَدْتُ قَوْمًا مِنَ الْمُخَالِفِينَ يَنْسُبُونَ عَصَابَتَنَا إِلَى الْقَوْلِ بِالتَّشْبِيهِ، وَالْجَبْرِ لَنَا وَجَدُوا فِي كُتُبِهِمْ مِنَ الْأَخْبَارِ الَّتِي جَهِلُوا تَفْسِيرَهَا وَلَمْ يَعْرِفُوا مَعَانِيَهَا وَوَضَعُوهَا فِي غَيْرِ مَوَاضِعِهَا». ثُمَّ يَتَابِعُ كَلَامَهُ فَيَقُولُ: بِأَنَّ هَذِهِ الْأَحَادِيثَ يَجِبُ أَنْ تُؤَوَّلَ وَتُفَسَّرَ بِنَفْسِ التَّوْحِيدِ السَّلِيمِ فِي تَأْوِيلِ الْقُرْآنِ الْوَارِدَةِ حَوْلَ تَفْسِيرِ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ.

انظر، الكافي: ١/١٦٠ ح ١٣، الاعتقادات: ٢٩، الإحتجاج: ١٩٨/٢ و ٢٥٣، فقه الرضا: ٣٤٨، الوافي: ١/٥٣٥، تحف العقول: ٣٤٤ و ٣٤٦، الهداية للشيخ الصدوق: ١٩، رسائل المرتضى: ١٣٥/١، عُيُونُ أَخْبَارِ الرُّضَا: ٢/١١٤ ح ١٧، روضة الواعظين: ٣٨، مختصر بصائر الدرجات: ١٢٨، تصحيح اعتقادات الإمامية: ٤٦، كنز العمال: ١/٣٤٩ ح ١٥٦٧، تأريخ آل زُرَّارَةِ: ١/١١٤، تأريخ دمشق: ١/١٨٢، كشف الغمّة: ١٠٢/٣، كتاب الهداية لابن بابويه: ٥، مجموعة في فنون من عِلْمِ الْكَلَامِ (مخطوط)، أنقاد البشر من الجبر والقدر، إلى رسائل الشريف مُرَاجِعَةُ أَحْمَدَ الْحُسَيْنِيِّ: ١٠٦، بُلُوغُ الْأَرْبِ وَكُنُوزُ الذَّهَبِ فِي مَعْرِفَةِ الْمَذْهَبِ: ٤٥٢، كتاب التَّوْحِيدِ لِلشَّيْخِ الصُّدُوقِ: ١٧.

سُلْطَانُ اللَّهِ عَلَى قُدْرَةِ الْإِنْسَانِ قَائِمٌ بِالْفِعْلِ وَأَنَّهَا تَمَامًا كَالْعَارِيَةِ يَنْتَفِعُ بِهَا الْمُسْتَعِيرُ، وَهِيَ عَلَى مِلْكِ صَاحِبِهَا الْمُعِيرِ، لِأَنَّ الْعَبْدَ وَمَا مَلَكَتْ يَدَاهُ فِي قَبْضَةِ مَوْلَاهُ. هَذَا هُوَ الْأَمْرُ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ، أَيَّ أَنَّ الْإِنْسَانَ يُؤْمِنُ وَيَعْلَمُ بِطَاقَتِهِ الْقَلْبِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ، وَيَكْدَحُ وَيَعْمَلُ بِقُدْرَتِهِ الْجِسْمِيَّةِ، وَيَتْرَكَ وَيَفْعَلُ بِإِرَادَتِهِ الشَّخْصِيَّةِ، وَفِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ كُلَّ مِنَ اللَّهِ، وَلَكِنَّهُ تَعَالَى أَذِنَ لِعَبْدِهِ أَنْ يَنْصَرِفَ بِهَا فِي حُدُودِ خَلَالِهِ وَحَرَامِهِ، فَإِنْ أَطَاعَ فَلَهُ جَزَاءٌ مِّنْ أَحْسَنِ عَمَلٍ، وَإِنْ شَقَّ الْعَصَا فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ^(١).

(١) انظر، الأصول من الكافي: ١/١٥٠ ح ١، المحاسن: ١/٢٤٤ ح ٢٣٧، مُشْنَدُ الْإِمَامِ الرُّضَا: ١/٢٠.

ح ١٣، الوافي: ١/١١٤.

أَخْطَرُ مِنَ الْقُنْبَلَةِ الذَّرِيَّةُ

فِي سَنَةِ (١٩٦٨ م) أَشْرْتُ فِي كِتَابٍ « مِنْ هُنَا وَهُنَاكَ » إِلَى أَنَّ الصَّهَابِيَّةَ طَبَعُوا مِثَالَ الْأُلُوفِ مِنْ نُسخِ الْقُرْآنِ، وَوزَعُوهَا عَلَى مُسْلِمِي آسِيَا وَأَفْرِيقِيَا بَعْدَ أَنْ حَرَّفُوا الْعَدِيدَ مِنْ آيَاتِهِ... وَفِي (١٩٧٠ / ١ / ٦ م) قَرَأْتُ فِي جَرِيدَةِ الْجُمْهُورِيَّةِ الْمَصْرِيَّةِ مَا نَصَّه بِالْحَرْفِ الْوَاحِدِ: « قَالَ أَحَدُ زُعَمَاءِ الصَّهْيُونِيَّةِ: يَجِبُ أَنْ نَتَّخِذَ مِنَ الْقُرْآنِ سَلَاخًا مَشْهُورًا ضِدَّ الْإِسْلَامِ لِنَقْضِي عَلَيْهِ، فَيَرَى الْمُسْلِمُونَ أَنَّ الصَّحِيحَ فِي الْقُرْآنِ لَيْسَ جَدِيدًا، وَأَنَّ الْجَدِيدَ فِيهِ لَيْسَ صَحِيحًا ». وَأَشْرْتُ إِلَى ذَلِكَ فِي مُقَدِّمَةِ كِتَابٍ « الْإِسْلَامُ بِنَظَرَةِ عَصْرِيَّةِ ».

وَالْآنَ وَبَعْدَ أَنْ أَنْتَهتِ الْمَطْبَعَةُ مِنْ كِتَابِي هَذَا: « شُهَبَاتُ الْمُلْحِدِينَ وَالْإِجَابَةِ عَنْهَا » قَرَأْتُ فِي الصَّفْحَةِ السَّابِعَةِ مِنْ هَذِهِ الْجَرِيدَةِ بِالذَّاتِ (١٩٧٤ / ٦ / ٦ م) مَقَالًا شَجَاعًا وَمُخْلِصًا يَفْضَحُ صَرَاصِيرَ الصَّهْيُونِيَّةِ مِنْ أَسَاتِذَةِ الْجَامِعَاتِ فِي بَعْضِ الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ، وَالْمَقَالَ بِقَلَمِ الْأُسْتَاذِ مُحَمَّدٍ دِيَابَ، وَعُنَوَانُهُ « أَخْطَرُ مِنَ الْقُنْبَلَةِ الذَّرِيَّةِ ». وَفِيمَا يَلِي أَدَّكَرَ الرِّكِيزَةَ وَالْحَجَرَ الْأَسَاسَ لِهَذَا الْمَقَالَ، عَسَى أَنْ يَنْتَبِهَ الْغَافِلُونَ. قَالَ الْأُسْتَاذُ دِيَابُ:

« مُنْذُ أَيَّامِ اسْتَمْعِ النَّاسِ فِي الْبَرْنَامِجِ الثَّانِي لِلْإِذَاعَةِ الْمَصْرِيَّةِ إِلَى نَدْوَةِ عَنِ التَّفْسِيرِ الْعِلْمِيِّ الْقُرْآنِ، أَرْتَكِبُ فِيهَا بَعْضَ أَسَاتِذَةِ الْجَامِعَةِ « الدُّكَاتَرَةِ »

إِنْحِرَافَاتٍ بِاللَّغَةِ الْخُطُورَةِ ضِدَّ الْقُرْءَانِ... فَقَدْ رَعُمُوا أَنَّ الْقُرْءَانَ لَا يَتَّفَقُ مَعَ الْعِلْمِ، وَلَا الْعِلْمُ يَتَّفَقُ مَعَ الْقُرْءَانِ... وَالْهَدَفُ مِنْ هَذَا الزَّعْمِ هُوَ عَزْلُ الْقُرْءَانِ عَنِ الْحَيَاةِ، وَالتَّشْكِيكِ فِي عِلْمِ التَّفْسِيرِ، وَالْوَاضِحُ مِنْ تَرْتِيبِ هَذِهِ التَّدْوَةِ وَإِخْتِيَارِ الْمُشْتَرَكِينَ فِيهَا أَنَّهَا تَعَمَّدَتِ التَّيْلَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ بِدَلِيلٍ أَنَّ الْمُشْتَرَكِينَ لَيْسُوا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالتَّفْسِيرِ الْقُرْءَانِيِّ، وَأَنَّ أَحَدًا مِنَ الْعُلَمَاءِ الْمُتَخَصِّصِينَ لَمْ يُدْعَ لِلِاشْتِرَاكِ فِيهَا، عَلَى الْأَقْلَ لِيَرَدَ عَلَى هَذِهِ الْإِفْتِرَاءَاتِ الْجَرِيئَةِ..

وَتَسْأَلُ: كَيْفَ التَّقْنَى هَؤُلَاءِ «الْأُسَاتِذَةُ الْجَامِعِيُّونَ الدَّكَاتَرَةُ» مَعَ ذَلِكَ الزَّعِيمِ الصَّهْيُونِيِّ فِي عَدَاوَةِ الْإِسْلَامِ وَالتَّشْكِيكِ فِيهِ عَنِ طَرِيقِ الطَّعْنِ بِالْقُرْءَانِ؟ وَلِمَاذَا سَمَحَتْ إِذَاعَةُ الْقَاهِرَةِ بِالْإِفْتِرَاءِ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَدِينِ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ وَأَيْنَ شِيُوخُ الْأَزْهَرِ حُمَاةُ الدِّينِ وَالْمُرُوجُونَ لَهُ عَنِ هَذَا الْغَزْوِ الصَّهْيُونِيِّ الدَّاخِلِيِّ؟ وَهَلْ هَذِهِ الظَّاهِرَةُ مِنْ إِذَاعَةِ الْقَاهِرَةِ هِيَ مِنْ ذِيُولِ الْإِنْفِتَاحِ الْجَدِيدِ، وَعَطُورِ الصَّدَاقَةِ الْمَصْرِِيَّةِ الْأُمْرِيكِيَّةِ؟

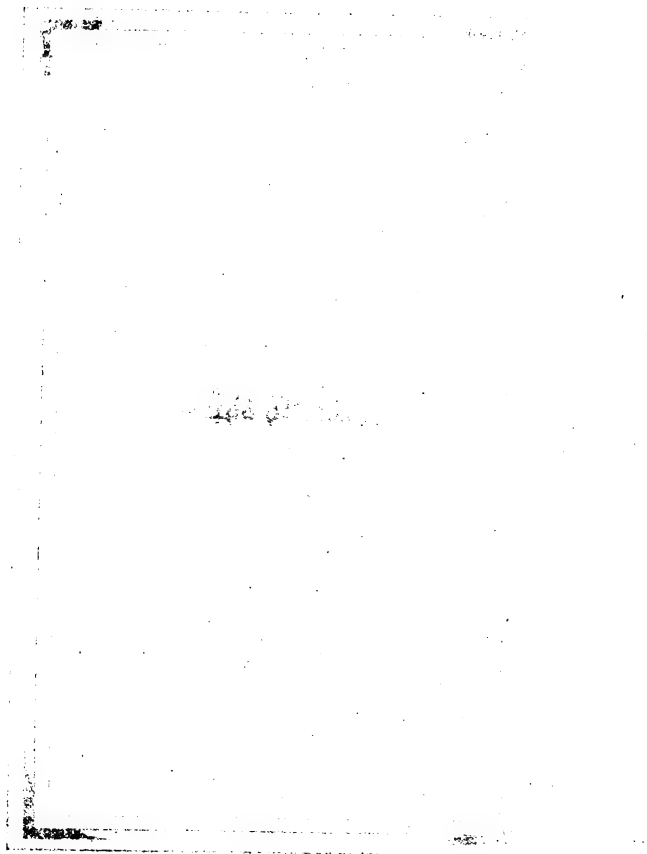
نُبَيِّرُ هَذِهِ التَّسْأُولَاتِ، وَنَحْنُ نَعْلَمُ كَمْ يُضْحِي الْأَزْهَرُ وَالْمَجْلِسُ الْأَعْلَى لِلشُّوُونَ الْإِسْلَامِيَّةِ مِنْ أَجْلِ الْإِيمَانِ وَحِمَايَةِ الْإِسْلَامِ... أَجَلٌ، نَحْنُ نُدْرِكُ ذَلِكَ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْآثَارِ وَتُقَدَّرُهُ شَاكِرِينَ، وَلَكِنْ نَطَالِبُ الْمَسْئُولِينَ مِنْ شِيُوخِ الْأَزْهَرِ وَغَيْرِهِمْ أَنْ يَتَنَبَّهُوا لِهَذَا الْغَزْوِ الدَّاخِلِيِّ الَّذِي يَنْفُثُ سُومَ الصَّهْيُونِيَّةِ بِأَسْمِ الْعِلْمِ مَرَّةً، وَالدِّينِ ثَانِيَةً، وَالتَّجَدُّدِ وَالْإِنْفِتَاحِ تَارَةً أُخْرَى.

أَنَّ الشَّعْبَ الْمَضْرِي قَاتَلَ وَضَحَى بِالْكَثِيرِ لَا مِنْ أَجْلِ الْأَرْضِ فَقَطْ، بَلْ وَمِنْ أَجْلِ الدِّينِ، وَالْوَعْيِ، وَاللُّغَةِ، وَالتُّرَاثِ، وَالبِنَاءِ فِي كُلِّ مِيدَانٍ... وَالْعَدُوُّ يُدْرِكُ ذَلِكَ جَيِّدًا، وَيُحَاوِلُ مَا اسْتَطَاعَ أَنْ يُحَارِبَنَا بِكُلِّ سِلَاحٍ مِنَ الدَّاخِلِ وَالخَارِجِ...

وَأَمْضَى الْأَسْلَحَةِ وَأَخْطَرَهَا عَلَى الْإِطْلَاقِ حَمَلَةُ الشَّهَادَاتِ الْمُرْتَزِقَةِ وَأَرْبَابِ
الْهَوَى وَالْتِرْعَصِ، وَأَشْرَنَا إِلَيْهِمْ فِي فَصْلِ الظَّاهِرَةِ الْقُرْءَانِيَّةِ فِقْرَةِ «أَزْمَةِ
خَطِيرَةٍ».



النُّبُوَّةُ وَالْعَقْلُ



تَفْهِيْد

إِنَّ مَسْأَلَةَ النُّبُوَّةِ الَّتِي نَتَكَلَّمُ عَنْهَا فِي هَذِهِ الصَّفَحَاتِ لَيْسَتْ مِنَ الْمَوْضُوعَاتِ الْحَدِيثَةِ، وَلَا مِنَ الْمَسَائِلِ الْمُعَقَّدَةِ الْغَامِضَةِ، فَقَدْ عَرَفَهَا النَّاسُ مُنْذُ عَشْرَاتِ الْقُرُونِ، وَتَحَدَّثَتْ عَنْهَا كُتُبُ الدِّينِ، وَالْكَلَامِ، وَالْفَلَسَفَةِ بِإِسْهَابٍ وَتَعَمُّقٍ، وَأَمِنَ بِهَا أُلُوفُ الْمَلَائِكِينَ فِي الْعَصْرِ الْحَاضِرِ وَالْغَابِرِ.

وَنَحْنُ لَا نَجِدُ شَيْئًا جَدِيدًا نُضِيفُهُ إِلَى أَقْوَالِ الْعُلَمَاءِ الرَّاسِخِينَ، وَإِنَّمَا غَرَضُنَا الْوَجِيدُ أَنْ نُوضِّحَ وَنُبَسِّطَ آرَاءَهُمُ لِلشَّبَابِ، لَعَلَّهُمْ يَقْرَأُونَهَا فَيَمَّا يَقْرَأُونَ مِنْ هَذِهِ الْكُتُبِ الْحَدِيثَةِ الَّتِي تَزْخُرُ بِهَا الْمَكْتَبَاتُ، وَالَّتِي صَرَفَتْهُمْ عَنْ كُلِّ قَدِيمٍ، حَتَّى وَلَوْ كَانَ دَوَاءٌ لَا دَاءَ بَعْدَهُ، وَهُدًى لَا ضَلَالَةَ فِيهِ.

ظَنُّوا أَنَّ الدِّينَ حَافِلٌ بِالْبِدْعِ وَالْخَرَافَاتِ، وَأَنَّهُ لَا عَمَلَ لِرَجُلٍ الدِّينَ إِلَّا أَنْ يَسِيرُوا فِي رِكَابِ الْجَائِرِينَ، وَيُزَيِّنُوا لَهُمُ الْبَغْيَ وَالْعُدْوَانَ عَلَى الْمُسْتَضْعَفِينَ، فَتَنَكَّرُوا لِلدِّينِ وَأَهْلِهِ، وَتَفَرَّوْا مِنْهُ وَمِنْهُمْ.

وَنَحْنُ لَا نُرِيدُ مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يَقْرَأُوا كِتَابَ اللَّهِ وَسِيرَةَ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ، ثُمَّ يَحْكُمُوا بِمَا يَشْعُرُونَ، كَمَا يَفْعَلُ الْمُفَكِّرُ الرَّشِيدُ، وَمَتَى قَرَأُوا وَأَنْصَفُوا يَتِمَّ الصُّلْحُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ يُنْزَهُونَ الْإِسْلَامَ عَنِ الْأَسَاطِيرِ وَالْأَوْهَامِ.

وَتَشَاءُ الصَّدَفُ أَنْ يَقَعَ فِي يَدِنَا كِتَابَانِ، وَنَحْنُ نَبْحَثُ وَنَتَّبِعُ الْمَرَاجِعَ الْقَدِيمَةَ

وَالْحَدِيثَةُ الَّتِي تَتَّصِلُ بِهَذَا الْمَوْضُوعِ . وَقَدْ وَقَفْتُ عِنْدَ الْكُتَاتَيْنِ طَوِيلًا لِأَنَّ أَحَدَهُمَا مَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى ، وَالْآخَرُ فِيهِ تَجَنُّ وَهَوًى ، وَأَسْمُ الْأَوَّلِ «مُحَمَّدُ الرَّسَالَةِ وَالرُّسُولُ» أَلْفَهُ دُكْتُورُ مَسِيحِي مِنْ أَقْبَاطِ مِصْرَ ، دَرَسَ الْأَدْيَانَ وَقَارَنَ بَيْنَهُمَا ، ثُمَّ أَنْتَهَى إِلَى الْإِيمَانِ بِنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ وَتَعَالِيَمِهِ . وَيَجِدُ الْقَارِيءُ مُلْخَصًا لِهَذَا الْكِتَابِ ، فِي الْفُصُولِ الْآتِيَةِ بِعُنْوَانِ «الرُّسَالَةُ وَالرُّسُولُ» وَأَسْمُ الْكِتَابِ الثَّانِي «قُصُورٌ وَلُبَابٌ» وَصَاحِبِهِ دُكْتُورُ مَضْرِي وَهُوَ زَكِي نَجِيبٌ مَحْمُودٌ ، وَقَدْ تَعَرَّضَ فِيهِ لِمَفْهُومِ الْأَدَبِ ، وَالْعِلْمِ ، وَالْفَلَسَفَةِ ، وَحَمَلَ عَلَى الْمِيتَافِيزِيْقِيَا ، وَنَسَبَ كُلَّ مَا يَتَّصِلُ بِمَا وَرَاءَ الطَّبِيعَةِ إِلَى الْأَوْهَامِ وَالْأَسَاطِيرِ ، وَأَطَالَ الْكَلَامَ فِي الْأَذَلَّةِ عَلَى دَعْوَاهِ هَذِهِ ، ثُمَّ أَنْتَهَى إِلَى النَّتِيجَةِ التَّالِيَةِ :

« وَمَا دَامَتِ الْمِيتَافِيزِيْقِيَا كُلُّهَا كَلَامًا فَارِعًا عَلَى النَّحْوِ الَّذِي بَيْنَا ، فَمَا نَحْنُ صَانِعُونَ بِهَذِهِ الْأَسْفَارِ الضَّخْمَةِ الَّتِي تَرَكَتْ لَدَيْنَا عَلَى مَرِّ الْقُرُونِ مِمَّا كَتَبَهُ الْمِيتَافِيزِيْقِيُّونَ ؟ أَنَّهُ لَعَزِيزٌ عَلَيَّ وَعَلَيْكَ أَنْ تَلْقَى هَذِهِ الْأَسْفَارَ ، كَمَا يَنْبَغِي لَهَا طَعَامًا لِأَلْسِنَةِ النَّارِ ، أَوْ أَثْقَالًا فِي قَاعِ الْبَحْرِ ، وَإِلَّا فَلَنَبْقَ عَلَيْهَا ، لِيَقْرَأَهَا الْقَارِيءُ ، إِذَا أَخَذَهُ الْحَنِينُ إِلَى الْمَاضِي ، كَمَا يَقْرَأُ أُسَاطِيرَ الْأَوَّلِينَ » ^(١) .

وَلَيْسَ بِجَدِيدٍ عَلَيْنَا هَذَا الْقَوْلَ ، فَقَدْ أَلْفَنَاهُ مِنْذُ الْقَدِيمِ ، وَنَاقَشْنَاهُ فِي مَا نَشَرْنَا مِنْ مَقَالَاتٍ وَمُؤَلَّفَاتٍ ، وَلَكِنَّ الْجَدِيدَ الَّذِي لَمْ نَعْرِفْهُ مِنْ قَبْلُ ، وَلَمْ نَسْمَعْ مِنْ أَحَدٍ هُوَ قَوْلُ الْمُؤَلِّفِ :

« إِنَّ فَتْحَ التَّوَاغِذِ وَالْأَبْوَابِ أَمَامَ الْمَدِينَةِ الْغَرِيبَةِ لَمْ يُصَادَفْ هَوًى عِنْدَ طَائِفَةٍ مِنَ النَّاسِ ، فَبَيْنَ ظَهْرَانَيْنَا فَرِيقٌ كَبِيرٌ جَدًّا كَانَ يَتَمَنَّى بِحُكْمِ تَرْبِيَّتِهِ أَنْ يَكُونَ نَهْوضَنَا

(١) أنظر ، قُصُورٌ وَلُبَابُ الدُّكْتُورِ زَكِي نَجِيبٍ مَحْمُودٍ : ٢١٩ و ٢٢٠ طَبْعَةٌ (١٩٥٧ م) . (مِنْهُ ﷺ) .

كله نموًا من الداخل ورجوعاً إلى الماضي، فلما رأوا أنَّ تيار الحضارة الغربية العلمية جارف يمس أوضاع الحياة كلها، لم يروا بُدأ من الحركة في اتجاههم، وهو الجري إلى الوراء لإستخراج كنوز الماضي، لعلمهم يُجابهُون بها الغرب الدخيل، ولكنهم لَن يقتصروا على مُجرد نشر القديم نشرًا مُزدوجاً بالشرح والتعليق، بل أضافوا إلى ذلك «تعقيل» هذا التراث ما أستطاعوا إلى ذلك من سبيل»^(١).

وهو يُريد بقوله هذا رجال الدين وغيرهم من قادة الفكر، لأنه ضرب مثلاً بمفكر وضع كتاباً في الشعر العربي القديم، وبإمام فسر القرآن تفسيراً راعى فيه أن تظهر أحكامه للناس مُتسقة مع العقل العلمي الحديث.

ولو أنَّ الدكتور زكي درس الإسلام، وأطلع على أحكامه وتعاليمه لأستثنى قادة الدين من قوله: «أضافوا إلى ذلك (تعقيل) هذا التراث» ولعلم أنهم لم يحاولوا إعطاء الإسلام آية قيمة أجنبية عنه، وإنما كشفوا عن بغض قيمه وخصائصه، وأنهم لم يذكروا من كنوزه وأسراره إلا القليل.

إنَّ أئمة المسلمين لم يرسموا لتفسير القرآن خططاً من عندهم تتلاءم مع العقل الحديث أو القديم، بل أنَّ القرآن هو الذي أرشدهم إلى منهج العلم والعقل، وأمرهم ببذ الخرافات والأوهام، ولو أنَّ رجال الدين أتبعوا منهج القرآن في التفسير والتشريع لما رأينا في أقوال بعضهم ما يلام عليه. لذا ترانا نحتج بالقرآن وبأسم الدين على من يتحرف عن طريق الفطرة والعقل، ولكن البعض يتجاهل هذه الحقيقة، ويعكس الآية، فيحتج على رجال الدين إذا تركوا

(١) أنظر، قصور ولُباب الدكتور زكي نجيب محمود: ١٥٥ طبعة (١٩٥٧م). (مئة ٥٥).

الْبِدْعَ وَالضَّلَالَاتِ وَيَزَعَمُ أَنَّهُمْ يَتَكَلَّفُونَ وَيَتَمَحَلُّونَ! كَأَنَّ الدِّينَ «بَصَارَةٌ بِرَاجَةٍ» أَوْ تَغْسِيلُ أَمْوَاتٍ، وَتَلَاوَةُ آيَاتٍ!.

قَالَ الْمُسْتَشْرِقُ الْفَرَنْسِيُّ جَاسْتُونُ: «إِنَّ الْقُرْءَانَ هُوَ مَنَبِّعُ الدِّينِ الْعَقْلِيِّ وَدُسْتُورُهُ، فَقَدْ أَحْتَوَى عَلَى أَسَسٍ تَسْتَنْدُ إِلَيْهَا حَضَارَةُ الْعَالَمِ»، وَيَقُولُ دُكْتُورُ مُسْلِمٍ: «لَقَدْ أَضَافَ الْقَادَةُ إِلَى تَرَاثِنَا التَّعْقِيلَ»، أَيِ أَعْطَاوُا الْعَقْلَ لِمَا لَا يَغْفُلُ!.

إِنَّ الْعُلَمَاءَ الرَّاسِخِينَ لَمْ يَنْفُوا عَنِ الدِّينِ مَا هُوَ مِنْهُ، وَلَكِنْ يَضِيفُوا إِلَيْهِ مَا خَرَجَ عَنْهُ. أَنَّهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا شَيْئاً أَكْثَرَ مِنَ الْكُشْفِ عَنِ الْوَاقِعِ، وَإِزَاحَةِ السَّتَارِ عَنْ جَوْهَرِ الدِّينِ وَحَقِيقَتِهِ «رَأَوْا مَنْ يُخْطِئُ فَهُمُ الدِّينَ»، وَيُلْقِي عَلَيْهِ التَّبَعَاتِ كَمَا رَأَوْا تَحَكُّمَ الْقَوِيِّ بِالضَّعِيفِ، وَشُبُوحَ الْفِسْقِ وَالْفُحْشِ، وَالْإِضْطِرَابِ فِي الْأَعْمَالِ وَالْأَخْلَاقِ، فَشَعَرُوا بِالمَسْئُولِيَّةِ أَمَامَ اللَّهِ وَالضَّمِيرِ عَنْ مَعَانِي الْحَقِّ وَالْفَضِيلَةِ، فَتَبَيَّنَتْ لَهَا لِلنَّاسِ، وَدَافَعُوا عَنْهَا وَدَعَاوُا إِلَيْهَا، وَرَفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ مَعَ أَصْوَاتِ الْمُعَذِّبِينَ فِي كُلِّ شَعُوبِ الْعَالَمِ، أَوْ أَثَارُوا فِي النُّفُوسِ التَّرَعَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ نَحْوَ الْخَيْرِ، وَرَبَطُوا مَسَائِلَ الدِّينِ بِصَالِحِ الْجَمَاعَةِ، وَبَرَّأوهُ مِنْ كُلِّ مَا يَضِيرُ الْإِنْسَانَ، كَمَا جَعَلُوهُ وَسِيلَةً لِلتَّعَاطُفِ وَالتَّقَاهُمِ، وَطَرِيقاً لِلْعَدْلِ وَالْأَمْنِ وَالسَّلَامِ.

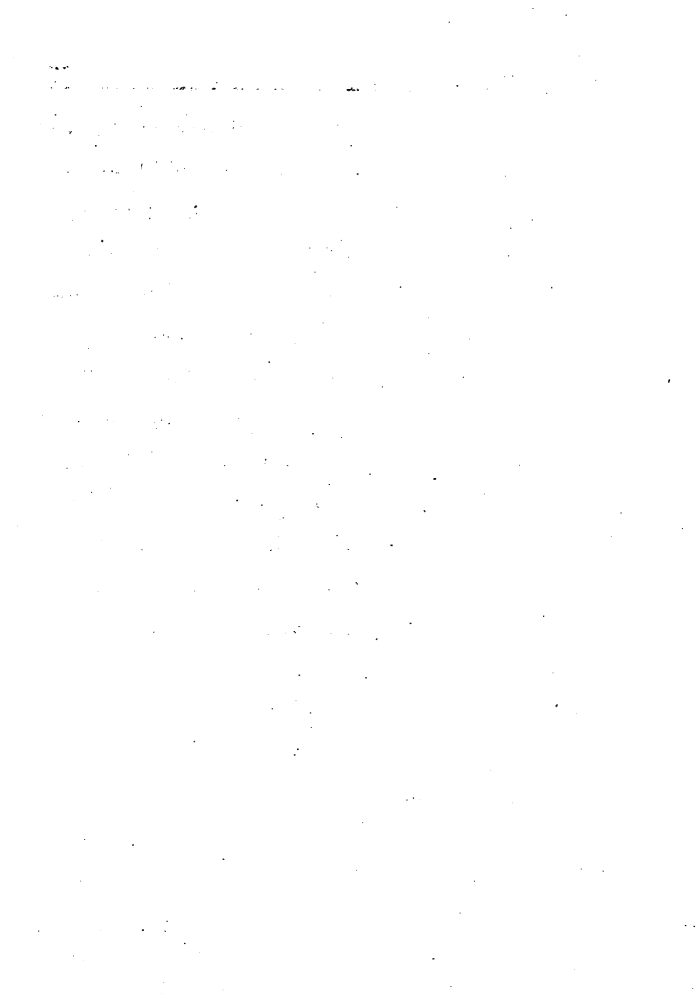
وَهَذَا هُوَ ذَنْبُهُمْ عِنْدَ الْبَغْضِ! مَسَاكِينُ أَهْلِ الْعِلْمِ، إِنْ سَكَتُوا قِيلَ كُسَالَى مُهْمَلُونَ، وَإِنْ تَكَلَّمُوا قِيلَ مُتَعَصِّبُونَ مُتَمَحَلُّونَ، وَلَكِنْ يَهْوَنُ الْخُطْبُ أَنْ مَنْ يَقُولُ هَذَا الْقَوْلَ هُمْ شَذَاذُ الْأَحْزَابِ الَّذِينَ لَا يَرْضَوْنَ عَنْ أَيِّ إِنْسَانٍ وَبِخَاصَّةٍ عَنْ رَجُلٍ الدِّينِ إِلَّا إِذَا طَبَّلَ لَهُمْ وَزَمَرَ، وَحَرَفَ لَهُمْ كَلَامَ اللَّهِ وَسَنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَالصَّالِحِينَ، وَزَمَى مِنْ لَا يُشَايِعُهُمْ عَلَى الضَّلَالِ بِالزَّيْعِ وَالْإِنْحِرَافِ وَصَدَّقَ اللَّهُ الْعَظِيمَ حَيْثُ خَاطَبَ نَبِيَّهُ الْكَرِيمَ بِقَوْلِهِ: «وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ

مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى ﴿١١﴾.

وَقَدْ عَلَّمْتَنَا الْإِيمَانَ وَالتَّجَارِبَ أَنَّ أَخَوْفَ مَنْ يَخَافُ مِنْهُ الْمُجْرِمُ الْمَاجُورُ هُوَ رَجُلُ الدِّينِ الَّذِي لَا يُؤْثِرُ عَلَى عَقِيدَتِهِ شَيْئًا.

وَإِذَا قَسَرَ الْمُتَحَذِّقُونَ أَقْوَالَ رِجَالِ الدِّينِ بِأَنَّهَا تَحُلُّ وَتَعْصِبُ لِدِينِهِمْ وَعَقِيدَتِهِمْ، فَمَاذَا يُفَسِّرُونَ قَوْلَ الدُّكْتُورِ فِيلِيبِ حَتَّى الْمَسِيحِيِّ الْمُعَاصِرِ، وَالْمُؤَرِّخِ الْكَبِيرِ الَّذِي وَصَفَ الْإِسْلَامَ بِأَنَّهُ حَضَارَةٌ عَامَّةٌ شَامِلَةٌ تَنْتَظِمُ كُلَّ مَنْ يَعْيشُ تَحْتَ سَمَائِهَا فِي حُرِّيَّةٍ وَصَفَاءٍ، وَيَعْيشُ غَيْرَ الْمُسْلِمِينَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى قَدَمِ الْمُسَاوَاةِ وَتَرْبِطُهُمْ بِرَوَابِطِ الْمَحَبَّةِ وَالْأُخُوَّةِ «!.

وَإِذَا عَقَلَ غَيْرُ الْمُسْلِمِ فَضْلَ الْإِسْلَامِ وَعَظَمَتَهُ، وَنَطَقَ بِكَلِمَةِ الْحَقِّ لَوَجْهِ الْحَقِّ، فَهَلْ يَكْتُمُهَا عُلَمَاءُ الْمُسْلِمِينَ، وَقَدْ أَحْيَا اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِنُورِ الْإِسْلَامِ مُنْذُ عَرَفُوا الْحَيَاةَ؟! كَلَّا سَيَمْضُونَ فِي هَذَا الطَّرِيقِ غَيْرَ مُبَالِغِينَ وَلَا مُكْتَرِثِينَ يَجْهَرُونَ بِالْحَقِّ، وَيَدْفَعُونَ عَنْهُ بَصَرَاحَةً وَشَجَاعَةً لَا تَأْخُذُهُمْ رَغْبَةٌ فِي مَنْصَبٍ وَمَالٍ، وَلَا رَهْبَةٌ مِنْ قُوَّةٍ وَسُلْطَانٍ، وَلَا يَبْتَغُونَ إِلَّا وَجْهَ اللَّهِ، وَخِدْمَةَ الْإِسْلَامِ.



الحُسْنُ وَالْقُبْحُ

قَالَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ:

رُبَّ قُبْحٍ عِنْدَ زَيْدٍ	هُوَ حَسَنٌ عِنْدَ عَمْرٍو
فَهُمَا ضِدَّانِ فِيهِ	وَهُوَ وَهُمْ عِنْدَ بَكْرٍ
لَيْتَ شِعْرِي فَمَنْ	الصَّادِقُ فِيمَا يَدْعِيهِ
وَلِمَاذَا لَيْسَ لِلْحُسْنِ	قِيَاسٌ، لَسْتُ أَدْرِي

بَلْ، أَنَّ قِيَاسَ الْحُسْنِ مَوْجُودٌ، وَلَوْ كُشِفَ عَنْهُ الْغِطَاءُ لَمْ يَخْتَلَفْ فِيهِ أَشْنَانُ، وَالَّذِي دَعَا الشَّاعِرَ إِلَى تَفْيِهِ، وَأَوْقَعَهُ فِي الْحَيْرَةِ وَالتَّشْكِكِ مَا قَرَأَهُ فِي بَطُونِ الْكُتُبِ مِنْ الْأَرْاءِ وَالْأَقْوَالِ الْمُتَضَارِبَةِ حَوْلَ تَحْدِيدِ قِيَاسِ الْحُسْنِ وَبَيَانِ مَفْهُومِهِ وَمَعْنَاهُ. لَقَدْ انْتَفَقَتِ الْكَلِمَةُ عَلَى أَنَّ لِلْحُسْنِ وَاقِعًا، وَأَنَّ لَهُ قِيَاسًا دُونَ رَيْبٍ، وَلَكِنْ وَقَعَ الْإِخْتِلَافُ فِي حَقِيقَةِ هَذَا الْقِيَاسِ، فَذَهَبَ الْأَشَاعِرَةُ^(١) إِلَى أَنَّهُ لَيْسَ لِلْفِعْلِ صِفَةٌ يَكُونُ بِإِعْتِبَارِهَا حُسْنًا أَوْ قُبْحًا، أَنَّ اللَّهَ لَا يَجِبُ عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَلَا يَقْبَحُ مِنْهُ شَيْءٌ، وَأَنَّ الْحَسَنَ مَا أَمَرَ بِهِ الشَّرْعُ، وَالْقَبِيحُ مَا نَهَى عَنْهُ، وَأَنَّهُ لَوْ أَمَرَ بِمَا نَهَى لَصَارَ

(١) الْأَشَاعِرَةُ هُمْ أَتْبَاعُ أَبِي الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيِّ الْمُتَوَفَّى حَوَالِي (٢٣٠هـ). (منه ❦).

حَسَنًا، وَلَوْ نَهَى عَمَّا أَمَرَ لَصَارَ قَبِيحًا^(١).

فَالصَّدَقُ وَالْكَذِبُ، وَالْأَمَانَةُ وَالْخِيَانَةُ، سَيِّانٌ فِي الْوَاقِعِ قَبْلَ أَنْ يَنْصَ الشَّرْعُ عَلَى التَّحْلِيلِ أَوْ التَّحْرِيمِ، وَمِمَّا أَحْتَجُّ بِهِ هَؤُلَاءِ: «لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ»^(٢).

وَالنَّتِيجَةُ الْمَنْطِقِيَّةُ لِهَذَا الْقَوْلِ أَنَّ لَا فَضَائِلَ وَلَا رَذَائِلَ فِي الْأَفْعَالِ قَبْلَ أَمْرِ الشَّرْعِ وَنَهْيِهِ.

وَيَكْفِي لِلرَّدِّ عَلَى الْقَائِلِينَ بِهِ أَنَّ عَقُولَنَا تُدْرِكُ حُسْنَ الصَّدَقِ النَّافِعِ وَرَدِّ الْوَدِيعَةِ وَوَفَاءِ الدِّينِ، وَقُبْحِ الْكَذِبِ الضَّارِّ وَالْخِيَانَةِ وَالتَّعَاوُنِ عَلَى الْإِثْمِ كَمَا تُدْرِكُ ضَوْءَ الشَّمْسِ، وَكَمَا نَعْلَمُ أَنَّ ضَمَّ وَاحِدٍ إِلَى مِثْلِهِ يُصْبِحَانِ اثْنَيْنِ، أَجْلُ إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَا يَأْمُرُ إِلَّا بِالْحُسْنِ وَلَا يَنْهَى إِلَّا عَنِ الْقَبِيحِ، كَمَا قَالَ الْإِمَامُ عَلِيٌّ، وَلِذَا لَا نَقُولُ: هَذَا حَسَنٌ لِأَنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِهِ، وَذَاكَ قَبِيحٌ لِأَنَّهُ نَهَى عَنْهُ، وَإِنَّمَا نَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنَا بِهِذَا لِأَنَّهُ حَسَنٌ وَنَهَاَنَا عَنْ ذَاكَ لِأَنَّهُ قَبِيحٌ.

أَمَّا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: «لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ».

فَهُوَ أَنَّ الْعَبْدَ لَا يَحِقُّ لَهُ أَنْ يَقُولَ اللَّهُ لِمَ فَعَلْتَ؟ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ مَقْدُورٍ، وَعَالِمٌ بِقُبْحِ الْقَبَائِحِ وَهُوَ غَنِيٌّ عَنْهَا. وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ أَسْتَحَالَ أَنْ يَفْعَلَ الْقَبِيحَ بِخِلَافِ الْعَبْدِ، حَيْثُ يَجُوزُ عَلَيْهِ ذَلِكَ، وَلِذَا كَانَ مَسْئُولًا.

وَقَالَ الْمُعْتَرِلَةُ وَالْإِمَامِيَّةُ: إِنَّ الْأَفْعَالَ مِنْهَا مَا هُوَ حَسَنٌ بِحُكْمِ الْعَقْلِ لَا بِإِعْتِبَارِ

(١) انظر، المواقف للأبيجي وشرحه للجرجاني: ١٨١/٨ و ١٩٠، الكشف عن مناهج الأدلة لإبن رشد:

١١٣ المسألة الرابعة في القدر والجور.

(٢) الأنبياء: ٢٣.

حُكْمُ الشَّرْعِ ، كَالصُّدْقِ النَّافِعِ وَمَا إِلَيْهِ ، وَمِنْهَا مَا هُوَ قَبِيحٌ كَذَلِكَ ، كَالْكَذِبِ الضَّارِّ ، وَمِنْهَا مَا لَا يَسْتَقِلُّ الْعَقْلُ بِالْحُكْمِ عَلَيْهِ سَلْبًا أَوْ إِجْبَابًا ، فَنَحْتَاجُ حِسْتِنْدَ إِلَى الشَّرْعِ ^(١) ، كَوُجُوبِ الْوَفَاءِ بِعَقْدِ الْبَيْعِ ، وَتَحْرِيمِ أَكْلِ لَحْمِ الْمَيْتَةِ ، وَمَا كَانَ مِنَ النَّوْعِ الْأَوَّلِ يُعْبَرُونَ عَنْهُ بِالْحُسْنِ أَوْ الْقُبْحِ الْعَقْلِيِّ ، وَالنَّوْعِ الثَّانِي يَنْعَتُونَهُ بِالشَّرْعِيِّ .

وَبِالْجُمْلَةِ : « إِنَّ الْعَقْلَ يَسْتَقِلُّ بِحُسْنِ شَيْءٍ وَقُبْحِ آخَرَ ، وَلَوْ فِي بَعْضِ الْأَشْيَاءِ وَعَلَى سَبِيلِ الْمَوْجِبَةِ الْجُزْئِيَّةِ ، وَلَوْ عَزَلْنَاهُ كُلِّيَّةً لَتَهْدُمُ أَسَاسُ إِبْتِهَاتِ الصَّانِعِ ، وَلَزِمَ إِفْحَامُ الْأَنْبِيَاءِ ، حَيْثُ يُجِيزُ الْعَقْلُ ، وَالْحَالَةُ هَذِهِ ، أَنْ تَظْهَرَ الْمُعْجَزَةُ عَلَى يَدِ مَنْ يَدَّعِي النُّبُوَّةَ كَذِبًا وَافْتِرَاءً » ^(٢) . وَمُؤَدَى هَذَا الْقَوْلِ أَنَّ الْعَقْلَ يُدْرِكُ شَيْئًا مِنَ الْحُسْنِ وَالْقُبْحِ ، وَلَا يُدْرِكُ شَيْئًا مِنْهُمَا ، وَالَّذِي يُدْرِكُ كُلَّ شَيْءٍ هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ جَلَّ وَعَلَا .

وَقَالَ آخَرُونَ : كُلُّ مَا يُحَقِّقُ رَغَبَاتِ الْفَرْدِ وَمُؤُولَهُ فَهُوَ حَسَنٌ ، وَكُلُّ مَا يَتَنَافَى مَعَهَا فَهُوَ قَبِيحٌ ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْفَوْضُوِيُّونَ الَّذِينَ لَا يُدِينُونَ بِشَيْءٍ وَلَا يَعْتَرِفُونَ بِكَائِنٍ غَيْرِ أَنْفُسِهِمْ .

وَلَوْ أَخَذْنَا بِنَظَرِيَّتِهِمْ هَذِهِ لَبَقِيَ الْإِنْسَانُ كَمَا كَانَ يَعِيشُ فِي الْكَهُوفِ وَالْعَابَاتِ يَقْتَاتِ النَّبَاتِ وَالْحَشَرَاتِ ، وَلَمْ يَتَقَدَّمْ خُطْوَةً وَاحِدَةً فِي مَضَارِ الْحَيَاةِ ، وَكَيْفَ يَسْتَطِيعُ الْفَرْدُ أَنْ يُحَقِّقَ غَايَاتِهِ إِذَا لَمْ تَتَّفَقْ مَعَ غَايَاتِ الْآخَرِينَ . أَنَّهُ جُزْءٌ مِنْ كُلِّ يَرْتَبِطُ وَجُودَهُ بِوُجُودِ غَيْرِهِ ، فَلَوْ عَمِلَ عَلَى أَسَاسِ تَجَاهُلِ الْحَقَائِقِ وَعَدَمِ الْمَسْئُولِيَّةِ لَتَحَطَّمَتِ حُرِّيَّةُ الْجَمَاعَةِ وَكَرَامَتُهَا ، وَلَتَعَذَّرَ عَلَى أَيِّ إِنْسَانٍ أَنْ يُحَقِّقَ

(١) انظر ، الإرشاد الهادي إلى منظومة الهادي في العقائد الزيدية : ٢٥ (مخطوط) ، الإضباح على المصباح في معرفة الملك الفتاح : ٧٨ .

(٢) انظر ، تقريرات الميرزا النائيني للخراساني : ١/ ٢٢ طبعة (١٣٤٥ هـ) . (منه) .

شَيْئاً مِمَّا أَرَادَ. وَمَاذَا يَبْقَى لَكَ أَوْ لِي أَوْ لغيرِنَا إِذَا أَنْكَرْنَا الشَّرَائِعَ وَالْأَخْلَاقَ ؟!

وَفِتْنَةُ ثَالِثَةٍ ذَهَبَتْ إِلَى الْحُسْنِ مَا يَسْتَحْسِنُهُ النَّاسُ، وَيَأْلَفُهُ الْمُجْتَمَعُ. وَهَذَا الْقَوْلُ لَا يَصِحُّ فِي الْمُجْتَمَعِ الْفَاسِدِ، فَقَدْ وَادَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُنْثَى، وَاعْتَبَرُوا هُنَّ سِلْعاً تُشْتَرَى وَتُبَاعَ^(١)، وَكَانَ الْمَصْرِيُّونَ يَزْفُونَ بَنَاتَهُمْ إِلَى النَّيْلِ وَيَغْرِقُونَهُنَّ أَحْيَاءً^(٢)، وَإِلَى الْيَوْمِ نَسْمَعُ بِوُجُودِ أَكَلَةِ لَحُومِ الْبَشَرِ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ يُقَدِّمُ قُرْبَاناً لِلْأَلَهَةِ فِي «أوينتشا» يُقَدِّمُ أَهْلُهَا كُلَّ سَنَةٍ شَخْصِينَ قُرْبَاناً لِأَلَهَتِهِمْ ! وَكَذَا تُدْفَنُ الزَّوْجَةُ فِي بَعْضِ بِلَادِ الْهِنْدِ حَيَّةً مَعَ زَوْجِهَا؛ وَكُلُّنَا يَعْلَمُ كَيْفَ يُعَامَلُ الْمُلُونُ فِي أَمِيرِكَا وَجَنُوبِ أَفْرِيقِيَا !.

وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ كُلَّ مَا يَنْهَضُ بِالْحَيَاةِ، وَيَرْفَعُ مِنْ شَأْنِهَا بِجَهَةِ مِنَ الْجِهَاتِ الرُّوحِيَّةِ أَوْ الْمَادِيَّةِ فَهُوَ حَسَنٌ، وَكُلُّ مَا يُؤْخِرُهَا عَنِ التَّقَدُّمِ، وَيَقِفُ فِي طَرِيقِ نَشْوَها وَازْدَهَارِها فَهُوَ شَرٌّ وَقَبِيحٌ، فَتَهْضَةُ الصَّنَاعَةِ، وَالزَّرَاعَةِ، وَالثَّقَافَةِ، وَالتَّحَرُّرِ مِنْ

(١) مَأْسَاةٌ مَا دُونَهَا مَأْسَاةٌ، بَلْ هِيَ أَشْبَعُ تَمْثِيلَ بِحُجَجٍ وَاهِيَةٍ خَوْفاً مِنَ الْعَارِ وَالْفَضِيحَةِ كَمَا فَعَلَ «لُقْمَانُ بْنُ عَادٍ» وَ«قَيْسُ بْنُ عَاصِمٍ» وَيَعْتَبِرُونَ هَذِهِ الْمَأْسَاةَ الَّتِي مَا تَزَالُ تُؤَرِّقُ الضُّمِيرَ الْإِنْسَانِي رَحْمَةً لَهَا فَأَتَرُوا لَهَا الْمَوْتَ حَتَّى قَالَ قَائِلُهُمْ: «أَمَنْكُمْ اللَّهُ غَارِهَا، وَكَفَاكُمْ مُؤْنَتَهَا، وَصَاهَرْتُمُ الْقَبْرَ».

فَهَذَا هُوَ التَّقْلِيدُ الْمَوْرُوثُ، وَالْأَثَابَةُ الْمُتَقَيِّمَةُ لَا تَدْعُ لِصَاحِبِهَا عَقْلاً، وَلَا وَجْدَاناً، وَلَا إِحْسَاساً. وَلَكِنْ لَيْسَتْ هَذِهِ الصُّورَةُ الْبَشَعَةُ هِيَ السَّائِدَةُ فِي كُلِّ الْمُجْتَمَعِ الْعَرَبِيِّ، بَلْ هُنَالِكَ صُورَةٌ مُشْرِقَةٌ حَدَّثَنَا عَنْهَا التَّأْرِيخُ.

إِبْنَارُ الْبِنْتِ بَدَلُ الْوَادِ. وَالْحُبُّ بَدَلُ الْكُرْهِ. وَالْكُنْيَةُ بِالْأُنْثَى بَدَلُ الذَّكَرِ. وَالْمَذْحُ بَدَلُ الْهَجَاءِ. وَالصُّهْرُ بَدَلُ الْقَبْرِ. وَالنَّسَبُ وَالْإِزْتِبَاطُ بَدَلُ الْعَارِ، وَالْفِرَارُ. وَالْقَدَاسَةُ بَدَلُ الْإِحْقَاقِ. فَهِيَ الْأُمُّ، وَالزَّوْجَةُ، وَالْأَخْتُ، وَالْحَبِيبَةُ. وَمَا رُوِيَ بِمِثْلِ هَذِهِ قَطُّ فِي إِكْرَامِ الْأُنْثَى وَالتَّرَفِّقِ بِهَا، حَتَّى وَافَقَ عَلَى أَجَارَتِ زَيْنَبَ أَبْنَتِهَا الْعَاصِ بْنِ الرَّبِيعِ. وَأَسْتَأْمَنْتُ أُمَّ حَكِيمٍ بِنْتَ الْحَارِثِ «عِكْرَمَةَ بْنِ أَبِي جَهْلٍ» عَامَ الْفَتْحِ، وَهَذَا حَدَّثَ لَأُمِّ هَانِيَةَ بِنْتُ أَبِي طَالِبٍ.

(٢) أَنْظُرْ، تَأْرِيخُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ لِابْنِ الْجَوْزِيِّ: ١٥٦.

العبودية، والصدق، والأمانة، وضبط النفس عن الحرام، والرزيلة، والجهاد والتضحية، وما إلى ذلك مما يحل مشكلات المجتمع كله خير وحسن في ذاته وعند العقل والناس أجمعين.

أما الركون والجُمود، أما الكذب والدس، والإعانة على الظلم والاستغلال فشرّ وقبيح، لأنه الموت والهلاك بعينه. إذن، العقل يُدرك الكثير مما ينفع الإنسانية ويضرها كالأمثلة المُقدّمة، ويخفي عليه الكثير كأكل لحم الميتة وما إليه فنحتاج والحال هذه إلى حكم الشرع ليكشف لنا الحقيقة.

وقد يتساءل: إذا كان العقل يُدرك الكثير من حسن الأشياء وقبحها، وكان القياس الذي يُميّز بينهما بهذا الوضوح وهذه البديهة، فلماذا وقع الخلاف في تحديده بين أهل الرأي والنظر؟!.

والجواب: أن اختلاف هؤلاء في معنى الحسن وقياسه لا يدل على عدم وجوده، أو خفائه وغموضه، وإنما يدل دلالة واضحة على أنهم لم يدركوا حقيقة العالم الذي عاشوا فيه، ولم يعرفوا شيئاً عن حياة المجتمع وفنائه، فلقد كانوا يعيشون في برج عاجي، ويرفعون إلى السماء، ويتكلمون عن أهل الأرض دون أن يعرفوا عنهم شيئاً، ومن نأى بإحساسه ووجدانه عن حياة الناس، لا يحق له أن يتكلم عنهم وعن مقاييس حياتهم.

ومهما يكن فإن الحسن حقيقة واقعة وقياسه جلي وواضح، وإن كثرت الأقوال وتضاربت الآراء في شرحه وتفسيره. ومن النتائج المترتبة على إدراك العقل للحسن والقبح أن كل شيء يحكم العقل بحسنة فهو محبوب شرعاً، وما يحكم بقبحه فهو مكروه كذلك، وهذا معنى قول طائفة من فقهاء المسلمين: «أن

كُلُّ مَا يَحْكُمُ بِهِ الْعَقْلُ يَحْكُمُ بِهِ الشَّرْعُ ، وَأَنَّ حُكْمَ الشَّرْعِ يُسْتَكْشَفُ مِنْ حُكْمِ الْعَقْلِ ... وَالْعَقْلُ رَسُولٌ فِي الْبَاطِنِ ، وَالشَّرْعُ عَقْلٌ فِي الظَّاهِرِ - مَثَلًا - إِذَا أَدْرَكَ الْعَقْلُ أَنَّ الْعَدْلَ حَسَنٌ ، وَالظُّلْمَ قَبِيحٌ نَحْكُمُ بِأَنَّ الْعَدْلَ مَحْبُوبٌ لِلَّهِ ، وَالثَّانِي مَكْرُوهٌ لَهُ ، لِأَنَّ الْمَفْرُوضَ أَنَّ أَوَامِرَ اللَّهِ وَنَوَاهِيهِ تَتَّبَعُ الْمَصَالِحَ وَالْمَقَاسِدَ فِي نَفْسِ الْأَفْعَالِ الَّتِي تَعَلَّقَتْ بِهَا .

وَقَدْ نَدْرِكُ الْجِهَةَ الدَّاعِيَةَ لِأَمْرِ اللَّهِ ، وَالْجِهَةَ الْبَاعِثَةَ عَلَى نَهْيِهِ ، وَقَدْ تُخْفِي عَلَيْنَا تِلْكَ الْجِهَاتِ غَيْرَ أَنَّنَا نَعْلَمُ عِلْمَ الْيَقِينِ بِأَنَّ مَا خَفِيَ عَلَيْنَا لَوْ أَطْلَعَتْ عَلَيْهِ عَقُولُنَا لَكَانَ حُكْمُهَا مُوَافِقًا لِحُكْمِ الشَّرْعِ تَمَامًا ، لِأَنَّنَا نَتَّقُ بِعَدْلِ اللَّهِ وَحِكْمَتِهِ أَكْثَرَ مِمَّا نَتَّقُ بِمَقْدَرَةِ الطَّبِيبِ وَإِخْلَاصِهِ الَّذِي نَسْتَسَلِمُ لَهُ وَلِتَعَالِيَمِهِ مِنْ دُونِ قَيْدٍ وَشَرَطٍ .

وَمَرَّةٌ أُخْرَى نَقُولُ : إِذَا عَزَلْنَا الْعَقْلَ عَنْ إدْرَاكِ الْحُسْنِ وَالْقُبْحِ لِلزَّمِ أَنْ تَكُونَ الْأَشْيَاءُ كُلِّهَا فِي نَظَرَةٍ عَلَى نَسَقٍ وَاحِدٍ ، فَلَا حَقَّ وَلَا بَاطِلَ ، وَلَا خَيْرَ وَلَا شَرَّ ، وَلَا صَوَابَ وَلَا خَطَأَ ، وَلِلزَّمِ أَيْضًا أَنْ يُجِيزَ الْعَقْلُ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ اللَّغْوَ وَالْعَبَثَ ، وَالتَّرْجِيحَ بِلَا مُرْجَحٍ ، وَأَنَّهُ لَا مَانِعَ أَبَدًا أَنْ يَأْمُرَ بِقَتْلِ الْأَطْفَالِ ، وَالنِّسَاءِ ، وَالطَّبِيبِينَ الْأُتْرِيَاءِ ، وَأَنْ يُعَذَّبَ بِنَارِهِ الشُّهَدَاءُ وَالْأَنْبِيَاءُ ، وَيَدْخُلَ جَنَّتِهِ السَّفَاكِينُ وَقَتْلُهُ الشُّعُوبُ ، وَأَنْ يُصَدَّقَ الْكَاذِبُ ، وَيُكَذَّبَ الصَّادِقُ .

إِذَا الْمَفْرُوضُ أَنَّ الْعَقْلَ لَا يَقَرُّ وَلَا يُنْكَرُ ، لَا يَسْتَحْسِنُ وَلَا يَسْتَقْبِحُ ، وَإِنَّمَا تَوْجِدُ جِهَةَ الْحُسْنِ فِي الشَّيْءِ بَعْدَ أَنْ أَمَرَ اللَّهُ بِهِ ، وَتَتَحَقَّقُ جِهَةُ الْقُبْحِ فِيهِ بَعْدَ أَنْ يَنْهَى عَنْهُ ، مَعَ أَنَّ الْعَكْسَ هُوَ الصَّحِيحُ ، أَيُّ أَنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِهَذَا لِأَنَّهُ حَسَنٌ ، وَنَهَى عَنْ ذَاكَ لِأَنَّهُ قَبِيحٌ ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ مَنْ قَائِلٌ :

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ

وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ»^(١). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَيُجْلُ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ»^(٢). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ»^(٣).

أَجَل، أَنَّ حُكْمَ الْعَقْلِ بِحُسْنِ هَذَا وَقُبْحِ ذَلِكَ يَتَّفَقُ تَمَامًا مَعَ الْإِرَادَةِ الْإِلَهِيَّةِ، وَسَلْزَمَهَا بِالضَّرُورَةِ، فَإِنَّ عَدْلَ اللَّهِ الشَّامِلَ، وَقُدْرَتَهُ عَلَى كُلِّ مَقْدُورٍ، وَتَنْزِيهِهِ عَنِ اللَّغْوِ وَالْعَبَثِ، وَعِلْمُهُ بِالْخَفَايَا وَالْأَسْرَارِ، وَحِكْمَتُهُ الَّتِي تَسْتَوْجِبُ أَنْ تَكُونَ أَفْعَالَهُ، وَأَوَامِرُهُ، وَنَوَاهِيهِ كُلِّهَا عَلَى أَتَمِّ مَا يَنْبَغِي، وَأَبْلَغِ مَا يَتَصَوَّرُ، بِحَيْثُ عَلَيْهَا الْمَصَالِحُ، وَالْمَنَافِعُ، وَتَنْدَفِعُ بِهَا الْمَضَارُّ وَالْمَفَاسِدُ، أَنَّ هَذِهِ وَمَا إِلَيْهَا تَسْتَدْعِي أَنْ يَفْعَلَ اللَّهُ الْحَسَنَ دُونَ الْقَبِيحِ.

وَعَلَى هَذَا الْأَسَاسِ، أَسَاسِ إدْرَاكِ الْعَقْلِ لِلْحُسْنِ وَالْقُبْحِ، وَعَدَالَةِ الْبَارِي وَقُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ سَتَتَكَلَّمُ فِي الْفَضْلِ التَّالِي بِعُنْوَانِ: النُّبُوتِ، نَتَكَلَّمُ فِيهِ عَنْ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ: «هَلْ يَحْكُمُ الْعَقْلُ بِأَنْ يُرْسَلَ الرُّسُلُ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ حَسَنٍ أَوْ لَا؟» وَمَتَى أَثْبَتْنَا هَذَا بِحُكْمِ الْعَقْلِ ثَبَّتْ بِالضَّرُورَةِ وَالْبَدِيهَةِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ أَنْبِيَاءَهُ هَذَاهُ لِلنَّاسِ.

(١) النَّحْلُ: ٩٠.

(٢) الْأَعْرَافُ: ١٥٧.

(٣) الْأَعْرَافُ: ٢٨.



النُّبُوءَات

نَبْذاً هَذَا الْفَضْلَ بِذِكْرِ الصِّفَاتِ الَّتِي يَجِبُ تَوَافُرُهَا بِالنَّبِيِّ، لِيُضِيحَ أَهْلًا لَتَلْقَى الْوَحْيَ، وَبَيَانَ الْغَايَةِ مِنْ إِرْسَالِهِ وَبِعَثَّتِهِ، وَمِنْهُمَا يَتَّضِحُ حُكْمُ الْعَقْلِ بِثُبُوتِ النُّبُوءَاتِ وَإِرْسَالِ الرُّسُلِ.

النَّبِيُّ إِنْسَانٌ مَبْعُوثٌ مِنَ اللَّهِ إِلَى النَّاسِ، مِنَ الْحَقِّ إِلَى الْخَلْقِ، وَلَا يَبْعَثُ اللَّهُ رَسُولًا حَتَّى تَجْتَمِعَ فِيهِ الصِّفَاتُ التَّالِيَةُ:

صفات الرسول:

- ١- أَنْ يَكُونَ كَامِلَ الْعَقْلِ وَالذِّكَاءَ بِحَيْثُ يُدْرِكُ مَا يَسْمَعُ وَيُقَالُ لَهُ عَلَى حَقِيقَتِهِ، وَيَقْظَنُ الشَّيْءَ بِسُرْعَةٍ وَإِنْ كَانَ خَفِيًّا، وَلَا يَتَحَيَّرُ وَيَتَرَدَّدُ فِي الْأُمُورِ.
- ٢- أَنْ يَكُونَ كَبِيرَ النَّفْسِ يَسْمُو بِطَبْعِهِ إِلَى الْأَرْفَعِ وَالْأَفْضَلِ.
- ٣- أَنْ يَكُونَ سَلِيمَ الْجِسْمِ مِنَ الْأَمْرَاضِ الْمُنفَرَةِ كَالْجُذَامِ وَالْبَرَصِ وَمَا إِلَيْهِمَا.
- ٤- أَنْ يَكُونَ أَمِينًا وَمُنْزَهًا عَنِ الْفَطَاظَةِ وَالْغِلَظَةِ، وَعَنْ دَنَاءَةِ الْآبَاءِ وَعِهْرِ الْأُمَهَاتِ. وَكُلُّ مَا يُشَوِّهِ السُّمْعَةَ وَالسَّيْرَةَ، لِئَلَّا تَنْفُرَ مِنْهُ الْأَذْوَاقُ السَّلِيمَةُ فَلَا يَحْصُلَ مِنْ بَعْثَتِهِ الْغَرَضُ الْمَطْلُوبُ، وَهُوَ حَمْلُ النَّاسِ عَلَى الْحَقِّ وَالْإِبْتِعَادِ بِهِمْ عَنِ الْبَاطِلِ.

٥ - أَنْ يَكُونَ شُجَاعاً غَيْرَ هَيَّابٍ لَا يَجْنِبُ وَلَا يَتَخَاذَلُ فِي سَبِيلِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ، مَهْمَا تَحَرَّجَتِ الْأُمُورُ وَأَنْذَرَتْ بِالشَّدَائِدِ وَالْمِحَنِ، لِأَنَّ الرِّضْوَخَ وَالتَّخَاذُلَ لَا يَتَّفِقُ مَعَ الْوَفَاءِ لِلْعَقِيدَةِ وَالْعَبْدَاءِ. وَأَنْ يَكُونَ كَرِيماً يُؤَثِّرُ عَلَى نَفْسِهِ، وَلَوْ كَانَ بِهِ خِصَاصَةٌ.

٦ - أَنْ يَكُونَ زَاهِداً غَيْرَ شَرِّهِ عَلَى الشَّهَوَاتِ، لِأَنَّهَا تُحَوِّلُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَعَقْلِهِ وَدِينِهِ.

٧ - أَنْ يَكُونَ بَلِيغاً يُعَبِّرُ عَمَّا يُرِيدُ بِأَكْمَلِ وَأَوْضَحِ بَيَانٍ، لِأَنَّ ذَلِكَ أَدْعَى فِي التَّأْثِيرِ، وَأَجْدَى فِي التَّبْشِيرِ.

٨ - أَنْ يَكُونَ مَعْصُوماً عَنِ الزَّلَلِ وَالخَطَا وَالسَّهْوِ فِي تَبْلِيغِ الْأَحْكَامِ، لِأَنَّ الْغَرَضَ مِنْ بَعَثِهِ إِرْشَادَ النَّاسِ إِلَى الْحَقِّ وَزَدْعِهِمْ عَنِ الْبَاطِلِ، فَلَوْ جَازَ عَلَيْهِ الْخَطَا وَالْمَعْصِيَةُ لَذَهَبَ الْغَرَضُ الْمَطْلُوبُ. وَقَدِيمًا قِيلَ: «فَاقِدُ الشَّيْءِ لَا يُعْطِيهِ». وَمِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ يَتَبَيَّنُ مَعْنَى أَنَّ النَّبِيَّ بَشَرٌ كَسَائِرِ النَّاسِ لَا يَخْتَلِفُ عَنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنَّهُ إِنْسَانٌ كَامِلٌ خَصَّهُ اللَّهُ بِوَحْيِهِ وَرِسَالَتِهِ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُواهُ﴾ ^(١).

الغَايَةُ مِنَ الْبَعْثَةِ:

أَمَّا الْغَايَةُ الْمُتَوَخَّاةُ مِنْ وَجُودِ الْأَنْبِيَاءِ فَهِيَ أَنْ يُسْمِعُوا أَهْلَ الْأَرْضِ نِدَاءَ السَّمَاءِ، أَنْ يَدْعُوا إِلَى الْإِيمَانِ بِإِلَهِ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلَا مِثِيلَ، وَإِلَى الْخُشُوعِ وَالْخُضُوعِ لِلْحَقِّ بِنَبِيَّةٍ خَالِصَةٍ مُخْلِصَةٍ، وَأَنْ يَرْشُدُوا إِلَى مَا فِيهِ الْخَيْرُ وَالسَّعَادَةُ

لِلْجَمِيعِ دُنْيَاً وَآخِرَةً، فَيَبْشُرُوا رُوحَ التَّعَاطُفِ وَالتَّرَاحُمِ بَيْنَ النَّاسِ، وَحَثَّ الْعَدْلَ وَالْحَقَّ، وَيُهَيِّئُوا كُلَّ فَرْدٍ بِوِازِعٍ مِنْ عَقِيدَتِهِ وَإِيمَانِهِ إِلَى عَمَلِ الْحَقِّ وَتَرْكِ الشَّرِّ، إِلَى التَّحَرُّرِ مِنَ الْمَنَافِعِ الشَّخْصِيَّةِ، وَالْقِيَامِ بِالْوَاجِبَاتِ الْإِجْتِمَاعِيَّةِ، وَأَبْلَغَ كَلِمَةً تُعَبِّرُ عَنْ مُهِمَّةِ النَّبِيِّ قَوْلَ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»^(١).

وَمِنَ الْخَيْرِ أَنْ نَنْقُلَ هُنَا كَلِمَةً صَغِيرَةً كَبِيرَةً لِبَغْضِ الْمُخْلِصِينَ خَاطِبَ بِهَا مَرْجِعاً دِينِيّاً كَبِيراً، قَالَ:

«تَذَكَّرْ أَنَّ الدِّينَ هُوَ صَاحِبُ السِّيَادَةِ لِأَنْتَ، وَإِنَّمَا أَنْتَ وَاحِدٌ مِنَ النَّاسِ، وَأَخٌ بَيْنَ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يَجِدُونَ غِبْطَةً فِي اللَّهِ: وَشَرِيكَ مَعَ الَّذِينَ يَخَافُونَهُ، وَفِيهِمَا عَدَاؤُكَ فَاعْتَبِرْ نَفْسَكَ مُجْبِراً أَنْ تَكُونَ وَجْهَ الْعَدَالَةِ، وَمَرَاةَ الْقَدَاسَةِ، وَنُمُودَجَ التَّقَى، وَمُعِيداً إِلَى الْحَقِيقَةِ حُرِّيَّتِهَا، وَمُدَافِعاً عَنِ الْإِيمَانِ، وَمُعَلِّماً لِلْأُمَمِ، وَدَاعِياً لِلشَّعْبِ، وَسَيِّداً لِلْحَقِّ، وَمَلْجَأً لِلْمَظْلُومِينَ، وَمُحَامِياً عَنِ الْفُقَرَاءِ، وَأَمَلاً لِلْمُتَلَامِينَ، وَحَامِياً لِلْأَيَّامِ، وَقَاضِياً لِلْمُتَرَمِّلِينَ، وَعَيْناً لِلْمَكْفُوفِينَ، وَعَصاً عَلَى الْأَقْوِيَاءِ، وَمَطْرَقَةً عَلَى الطُّغَاةِ، وَأَباً لِلْمُلُوكِ، وَمُدِيراً لِلْقَوَانِينِ، وَمُرَاقِباً لِلْأَنْظِمَةِ، فَإِنَّتَ مِلْحَ الْأَرْضِ وَنُورَ الْعَالَمِ؛ وَخَادِمَ الرَّبِّ الْعَظِيمِ. تَذَكَّرْ مَا أَقُولُ لَكَ، وَلِيُعْطِكَ اللَّهُ فَهَمّاً».

وَبِهَذِهِ الصِّفَاتِ يَصْبِحُ صَاحِبُهَا طَرِيقَ الْحَقِّ وَصِرَاطَ اللَّهِ الْقَوِيمِ، وَالْعَقْلَ الْكَامِلَ لِلْإِنْسَانِيَّةِ جَمْعَاءَ. وَعَلَيْهِ تَكُونُ بَعْثَةُ الْأَنْبِيَاءِ حَسَنَةً بِحُكْمِ الْعَقْلِ وَالضَّرُورَةِ وَكُلِّ

(١) أَنْظِرْ، بِدَايَةِ الْمُجْتَهِدِ: ٣٢١/٢، السُّنَنِ الْكُبْرَى: ١٩٢/١٠، تُحْفَةُ الْأَخْوَذِيِّ: ٥/٤٧٠، نُظْمُ دُزَرِ

السُّعْطِينِ: ٤٢، كَثَرُ الْعُمَالِ: ١١/٤٢٠ ح ٣١٩٦٩، قِيَاسُ الْقَدِيرِ شَرْحُ الْجَامِعِ الصَّغِيرِ: ٥/٢٠٩،

كَنْفُ الْخَفَاءِ: ١/٢١١ ح ٦٣٨، مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ لِلطَّبْرَسِيِّ: ٨، مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ لِابْنِ أَبِي الدُّنْيَا: ٦،

مُسْنَدُ الشَّهَابِ: ٢/١٩٢ ح ١١٦٤، تَكْمَلَةُ حَاشِيَةِ رَدِّ الْمَحْتَارِ: ١/٢٣٤.

حَسَنَ فَهُوَ مَحْبُوبٌ وَمُرَادُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ. «إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ رُكُنْ فَيَكُونُ»^(١).
إِذْ الْبَعْثَةُ كَائِنَةٌ وَمُتَحَقِّقَةٌ بِالْفِعْلِ.

وَسُئِلَ الْإِمَامُ جَعْفَرُ الصَّادِقُ عَنِ الدَّلِيلِ عَلَى الْبَعْثَةِ فَقَالَ:

«لَمَّا أَثْبِتْنَا أَنَّ لَنَا خَالِقًا مُتَعَالِيًّا عَنَّا، وَعَنْ جَمِيعِ مَا خَلَقَ، وَكَانَ ذَلِكَ الصَّانِعُ حَكِيمًا لَا يُشَاهِدُهُ خَلْقُهُ، فَلَا يَلَامُهُمْ وَلَا يَلَامُسُونَهُ، وَلَا يُبَاشِرُهُمْ وَلَا يُبَاشِرُونَهُ تَبَيَّنَ أَنَّ لَهُ سَفَرَاءَ فِي خَلْقِهِ وَعِبَادَهُ يُدْلُونُهُمْ عَلَى مَصَالِحِهِمْ وَمَنَافِعِهِمْ... وَهُمْ الْأَنْبِيَاءُ وَالصَّفَوَةُ مِنَ الْخَلْقِ».

البِزَاهِمَةُ:

وَقَالَ الْبِزَاهِمَةُ^(٢): لَا حَاجَةَ لِبَعْثَةِ الْأَنْبِيَاءِ، لِأَنَّ النَّبِيَّ إِمَّا أَنْ يَأْتِيَ بِمَا يُوَافِقُ الْعُقُولَ، وَإِمَّا بِمَا يُخَالِفُهَا، فَإِنْ جَاءَ بِمَا يُوَافِقُ لَمْ تَكُنْ إِلَيْهِ حَاجَةٌ، وَلَا فِيهِ فَائِدَةٌ، لِأَنَّ الْعَقْلَ يُغْنِي عَنْهُ، وَإِنْ جَاءَ بِمَا يُخَالِفُ وَجَبَ إِهْمَالُهُ وَرَدُّهُ.

وَالْجَوَابُ: أَنَّنَا لَا نَشْكُ أَنَّ الْعَقْلَ يُدْرِكُ حُسْنَ بَعْضِ الْأَفْعَالِ كَالصَّدَقِ وَالْعَدْلِ، وَقُبْحِ بَعْضِهَا كَالْكَذِبِ وَالظُّلْمِ - كَمَا أَسْلَفْنَا - وَهُوَ يَحْكُمُ أَيْضًا بِأَنَّ فَاعِلَ الْحَسَنِ يَسْتَحِقُّ الْمَدْحَ، وَمُرْتَكِبُ الْقَبِيحِ يَسْتَوْجِبُ الذَّمَّ، وَلَكِنْ هُنَاكَ أُمُورٌ كَثِيرَةٌ لَا يُدْرِكُهَا الْعَقْلُ، وَلَا يَحْكُمُ بِهَا سَلْبًا أَوْ إِيجَابًا، كَشَكْلِ الْعِبَادَاتِ الَّتِي تُقَرِّبُنَا مِنْ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَكَالْوَفَاءِ بِعَقْدِ الزَّوْاجِ وَالْبَيْعِ وَالْهَبَةِ، وَكَيْفِيَةِ تَقْسِيمِ الْمِيرَاثِ، وَنَوْعِ

(١) تيس: ٨٢.

(٢) قيل: أَنَّ الْبِزَاهِمَةَ طَائِفَةٌ فِي الْهِنْدِ تَنْتَسِبُ إِلَى بَرَهْمٍ أَحَدِ حُكَمَاءِ الْهِنْدِ الْقَدَامِيِّ. (مِنْهُ بَ).
أنظر، دَانِزَةُ مَعَارِفُ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ: ١٦١/٢، مَوْسُوعَةُ الْأَدْيَانِ فِي الْعَالَمِ / الدِّيَانَاتُ الْقَدِيمَةُ: ٩٢

العِقَاب الَّذِي يَسْتَحِقُّهُ الْمُجْرِمُ، وَكَحَقُوقِ الزَّوْجِ وَالزَّوْجَةِ، وَالْوَالِدِ وَالْوَلَدِ، وَالزَّوْجَةِ وَالزَّوْجِ، وَاللَّوْاطِ، وَأَحْكَامِ الشَّرَكَاتِ، وَالْبَلَدِيَّاتِ، وَالنَّقَابَاتِ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنْ حَاجَاتِ الْمُجْتَمَعِ الَّتِي لَا يَلْفُهَا إِلَّا خُصَاءٌ.

أَنَّ الْإِنْسَانَ يَمْتَازُ عَنِ الْجَمَادَاتِ وَالْحَيَوَانَاتِ بِأَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحْتَفِظَ بِكَيَانِهِ، وَيُحَقِّقَ غَايَةً مِنْ غَايَاتِهِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، كَالْإِنْسَانِ اجْتِمَاعِيٍّ إِلَّا بِشَرِيعَةٍ عَادِلَةٍ وَاعِيَةٍ يَخْضَعُ لَهَا فِي سُلُوكِهِ وَأَفْعَالِهِ. وَهَذِهِ الظَّاهِرَةُ لَأَزَمَتِ الْمَدَنِيَّاتِ وَالْحَيَاةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ مُنْذُ وَجُودِهَا حَتَّى الْيَوْمِ، وَسَتَلَازِمُهَا إِلَى آخِرِ سَاعَةٍ.

مَنْ هُوَ الْمُشْرِعُ؟

وَهُنَا سُؤَالٌ يَفْرُضُ نَفْسَهُ: مِنْ أَيْنَ تُسْتَمَدُّ قُوَّتُهَا هَذِهِ الشَّرِيعَةُ؟ وَمَنْ الَّذِي يَجِبُ أَنْ نَأْخُذَهَا عَنْهُ، وَنَرْجِعَ بِهَا إِلَيْهِ؟

وَتَقَدَّمَ مَعَنَا أَنَّنَا لَا نَسْتَمْدُهَا مِنَ الْعَقْلِ وَحْدَهُ كَمَا يَدَّعِي الْبِرَاهِمَةُ، فَالْعَقْلُ لَا يَلْزِمُكَ أَنْ تَتَحَمَلَ مَرَارَةَ الْعَيْشِ وَمَتَاعِبَ الْحَيَاةِ مِنْ أَجْلِ زَوْجَتِكَ وَتَرْبِيَةِ أَوْلَادِكَ، وَأَنْ تَعْمَلَ لَيْلَ نَهَارٍ تَغْرُسُ وَتَبْنِي لِلْأَجْيَالِ الْمُقْبِلَةِ الَّتِي لَا يَرْبُطُكَ بِهَا رَابِطٌ بَعْدَ أَنْ تُفَارِقَ الْحَيَاةَ، وَعَقْلُكَ لَا يَلْزِمُكَ أَيْضًا بِأَنْ تُضْحِيَ بِدِمَائِكَ وَأَمْوَالِكَ وَأَوْلَادِكَ فِي سَبِيلِ وَطَنٍ وُلِدْتَ فِيهِ، وَأَرْضِ اللَّهِ وَاسِعَةِ الْقَضَاءِ. هَذَا، إِلَى أَنْ أَكْثَرَ مَنْ يَدْعُونَ النَّظَرَ، وَالتَّفَكُّيرَ يَشْرَحُونَ بِمَنْطِقِ الْعَقْلِ - كَمَا يَزْعُمُونَ - حَوَادِثَ لَا تَمُتُ إِلَيْهِ بَصَلَةٌ. وَفِي كُلِّ يَوْمٍ نَسْمَعُ وَنَرَى الْعَشْرَاتِ مِنَ الْمُتَعَلِّمِينَ وَغَيْرِ الْمُتَعَلِّمِينَ يَفْعَلُونَ وَيَتْرَكُونَ بِدَافِعٍ مِنْ عَاطِفَتِهِمْ وَرَغْبَتِهِمْ، وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّ مَا أَقْدَمُوا عَلَيْهِ، وَأَحْجَمُوا عَنْهُ كَانَ بِإِمْلَاءِ الْعَقْلِ وَحْدَهُ، وَأَنَّهُمْ لَا يَأْتَمِرُونَ إِلَّا بِأَمْرِهِ،

وَلَا يَنْتَهُونَ إِلَّا بِنَهْيِهِ .

وَقَدْ يُقَالُ : نَأْخُذُ الشَّرِيعَةَ مِنَ الْفَلَسَفَةِ ، وَنُجِيبُ : أَنْ لِلْفَلَسَفَةِ مَذَاهِبَ شَتَّى فَعَلَى أَيِّهَا نَعْتَمِدُ ، عَلَى الْفَلَسَفَةِ الْمَثَالِيَةِ أَوِ الْمَادِيَّةِ ، ثُمَّ بِأَيِّهِ مَثَالِيَّةٌ نَأْخُذُ ، بِالْمَثَالِيَّةِ الْقَائِلَةِ بِأَنَّهُ لَا وَجُودَ لِلطَّبِيعَةِ أَبَدًا إِلَّا فِي خَيَالِنَا وَأَذْهَانِنَا ، أَوِ بِالْمَثَالِيَّةِ الرَّاعِمَةِ بِأَنَّ الطَّبِيعَةَ مَوْجُودَةً ، وَلَكِنْ الْعَقْلُ يَعْجَزُ عَنْ إِدْرَاكِهَا ، وَإِذَا تَرَكْنَا هَذِهِ وَرَجَعْنَا إِلَى الْفَلَسَفَةِ الْمَادِيَّةِ ، فَهَلْ نَعْتَمِدُ الْمَادِيَّةَ الْمِيكَانِيكِيَّةَ أَوِ الدِّيَالِكْتِيكِيَّةَ ^(١) .

أَوْ يُقَالُ : نَأْخُذُ الشَّرِيعَةَ مِنَ الْعِلْمِ . وَكَلَّنَا نَعْرِفُ أَنَّ الْعِلْمَ لَا شَأْنَ لَهُ بِالشَّرِيعَةِ وَالتَّشْرِيعِ ، وَإِنَّمَا يَكْشِفُ عَنْ قُوَى الطَّبِيعَةِ ، وَحَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ وَخَوَاصِّهَا ، وَمَا يَنْتُجُ عَنْهَا ، عَلَى أَنَّ الْعِلْمَ فِي هَذَا الْعَصْرِ قَدَّمَ لَنَا الْقُنَابِلَ ، وَالْمُدْمَرَاتِ ، وَالنَّاسَفَاتِ ، وَاتَّخَذَ مِنْهُ الْمُحْتَكَرُونَ وَالْمُسْتَغْلُونَ أَدَاةَ اللُّصُوصِيَّةِ وَالْقَرَصَةِ .

أَوْ يُقَالُ : نَأْخُذُ التَّشْرِيعَ مِنَ الْمُلُوكِ وَالْأُمَرَاءِ ، كَمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ مِنْ قَبْلِ . أَجَلَ لَقَدْ بَنَى فِرْعَوْنُ مَضَرَ الْأَهْرَامِ ، وَأَنْفَقَ عَلَيْهِ مَا يَبْنِي أَكْثَرَ مِنْ سَدِّ عَالٍ ، بَنَاهُ لَا لِيُطْعِمَ الْجَائِعِينَ ، بَلْ لِيَحْفَظَ جُسَّتَهُ وَجُثَّتْ ذَوِيهِ وَحَاشِيَّتَهُ بَعْدَ الْمَوْتِ . وَكُلَّ الْمُلُوكِ وَالْأُمَرَاءِ فِرَاعَتَهُ وَمَلَاعَتَهُ .

أَوْ يُقَالُ : نَأْخُذُ الْقَوَانِينَ مِنَ الْبَرْلَمَانَاتِ وَالْهَيَّاتِ الدَّوْلِيَّةِ .

وَجَوَابُنَا أَنَّ عُصْبَةَ الْأُمَمِ أَقَرَّتْ إِعْتِدَاءَ مُوسُولِنِي عَلَى الْحَبْشَةِ وَالْبَانِيَا . وَأَقَرَّ مَجْلِسُ الْعُمُومِ الْبَرِيطَانِي ، وَالْبَرْلَمَانُ الْفَرَنْسِي إِحْتِلَالَ هِتْلَرِ لِتَشْيِكُوسْلُوفَاكِتَا

(١) الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ الْمِيكَانِيكِيَّةَ تُفَسِّرُ الْوُجُودَ تَفْسِيرًا آتِيًا مَحْضًا ، وَتَخْضَعُ كُلُّ كَائِنٍ لِقَوَانِينِ صَارِمَةٍ يَسْتَجِيبُ تَغْيِيرَهَا أَوْ تَبْدِيلَهَا تَتَامَا كَالْأَجْرَامِ السَّمَاوِيَّةِ الَّتِي تَدُورُ فِي أَفْلَاكِهَا بِرِتَابَةٍ وَلَا تُجِيدُ عَنْهَا قَيْدَ شِعْرَةٍ عَلَى الْعَكْسِ مِنَ الْمَادِيَّةِ الدِّيَالِكْتِيكِيَّةِ فَإِنَّهَا تَنْمُو وَتَتَطَوَّرُ عَلَى الدَّوَامِ ، وَبَيْنَاتُجَاهَا تَتَفَاعَلُ وَتَتَبَادَلُ التَّأْثِيرَ ، وَتَأْتِي بِنَتَائِجٍ أُخْرَى ، وَهَكَذَا إِلَى مَا لَا نَهَآيَةَ . (مِنْهُ ﷺ) .

قُبِيلَ الْحَرْبِ الثَّانِيَةِ، كَمَا أَقَرَّتِ الْأُمَمُ الْمُتَّحِدَةُ الْحَرْبَ فِي كُورِيَا، وَإِعْتَدَاءَ إِسْرَائِيلَ عَلَى فَلَاسْطِينَ، وَإِعْتَرَفَتْ بِفِرْمُوزَا، وَأَنْكَرَتْ الصِّينَ الشَّعْبِيَّةَ.

أَنَّ أَكْثَرَ الْقَوَانِينِ الْحَدِيثَةِ الَّتِي أَقَرَّتْهَا أَمْثَالُ هَذِهِ الْهَيْئَاتِ قَدْ وَضَعَتْ لَصَالِحِ لِفَنَاتٍ وَأَسْتَغْلَالِ الْأَقْلِيَّةِ لِلْأَكْثَرِيَّةِ. أَمَّا مَا نَرَاهُ فِي بَعْضِ الْقَوَانِينِ مِنْ حَقُوقِ الْعُمَالِ، وَالضَّمَانِ الْاجْتِمَاعِيِّ بِزَعْمِ وَاضِعِهَا فَلَا تَجْتَسِ الْمُسْكَلَةُ مِنَ الْجُذُورِ لِأَنَّهَا وَضَعَتْ عَلَى أَسَاسِ النَّظَامِ الْاِقْتِصَادِيِّ الْمَوْجُودِ. وَأَغْرَبَ مَا فِي هَذِهِ الْقَوَانِينِ أَنَّهَا تَحْتَوِي عَلَى مَوَادٍ تَبَعَتْ عَلَى التَّسْوُلِ وَالتَّشْرِدِ، وَمَوَادٍ أُخْرَى تَنْصَرُّ عَلَى عَقُوبَةِ الْمُتَسَوِّلِينَ وَالْمُتَشَرِّدِينَ، فَهِيَ تَخْلُقُ الْإِجْرَامَ وَتُعَاقِبُ عَلَيْهِ فِي آنٍ وَاحِدٍ، وَصَدَقَ الْقُرْءَانُ الْكَرِيمُ: «وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا»^(١).

إِذَنْ، نَحْنُ فِي حَاجَةٍ إِلَى نِظَامٍ لَا يَسْتَمِدُّ قُوَّتَهُ مِنَ الْمَذَاهِبِ الْفَلَسَفِيَّةِ، وَلَا مِنْ أَصْحَابِ الْمَصَانِعِ وَالشَّرَكَاتِ الْاِحْتِكَارِيَّةِ، وَلَا مِنْ الْمَجَالِسِ وَالْهَيْئَاتِ السِّيَاسِيَّةِ. وَكَيْفَ تُؤْخَذُ الْقَوَانِينُ وَالْأَحْكَامُ مِنَ الْمَصَالِحِ وَالْمَنَافِعِ الصَّخِيَّةِ؟! وَمَنْ الَّذِي يَقْبَلُ شَهَادَةَ مَنْ يَجْرُ النَّارُ إِلَى قُرْصِهِ وَيَبْتَغِي النِّفْعَ مِنْ شَهَادَتِهِ؟! وَآيَةُ هَيْئَةٍ مَهْمَا بَلَغَتْ مَقْدَرَتَهَا وَفُطِنَتْهَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَأْتِيَ بِنِظَامٍ يَتَنَاسَبُ بِأُسُسِهِ وَمَبَادِيهِ مَعَ جَمِيعِ الْعُصُورِ وَالشُّعُوبِ وَالْفِئَاتِ وَفِي كَافَّةِ الْأَحْوَالِ؟! كَمَا هِيَ الْحَالُ فِي الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ.

وَالنَّاتِجَةُ الْمَنْطِقِيَّةُ لِذَلِكَ أَنَّ لَا غِنَى لِلنِّظَامِ السَّلِيمِ وَالشَّرِيعَةِ الصَّحِيحَةِ مِنَ الْاِعْتِمَادِ عَلَى قُوَّةِ مُدْرَكَةٍ عَالَمَةٍ بِمَا يَنْفَعُ الْإِنْسَانَ وَيَضُرُّهُ، وَيُصْلِحُهُ وَيُفْسِدُهُ وَغُنْيَةٍ مُنْزَهَةٍ عَنِ الْغَايَاتِ وَعَنْ كُلِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ النِّفْعِ، وَلَا يَتَوَفَّرُ هَذَا الْعُنْصَرَانِ

إِلَّا بِالْوَحْيِ مِنْ اللَّهِ الْعَنِيِّ الْعَلِيمِ: ﴿فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾^(١).

وَمِنْ هُنَا يَتَبَيَّنُ الْخَطَأُ فِيمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْبَرَاهِمَةُ مِنَ الْإِكْتِفَاءِ بِالْعَقْلِ عَنِ الشَّرْعِ^(٢) أَجَلٌ، يَجِبُ أَنْ لَا يَكُونَ فِي الشَّرْعِ شَيْءٌ يُخَالِفُ الْعَقْلَ وَيُنَاقِضُهُ.

دَلَائِلُ الثَّبُوتِ:

تُعَرَفُ نُبُوءَةُ النَّبِيِّ بِأُمُورٍ ثَلَاثَةٌ:

١- أَنْ لَا يُقَرَّرَ مَا يُخَالِفُ الْعَقْلَ وَالْوَاقِعَ، كَتَعَدُّدِ الْأَلْهَةِ، وَأَنَّ الْأَرْضَ لَيْسَتْ كَرُوبَةٍ، وَأَنْ تَتَّفَقَ تَعَالِيمُهُ مَعَ الْفِطْرَةِ، وَلَا تَتَنَافَى مَعَ الْغَرَائِزِ الْبَشَرِيَّةِ وَطَبَائِعِهَا، كَتَحْرِيمِ الزَّوَاجِ وَذَمِّ الْعِلْمِ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ.

٢- أَنْ تَكُونَ دَعْوَتُهُ طَاعَةَ اللَّهِ، وَخَيْرًا لِلْإِنْسَانِيَّةِ.

٣- أَنْ يَظْهَرَ عَلَى يَدِهِ مُعْجَزَةٌ تَظْهَرُ صِدْقَ دَعْوَاهُ.

وَقَالَ الْمُتَكَلِّمُونَ فِي تَعْرِيفِ الْمُعْجَزَةِ: أَنَّهَا ثُبُوتُ مَا لَيْسَ بِمُعْتَادٍ مَعَ خَرَقِ الْعَادَةِ، كَانْقِلَابِ الْعَصَا حَيَّةً، أَوْ نَفْيِ مَا هُوَ مُعْتَادٌ، كَمَنْعِ الْقَوْلِ عَنْ رَفْعِ أَخْفِ الْأَشْيَاءِ، كَالرِّيشَةِ^(٣) وَسَرَرِيٍّ فِيمَا يَأْتِي مُعْجَزَةٌ مُحَمَّدٌ وَأَنَّهَا الْحَقُّ وَالصُّدُقُ فِي كُلِّ مَا أَتَى بِهِ، وَأَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ.

(١) أَلَسَاءُ: ٥٩.

(٢) تَرْضَانَا فِي كِتَابِ «الْإِسْلَامُ مَعَ الْحَيَاةِ» لِقَوْلِ الْبَرَاهِمَةِ عِنْدَمَا تَكَلَّمْنَا عَنِ الْوَحْيِ، وَأَجَبْنَا عَنْهُ بِأَسْلُوبٍ آخَرَ. (مِنْهُ ﷺ).

(٣) قَالَ عَلَمَاءُ الْإِسْلَامِ: أَنَّ الْمُعْجَزَةَ تَتَّفِدُ عَنِ الْكَرَامَةِ بِأَنَّ الْأُولَى لَا تَظْهَرُ إِلَّا عَلَى يَدِ الْأَنْبِيَاءِ، وَلِذَا يَشْتَرِطُ فِيهَا التَّحَدِيَّ بِأَنْ يَقُولَ النَّبِيُّ لِمَنْ بُعِثَ إِلَيْهِمْ: إِنْ لَمْ تَقْبَلُوا قَوْلِي فَأَقْبَلُوا مِثْلَ هَذَا الْفِعْلِ، أَمَّا الْكَرَامَةُ فَتَظْهَرُ عَلَى يَدِ الصَّالِحِينَ وَالْأَوْلِيَاءِ مِنْ غَيْرِ تَعَدُّ، كَقِصَّةِ مَرْيَمَ وَحَمَلُهَا بِالسَّيِّدِ الْمَسِيحِ. (مِنْهُ ﷺ).

مُعْجَزَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ

رَوَى الْمَجْلِسِيُّ فِي كِتَابِ الْبَحَارِ عَنْ كِتَابِ الْمَنَاقِبِ أَنَّهُ كَانَ لِمُحَمَّدٍ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ مَا لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، وَقَدْ بَلَغَتْ أَرْبَعَةَ آلَافٍ وَأَرْبَعِمِئَةٍ وَأَرْبَعِينَ مُعْجَزَةً، وَأَنَّهَا تَنْقَسِمُ إِلَى أَرْبَعَةِ أَنْوَاعٍ:

النَّوعُ الْأَوَّلُ: كَانَ قَبْلَ مِيلَادِهِ.

وَالثَّانِي: بَعْدَ مِيلَادِهِ.

وَالثَّالِثُ: بَعْدَ بَعْثِهِ.

وَالرَّابِعُ: بَعْدَ وَفَاتِهِ^(١).

وَسَوَاءٌ أَكَانَ لَهُ كُلُّ هَذِهِ الْمُعْجَزَاتِ أَوْ بَعْضُهَا، فَلَسْنَا بِحَاجَةٍ إِلَيْهَا مَا دَامَ الْقُرْءَانُ الْكَرِيمَ، وَشَرِيعَةُ الْإِسْلَامِ وَشَخْصِيَّةُ مُحَمَّدٍ أَقْوَاهَا وَأَبْقَاهَا^(٢). وَلِلَّهِ دَرَمَنُ قَالَ: «وَمَا الشَّهَادَةُ لِلنَّبُوَّةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ نَفْسُ النَّبِيِّ أَبْلَغَ نَفُوسَ قَوْمِهِ، حَتَّى لَهُو فِي طِبَاعِهِ وَشَمَائِلِهِ طَبِيعِيَّةٌ قَائِمَةٌ وَحْدَهَا، كَأَنَّهَا الْوَضْعُ النَّفْسَانِي الدَّقِيقُ الَّذِي يَنْصَبُ لِیُصَحِّحَ الْوَضْعَ الْمَغْلُوطَ لِلْبَشَرِيَّةِ».

(١) أنظر، بحار الأنوار: ٣٠١/١٧ ح ١٣، مناقب آل أبي طالب: ١١٧/٨.

(٢) أنظر، إعجاز القرآن، الباقلائي: ١٦، وما بعدها، وكتب إعجاز القرآن كثيرة.

وَهَذِهِ هِيَ بِالضَّبْطِ نَفْسُ مُحَمَّدٍ وَأَخْلَاقِهِ، أَنَّهَا آيَةُ كُبْرَى تُثَبِّتُ صِدْقَهُ لَدَى الْعَارِفِينَ الْمُتَصِفِينَ، وَتُصَحِّحُ الْوَضْعَ الْمَغْلُوطَ، أَمَّا أَهْلُ الْعِبَادَةِ وَالْبَلَاءِ، أَمَّا الْمَكَابِرُونَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُشَاهِدُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُشَاهِدُوا بِأَعْيُنِهِمْ انْشِقَاقَ الْقَمَرِ^(١)، وَتَكَلَّمَ الْحَصَى وَالشَّجَرِ^(٢)، أَمَّا هَؤُلَاءِ وَمَنْ إِلَيْهِمْ فَلَا خَيْرَ فِيهِمْ وَلَا فِي إِيْمَانِهِمْ، أَنَّهُمْ تَمَامًا كَبَتِي إِسْرَائِيلَ، آمَنُوا بِمُوسَى، وَعِنْدَمَا رَأَوْا قَوْمًا: «يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَنْمُوسَى أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَرِّئٌ مِمَّا هُمْ فِيهِ وَبَطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ قَالَ أَعِزَّ إِلَهُ أَبْعِيكُمْ إِلَيْهَا وَهُوَ فَضْلُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ^(٣)».

وَقَدْ يَتَسَاءَلُ: كَيْفَ فَضَّلَ اللَّهُ الْيَهُودَ عَلَى عَالَمِي زَمَانِهِمْ، وَهَذَا شَأْنُهُمْ! وَأَجِيبْ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ بِأَنَّ التَّفْضِيلَ لَمْ يَكُنْ لَصِفَةٍ حَسَنَةٍ فِيهِمْ، وَإِنَّمَا فَضَّلُوا بِأَنَّ مُوسَى مِنْهُمْ، وَبِنَجَاتِهِمْ مِنْ أَذَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِي الْآيَةِ الْأَحَقَّةِ: «وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتَلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ»^(٤).

(١) أنظر، صحيح البخاري: ١٣٣٠/٣ ح ٣٤٣٧، صحيح مسلم: ٢١٥٨/٤ ح ٢٨٠٠، تفسير القرطبي: ١٢٦/١٧، تفسير الطبري: ٨٤/٢٧، صحيح ابن حبان: ٤٢٠/١٤ ح ٦٤٩٥، تفسير ابن كثير: ٤٤١/٣، فتح الباري: ١٥٨/٧، البداية والنهاية: ٣٣٧/٢، السيرة النبوية لابن هشام: ١٥٤/١، السيرة النبوية لابن كثير: ٢٣٠/١، سبل الهدى والرشاد: ٥٠/٢.

(٢) أنظر، صحيح البخاري: ١٣١٢/٣ ح ٢٣٨٦، سنن الترمذي: ٥٩٧/٥ ح ٣٦٢٣، سنن ابن خزيمة: ١٠٢/١ ح ٢٠٣، تفسير القرطبي: ٢٦٨/١٠، تفسير ابن كثير: ٤٣/٣، صحيح ابن حبان: ٤٢٤/١٤ ح ٦٥٠٤، مورد الطنات: ٥١٩/١ ح ٢١٠٩، مجمع الزوائد: ٢٩٢/٨.

(٣) الأنغراف: ١٣٨-١٤٠.

(٤) الأنغراف: ١٤٢.

وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ نَجَاتِهِمْ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ، وَتَحَرَّرَهُمْ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ فَمَا أَنْتَقَلَ مُوسَى إِلَى رَبِّهِ حَتَّى: «وَأَتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ خَلْقِهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ، خَوَارُ أَلَمْ يَذَوُا أَنَّهُ لَا يَكْلِمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ»^(١).

وَقَدْ أَبْطَلِي مُحَمَّدًا بِأَمْثَالِ هَؤُلَاءِ، وَبِأَشَدِّ مِنْهُمْ تَوْحُشًا. قَالَ صَاحِبُ كِتَابِ الْبَحَارِ: «أَنَّ جَمَاعَةً جَاءُوا إِلَى الرَّسُولِ، فَقَالَ لَهُ أَحَدُهُمْ - مَالِكُ بْنُ الصَّيْفِيِّ -: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى يَشْهَدَ لَكَ هَذَا الْبَسَاطُ الَّذِي نَجْلِسُ عَلَيْهِ، وَقَالَ آخَرُ - أَبُو لِبَابَةَ أَيْنَ عَبْدِ الْمُنْذَرِ -: لَا أَصْדَقُكَ حَتَّى يَغْتَرِفَ لَكَ هَذَا السَّوْطُ الَّذِي فِي يَدِي. وَقَالَ ثَالِثٌ - كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ -: وَأَنَا لَا أَقْرَ لَكَ التُّبُوهُ حَتَّى يَنْطِقَ حِمَارِي هَذَا الَّذِي أَرْكَبُهُ بِأَنَّكَ عَلَى حَقٍّ. ثُمَّ قَالَ صَاحِبُ الْبَحَارِ: بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ مُحَمَّدًا قَالَ لَهُمْ: لَيْسَ لَنَا أَنْ نَفْتَرِحَ عَلَى اللَّهِ، وَإِنَّمَا عَلَيْنَا التَّسْلِيمَ وَالْإِتْقَادَ لِأَمْرِهِ، فَقَدْ أَلْقَى كُلٌّ مِنَ الْبَسَاطِ، وَالسَّوْطِ كُلَّمَا طَوِيلَتْ، وَهَدَّدَ السَّوْطُ صَاحِبَهُ بِالضَّرْبِ حَتَّى الْمَوْتَ، وَالْحِمَارُ رَاكِبَهُ بِالرَّفْسِ حَتَّى الْهَلَاكِ»^(٢).

وَمَهْمَا يَكُنْ، فَإِنَّ الَّذِي جَاءَ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لَا يَحْتَاجُ إِلَى شَهَادَةِ الْحَمِيرِ، وَالسَّيَاطِ، وَالْبَسَاطِ. وَإِنْ دَلَّتْ هَذِهِ الرِّوَايَةُ عَلَى شَيْءٍ فَإِنَّهَا تَدُلُّ عَلَى مَا كَانَ يُلَاقِيهِ الرَّسُولُ مِنَ الْمُكَابِرِينَ وَالْمُتَعَنِّتِينَ. وَقَدْ جَاءَ: «وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَدْعُوعًا أَوْ تُكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءُ كَمَا رَعِمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى

(١) الْأَعْرَافُ: ١٤٨.

(٢) أَنْظِرْ، بَحَارُ الْأَنْوَارِ: ١٧/٣٠٢ ح ١٤.

تُنَزِّل عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا^(١).

وَجَاءَ فِي الْآيَةِ : «وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكِيَّةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لَيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا^(٢)».

أَرَأَيْتَ إِلَى هَذِهِ الْقُلُوبِ ؟ ! إِلَى هَذَا الدَّاءِ الْأَصِيلِ الَّذِي لَا دَوَاءَ لَهُ إِلَّا الْمَوْتُ ؟ ! وَهَلْ سَمِعْتَ بَصَلَاةً وَغَوَايَةَ أَشَدَّ مِنْ هَذِهِ ؟ ! وَبِأَيِّ لَفْظٍ نَعْتَرُ عَنْ هَؤُلَاءِ ؟ ! أَنَّهُمْ لِنَاِمٍ وَكَفَى ، فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ، وَإِنْ كَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى أَوْ أَتَاهُمْ اللَّهُ وَالْمَلَأَكَّةُ وَالنَّاسُ أَجْمَعِينَ .

وَهَؤُلَاءِ الشَّيَاطِينُ مَوْجُودُونَ فِي كُلِّ طَائِفَةٍ وَكُلِّ بَلَدٍ وَكُلِّ زَمَانٍ . أُبْتَلِيَ بِهِمْ مُحَمَّدٌ بِالْأَمْسِ ، وَالْمُخْلِصُونَ الْيَوْمَ ، وَسَيَبْتَلِي بِهِمْ كُلُّ طَيْبٍ عَذًّا . تَأْتِيهِمُ بِالْحَقِيقَةِ فَيَقُولُونَ لَكَ : وَلَكِنْ لِمَاذَا كَانَ كَذَا ، وَلَمْ يَكُنْ كَيْت ؟ ! وَتُجَابِهِمُ بِالْمَنْطِقِ الَّذِي لَا سَبِيلَ إِلَى رَدِّهِ وَإِنْكَارِهِ فَيَأْبُونَ إِلَّا التَّعَنُّتَ وَالْمُكَابَرَةَ ، وَتُكَافِحُ الْإِسْتِعْمَارَ وَالْإِقْطَاعَ وَالْعُمَلَاءَ فَيَقُولُونَ تَجَاوَزْتَ الْحُدُودَ ، وَتَدْعُو إِلَى الدِّينِ فَيَقُولُونَ طَائِفِي مُتَعَصِّبٌ ، وَتَسْكُتُ فَيَقُولُونَ سَلْبِي إِنْغَزَالِي . وَمَا دَامُوا كَذَلِكَ فَمَا عَلَيْكَ إِذَنْ إِلَّا أَنْ تَشَدَّ مِنْ عَزْمِكَ وَتَمْضِيَ فِي طَرِيقِكَ .

وَنَحْنُ لَا نَعْجَبُ وَلَا نَسْتَعْرَبُ مِنْ مَوْقِفِ هَؤُلَاءِ ، لِأَنَّا عَلَى يَقِينٍ بِأَنَّهُمْ لَيْسُوا مِنْ دَوِيِّ الْعَقَائِدِ وَالْمَبَادِيءِ . أَنَّ صَاحِبَ الْمَبْدَأِ لَا يَفْتَرِي وَلَا يَخْتَلِقُ الْأَكَاذِيبَ ،

(١) الْإِنْشَاء : ٩٠ - ٩٣ .

(٢) الْأَنْعَام : ١١١ - ١١٢ .

فَثَقَّتْهُ بِعَقِيدَتِهِ تُغْنِيهِ عَنِ التَّزْيِيفِ وَالتَّلْفِيقِ، وَصَاحِبِ الْمَبْدَأِ لَا يَسْتَنْكَرُ مِنْ غَيْرِهِ مَا يَرْضِيهِ لِنَفْسِهِ، وَلَا يَسْتَعْمَلُ الْعُنْفَ، وَلَا يَنْهَشُ لَحُومَ الْغَائِبِينَ، بَلْ يَنْصَحُ وَيَصْفَحُ، وَيَتَمَنَّى لِنَفْسِهِ، وَيَسْأَلُ اللَّهَ الْهَدَايَةَ لَهُ وَلِلنَّاسِ كَافَّةً، وَبِكَلِمَةٍ أَنَّ أَصْحَابَ الْمَبَادِيءِ يَتَجَنَّبُونَ الْأَقْدَارَ وَالْأَوْرَارَ.

وَنَعُودُ إِلَى رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ، وَمَا يَدْعُمُهَا مِنْ أَدَلَّةِ الْعَقْلِ وَهِيَ تَفُوقُ الْحَصْرَ وَلَا يَبْلُغُهَا الْإِحْصَاءَ، كَانَتْ فِي عَهْدِهِ وَمَا زَالَتْ حَتَّى الْآنَ يَسْتَطِيعُ النَّظَرُ إِلَيْهَا مَنْ شَاءَ، فَهَذَا الْقُرْءَانُ الْكَرِيمُ، وَشَرِيعَةُ الْإِسْلَامِ، وَسِيرَةُ الرَّسُولِ فِي مُتَنَاولِ كُلِّ يَدٍ، فَعَلَى طَالِبِ الْحَقِيقَةِ أَنْ يَقْرَأَ وَيَتَدَبَّرَ، أَمَّا الْقَوْلُ تَعْصَبًا وَبَغْيَرٍ عِلْمٌ فَهُوَ جَوْرٌ وَفِتْنَةٌ وَتَضْلِيلٌ.

وَسَنَرَوِي فِي الْفَضْلِ الثَّالِي قِصَّةَ دُكْتُورٍ مَسِيحِيٍّ مِنْ أَقْبَاطِ مَصرَ، أَطْلَعَ عَلَى الْأَدْيَانِ وَقَارَنَ بَيْنَهَا، وَأَتَمَّنَّهِيَ إِلَى الْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ، وَوَضَعَ كِتَابًا لِلدِّفَاعِ عَنْ رِسَالَتِهِ. وَأَرَاهُنَّ أَنَّ مَنْ قَرَأَ هَذَا الْكِتَابَ لَا بُدَّ أَنْ يُؤْمِنَ بِكُلِّ مَا جَاءَ فِيهِ، مِنْ حَيْثُ يُرِيدُ أَوْ لَا يُرِيدُ، لِأَنَّ الْوَاقِعَ يَفْرُضُ نَفْسَهُ. وَقَبْلَ أَنْ نَسْتَقِلَّ إِلَى قِصَّةِ الْكِتَابِ وَصَاحِبِهِ وَإِلَى الْكَلَامِ عَنِ الْقُرْءَانِ وَبَعْضِ خَصَائِصِ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ نُشِيرُ إِلَى حَقِيقَتَيْنِ تَتَصَلَّانِ بِنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ وَصِدْقِ رِسَالَتِهِ:

١- مِنَ الْآرَاءِ السَّائِدَةِ الْيَوْمَ أَنَّ الْهَدَفَ الَّذِي يُؤَلَّفُ بَيْنَ الْمُجْتَمَعِ، أَيْ مُجْتَمَعٍ، لَا بُدَّ أَنْ يَتَّصَلَ مِنْ قُرْبٍ أَوْ بُعْدٍ الْعَلَاqَاتِ الْاِقْتِصَادِيَّةِ، وَالضَّرُورَاتِ الْمَادِيَّةِ، وَأَنَّ أَيْ إِصْلَاحَ أَوْ حَرَكَةَ لَا يُكْتَبُ لَهَا التَّجَاحُ وَالِدَّوَامُ إِلَّا إِذَا قَامَتْ عَلَى عُنْصَرٍ مَادِيٍّ. سِوَاكَ أَكَانَ الْقَائِمُ بِهَا سِيَاسِيٌّ أَوْ دِينِيٌّ أَوْ فَلَاسَفَةٌ.

وَعَلَى هَذَا الْمَنْطِقِ يَحِقُّ لَنَا الْقَوْلُ بِأَنَّ نَجَاحَ مُحَمَّدٍ فِي دَعْوَتِهِ يَنْبَغِي أَنْ يُعَدَّ مِنْ

أَهْمُ الْمُعْجَزَاتِ وَخَوَارِقِ الْعَادَاتِ، لِأَنَّ رِسَالَتَهُ قَامَتْ فِي يَدِهَا عَلَى نَبْذِ الْأَصْنَامِ وَعِبَادَةِ مَبْدَأِ أَعْلَى، وَعَلَى الْإِيمَانِ بِالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ بَعْدَ الْمَوْتِ، فَدَعَوَتُهُ وَالْحَالُ هَذِهِ، كَانَتْ دَعْوَةً غَيْبِيَّةً بِدَافِعٍ مِنْ حَاجَاتِ الْعَقْلِ وَالرُّوحِ أَيْ أَنَّهَا دَعْوَةٌ مِيتَا فِيزِيْقِيَّةٌ، وَعَلَيْهِ لَا مَنَاصَ مِنْ أَحَدٍ أَمْرَيْنِ: إِمَّا الْإِيمَانَ وَالتَّصَدِيقَ بِنُبُوءَةِ مُحَمَّدٍ لظُهُورِ هَذِهِ الْمُعْجَزَةِ عَلَى يَدِهِ، وَإِمَّا الْأَعْتِرَافَ أَنَّ الضَّرُورَةَ الْاِقْتِسَادِيَّةَ لَيْسَتْ كُلُّ شَيْءٍ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ نَدْخُلَ فِي حِسَابِنَا عَنَاصِرَ أُخْرَى، وَمِنْ أَهْمَتِهَا دَعْوَةُ الْأَنْبِيَاءِ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ.

٢- أَنْ كُلَّ مَنْ أَعْتَرَفَ بِمَبْدَأِ النَّبُوءَةِ مِنْ حَيْثُ هُوَ، وَآمَنَ بِنُبُوءَةِ نَبِيِّ وَاحِدٍ كَانَتْ أَمِنْ كَانَ يُلْزَمُهُ فَهَرَأُ أَنْ يَعْتَرِفَ وَيُؤْمِنَ بِنُبُوءَةِ مُحَمَّدٍ، وَمَنْ أَنْكَرَ نُبُوءَةَ مُحَمَّدٍ يُلْزَمُهُ أَنْ يُنْكَرَ نُبُوءَةَ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ وَرِسَالَتَهُ جَمِيعِ الرُّسُلِ، لِأَنَّ مَا مِنْ صِفَةٍ أَوْ آيَةٍ كَانَتْ لِنَبِيِّ إِلَّا كَانَ لِمُحَمَّدٍ مِثْلَهَا أَوْ أَعْظَمُ مِنْهَا، وَقَدْ قِيلَ: «مَا حَصَلَ بِهِ الْإِتِّفَاقُ لَا يَكُونُ سَبَبًا لِلْإِفْتِرَاقِ» فَإِذَا قُلْتَ: كُلُّ إِنْسَانٍ فَإِنْ، فَلَا يَحَقُّ لَكَ أَنْ تُفَرِّقَ فِي هَذَا الْحُكْمِ بَيْنَ زَيْدٍ وَعَمْرٍو، فَتَقُولَ: هَذَا فَإِنْ، وَذَاكَ بَاقٍ. لِأَنَّ الْقَانُونَ الْعَامَّ يَصْدُقُ عَلَى الْجَمِيعِ. وَصَدَّقَ اللَّهُ حَيْثُ قَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾^(١).

أَنْ مَنْ يُؤْمِنُ بِبَعْضِ الرُّسُلِ دُونَ بَعْضٍ فَهُوَ كَافِرٌ بِاللَّهِ بِحُكْمِ الْقُرْآنِ، إِذْ لَوْ كَانَ صَادِقًا فِي إِيْمَانِهِ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ لَصَدَّقَ جَمِيعَ رُسُلِهِ، لِأَنَّ الدَّلِيلَ الَّذِي دَلَّ عَلَى نُبُوءَةِ الْبَعْضِ قَدْ دَلَّ فِي نَفْسِ الْوَقْتِ عَلَى أَوَّلِ النَّبُوءَةِ مِنْ حَيْثُ الْمَبْدَأُ، فَإِذَا صَدَقْنَا

الْبَعْضُ لَزِمَتْنَا الْحُجَّةَ بِالْأَلَا نُكَذِّبُ الْبَعْضَ الْآخَرَ، وَإِلَّا كَانَ إِنْكَاراً بِلَا سَبَبٍ،
وَتَفَاضُلاً بِلَا مُوجِبٍ.

وَمِنْ هُنَا آمَنَ الْمُسْلِمُونَ بِالْأَنْبِيَاءِ جَمِيعاً دُونَ اسْتِثْنَاءٍ، وَفِي طَلِيعَتِهِمْ مُوسَى
وَعِيسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

وَفِي الصَّفَحَاتِ التَّالِيَةِ نَتَكَلَّمُ عَنْ «الرَّسَالَةِ وَالرَّسُولِ» وَ«الْقُرْآنِ»
و«مُحَمَّدٍ» فِي بَعْضِ خَصَائِصِهِ، وَكَفَى بِهَا حُجَّةٌ وَإِعْجَازٌ.



الرَّسَالَةُ وَالرُّسُولُ ﷺ

الدَّكْتُورُ نَظْمِي لَوْقَا مِنَ الْأُقْبَاطِ الْمَصْرِيِّينَ تَوَلَّدَ مِنْ أَبَوَيْنِ مَسِيحِيَّينَ، كَانَا يَقْرَأْنَ لَهُ فُصُولاً مِنَ الْإِنْجِيلِ كُلِّ يَوْمٍ، وَيُرْسِلَانِهِ إِلَى الْكَنِيسَةِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ أَجْدَادُ كَثْرٍ مِنَ الْقَيْسِيِّينَ وَذَوِي الطِّيَالِسِ الشُّودِ، وَالدَّكْتُورُ نَظْمِي عَالِمٌ وَأَدِيبٌ وَلَهُ مَا يَقْرُبُ مِنْ أَرْبَعِينَ كِتَاباً فِي مَوَاضِعَ شَتَّى، وَقَدْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَحَفَظَهُ وَقَارَنَ بَيْنَ الْأَدْيَانِ وَتَعَمَّقَ فِي دَرَاةِ السِّيَرَةِ النَّبَوِيَّةِ، وَأَخْلَقَ الرُّسُولَ الْأَعْظَمَ، وَأَطْلَعَ عَلَى الْكَثِيرِ مِنْ أَسْرَارِ الْإِسْلَامِ وَشَرِيعَتِهِ وَتَعَالِيمِهِ فَأَمَّنَ بِمُحَمَّدٍ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ، آمَنَ بِهِ عَنْ عِلْمٍ وَبَصِيرَةٍ، وَبَدَّافٍ مِنَ الْإِخْلَاصِ لِلْحَقِّ وَأَهْلِهِ، وَوَضَعَ فِي هَذِهِ السَّنَةِ (١٩٥٩ م) كِتَاباً خَاصّاً تَحَدَّثَ فِيهِ عَنْ شَخْصِ الرُّسُولِ وَرِسَالَتِهِ وَأَثْبَتَ صِدْقَهَا بِالْأَرْقَامِ وَمَنْطِقِ الْعَقْلِ وَالْوَجْدَانِ، وَأَنَّ جَمِيعَ تَعَالِيمِهَا تَقُومُ عَلَى أَسَاسِ الصِّدْقِ وَالْعَدْلِ وَالْمُسَاوَاةِ، وَتَهْدَفُ إِلَى تَقْدِيسِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَسَعَادَتِهَا وَهَذِهِ هِيَ مُهِمَّةُ الدِّينِ الصَّحِيحِ، أَمَّا مُحَمَّدٌ فَقَدْ اجْتَمَعَتْ لَهُ صِفَاتُ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ بِكَامِلِهَا.

وَأَسْمَى الْمُؤَلَّفَ كِتَابَهُ «مُحَمَّدٌ، الرَّسَالَةُ وَالرُّسُولُ»، وَصَدَّرَهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ: «وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ

لَا يَشْتَرُونَ بِثَابِتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أَوْ لَتَبِكَ لَهُمْ أُجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ»^(١).

مُشِيرًا بِهَذِهِ الْآيَةِ إِلَى أَنَّهُ أَحَدُ الْمَعْنِيِّينَ بِهَا. وَنَحْنُ نُلَخِّصُ لِلْقَرَّاءِ بَعْضَ فُصُولِ هَذَا السَّفَرِ الْخَالِدِ، وَهَدَفْنَا أَنْ نُبَيِّنَ أَنَّ الْحَقَّ لَا يَلْتَمَسُ بِمَا أَلِفَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَادَاتٍ وَمَا وَرَثَ مِنْ تَقَالِيدٍ فَحَسَبَ، وَنُجَمِلُ أَقْوَالَهِ فِيمَا يَلِي:

أَنَّ آفَةَ الْعُقُولِ الْبَشَرِيَّةِ هُوَ التَّعَصُّبُ الدَّيْمِيُّ، لِأَنَّهُ الْعَمَى وَالصَّمَمُ، أَمَّا الصَّدَقُ وَالْإِنْصَافُ، أَمَّا الْإِعْزَافُ بِالْحَقِيقَةِ وَإِنْصَافُكَ لِحَصَمِكَ فَيَشْهَدُ لَكَ بِالْفَضْلِ وَحُسْنِ الرَّأْيِ وَآيَ شَرِيعَةٍ أَدْعَى لِلْإِنْصَافِ مِنْ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ الَّتِي تَقُولُ: «وَلَا يَجْزِيَنَّكُمْ شَتَاؤُكُمْ قَوْمٍ عَلَى الْأَتْعِدْلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى»^(٢). «وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى»^(٣).

وَآيَ إِنْسَانٍ لَا يُنْصِفُ دِينًا تُتَادِي شَرِيعَتُهُ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ فَهُوَ جَاهِلٌ أَوْ مُتَعَصِّبٌ لَا يَسْتَأْهِلُ التَّكْرِيمَ وَالْإِحْتِرَامَ. وَكَيْفَ يَسْتَكْثِرُ غَيْرَ الْمُسْلِمِ الْإِنْصَافَ عَلَى رَسُولٍ كَمُحَمَّدٍ لَا لَشَيْءٍ إِلَّا لِأَنَّهُ أَتَى بِغَيْرِ مَا كَانَ يُؤْمِنُ بِهِ آبَاؤُهُ وَيَدِينُونَ. وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَحَمَلَهَا عَلَى الْجُحُودِ وَالْجَوْرِ. أَنَّ مَنْ يَحْتَكِمُ إِلَى الْعَقْلِ يَرَى أَنَّ مُحَمَّدًا قَدْ اجْتَمَعَتْ لَهُ الْآءُ الرُّسُلِ وَمَفَاخِرُ الْبَشَرِيَّةِ بِكَامِلِهَا، وَمَنْ أَرَادَ الْخَيْرَ لِلْإِنْسَانِيَّةِ فَلَا يَحِقُّ لَهُ أَنْ يَثْلُبَ أَبْطَالَهَا وَهُدَاتَهَا، وَيَهْدِمَ عِزَّهَا وَمَجْدَهَا.

ثُمَّ مَا مِنْ نَبِيٍّ حَمَلَ إِلَى النَّاسِ صَكًّا مُذِيلًا بِتَوْقِيعِ اللَّهِ بِأَنَّهُ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِهِ يَنْطِقُ بِلِسَانِهِ، وَإِنَّمَا الدَّلِيلُ الْوَاحِدُ الَّذِي يَشْهَدُ بِصَدَقِ النَّبِيِّ، وَلَا يُغْنِي عَنْهُ أَلْفُ

(١) آلِ عِمْرَانَ: ١٩٩.

(٢) الْأَنْبَاءُ: ٨.

(٣) الْأَنْعَامُ: ١٥٢.

دَلِيلٌ وَدَلِيلٌ هُوَ أَنْ يَطْمَئِنَّ الْعَقْلُ إِلَى مَا جَاءَ بِهِ بِحَيْثُ يَبْدُو أَنَّ كُلَّ مَا يُبَيِّنُهُ هَزِيلٌ وَاضِحُ الْبُطْلَانِ.

وَإِذَا نَظَرْنَا مِنْ هَذِهِ الْكُوءَةِ إِلَى رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ لَمَسْنَا فِيهَا آيَاتِ الصِّدْقِ وَالْحَقِّ، وَلَمْ نَجِدْ أَيْ شَيْءٍ يَدْمِغُهَا بِالزَّيْفِ وَالْبُطْلَانِ، أَوْ يُبَيِّرُ الشَّكَّ وَالرَّيْبَ، وَمَنْ أَنْكَرَ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ فَلَا حُجَّةَ لَهُ إِلَّا قَوْلُهُ: «هَذَا رَأْيِي وَكَفَى». وَمِثْلُهُ لَا يُعَوَّلُ لَهُ عَلَى رَأْيٍ لِأَنَّهُ مُكَابِرٌ بِغَيْرِ حُجَّةٍ. وَإِلَيْكَ أَدَلَّةُ الْعَقْلِ عَلَى نُبُوَةِ الصَّادِقِ الْأَمِينِ:

١- أَنَّ الْإِنْسَانَ بِطَبِيعَتِهِ فِي حَاجَةٍ إِلَى عَقِيدَةٍ سَلِيمَةٍ، وَلَا تَكُونُ كَذَلِكَ إِلَّا إِذَا صَحَّتْ مَا تَرَدَّتْ فِيهِ الْإِنْسَانِيَّةُ مِنَ الْأَخْطَاءِ فِي الْأَفْكَارِ وَالتَّقَالِيدِ، وَإِلَّا أَنْ تَسْتَجِبَ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، لَا فَرْقَ بَيْنَ شَعْبٍ وَشَعْبٍ وَلَا بَيْنَ جِيلٍ وَجِيلٍ، وَلَا بَيْنَ فِتْنَةٍ وَفِتْنَةٍ. وَمِنْ أَهَمِّ هَذِهِ الْأَخْطَاءِ الَّتِي وَقَعَتْ فِيهَا الْبَشَرِيَّةُ الْإِعْتِقَادُ بِتَجَسُّيمِ الْخَالِقِ وَتَعَدُّدِهِ، وَالتَّفَاضُلِ بَيْنَ النَّاسِ عَلَى أَسَاسِ عُنْصَرِيٍّ أَوْ جُغْرَافِيٍّ أَوْ نَسَبٍ أَوْ مَالٍ. وَقَدْ صَحَّ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ الْإِنْحِرَافَ الْأَوَّلَ بِسُورَةِ: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ»^(١).

وَلَا شَيْءٍ أَقْرَبَ إِلَى طُمَأْنِينَةِ الْعَقْلِ وَالْقَلْبِ، وَأَدْعَى إِلَى كَرَامَةِ الْإِنْسَانِ مِنَ الْإِيمَانِ بِالْإِلَهِ وَاحِدٍ مُنَزَّهٍ عَنْ كُلِّ مِثَالٍ وَشَبِيهِهِ. وَصَحَّ الْخَطَأُ الثَّانِي بِالْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: «يَتَّبِعُهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ»^(٢).

وَقَالَ الرَّسُولُ ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ رَبُّكُمْ وَاحِدٌ، وَأَبُوكُمْ وَاحِدٌ، كُلُّكُمْ مِنْ آدَمَ،

(١) الْإِخْلَاصُ: ١-٤.

(٢) الْعَنْجُرَاتُ: ١٣.

وَأَدَمَ مِنْ تُرَابٍ»^(١).

٢- لَيْسَ فِي عَقِيدَةِ الْمُسْلِمِينَ تَأْلِيهِ وَلَا شُبْه تَأْلِيهِ لِمَعْنَى النَّبَوَّةِ، فَقَدْ صَرَّحَ الْقُرْآنُ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ: «قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ»^(٢).

وَفِي إِخْتِيَارِ لَفْظَةِ «مِثْلُكُمْ» مَعْنَى مَقْصُودٍ بِهِ التَّسْوِيَّةُ وَالْحَيْلُولَةُ دُونَ الِارْتِفَاعِ بِفِكْرَةِ النَّبَوَّةِ فَوْقَ مُسْتَوَى الْبَشَرِ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ، بَلْ نَجِدُ فِي الْقُرْآنِ مَا هُوَ أَصْرَحُ مِنْ هَذَا: «فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقَمَا أَنزَلْنَاهُ عَلَيْهِمْ حَقِيقًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ»^(٣)؛ «إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتُمْ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّطٍ»^(٤)؛ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبُ لَاسْتَكْنَزْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»^(٥).

وَمِثْلَ هَذَا كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ. أَرَادَ مُحَمَّدٌ أَنْ يُشْعِرَ النَّاسَ بِأَنَّهُ مِثْلُهُمْ حَقًّا وَصِدْقًا، يَمْسَهُ السُّوءُ وَالتَّكَلُّ، وَلَمْ يَسْتَعْمَلِ الْإِحْتِيَالَ مَعَ أَحَدٍ، كَمَا نَسْتَعْمَلُهُ نَحْنُ مَعَ الْأَطْفَالِ، لِيَقْبَلُوا عَلَى مَا نُرِيدُ، وَيَعْرِفُوا عَمَّا نَكْزُهُ.

٣- جَاءَ الْإِسْلَامُ بِشَرِيعَةٍ تَجْمَعُ فِي مَمْلَكَةِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ: «وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا»^(٦).

(١) أَنْظَرِ، سُنَنِ الْبَيْهَقِيِّ: ١١٨/٩، سُبُلُ الْهُدَى وَالرَّشَادِ: ٢٤٢/٥، شَرْحُ نَهْجِ الْبَلَاغَةِ لِأَبِي الْحَدِيدِ: ٢٨١/١٧، بَحَارُ الْأَنْوَارِ: ٣٥/٣١.

(٢) الْأَكْهَفُ: ١١٠.

(٣) الشُّورَى: ٤٨.

(٤) الْغَاشِيَةِ: ٢١-٢٢.

(٥) الْأَعْرَافُ: ١٨٨.

(٦) الْقَصَصُ: ٧٧.

« أَعْمَلْ لِدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَدًا - أَيَّ مَعَ الْأَجْيَالِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ - وَأَعْمَلْ لِآخِرَتِكَ كَأَنَّكَ تَمُوتُ غَدًا » أَيَّ اتَّقَى اللَّهُ فِي عَمَلِكَ لِدُنْيَاكَ^(١). وَتَسْتَوْحِي هَذِهِ الشَّرِيعَةَ تَحْسِينِ حَالِ الْجَمَاعَةِ تَحْسِينًا يَنْعَكِسُ عَلَى كُلِّ فَرْدٍ، وَتَرْبُطُ حُسْنَ الْأَخْلَاقِ بِالْمَصْلَحَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، فَالْخَيْرُ أَنْ تَبْتَغِيَ الرِّزْقَ بِالْعَمَلِ، وَتَتَعَاوَنَ مَعَ النَّاسِ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى. وَالشَّرُّ أَنْ تَعِيشَ عَلَى حَسَابِهِمْ، وَتَتَّخِذَ مِنَ الرِّيَاءِ وَالتَّنَافُاقِ أَدَاةً لِلْكَسْبِ. وَهَذِهِ هِيَ شَرِيعَةُ الْحَيَاةِ بَعِينَهَا، تُنْفَقُ مَعَ الْفِطْرَةِ، وَتُسَايِرُ التَّطَوُّرَ الطَّبِيعِيَّ، وَتُسَمِّحُ لِلْإِنْسَانِيَّةِ بِالتَّسَامِيِ إِلَى أَقْصَى مَا يُمَكِّنُ أَنْ تَصِلَ إِلَيْهِ.

٤ - أَنَّ الرَّسَالََةَ الَّتِي تُسِيرُ بِصَاحِبِهَا عَلَى الْوَرْدِ، وَيَكُونُ هَدَفُهَا الْغَنَمَ لَهُ وَلَذَوِيهِ فَهِيَ إِفْتِرَاءٌ وَزُورٌ، أَمَّا الرَّسَالََةُ الَّتِي يُلَاقِي صَاحِبُهَا فِي سَبِيلِ انْتِشَارِهَا وَبَقَائِهَا الْعَنَتَ وَالْجُهْدَ فَهِيَ صِدْقٌ وَعَدْلٌ. وَقَدْ أَمْتَحَنَتِ الْخُطُوبُ مُحَمَّدًا بِمَا لَمْ تُمْتَحَنَ بِهِ أَحَدًا، وَحِينَ كَتَبَ لِدَعْوَتِهِ النَّصْرَ، وَتَمَّ لَهُ الْفَتْحُ لَمْ يَظْفَرْ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا بِمَا كَانَ لِعَامَّةِ جُنْدِهِ وَفُقَرَاءِ رَعِيَّتِهِ، وَكَانَ فِي وَسْعِهِ وَمَقْدُورِهِ أَنْ يَكُونَ أَغْنَى الْأَغْنِيَاءِ.

جَاءَ الْمُشْرِكُونَ إِلَى عَمَّةِ أَبِي طَالِبٍ، وَقَالُوا لَهُ: أَنْ أَبْنِ أَخِيكَ شَتَمَ آبَاءَنَا، وَسَفَهَ أَحْلَامَنَا، وَعَيَّبَ آلِهَتَنَا، فَقُلْ لَهُ أَنْ يَتْرَكَ هَذَا الْأَمْرَ، وَنَحْنُ نُقِيمُهُ عَلَيْكَ مَلَكًا، وَنُقَاسِمُهُ جَمِيعَ أَمْوَالِنَا، وَإِلَّا نَازِلْنَاهُ وَنَازِلْنَاكَ حَتَّى يَهْلِكَ أَحَدُ الْفَرِيقَيْنِ وَتَقْدَمَ إِلَيْهِ عَمَّةُ وَقَالَ لَهُ: يَا أَبْنِ أَخِي أَبِى عَلِيٍّ وَعَلَى نَفْسِكَ وَلَا تُحْمَلْنِي مَا لَا أُطِيقُ. فَأَحَابَهُ الرَّسُولُ: يَا عَمَّ: «لَوْ وَضَعْتَ الشَّمْسُ فِي يَمِينِي، وَالْقَمَرُ فِي شِمَالِي مَا تَرَكْتُ

(١) أنظر، تحرير الأحكام للعلامة الجلي: ٢/٢٤٩، تفسير القرطبي: ٤/٣٥، مَنْ لَا يَحْضُرُهُ الْقَفِيُّ:

٩٤/٣ ح ٣٥٦، مَقَانِي الْأَخْبَارِ لِلنَّحَّاسِ: ٦/٣٠٥، وَسَائِلُ الشَّيْعَةِ: ١٧/٧٦ ح ٢، فَيْضُ الْقَدِيرِ شَرَحَ

الْجَامِعِ الصَّغِيرِ: ٢/١٦، كُنْزُ الْعُمَالِ: ٥/٥٨١، تَنْبِيْهِ الْخَوَاطِرِ: ٢/٢٣٤.

قَوْل: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ أَبَدًا، حَتَّى أُنْفَذَهُ أَوْ أَقْتُلَ دُونَهُ»^(١).

لَقَدْ أَثَّرَ مُحَمَّدٌ الْفَقْرَ وَالْغِنَاءَ عَلَى السُّلْطَانِ وَالْثَّرَاءِ، لِأَنَّهُ صَاحِبُ رِسَالَةٍ لَا طَالِبَ مَالٍ أَوْ جَاهٍ، وَأَصْحَابُ الرِّسَالَةِ لَا يَرُونَ الْحَيَاةَ إِلَّا فِي مَبَادِيهِمْ، وَالتَّضَحُّيَةِ فِي سَبِيلِهَا بِالنَّفْسِ وَالنَّفِيسِ. وَمِنْ هُنَا كُتِبَ لِدَعْوَةِ مُحَمَّدٍ الْخُلُودَ وَالصَّمُودَ، وَآمَنَ بِهَا مِثَاتُ الْمَلَائِكِينَ.

ثُمَّ خَتَمَ الدُّكْتُورُ لَوْحًا كِتَابَهُ بِجُمْلَةٍ مِنْ صِفَاتِ الرَّسُولِ قَالَ: كَانَ مُحَمَّدٌ رَسُولَ السَّمَاءِ لَيْسَ فَوْقَهُ إِلَّا اللَّهُ، وَمَعَ ذَلِكَ أَطْرَاهُ أَصْحَابَهُ مَرَّةً بِالْحَقِّ الَّذِي يَعْلَمُونَ فَقَالَ لَهُمْ: «لَا تَطْرُونِي كَمَا أَطَرَتِ النَّصَارَى عِيسَى، وَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ»^(٢). وَأَتَاهُ أَعْرَابِي يَوْمَ الْفَتْحِ لِيُبَايِعَهُ، وَحِينَ وَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ أَخَذَتْهُ الرَّهْبَةُ وَزَارَتْهُ مِنْ هَيْبَةِ الْحَقِّ فَقَالَ لَهُ: هَوْنٌ عَلَيْكَ، فَإِنِّي أَبْنُ أَمْرًا كَانَتْ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ بِمَكَّةَ»^(٣). وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ خَرَجَ عَلَى جَمَاعَةٍ فَتَهَضُّوا تَعْظِيمًا لَهُ فَتَهَاهُمْ قَائِلًا: «لَا تَقُومُوا لِي

(١) أنظر، دَلَائِلُ الشُّبُوهِ، الإِضْهِائِي: ١٩٧/١، السِّمَرَةُ النَّبَوِيَّةُ لِأَبْنِ إِسْهَامٍ: ١٠١/٢، بِتَارِيخِ الطَّبْرِيِّ: ٥٤٥/١.

(٢) أنظر، صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ: ١٢٧١/٣ ح ٣٢٦١، صَحِيحُ أَبِي جَبَّانٍ: ١٤/١٣٣ ح ٦٢٣٩، سُنَنِ الدَّارِمِيِّ: ١٢/٢ ح ٢٧٨٤، الْمُعْجَمُ الْأَوْسَطُ: ٢/٣٦٢ ح ١٩٣٧، مُعْجَمُ الشُّيُخِ: ١/١٦٦، مُسْنَدُ أَحْمَدَ: ٢٣/١ ح ١٥٤، الدَّرُ الثَّنَوِيُّ لِلْسَّيُوطِيِّ: ٢/٢٤٩، الْمُوطَّأُ: ١/١١ و ١٢.

(٣) أنظر، الْمُشْتَدُّ ذِكْرُ عَلَى الصَّحِيحَيْنِ: ٥٠٦/٢ ح ٣٧٣٣ و ٥٠/٣ ح ٤٣٦٦، مَجْمَعُ الزَّوَائِدِ: ٩/٢٠، مِصْبَاحُ الزَّجَاجَةِ: ٤/١٩ و ٢٠، سُنَنِ أَبِي نَاجِيَةَ: ١١٠١/٢ ح ٣٣١٢، الْمُعْجَمُ الْأَوْسَطُ: ٢/٦٤ ح ١٢٦٠، الزُّهْدُ لِهَيْثَادٍ: ٢/٤١٣ ح ٨٠٢، نَوَادِرُ الْأُصُولِ فِي أَحَادِيثِ الرَّسُولِ: ٢/١٠٤، الْفِرْدَوْسُ بِمَأْتُورِ الْخِطَّابِ: ٤/٣٢٤ ح ٦٩٤٣، تَهْذِيبُ الْكَمَالِ: ٣/٤٤، الطَّبَقَاتُ الْكُبْرَى: ١/٢٣، عِلَلُ الدَّارِ قُطْنِي: ١٩٤/٦ ح ١٠٦٣.

كَمَا يَقُومُ الْأَعَاجِمُ يُعْظَمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا»^(١).

وَكَانَ إِذَا مَرَضَ الْمَرِيضُ مِنْ أَدْنَى النَّاسِ يَعُودُهُ وَيَقْبَلُ دَعْوَةَ الْمَسَاكِينِ إِلَى الطَّعَامِ^(٢)، وَيُدَاعِبُ الْأَطْفَالَ، وَيُجْلِسُهُمْ فِي حِجْرَةٍ، وَيُمَازِحُ أَصْحَابَهُ، وَيَتَبَسَّطُ مَعَهُمْ فِي الْحَدِيثِ^(٣)، وَيَقُومُ بِحَاجَةِ الْفَقِيرِ وَالضَّعِيفِ^(٤)، وَيَحْلُبُ الشَّاةَ وَيُقَطِّعُ اللَّحْمَ^(٥)، وَيَعْقِلُ الْبَعِيرَ^(٦).

وَحِينَ شَعَرَ بِدُنُو أَجَلِهِ تَحَامَلُ عَلَى نَفْسِهِ، وَخَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ، وَخَطَبَ فِي النَّاسِ خُطْبَتَهُ الْأَخِيرَةَ قَائِلًا:

«أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ جَلَدْتُ لَهُ ظَهْرًا فَهَذَا ظَهْرِي، وَمَنْ أَخَذْتُ لَهُ مَالًا فَهَذَا مَالِي، لِيَأْخُذْهُ مِنْهُ، وَلَا يَخْشَى الشَّحْنَاءَ مِنْ قِبَلِي، فَإِنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ شَأْنِي. أَلَا وَأَنْ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ مَنْ أَخَذَ مِنِّي حَقًّا إِنْ كَانَ لَهُ، أَوْ حَلَّلَنِي مِنْهُ، فَلَقِيتُ رَبِّي طَيِّبَ النَّفْسِ. فَقَالَ سَوَادُ بْنُ غَزِيَّةٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْجَعْتَ بَطْنِي بِالْقَضِيبِ يَوْمَ بَذَرٍ، وَأَنْتَ تُسَوِّي النَّاسَ صَفًّا صَفًّا، فَمَكَّنِي مِنْ نَفْسِكَ لِأَقْتَصَّ مِنْكَ. فَوَقَفَ النَّبِيُّ دَعَاةً لِلْإِقْتِصَاصِ

(١) أنظر، تُحْفَةُ الْأُحُوذِيِّ: ٢٥/٨، أَدَبُ الْإِمْلَاءِ وَالِاسْتِئْلَاءِ: ٣٤/١، مُسْنَدُ الزَّوْيَانِيِّ: ٣١٣/٢ ح ١٢٧١.

(٢) أنظر، مُسْنَدُ أَحْمَدَ: ٢/٤٢٤، السُّنَنُ الْكُبْرَى لِلْبَيْهَقِيِّ: ١٦٩/٦، الْمُعْجَمُ الْكَبِيرُ: ١١/١٢٠، شَرْحُ

السُّنَنِ لِلْبَيْهَقِيِّ: ٩/١٤١، صَحِيحُ مُسْلِمَ: ٤/١٥٣، سُنَنُ التِّرْمِذِيِّ: ٢/٣٩٧، الْمُحَلِيُّ: ٩/١٥٤.

(٣) أنظر، كِتَابُ الْمُوسَطَّاءِ: ٢/٩١٩ ح ١، تَنْوِيرُ الْحَوَالِكِ: ٦٦٤ ح ١٦٣٩، مَنَاقِبُ آلِ أَبِي طَالِبٍ:

١٣٦/١، مُسْنَدُ أَحْمَدَ: ٣/٢٤٠، صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ: ٤/١٦٥ و ٧/٥٧، سُنَنُ التِّرْمِذِيِّ: ٥/٢٥٢.

فَتْحُ الْبَارِيِّ: ٦/٤١٢، الْمُصَنَّفُ لِقَبْدِ الرَّزَاقِ الصَّنْعَانِيِّ: ١١/٢٦٠ ح ٢٠٤٩٢، سَمَائِلُ التِّرْمِذِيِّ: ٢٨.

(٤) أنظر، الْمُسْتَدْرَكُ عَلَى الصَّحِيحَيْنِ: ٢/٥٠٦ ح ٣٧٣٣، مَجْمَعُ الزَّوَائِدِ: ٩/٢٠، مُصْبَحُ الرُّجَاةِ:

١٩/٤، سُنَنُ أَبِي مَاجَهَ: ٢/١١٠ ح ٣٣١٢، الْمُعْجَمُ الْأَوْسَطُ: ٢/٦٤ ح ١٢٦٠.

(٥) أنظر، كِتَابُ سِرِّ الْعَالَمِينَ: ٢٥٤، مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ: ٢٩.

(٦) أنظر، الْمَوَاهِبُ الدِّينِيَّةُ كَمَا فِي شَرْحِ الزَّرْقَانِيِّ: ٤/٢٤٦، تَارِيخُ مَدِينَةِ دِمَشْقَ: ٤/٥٨.

مِنْهُ بِالْقَضِيبِ ، فَرَفَعَ الرَّسُولُ قَمِيصَهُ عَنْ بَطْنِهِ مُتَاهِبًا لِلْقَصَاصِ مِنْ نَفْسِهِ ، فَمَا كَانَ مِنْ سَوَادٍ إِلَّا أَنْ غَانَقَهُ وَقَبَلَ بَطْنَهُ الْعَارِي ، لِيَمَسَّ جَسَدَهُ الشَّرِيفَ قَبْلَ أَنْ يُفَارِقَ الدُّنْيَا» ^(١).

أَبْعَدَ كُلِّ مَا قَدِمْتَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ لِقَوْمِكَ مِنَ الْبِرِّ وَالْخَيْرِ وَالْفَضْلِ وَبَعْدَمَا أَخْرَجْتَهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، أَبْعَدَمَا نَصَحْتَ لَهُمْ وَجَاهَدْتَ وَتَحَمَّلْتَ مِنْ أَجْلِهِمْ مَا تَحَمَّلْتَ تَقِفْ لَهُمْ مَوْقِفَ «الْمُذْنِبِ» لِيَقْتَصُوا مِنْكَ ، وَيَسْتَوْفُوا حُقُوقَهُمْ مِنْ شَخْصِكَ .

أَيُّ رَحْمَةٍ أَوْسَعُ ؟ وَأَيُّ خُلُقٍ أَكْرَمُ ؟ وَأَيُّ عَدَلٍ أَبْلَغُ ؟ ! ؛ وَآيَةُ مُعْجَزَةٍ أَعْظَمُ مِنْ هَذِهِ ؟ ! وَهَلْ نَحْتَاجُ بَعْدَهَا إِلَى دَلِيلٍ عَلَى صِدْقِ مُحَمَّدٍ ؟ إِذَنْ «لَيْسَ يَصِحُّ فِي الْأَفْهَامِ شَيْءٌ» . هَذَا مَعَ الْعِلْمِ أَنَّ سِيرَتَهُ وَتَعَالِيْمَهُ كُلَّهَا مُعْجَزَاتٌ وَآيَاتٌ لَا تَتْرَكَ لِلجَّاحِدِ إِلَّا التَّعَنُّتَ وَالْمُكَابَرَةَ .

وَبَعْدَ ، فَقَدْ قَدَّمَ الْمُؤَلِّفُ فِي كِتَابِهِ هَذِهِ خِدْمَةَ عَظْمَى لِلْحَقِّ وَالْعَدْلِ ، وَاتَّمَنَى أَنْ يِقْرَاهُ كُلُّ إِنْسَانٍ ، ثُمَّ يَرْجِعَ الْقَارِئُ إِلَى نَفْسِهِ لِيَرَى وَقَعَ الْكِتَابِ وَسَيَكُونُ عَلَى يَقِينٍ مِنْ إِيْمَانِهِ بِكُلِّ مَا جَاءَ فِيهِ مِنْ حَيْثُ يُرِيدُ أَوْ لَا يُرِيدُ ، لِأَنَّ الْوَاقِعَ يَفْرُضُ نَفْسَهُ ، شِئْنَا أَمْ أَبَيْنَا . وَجَزَى اللَّهُ الدَّكْتُورَ لَوْ قَا جَزَاءَ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ الْحَقِّ وَالْعَدَالَةِ .

(١) أنظر . مجتمَع الزَّوَائِد : ٢٦/٩ ، المُعْجَم الْأَوْسَط : ١٠٤/٣ ح ٢٦٢٩ ، المُعْجَم الْكَبِير : ٦٢/٣ و :

٢٨٠/١٨ ح ١٧٨ ، وَبِزَانِ الْإِعْتِدَال : ٤٦٣/٥ ح ٦٨٦١ ، لِسَانُ الْمِيزَان : ٤٦٨/٤ ، تَارِيخُ الطُّبْرِي :

٢/٣٢ و ٢٢٧ ، الْإِصَابَةُ : ٢١٨/٣ ، كَشَفُ الْخَفَاء : ٥٣/٢ .

الْقُرْءَانُ

كَانَ الْإِمَامُ زَيْنُ الْعَابِدِينَ إِذَا خَتَمَ الْقُرْءَانَ يُنَاجِي رَبَّهُ بِدُعَاءٍ طَوِيلٍ، يَفْتَتِحُهُ بِقَوْلِهِ :

« اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَعْتَنَيْتَنِي عَلَى خَتْمِ كِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَهُ نُورًا، وَجَعَلْتَهُ مُهَيِّمِنًا عَلَى كُلِّ كِتَابٍ أَنْزَلْتَهُ، وَفَضَّلْتَهُ عَلَى كُلِّ حَدِيثٍ فَصَّصْتَهُ، وَفُرْقَانًا فَرَقْتَ بِهِ بَيْنَ حَلَالِكَ، وَحَرَامِكَ، وَفُرْقَانًا أَعَزَّبْتَ بِهِ عَنْ شَرَائِعِ أَحْكَامِكَ؛ وَكِتَابًا فَصَّلْتَهُ لِعِبَادِكَ تَفْصِيلًا، وَوَحْيًا أَنْزَلْتَهُ عَلَى نَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُكَ عَلَيْهِ وَآلِهِ تَنْزِيلًا.

وَجَعَلْتَهُ نُورًا نَهْتَدِي مِنْ ظُلُمِ الضَّلَالَةِ، وَالْجَهَالَةِ بِاتِّبَاعِهِ، وَشِفَاءً لِمَنْ أَنْصَتَ بِفَهْمِ التَّصْدِيقِ إِلَى اسْتِمَاعِهِ، وَمِيزَانٍ قَسَطٍ لَا يَحِيفُ عَنِ الْحَقِّ لِسَانَهُ، وَنُورَ هُدًى لَا يَظْفَأُ عَنِ الشَّاهِدِينَ بُرْهَانَهُ، وَعَلَمَ نَجَاةٍ لَا يَضِلُّ مَنْ أَمَّ قَصْدَ سُنَّتِهِ وَلَا تَنَالُ أَيْدِي الْهَلَكَاتِ مَنْ تَعَلَّقَ بِعُرْوَةِ عِزْمَتِهِ »^(١).

تَحَدَّثَ الْقُرْءَانُ الْكَرِيمُ عَنِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ، وَعَنِ الْآخِرَةِ وَالْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ، وَجَادَلَ أَهْلَ التَّوْرَةِ بِتَوَارَاتِهِمْ، وَأَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِإِنْجِيلِهِمْ، وَأَهْلَ الشُّرْكِ بِأَصْنَامِهِمْ. وَبَيَّنَّ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ مَا يُذَكِّرُ النَّاسَ بِاللَّهِ، وَيَبْعَثُهُمْ عَلَى الْإِخْلَاصِ لَهُ فِي

(١) انظر، الصَّحِيفَةُ السَّجَّادِيَّةُ: الدُّعَاءُ الثَّانِي وَالْأَرْبَعُونَ دُعَاؤُهُ عِنْدَ خَتْمِهِ الْقُرْءَانَ.

الْقَوْلَ وَالْعَمَلَ، فَهِيَ رُكُوعٌ وَسُجُودٌ فِي صُورِهَا، وَخُلُقٌ كَرِيمٌ فِي جَوْهَرِهَا.
وَشَرَعَ نِظَامًا إِنْسَانِيًّا شَامِلًا لِأَحْكَامِ الْعُقُودِ وَالْمُوجِبَاتِ، وَالزَّوْاجِ وَالطَّلَاقِ
وَالْوَصَايَا وَالْمَوَارِيثِ، وَالْحُدُودِ وَالْعُقُوبَاتِ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْفَرْدُ
الْجَمَاعَةُ، أَوْ قُلْ أَنَّ الْقُرْآنَ حَدَدَ مَسْئُولِيَّةَ الْإِنْسَانِ تَجَاهَ نَفْسِهِ وَخَالْفِهِ وَغَيْرِهِ،
وَبَيَّنَ لَهُ كَيْفَ يُوَاجِهَ هَذِهِ الْمَسْئُولِيَّاتِ وَيُمَارِسَهَا.

وَسَجَّلَ أَخْبَارَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ وَالْقُرُونِ الْخَالِيَةِ.
وَأَرْشَدَ إِلَى حَقَائِقِ عِلْمِيَّةٍ تَكْشِفُ عَنْ أَسْرَارِ الْكَوْنِ، كَمَا أَمَرَ بِالتَّأَمُّلِ وَالتَّفَكُّيرِ
وَاتِّبَاعِ الْعِلْمِ.

وَتَضَمَّنَ أَخْبَارًا عَنِ الْغَيْبِ، وَتَنَبَّأَ بِحُودَاتٍ تَحَقَّقَتْ عَلَى النَّحْوِ الَّذِي أَخْبَرَ بِهِ.
وَقَدْ عَاشَ مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بَيْنَ قَوْمِهِ كَمَا عَاشُوا، وَسَعَى كَمَا سَعَوْا، وَكَانُوا
خُلُوعًا مِنَ الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ لَا يَمْلِكُونَ مَعْمَلًا وَلَا جِهَازًا، وَلَا مُخْتَبِرًا بَلْ وَلَا وَعِيًّا
يَسْتَنْبِطُونَ بِهِ الْقَوَائِينَ كَفَلَّاسِفَةِ الْإِغْرِيقِ، وَكَانَ هُوَ أُمِّيًّا، لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ، كَأَكْثَرِ
أَبْنَاءِ قَوْمِهِ وَبَيْتِهِ. إِذَنْ كَيْفَ أَمْتَارُ عَنْهُمْ؟ وَمِنْ أَيْنَ جَاءَتْ هَذِهِ الْعُلُومُ إِذَا لَمْ يَكُنْ
نَبِيًّا يُوحَى إِلَيْهِ؟!

قَالَ الْمُعَانِدُونَ فِيمَا مَضَى: أَنَّ الْقُرْآنَ سِحْرٌ، بَعْدَ أَنْ انْقَطَعَتْ جَمِيعُ أَعْدَارِهِمْ،
وَأَسَدَّتْ عَلَيْهِمُ الْمَسَالِكُ وَالْمَذَاهِبُ... فَمَبَازَا يَتَعَلَّلُونَ الْيَوْمَ، وَالسَّحَرُ فِي أَذْهَانِ
النَّاسِ حَدِيثُ خُرَافَةٍ؟!

أَجَلْ، لَقَدْ تَعَلَّلُوا وَقَالُوا: أَنَّ مُحَمَّدًا عَظِيمًا فِي أَخْلَاقِهِ، وَعَظِيمٌ فِي بِلَاجَتِهِ،
وَعَظِيمٌ فِي مَوَاهِبِهِ وَجَمِيعِ أَعْمَالِهِ الَّتِي لَا يَسْمَعُ أَحَدًا إِلَّا إِكْبَارَهَا وَتَقْدِيرَهَا. فَهُوَ
عَظِيمٌ، وَهَذَا الْقُرْآنُ مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ تِلْكَ الْعَظَمَةِ، وَبِالتَّالِي فَهُوَ مِنْ وَحْيِهِ لَا مِنْ

وحي الله .

وَالْجَوَابُ : لَيْسَ مِنْ شَكِّ فِي أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَكُونُ عَظِيمًا وَلَا يَكُونُ نَبِيًّا وَلَكِنْ هَلْ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونُ عَالِمًا دُونَ أَنْ يَتَعَلَّمَ أَوْ دُونَ أَنْ تُوجَدَ عُلُومُ بِالْمَرَّةِ ؟ وَإِذَا افْتَرَضْنَا أَنَّ مُحَمَّدًا قَرَأَ قِصَّةَ آدَمَ وَحَوَاءَ ، وَأَخْبَارَ الْمَاضِينَ فِي كِتَابٍ قَدِيمٍ ، أَوْ نَقَلَهَا إِلَيْهِ نَاقِلٌ ، فَأَيْنَ دَرَسَ التَّشْرِيعَ وَالْعُلُومَ الطَّبِيعِيَّةَ وَالرِّيَاضِيَّةَ وَالْإِجْتِمَاعِيَّةَ وَغَيْرَهَا مِمَّا أَشَارَ إِلَيْهِ الْقُرْآنُ ؟ ! وَإِذَا افْتَرَضْنَا أَنَّ مُحَمَّدًا أَدْرَكَ بِصَفَاءِ فِطْرَتِهِ أَنَّ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةَ النَّاسِ فَهَلْ أَدْرَكَ بِفِطْرَتِهِ هَذِهِ الشَّرِيعَةَ الْإِنْسَانِيَّةَ الْكَامِلَةَ الشَّامِلَةَ لِلْأَحْوَالِ الشَّخْصِيَّةِ ، وَالصَّنَاعِيَّةِ ، وَالتَّجَارِيَّةِ ، وَالزَّرَاعِيَّةِ ، وَالْجَنَائِيَّةِ ، وَالْعَسْكَرِيَّةِ ، وَالسِّيَاسِيَّةِ ، وَكُلِّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْفَرْدُ ، وَالْمُجْتَمَعُ ، وَالدَّوْلَةُ ؟ ! هَلْ أَدْرَكَ رَيْبَ الصَّحْرَاءِ هَذِهِ الشَّرِيعَةَ الَّتِي تَصْلُحُ بِمَبَادِئِهَا وَأُسُسِهَا لِكُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ وَالَّتِي وَضَعَتْ مِثَالَاتِ الْمُجْلَدَاتِ لِأَحْكَامِهَا ، وَأُصُولِهَا ، وَقَوَاعِدِهَا ، وَتَأَسَّسَتْ لِدِرَاسَتِهَا وَمَعْرِفَةِ أَسْرَارِهَا الْكُلِّيَّاتِ وَالْجَامِعَاتِ ؟ ! وَهَلْ فِي التَّأْرِيخِ رَجُلٌ وَاحِدٌ كُلُّ هَذِهِ الْمَكَانَةِ فِي عَالَمِ التَّشْرِيعِ ؟ .

إِنَّ الَّذِي نَعْنِيهِ أَنَّ الشَّرَائِعَ الْوَضْعِيَّةَ تَضَعُهَا الْهَيِّاتُ لِأَفْرَادٍ ، وَأَنَّهُ يُعْرَضُ عَلَيْهَا التَّقْلِيمُ وَالتَّطْعِيمُ بِمُرُورِ الزَّمَنِ ، لِأَخْطَاءِ تَطَهَّرَ بَعْدَ التَّطْبِيقِ وَالْإِخْتِبَارِ ، وَمَا عَهْدَنَا رَجُلًا وَاحِدًا أَسْتَقِلَّ بِوَضْعِ نِظَامٍ كَامِلٍ شَامِلٍ ، مَهْمَا بَلَغَتْ مَوَاهِبُهُ ، وَاتَّسَعَتْ مَعَارِفُهُ ... إِذَنْ فَالشَّرِيعَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ لَيْسَتْ مِنَ الْإِنْسَانِ ، بَلْ مِنَ خَالِقِ الْإِنْسَانِ وَمُبْدِعِهِ ، فَهِيَ أَشْبَهَ بِالتَّعَالِيمِ الَّتِي نَجِدُهَا مَعَ زَجَاجَةِ الدَّوَاءِ وَبَغْضِ الْآلَاتِ تَرْشِدُنَا إِلَى كَيْفِيَّةِ الْإِسْتِعْمَالِ ، وَوَضْعِ الشَّيْءِ فِي مَكَانِهِ خَوْفًا مِنَ الْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ ، إِنَّهَا مِنْ مُخْتَرَعِ الْآلَةِ لَا مِنْ غَيْرِهِ .

ثُمَّ هَذِهِ الْحَقَائِقُ الْكَوْنِيَّةُ وَالْأَسْرَارُ الْعِلْمِيَّةُ الَّتِي تَضْمَنُهَا الْقُرْءَانُ، كَيْفَ وَصَلَ إِلَيْهَا مُحَمَّدٌ - وَالْمَفْرُوضُ أَنَّهَا لَا تُعْرَفُ إِلَّا بِمَعْرِفَةِ الْمُخْتَبِرَاتِ وَالْأَدَوَاتِ الْفَنِّيَّةِ الَّتِي لَمْ يَكُنْ لَهَا مِنْ قَبْلُ عَيْنٌ وَلَا أَثَرٌ؟! هَلْ تَلَقَّاهَا مِنْ أَسْتَاذٍ، وَمَنْ يَكُونُ هَذَا الْأُسْتَاذُ؟! أَوْ هِيَ هَاجِسَةٌ مِنْ هَوَاجِسِ فِكْرِهِ، وَظَنٌّ مِنْ ظُنُونِهِ؟! وَالظَّنُّ لَا يُغْنِي عَنِ الْحَقَائِقِ شَيْئًا. إِذَنْ هِيَ مِنْ وَحْيِ الْخَالِقِ الَّذِي أَوْجَدَهَا وَأَوْجَدَ كُلَّ شَيْءٍ.

كُنَّا قَدْ ذَكَرْنَا فِي الْقِسْمِ الْأَوَّلِ «اللهُ وَالْعَقْلُ» نَمَازِجَ مِنْ تِلْكَ الْأَسْرَارِ الَّتِي أَشَارَتْ إِلَيْهَا الْآيَاتُ الْقُرْءَانِيَّةُ، وَلَمْ يَكْتَسِفْهَا الْعِلْمُ إِلَّا بَعْدَ ثَلَاثَةِ عَشَرَ قَرْنًا وَنِصْفَ الْقَرْنِ، وَنَذَكِرُ هُنَا طَرَفًا آخَرَ مِنْهَا، مَعَ الْإِعْتِرَافِ بِأَنَّنا لَمْ نَبْلُغْ مِنَ الْعِلْمِ بِهَا إِلَّا النُّقْلَ عَنْ عُلَمَاءِ الْغَرْبِ!.

لَقَدْ عَنَى الْمُسْلِمُونَ بِالْقُرْءَانِ عِنَايَةً كُبْرَى شَمَلَتْ الْعَدِيدَ مِنْ نَوَاحِيهِ، أَفَادَ مِنْهَا الدِّينَ وَالْعِلْمَ بِشَتَّى فُرُوعِهِ، فَلَقَدْ وَضَعُوا خِدْمَةَ لِكِتَابِ اللَّهِ مِثَالَاتِ الْمُؤَلَّفَاتِ فِي النَّحْوِ، وَالصَّرْفِ، وَالْبَلَاغَةِ، وَالتَّجْوِيدِ، وَمُفْرَدَاتِ اللَّغَةِ، وَالتَّفْسِيرِ، وَالْفِقْهِ، وَالْأُصُولِ، وَعِلْمِ الْكَلَامِ، وَالْأَخْلَاقِ وَغَيْرِهَا. وَزَخَرَتْ الْمَكْتَبَةُ الْعَرَبِيَّةُ، وَمَكْتَبَاتُ أُخْرَى أَعْجَبِيَّةٌ بِهَذِهِ الْكُتُبِ، وَمَا زَالَ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى يَوْمَنَا هَذَا يُوَاصِلُونَ هَذَا النَّشَاطَ.

وَلَا نُعَالِي إِذَا قُلْنَا: أَنَّهُ لَمْ يُلَاقَ كِتَابَ مِنَ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ وَالْأَرْضِيَّةِ مِنَ الْعِنَايَةِ مَا لَفَّاهُ الْقُرْءَانُ عَلَى أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ. وَلَوْ أَنَّهُمْ أَهْتَمُّوا بِالنَّاحِيَةِ الْعِلْمِيَّةِ فِي الْقُرْءَانِ، كَمَا أَهْتَمُّوا بِغَيْرِهَا لَكُنَّا الْآنَ أَمَامَ طَائِفَةٍ مِنَ النَّظَرِيَّاتِ الرَّائِعَةِ الَّتِي تُسْرِعُ بِالْحَيَاةِ نَحْوَ الْحَضَارَةِ وَالْمَدَنِيَّةِ، وَلَكَانَتْ الْحَقَائِقُ الَّتِي نُسَمِّيها الْيَوْمَ بِالنَّظَرِيَّاتِ الْحَدِيثَةِ مِنْ مُخْلَفَاتِ الْمَاضِي الْبَعِيدِ.

لَقَدْ أَهَتَمَ الْمُسْلِمُونَ كَثِيرًا بِالْكَشْفِ عَنْ كُنُوزِ الدِّينِ، وَالشَّرِيعَةِ، وَالْأَخْلَاقِ، وَالْفَلَسَفَاتِ، وَعَنْ خَصَائِصِ اللُّغَةِ مِمَّا صَرَفَهُمْ أَوْ كَادَ عَنْ الْحَقَائِقِ الْكَوْنِيَّةِ، وَلَعَلَّ لَهُمُ الْعُذْرَ، لِأَنَّ الْعِلْمَ يَوْمَ ذَلِكَ كَانَ فِي دَوْرِ التَّكْوِينِ أَوْ الْإِنْتِقَالِ، عَلَى أَنَّهُمْ أَخْرَجُوا لِلنَّاسِ مِنْ ثَمَرَاتِ الْعُلُومِ مَا كَانَ لَهُ أَطْيَبُ الْأَثَرِ فِي حَيَاةِ الْجَمَاعَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَتَطَوُّرِهَا.

وَعَلَى أَيِّ حَالٍ، فَلَوْ تَسَنَّى لِلْمُسْلِمِينَ أَنْ يَهْتَمُّوا بِالْعُلُومِ الْعَمَلِيَّةِ، كَمَا أَهْتَمُّوا بِالْعُلُومِ النَّظَرِيَّةِ لَكُنَّا فِي غِنًى عَنِ الْبَحْثِ وَالتَّنْقِيبِ عَنْ أَقْوَالِ الْعَرَبِيِّينَ لِنُسَوِّقَ الْأُدْلَةَ الْمَحْسُوسَةَ عَلَى عَظَمَةِ الْكُونِ وَحِكْمَةِ خَالِقِهِ. وَنَتَعَرَّضَ هُنَا لِآيَتَيْنِ إِحْدَاهُمَا فِي عِلْمِ الْفَلَكِ؛ وَالْأُخْرَى فِي عِلْمِ الْحَيَوَانَ.

فِي عِلْمِ الْفَلَكِ:

لَا حَظَ الْفَلَائِكِيُّونَ خِلَالَ السَّنَوَاتِ الْأَخِيرَةِ أَنَّ الْمَرِيخَ كَوَكَبَ حَيٍّ، فِيهِ مَخْلُوقَاتٌ تَحْسُ وَتُدْرِكُ. وَإِذَا وَجَدْتَ الْحَيَاةَ فِي الْمَرِيخِ فَمِنْ الْمُمْكِنِ أَنْ تُوجَدَ فِي كَوَاكِبٍ أُخْرَى. وَفِي الْقُرْآنِ آيَاتٌ تُشِيرُ إِلَى هَذِهِ الْحَقِيقَةِ، مِنْهَا الْآيَةُ: «تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ»^(١)، وَالْآيَةُ: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»^(٢).

وَلَفْظَةُ «مَنْ» يُعْبَرُ بِهَا عَنِ الْعَاقِلِ الْمُدْرِكِ.

(١) الْإِسْرَاءُ: ٤٤.

(٢) التَّوْرَةُ: ٤٨.

فِي عِلْمِ الْخِيُولَانِ:

أَثْبَتَ الْعِلْمُ أَنَّ الْفِيلَ تَفْقَدُ الْمَحَاكِمَ لِلْمُخَالَفَاتِ الَّتِي تَقْطَعُ مِنْ بَغْضِهَا، وَتُصَدَّرُ الْمَحْكَمَةُ حُكْمَهَا عَلَى الْفِيلِ الْمُذْنَبِ بِالنَّفْيِ عَنِ الْجَمَاعَةِ، لِيَعِيشَ وَحِيداً فِي عَزَلَتِهِ^(١).

وَفِي كِتَابِ «اللَّهُ وَالْعِلْمُ الْحَدِيثُ»: «إِنَّ الْعَالِمَ «رَوِيَّال دِينَكسون»، وَهُوَ عَالِمٌ فِي التَّأْرِيخِ الطَّبِيعِيِّ، قَالَ فِي كِتَابِهِ «شَخْصِيَّةُ الْحَشَرَاتِ»:

«لَقَدْ دَرَسْتُ مَدِينَةَ النَّمْلِ عَشْرِينَ عَاماً فِي بُقَاعٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنَ الْعَالَمِ فَوَجَدْتُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَخْدُثُ فِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ بِدَقَّةٍ بَالِغَةٍ، وَتَعَاوُنٍ عَجِيبٍ، وَنِظَامٍ لَا يُمَكِّنُ أَنْ نَرَاهُ فِي مَدَنِ الْبَشَرِ، لَقَدْ رَاقَبْتُ النَّمْلَ وَهُوَ يَرْعَى أَبْقَارَهُ، وَهِيَ خَنَافَسٌ صَغِيرَةٌ رَبَّاهَا فِي جَوَفِ الْأَرْضِ زَمَاناً طَوِيلاً حَتَّى فَقَدْتُ فِي الظَّلَامِ بَصَرَهَا».

وَلَا أَحَدٌ يَدْرِي فِي أَيِّ عَصْرِ بَدَأَ النَّمْلُ حِرْفَةَ الرِّعْيِ، وَتَسْخِيرِ الْأَبْقَارِ، وَكُلَّ مَا نَعْلَمُهُ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِنْ كَانَ قَدْ سَخَّرَ نَحْواً مِنْ عَشْرِينَ حَيَوَاناً لِمَنَافِعِهِ، فَإِنَّ النَّمْلَ قَدْ سَخَّرَ مِائَاتِ الْأَجْنَاسِ مِنْ حَيَوَانَاتٍ أَدْنَى مِنْهُ جِنْساً فَإِنَّ بَقَّ النَّبَاتِ حَشَرَةً مِنَ الْحَشَرَاتِ يَعْسُرُ اسْتِصْلَاحُهَا، وَأَنَّ أَجْنَاساً كَثِيرَةً مِنَ النَّمْلِ تَرْعَى تِلْكَ الْحَشَرَاتِ، فَفِي الْبَاكِرِ يَرْسِلُ النَّمْلُ الرُّسُلَ لِتَجْمَعَ لَهُ بَيْضُ هَذَا الْبَقِّ، فَإِذَا جِئَ بِهِ وَضَعَهُ فِي الْمُسْتَعْمَرَةِ مَوْضِعَ الْبَيْضِ، وَيَعْنِي بِهِ حَتَّى يُفْقَسَ وَتَخْرُجَ صَغَارُهُ، وَتَمْتَلِكُ كَبُرَتْ تَدْرُسَانِلاً حُلُواً يَقُومُ عَلَى حَلْبِهِ جَمَاعَةٌ مِنَ النَّمْلِ، لَا عَمَلَ لَهَا إِلَّا حَلْبُ هَذِهِ الْحَشَرَاتِ بِمَسْهَا بِقُرُونِهَا، وَتَنْتُجُ هَذِهِ الْحَشَرَةُ (٤٨) قَطْرَةً مِنَ الْعَسَلِ كُلِّ يَوْمٍ، أَوْ بِمِقْدَارِ يَرِيدِ مِئَةِ ضَعْفٍ عَمَّا تُنْتِجُهُ الْبَقَرَةُ.

(١) انظر، كِتَابُ التَّعَايُشِ الدِّينِيِّ فِي الْإِسْلَامِ لِحَمُودِ الْعَرَبِ: ٤٩. (مِنَةُ ۞).

وَلَا حَظَّ الْعَالِمُ الْمَذْكُورُ أَنَّ التَّنْمِلَ قَدْ زَرَعَ مَسَاحَةً بَلَغَتْ خَمْسَةَ عَشَرَ مِثْرًا مَرْبَعًا
مِنَ الْأَرْضِ، وَأَنَّ جَمَاعَةً مِنَ التَّنْمِلِ تَقُومُ بِحَرْثِهَا عَلَى أَحْسَنِّ مَا يَقْضِي بِهِ عِلْمُ
الزَّرَاعَةِ، وَحِينَ يَنْبُت الزَّرْعُ تَخْرُجُ مَعَهُ أَعْشَابٌ مُضَرَّةٌ، وَتَتَجَمَّعُ عَلَيْهِ الدِّيدَانُ.
فَتَخْتَصُّ جَمَاعَةٌ مِنَ التَّنْمِلِ لِإِزَالَةِ هَذِهِ الْأَعْشَابِ وَالطُّفَيْلِيَّاتِ وَأُخْرَى لِحِرَاسَةِ
الزَّرْعِ مِنَ الدِّيدَانِ. وَهَكَذَا رَأَى هَذَا الْعَالِمُ قُرَى التَّنْمِلِ مُزْدَحِمَةً بِالْعَمَلِ وَالْعُمَالِ،
وَالْتَدْبِيرِ وَالنِّظَامِ، وَالتَّعَاوُنِ عَلَى الصَّالِحِ»^(١).

وإِلَى هَذَا الْإِحْكَامِ وَالْإِبْدَاعِ الْعَجِيبِ أَشَارَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ فِي الْآيَةِ: «وَمَا مِنْ
ذَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُنْمِثَ لَكُمْ»^(٢).

فَسُبْحَانَ مَنْ أَعْطَى كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَجَعَلَ مِنَ الذَّرَّةِ آيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ!
لَقَدْ أَمْضَى الْعُلَمَاءُ سَنَوَاتٍ فِي الْجَامِعَاتِ وَالْمُخْتَبِرَاتِ يَدْرُسُونَ وَيَتَعَلَّمُونَ، ثُمَّ
قَضَوْا أَمْدًا طَوِيلًا يَبْحَثُونَ وَيُلَاحِظُونَ بِمَعُونَةِ أَدْوَاتِهِمُ الْحَدِيثَةَ حَتَّى أَهْتَدَوْا إِلَى
شَيْءٍ مِمَّا أَشَارَتْ إِلَيْهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ وَمَا خَفِيَ عَنْهُمْ مِنْ أَسْرَارِ الْكَوْنِ الَّتِي أَشَارَ
إِلَيْهَا الْقُرْآنُ أَنْ يَعْدَلَ أَضْعَافَ مَا اكْتَشَفُوا حَتَّى الْيَوْمَ^(٣). وَعَلَى هَذَا نُكْرِرُ مَا قَدَّمْنَاهُ
مِنَ التَّنَاسُؤْلِ: مِنْ أَيْنَ أَتَتْ هَذِهِ الْمَعْلُومَاتُ إِلَى مُحَمَّدٍ؟!

وَلِنَفْتَرِضَ أَنَّ عُلُومَ هَذَا الْعَصْرِ بِجَافِيَّاتِهَا، وَكُتُبِهَا وَمُخْتَبِرَاتِهَا، وَالْآتِهَا كَانَتْ
مَوْجُودَةً فِي عَهْدِ مُحَمَّدٍ فَهَلْ اسْتَطَاعَ أَنْ يُحِيطَ بِكُلِّ الْعُلُومِ وَيَتَقَنَّهَا جَمِيعًا لَا

(١) أَنْظِرْ، «اللَّهُ وَالْعِلْمُ الْحَدِيثُ» لَعَبْدِ الرَّزَاقِ نُوفَلٍ: ١٢٨. (مِنْهُ ﷺ).

(٢) الْأَنْعَامُ: ٣٨.

(٣) لَا يَهْدُ مِنْ يَوْمٍ تَتَكَشَّفُ فِيهِ هَذِهِ الْأَسْرَارُ بَعْدَ أَنْ يُنْطَلَقَتِ الْعُلُومُ وَالْأَقْتِمَارُ الْإِصْطِنَاعِيَّةُ مِنْ عَقَالِهَا، وَفِي
ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي لَا رَيْبَ فِيهِ يَتَفَقَّهُ كُلُّ إِنْسَانٍ وَجْهًا لَوَجْهِهِ أَمَامَ عَظَمَةِ الْمُحَرِّكِ الْأَوَّلِ، وَلَا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ
الْأَرْضِ مُنْكَرٌ وَلَا مُشْكِكٌ. وَمَنْ يَنْشُرْ. (مِنْهُ ﷺ).

يَعْرَبُ عَنْ عِلْمِهِ مِنْهَا كَبِيرَةً وَلَا صَغِيرَةً؟! أَلَا مُحَمَّدٌ عَظِيمٌ مَا فِي ذَلِكَ رَيْبٍ، وَلَكِنْ عَظَمَتُهُ لَا تَرْتَفِعُ بِهِ مَا فَوْقَ الْإِنْسَانِيَّةِ. إِذَنْ فَالْتَّيَجَّةُ الْحَتْمِيَّةُ لِهَذَا الَّذِي قَدَّمْنَاهُ أَنَّ الْقُرْءَانَ مِنْ وَحْيِ خَالِقِ الْكَوْنِ وَمُبْدَعِهِ: «قُلْ لِبَنِي إِجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا»^(١). وَسَيَقُولُ الْمُعَانِدُونَ إِلَيَّ أَنَّ هَذَا إِبْتِهَاتٌ لِلْقُرْءَانِ بِالزَّامِ الْعَقْلَ لَا بِطَرِيقِ التَّجَرِبَةِ وَالْمُشَاهَدَةِ إِذْ جَعَلْتُمْ إِسْتِحَالَةَ صُدُورِ الْقُرْءَانِ عَنْ مُحَمَّدٍ دَلِيلًا عَلَى أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَهَذِهِ طَرِيقَةُ عَقْلِيَّةٍ لَا تُوصِلُ إِلَى يَقِينٍ مَا دُمْنَا لَمْ نَرِ الْمَوْحِي بِأَعْيُنِنَا وَنَسْمَعَهُ بِأَذَانِنَا.

وَنُجِيبُ بِأَنَّ الزَّامَ الْعَقْلَ يُؤْدِي إِلَى الْيَقِينِ، تَمَامًا كَالْمُشَاهَدَةِ وَالتَّجَرِبَةِ، فَإِنَّ عُلَمَاءَ الْفَلَكِ قَدْ رَأَوْا كَوْكَبًا «أُورَانُوس» يَتَحَرَّكُ حَرَكَاتٍ لَمْ يَسْتَطِيعُوا تَعْلِيلَهَا إِلَّا بِفَرْضِ وَجُودِ جُرْمٍ سَمَاوِي آخَرَ لَمْ يَكُونُوا قَدْ رَأَوْهُ بَعْدَ، وَأَطْلَقُوا عَلَى هَذَا الْجُرْمِ السَّمَاوِي الْمَفْرُوضِ اسْمَ «نِيبْتُون»^(٢). وَإِذَا دَلَّ هَذَا عَلَى شَيْءٍ فَإِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ لِلْحَوَاسِ حَدًّا لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَتَجَاوَزَهُ بِحَالٍ، كَمَا فَصَّلْنَا ذَلِكَ فِي بَحْثِنَا «اللَّهُ وَالْعَقْل».

وَإِذَا أَجَرْتُمْ لِلْعُلَمَاءِ أَنْ يَسْتَدْلُوا بِعُقُولِهِمْ عَلَى وَجُودِ كَوْكَبٍ رُبَّمَا كَانَ أَكْبَرَ مِنْ الْأَرْضِ بِآلَافِ الْمَرَّاتِ، وَأَنْ يَضَعُوا لَهُ أَسْمَاءً فَلِمَادًا لَا تُجِيزُونَ أَنْ نَسْتَدِلَّ نَحْنُ بِعُقُولِنَا؟!.



(١) الْإِسْرَاءُ: ٨٩.

(٢) أَنْظِرْ، كِتَابُ «قُشُورُ وَلُبَّاب» لِلدَّكْتُورِ نَجِيبِ زَكِيِّ مُحَمَّدٍ: ٢٤٨. (مِنْهُ ﷺ).

وَقَدْ أَفْرَدَ عُلَمَاءُ الْإِسْلَامِ الْقُدَامَى وَالْمُحَدِّثُونَ لِإِعْجَازِ الْقُرْءَانِ كُتُبًا^(١) لَا يُحِيطُ بِهَا الْحِسَابُ، وَلَا يَتَسَعُ الْمَقَامُ لِنَقْلِ أَقْوَالِهِمْ. وَمِنْ مَضَامِينِهَا:

أَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا فِي عَهْدِ مُحَمَّدٍ أَكْثَرَ النَّاسِ فَصَاحَةً وَكَلَامًا، فَدَعَاهُمُ الْقُرْءَانُ إِلَى أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْ يُعَارِضُوهُ بِضَاعَتِهِمُ الَّتِي يُفَاخِرُونَ بِهَا، وَيَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ إِنْ كَانَ كَاذِبًا، فَحَاوَلُوا، وَتَكَلَّفُوا، وَلَكِنْ عَلَى غَيْرِ جَدْوَى، فَهَجَّاهُمُ الْقُرْءَانُ وَقَرَّعَهُمُ بِالْعَجْزِ وَالتَّقْصَانِ، وَأَزْدَادَ لَهُمْ تَحْدِيًا، فَلَمْ يَجِدُوا حِيلَةً وَلَا وَسِيلَةً. وَأَمَّا سِرُّ عَجْزِهِمْ عَنِ الْمُعَارَضَةِ فَهُوَ فَصَاحَةُ اللَّفْظِ، وَصِدْقُ الْمَعْنَى، وَسُمُو الْهَدَفِ، وَإِيجَازُ دُونِ إِخْلَالٍ، وَمَعَارِفُ إِلَهِيَّةٍ، وَشَرِيعَةُ إِنْسَانِيَّةٍ، وَسَلَامَةٌ مِنَ التَّنَاقُضِ، وَمِنَ الْخَرَافَاتِ وَالْآبَاطِيلِ، كَمَا لَهُ مِنَ الْمَوْسِيقَى وَطَرَاوَةِ الْأُسْلُوبِ مَا تَجَعَّلَهُ جَدِيدًا فِي كُلِّ زَمَنٍ.

وَفِي كِتَابِ اللَّهِ وَجُوهٌ أُخْرَى لِلْإِعْجَازِ لَا تَقِلُّ فِي عَظَمَتِهَا عَنِ الْإِعْجَازِ الْعِلْمِيِّ، وَلَا نَحْتَاجُ فِي بَفْهَمِهَا إِلَى الْعُلُومِ وَالْأَدَوَاتِ الْقَنِيَّةِ، فَيَكْفِي أَنْ نَتَّبِعَ إِلَيْهَا بِأَفْكَارِنَا لِنَشْعُرَ بِزَوْعَتِهَا، وَنُؤْمِنَ بِأَنَّهَا مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ. مِنْ تِلْكَ الْوَجُوهِ هَذِهِ الصُّورُ الْمُتَنَوِّعَةُ الْحَيَاةِ النَّاسِ وَفَنَاتِهِمُ الَّتِي جَلَّاهَا الْقُرْءَانُ وَأَظْهَرَهَا أَمَثَالًا وَأَضْدَادًا مِنْ حَيَاةِ الْفُقَرَاءِ الْكَادِحِينَ إِلَى الْأَغْنِيَاءِ الْمُرَابِينَ. وَمِنَ الزُّهَادِ وَالْعِبَادِ إِلَى الْمُلْحَدِينَ وَالْمُسْتَهْتَرِينَ، وَمِنَ الْمُبْذِرِينَ الْمُسْرِفِينَ إِلَى الْأَشْحَاءِ وَالْمُقْتَرِينَ وَمِنَ الْعُمَلَاءِ الْخَائِنِينَ إِلَى الْمُخْلِصِينَ الْمَجَاهِدِينَ... إلخ وَلَوْ أَرَدْنَا تَعْدَادَ هَذِهِ الصُّورِ وَشَرْحَهَا لَطَالَ بَنَّا الْمَقَامَ وَحَسَبْنَا أَنْ نَتَدَبَّرَ الْآيَاتِ التَّالِيَةَ:

(١) انظر، آخر كتاب قرأته عن القرآن كتاب «نظرات في القرآن» للشيخ محمد الغزالي، وفيه آيات بينات لقوم يسمعون ويعقلون. (منه) .

فَقَدْ جَاءَ فِي الْآيَةِ : «يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ» ^(١).

أَقْرَأْ هَذِهِ الْآيَةَ لَتَرَى فِيهَا صُورَةَ أَوْلَئِكَ الْعُمَلَاءِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ أَعْدَاءِ اللَّهِ وَالْوَطَنِ أَوْلِيَاءَ وَأَصْدَقَاءَ يُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَالْإِخْلَاصِ ، وَيُمَهِّدُونَ لَهُمْ سَبِيلَ الْبَغْيِ وَالْعُدُوَانِ عَلَى أُمَّتِهِمْ وَوَطَنِهِمْ ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ لَا يُدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ ، وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ .

وَجَاءَ فِي الْآيَةِ : «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُبِينٍ» ^(٢).

وَأَيُّ عَالِمٍ لَمْ يَمَرَّ بِهَذِهِ التَّجَرِبَةِ وَيَخَاصِمَهُ الْمُكَابِرُونَ بِغَيْرِ دَلِيلٍ مِنَ الْبَدِيهَةِ وَالتَّجَرِبَةِ ، وَلَا مِنْ مَنَطِقِ الْعَقْلِ ، وَلَا مِنْ وَحْيِ مُنْزَلٍ ، وَقَدْ أَرَشَدَتْنَا الْآيَةُ نَفْسَهَا أَنَّهُ لَا عِلَاجَ لِهَذَا الْمَرَضِ إِلَّا السَّكُوتُ وَالْإِعْرَاضُ : «وَإِنْ جَدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ» ^(٣).

لَأَنَّهُ لَا دَوَاءَ لِلْمَرَّةِ وَالْإِسْتِمْسَاكِ بِالْجَهْلِ إِلَّا التَّجَاهُلُ وَاللَّامُبَالَاةُ . وَهَلْ يَقْهَرُ الْجَاهِلُ بِالْحُجَّةِ وَالْعِلْمِ ؟ ! وَصَدَقَ مَنْ قَالَ : «مَا حَاجَجْتُ جَاهِلًا إِلَّا حَاجَنِي» ^(٤) .
أَنَّ الْجَاهِلَ يُدَافِعُ عَمَّا قَالَ لَا لِأَنَّهُ صَوَابٌ ، بَلْ لِأَنَّهُ قَالَهُ وَكَفَى .

أَمَّا الْعُمَلَاءُ فَيَدْرِكُونَ أَنَّ آرَاءَهُمْ لَيْسَتْ هِيَ الْوَاقِعُ بِعَيْنِهِ ، بَلْ صُورَةٌ عَنْهُ تُخْطِئُ ، وَتُصِيبُ ، لِذَا قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : «لَقَدْ حَرَّمَتْ عَلَى نَفْسِي أَنْ أَسْتَعْمَلَ قَوْلًا يَدُلُّ

(١) الْمُنْتَجَعَةُ : ١ .

(٢) الْحَجَّ : ٨ .

(٣) الْحَجَّ : ٦٨ .

(٤) لَمْ أَغْتَرِ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ .

عَلَى رَأْيٍ قَاطِعٍ مِثْلَ قِطْعَاءٍ. وَبَلَا شَكٍّ. وَعَلَى التَّحْقِيقِ. وَصُرْتُ أَسْتَعْمَلُ بَدَلًا مِنْ ذَلِكَ: أَحْسَبُ. وَأُظَنُّ. وَيَبْدُو لِي. وَقَدْ أَكُونُ مُخْطِئًا. وَمَا إِلَى ذَلِكَ»^(١).

وَهَذِهِ سَبِيلٌ مَنْ يَشْعُرُ مِنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ عُرْضَةٌ لِلخَطَا وَالسَّهْوِ. وَمِنَ النَّاسِ مَنْ لَا حُجَّةَ لَهُ إِلَّا السَّيْفُ وَالنَّطْعُ، كَالَّذِي خَطَبَ بَيْنَ يَدَيِ مُعَاوِيَةَ حِينَ طَلَبَ مِنَ النَّاسِ أَنْ يُبَايَعُوا وَلَدَهُ يَزِيدَ. قَالَ الْخَطِيبُ: «إِنْ مَاتَ هَذَا فَهَذَا، وَمَنْ أَبَى فَهَذَا»^(٢). وَأَرَادَ فِرْعَوْنُ مَضَرَ أَنْ يَقْتُلَ نَبِيَّ اللَّهِ مُوسَى، لَا لِشَيْءٍ إِلَّا لِأَنَّهُ قَالَ لَهُ: «اللَّهُ رَبِّي لَا أَنْتَ».

وَنَقْتَفِظُ مِنْ أَقْوَالِ الْغَرِيبِينَ فِي الْقُرْءَانِ الْكَلِمَاتِ التَّالِيَةِ:

قَالَ الْمُسْتَشْرِقُ سَيْلٌ: «أَنَّ أَسْلُوبَ الْقُرْءَانِ جَمِيلٌ وَفِيَّاضٌ، وَمِنْ الْعَجَبِ أَنَّهُ يَأْسِرُ بِأُسْلُوبِهِ أَذْهَانَ الْمَسِيحِيِّينَ، فَيَجْذِبُهُمْ إِلَى تِلَاوَتِهِ، سِوَاءٍ فِي ذَلِكَ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ أَمْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ وَعَارَضُوهُ».

(١) مِنَ الْخَيْرِ أَنْ تَنْقُلَ قَاعِدَةً فِي عِلْمِ الْأَصُولِ وَهِيَ: إِذَا تَعَارَضَ دَلِيلَانِ فِي مَوْضُوعٍ وَاحِدٍ يَنْظُرُ فَإِنْ تَسَاوَيَا فِي الْقُوَّةِ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ أَسْقَطَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا الْآخَرَ. وَتَكُونُ النَّتِيجَةُ وَكَأَنَّهُ لَا دَلِيلَ يَصْلُحُ لِإِتِّبَاتٍ أَوْ نَفْيٍ. وَإِذَا كَانَ أَحَدُهُمَا أَقْوَى مِنَ الْآخَرِ أَسْقَطَ الْقَوِي الضَّعِيفَ، وَبَقِيَ وَحْدَهُ حُجَّةٌ بَلَاءٌ مُعَارَضٍ. وَهَذَا الصَّبْدُ يَعْمَلُ بِهِ كُلُّ مَنْ طَلَبَ الْحَقَّ لَوَجْهِ الْحَقِّ. وَأَنْصَفَ مِنْ نَفْسِهِ كَمَا أَنْصَفَ لَهَا. أَمَّا مَنْ يُجَادِلُ لِيَرَى النَّاسَ أَنَّ مَرَجِعَ الْقَوْلِ إِلَيْهِ وَحْدَهُ دُونَ سِوَاهُ فَلَا بُدَّ أَنْ يَجِرَ الْقَصْدُ إِلَى الضَّعْفِ وَالتَّعَنُّتِ وَالْقَوْلِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَإِنْ دَرَسَ الْعُلُومَ وَأَلَّفَ الْمُجَلَّدَاتِ. (مِنْهُ ٥٥٠).

(٢) قَدْ أَتَّضَحَ ذَلِكَ عِنْدَمَا أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ فِي أَخَذِ النَّبِيعَةِ لِيَزِيدَ وَلِيًّا لِلْعَهْدِ قَامَ يَزِيدُ بْنُ الْمُقَنَعِ فَلَخَّصَ الْمَوْقِفَ الْأُمْرِيَّ مِنَ الْخِلَافَةِ بِعِبَارَةٍ وَجِيزَةٍ وَلَكِنَّا بَلِغَةً قَالَ: «أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ هَذَا، وَأَشَارَ إِلَى مُعَاوِيَةَ... فَإِنْ هَلَكَ فَهَذَا، وَأَشَارَ إِلَى يَزِيدَ... فَتَمَّ أَمْرُ هَذَا، وَأَشَارَ إِلَى سَيْفِهِ... فَقَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ: «إِجْلِسْ فَإِنَّكَ سَيِّدُ الْخُطَبَاءِ». أَنْظِرْ. الْعَهْدُ الْفَرِيدُ: ١١٢/٥، طَبْعَةٌ سَنَةِ ١٩٥٣ م. دَارُ الْكُتُبِ الْعِلْمِيَّةِ بِيَرُوتَ، وَ: ٣٠٢/٢ - ٣٠٤. الْكَامِلُ لِابْنِ الْأَثِيرِ: ٣/٢١٤ - ٢١٦ وَ ٥١١، الْإِمَامَةُ وَالسِّيَاسَةُ تَحْقِيقُ الشَّيْرِي: ١/١٩٣.

وَقَالَ هِرشفلد: «لَيْسَ لِلْقُرْآنِ مِثِيلٌ فِي قُوَّةِ إِقْنَاعِهِ وَبِلَاغَتِهِ وَتَرْكِيبِهِ، وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ الْفَضْلُ فِي إِزْدِهَارِ الْعُلُومِ بِكَافَّةِ نَوَاجِيهَا فِي الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ».

وَقَالَ اسْتِنجاس هُوز: «يُمْكِنُنَا أَنْ نَقُولَ بِكُلِّ قُوَّةٍ أَنَّ الْقُرْآنَ أَعْظَمُ مَا كُتِبَ فِي تَارِيخِ الْبَشَرِ... وَمِنْ هُنَا لَا يَصِحُّ أَنْ نَقِيسَ الْقُرْآنَ بِأَيِّ كِتَابٍ آخَرَ... لَقَدْ نَفَذَ إِلَى قُلُوبِ سَامِعِيهِ بِكُلِّ قُوَّةٍ وَإِقْنَاعٍ، وَاجْتَثَ مِنْ ثَنَائِهَا كُلَّ مَا كَانَ مُتَاصِلًا فِيهَا مِنْ وَحْشِيَّةٍ وَأَنْتِزَاعٍ كُلِّ هَمَجِيَّةٍ مِمَّا أَوْجَدَ بِبِلَاغَتِهِ وَبَسَاطَتِهِ أُمَّةٌ مُتَمَدِّنَةٌ مِنْ أُمَّةٍ مُتَوَحِّشَةٍ مُتَبَرِّبَةٍ».

وَقَالَ غَوْتِ الشَّاعِرِ الْأَلْمَانِيِّ الْكَبِيرِ: «أَنَّ الْقُرْآنَ سَيَحَافِظُ عَلَيَّ تَأْثِيرِهِ إِلَى الْأَبَدِ، لِأَنَّ تَعَالِيْمَهُ عَمَلِيَّةٌ».

وَقَالَ جَاسْتُون: «إِحتَوَى الْقُرْآنُ عَلَى أُسُسٍ تَسْتَنْدُ إِلَيْهَا حَضَارَةُ الْعَالَمِ».

وَجَاءَ فِي دَائِرَةِ الْمَعَارِفِ الْبَرِيطَانِيَّةِ: «أَنَّ مُحَمَّدًا اجْتَهَدَ فِي اللَّهِ وَفِي نَجَاةِ أُمَّتِهِ، وَبِالْأَصَحِّ اجْتَهَدَ فِي سَبِيلِ الْإِنْسَانِيَّةِ جَمْعَاءَ»^(١).

(١) أنظر، كِتَابُ التَّعَايُشِ الدِّينِيِّ فِي الْإِسْلَامِ لِمُحَمَّدٍ الْقَزَبِ: ٤٩. (مِنْهُ ﷺ).

مُحَمَّدٌ ﷺ فِي بَعْضِ خَصَائِصِهِ

جاء في كُتُب السَّيَر: أَنَّ اللَّهَ خَصَّ مُحَمَّدًا ﷺ بِفَضَائِلَ لَمْ تَكُنْ لَنَبِيٍّ قَبْلَهُ، وَلَنْ تَكُونَ لِإِنْسَانٍ بَعْدَهُ. وَسَرَدَ بَعْضُ الرُّوَاةِ هَذِهِ الْخَصَائِصَ فَبَلَغَتْ مِئَةً وَخَمْسِينَ، وَسَوَاءٌ أَصَحَّ هَذَا الْقَوْلُ أَمْ كَانَ مُبَالَغًا فِيهِ فَإِنَّ مُحَمَّدًا عَاشَ كَمَا عَاشَ سَائِرُ النَّبِيِّينَ وَعَامَّةُ النَّاسِ فِي عَهْدِهِ، لَمْ يَدْخُلْ مَدْرَسَةً، أَوْ يَجْلِسَ إِلَى فَيْلَسُوفٍ، وَأَدَّى الرِّسَالَةَ كَمَا أَدَاَهَا الْأَنْبِيَاءُ مِنْ قَبْلُ، وَأَحْتَمَلَ فِي سَبِيلِهَا أَلْوَنًا مِنَ الْجُهْدِ وَالْمَشَقَّةِ كَمَا أَحْتَمَلُوا وَصَبَرُوا كَمَا صَبَرُوا.

وَلَكِنْ إِذَا رَجَعْنَا إِلَى آثَارِ النَّبِيِّينَ الْمَوْجُودَةِ بَيْنَ أَيْدِينَا وَجَدْنَا الْفَرْقَ كَبِيرًا بَيْنَ مُحَمَّدٍ وَغَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ:

١- لِمُحَمَّدٍ شَرِيعَةٌ ثَابِتَةٌ الْأُصُولُ كَامِلَةٌ الْأَرْكَانُ تَشْمَلُ أَحْكَامَهَا شُؤُونَ الْحَيَاةِ بِشَتَّى فُرُوعِهَا وَنَوَاحِيهَا. وَقَدْ اعْتَرَفَ الْبَعِيدُ قَبْلَ الْقَرِيبِ بِأَنَّهَا تَسْتَجِيبُ لَتَطَوُّرِ الْحَيَاةِ، وَتَسْمُو بِالْفَرْدِ وَالْجَمَاعَةِ إِلَى الْأَفْضَلِ وَالْأَكْمَلِ.

٢- نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ تَحْدِي كُلِّ جِيلٍ مَضَى مُنْذُ نُزُولِهِ، وَيَتَحَدَّى كُلِّ جِيلٍ يَأْتِي بِأَسْلُوبِهِ وَبَيَانِهِ، وَبِمَا يَحْوِيهِ مِنَ الْمَعَانِي وَالْحَقَائِقِ فَهُوَ كِتَابُ الدَّهْرِ الَّذِي يُعْرِفُ النَّاسَ بِحَقِيقَتِهِمْ وَمَصِيرِهِمْ، وَبِأَسْرَارِ الْكَوْنِ وَعَظَمَتِهِ.

٣- دِينَ مُحَمَّدٍ لِلنَّاسِ كَافَّةً، وَلَيْسَ لَشُعْبٍ دُونِ شُعْبٍ، كَدِينِ بَنِي إِسْرَائِيلَ

الَّذِينَ يَعْبُدُونَ رَبًّا يَمْنَحُهُمُ الْقُوَّةَ وَالْعَلَبَةَ عَلَى النَّاسِ أَجْمَعِينَ، وَيُسْرِعَ لَهُمْ مِنَ الْأَحْكَامِ مَا يَسْتَحِلُّونَ بِهَا الدَّمَاءَ وَالْأَمْوَالَ، كَمَا أَنَّهُ لَمْ يُزْهَدْ النَّاسُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ، وَبَيَّنَّ لَهُمْ قُصُورَ أَيْ الْجَنَّةِ، وَيُوزَعُ الثَّوَابُ عَلَى أَهْلِ الْقُبُورِ فَقَطْ، لَمْ يَجْعَلْ مِنَ الشَّيْطَانِ وَقَيْصَرَ شَرِيكَيْنِ لِلَّهِ، فَيُعْطِيهِ الْآخِرَةَ، لِأَنَّهَا طُهر، وَيُعْطِيهِمَا الدُّنْيَا لِأَنَّهَا رِجْسٌ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾^(١)؛ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٢).

وَلَا شَيْءَ لِلشَّيْطَانِ وَقَيْصَرَ، وَلَا لِلشُّرَكَاتِ وَالْحُكَّامِ. وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ لِلنَّاسِ، وَلِذَا حَاطَبُهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوْا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَلًا طَيِّبًا﴾^(٣)؛ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ﴾^(٤)؛ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾^(٥).

٤ - لَا نَعْرِفُ أَحَدًا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَغَيْرِهِمْ، دَعَا إِلَى الْعِلْمِ وَرَغِبَتْ فِيهِ وَرَفَعَ مِنْ شَأْنِهِ وَحَثَّ أَتْبَاعَهُ عَلَيْهِ كَمَا دَعَا إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ، فَمِنْ أَقْوَالِهِ: «لَيْسَ مِنِّي إِلَّا عَالِمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ»^(٦)، لِأَنَّ الْمُتَدِينَ بِدُونِ عِلْمٍ لَا حَصَانَةَ لَهُ، فَقَدْ

(١) الْأُرْعَد: ٣١.

(٢) الْأَنْوَابَةُ: ١١٦.

(٣) الْأَنْبَقَرَةُ: ١٦٨.

(٤) الْأَنْبَايَةُ: ٨٧.

(٥) الْأَمْلُك: ١٦.

(٦) أَنْظَر، الْفَرْدَوْسُ بِمَثُورِ الْخِطَابِ: ١٤٩/٣ ح ٥٢٧٩، لِسَانُ الْمِيزَانِ: ٣/٣٣٠ ح ١٣٧٢، رِيَّاضُ

الصَّالِحِينَ لِلتَّوْبَةِ: ٤٩، الْجَامِعُ الصَّغِيرُ: ٤٦٨/٢ ح ٧٦٩٩، كُنُزُ الْعُمَالِ: ١٠/١٥٦ ح ٢٨٨٠٤.

يَسْتَجِيبُ إِلَى غُرُورِ الشَّيْطَانِ، وَبَاطِلِهِ الْمُمُوءِ وَ
وَقَالَ: «مَنْ ظَنَّ أَنَّ لِلْعِلْمِ غَايَةً فَقَدْ بَخَسَهُ» ^(١). أَيَّ أَنَّ الْعِلْمَ لَا نَهَايَةَ لَهُ، وَيَدُلُّ
هَذَا الْقَوْلَ عَلَى بُعْدِ فِي النَّظَرِ لَا يَدْرِكُ مَدَاهُ.

وَقَالَ: «لَيْسَ الْحَسَدُ مِنْ خُلُقِ الْمُؤْمِنِ إِلَّا فِي طَلَبِ الْعِلْمِ» ^(٢).
وَقَالَ: «مُجَالَسَةُ الْعُلَمَاءِ عِبَادَةٌ» ^(٣).

وَقَالَ: «عَالِمٌ يُتَنَفَّعُ بِعِلْمِهِ أَفْضَلُ مِنْ سَبْعِينَ أَلْفَ عَابِدٍ» ^(٤).
وَقَوْلُهُ: «الْحَسَدُ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ مِنْ خُلُقِ الْمُؤْمِنِ» ^(٥). دَعْوَةٌ صَرِيحَةٌ لِلتَّنَافُسِ
وَالْمُبَارَاةِ عَلَى صَعِيدِ الْحَاجَاتِ الثَّقَافِيَّةِ. وَيُشِيرُ بِقَوْلِهِ: «يُتَنَفَّعُ بِعِلْمِهِ»، إِلَى الْعُلُومِ
الْعَمَلِيَّةِ الَّتِي تُثْمِرُ ثَمَرًا مَحْسُوسًا مَلْمُوسًا، أَمَّا «الْعُلُومُ» الَّتِي لَا تَتَجَاوَزُ الْكَلَامَ
فَهِيَ نَافِلَةٌ وَفَضُولُ.

رُوي أَنَّ النَّبِيَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا جَمَاعَةٌ قَدْ أَحَاطُوا بِرَجُلٍ فَقَالَ: مَا هَذَا؟
قِيلَ: عَلَامَةٌ.

قَالَ: وَمَا الْعَلَامَةُ؟.

قِيلَ: أَعْلَمَ النَّاسَ بِأَنْسَابِ الْعَرَبِ.

قَالَ: «ذَا عِلْمٌ لَا يُنْفَعُ مِنْ عِلْمِهِ، وَلَا يَضُرُّ مَنْ جَهَلِهِ» ^(٦).

(١) أنظر، جامع بيان العلم وفضله: ١٠٩/١، مِنبية المريد: ٢٥٩.

(٢) أنظر، غرر الحكم: ٥٩٣/٢ ح ٣، عُيُونُ الْحِكْمِ وَالْمَوَاعِظُ: ٤٠٩.

(٣) أنظر، كنز العمال: ١٠/٤٨٨ ح ٢٨٧٥٦، مُسْنَدُ الْإِيمَانِ الرَّضَا: ١٦٤ ح ٨١.

(٤) أنظر، الكافي: ١/٣١ ح ٨، تُحْفُ الْمَقُولِ: ٢٩٣، مِنبية المريد: ٢٩، بِصَادِرِ الدَّرَجَاتِ: ٢٦.

(٥) أمظر، كنز العمال: ١٠/١٨٠ ح ٢٨٩٣٧، كَشَفُ الْخَفَاءِ: ٣/٢٩٤ ح ٢٦٨٥.

(٦) أنظر، التَّرَاثِيمُ الْإِدَارِيَّةُ: ٢/٣٠١، الْأَنْشَابُ لِلْسَّمْعَانِيِّ: ٩/١، الكافي: ١/٣٢ ح ١.

أَمَّا قَوْلُهُ: «أَطْلُبُوا الْعِلْمَ وَلَوْ بِالصَّيْنِ» ^(١)....

وَقَالَ: «الْحِكْمَةُ صَالَةُ الْمُؤْمِنِ، فَخُذِ الْحِكْمَةَ وَلَوْ مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ» ^(٢).

وَفِي رَوَايَةٍ ثَانِيَةٍ: «خُذِ الْحِكْمَةَ، وَلَا يَضُرَّكَ مِنْ أَيِّ وِعَاءٍ خَرَجَتْ» ^(٣).

وَفِي ثَالِثَةٍ: «خُذِ الْحِكْمَةَ أَنَّى كَانَتْ، فَإِنَّ الْحِكْمَةَ تَكُونُ فِي صَدْرِ الْمُنَافِقِ

فَتَلْجُلُجُ فِي صَدْرِهِ، حَتَّى تَخْرُجَ فَتَسْكُنَ إِلَى صَوَاحِبِهَا فِي صَدْرِ الْمُؤْمِنِ» ^(٤).

أَمَّا قَوْلُهُ هَذَا فَدَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى أَنَّ الْعِلْمَ لَا يُجَنِّسُ بَيْنَ وَلَا بُلْغَةً أَوْ وَطْنَ، وَأَنَّ

عَلَى طَالِبِهِ أَنْ يَسْعَى وَرَاءَهُ أَنَّى يَكُونُ، بِصَرْفِ النَّظَرِ عَنْ دِينِ صَاحِبِهِ وَبِلَدِّهِ

وَأَخْلَاقِهِ. وَبَعْدَ فَهْلٍ يُدْرِكُ هَذِهِ الْحَقَائِقَ، وَيَدْعُو إِلَيْهَا رَجُلٌ أُمِّي عَاشٍ فِي

الْجَاهِلِيَّةِ الْجَهْلَاءِ إِذَا لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا؟! لَقَدْ طَارَ الْعِلْمُ إِلَى الْفَقَرِ وَتَجَاوَزَهُ إِلَى مَا لَا

نَهَايَةَ، وَمَا زَالَ جَمْعُهَا مِنَ النَّاسِ يَتَنَكَّرُونَ لِهَذِهِ الْحَقَائِقِ، وَيَنْصَبُونَ الْعَدَاوَةَ

وَالْبَغْضَاءَ لِمَنْ يَجْهَرُ بِهَا.

لَقَدْ فَتَحَ مُحَمَّدٌ النَّوَافِذَ لِلْعَرَبِ وَالْمُسْلِمِينَ عَلَى عُلُومِ الْعَالَمِ كُلِّهَا، وَالْأَفْكَارِ

كُلِّهَا بِغَيْرِ قَيْدٍ وَلَا شَرْطٍ لِأَنَّهُ يَغْلَمُ عِلْمَ الْيَقِينِ أَنَّ الْعُلُومَ هِيَ الْأَسَاسُ الْأَوَّلُ

لِلنَّجَاحِ، وَالْأَدَاةُ الْفَعَّالَةُ لِلتَّطَوُّرِ. وَقَزَدَ وَجَدَتْ دَعْوَتُهُ إِلَى الْعِلْمِ صَدَاهَا بَيْنَ

أَتْبَاعِهِ، وَبِفَضْلِهَا أَنْتَهَتْ إِلَيْهِمْ «رِعَايَةُ الْعَالَمِ كُلِّهِ» كَمَا قَالَ «دَرْبِير» الْمُدْرَسُ

(١) أَنْظِرْ، كُنْزُ الْمُثَالِ: ١٠/١٣٨ ح ٢٨٦٩٧، شَرْحُ أَصُولِ الْكَافِي: ١/١٥٧، فَيْضُ الْقَدِيرِ: ١/١٦٨ ح

١١١٠ و ١١١١، وَسَائِلُ الشِّيعَةِ: ٢٧/٢٧، الْجَامِعُ الصَّغِيرُ لِلشُّيُوعِيِّ: ١/٤٤، الْبَحْرُ الرَّائِقُ: ٤/٢١.

(٢) أَنْظِرْ، نَهْجُ الْبَلَاغَةِ: أَلْحِكْمَةُ (٨٠).

(٣) أَنْظِرْ، خُطْبُ نَهْجِ الْبَلَاغَةِ: ٤/١٨، سُنَنِ أَبِي مَاجَةَ: ٢/١٣٩٥ ح ٤١٦٩، سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ: ٤/١٥٥

ح ٢٨٢٨.

(٤) أَنْظِرْ، نَهْجُ الْبَلَاغَةِ: أَلْحِكْمَةُ (٧٧).

بِأَحَدِي جَامَعَاتِ الْوِلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ.

وَلَوْ أَخْلَصَ الْمُسْلِمُونَ لَتَعَالِيمِ نَبِيِّهِمْ، وَاسْتَمَرُّوا عَلَى الْخُطَّةِ الَّتِي رَسَمَهَا لِدَامَتْ لَهُمُ الزَّعَامَةُ الْعِلْمِيَّةُ إِلَى الْأَبَدِ، وَلَوْزَعُوا الْفَنِّيَّينَ، وَالْخَبْرَاءَ عَلَى أَهْلِ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ، وَلَمَّا اسْتَجَدُّوا الْمُسَاعَدَاتِ وَالْمَعُونَاتِ مِنْ هُنَا وَهُنَاكَ، لَوَجَّاهَدَ الْمُسْلِمُونَ فِي اللَّهِ، وَابْتَعَدُوا عَنْ أَعْدَائِهِ وَأَعْدَائِهِمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْهُمْ بَطَانَةً وَأَوْلِيَاءَ، لَوْ تَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَالشَّقَاقِ كَمَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ لَمَا كَانَ لِلِاسْتِعْمَارِ وَالصَّهْيُونِيَّةِ فِي بِلَادِهِمْ عَيْنٌ وَلَا أَثَرٌ. لَوْ عَمِلُوا بِقَوْلِ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ: «لَا تَجْمَعُوا مَا لَا تَأْكُلُونَ، وَلَا تَبْنُوا مَا لَا تَسْكُنُونَ»^(١). لِمَا سَمِعَ الْعَالَمُ بِلَفْظِ الْإِشْتِرَاكِيَّةِ وَأَحْزَابِهَا وَأَقْطَابِهَا.

أَنَّ النُّصُوصَ وَالْقَوَائِينَ تَظَلُّ جَامِدَةً وَأُمُورًا شَكْلِيَّةً حَتَّى تُطَبَّقَ عَمَلِيًّا وَتَتَحَوَّلَ إِلَى وَقَائِعٍ. وَلَوْلَا أَنْ تَجِدَ الْإِشْتِرَاكِيَّةُ أُمَّةً تُنَاصِرُهَا وَتُمَارِسُهَا لَكَانَتْ مُجَرَّدَ كَلِمَاتٍ نَقَرَاهَا كَمَا نَقَرَأُ جُمْهُورِيَّةَ إِفْلَاطُونٍ، وَمَدِينَةَ الْفَارَابِيِّ. إِنَّ النُّصُوصَ أَشْبَهَ بِمُخْطَطٍ لِعِمَارَةٍ لَا يَظْهَرُ أَثَرُهُ إِلَّا بَعْدَ الْبِنَاءِ وَالْإِنْتِهَاءِ مِنَ الْعَمَلِ.

قَالَ الرَّسُولُ الْأَعْظَمُ: «مَنْ سَرَّهُ بِحُبُوحَةِ الْجَنَّةِ فَلْيَزِمِ الْجَمَاعَةَ»^(٢)... «وَمَنْ

(١) أنظر، كُنْزُ الْمُتَالِ: ٢٧٥/١ ح ١٣٦٣، تَأْرِيخُ دِمَشْقَ: ٤١/٢٠٠، مُسْنَدُ الشَّهَابِ: ٤٥/١ ح ٥٩١.

الْجَامِعِ الصَّغِيرِ: ٢٩٨/٢ ح ٦٤٣٣، شَرْحُ نَهْجِ الْبَلَاغَةِ لِابْنِ أَبِي الْحَدِيدِ: ٢٣٣/٦.

(٢) أنظر، كُنْزُ الْمُتَالِ: ٢٠٧/١ ح ١٠٣٣، الْفَائِقُ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ: ٧٣/١، شَرْحُ نَهْجِ الْبَلَاغَةِ لِابْنِ

أَبِي الْحَدِيدِ: ١٢٣/٨، مُسْنَدُ الشَّهَابِ: ٢٥٠/١ ح ٤٥٠، الْمُعْجَمُ الْأَوْسَطُ: ١٩٣/٧، مُنْتَخَبُ مُسْنَدِ

عَبْدِ بْنِ حَمِيدٍ: ٣٧، الْمُصَنَّفُ لِعَبْدِ الرَّزَاقِ الصَّنْعَانِيِّ: ٣٤١/١١، مَجْمَعُ الزَّوَائِدِ: ٢٥٥/٥، سُنَنِ

التِّرْمِذِيِّ: ٣١٥/٣، مُسْنَدُ أَحْمَدَ: ٢٦/١، كِتَابُ الْمُسْنَدِ لِلشَّافِعِيِّ: ٢٤٤.

خَرَجَ قَيْدَ شِبْرِ عَنْ الْجَمَاعَةِ فَقَدْ خَلَعَ رَبْقَةَ الْإِسْلَامِ عَنْ عُنُقِهِ» ^(١)... «وَمَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً» ^(٢). يُشِيرُ بِهَذَا إِلَى أَنَّ آيَةَ فِكْرَةٍ لَا تَعْتَمِدُ عَلَى جَمَاعَةٍ مِنَ النَّاسِ تُؤْمِنُ بِهَا وَتُدَافِعُ عَنْهَا مُحْكُومٌ عَلَيْهَا بِالْفَسَلِ. وَهَذِهِ النَّظَرِيَّةُ مِنْ أَحَدِ النَّظَرِيَّاتِ الَّتِي أَكْتُشِفَتْ فِي عَصْرِنَا هَذَا. وَكَمْ فِي تَعَالِيمِ مُحَمَّدٍ مِنْ أَفْكَارٍ لَوْ كُشِفَ عَنْهَا الْغَطَاءُ، وَقُورِنَتْ بِالْأَفْكَارِ يَوْمَ ذَاكَ، لَتَبَيَّنَ أَنَّهَا سَبَقَتْ عَصْرَهَا بِآلَافِ السِّنِينَ. يَقُولُ عُلَمَاءُ التَّرْبِيَةِ: إِنَّ الْإِنْسَانَ نَتِيجَةُ لِعَوَامِلَ كَثِيرَةٍ، مِنْهَا الزَّمَانُ وَالْمَكَانُ، وَتَقَالِيدُ مَنْ يُعَاشِرُ، بَلْ مِنْهَا غِذَاؤُهُ وَكِسَاؤُهُ، وَالْهَوَاءُ الَّذِي يُسْتَنْشَقُ، وَالصَّوْتُ الَّذِي يُسْمَعُ، وَالضَّوُّ الَّذِي يُرَى، وَمَا إِلَى ذَلِكَ، وَلِذَا إِذَا أَرَادُوا مَعْرِفَةَ شَخْصٍ عَلَى حَقِيقَتِهِ دَرَسُوا مِهْنَتَهُ، وَبَيْتَهُ، وَالظُّرُوفَ الْمُحِيطَةَ بِهِ.

وَمُحَمَّدٌ كَانَ غَرِيبًا عَنْ قَوْمِهِ فِي أَخْلَاقِهِ وَأَفْكَارِهِ. كَانُوا يَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ، وَكَانَ أَبْغَضُ النَّاسِ لَهَا ^(٣)، وَكَانُوا يَظْلَمُونَ وَيَكْذِبُونَ، وَلَا يَتَوَرَّعُونَ عَنِ الْمُتَنَكَّرَاتِ

(١) أنظر، المجموع: ١٩٠/١٩، المبسوط للرخسي: ٢٦٣/٧، روضة الطالبين: ٢٧/٧، مُغْنِي الْمُحْتَاج: ١٢٤/٤، حَوَاشِي الشَّرْوَانِي: ٦٥/٩، كَشَفُ الْقِنَاعِ: ٢٠٦/٦، إِغَاثَةُ الطَّالِبِينَ: ١٧٨/٤، نَيْلُ الْأَوْطَارِ: ٣٥٧/٧، الْمَحَاسِنِ: ٩٤/١، الْكَافِي: ٤٠٥ ح ٤.

(٢) أنظر، مُتَنَهَى الْمَطْلَبِ لِلْعَلَمَةِ الْجَلِيِّ: ٩٨٣/٢، سُبُلُ السَّلَامِ: ٢٦١/٣ ح ٥، نَيْلُ الْأَوْطَارِ: ٣٥٦/٧ ح ٣١٨١، سُنَنِ الْبَيْهَقِيِّ: ١٥٧/٨، تَبْسِيرُ الْوُصُولِ: ٣٩/٢، صَحِيحُ مُسْلِمٍ: ٢١/٦.

(٣) قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ مُحَمَّدٌ ﷺ سِنَّ الرِّجَالِ، قَالَ لَهُ الْبَغِضُ، يَا غُلَامُ أَسَأَلُكَ بِعَقِّ اللَّاتِ وَالْعَزَى إِلَّا أَخْبَرْتَنِي عَمَّا أَسَأَلُكَ؟

فَقَالَ لَهُ مُحَمَّدٌ: لَا تَسْأَلْنِي بِاللَّاتِ وَالْعَزَى: فَوَاللَّهِ مَا بَغِضْتُ شَيْئًا بَعْضَهُمَا.

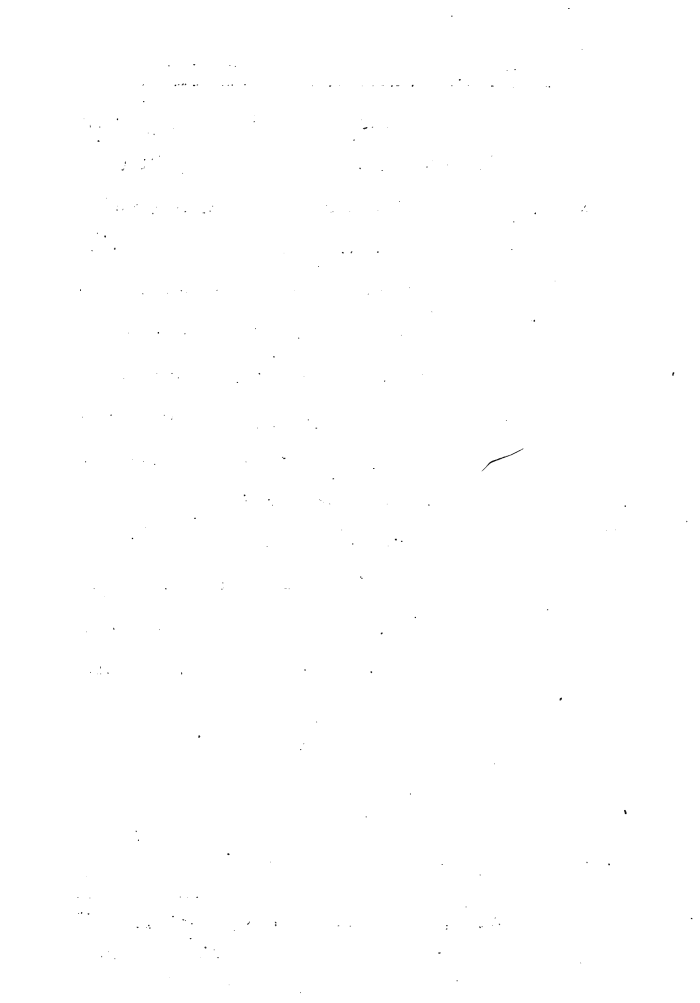
وَكَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَجُلٍ اخْتِلَافٌ فِي شَيْءٍ، فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: إِخْلِفْ بِاللَّاتِ وَالْعَزَى؟

فَقَالَ لَهُ: مَا خَلَفْتُ بِهَا قَطُّ. وَأَنِّي أَعْرَضُ عَنْهُمَا. (مِنْهُ ﷺ).

أَنْظُرِ، السِّيَرَةُ النَّبَوِيَّةُ لِابْنِ هِشَامٍ: ١١٧/١، السِّيَرَةُ النَّبَوِيَّةُ لِابْنِ كَثِيرٍ: ٢٤٥/١، دَلَائِلُ النُّبُوَّةِ

وَالْفَوَاحِشَ، وَكَانَ أَشَدَّ النَّاسِ نُفْرَةً مِنَ الظُّلْمِ، وَالْكَذِبِ، وَالْمُنْكَرِ، وَالْفَحْشَاءِ،
وَمِنْ كُلِّ مَا يُشِينُ حِينَ أَسَمَوْهُ الصَّادِقَ الْأَمِينِ. وَكَانُوا يَعِيشُونَ فِي عَزْلَةٍ عَنِ الْأُمَمِ
وَأَفْكَارَهَا وَعُلُومَهَا، حَتَّى تَغْلَبَتْ عَلَيْهِمُ الْبِدَاوَةُ بِأَجْمَعِ مَعَانِيهَا، وَكَانَ هُوَ مَعْدِنُ
الْعُلُومِ وَمَصْدَرُهَا. وَإِذَا كَانَ فِكْرُ الْإِنْسَانِ لَا يَتَجَاوَزُ حُدُودَ الْمَعَارِفِ فِي عَصْرِهِ
مَهْمَا سَمَتْ مَوَاهِبُهُ وَعَبَقَرِيَّتُهُ، فَمِنْ أَيْنَ هَذِهِ الْعُلُومُ فِي الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ ؟
رُبَّمَا يُوجَدُ فَرْدٌ أَوْ أَفْرَادٌ يَمْتَارُونَ عَنْ بَيْنَتِهِمُ بِالْوَعْيِ وَالْإِدْرَاكِ، فَيَتَفَرَّغُونَ - مَثَلًا -
- مِنَ الرِّقِّ وَالْعُبُودِيَّةِ، وَيُحِبُّونَ لغيرِهِمْ مَا يُحِبُّونَ لَأَنْفُسِهِمْ، وَرُبَّمَا يُوجَدُ مِنَ الْعِبَادِ
وَالزُّهَادِ مَنْ يُخَالِفُ قَوْمَهُ فِي التَّقَالِيدِ وَالْعَادَاتِ، فَيَعْتَزِلُ عَنْهُمْ فِي صَوْمَعَةٍ لَا
يَبْرَحُهَا مَدَى الْحَيَاةِ، يُصَلِّي فِيهَا وَيَصُومُ، وَلَا يَعْرِفُ عَنْ شُؤْنِ النَّاسِ كَثِيرًا وَلَا
قَلِيلًا، أَمَّا أَنْ يَعِيشَ رَجُلٌ فِي بَيْتَةٍ أَبْعَدَ مَا تَكُونُ عَنِ الْحَضَارَةِ وَالْمَدِينَةِ، ثُمَّ يَدْرِكُ
أَسْسَ الْعُلُومِ، وَأَصُولَ التَّشْرِيعِ، وَأَسْرَارَ الْحِكْمَةِ، وَلَا يَشْتَبِهَ عَلَيْهِ الْحَقُّ مَهْمَا
خَفِيَ، وَيَجْمَعُ بَيْنَ الْقُلُوبِ الْمُتَنَافِرَةِ، وَيُوجِدُ أُمَّةً مِنَ الْعَدَمِ تُقِيمُ الْأُمَمَ، وَتَحْدِثُ
فِي الْعَالَمِ الْعَجَبَ الْعُجَابَ، أَمَّا هَذَا فَلَا يَبْلُغُ هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ إِلَّا إِذَا نَطَقَ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ
وَعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ.

➤ للإِسْهَانِي: ٢٣٠، عُيُونُ الْأَثَرِ لِأَمِينِ سَيِّدِ النَّاسِ: ٦٢/١، الْبَدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ: ٢/٢٤٦، سُبُلُ الْهُدَى
وَالرَّشَادِ: ٩/١، الطَّبَقَاتُ الْكُبْرَى: ١٥٤/١.



مُحَمَّدٌ ﷺ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ

جاء في الآية: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾^(١).

وَتَسْأَلُ: لِمَاذَا خُتِمَتِ النَّبُوءَةُ بِمُحَمَّدٍ؟! وَمَا هُوَ السَّبَبُ لِهَذَا الْإِحْتِكَارِ وَالِاسْتِثْنَاءِ؟! وَإِذَا حَكَّرَمَ الْعَقْلَ بَضْرُورَةَ الْبَيْعَةِ لِلنَّاسِ كَافَّةً، وَحَاجَتَهُمُ الْمَاسَّةَ إِلَيْهَا، كَمَا سَبَقَ، فَإِنَّ حُكْمَهُ هَذَا لَا يَخْتَصُّ بِزَمَانٍ دُونَ زَمَانٍ وَجِيلٍ دُونَ جِيلٍ.

وَالْجَوَابُ: أَنَّ مُهِمَّةَ النَّبِيِّ هِدَايَةُ النَّاسِ إِلَى الْآلِي هِيَ أَقْوَمُ، وَإِرْشَادُهُمْ بِأَنَّ لَهُمْ خَالِقًا عَظِيمًا، مِنْ حَقِّهِ أَنْ يُعْبَدَ وَيُطَاعَ، وَأَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ وَمَسْئُولُونَ، وَأَنْ يُبَلِّغَهُمْ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنَ الْقَوَانِينِ فِي مَعَاشِهِمْ وَمُعَامَلَتِهِمْ وَسَائِرِ أَفْعَالِهِمْ، وَأَنْ يُلْقِيَ الْحُجَّةَ عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾^(٢).

وَهَذَا الْقُرْءَانُ فِيهِ بَلَاغٌ مِنْ اللَّهِ وَنَصَائِحٌ لِلنَّاسِ، وَتَبْيَانٌ كُلِّ شَيْءٍ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾^(٣).

(١) الْأَخْزَابُ: ٤٠.

(٢) الْأَنْشَاءُ: ١٦٦.

(٣) الْأَنْحُلُ: ٨٩.

وَمَا دَامَ الْقُرْآنُ قَائِمًا، وَخَالِدًا، وَلَمْ تَنْلُهُ يَدُ التَّحْرِيفِ، وَالتَّقْلِيمِ، وَالتَّطْعِيمِ
فَبَأَيِّ شَيْءٍ يَأْتِي النَّبِيُّ الْجَدِيدُ؟! فَإِنْ جَاءَ بِمَا يُوَفِّقُ لَمْ يَكُنْ إِلَيْهِ حَاجَةٌ، أَوْ بِمَا
يُخَالِفُ وَجِبَ رَدُّهُ وَتَكْذِيبُهُ، لِأَنَّ الْقُرْآنَ تَامَ كَامِلٌ، وَكُلُّ مَا فِيهِ مِنَ الْعَقَائِدِ
وَالْمَعَارِفِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْأَحْكَامِ حَقٌّ وَصِدْقٌ، فِدِينُ مُحَمَّدٍ وَشَرِيعَتُهُ، وَتَعَالِيَمُهُ قَدْ
بَلَغَتْ الْغَايَةَ وَالْكَمَالَ، وَالزِّيَادَةُ عَلَى التَّمَامِ نُقْصَانٌ، كَالِإِصْبَعِ السَّادِسَةِ فِي الْكَفِّ
وَكُلُّ ضَوْءٍ مَعَ نُورِ الشَّمْسِ عَدَمٌ.

ثُمَّ نَسْأَلُ مَنْ يَسْتَكْثِرُ عَلَى مُحَمَّدٍ أَنْ تُخْتَمَ بِهِ النُّبُوَّةُ، وَعَلَى الْإِسْلَامِ أَنْ تَنْتَهِيَ
بِهِ الْأَدْبَانُ: هَلْ مِنْ أُمَّةٍ آتَتْخَذَتِ الْإِسْلَامَ دِينًا، وَطَبَقَتْ تَعَالِيَمَهُ كَمَا يَجِبُ فَعَاقِبَهَا
عَنِ التَّقَدُّمِ وَالتَّهَوُّضِ فِي سَبِيلِ الْحَيَاةِ؟!

وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ أَطْفَالَ الْمَدَارِسِ يَعْلَمُونَ أَنَّ الدُّنْيَا بِكَامِلِهَا وَالْأَجْيَالُ
الْقَدِيمَةُ وَالْحَدِيثَةُ قَدْ اسْتَفَادَتْ مِنَ الْإِسْلَامِ حَتَّى الَّذِينَ لَمْ يَعْتَقِفُوهُ وَيُؤْمِنُوا بِهِ،
لَأَنَّهُ نُورٌ، وَالتُّورُ يُضِيءُ طَرِيقَ السَّالِكِينَ مَهْمَا كَانَ لَوْنُهُمْ، وَالشَّمْسُ تَشْرُقُ عَلَى
الْمُؤْمِنِينَ وَالْبَاحِدِينَ سَوَاءٌ بِسَوَاءٍ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ فَإِنَّا نَدْعُ الْجَوَابَ لغيرِنَا،
لغيرِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ كِبَارِ الْأَدْبَاءِ، وَالْفَلَاسِفَةِ، وَالْعُلَمَاءِ، قَالَ غَوْتَةُ الْأَلْمَانِيِّ الَّذِي
اعْتَرَفَتْ أوروبًا بِزَعَامَتِهِ الْأَدَبِيَّةِ: «أَنَّ مُحَمَّدًا رَجُلٌ خَارِقٌ لِلْعَادَةِ، وَأَنَّهُ نَبِيٌّ لَيْسَ
بِشَاعِرٍ^(١)». وَقَالَ ه. ج. ويلز الإنجليزِي الشَّهِيرُ فِي كِتَابِهِ «مَوْجَزُ تَارِيخِ الْعَالَمِ»
عِنْدَ كَلَامِهِ عَنِ الْعَرَبِ «كَانَ الْعِلْمُ يَثْبُجُ عَلَى قَدَمَيْهِ وَثَبَأَ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ حَلٌّ فِيهِ
الْفَاتِحُ الْعَرَبِيُّ».

وَقَالَ نَهْرُو رَئِيسُ وَزَرَاءِ الْهِنْدِ فِي كِتَابِهِ «لَمَحَاتُ مِنْ تَارِيخِ الْعَالَمِ»: «كَانَ

(١) انظر، كِتَابُ التَّعَايُشِ الدِّينِيِّ فِي الْإِسْلَامِ لِمُحَمَّدٍ الْعَرَبِ: ١١٣. (مِنْهُ ﷺ).

مُحَمَّدٌ وَاثِقًا بِنَفْسِهِ وَرِسَالَتِهِ . وَقَدْ هَيَأَ بِهَذِهِ الثِّقَةِ ، وَهَذَا الْإِيمَانَ لِأُمَّتِهِ أَسْبَابَ الْقُوَّةِ وَالْعِزَّةِ وَالْمُتَمَعَةِ ، وَحَوْلَهَا مِنْ سُكَّانِ صَحْرَاءِ إِلَهِى سَادَةٌ يَفْتَتِحُونَ نِصْفَ الْعَالَمِ الْمَعْرُوفِ فِي زَمَانِهِمْ ، كَانَتْ ثِقَةُ الْعَرَبِ عَظِيمِينَ . وَقَدْ أَضَافَ الْإِسْلَامُ إِلَيْهِمَا رِسَالَةَ الْأُخُوَّةِ ، وَالْمُسَاوَاةِ ، وَالْعَدْلِ ... وَتَبَّ الشَّعْبُ الْعَرَبِي بِنَشَاطِ فَائِقٍ أَدْهَشَ الْعَالَمَ وَقَلْبَهُ رَأْسًا عَلَى عَقَبٍ ، وَأَنَّ قِصَّةَ انْتِشَارِ الْعَرَبِ فِي آسِيَا وَأُورُوبَا ، وَأَفْرِيقِيَا ، وَالْحَضَارَةِ الرَّاقِيَةِ ، وَالْمَدِينَةِ الزَّاهِرَةِ الَّتِي قَدَّمُوها لِلْعَالَمِ هِيَ أَعْجُوبَةٌ مِنْ أَعْجُوبَاتِ التَّأْرِيخِ ... لَقَدْ آمَنَّاوُا بِالرُّوحِ الْعِلْمِيَّةِ الْإِسْطِلَاعِيَّةِ مِمَّا يَجْعَلُهُمْ يَدْعُونَ بِجَدَارَةِ آبَاءِ الْعِلْمِ الْحَدِيثِ » .

وَكُلَّ كَلَامٍ بَعْدَ هَذَا نَافِلَةٌ وَفَضُولٌ سِوَى هَذِهِ الْجُمْلَةِ ، وَهِيَ أَنَّ أَهْتِمَامَ الْعَرَبِ بِالْعِلْمِ مُنْبَتِقٌ مِنْ أَصْلِ الْعَقِيدَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي رَفَعَتْ الْعِلْمَ إِلَى أَسْمَى الْمَرَاتِبِ .
وَقَالَ كَاتِبٌ مِنْ كُتَّابِ هَذَا الْعَصْرِ : « أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ كَانُوا مُجَدِّدِينَ حَقًّا ، لِأَنَّهُمْ ثَارُوا عَلَى الْقَدِيمِ ، غَيْرَ أَنَّ أَتْبَاعَهُمُ الْمُتَمَرِّسِينَ عَلَى فَهْمِ الدِّينِ وَنَشْرِ تَعَالِيمِهِ رَجَعُيُونَ ، لِأَنَّهُمْ حَافِظُوا عَلَى ذَلِكَ الْقَدِيمِ مَعَ مُرُورِ الزَّمَنِ ، بِهَذَا اسْتَحَالَ الدِّينُ مِنْ أَنْبِيَائِهِ التَّقْدَمِيِّينَ إِلَى رِجَالِهِ الرَّجَعِيِّينَ ، لِأَنَّ الْفِكْرَةَ الَّتِي تَكُونُ جَدِيدَةً بِالْقِيَاسِ إِلَى عَهْدِهَا تُصَبِّحُ قَدِيمَةً بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا بَعْدَهَا .

وَالْجَوَابُ : أَنَّ رِجَالَ الدِّينِ تَقْدَمُيُونَ أَيْضًا إِذَا سَارُوا بِسِيرَةِ أَنْبِيَائِهِمْ وَقَامُوا عَلَى سُنَّتِهِمْ ، وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دِينِهِمْ أَدَاةً لِلْكَسْبِ ، وَيَسْتَغْلُوا عَوَاطِفَ النَّاسِ الدِّينِيَّةَ لِصَالِحِ الْحُكَّامِ ، وَالشُّرَكَاتِ ، وَالْإِقْطَاعِيِّينَ . لَقَدْ جَاءَ الْأَنْبِيَاءُ بِالْحَقِّ وَأَقْرَؤا مِنْ حَيْثُ الْمَبْدَأُ كُلَّ جَدِيدٍ مُفِيدٍ كَانَ وَيَكُونُ وَالْحَقُّ لَا يَقَاسُ بِمَقَايِيسِ الْعَصُورِ وَالْأَجْيَالِ ، فَهُوَ كَالنُّورِ ، وَالْمَاءِ ، وَالْهَوَاءِ جَدِيدٌ أَبَدًا وَدَائِمًا ، فَكُنْ آمِنٌ بِهِ وَعَمَلٌ لَهُ

فَهُوَ مُجَدِّدٌ وَتَقْدُّمِي دِينِيًّا كَانَ أَوْ زَمَنِيًّا، وَمَنْ عَانَدَهُ فَهُوَ رَجَمِي خُرَافِي كَانَتْ أَمِنْ كَانَ. أَنَّ الرَّجْعِيَّةَ لَيْسَتْ وَقْفًا عَلَى رِجَالِ الدِّينِ، وَلَا التَّقْدِمِيَّةُ مُنْحَصَرَةٌ بِغَيْرِهِمْ، وَإِذَا كَانَ لِبَعْضِ رِجَالِ الدِّينِ مِنْ ذَنْبٍ فَهُوَ الْجَهْلُ بِرُوحِهِ وَحَقِيقَتِهِ، أَوِ التَّضَلُّيلُ وَالتَّلْيِيسُ عَلَى الْأَبْرِيَاءِ لِمَآرِبِ يَأْبَاهَا الدِّينُ وَالْإِنْسَانِيَّةُ.

وَمَرَّةً ثَانِيَةً إِلَى النَّبِيِّ الْجَدِيدِ.

لَقَدْ أَقَرَّ الْإِسْلَامُ مَبْدَأَ التَّوْحِيدِ، وَالْعَدْلَ فِي الْعَقِيدَةِ. وَنَزَهَ الْخَالِقُ عَنْ كُلِّ مَا يُشِينُ، وَأَثَبَتْ لَهُ جَمِيعُ الْمَعَانِي الَّتِي تُعَبِّرُ عَنْهَا الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى مِنَ الْقُدْرَةِ، وَالْحِكْمَةِ، وَالْعِلْمِ، وَالْغِنَى، وَالْحُبِّ، وَالرَّحْمَةِ، وَالْجُودِ، وَالْمَغْفِرَةِ، وَالْعِزَّةِ، وَالْكَرَامَةِ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِ التَّقْدِيسِ، وَالتَّعْظِيمِ الَّتِي يُجِيزُ الْعَقْلُ أَنْ نَصِفَ بِهَا الذَّاتَ الْإِلَهِيَّةَ، كَمَا نَزَهَ الْأَنْبِيَاءُ عَنِ الْجَهْلِ، وَالْخَطَأِ، وَالشَّهْوَاتِ، وَأَثَبَتْ لَهُمْ جَمِيعُ صِفَاتِ الْجَلَالِ، وَالْكَمَالِ الَّتِي يُمَكِّنُ لِبَشَرٍ مُنْقَذٍ أَنْ يَتَحَلَّى بِهَا.

وَرَكَّزَ الْإِسْلَامُ شَرِيعَتَهُ، وَحَلَالَه، وَحَرَامَهُ عَلَى قَانُونِ الطَّبِيعَةِ، وَمَبْدَأَ الْعَدَالَةِ فَكُلُّ مَا فِيهِ الْخَيْرُ، وَالصَّلَاحُ لِلنَّاسِ بِجِهَةٍ مِنَ الْجِهَاتِ فَهُوَ حَلَالٌ، وَمَحْبُوبٌ، وَكُلُّ مَا فِيهِ الشَّرُّ، وَالْفَسَادُ بِجِهَةٍ مِنَ الْجِهَاتِ فَهُوَ حَرَامٌ، وَمَكْرُوهٌ. وَأَقَرَّ الْإِسْلَامُ مَبْدَأَ الْأُخُوَّةِ، وَالْمَسَاوَاةِ فِي الْمَجْتَمَعِ، وَحَثَّ عَلَى التَّعَايُشِ السَّلَامِيِّ^(١)، وَحَلَّ الْمُنَازَعَاتِ، وَالْخُصُومَاتِ بِالْحِكْمَةِ، وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ: «قُلْ يَتَاهُلُ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ»^(٢).

أَيُّ تَعَالَوْا إِلَى الْعَدْلِ، وَالْمَوَدَّةِ لَا إِلَى الْمُمَارَاتِ، وَالِدَّسَائِسِ، وَالضَّغَائِنِ، وَإِلَى

(١) أنظر: كتاب التَّعَايُشِ الدِّينِيِّ فِي الْإِسْلَامِ لِمَحْمُودِ الْقَزَبِ. (مِنَةُ ١٤٠٠هـ).

(٢) آلِ عِمْرَانَ: ٦٤.

الثِّقَّةُ، وَالتَّبَادُلُ الثَّقَافِيُّ، وَالْاِقْتِصَادِيُّ لِأَيِّ السَّلْبِ، وَالنَّهْبِ، وَإِلَى الْأَمْنِ وَالْأَمَانِ
لِأَيِّ الْأَحْلَافِ الْعَسْكَرِيَّةِ، وَالْاِسْتِعْدَادَاتِ الْحَرَبِيَّةِ.
وَأَفْرَ الْإِسْلَامُ مَبْدَأَ الْفَضِيلَةِ فِي الْأَخْلَاقِ، فَتَنَهَى عَنِ الْكَذِبِ، وَالرِّيَاءِ،
وَالْقَسْوَةِ، وَالْجَفَاءِ، وَالزُّنَى، وَالْخِيَانَةِ، وَجَمِيعِ الْمَظَالِمِ، وَالْفَوَاحِشِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا
وَمَا بَطَنَ. وَسَلَامٌ عَلَى مَنْ قَالَ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِتَمِيمِ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ»^(١).
وَإِذَا كَانَ دِينَ مُحَمَّدٍ هُوَ دِينَ الْفِطْرَةِ، وَالْإِنْسَانِيَّةِ، فَمَاذَا يَبْقَى لِلنَّبِيِّ أَوْ الْمُتَنَبِّي
الْجَدِيدِ؟! أَلَلَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يُغَيَّرَ «فِطْرَتِ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ»
ذَلِكَ أَلَدَيْنِ الْفَقِيمِ وَلَسِكُنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ»^(٢)، فَيَأْمُرَ بِالْحُرُوبِ، وَالْاِسْتِغْلَالِ،
وَالسَّرَقَةِ، وَالْخِيَانَةِ، وَالْكَذِبِ، وَالزُّنَى، وَالْقَمَارِ، وَالْخَلَاعَةِ، وَيَنْهَى عَنِ السَّلَامِ،
وَالْحَرَبَةِ، وَالْأَمَانَةِ، وَالصَّدَقِ، وَالْعِفَّةِ!!.

تَنْبِيْهِ:

قُلْنَا فِي بَحْثِنَا «الله والعقل» سَنَتَعَرَّضُ لِكِتَابِ «الدِّينِ وَالصَّمِيرِ» مُفَصَّلًا فِي
بَحْثِنَا «النَّبُوَّةَ وَالْعَقْلَ». وَحَيْثُ لَمْ تَتَّسِعْ هَذِهِ الصَّفَحَاتُ لِمُلَاحَظَاتِنَا عَلَى الْكِتَابِ
الْمَذْكُورِ لِأَنَّهَا بَلَغَتْ مَا يَقْرُبُ مِنْ عَشْرِينَ صَفْحَةً فَقَدْ أَرْجَأْنَاهَا إِلَى فُرْصَةٍ ثَانِيَةٍ،
وَلَعَلَّهَا تَسْنَحُ فِي الْبَحْثِ الثَّالِثِ، أَوِ الرَّابِعِ. وَمِنْ اللَّهِ سُبْحَانَهُ نَسْتَعْمِدُ الْهَدَايَةَ
وَالْتَوْفِيقَ.

(١) أنظر، بِدَايَةِ الْمُجْتَهِدِ: ٣٢١/٢، السُّنَنِ الْكُبْرَى: ١٩٢/١٠، تُخْفَةُ الْأَخْوَذِيِّ: ٤٧٠/٥، نُظْمُ دُرَرِ
السَّمْطَيْنِ: ٤٢، كُنْزُ الْمُثَالِ: ٤٢٠/١١ ح ٣١٩٦٩، فَيْضُ الْقُدَيْرِ شَرْحُ الْجَامِعِ الصَّغِيرِ: ٢٠٩/٥،
كَشَفُ الْخَفَاءِ: ٢١١/١ ح ٦٣٨، مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ لِلطَّبْرَسِيِّ: ٨، مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ لِابْنِ أَبِي الدُّنْيَا: ٦،
مُسْتَدْنُ الشَّهَابِ: ١٩٢/٢ ح ١١٦٤، تَكْمَلَةُ حَاشِيَةِ رَدِّ الْمُحْتَارِ: ٢٣٤/١.



الآفِرَةُ وَالْعَقْلُ



تَفْهِيْد

قَبْلَ أَنْ أَبْدَأَ فِي وَضْعِ هَذَا الْفَضْلِ قَالَ لِي أَحَدُ الْأَخْوَانِ: أَنَّ مَوْضُوعَ الْآخِرَةِ أَضْعَبُ الْمَوْضُوعَاتِ الَّتِي تُعَالِجُهَا، لِأَنَّكَ تَتَوَخَّى التَّوْضِيْحَ، وَإِقْنَاعَ النَّاشِئَةِ وَهَذَا الْمَوْضُوعُ مُعَقَّدٌ شَدِيدُ الْغُمُوزِ .

وَفِي الْحَقِّ أَنِّي أَقْتَنَعْتُ بِقَوْلِهِ، وَأَخَذَنِي الْوَهْمُ فِي بَدَايِزَةِ الْأَمْرِ، لِأَنِّي مِنَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ السَّهْلَةَ، وَالتَّوْضِيْحَ حَقَّ لِلْقَارِيءِ عَلَى الْكَاتِبِ، وَلَكِنِّي مَا شَرَعْتُ بِالْكِتَابَةِ حَتَّى وَجَدْتُ الْأَمْرَ أَيْسَرَ، وَأَسْهَلَ مِمَّا تَوَهَّمْتُ، وَلَمْ أَرَأِ فَرْقَ بَيْنَ مَوْضُوعِ الْآخِرَةِ، وَمَوْضُوعِ الْمُبَحِّثِينَ السَّابِقِينَ «اللهُ وَالْعَقْلُ» أَيِ فَرْقَ وَ«النَّبُوءَةُ وَالْعَقْلُ» .

وَأَحَالَ أَنَّ الْبَعْضَ إِذَا قُرَأَ الْإِسْمُ عَنْ قُرْبٍ أَوْ بُعْدَ سَيَقُولُ: وَأَيُّ شَأْنٍ لِلْعَقْلِ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ ! .

وَلَا جَوَابَ لَدَيَّ إِلَّا الدَّعْوَةُ إِلَى قِرَاءَةِ هَذِهِ الصَّفَحَاتِ، وَسَيَجِدُهَا الْقَارِيءُ سَهْلَةً وَمُقْنَعَةً بِحَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنْ تَرَدَّدَ فِي شَيْءٍ مِمَّا فِيهَا فَلْيَسْتَهْمِ فَهْمَهُ، أَوْ يَسْتَهْمِنِي بِالتَّقْصِيرِ فِي الْبَحْثِ وَالتَّنْقِيْبِ، أَوْ الْخَطَأِ فِي طَرِيقَةِ الْعَرْضِ. أَمَّا أَصْلُ الْفِكْرَةِ وَالْمَبْدَأُ نَفْسُهُ فَحَقٌّ لَا رَيْبَ فِيهِ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ الْمَسْئُولُ أَنْ يَجْعَلَهَا مِنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي تَنْفَعُنَا يَوْمَ نَلْقَاهُ، أَنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ .



أَوْهَامُ الْجَاهِلِينَ

النَّاسُ فِي أَمْرِ الْآخِرَةِ وَالْبَعْثِ عَلَى طَوَائِفٍ :
مِنْهُمْ الطَّائِفَةُ : تَجْمَعُ بَيْنَ انْكَارِ الْخَالِقِ ، وَإِنْكَارِ الْبَعْثِ .
وِثَانِيَّةٌ : تَعْتَرِفُ بِالْخَالِقِ ، وَتُنْكِرُ الْبَعْثَ .
وِثَالِثَةٌ : تَعْتَرِفُ بِهِمَا مَعًا ، وَهِيَ أَرْسَخَ عِلْمًا وَأَكْثَرَ عَدَدًا .
وَرَابِعَةٌ : تُشَكِّكُ لَا تَنْفِي وَلَا تُثَبِّتُ .
وَلَمُنْكَرِي الْبَعْثِ أَلْوَانٌ مِنَ التَّفَكِيرِ :
مِنْهَا ، أَنَّ الْإِنْسَانَ لَيْسَ إِلَّا هَذَا الْهَيْكَلُ الْمَحْسُوسُ الَّذِي تَلْمَسُهُ الْيَدُ ، وَنَرَاهُ
بِالْعَيْنِ ، وَلَا شَيْءَ وَرَاءَ ذَلِكَ ، أَمَّا الْحَيَاةُ وَسَائِرُ الْقُوَى الَّتِي نُسَمِّيهَا الرُّوحَ ، وَالْعَقْلَ
فَهِيَ عَرَضٌ زَائِلٌ كَالْمَاءِ فِي الثَّبَاتِ ، وَالنَّارِ فِي الْحَطَبِ ، وَالزَّيْتِ فِي الزَّيْتُونِ تَنْعَدِمُ
وَتَتَلَاشَى بِالْمَوْتِ ، وَلَا يَبْقَى إِلَّا الْعُنَاصِرُ الَّتِي يَتَكُونُ مِنْهَا الْجِسْمُ .
الْجَوَابُ :

- ١ - أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ لَا يَسْتَنْدُ إِلَى دَلِيلٍ مِنَ الْعَقْلِ ، وَلَا مِنَ التَّجَرِبَةِ ، وَلَا مِنَ
الْمُشَاهَدَةِ ، وَإِنَّمَا هُوَ حَدْسٌ فِي حَدْسٍ .
- ٢ - أَنَّ الْعُلَمَاءَ يَعْرِفُونَ حَقِيقَةَ هَذِهِ الْعُنَاصِرِ الَّتِي يَتَأَلَّفُ مِنْهَا الْجِسْمُ ،
وَيَسْتَطِيعُونَ تَرْكِيبَهَا فِي صُورَةِ إِنْسَانٍ ، وَلَكِنَّهُمْ يَعْجُزُونَ عَنْ بَعْثِ الْحَيَاةِ فِي خَلْقَةٍ

وَاحِدَةً، وَلَوْ كَانَتْ النَّفْسُ عَرْضًا وَصَفَةً تَتَوَلَّدُ قَهْرًا مِنْ تَرْكِيبِ الْجِسْمِ وَضَمِّ الْأَجْزَاءِ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ لَاسْتَطَاعُوا أَنْ يَوْجِدُوا إِنْسَانًا سَاعَةً يَشَاءُونَ تَمَامًا كَمَا يَوْجَدُونَ الطَّائِرَةَ، وَالسَّيَّارَةَ، لِأَنَّ الْأَسْبَابَ إِذَا تَكَرَّرَتْ أَدَّتْ إِلَى نَفْسِ النَّتَائِجِ الَّتِي حَدَّثَتْ أَوَّلًا، مَعَ أَنَّ الْعُلَمَاءَ حَاوَلُوا، وَجَرَّبُوا، وَكَزَّرُوا التَّجَرُّبَةَ مَرَّاتٍ وَمَرَّاتٍ، وَبَعْدَ أَنْ بَدَّلُوا جَمِيعَ الْجُهُودِ أَتَوْا بِكَائِنٍ مُحْتَظٍّ ظَنُّوهُ شَبِيهًا بِالْحَيِّ، وَبَعْدَ الدَّرْسِ وَالتَّمْحِصِ أَنْضَحَ لَهُمْ أَنَّهُ أَبَدٌ مَا يَكُونُ عَنِ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ بِمَعْنَاهَا الْحَقِيقِي. وَجَلَّ الَّذِي قَالَ: «يَتَأَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمْ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ»^(١).

٣- لَوْ صَحَّ هَذَا الْقَوْلُ لَسَاوَتْ أَفْرَادُ الْإِنْسَانِ فِي جَمِيعِ الْقُوَى، وَالْمَوَاهِبِ وَلَكَانَ مُخْتَرَعُ الْأَقْتَارِ الصَّنَاعِيَّةِ كَأَيِّ إِنْسَانٍ سَوَاءً بِسَوَاءٍ، لِأَنَّ الْمَادَّةَ وَالْهَيْئَةَ وَاحِدَةً فِي الْجَمِيعِ لَا تَخْتَلِفُ فِي فَرْدٍ عَنْ فَرْدٍ، حَيْثُ أَثَبَّتَ الْعِلْمُ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَتَكَوَّنُ فِي أَصْلِهِ مِنْ خَلِيَّةٍ وَاحِدَةٍ، يَنْشَأُ الطَّوِيلُ، وَالْقَصِيرُ، وَالْأَسْوَدُ، وَالْأَبْيَضُ، «وَمَا بِهِ الْاجْتِمَاعُ لَا يَكُونُ بِهِ الْإِفْتِرَاقُ».

٤- أَيُّ عَاقِلٍ يُصَدِّقُ بَأَنَّ هَذَا الْإِنْسَانَ الَّذِي يَتَجَبَّرُ عِبْقَرِيَّةً وَذُكَاءً لَا يَفْتَرِّقُ فِي حَقِيقَتِهِ عَنِ النَّبَاتِ وَالْحَشَرَاتِ، هَذَا الْمَخْلُوقِ الْعَجِيبِ الَّذِي غَيَّرَ وَجْهَ الْأَرْضِ، وَقَلَّبَهَا رَأْسًا عَلَى عَقَبٍ، ثُمَّ صَعَدَ إِلَى الْقَمَرِ، وَتَجَاوَزَهُ إِلَى الْمَرِيعِ وَأَحَالَ عِلْمَ الْفَلَكَ مِنْ عِلْمٍ مُرَاقَبَةٍ وَمُشَاهَدَةٍ إِلَى عِلْمٍ التَّجَرُّبِ، هَذَا الرَّأْيِ جَعَلَ الْمُسْتَحِيلَ مُمَكَّنًا، وَاجْتَمَعَتْ فِيهِ قُوَى الْعَالَمِ بِكَامِلِهَا حَتَّى قِيلَ فِيهِ:

وَتَحْسَبُ أَنَّكَ جِرْمٌ صَغِيرٌ وَفِيكَ أَنْطَوَى الْعَالَمُ الْأَكْبَرُ^(١)

هَذَا الْإِنْسَانُ الَّذِي تَجَلَّى فِي مُحَمَّدٍ، وَعَلِيٍّ، وَسُقْرَاطَ، وَغَانَدِي، وَإِنْشَتَاينِ، وَالْمَعْرِي^(٢)، وَعَبَّرَ عَنْهُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ أَنَّهُ خَلِيفَةُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ، وَالْإِنْجِيلُ بِأَنَّهُ ابْنُ اللَّهِ. وَخَاطَبَهُ الْجَلِيلُ بِقَوْلِهِ: «وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا»^(٣).

هَذَا الْإِنْسَانُ يَتَأَلَّفُ مِنْ بَضْعِ مَوَادِّ كِيمَاوِيَّةٍ فَقَطَّ لَا غَيْرَ!...

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: فِي الْإِنْسَانِ مِنَ الدَّهْنِ مَا يَكْفِي لَصُنْعِ سَبْعِ قِطْعِ صَابُونٍ، وَمِنَ الْكَرْبُونِ مَا يَكْفِي سَبْعَةَ أَقْلَامٍ رِصَاصٍ، وَمِنَ الْفُوسْفُورِ مَا يَكْفِي لِرُؤُوسِ (١٢٠) عُودِ ثِقَابٍ، وَمِنَ الْمِلْحِ مَا يَصْلَحُ جُرْعَةً لِلإِسْهَالِ، وَمِنَ الْحَدِيدِ مَا يُصْنَعُ مِنْهُ مِسْمَارٌ مُتَوَسِّطُ الْحَجْمِ، وَمِنَ الْجِصِّ مَا يُبَيِّضُ بَيْتَ دَجَاجٍ، وَمِنَ الْكِبْرِيتِ مَا يَطْهَرُ جِلْدَ كَلْبٍ مِنَ الْبَرَاغِيثِ.

أَهَذَا هُوَ الْإِنْسَانُ، وَهَذِي حَقِيقَتُهُ؟! أَسْتَغْفِرُ الْحَقَّ أَوْ الْعِلْمَ.

وَمِنْ تَفْكِيرِهِمْ أَيْضًا أَنَّ الْإِنْسَانَ يُوَلَّدُ نَتِيجَةَ التَّزْوَاجِ بَيْنَ الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى، وَيَمُوتُ نَتِيجَةَ لَمَرَضٍ أَوْ قَتْلٍ أَوْ لِإِنْهِيَارِ جِسْمِهِ بَعْدَ أَنْ يَصِلَ إِلَى الشَّيْخُوخَةِ. وَهَذَا الْقَوْلُ لَا يَخْتَلِفُ عَنْ سَابِقِهِ إِلَّا فِي التَّعْبِيرِ غَيْرَ أَنَّهُ أَكْثَرَ شَبَهًا بِقَوْلِ الْقَائِلِ:

(١) يُنْسَبُ هَذَا الْبَيْتُ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْإِمَامِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ كَمَا فِي الدِّيَوَانِ الْمَرْتَضِيِّ: ١٤٥، فَيُضِيقُ الْقَدِيرُ شَرْحَ الْجَوَامِعِ الصُّغِيرِ: ٤٦٦/٥، جَوَاهِرُ الْمَطَالِبِ فِي مَنَاقِبِ الْإِمَامِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ: ٦٣٦/٢.

(٢) قَرَأْتُ فِي جَرِيدَةِ وَطَنِي الْمَصْرِيَّةِ تَارِيخَ: (١٨/١٠/١٩٥٩م) أَنَّ رِيتشارْدَ بُوْجِينِ كَانَ يَحْفَظُ مُوَلَّفَاتِ الشُّعْرَاءِ، وَالْفَلَّاسِفَةِ، وَيُحَدِّدُ مَكَانَ آيَةِ كَلِمَةٍ مِنْ آيَةِ صَفْحَةٍ، وَأَنَّ يُوسُفَ مَرْوَانِي يَتَحَدَّثُ بِسَبْعِينَ لُغَةً بِلَهْجَاتِهَا الْمُتَعَدَّةِ، وَأَنَّ شَابَاتًا مِنْ كُورَسِيكَائِ تَلِي عَلَيْهِ سِتَّةَ وَثَلَاثُونَ أَلْفَ كَلِمَةٍ فَحَرَفَظَهَا بِمُجَرَّدِ سَمَاعِهَا، وَفِي الْعَرَبِ الْقَدَامَى عَدِيدٌ مِنْ هَذَا النَّوعِ، كَأَبْنِ عَبَّاسٍ، وَالْمَعْرِيِّ، وَالْأَصْمَعِيِّ، وَغَيْرِهِمْ، وَمَنْ أَحَبَّ الْإِطْلَاعَ فَقَلْبُهُ بِالْجُزْءِ الْأَوَّلِ مِنْ تَارِيخِ آدَابِ الْعَرَبِ لِلرَّافِعِيِّ. (مِنْهُ ﷺ).

(٣) أَلَنْسَاءُ: ١١٣.

كَأَنَّا وَالْمَاءَ مِنْ حَوْلَنَا قَوْمٌ جُلُوسٌ حَوْلَهُمْ مَاءٌ^(١)
وَمَنْ يَشْكُ فِي أَنَّ الْإِنْسَانَ يُولد ثُمَّ يَمُوت؟! وَلَكِنْ أَيْ دَلِيلٌ فِي هَذَا عَلَى أَنَّ
الْإِنْسَانَ إِذَا مَاتَ فَات؟! أَنَّ الدَّعْوَى لَا تَصْلُحُ أَسَاسًا لِلِاسْتِدْلَالِ، فَإِذَا قُلْتَ: بَلَغَ
فُلَانٌ مِنَ الْعُمَرِ عِشْرِينَ سَنَةً، لِأَنَّ عُمُرَهُ عِشْرُونَ سَنَةً كَانَ قَوْلُكَ هَذَا نَوْعًا مِنَ
الْهَرَاءِ وَالْهَذْيَانِ. وَقَدْ رَدَّ الْقُرَّاءُ عَلَى هَؤُلَاءِ وَأَخْرَاهُمْ بِالْآيَةِ: «وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ
عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ»^(٢).

وَمِنْ تَفْكِيرِهِمْ أَيْضًا أَنَّ الْجِسْمَ بَعْدَ أَنْ تَأْكُلَهُ الدِّيدَانُ، وَلَا يَبْقَى مِنْهُ إِلَّا عِظَامٌ
نَخْرَةٌ يَعُودُ ثَانِيَةً! أَنَّ هَذَا لِلشَّيْءِ عُجَابٌ! وَمَنْ شَاهَدَ أَوْ سَمِعَ أَنَّ مَيِّتًا عَادَ إِلَى
الْحَيَاةِ بَعْدَ أَنْ أَصَابَهُ الْبَلَى، وَذَهَبَ فِي التُّرَابِ؟!

وَنَحْنُ لَا نَجِدُ سَبَبًا لِهَذَا الْإِسْتِعْبَادِ سِوَى قِيَاسِ فِعْلِ اللَّهِ عَلَى فِعْلِ الْبَشَرِ فَإِذَا
عَجَزْنَا نَحْنُ عَنْ إِحْيَاءِ الْمَوْتَى يَجِبُ أَنْ يَعْجِزَ اللَّهُ عَنْهُ أَيْضًا! تَعَالَتْ قُدْرَتُهُ: «إِنَّمَا
أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ وَكُنْ فَيَكُونُ»^(٣).

لَقَدْ اسْتَبَعَدَ هَؤُلَاءِ الْبَعْثَ، لِأَنَّهُ مُخَالَفٌ لِلْمُعْتَادِ وَالْمَأْلُوفِ، وَبَدِيهَةٌ أَنَّ
الْإِسْتِعْبَادَ لَا يَصْلُحُ دَلِيلًا لِلنَّفْيِ وَلَا لِلْإِثْبَاتِ. فَبِالْأَمْسِ الْقَرِيبِ كُنَّا نَرَى أَشْيَاءَ
مُسْتَحِيلَةً الْوُقُوعِ، ثُمَّ أَصْبَحَتْ حَقِيقَةً وَاقِعَةً كَالْتَلْفُونِ، وَالتَّلْفَازِ، وَمَا أَشْبَهَ. وَقَدْ
أشارَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ إِلَى إِسْتِعْبَادِ الْمُتَكْرِرِينَ فِي مَوَاضِعٍ عِدَّةٍ مِنْهَا الْآيَةُ: «أَعِذَا كُنَّا
عِظْمًا وَرُفَّتًا أَعِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا»^(٤).

(١) أنظر، تفسير البهزان للعلامة الشَّيْخِ الطَّبَّاطِبَانِيِّ: ١١٠/١١.

(٢) الْجَائِئِيَّةُ: ٢٤.

(٣) يَسْ: ٨٢.

(٤) الْأَنْبِيَاءُ: ٤٩.

وَرَدَ عَلَيْهِمْ فِي آيَاتٍ، مِنْهَا الْآيَةُ: «يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ»^(١).

خَاطَبَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْمُرْتَابِينَ بِهَذَا الْأَسْلُوبِ الْبَعِيدِ عَنِ الْإِسْتِعْلَاءِ الْقَرِيبِ إِلَى كُلِّ قَلْبٍ، بَعْدَ أَنْ سَأَلَهُمْ: هَلْ دَاخَلَهُمُ الشَّكُّ؟ لَفَتَ نَظَرُهُمْ إِلَى آيَاتِ اللَّهِ الَّتِي يُشَاهِدُونَهَا فِي غَيْرِهِمْ وَفِي أَنْفُسِهِمْ، وَإِلَى إِنْشَائِهِمْ وَإِبْتَدَاءِ خَلْقِهِمْ، وَكَيْفَ أَوْجَدَهُمْ مِنَ الْعَدَمِ، وَأَنْتَهَى بِهِمْ إِلَى نَتِيجَةِ لَا يَسْمَعُهُمُ إِلَّا التَّسْلِيمُ بِهَا، وَالْإِذْعَانُ لَهَا، وَهِيَ أَنَّ مَنْ يَقْدَرُ عَلَى إِيْجَادِ الْمَعْدُومِ فَهُوَ عَلَى إِعَادَةِ الْمَوْجُودِ أَقْدَرُ، إِنْ صَحَّ التَّعْبِيرُ^(٢). أَبْتَدَأَ مَعَهُمْ مِنَ الشَّكِّ وَالتَّسَاوُلِ، وَأَنْتَهَى بِهِمْ إِلَى الْيَقِينِ وَالْإِطْمِنَانِ.

قَالَ الْكِنْدِيُّ فَيَلْسُوفُ الْعَرَبُ: أَنَّ خَلْقَ الْإِنْسَانِ أَوْ إِحْيَاءَهُ بَعْدَ الْمَوْتِ أَيْسَرُ مِنْ خَلْقِ الْعَالَمِ الْأَكْبَرِ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، وَهَذَا هُوَ مَضْمُونُ آيَةٍ: «أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ»^(٣).

وَهَكَذَا لَا تَجِدُ فِي أَقْوَالِ مُنْكَرِي الْبَعْثِ آيَةً حُجَّةً مُّشَبَّهَةً لِدَعْوَاهُمْ سِوَى عَجْزِهِمْ عَنِ الْفَهْمِ وَالْإِدْرَاكِ، وَكَثِيرًا مَا يَكُونُ هَذَا الْعَجْزُ لِنَقْصِ فِي الْأَفْهَامِ وَعَدَمِ مَلَأَةِ الظُّرُوفِ فَتَنْحَنُ نَشَاهِدُ الشَّمْسِ، وَالْقَمَرِ، وَالْآفِ النُّجُومِ، وَلَهَا تَأْثِيرٌ بِالْغِ فِي حَيَاتِنَا، وَمَعَ ذَلِكَ نَعْجِزُ عَنْ إِدْرَاكِ حَقَائِقِهَا، وَمَعْرِفَةِ أَسْرَارِهَا. وَقَدْ يُقَالُ: أَنَّ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْبَعْثِ جُهَالٌ مُّقْلِدُونَ.

وَنَسْأَلُ بِدَوْرِنَا: مَنْ هُوَ الْجَاهِلُ الْمُقْلِدُ؟ سُقْرَاطُ، أَوْ إِفْلَاطُونُ، أَوْ الْفَارَابِيُّ، أَوْ

(١) الْحَجَّ: ٥.

(٢) لَا يُوجَدُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى اللَّهِ شَيْءٌ أَسْهَلُ أَوْ أَصْعَبُ مِنْ شَيْءٍ، فَخَلَقَ الذَّرَّةَ وَخَلَقَ الْكَوْنَ سِوَاهُ لَدَيْهِ تَعَالَى.

(منه ﷻ).

(٣) يُسْنِ: ٨١.

أَبْنِ سِينَا، أَوْ أَبْنِ رُشْدٍ وَغَيْرُهُمْ هَؤُلَاءِ الْكُبَارُ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَوَضَعُوا فِي إِثْبَاتِ الْمَعَادِ الْمُؤَلَّفَاتِ الطَّوَالَ ؟! أَوْ مَنْ قَلَّدَ سَقَرَاتٍ، وَإِفْلَاطُونٍ، وَأَبْنِ سِينَا ؟! وَإِذَا كَانُوا مُقَلِّدِينَ فَتَمَنُّ هُمُ الْفَلَّاسِفَةُ الْمُتَوَرُّونَ الَّذِينَ تَكْشَفَتْ لَهُمْ أَسْرَارُ الْكَوْنِ، وَحَقَائِقُ الْحَيَاةِ، وَمَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا ؟!

وَفِي الْحَقِّ أَنَّنَا لَمْ نَرِ أَحَدًا يُحْسِنُ التَّقْلِيدَ وَيُتَقَنَّهُ كَهَذِهِ «الْحُرْمَةِ» مِنَ الشُّبَابِ الَّذِينَ اسْتَخَفُّوا بِدِينِ آبَائِهِمْ، وَأَتَهَمُوا كُلَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ بِالتَّقْلِيدِ لِأَمْرِ شَيْءٍ إِلَّا لِكَلِمَةٍ سَمِعُوهَا مِنْ إِبَاحِي مُتَحَذِّقٍ، أَوْ قَرَأُوهَا فِي كِتَابٍ أَوْ صَحِيفَةٍ تَبَثُّ السَّمُومُ، وَتَنْشُرُ الْفُوضَى، وَالْفَسَادُ.

وَالْخُلَاصَةُ: أَنَّ الْفَرْقَ كَبِيرًا بَيْنَ مُتَمَنِّعِ الْوُقُوعِ، وَمُمْكِنِ الْوُقُوعِ، فَالْأَوَّلُ لَا يَتَحَقَّقُ بِحَالٍ، فَإِنْ أَدْعَاهُ شَخْصٌ يُكَذِّبُ بِمُجَرَّدِ الدَّعْوَى، وَدُونَ أَنْ يُطَالَبَ بِالدَّلِيلِ، فَإِنْ أَدْعَاهُ شَخْصٌ يُكَذِّبُ بِمُجَرَّدِ الدَّعْوَى، وَدُونَ أَنْ يُطَالَبَ بِالدَّلِيلِ، فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: رَمَيْتُ حَجَرًا مِنْ عُلُوِّ فَارْتَفَعَ نَحْوَ السَّمَاءِ، أَوْ قَالَ: أَنَّ الشَّمْسَ كَوْكَبٌ بَارِدٌ، عَلَيْهِ أَحْيَاءٌ مِنْ أَنْوَاعِ شَتَّى جَازَ لِلْسَّمَاعِ أَنْ يَقُولَ لَهُ بَدُونَ تَوَقَّفَ هَذَا مُحَالٌ، لِأَنَّ الْأَرْضَ تَجْذِبُ الْأَجْسَامَ إِلَيْهَا، وَحَرَارَةُ الشَّمْسِ تَمْنَعُ مِنْ وَجُودِ الْحَيَاةِ عَلَيْهَا، أَمَّا الثَّانِي أَيْ الْمُمْكِنُ فَلَا يَصِحُّ تَكْذِيبُ مُدَّعِيهِ بِمُجَرَّدِ الدَّعْوَى، وَإِنَّمَا يُطَالَبُ بِالدَّلِيلِ، فَإِذَا قَالَ الْقَائِلُ: أَنَّ رَجُلًا صَعَدَ إِلَى الْقَمَرِ، ثُمَّ عَادَ سَالِمًا إِلَى الْأَرْضِ فَلَا يُقَالُ لَهُ: هَذَا كَذِبٌ «ضَرِبَةً وَاحِدَةً». وَإِنَّمَا يُسْأَلُ عَنِ الدَّلِيلِ لِأَنَّهُ يَدَّعِي وَجُودَ شَيْءٍ مُمْكِنٍ أَنْ يَتَحَقَّقَ مَتَى تَهَيَّأَتْ لَهُ الْأَسْبَابُ. وَالْحَيَاةُ بَعْدَ الْمَوْتِ مِنَ النَّوعِ الثَّانِي أَيْ مُمَكِّنَةٌ غَيْرُ مُمْتَنَعَةٍ.

فِكْرَةُ الْآخِرَةِ وَتَأْثِيرُهَا فِي السُّلُوكِ

أَنَّ الْعَوَامِلَ الَّتِي تَتَحَكَّمُ فِي سُلُوكِ الْإِنْسَانِ، وَيَخْضَعُ لَهَا فِي حَرَكَاتِهِ وَسَكَاتِهِ تَنْقَسِمُ إِلَى نَوْعَيْنِ:

الأول: العوامل الخارجية، كَالْبَيْئَةِ، وَالْحَوَادِثِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ، وَلَيْسَ لِهَذِهِ مِنْ ضَابِطٍ مُعَيَّنٍ، لِأَنَّهَا تَخْتَلِفُ بِإِخْتِلَافِ الْمَحِيطِ، وَالْمُجْتَمَعِ الَّذِي يَعِيشُ فِيهِ، وَتَتَنَوَّعُ حَسَبَ الظُّرُوفِ، وَالْأَحْوَالِ الَّتِي لَا تَدْخُلُ فِي حِسَابِ.

الثاني: العوامل الداخلية، كَالْمَشَاعِرِ، وَالتَّرَعَّاتِ النَّفْسِيَّةِ، وَهِيَ كَثِيرَةٌ مِنْهَا:

١- منطق الحياة الذي يفرض حكمه بعيداً عن تأثير الإرادة، والإختيار، كَالنَّفْسِ، وَنُمُو الْجِسْمِ، وَتَطَوُّرِ الْأَعْضَاءِ، وَقُدْرَتِهَا عَلَى الْقِيَامِ بِوُظَائِفِهَا الْخَاصَّةِ.

٢- منطق العاطفة، وَهُوَ مَصْدَرٌ لَأَكْثَرِ مَا نَقُومُ بِهِ مِنْ أَعْمَالٍ فِي حَيَاتِنَا الْيَوْمِيَّةِ، كَالْمُحَافَظَةِ عَلَى الْأَبْنَاءِ وَتَرْبِيَّتِهِمْ، وَالتَّنَاءِ عَلَى مَنْ نُحِبُّ، وَالطَّعْنِ فِي مَنْ نَكْرَهُ، وَلَا يَسْلَمُ مِنْ سُلْطَانِ هَذَا الْمَنْطِقِ أَحَدٌ حَتَّى أَهْلُ الْفَضَائِلِ، وَالذِّكَاةِ.

٣- منطق العقل، وَهُوَ مَصْدَرُ الْإِدْرَاكِ، وَالتَّفْكِيرِ، وَأَصْلُ الْعُلُومِ، وَالصَّنَاعَاتِ، وَبِهِ يَتَغَلَّبُ الْإِنْسَانُ عَلَى الطَّبِيعَةِ، وَيُمَيِّزُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالضَّارِّ وَالنَّافِعِ.

٤- منطق العُدُوِّ وَالتَّقْلِيدِ، كَالْأَفْكَارِ الْمُتَوَلِّدَةِ مِنَ الْكُتُبِ، وَالْجَرَائِدِ، وَالْخُطْبِ، وَكَالظَّنِّ بِدُونِ شُعُورٍ إِلَى جِهَةٍ يَنْظُرُ إِلَيْهَا الْغَيْرُ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ.

٥ - منطق العادة، كَشْرَبِ الدُّخَانِ، وَالتَّوَمُّ فِي وَقْتِ مُعَيَّنٍ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ.

٦ - منطق الدِّينِ، وَيَتَضَمَّنُ الْكَثِيرَ مِنَ التَّعَقُّلِ، وَالتَّأَمُّلِ وَقَدْ مَثَلَ دَوْرًا عَظِيمًا فِي تَارِيخِ الْأُمَمِ، وَالْأَفْرَادِ حَيْثُ كَانَ وَمَا يَزَالُ الْمَقْيَاسُ الْوَحِيدَ لِلْأَفْعَالِ الْمُتَدَيِّنِينَ وَأَقْوَالِهِمْ، كَمَا أَنَّ لَهُ تَأْثِيرًا بَارِزًا فِي الْفُنُونِ، وَالْآدَابِ، وَالسِّيَاسِيَّةِ، وَالْأَخْلَاقِ. وَهَذِهِ التَّرَعَّاتُ تَتَفَاعَلُ مَعَ الْعَوَامِلِ الْخَارِجِيَّةِ، فَتَتَأَثَّرُ بِهَا، وَتُؤَثِّرُ فِيهَا.

وَعَرَضْنَا مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ يَتَّصِلُ بِمَنْطِقِ التَّدِينِ، وَبَنَوْعِ أَخْصِ الْإِعْتِقَادِ بِالْبَعْثِ، وَكَيْفِ يُؤَثِّرُ فِي أَخْلَاقِنَا وَسُلُوكِنَا. وَكُلُّنَا نَعْلَمُ أَنَّ شُعُورَ الْإِنْسَانِ بِأَنَّ عَلَيْهِ رَقِيبًا يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى، وَأَنَّهُ مَسْئُولٌ عَنْ كُلِّ كَبِيرَةٍ وَصَغِيرَةٍ، وَأَنَّهُ يُحَاسَبُ وَيُعَاقَبُ إِنْ أَسَاءَ، وَيُنَابَذُ إِنْ أَحْسَنَ. أَنَّ هَذَا الشُّعُورَ يَبْعَثُهُ - فِي الْغَالِبِ - عَلَى فِعْلِ الْخَيْرِ، وَتَرْكِ الشَّرِّ، وَعَلَى أَنْ يَكْبَحَ الْإِنْسَانُ جَمَاحَ نَفْسِهِ، وَيَمْنَعَهَا مِنْ أَنْ تُحَقِّقَ أَهْوَاءَهَا وَشَهْوَاتَهَا.

وَرُبَّ قَائِلٍ يَقُولُ: لَقَدْ رَأَيْنَا أَفْرَادًا يَعْتَقِدُونَ بِالْجَنَّةِ وَالتَّارِ مَعَ أَنَّهُمْ يَرْتَكِبُونَ أَكْبَرَ الْخَطَايَا، وَأَحْطَ الْأَعْمَالِ، وَرَأَيْنَا أَفْضَلَ مِنْهُمْ أَخْلَاقًا، وَعَلَى حَظٍّ مِنَ الْخَيْرِ مَعَ أَنَّهُمْ لَا يَدِينُونَ شَيْءً.

الْجَوَابُ:

أَنَّ الَّذِينَ يَدْعُونَ أَنَّهُمْ مِنَ الدِّينِ وَأَهْلِهِ، ثُمَّ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ، وَيَسْتَحْفُونَ بِتَعَالِيهِ عَلَى نَوْعَيْنِ:

النَّوعُ الْأَوَّلُ: لَا يَعْرِفُونَ مِنَ الدِّينِ أَصْلًا، وَلَا فَرْعًا، وَلَا يَعْنِيهِمْ مِنْ أَمْرِهِ كَثِيرٌ، أَوْ قَلِيلٌ، وَإِنَّمَا يَصْرُخُونَ بِاسْمِ الدِّينِ، وَيَتَشَبَّهُونَ بِأَذْيَالِهِ كُلَّمَا خَرَجَ «آدَمِي» عَنْ طَاعَتِهِمْ، وَكُلَّمَا فَشَلَّتْ لَهُ مُوَامَرَةٌ، وَكُلَّمَا هُزِمَ لَهُمْ لَصٌّ مُدْرَبٌ عَلَى الْإِجْرَامِ. أَنَّهُمْ

يُرَدُّونَ لِحَنِ الدِّينِ بِأَنْعَامٍ شَتَّى لَا يَعْرِفُهَا نَبِيٌّ، وَلَا وَصِي نَبِيٍّ. وَأَنَّا مَوْضِعُ التَّسْأُولِ، بَلْ مَوْضِعُ الشُّكِّ، وَالرَّيْبِ! لَمَّا ذَا هَذَا التَّهْوِيشِ، وَهَذِهِ الْمُنَادَاةَ بِالْوَيْلِ، وَالتَّبُورِ، وَعِظَامَ الْأُمُورِ، وَإِظْهَارَ الْغَيْرَةِ عَلَى الدِّينِ أَكْثَرَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، وَالْأَوْلِيَاءِ؟! مَعَ أَنَّهُمْ لَا يُؤَدُّونَ فَرَضًا مِنْ فَرَائِضِهِ، وَلَا يَتَوَرَّعُونَ عَنْ مُخَالَفَةِ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ^(١).

وَهَذَا دَلِيلٌ وَاضِحٌ فَاضِحٌ عَلَى أَنَّهُمْ سَمَاسَرَةٌ أَدْبَانُ يَتَسَتَّرُونَ بِأَسْمَاسِهَا أَتَقَانًا لِلْخَدِيعَةِ، وَخَوْفًا مِنَ الْفُضِيحَةِ، وَمَا قَرَأْتَ كَلِمَةً تُعْبِّرُ عَنْ حَقِيقَةِ هَؤُلَاءِ أَجْمَعَ مِنْ قَوْلِ سَيِّدِ الشُّهَدَاءِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ: «إِنَّ النَّاسَ عَبِيدُ الدُّنْيَا، وَالدِّينُ لِعِقٍّ عَلَى السِّنْتِهِمْ يُحَوِّطُونَهُ مَا دَرَّتْ مَعَايِشُهُمْ، فَإِذَا مُحْصُوا بِالْبَلَاءِ قَلَّ الدِّيَانُونَ»^(٢).

النُّوعُ الثَّانِي: مِنَ النَّاسِ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَحِسَابِهِ وَعِقَابِهِ، وَلَكِنَّهُمْ يَتَنَازَلُونَ عَنْ بَعْضِ مَا يُدِينُونَ رَغْبَةً فِي مَنْصَبٍ، وَرَهْبَةً مِنْ قَوِيٍّ، أَوْ خَوْفًا مِنْ عَوَزٍ، أَوْ لُضْعَفٍ فِي الْإِرَادَةِ، وَالتَّفَكُّيرِ؛ وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي لَا يَمْلِكُونَ مَعَهَا الْمَنَاعَةَ الْكَافِيَةَ إِذَا تَصَادَمَتْ مَعَ عَقِيدَتِهِمْ. أَنَّ هَؤُلَاءِ مُؤْمِنُونَ بِلَا رَيْبٍ وَلَكِنَّهُمْ ضَعْفَاءُ لَا يَحْتَمِلُونَ الْهَمَّ وَالْمَتَاعِبَ. وَالْإِنْسَانُ، أَيْ إِنْسَانٌ فِي صِرَاعٍ مُسْتَمِرٍّ مَعَ الْخَوْفِ مِنَ الْعَوَاقِبِ. وَالْقَوِيُّ مَنْ ثَبَّتَ عَلَى عَقِيدَتِهِ حَتَّى وَإِنْ زَالَتْ الْأَرْضُ مِنْ تَحْتِهِ،

(١) خَاطَبَ اللَّهُ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا بِقَوْلِهِ: «مَا عَلَيْكَ مِنْ جَسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ جَسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدُهُمْ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ». الْآتِقَامُ: ٥٢. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا» الْكَهْفُ: ٢٩. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ». الْكَافِرُونَ: ٦. وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ. وَقَدْ أَتَقَفَ عَلِمَاءُ الْإِسْلَامِ عَلَى هَذِهِ الْقَاعِدَةِ: «مَنْ كَفَرَ وَأَعْتَزَلَ تَرْكَنَاهُ». وَلَكِنَّ الْخَائِنَ دَائِمًا يَكُونُ مَلِكِيًّا أَكْثَرَ مِنْ مَلِكٍ. (مِنْهُ ﷺ).

(٢) أَنْظِرْ. تُحْفِ الْعُقُولُ: ٢٤٥. مَقْتَلُ الْإِمَامِ الْحُسَيْنِ لِلخَوَارِزْمِيِّ: ٢٣٧/١. كَشَفُ الْقِمَّةِ: ٢٤١/٢.

وَأُطْبِقَتِ السَّمَاءُ عَلَى رَأْسِهِ.

وَمَهْمَا يَكُنْ فَإِنَّ الْفَرْقَ بَعِيدٌ جَدًّا بَيْنَ مَنْ يَضْمُرُ الْجُحُودَ، وَيُظْهِرُ الْإِيمَانَ كَذِبًا
وَأَفْتِرَاءً، وَبَيْنَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْحَقِّ، وَلَكِنْ لَا يَثْبُتُ عِنْدَ الصَّدَمَاتِ. أَنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ
الْإِثْنَيْنِ كَالْفَرْقِ بَيْنَ مَنْ سَارَ إِلَى الْمَعْرَكَةِ مَعَ الْجُنْدِ لِيَتَجَسَّسَ وَيُدَبِّرَ الْمَكَائِدَ
وَالْمَصَائِدَ، وَبَيْنَ مَنْ هَرَبَ مِنَ الْجُنْدِيَّةِ حِرْصًا عَلَى حَيَاتِهِ وَحَيَاةِ أَوْلَادِهِ، فَالْأَوَّلُ
تَعْمَدُ الْإِجْرَامَ، وَالْعُدْوَانَ، وَتَاجِرُ بِالذَّمَاءِ وَالْأَرْوَاحِ، لِمَا فِيهِ الْكَسْبُ وَالرِّيحُ، أَمَّا
الثَّانِي فَكُلُّ مَا يَبْتَغِيهِ «سَلَامَاتُ يَا رَأْسُ» وَلَا يَضْمُرُ لِأَحَدٍ شَرًّا وَقَدْ يَشْعُرُ
بِالْخَطِيئَةِ وَالْخَجَلِ مِنْ نَفْسِهِ، وَيَطْلُبُ السَّمَاحَ وَالْفُغْرَانَ، بَلْ قَدْ يَحْسُ بِالرَّاحَةِ
عِنْدَمَا يُعَاتَبُ أَوْ يُعَاقَبُ، وَقَدْ رَأَيْنَا مَنْ يَعْتَرِفُ بِالذَّنْبِ عَلَنًا، وَيَطْلُبُ إِيقَاعَ الْعُقُوبَةِ
بِهِ، لِيَخْلَصَ مِنْ تَوَتُّرِ الْأَعْصَابِ، وَتَأْنِيبِ الضَّمِيرِ الَّذِي لَازَمَهُ فِي لَيْلِهِ وَنَهَارِهِ.
وَإِلَيْكَ - مَثَلًا وَاحِدًا مِنْ آلَافِ الْأَمْثَلَةِ :

كَانَ بَغْضُ الْقُدَامَى يَرِفُضُ مَا يَصْطَلِمُ مَعَ دِينِهِ وَوُجْدَانِهِ، وَهُوَ فِي مُقْتَبِلِ
الْعُمُرِ؛ وَعِنْدَمَا تَقَدَّمَ بِهِ السَّنُّ، وَأَصْبَحَ ذَا عَيْتَالٍ، وَأَطْفَالٍ تَقْبَلُ بَغْضَ مَا كَانَ
يَرِفُضُ مِنْ قَبْلُ، وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ رَجَعَ إِلَى نَفْسِهِ، وَقَارَنَ بَيْنَ يَوْمِهِ وَأَمْسِهِ، فَذَابَ
قَلْبُهُ حَسْرَاتٍ أَرْسَلَهَا مَعَ أَنْفَاسِهِ الْمُتَلَهِّبَةِ فِي هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ ^(١) :

عَصَيْتُ هُوِيَ نَفْسِي صَغِيرًا فَعِنْدَمَا رَمَتْنِي اللَّيَالِي بِالْمَشِيبِ وَبِالْكِبَرِ
أَطَعْتُ الْهُوِيَ عَكْسَ الْقَضِيَّةِ لَيْتَنِي وَلَدْتُ كَبِيرًا ثُمَّ عُدْتُ إِلَى الصُّغَرِ
وَلَيْسَ مِنْ شَكٍّ أَنَّ الْكَرِيمَ سُبْحَانَهُ قَدْ غَفَرَ لِهَذَا الشَّاعِرِ الَّذِي تَحَرَّقَ أَلَمًا مِنْ

(١) تُنسَبُ هَذِهِ الْأَبْيَاتُ إِلَى الشَّاعِرِ فَخْرِ الدِّينِ بْنِ يُوسُفَ بْنِ الشَّيْخِ حَمَوِيهِ. أَنْظِرْ، الْبَدَايَةُ وَالتَّهَايَةُ لِابْنِ

ذَنْبِهِ، وَنَكَسَ رَأْسَهُ حَيَاءً مِنْ رَبِّهِ.

قَدَمْنَا أَنَّ الْإِيمَانَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ يَخْلُقُ فِي الْإِنْسَانِ خَافِزًا إِلَى عَمَلِ الْفَضَائِلِ وَالْخَيْرَاتِ، وَتَجَنُّبِ الشَّرِّ وَالْمُوبَقَاتِ. وَلِلتَّحْدِيلِ عَلَى هَذِهِ الْحَقِيقَةِ نَذَكُرُ طَرَفًا مِنْ مُعَامَلَةِ الْإِنْسَانِ فِي الْعَالَمِ الثَّانِي: عَنْ أَيِّ شَيْءٍ يُسَال؟ وَبِمَاذَا يُكَافَأ؟

وَجَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّ رَاعٍ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»^(١). وَلَيْسَ مِنْ شَكٍّ أَنَّ مَسْئُولِيَّةَ كُلِّ إِنْسَانٍ تَكُونُ عَلَى قَدَرٍ وَسَعَةٍ وَمَقْدَرَتِهِ، فَمَسْئُولِيَّةُ الْحَاكِمِ غَيْرُ مَسْئُولِيَّةِ الْمَحْكُومِ، وَمَا يُطْلَبُ مِنَ الْغَنِيِّ لَا يُطْلَبُ مِنَ الْفَقِيرِ؛ وَتَكْلِيفُ الْعَالِمِ غَيْرُ تَكْلِيفِ الْجَاهِلِ، وَمِنْ هُنَا قِيلَ: أَنَّ الطَّرِيقَ الَّتِي تَوْصِلُ إِلَى اللَّهِ بَعْدَ أَنْفَاسِ الْخَلَائِقِ، أَيْ أَنَّ السَّبِيلَ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ سَهْلَةٌ يَسِيرَةٌ، وَأَمَنَةٌ لَا هَوْلَ فِيهَا وَلَا خَوْفَ، يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْلُكَهَا كُلُّ فَرْدٍ، مَا دَامَ اللَّهُ «لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ، عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ، وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ»^(٢).

وَفِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ يُسَالُ الْمَرْءُ عَنْ أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ، وَمَا أَبْدَاهُ وَأَخْفَاهُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، ثُمَّ يُلْقَى الْجَزَاءَ وَفَاقًا عَلَى مَا كَانَ يَصْنَعُ: «كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ»^(٣).

(١) أنظر، صحيح البخاري: ٢/٨٤٨ ح ٢٢٧٨ وص: ٩٠١ ح ٢٤١٦ وص: ٩٠٢ ح ٢٤١٩ و:

١٠١٠/٣ ح ٢٦٠٠ و: ٥/١٩٨٨ ح ٤٨٩٢ وص: ١٩٩٦ ح ٤٩٠٤ و: ٦/٢٦١١ ح ٦٧١٩، صحيح

أبن جبان: ١٠/٣٤٢ ح ٤٤٨٩، سنن الترمذي: ٤/٢٠٨ ح ١٧٠٥، مجمع الزوائد: ٥/٢٠٧، تفسير

القرطبي: ٥/٢٥٨، صحيح مسلم: ٣/١٤٥٩ ح ١٨٢٩.

(٢) الْبَقَرَةُ: ٢٨٦.

(٣) الْمُدَّثِّرُ: ٣٨.

فَالْعَمَلُ وَحْدَهُ مَقْيَاسُ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، فَمَنْ أَحْسَنَ: ﴿الَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(١)، وَلَا سِيَّئَةٌ مَعَ السَّهْوِ وَالْخَطَأِ، وَلَا مَعَ الْإِضْطِرَارِ، وَالْإِلْجَاءِ، وَمَنْ تَعَمَّدَ فَبَابِ التَّوْبَةِ مَفْتُوحٌ مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا.

وَمِمَّا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «يُسَالَى الْعَبْدُ غَدًا عَنْ عُمْرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ جَسَدِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ، وَعَنْ مَالِهِ مِمَّا أَكْتَسَبَهُ، وَفِيمَا أَنْفَقَهُ؟»^(٢)، وَفِي حَدِيثٍ آخَرٍ يُقَالُ لَهُ: هَلْ عَلِمْتَ؟ فَإِنْ قَالَ: نَعَمْ. قِيلَ لَهُ هَلَّا عَمِلْتَ؟ وَإِنْ قَالَ: لَا. قِيلَ لَهُ هَلَّا تَعَلَّمْتَ حَتَّى تَعْمَلَ؟^(٣).

فَمَقْيَاسُ الْفَضِيلَةِ وَالرَّذِيلَةِ؛ وَالْقُرْبُ مِنَ اللَّهِ وَالْبُعْدُ عَنْهُ هُوَ الْأَعْمَالُ وَحْدَهَا، لَا

(١) يُؤَنَسُ: ٢٦.

(٢) أَنْظِر. التَّبْشِيرُ لِلشَّرْحِ سِي: ٢٨٦/٣٠، مَجْمَعُ الزَّوَائِد: ٣٤٦/٩، و: ٣٤٦/١٠، بِشَارَةَ الْمُصْطَفَى: ٢٥٢، سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ: ٣٦/٤ ح ٢٥٣٢، كُنْزُ الْمُتَال: ٢١٨/٦ ح ٣٨٩٨٢، و: ١٠٣/٧، و: ٣٧٩/١٤، الْمَنَاقِبُ لِابْنِ الْمَظَالِي: ١١٩ ح ١٥٧، جَوَاهِرُ الْعَقَدَيْنِ: ٢٤٦/٢، أَنْظِرِ التَّعْلِيْقُ فِي الْمُدَّةِ لِابْنِ النَّطْرِيقِ: ٢١٩ و ٢٨٣ و ٢٨٤ عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ. لِأَنَّ تَكْمِلَةَ الْحَدِيثِ: وَعَنْ حَبِيبِ أَهْلِ أَلَيْتٍ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: فَمَا آيَةُ حُبِّكُمْ مِنْ بَعْدِكُمْ؟

فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى رَأْسِ عَلِيٍّ، وَهُوَ جَالِسٌ جَنْبَهُ فَقَالَ: آيَتُهُ حُبُّ هَذَا مِنْ بَعْدِي. كَمَا جَاءَ فِي مَقَالِمِ الْبَيْرُوتِ النَّبَوِيَّةِ: ٥٣ وَرَق (م). وَكَذَلِكَ الْمَصَادِرُ السَّابِقَةُ، وَالْأَلْحَقَةُ.

وَأَنْظِرِ، تَعْلِيْقُ الْعَلَامَةِ الْبَيْضَاءِ فِي أَلْسَرَاتِ الْمُسْتَقِيمِ: ٥١/٢، أَلْبَحَارُ: ٣٩/٣١٠، دَلَائِلُ الصَّدْقِ: ١٢/٢ و ١٣ و ١٥٥ و ١٥٦، السِّيَوطِيُّ فِي إِحْيَاءِ أَلْمَيَّةِ هَامِشِ الْإِتِّخَافِ: ١١٥ طَبْعَةُ الْحَلَبِيِّ، فَرَائِدُ السَّمْعِيِّينَ: ٣٠١/٢، مَقَاتِلُ الْإِنَامِ الْحُسَيْنِ لِلخَوَارِزْمِيِّ: ٤٣، الْمَنَاقِبُ الْمُرْتَضَوِيَّةُ لِلْكُفَيْيِّ: ٩٩، أَرْجَحُ الْمَطَالِبِ: ٥٢٤، كَفَايَةُ الطَّلَّابِ: ١٨٣، الذَّهَبِيُّ فِي مِيزَانِهِ: ٢٠٦/١، لِسَانُ الْمِيزَانِ: ٤/١٥٩، رَشَقَةُ الصَّادِي لِابْنِ شَهَابِ الدِّينِ: ٤٥، الشَّرَفُ الْمُؤَيَّدُ: ١٧٨، التَّعْلِيْقُ فِي تَفْسِيرِهِ: ٤/٢.

(٣) أَنْظِرِ، أَمَالِي الشَّيْخِ الطُّوسِيِّ: ٩/١.

الصُّورِ وَالْأَشْكَالِ، وَلَا الْأَحْسَابَ وَالْأَنْسَابَ، وَلَا الْجَاهَ وَالْمَالَ، وَمَنْ اعْتَمَدَ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا فَقَدْ غَفَلَ غَفْلًا عَمَّا يُرَادُ مِنْهُ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾^(١).

وَمِنْ طَرِيفٍ مَا قَرَأْتُ عَنْ دِيَّانَةَ (زَرَادُشْت) أَنَّ عَمَلَ الْإِنْسَانِ إِنْ كَانَ حَسَنًا أَنَّهُ غَدَاً فِي صُورَةِ فِتْنَةٍ جَمِيلَةٍ يُسَرُّ بِحُسْنِهَا، وَيَتَمَتَّعُ بِجَمَالِهَا مَتَى يَشَاءُ وَكَيْفَ يَشَاءُ، وَإِنْ كَانَ عَمَلُهُ سَيِّئًا أَنَّهُ فِي صُورَةِ عَجُوزٍ شَمَطَاءٍ مُفْرَعَةٍ لَا تَفَارِقُهُ لَحْظَةٌ، وَلَا يَسْتَطِيعُ التَّهَرُّبُ مِنْهَا بِحَالٍ، أَجَارَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ.

وَإِذَا اِئْتَقَدَ الْإِنْسَانُ أَنَّهُ لَا يُتْرَكُ مُهْمَلًا مِنْ غَيْرِ تَكْلِيفٍ يُسَالُّ عَنْهُ، وَيُؤْخَذُ بِهِ، تَوَرَّعَ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ، وَتَرَدَّدَ طَوِيلًا قَبْلَ أَنْ يُقَدِّمَ، وَتَحَفَّظَ مَا اسْتَطَاعَ.

وَمِنْ أَغْرَبِ مَا قَرَأْتُ أَنَّ كَاتِبًا فَرَنْسِيًّا يُدْعَى «بِيَارْ جَوَايُو» زَعَمَ أَنَّ النَّاسَ خَلَقُوا لِلْخُدَاعِ وَالسَّرْقَةِ، وَالْقَتْلِ وَالْإِغْتِصَابِ، وَأَنَّهُ وَضَعَ كِتَابَ شَرْحٍ فِيهِ فَلَسَفَتِهِ هَذِهِ وَأَصْدَرَهُ سَنَةَ (١٩٥٣ م)، وَأَسَمَاهُ «لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ وَهَذَا كُلُّ شَيْءٍ»!.

وَمَاذَا يَبْقَى مِنَ الْخَيْرِ إِذَا ائْتَشَرَتْ هَذِهِ الْفَلَسَفَةُ، أَوِ الْفَلَسَفَاتُ الْآخَرَى الَّتِي لَا تَعْتَرِفُ بِالْبُعْثِ وَالنَّشْرِ؟!.

أَجَلُ، أَنَّ هُنَاكَ أَنَاسًا لَا يَعْتَرِفُونَ بِعَالَمِ الْغَيْبِ، وَمَعَ ذَلِكَ تَرَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْخَيْرِ، وَرُبَّمَا أَكْثَرَ مِنَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ - كَمَا قَدَّمْنَا - وَكَثِيرًا مَا تَغْرِسُ التَّرْبِيَةِ الشُّعُورَ بِالْمَسْئُولِيَّةِ فِي نَفُوسِ الْكِبَارِ وَالصَّغَارِ، وَتَحْمِلُهُمْ عَلَى احْتِرَامِ الْقَانُونِ حَتَّى وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ رَقِيبٍ وَحَسِيبٍ.

أَجَلُ، نَحْنُ لَا نُنْكِرُ هَذَا، وَلَكِنْ الْإِحْسَاسُ بِوُجُودِ قُوَّةِ عَالَمَةٍ عَادِلَةٍ دُونَهَا كُلِّ

قُوَّةً لَا بُدَّ أَنْ يُتْرَكَ أَثَرُ أَمْلُمُوسًا لَا يَتْرَكُهُ الضَّمِيرُ وَالْأَخْلَاقُ. أَنَّ الضَّمِيرَ يُؤْتَبَرُ وَلَا يُعَذَّبُ، وَيُعَاتَبُ وَلَا يُعَاقَبُ، وَلَيْسَ كُلُّ النَّاسِ عَلَيَّ بِنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ عَبْدُ الْحَقِّ لِذَاتِ الْحَقِّ؛ وَلَا يُنْكَرُ لَهُ مَهْمَا تَكُنَ النَّتَائِجُ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ يَبْكُونُ ذُنُوبَهُمْ وَلَا يَكْتَرِثُونَ لَهَا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمْرِيءُ الْجَرَائِمَ، وَيُكَرِّرُهَا بِنَشْوَةِ وَقَسْوَةِ، وَيَتَبَجَّجُ قَائِلًا دُونَ حَجَلٍ: «الدُّنْيَا فَرِيَسَةُ الشَّاطِرِ»، وَمِنْهُمْ مَنْ يَفْعَلُ الْخَطِيئَةَ ثُمَّ يَقْذِفُ بِهَا الْأُتْرِيَاءَ، وَيَتَهَمُّهُمْ زُورًا وَهَتَانًا، وَمِنْهُمْ مَنْ تَبْلَغَ بِهِ الْحَالُ أَنْ يُعَاقَبَ الطَّيِّبِينَ الْأَخْيَارَ عَلَى ذَنْبٍ صَاحِبَهُ وَفَاعِلَهُ.

وَبِالنَّالِيِّ، فَإِنَّ الدِّينَ وَحْدَهُ الْعَاصِمُ، وَلَا سُلْطَانَ فَوْقَ سُلْطَانِهِ، أَمَّا الضَّمِيرُ فَهُوَ أَشْبَهُ بِالنَّاصِحِ الَّذِي لَا يَمْلِكُ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا، وَكَثِيرًا مَا يَغْلِبُ عَلَى أَمْرِهِ، فَيَكْفُفُ وَيَعْتَرِلُ.

ثُمَّ إِذَا كَانَ الضَّمِيرُ وَازِعًا مِنَ الدَّاخلِ، وَالسَّجَنُ أَوْ الْمَشْنَقَةُ وَازِعًا مِنَ الْخَارِجِ فَإِنَّ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمَ الْآخِرِ يَجْمَعُ بَيْنَ الْإِثْنَيْنِ بِحَيْثُ لَا يَسْتَطِيعُ الْمُؤْمِنُ التَّهَرُّبَ مِنْهَا بِحَالٍ، وَيَبْقَى شَاعِرًا بِالمَسْئُولِيَّةِ، خَائِفًا مِنْ عِقَابِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ، حَتَّى وَلَوْ أَخْتَفَى بِجَرِيْمَةٍ عَنِ أَعْيُنِ النَّاسِ، وَأَمِنَ مَلَأْمَتَهُمْ، وَعَقُوبَةَ الْحُكَّامِ، إِذْ لَا مَفْرَءَ لَهُ مِنْ حُكْمِ اللَّهِ وَسُلْطَانِهِ، وَإِلَيْكَ هَذَا الشَّاهِدُ:

رُوي أَنَّ رَجُلًا تَكَرَّرَتْ مِنْهُ الْمَعَاصِي وَكُلَّمَا حَاوَلَ التَّوْبَةَ وَالْإِقْلَاعَ عَنْهَا غَلَبَتْهُ نَفْسُهُ، فَأَتَى (عَلِيَّ) الْحُسَيْنِ وَقَالَ لَهُ:

يَا أَبْنِ رَسُولِ اللَّهِ أَسْرَفْتُ عَلَى نَفْسِي، فَأَعْرَضَ عَلَيَّ مَا يَكُونُ لَهَا زَاجِرًا، أَوْ مُسْتَنْقَذًا.

فَقَالَ الْإِمَامُ ﷺ: إِنْ قَبِلْتَ مِنِّي خِصْلَةً مِنْ خَمْسٍ خَصَّالٍ فَقَدَرْتَ عَلَيْهَا لَمْ

تَضُرُّكَ الْمَعْصِيَةِ .

قَالَ الرَّجُلُ : مَا هِيَ يَا أَبْنِ رَسُولِ اللَّهِ ؟ .

١ - قَالَ الْإِمَامُ : إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تُعْصِيَ اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ فَلَا تَأْكُلْ مِنْ رِزْقِهِ ؟

قَالَ الرَّجُلُ : إِذَنْ أَمُوتَ جُوعًا .

قَالَ الْإِمَامُ : أَيُحْسِنُ بِكَ أَنْ تَأْكُلَ رِزْقَهُ ، وَتُعْصِيَ أَمْرَهُ ؟

قَالَ الرَّجُلُ : هَاتِ الثَّانِيَةَ .

٢ - قَالَ الْإِمَامُ : إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تُعْصِيَهُ فَلَا تَعْصِهِ فِي مُلْكِهِ .

قَالَ الرَّجُلُ : هَذِهِ أَعْظَمُ مِنْ تِلْكَ ، كَيْفَ ! وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ ، وَالْأَرْضِ ؟

قَالَ الْإِمَامُ : أَيْلِيقُ بِكَ أَنْ تَأْكُلَ رِزْقَهُ ، وَتَسْكُنَ مُلْكَهُ ، وَتُعْصِيَهُ ؟

قَالَ الرَّجُلُ : أَيْنَ الثَّالِثَةُ ؟

٣ - قَالَ الْإِمَامُ : إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تُعْصِيَهُ ، فَأَخْتَرِ مَوْضِعًا لَا يَرَاكَ فِيهِ .

قَالَ الرَّجُلُ : أَيُّشْ هَذَا ؟ وَهَلْ تُخْفِي عَلَى اللَّهِ خَافِيَةً ؟

قَالَ الْإِمَامُ : أَتَأْكُلُ رِزْقَهُ ، وَتَسْكُنُ أَرْضَهُ ، ثُمَّ تُعْصِيهِ بِمَرَأَى مِنْهُ ؟

قَالَ الرَّجُلُ : أَيْنَ الرَّابِعَةُ ؟

٤ - قَالَ الْإِمَامُ : إِذَا جَاءَكَ مُلْكُ الْمَوْتِ لِيَقْبِضَ رُوحَكَ ، فَقُلْ لَهُ : أَخْرِنِي حَتَّى

أَتُوبَ .

قَالَ الرَّجُلُ : بَقِيَّتِ الْخَامِسَةُ .

٥ - قَالَ الْإِمَامُ : إِذَا جَاءَ الزَّبَانِيَّةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِيَأْخُذُوكَ إِلَى جَهَنَّمَ فَلَا تَذْهَبْ

مَعَهُمْ .

فَقَالَ الرَّجُلُ : حَسْبِي ، حَسْبِي ، يَا أَبْنِ رَسُولِ اللَّهِ ، أَتُوبُ إِلَى اللَّهِ ، وَلَنْ يَزَانِي

بعد اليوم فيما يكره .

(سُبْحَانَكَ أَوْسَى خَلْقِكَ لَكَ أَعْلَمُهُمْ بِكَ) بَنَصَّ الْقُرْءَانُ الْكَرِيمِ: «إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ»^(١)... «وَالرُّسُخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمْنًا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ»^(٢).

وفي الحديث: «الْعُلَمَاءُ أُمَمَاءُ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ»^(٣)، وفيه إشعار بأن الدين علم، وليس غيباً في غيب، وكفى حتى الغيب فإنه ينتهي إلى العقل، ولا دين، ولا علم بلا عقل.

وهكذا تزجر الموعظ عن الرذائل من أحياء الله قلبه بهيبته وجلاله، والخوف من غضبه وسطوته.

وقبل أن نترك هذا الفصل لابد من الإشارة إلى أن الدين لم يفرض علينا الإيمان باليوم الآخر كوسيلة ولا ترغيباً في عمل الخيرات، وإنما أوجبه كفاية في نفسه، لأنه حقيقة ثابتة لها وجود واقعي، فالإيمان به إيمان وتسليم بالأمر الواقع، أما الوقوف عند الحدود فهو فرع لهذا الأصل، وثمره من ثمراته، كما قال تعالى: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ لَا يُعْزِبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ»^(٤).

(١) فاطر: ٢٨.

(٢) آل عمران: ٧.

(٣) أنظر، مُسْنَدُ الشَّهَاب: ١/١٠٠ ح ١١٤ و ١١٥، الْجَامِعُ الصَّغِيرُ: ٢/١٩٠ ح ٥٧٠٠، كَثُرَ السُّمَالُ: ١٠/١٣٤ ح ٢٨٦٧٥، كَشَفُ الْخَفَاءِ: ٣/٦٥، شَرْحُ أَصُولِ الْكَافِي: ٩/٥٦ ح ١٤.

(٤) سبأ: ٣.

الدليل الآخر

تَنَفَّسَ أَفْكَارُنَا مِنْ حَيْثُ أَصْلَهَا إِلَى نَوْعَيْنِ: أَفْكَارٌ فِطْرِيَّةٌ لَا يَحْتَاجُ إِثْبَاتَهَا إِلَى الْأَدَلَّةِ وَالْبَرَاهِينِ، كَالشَّعُورِ بِأَنَّ الْإِنْسَانَ أَكْثَرَ مِنَ الْوَاحِدِ، وَالْبَصَرَ خَيْرٌ مِنَ الْعَمَى، وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنَ الْبَدِيهَاتِ الَّتِي تُثَبِّتُ نَفْسَهَا بِنَفْسِهَا.

وَأُخْرَى مُكْتَسِبَةٌ لَا تَتَوَصَّلُ إِلَى مَعْرِفَتِهَا مُبَاشَرَةً، بَلْ لَا بُدَّ مِنَ النَّظَرِ، وَعَمَلِيَّةِ الْإِسْتِدْلَالِ، وَاسْتِخْرَاجِ الْمَجْهُولِ مِنَ الْمَعْلُومِ - مَثَلًا - إِذَا جَهِلْنَا مُقَدَّارَ حَرَارَةِ الْعَرِيضِ أَوْ تَبَدُّلَاتِهَا، فَلَا زَ نَعْرِفُهَا بِالْفِطْرَةِ، بَلْ بِوَاسِطَةِ مِيزَانِ الْحَرَارَةِ، وَمُشَاهَدَةِ إِرْتِفَاعِ الرِّثْيَقِ.

وَقَدْ اتَّفَقَتْ كَلِمَةُ الْعُلَمَاءِ عَلَى الْعَمَلِ بِالْأَفْكَارِ الْفِطْرِيَّةِ الَّتِي لَا يُحْتَمَلُ فِيهَا الْكَذِبُ وَالْخَطَأُ، لِأَنَّ مَصْدَرَهَا أَمَّا الرُّؤْيَا الْوَاضِحَةُ، وَأَمَّا الْعَرِيْزَةُ الَّتِي جُبِلَتْ فِيْنَا، وَأَصْبَحَتْ جُزْءًا مِنْ عَقُولِنَا، وَالْعُلَمَاءُ لَا يَتَكَلَّمُونَ عَنْ هَذِهِ الْأَفْكَارِ، كَغَايَةِ مُسْتَقْلَلَةٍ بِنَفْسِهَا، بَلْ كَوَسِيلَةٍ وَمُقَدَّمَةٍ يَتَأَلَّفُ مِنْهَا الدَّلِيلُ وَالْقِيَاسُ، أَمَّا الْأَفْكَارُ الْمُكْتَسِبَةُ فَتَدْخُلُ فِي صُلْبِ الْعُلُومِ، وَقَدْ أَوْلَاهَا الْعُلَمَاءُ أَهْتَمَامًا بَالِغًا، وَأَعْتَبَرُواهَا الْغَايَةَ الْقُصْوَى وَالْمَثَلَ الْأَعْلَى لِبَحْوثِهِمْ وَجُهُودِهِمْ.

وَلَكِنَّهُمْ اخْتَلَفُوا فِي نَوْعِ الدَّلِيلِ الَّذِي يَعَصَمُ الْأَفْكَارَ الْمُكْتَسِبَةَ مِنْهُ عَنِ الْخَطَأِ، وَيَجْعَلُهَا مُطَابَقَةً لِلْوَاقِعِ: هَلْ هُوَ الْحَوَاسُ كَالسَّمْعِ، وَالْبَصَرِ، أَوِ الْعَقْلِ، أَوِ التَّجَرُّبَةِ

وَالْمُشَاهَدَةُ^(١)، أَوِ الدِّينَ، أَوِ الْإِتِّصَالَ الْمُبَاشَرَ كَمَا يَزَعُمُ الْمُتَصَوِّفَةُ^(٢)، أَوْ لَا يُمَكِّنُ الْحُصُولَ عَلَى الْمَعْرِفَةِ بِحَالٍ، كَمَا يَقُولُ السَّفْسَطَاتِيُّونَ الشَّاكُّونَ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى فِي أَنَّهُمْ شَاكُّونَ، وَقَدْ ذَكَرْنَا هَذِهِ الْأَقْوَالَ فِي الْبَحْثِ الْأَوَّلِ «الله والعقل» بِعُنْوَانِ «سَبَبُ الْمَعْرِفَةِ» وَأَشْرْنَا إِلَى مَا هُوَ الْحَقُّ. الْقَصْدُ مِنْ هَذِهِ الْإِشَارَةِ مَعْرِفَةُ الطَّرِيقِ الَّذِي يَنْتَهِي بِنَا إِلَى الْإِيمَانِ بِالْمَعَادِ هَلْ هُوَ الْعَقْلُ، أَوِ الْوَحْيُ؟ هَلْ هُوَ الْبَرَاهِينُ الْعَقْلِيَّةُ، أَوِ الْكُتُبُ السَّمَاوِيَّةُ؟ هَذَا مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّ الْمَعَادَ لَا يُمَكِّنُ فِيهِ التَّجَرُّبَةُ وَالْمُشَاهَدَةُ.

وَقَدْ ذَهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْفَلَّاسِفَةِ، وَعُلَمَاءِ الْأَدْيَانِ وَالْمِلَلِ إِلَى أَنَّ الْعَقْلَ وَحْدَهُ هُوَ السَّبِيلُ إِلَى مَعْرِفَةِ الْمَعَادِ، وَأَنَّهُ يَحْكُمُ بِوُجُودِهِ مُسْتَقْلَالًا عَنْ كُلِّ شَيْءٍ كَمَا يَحْكُمُ بِوُجُودِهِ اللهُ، وَقَالَ آخَرُونَ: إِنَّ مَسْأَلَةَ الْمَعَادِ لَا تُمَتُّ إِلَى الْعَقْلِ بَصْلَةً مُبَاشَرَةً، لَا يَحْكُمُ بِهِ سَلْبًا وَلَا إِيجَابًا، أَجَلٌ، إِنَّهُ يَرَى إِمْكَانَ الْإِعَادَةِ وَإِنْ شَاءَ أَبْقَى مَا كَانَ عَلَى مَا كَانَ، وَحَيْثُ أَخْبَرَ الْقُرْءَانُ الْكَرِيمَ، وَسَائِرُ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ أَنَّ الْمَعَادَ كَانِ لَا مَحَالَةَ، وَقَدْ حَكَمَ الْعَقْلُ بِإِمْكَانِهِ، فَيَكُونُ وَالْحَالُ هَذِهِ، حَقِيقَةً ثَابِتَةً يَجِبُ التَّصَدِيقُ بِهَا عَلَى وَفْقِ الشَّرْعِ.

(١) كَانُوا يَفْرُقُونَ بَيْنَ التَّجَرُّبَةِ وَالْمُشَاهَدَةِ بِأَنَّ الْمُشَاهَدَةَ تَقْتَضِرُ عَلَى الْمُلَاحَظَةِ فَقَطْ كَمُرَاقِبَةِ النُّجُومِ وَالنَّظَرِ إِلَى الْأَجْزَامِ السَّمَاوِيَّةِ، أَمَّا التَّجَرُّبَةُ فَلَا بُدَّ فِيهَا مِنَ التَّحْلِيلِ وَالتَّرْكِيبِ وَالْعِلْمِيَّةِ الدَّقِيقَةِ، وَبَعْدَ الْإِقْتِمَارِ الصَّنَاعِيَّةِ تَحُولُ عِلْمُ الْفَلَكَ مِنْ عِلْمِ الْمُشَاهَدَةِ إِلَى الْعِلْمِ التَّجَرُّبِيِّ. (مِنْهُ ﷺ).

(٢) قَالَ الْمُتَصَوِّفَةُ: إِذَا تَجَرَّدَتِ النَّفْسُ مِنْ عَوَارِضِ الشَّهَوَاتِ حَصَلَ لَهَا الْكُشْفُ الرُّوحَانِي، وَالْقِيَامُ الْعِلْمُ فِيهَا إِلَهًا دُونَ آيَةٍ وَاسْطَةٍ مِنَ الْحَوَاسِ أَوْ التَّجَرُّبَةِ وَالْعَقْلِ. وَبَيَّهَتْ أَنَّ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ لَيْسَتْ مِنَ الْعِلْمِ فِي شَيْءٍ، وَإِلَّا بَطَلَ النَّظَرُ وَالتَّفَكُّيرُ، وَكَانَتِ الْكَلِمَاتُ، وَالْجَامَعَاتُ، وَالْمَصْنَعَاتُ، وَالْمُخْتَبِرَاتُ كُلُّهَا عَبَثًا فِي عَيْتٍ! (مِنْهُ ﷺ).

وَنَحْنُ نَعْتَمِدُ هَذَا الطَّرِيقَ، لِإِتِّبَاتِ الْمَعَادِ، لِأَنَّهُ أَيْسَرُ الطَّرِيقِ وَأَقْرَبُهَا إِلَيْنَا الْأَفْهَامِ، وَلِأَنَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَ حُكْمِ الْعَقْلِ بِالْإِمْكَانِ وَعَدَمِ الْإِمْتِنَاعِ، وَبَيْنَ حُكْمِ الْوَحْيِ بِالْوُقُوعِ وَالشَّبُوتِ.

أَمَّا حُكْمُ الْعَقْلِ بِالْإِمْكَانِ فَلَأَنَّ إِعَادَةَ الْإِنْسَانَ بَعْدَ الْمَوْتِ تَمَاطِلُ خَلْقَهُ وَإِبْجَادَهُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا بَعْدَ أَنْ كَانَ عَدَمًا، وَالْعَقْلُ لَا يَفْرَقُ بَيْنَ الْمُتَسَاوِينَ، وَيَجْعَلُ وَجُودَ أَحَدُهُمَا دَلِيلًا عَلَى إِمْكَانِ وَجُودِ الْمَسَاوِي الْآخَرِ - مَثَلًا - إِذَا اسْتَطَاعَ نَجَّارٌ أَنْ يَصْنَعَ بَابًا لِهَذَا الْبَيْتِ فَبِإِمْكَانِهِ أَيْضًا أَنْ يَصْنَعَ مِثْلَهُ أَوْ دُونَهُ لِبَيْتٍ آخَرَ.

وَالْإِنْسَانُ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا، فَأَوْجَدَهُ اللَّهُ مِنْ «تُرَابٍ»^(١) ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عِلْقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخْلَقَةٍ وَغَيْرِ مُخْلَقَةٍ لِنَبِّئِينَ لَكُمْ وَنُفِرَ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشْدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ^(٢)، وَأَقْرَبَهَا فِي الْأَرْحَامِ مُحَاطَةً بِثَلَاثَةِ أَغَشِيَةٍ^(٣) لَا يَنفَذُ إِلَيْهَا الْمَاءُ، وَالنُّورُ، وَلَا الْهَوَاءُ، ثُمَّ أَخْرَجَهَا طِفْلًا لِيَبْلُغَ أَشُدَّهُ، وَجَعَلَ لَهُ أَعْضَاءَ مُخْتَلَفَةَ الصُّورِ، وَالْقَوَامَ حَتَّى أَصْبَحَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، ثُمَّ وَهَبَهُ النُّطْقَ، وَالْعَقْلَ قَاهِرَ الطَّبِيعَةِ، وَصَانِعَ الْمُعْجَزَاتِ، وَزَائِدَ

(١) أَثْبَتَ الْعِلْمُ الْحَدِيثَ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَحْتَوِي مِنَ الْعَوَامِلِ مَا تَحْتَوِيهِ الْأَرْضُ. (مِنْهُ ﷺ).

(٢) الْحَجَجُ: ٥.

(٣) جَاءَ فِي الْآيَةِ (٦) مِنْ سُورَةِ الزَّمَرِ: «يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ دُونِ الَّذِي خَلَقَ فِي طُلُفْتِكُمْ تَلَدُّنٌ» وَفَسَّرَ الْقَدَامِيُّ الطُّلُفَاتِ الثَّلَاثَ بِظُلْمَةِ الْبَطْنِ، وَالرَّحِمِ، وَالْمَشِيمَةِ، وَأَثْبَتَ الْعِلْمُ الْحَدِيثَ أَنَّ الْجَيْنَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ يُحَاطَ بِثَلَاثَةِ أَغَشِيَةٍ بَقِيَّةِ الْمَاءِ، وَالضُّوءِ، وَالْهَوَاءِ، وَتُعْرَفُ هَذِهِ الْأَغَشِيَةُ بِأَسْمِ الْمَنَارَةِ، وَالْأَمْنُونِيَّةِ، وَالْخَرْنُونِيَّةِ. (مِنْهُ ﷺ).

المُسَافِرِينَ إِلَى الْكَوَاكِبِ. وَمَنْ أَخْرَجَ هَذَا الْإِنْسَانَ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ فَهُوَ قَادِرٌ بِلَا رَيْبٍ عَلَى أَنْ يُعِيدَهُ ثَانِيَةً قِيَاسًا لِلِاسْتِنْفَافِ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ لِأَنَّهُمَا مُتَسَاوِيَانِ بَلْ الْبَدَأُ أَكْثَمُ وَأَخْطَرُ وَمَنْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَبْنِيَ قُصْرًا فَأَوْلَى بِهِ وَأَجْدَرُ أَنْ يَبْنِيَ كَوْخًا: ﴿قَالَ مَنْ يُخِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُخَيِّبُهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾^(١).

أَمَّا الْوَحْيُ فَقَدْ اتَّفَقَتِ الشَّرَائِعُ، وَالْأَدْيَانُ حَتَّى الصَّابئة عَلَى وَجُودِ الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَإِنْ اخْتَلَفُوا فِي صِفَةِ الْوُجُودِ، فَذَهَبَ جَمْهُورُ الْمُتَكَلِّمِينَ، وَعَامَّةُ الْفُقَهَاءِ وَأَهْلُ الْحَدِيثِ إِلَى أَنَّهُ جِسْمَانِي فَقَطْ، وَقَالَ الْفَلَّاسِفَةُ: أَنَّهُ رُوحَانِي فَقَطْ، وَذَهَبَ الْغَزَالِيُّ، وَالْكَعْبِيُّ، وَالرَّاعِبُ الْأَصْهَرَانِيُّ، وَكَثِيرٌ مِنْ عُلَمَاءِ الْأُمَامِيَّةِ مِنْهُمْ الشَّيْخُ الْمُفِيدُ، وَالْمُرْتَضَى، وَالشَّيْخُ الطُّوسِيُّ وَغَيْرُهُمْ - ذَهَبُوا إِلَى الْقَوْلِ بِالْمَعَادِ الْجِسْمَانِيِّ، وَالرُّوحَانِيِّ مَعًا، ثُمَّ اخْتَلَفَ الْقَائِلُونَ بِالْمَعَادِ الْجِسْمَانِيِّ فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ يُعَادُ هَذَا الْبَدَنَ بَعِيْنَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ يُعَادُ بِمِثْلِهِ لَا بَعِيْنَهُ^(٢).

وَلَيْسَ مِنْ غَرَضِنَا تَحْقِيقُ هَذِهِ الْأَقْوَالِ، وَبَيَانِ الْمُخْتَارِ وَإِنَّمَا الْمُهْمُ لَدَيْنَا أَوَّلُ الْفِكْرَةِ، وَعَوْدَةُ الْإِنْسَانِ كَيْفَ اتَّفَقَ إِلَى حَيَاةٍ ثَانِيَةٍ يُحَاسِبُ فِيهَا، وَيُجْزَى بِأَعْمَالِهِ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرًا، وَإِنْ شَرًّا فَشَرًّا، وَهِيَ أَيْ الْعَوْدَةُ - مَحَلٌّ وَفَاقٌ عِنْدَ الْجَمْعِ، لِأَنَّهَا مُمَكِّنَةٌ عَقْلًا، وَوَاقِعَةٌ حَتْمًا بِنَصِّ الْقُرْآنِ، وَسَائِرِ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ. أَمَّا وَجُوبُ الْأَخْذِ بِالْقُرْآنِ، وَالتَّصَدِيقِ بِخَبَرِ النَّبُوَّةِ فَقَدْ أَثْبَتْنَاهُ فِي مَبْحَثِنَا

(١) يُس: ٧٨-٧٩.

(٢) كِتَابُ الْمَبْدَأِ وَالْمَعَادِ لَصَدْرِ الدِّينِ الشَّيْرَازِيِّ، الْمَعْرُوفِ بِالْمَلَا صَدْرَا الْمَقَالَةِ الثَّلَاثَةِ مِنَ الْقَنْ الثَّانِي.

الثاني « النبوة والعقل »، فَمَنْ اعْتَرَفَ بِالْوَحْيِ يَجِبُ عَلَيْهِ التَّصْدِيقُ بِالْآخِرَةِ بَعْدَ أَنْ أَخْبَرَ الصَّادِقَ الْأَمِينُ بِوُقُوعِهَا، كَمَا يَجِبُ تَصْدِيقُ الطَّبِيبِ الْعَارِفِ إِذَا أَخْبَرَ بِوُجُودِ الدَّاءِ وَنَوْعِ الدَّوَاءِ، وَمَنْ أَنْكَرَ الْآخِرَةَ بَعْدَ اعْتِرَافِهِ بِالْوَحْيِ، وَالنَّبُوءَةِ كَانَتْ كَمَنْ يَعْتَرِفُ بِأَنَّ فِي الْبَيْتِ رَجُلَيْنِ وَأَمْرَاتَيْنِ، وَيُنْكِرُ أَنَّ الْمَجْمُوعَ (٤)، وَبِكَلِمَةٍ ثَانِيَةِ أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ بِحَالِ الْجَمْعِ بَيْنَ الْإِعْتِرَافِ بِالْوَحْيِ، وَالنَّبُوءَةِ، وَإِنْكَارِ الْآخِرَةِ، لِأَنَّ إِنْكَارَهَا إِنْكَارٌ لِلْوَحْيِ بِالذَّاتِ، أَمَّا مَنْ يُنْكِرُ وَجُودَ الْخَالِقِ فَلَيْسَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ تُحَاوَلَ إِقْنَاعُهُ بِالْآخِرَةِ، وَإِنَّمَا نُحِيلُهُ عَلَى الْبَحْثِ الْأَوَّلِ « الله والعقل ».

قَدْ مَنَّا فِيْمَا سَبَقَ أَنَّنَا نَعْتَمِدُ لِإِثْبَاتِ الْآخِرَةِ عَلَى حُكْمِ الْعَقْلِ بِالْإِمْكَانِ، وَإِخْبَارِ الْوَحْيِ بِالْوُقُوعِ، وَاثْبِتْنَا كَلَامَ الْأَمْرَيْنِ، وَزِيَادَةَ فِي الْإِطْمِئْنَانِ نُورِدُ فِيْمَا يَلِي بَعْضُ الشَّوَاهِدِ الَّتِي تُعَزِّزُ، وَتُؤَكِّدُ أَخْبَارَ السَّمَاءِ، وَتَنْفِي عَنْهَا كُلَّ شَكٍّ وَرَيْبٍ.

١- إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَمَرَ الْإِنْسَانَ بِالْفَضَائِلِ، وَنَهَاهُ عَنِ الرَّذَائِلِ، وَوَعَدَ الطَّائِعَ بِالثَّوَابِ، وَتَوَعَّدَ الْعَاصِيَ بِالْعِقَابِ. وَقَدْ رَأَيْنَا كَثِيرِينَ يَطْفَعُونَ، وَيَسْغُونُ عَلَى الضُّعَفَاءِ، وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ، وَيَسْفِكُونَ الدَّمَاءَ، ثُمَّ يَمُوتُونَ دُونَ أَنْ يُصِيبَهُمْ أَيُّ أَذًى، فَلَوْ لَمْ يَكُنْ حِسَابٌ وَعِقَابٌ وَلَا يَوْمٌ يُقْتَصُّ فِيهِ لِلْمَظْلُومِ مِنَ الظَّالِمِ لَذَهَبَ كُلُّ حَقٍّ هَدْرًا، وَكَانَ التَّكْلِيفُ عَبَثًا، وَلَمْ يَكُنْ أَيْ فَرَقَ بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالصُّلَحَاءِ، وَبَيْنَ الْأَشْرَارِ وَالْفُجَّارِ، بَلْ كَانِ الطَّيِّبُونَ أَسْوَأَ حَالًا، وَأَشَقَى مَالًا، لِأَنَّ أَوْلَئِكَ سَعَدُوا وَتَنَعَّمُوا فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ، وَتَحْمِلُ هَؤُلَاءِ مِنْ أَرْزَائِهَا الْكَوَارِثَ وَالْمِحْنَ. وَعَلَيْهِ يَكُونُ النَّعِيمُ وَالثَّوَابُ لِلْخَبِيثِينَ الْأَشْرَارِ، وَالْعِقَابُ لِلطَّيِّبِينَ الْأَبْرَارِ، وَهَذَا أَفْحَشُ الظُّلْمِ تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

قَالَ إِبْلَاطُونُ لَوْ لَمْ يَكُنْ لَنَا مَعَادُ نَرْجُو فِيهِ الْخَيْرَاتِ لَكَانَتْ الدُّنْيَا فُرْصَةً

الْأَشْرَارَ وَكَانَ الْقِرْدَ أَفْضَلَ مِنَ الْإِنْسَانِ .

٢- لَقَدْ أَوْدَعَ اللَّهُ فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ مِنَ الْقُوَى وَالْمَشَاعِرِ مَا تَسِيرُ بِهِ فِي طَرِيقِ التَّقَدُّمِ وَالتَّطَوُّرِ حَتَّى يَبْلُغَ دَرَجَةَ لَيْسَ فَوْقَهَا إِلَّا الْخَالِقُ ، أَمَّا الْحَيَوَانَاتُ وَالْحَشَرَاتُ فَإِنَّهَا تَسِيرُ بِهِ فِي سَبِيلِ وَاحِدَةٍ لَا تَجِدُ عَنْهَا قَيْدَ شَعْرَةٍ ، وَلَوْ ذَهَبَتْ مَشَاعِرُ الْإِنْسَانِ وَمَدَارِكُهُ بِذَهَابِ الْجِسْمِ ، وَلَمْ يَنْتَقِلْ إِلَى حَيَاةٍ أُخْرَى لَكَانَ مَصِيرُهُ كَمَصِيرِ النَّبَاتِ ، وَالْحَشَرَاتِ ، وَكَانَ مَا أَوْدَعَ فِي طَبِيعَتِهِ مِنَ الْعَقْلِ ، وَالْإِدْرَاكِ نَافِلَةً لَا طَائِلَ تَحْتَهَا ، تَعَالَتْ حِكْمَةُ اللَّهِ وَعَظَمَتِهِ . وَلَا نَشْكُ أَنَّ مَنْ نَفَى وَجُودَ الْعَالَمِ الثَّانِي قَدْ رَضِيَ لِنَفْسِهِ أَنْ يَكُونَ فِي حُكْمِ الْحَشَرَاتِ .

٣- أَنَّ الْإِنْسَانَ لَمْ يَكُنْ إِنْسَانًا بَيِّنَةً وَهَيْكَلَهُ ، بَلْ بِنَفْسِهِ وَعَقْلِهِ ، فَإِذَا قَالَ : «أَنَا . وَأَنْتَ . وَهُوَ» فَإِنَّهُ لَا يُشِيرُ بِهَذِهِ الْأَلْفَاظِ إِلَى الْبَدَنِ الْمُرَكَّبِ مِنَ الرَّأْسِ ، وَالْيَدَيْنِ ، وَالرِّجْلَيْنِ ، وَإِنَّمَا يُشِيرُ إِلَى مَعْنَى عَظِيمِ الشَّانِ ، يُحَرِّكُ الْجِسْمَ وَيُدْبِرُهُ ، وَيَخْتَلِفُ عَنْهُ بِحَقِيقَتِهِ ، وَصِفَاتِهِ أَشَدَّ الْإِخْتِلَافِ ، وَهُوَ الْمَعْنَى الشَّرِيفُ الْجَلِيلُ الَّذِي نُعَبِّرُ عَنْهُ بِلَفْظِ النَّفْسِ ، أَوِ الْفِكْرِ .

العَالَمُ حَادِثٌ

هَذَا الْكَوْنُ الْعَجِيبُ بِأَرْضِهِ، وَسَمَائِهِ يُقَالُ لَهُ الْعَالَمُ، وَقَدْ اخْتَلَفَ النَّاسُ هَلْ هُوَ حَادِثٌ، أَمْ لَمْ يَكُنْ فَكَانَ، أَوْ قَدِيمٌ لِأَوَّلِ لَهُ وَلَا آخِرُ؟.

ذَهَبَ الْمُسْلِمُونَ، وَالنَّصَارَى، وَالْيَهُودُ، وَالْمَجُوسُ إِلَيْنِ أَنَّهُ حَادِثٌ. وَقَالَ آخَرُونَ بِأَنَّهُ قَدِيمٌ. وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ مِنْ أَجْلِ الْمَسَائِلِ وَأَهْمِهَا، وَعَلَيْهَا تَرْتَكِزُ قَوَاعِدُ الْأَدْيَانِ كُلِّهَا، حَيْثُ اتَّفَقَتْ كَلِمَتُهَا عَلَى أَنَّ الْقَدِيمَ وَاحِدٌ لَا غَيْرَ، وَهُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، وَأَنَّهُ وَجَدَ فِي الْأَزَلِ، وَلَمْ يَوْجَدْ مَعَهُ شَيْءٌ، وَأَنَّهُ خَلَقَ الْكَوْنَ مِنَ الْعَدَمِ، وَأَبْدَعَهُ حَسَبَ مَشِئَتِهِ وَإِرَادَتِهِ، وَإِذَا قُلْنَا بِقَدَمِ الْعَالَمِ يُلْزَمُ اللَّوْازِمُ الْبَاطِلَةُ الْآتِيَةُ:

١- أَنْ لَا يَحْتَاجَ الْعَالَمُ إِلَى مُوجِدٍ لِأَنَّهُ لَا بَدَايَةَ لَهُ وَلَا نِهَايَةَ^(١).

٢- أَنْ يَكُونَ الْقَدِيمُ أَكْثَرَ مِنْ وَاحِدٍ، وَأَنَّهُ كَانَ اللَّهُ وَكَانَ مَعَهُ قَدِيمٌ آخَرُ.

٣- أَنْ يَكُونَ اللَّهُ مَغْلُوبًا عَلَى أَمْرِهِ، لِأَنَّ الْكَوْنَ وَجَدَ فِي الْأَزَلِ فَهَرَأَ بِحَيْثُ لَا

(١) حَاوَلَ بَعْضُ الْفَلَسَفَةِ أَنْ يُوفِقَ بَيْنَ الْقَوْلِ بِقَدَمِ الْعَالَمِ وَإِبْجَادِ اللَّهِ لَهُ: أَنَّ الْقَدِيمَ مَعْنِيَيْنِ، الْأَوَّلَ الْقَدِيمَ بِالذَّاتِ وَهُوَ مَا كَانَتْ ذَاتُهُ عَلَيْهِ لَوْجُودُهُ وَهَذَا يَصْدُقُ عَلَى اللَّهِ وَحْدَهُ. وَالثَّانِي الْقَدِيمَ بِالزَّمَانِ وَهُوَ الَّذِي لَا أَوَّلَ لَهُ غَيْرَ أَنَّهُ مُقَارَنٌ لِقُوَّةِ تَوْجِدِهِ وَهُوَ الْعَالَمُ، وَعَلَيْهِ يَكُونُ الْعَالَمُ قَدِيمًا زَمَانًا مُمَكَّنًا ذَاتًا لِأَنَّ اللَّهَ أَوْجَدَهُ وَإِذَا دُفِعَ هَذَا الْقَوْلُ إِشْكَالًا عَدَمُ الْخَلْقِ؛ فَإِنَّهُ لَا يُدْفَعُ بَقِيَّةُ اللَّوْازِمِ الْبَاطِلَةِ كَتَعَدُّدِ الْقَدِيمِ وَكَوْنِ اللَّهِ مَغْلُوبًا عَلَى أَمْرِهِ. (مِنْهُ هُجْرٌ).

يَسْتَطِيعُ أَنْ يُحْدِثَهُ فِي زَمَانٍ مُتَأَخِّرٍ .

٤ - أَنْ يَكُونَ اللَّهُ غَيْرَ قَادِرٍ عَلَى إِفْنَاءِ هَذَا الْعَالَمِ ، وَالْإِتْيَانِ بِعَالَمٍ آخَرَ يُحْشَرُ النَّاسُ فِيهِ لِلْحِسَابِ ، لِأَنَّ هَذَا الْعَالَمَ لَمْ يَنْتَقِلْ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ فَكَذَلِكَ لَا يَنْتَقِلُ مِنَ الْوُجُودِ إِلَى الْعَدَمِ ، وَلِأَنَّهُ ثَابِتٌ لَا يَتَبَدَّلُ ، كَمَا هُوَ شَأْنُ الْقَدِيمِ .
وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ قَالَ الْعُقَلَاءُ ، وَأَهْلُ الْأَدْيَانِ : أَنَّ الْعَالَمَ حَدَثٌ ، وَأَنَّ اللَّهَ كَانَ وَحْدَهُ وَلَمْ يُشَارِكْهُ شَيْءٌ فِي الْقَدِيمِ وَالْآزَلِ .

وَقَدْ أَسْتَدَلَّ مُتَكَلِّمُو الْمُسْلِمِينَ عَلَى حَدُوثِ الْعَالَمِ بِأَدْلَةٍ أَشْهَرَهَا الدَّلِيلُ
التَّالِي :

وَهُوَ أَنَّ الْجِسْمَ لَا يَخْلُو مِنَ الْحَوَادِثِ ، وَكُلُّ مَا لَا يَخْلُو مِنَ الْحَوَادِثِ فَهُوَ حَدَثٌ . وَإِلَيْكَ شَرْحُ هَذَا الدَّلِيلِ :

إِنَّ مِنْ جُمْلَةِ الْحَوَادِثِ الَّتِي لَا يَنْفَكُ عَنْهَا الْجِسْمُ السَّكُونُ وَالْحَرَكَةُ ، لِأَنَّ كُلَّ جِسْمٍ لَا مُحَالَةَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ سَاكِنًا ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مُتَحَرِّكًا ، وَمَعْنَى سَكُونِ الْجِسْمِ مُكَوْنُهُ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ أَكْثَرَ مِنْ زَمَانٍ وَاحِدٍ وَمَعْنَى حَرَكَتِهِ إِنْتِقَالُهُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ . وَالسَّكُونُ وَالْحَرَكَةُ مِنَ الْأُمُورِ الْحَادِثَةِ ، لِأَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا يَزُولُ وَيَتَبَدَّلُ ، فَالْمُتَحَرِّكُ قَدْ يَسْكُنُ ، وَالسَّاكِنُ قَدْ يَتَحَرِّكُ ، وَالْقَدِيمُ هُوَ الثَّابِتُ بِطَبْعِهِ عَلَى طَرِيقَةِ وَاحِدَةٍ لَا يَتَغَيَّرُ وَلَا يَتَبَدَّلُ ، ثُمَّ أَنَّ الْحَرَكَةَ مَسْبُوقَةٌ بِحَرَكَةِ قَبْلِهَا ، وَكَذَلِكَ الْمَكُوثُ فِي الْمَكَانِ الْوَاحِدِ مَسْبُوقٌ بِمَكُوثٍ قَبْلَهُ ، أَيَّ أَنَّ الْمَكُوثَ فِي اللَّحْظَةِ الثَّانِيَةِ مَسْبُوقٌ بِالْمَكُوثِ فِي اللَّحْظَةِ الْأُولَى ، وَكُلُّ مَا سَبَقَ بِالْغَيْرِ فَهُوَ حَدَثٌ .

وَإِذَا كَانَ السَّكُونُ ، وَالْحَرَكَةُ حَدَثَيْنِ ، وَالْجِسْمُ لَا يَخْلُو عَنْهُمَا لَزِمَ أَنْ يَكُونَ الْجِسْمُ مُحَلًّا لِلْحَوَادِثِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ حَدَثًا ، وَلَوْ افْتَرَضْنَا أَنَّهُ غَيْرُ حَدَثٍ لَكَانَ

مَعْنَى هَذَا أَنَّهُ وَجَدَ فِي الْأَزَلِ قَبْلَ الْحَرَكَةِ وَالسَّكُونِ، وَأَنَّ الْجِسْمَ قَدْ مَضَى عَلَيْهِ أَمَدٌ لَمْ يَكُنْ سَاكِنًا فِيهِ وَلَا مُتَحَرِّكًا، وَهُوَ مُحَالٌ، وَعَلَيْهِ تَكُونُ الْأَجْسَامُ حَادِثَةً .
وَسَلَكَ فِيلْسُوفُ الْعَرَبِ الْكِندِيِّ طَرِيقًا آخَرَ لِإِثْبَاتِ حَدُوثِ الْعَالَمِ، قَالَ: كُلُّ جِسْمٍ مَوْجُودٍ بِالْفِعْلِ أَوْ سَيُوجَدُ فَهُوَ مُتَنَاهٍ، وَيَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ سَرْمَدِيًّا وَبَاقِيًّا إِلَى الْأَبَدِ . وَأَسْتَدِلُّ بِالذَّلِيلِ الْمَعْرُوفِ عِنْدَ الْفَلَّاسِفَةِ بِيَرْهَانَ التَّطَبُّقِ الَّذِي اعْتَمَدُوا عَلَيْهِ لِإِبْطَالِ التَّسْلُسِلِ وَعَدَمِ التَّنَاهِي فِي الزَّمَانِ الْمَاضِي، فَأَتَّخِذُ الْكِندِي مِنْهُ دَلِيلًا عَلَى التَّنَاهِي فِي الْمُسْتَقْبَلِ أَيْضًا، وَيَتَلَخَّصُ :

فِي أَنَّنَا لَوْ فَصَلْنَا جُزْءَ مُحَدَّودًا مِنَ الْجِسْمِ الْمَفْرُوضِ أَنَّهُ لَا نَهَايَةَ لَهُ، فَالْبَاقِي مِنْ هَذَا الْجِسْمِ إِنْ كَانَ مُتَنَاهِيًّا فَهُوَ الْمَطْلُوبُ، وَإِنْ فُرِضَ أَنَّهُ غَيْرُ مُتَنَاهٍ، وَأَنَّهُ بَقِيَ كَذَلِكَ غَيْرُ مُتَنَاهٍ أَيْضًا بَعْدَ أَنْ زُدْنَا عَلَيْهِ مَا أَخَذْنَا مِنْهُ أَوَّلًا، وَلَكِنْ هَذَا الْجِسْمُ بَعْدَ الرِّيَادَةِ أَكْبَرَ مِنْهُ قَبْلَهَا، فَإِذَا كَانَ فِي كُلِّ الْحَالَيْنِ غَيْرُ مُتَنَاهٍ تَكُونُ النَّتِيجَةُ الْحَتْمِيَّةُ أَنَّ اللَّامْتَنَاهِيَّ أَكْبَرَ مِنَ اللَّامْتَنَاهِي، وَأَنَّ الْكُلَّ بِمُقْدَارِ الْجُزْءِ، وَهُوَ مُحَالٌ، إِذَنْ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الْجِسْمُ مُتَنَاهِيًّا فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَيَكُونُ أَيْضًا مُتَنَاهِيًّا فِي الْمَاضِي، وَهُوَ مَعْنَى الْحَدُوثِ .

وَإِذَا اثْبَتْنَا أَنَّ الْعَالَمَ حَادِثٌ، وَأَنَّهُ وَجَدَ بِقُدْرَةِ اللَّهِ الْمُبْدَعَةِ الْمَطْلُوقَةِ فَيَكُونُ بَقَاؤُهُ مُتَوَقِّفًا عَلَى إِرَادَتِهِ أَيْضًا، إِنْ شَاءَ أَبْقَى، وَإِنْ شَاءَ أَفْنَى .
وَقَدْ يَتَسَاءَلُ: كَيْفَ تَوْجَدُ أَشْيَاءٌ مِنْ لَا شَيْءٍ .

وَنُجِيبُ بِالتَّسَاوُلِ: مِنْ أَيْنَ جَاءَ ذَلِكَ الشَّيْءُ الَّذِي هُوَ مَصْدَرُ الْأَشْيَاءِ فَإِنْ وَجَدَ مِنْ شَيْءٍ آخَرَ أَعَدْنَا التَّسَاوُلَ إِلَى مَا لَا نَهَايَةَ، وَلَا حُلَّ أَبَدًا إِلَّا أَمَرَ اللَّهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا

أَنْ يَقُولَ لَهُ: «كُنْ فَيَكُونُ»^(١).

فَالْإِرَادَةُ الْإِلَهِيَّةُ هِيَ الَّتِي تُبْدِعُ الْكَوْنَ، وَتُوجِدُهُ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً، وَهِيَ الَّتِي تُغْنِيهِ فَيُصْبِحُ لَأَشْيَاءَ، وَالْعِلْمُ الْحَدِيثُ لَا يَتَصَادَمُ مَعَ هَذَا بِخَاصَّةٍ بَعْدَ أَنْ أُثْبِتَ أَنَّ الْمَادَّةَ تَتَحَوَّلُ إِلَى طَاقَةٍ. وَالطَّاقَةُ إِلَى مَادَّةٍ، وَأَنَّهُ لَا حُلُولَ نَهَائِيَّةٍ، وَلَا حَقَائِقَ مُطْلَقَةٍ فِي «عِلْمِ الطَّبِيعَةِ الَّذِي تَكُونُ عَلَى يَدِ كِبَارِ عُلَمَاءِ النَّسَبِيَّةِ فِي الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ، وَهُمْ الَّذِينَ تَتَسَّعُ فَلَسَفَتُهُمْ وَنَظَرَتُهُمْ إِلَى هَذَا الْعَالَمِ الْمَادِّي لِلْقَوْلِ بِالْخَلْقِ، وَالْفَنَاءِ، كَمَا تَتَسَّعُ لِلْقَوْلِ بِنَوْعٍ مِنَ الْمَعْرِفَةِ بِهَذَا الْعَالَمِ غَيْرِ الْمَعْرِفَةِ الْمَأْخُوذَةِ مِنَ الْعِلْمِ الطَّبِيعِيِّ»^(٢).

وَبِالنَّاتِلِي فَتَحْنُ نَتَحَدَّى الْفَلَّاسِفَةَ، وَالْعُلَمَاءَ فِي هَذَا الْقَرْنِ، وَفِي كُلِّ قَرْنٍ أَنْ يَحْلُوا مُعْضَلَةَ الْكَوْنَ حَلًّا سَلِيمًا دُونَ أَنْ يَرْجِعُوا إِلَى قُدْرَةِ اللَّهِ، وَإِرَادَتِهِ، فَإِنْ فَعَلُوا، وَلَنْ يَفْعَلُوا، فَتَحْنُ أَوَّلَ مَنْ يَسْلَمُ وَيَسْتَسْلِمُ. وَبِالنَّاتِلِي، فَإِنْ كُلُّ مَا نَحْسَهُ وَنُشَاهِدَهُ مِنْ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ عَوَارِضِ الْكَوْنَ فَهُوَ حَادَثٌ، وَمُتَجَدِّدٌ، فَمِنْ الْكَبِيرِ إِلَى الصَّغَرِ، وَمِنْ الشَّرُوقِ إِلَى الْغُرُوبِ، وَمِنْ الْجَذْبِ إِلَى الْإِقْبَالِ، وَمِنْ الصَّحْوِ إِلَى غَيْرِهِ، وَهَكَذَا حَتَّى الْحَجَرِ الْأَصَمِّ فِي تَغْيِيرِ دَائِمٍ، كَمَا تَقْتَضِيهِ النَّظَرِيَّةُ الْحَدِيثَةُ، وَالْفَلْسَفَةُ الدِّيَالِكِيَّةُ، وَتَغْيِيرُ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ مَعْنَاهُ حَدُوثُهَا وَتَجَدُّدُهَا، وَإِذَا كَانَتْ حَادَثَةً فَالنتيجة المنطقية أَنَّ الْكَوْنَ الَّذِي يَتَأَلَّفُ مِنْهَا حَادَثٌ أَيْضاً، لِأَنَّ وُجُودَ الْكُلِّي عَيْنَ وُجُودِ أَفْرَادِهِ، وَلَيْسَ لَهُ وُجُودٌ مُسْتَقِلٌّ عَنْهَا.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْأَوَّلِ بَلَاءً أَوَّلَ يَكُونُ قَبْلَهُ، وَالْآخِرِ بَلَاءً آخِرَ يَكُونُ بَعْدَهُ.

(١) ينس: ٨٣.

(٢) أنظر: رسائل الكندي الفلسفية. لأبي ريده: ٧٥ طبعة (١٩٥٠ م). (منهج).

الآخِرَةُ وَالْعِلْمُ الْحَدِيثُ

مِنْ مَظَاهِرِ الرُّقْيِ وَالْحَضَارَةِ عِنْدَ نَفَرٍ مِنَ الشَّبَابِ أَنْ يُطْلَقُوا فِي سُخْرِيَةِ كَلِمَةِ «مِثَافِيزِيْقِي» عَلَى كُلِّ مَنْ يَتَدَيَّنُ، وَيَتَكَلَّمُ بِاسْمِ الدِّينِ، فَهُوَ بِزَعْمِهِمْ مِثَالِي بَعِيدٍ عَنِ الْوَاقِعِ، وَهُمْ وَاقِعِيُونَ لِأَنَّهُمْ يُنْكِرُونَ الْأَدْيَانَ.

وَإِذَا كَانَ أَصْحَابُ الدِّينِ غَيْبِيِّينَ مِثَافِيزِيْقِيِّينَ، لِأَنَّهُمْ آمَنُوا بِاللَّهِ دُونَ أَنْ يُجْرِبُوا وَيُشَاهَدُوا فَالَّذِينَ جَحَدُوا أَيْضًا غَيْبِيُّونَ مِثَافِيزِيْقِيُّونَ، لِأَنَّهُمْ أَنْكَرُوا مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ وَلَا مُشَاهَدَةٍ، فَمَا سَمِعْنَا أَنَّ أَحَدًا مِنْهُمْ أَوْ مِنْ قَامَ بِرِحْلَةٍ إِلَى مَا وَرَاءَ الطَّبِيعَةِ، ثُمَّ عَادَ وَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَمْ يَجِدْ شَيْئًا هُنَاكَ... إِذَنْ الْمُؤْمِنُ وَالْجَاهِدُ سَوَاءٌ فِي عَدَمِ التَّجَرُّبَةِ وَالْمُشَاهَدَةِ، فَكَيْفَ يُقَالُ عَنْ أَحَدِهِمَا وَاقِعِي، وَالْآخَرُ مِثَالِي !.

وَبِتَعْبِيرِ ثَانِيٍ إِنْ كَانَ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ لَا يَصْدُقُ إِلَّا إِذَا أَكْتَشَفْنَا وَجُودَ الْخَالِقِ بِالْآلَاتِ كَمَا نَكْتَشِفُ دَرَجَةَ الْحَرَارَةِ بِمِيزَانِ الْحَرَارَةِ، فَإِنَّ كُلًّا مِنَ الْجَاهِدِ وَالْمُؤْمِنِ لَمْ يَسْتَعْمِلِ الْآلَاتِ وَالْمُخْتَبِرَاتِ، فَكَيْفَ نُسَبِّحُ ذَاكَ إِلَى الْوَعْيِ، وَهَذَا إِلَى الْجَهْلِ ؟ !.

ثُمَّ إِذَا كَانَ كُلُّ مَنْ يَعْتَمِدُ الْعَقْلَ وَالْإِسْتِنَاجَ مِثَافِيزِيْقِيًّا فَجَمِيعُ النَّاسِ، إِذَنْ، مِثَافِيزِيْقِيُّونَ دُونَ أَسْتِنَاءٍ !، فَمَنْ قَالَ: كُلُّ شَيْءٍ فِي الْوُجُودِ مَادَّةٌ فَقَطْ أَوْ رُوحٌ فَقَطْ، أَوْ هُمَا مَعًا فَقَدْ قَالَ قَوْلًا مِثَافِيزِيْقِيًّا، وَكَذَا مَنْ قَالَ: الْمَعْرِفَةُ لَا تَحْصُلُ إِلَّا

من الحواس وحدها، أو من العقل وحده، أو منهما متعاونان، أو قال: الأمور كلها نسبية ولا حقائق مطلقة، أو قال: الكون قديم أو حديث، وأن أصله ذرات أو غارات، وأصل الإنسان قرد أو طحلب، وأن الأرض قطعة من الشمس، والمادة في حركة دائمة، وأن هذا خير أو شر، وذلك جميل أو قبيح، وما إلى ذلك من الأحكام العامة فهو غيبي ميتافيزيقيون، لأنه لم يجرب ويُشاهد، بل العلماء الذين جربوا وشاهدوا ميتافيزيقيون أيضاً، إذ لا غنى لهم عن العقل، والإدراك الذي لا ينفك عن الذات بحال، فالمعرفة أياً كان سببها فإنها ترد صاحبها إلى ذاته، ولذا قيل: لا يوجد أشياء ذاتية خالصة مئة بالمئة، ولا موضوعية مطلقة مئة بالمئة، وإنما تتكيف الذات بحسب الموضوع، ويتكيف الحكم على الموضوع بحسب الذات. وعلى هذا تكون الميتافيزيقا على أنواع لا نوع واحد، فمن الخطأ أن تحصرها بما وراء الطبيعة فقط، لأن كل فكرة لا تقوم على التجربة والمشاهدة فهي غيبية ميتافيزيقية، سواء أكان مصدرها العقل أو الوحي أو أي سبب آخر.

أن سبيل الحقيقة لا ينحصر بالتجربة والمشاهدة، ولا سبيل الخرافة بالغيب والميتافيزيقا، وإنما معيار الحقيقة ومدارها أن تكون ثابتة في نفسها ومطابقة للواقع، وللحقائق الغيبية واقع خارجي، تماماً كالحقائق الطبيعية.

وقال قائل: كيف يكون الغيب حقيقة مع بعده عن عالم المشاهدة الذي نعيش فيه؟! أن لفظة غيب بنفسها تُشعر بالعدم المحض الذي لا يصح وصفه بالكذب ولا بالصدق، لأن ما يوصف بالكذب ينبغي أن يكون قابلاً للإتصاف بالصدق - مثلاً - إذا قال لك قائل: في الصندوق أربع برتقالات، فبإمكانك أن تتحقق من

هَذَا الزَّعْمُ بِالنَّظَرِ فِي دَاخِلِ الصَّنَدُوقِ، فَإِنْ وَجَدْتَ فِيهِ الْبُرْتَقَالَاتِ الْأَرْبَعِ فَهُوَ صَادِقٌ وَإِلَّا فَهُوَ كَاذِبٌ، أَمَّا الَّذِي لَا تَكُنْ فِيهِ عَمَلِيَّةُ التَّجَرِبَةِ وَالْمُشَاهَدَةِ فَهُوَ أَسْوَأُ حَالًا مِنَ الْكَذِبِ، لِأَنَّهُ كَلَامٌ فَارِغٌ لَا مَدْلُولَ^(١).

وَنَحْنُ نَسْأَلُ هَذَا «الْقَائِلَ» عَلَى أَيِّ شَيْءٍ اسْتَدْتِ فِي قَوْلِكَ هَذَا؟ هَلْ جَرَبْتَ رَأْيَكَ وَحَلَّلْتَهُ فِي الْمَعَامِلِ وَالْمُخْتَبِرَاتِ قَبْلَ أَنْ تَنْطِقَ بِهِ؟! وَأَيْضًا لَقَدْ اعْتَرَفْتَ فِي صَفْحَةِ (١٩٠): «أَنَّ لِلْإِنْسَانَ جِسْمًا وَرُوحًا، فَمِنْ أَيْنُ جَاءَكَ الْعِلْمُ بِهِذَا؟! هَلْ لَمَسْتَ الرُّوحَ بِيَدِكَ، أَوْ شَاهَدْتَهَا بِعَيْنِكَ؟!.

قَالَ «دَارُون» صَاحِبُ نَظَرِيَّةِ النُّشُوءِ وَالْإِرْتِقَاءِ: «يَسْتَحِيلُ عَلَى الْعَقْلِ الرَّشِيدِ أَنْ تَمُرَ بِهِ ذَرَّةٌ مِنْ شَكٍّ فِي أَنَّ الْعَالَمَ الْفَسِيخَ بِمَا فِيهِ مِنَ الْآيَاتِ الْبَالِغَةِ، وَالْأَنْفُسِ النَّاطِقَةِ الْمُفَكِّرَةِ قَدْ صَدَرَ عَنْ مُصَادَفَةِ عَمِيَاءَ، لِأَنَّ الْمُصَادَفَةَ لَا تَخْلُقُ نَظْمًا، وَلَا تُبْدِعُ حُكْمًا، وَذَلِكَ عِنْدِي أَكْبَرُ دَلِيلٍ عَلَى وَجُودِ اللَّهِ».

وَلَكِنَّهُ عِنْدَ الْكَاتِبِ أَكْبَرُ دَلِيلٍ عَلَى عَدَمِ الْوُجُودِ، لِأَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَنْتَحِقَ مِنْهُ بِالتَّجَرِبَةِ كَمَا يَنْتَحِقُ مِنَ وَجُودِ الْبُرْتَقَالَاتِ فِي الصَّنَدُوقِ!.

وَمَرَّةً ثَانِيَةً نَقُولُ: لَيْسَتْ التَّجَرِبَةُ هِيَ السَّبِيلُ الْوَاحِدُ لِمَعْرِفَةِ الْحَقِيقَةِ فَإِنَّ فِي الْغَيْبِ حَقَائِقَ لَا تَدْخُلُ فِي حِسَابِ، وَلَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْحَقَائِقِ الطَّبِيعِيَّةِ أَيُّ تَنَاقُضٍ أَوْ تَضَادٍ، بَلْ هُمَا مَتَازِرَتَانِ تَدْعُمُ أَحَدَاهُمَا الْأُخْرَى. فَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «الْعِلْمُ مَقْرُونٌ بِالْعَمَلِ، فَمَنْ عَمِلَ عَمِلَ، وَالْعِلْمُ يَهْتِفُ بِالْعَمَلِ، فَإِنْ أَجَابَهُ وَإِلَّا أَرْتَحَلَ عَنْهُ»^(٢). وَقَالَ: «الْحَيَاءُ وَالِدَيْنِ مَعَ الْعَقْلِ حَيْثُ كَانَ»^(٣). وَيَوْمَى

(١) أنظر، كتاب «فُشُورُ وَتُبَاب» للدكتور نجيب زكي محمود: ٢٠٧ طَبْعَةٌ (١٩٥٧م). (مِنْهُ ﷺ).

(٢) أنظر، نَهْجُ الْبَلَاغَةِ: الْحِكْمَةُ (٣٦٥).

هَذَا إِلَى أَنَّ الْإِيمَانَ لَا يَسْتَقِيمُ إِلَّا مَعَ الْعَقْلِ . وَفِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ : « الْمَعْرِفَةُ رَأْسُ مَالِي ، وَالْعَقْلُ أَصْلُ دِينِي ، وَالْحُبُّ أَسَاسِي ، وَالشُّوقُ مَرْكَبِي ، وَالْخَوْفُ رَفِيقِي ، وَالْعِلْمُ سِلَاحِي ، وَالْحِلْمُ صَاحِبِي ، وَالتَّوَكُّلُ زَادِي « رِدَائِي » ، وَالْفَنَاءَةُ كَنْزِي ، وَالصَّدَقُ مَنْزِلِي ، وَالْيَقِينُ مَأْوَايَ ، وَالْفَقْرُ فَخْرِي وَبِهِ أَفْتَخِرُ عَلَى سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ » ^(١) . كَمَا قَدَّمَتِ الْعُلُومُ الْجَدِيدَةُ كَثِيرًا مِنَ الشَّوَاهِدِ عَلَى أَنَّ مَا جَاءَ فِي الْإِسْلَامِ عَنِ الْأُلُوهِيَّةِ ، وَالْوَحْيِ ، وَالْبَعْثِ هِيَ حَقَائِقُ لَا رَيْبَ فِيهَا ، وَقَدْ قَدَّمْنَا طَرَفًا مِنْهَا فِي الْكِتَابِ الْأَوَّلِ الَّذِي خَصَّصْنَاهُ لِلْأُلُوهِيَّةِ ، وَفِي الْكِتَابِ الثَّانِي الْمَوْضُوعِ لِلْوَحْيِ . وَنَنْقُلُ فِيمَا يَلِي بَعْضَ الشَّوَاهِدِ وَالْأَرْقَامِ الْعِلْمِيَّةِ الَّتِي تَتَّصِلُ بِالْآخِرَةِ .

بَقَاءُ الرُّوحِ :

أَثْبَتَتِ التَّجَارِبُ الْعِلْمِيَّةُ الَّتِي جَرَتْ فِي أَمْرِيكَا ، وَإِنْجِلْتَرَا ، وَفَرَنْسَا أَنَّ الْإِنْسَانَ مُرَكَّبٌ مِنْ جِسْمٍ وَرُوحٍ ، وَأُنْشِئَ فِي الْجَامِعَاتِ فِرْعٌ لِلْبَحْثِ الرُّوحِيَّةِ تَخْصُصُ بِهَا الْعُلَمَاءُ حَتَّى أَصْبَحَتْ عِلْمًا مُسْتَقْلًا مُعْتَرَفًا بِهِ كَسَائِرِ الْعُلُومِ ، وَأَبْتَدَأَتِ الدَّارَسَةُ الرُّوحِيَّةُ فِي أَمْرِيكَا سَنَةَ (١٩٣٧ م) ، وَفِي أَكْسْفُورْدَ ، وَإِنْجِلْتَرَا سَنَةَ (١٩٤٣ م) ، ثُمَّ تَتَابَعَتْ هَذِهِ الدَّرَاسَاتُ فِي بُونَ ، وَمِيُونِيخَ ، وَبِرْلِينَ ، وَقَدَّمَ الدَّكْتُورُ هِتَنْجِرُ دَارَسَةَ رُوحِيَّةَ عَمِيقَةٍ لِنَيْلِ الدَّكْتُورَاهِ فِي جَامِعَةِ كَمْبَرْدِجَ عَنْوَانُهَا : « الْقُوَّةُ فَوْقَ

(٣) أَنْظِرْ ، كَشَفَ الْقَمَّةُ : ٦٢ / ٣ .

(٤) أَنْظِرْ ، الشُّفَا بِتَعْرِيفِ حَقُوقِ الْمُصْطَفَى : ١٤٦ / ١ ، الْمَحْجَةُ الْبَيْضَاءُ : ١٠١ / ٨ ، عَوَالِي اللَّيَالِي :

المُدرَكَة» وَأَثَبَتِ الْعِلْمُ الْحَدِيثَ فِي مَعَامِلِ الْجَامِعَاتِ أَنَّ الرُّوحَ بَعْدَ أَنْ تُغَادِرَ الْجَسَدَ لَهَا كِيَانُهَا الْأَثِيرِي. أَمَّا الْمُؤَلَّفَاتُ الَّتِي وَضَعَتْ لِهَذِهِ، الْغَايَةِ فَكَثِيرَةٌ، وَكُلُّهَا تُجْمَعُ عَلَى أَنَّ الرُّوحَ بَاقِيَةٌ، وَأَنَّ الْحَيَاةَ مُتَوَاصِلَةً بَعْدَ الْمَوْتِ وَصَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ: «يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ أَرْجِعِي إِلَى رَبِّكَ رَاضِيَةً مُرْضِيَةً»^(١)؛ وَقَالَ تَعَالَى: «وَلَا تَخْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ»^(٢).

يَوْمُ الْآخِرَةِ كَأَلْفِ سَنَةٍ:

جَاءَ فِي الْآيَةِ: «يُذَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَخْرِجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ»^(٣).

وَفِي الْآيَةِ: «تَخْرِجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ»^(٤).

وَالْآيَتَانِ مُتَنَافِيَتَانِ بِحَسَبِ الظَّاهِرِ، لِأَنَّ الْأُولَى قَدَرَتْ يَوْمَ الْآخِرَةِ بِأَلْفٍ، وَالثَّانِيَةِ بِخَمْسِينَ أَلْفٍ، وَلَكِنْ هُنَاكَ سِرٌّ عِلْمِي يَدْفَعُ هَذَا التَّنَافِي، إِذْ قَرَّرَ التَّأْرِيخَ الْجَيُولُوجِي، وَالْفَلَائِكِي أَنَّ الْأَرْضَ بَعْدَ أَنْفَصَالِهَا عَنِ الشَّمْسِ كَانَتْ تَدُورُ حَوْلَ نَفْسِهَا بِسُرْعَةٍ أَكْبَرَ مِمَّا هِيَ عَلَيْهِ الْآنَ، فَكَانَتْ دَوْرَتُهَا تَتِمُّ مَرَّةً كُلَّ أَرْبَعِ سَاعَاتٍ، أَيْ أَنَّ مَجْمُوعَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ كَانَ أَرْبَعِ سَاعَاتٍ فَقَطْ، وَبِتَوَالِي النِّقْصِ فِي سُرْعَةِ دَوْرَانِهَا حَوْلَ نَفْسِهَا، زَادَتْ الْمُدَّةُ الَّتِي تَتِمُّ فِيهَا دَوْرَانُهَا هَذَا، فَزَادَتْ مُدَّةُ اللَّيْلِ

(١) الْفَجْر: ٢٧-٢٨.

(٢) آلِ عِمْرَانَ: ١٦٩.

(٣) السَّجْدَةُ: ٥.

(٤) الْمَعَارِج: ٤.

وَالنَّهَارَ إِلَى خَمْسِ سَاعَاتٍ، ثُمَّ سِتَ حَتَّى وَصَلَتْ إِلَى أَرْبَعٍ وَعَشْرِينَ سَاعَةً الَّتِي هِيَ عَلَيْهَا الْآنَ، وَهَكَذَا يَتَوَالَى النَّقْصُ وَيَطْرُدُ طُولَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَيَأْتِي يَوْمٌ مُقَدَّرُهُ أَلْفٌ، وَآخِرُ خَمْسُونَ أَلْفًا إِلَى أَنْ يَصْبِحَ الْوَجْهَ الْمُقَابِلَ لِلشَّمْسِ نَهَارًا دَائِمًا وَالْوَجْهَ الْخَلْفِي لَيْلًا دَائِمًا.

هَذَا، وَأَنَّ الْحَيَاةَ الثَّانِيَةَ لَا تَقُومُ عَلَى هَذَا الْكَوْكَبِ الَّذِي نَعِيشُ فِيهِ، بَلْ «يَوْمٌ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ»^(١). وَبَدِيهَةٌ أَنَّ الْيَوْمَ يَخْتَلِفُ طَوْلًا وَقُصْرًا بِاخْتِلَافِ الْكَوَاكِبِ، فَيَوْمُ الْقَمَرِ وَلَيْلَتُهُ (٢٧) يَوْمًا مِنْ أَيَّامِنَا^(٢). وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَيَّامِ الْكَوَاكِبِ الْأُخْرَى.

إِنْشِقَاقُ الْقَمَرِ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «أَفْتَرَبْتَ السَّاعَةَ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ»^(٣).

وَيَقُولُ الْعَالَمُ الْفَلَكَي سِيرَ جِيْمَسٍ فِي كِتَابِ «النُّجُومُ فِي مَسَالِكِهَا»: «سَوْفَ يَقْتَرِبُ الْقَمَرُ مِنَ الْأَرْضِ شَيْئًا فَشَيْئًا حَتَّى يَصِيرَ فِي النَّهَايَةِ قَرِيبًا مِنْهَا قُرْبًا يَحُولُ بَيْنَ الْقَمَرِ وَالسَّلَامَةِ، وَحِينَئِذٍ يُنْفَذُ فِيهِ الْقَضَاءُ، وَيَتَفَتَّتْ وَيَتَمَرَّقُ».

وَلَيْسَ مِنْ شَكٍّ أَنَّ إِنْشِقَاقَ الْقَمَرِ وَسَقُوطَهُ يَكُونُ إِذَا نَا بِإِخْتِلَالِ الْجَاذِبِيَّةِ بَيْنَ الْكَوَاكِبِ، فَتُسَوَّى الشَّمْسُ إِلَى الْأَرْضِ، أَوْ إِلَى مَا لَا نَعْرِفُهُ وَنَتَصَوَّرُهُ، وَيَكُونُ ذَلِكَ مِنْ أَدَلَّةِ قِيَامِ السَّاعَةِ.

(١) إِبْرَاهِيمَ: ٤٨.

(٢) أَنْظِرْ، جَرِيدَةُ الْأَهْرَامِ تَارِيخُ: (٣١/١٠/١٩٥٩ م). (مِنْهُجٌ).

(٣) الْقَمَرُ: ١.

وفي جريدة «الأهرام» تأريخ: (٣١ / ١٠ / ١٩٥٩ م) أنه بعد أن التقطت صورة الوجه الخلفي من القمر تكهن بعض العلماء بسقوطه إلى الأرض في المستقبل. وأداعت الجهات العلمية في آخر (١٩٥٥ م) أن لجنته الطاقة الذرية قد أعلنت أن الدكتور (إيرنست لورنس) توصل إلى اكتشاف خطير؛ وهو وجود كهارب من جنس البروتون، ولكنها سالبة، وأنها تكون طبقة حول الأرض في طبقات الجو العليا، وأن وجود هذه الكهارب المعايرة للطبيعة أخطر مما يمكن أن يتصوره العقل البشري.

وعلى ذلك فلو تحطمت ذرة من ذرات عنصر هام يدخل في تركيب كثير من المواد بدلاً من اليورانيوم خطأً أو قصداً فسينتج عن ذلك غاز مشتعل ملتهب، وتضيق مياه البحار، والمحيطات، والأنهار نارا متأججة بأقل من لمح البصر. وقد نطق القرآن الكريم بذلك: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوْ فِعٌّ﴾^(١).

وفي آية ثانية: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾^(٢).

وفي آية ثالثة: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾^(٣).

وفي آية رابعة: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ وَأَذْنَتْ لِربِّهَا وَحُقَّتْ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾^(٤).

وقد أثبت العلم كل هذه الصور، وأن التدمير سيكون في داخل الذرات في

(١) الطور: ٦-٧.

(٢) التكوير: ٦.

(٣) الانقطاع: ٣.

(٤) الانشقاق: ١-٥.

الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ^(١).

هَذِهِ بَعْضُ الشَّوَاهِدِ الْعِلْمِيَّةِ الَّتِي تُلْقَى ضَوْءٌ عَلَى وُجُودِ الْآخِرَةِ، وَتُثَبِّتُ أَنَّهَا نَفْسُ الْحَقِيقَةِ الَّتِي نَطَقَ بِهَا الْوَحْيُ قَبْلَ مِائَاتِ السِّنِينَ. وَلَيْسَ مِنْ شَكٍّ أَنَّ سَنَظْفِرَ بِالْمَزِيدِ مِنْ هَذِهِ الْأَرْقَامِ كُلَّمَا تَقَدَّمَ الْعِلْمُ.

لَقَدْ أَهْتَمَّ الْقُرْءَانُ الْكَرِيمُ بِقَضِيَّةِ الدَّارِ الْآخِرَةِ، لِيُفْهَمَ كُلُّ إِنْسَانٍ أَنَّهُ لَنْ يُتْرَكَ سُدًى، وَأَنَّهُ مَسْئُولٌ وَمُحَاسَبٌ عَلَى كُلِّ كَبِيرَةٍ وَصَغِيرَةٍ، وَأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ يُفْنَى إِلَّا وَجْهَهُ الْكَرِيمَ أَهْتَمَّ الْقُرْءَانُ بِهَذَا كَيْ يَتَّجِهَ كُلُّ وَاحِدٍ مَنَا اتِّجَاهًا مُسْتَقِيمًا فِي سَعْيِهِ وَسُلُوكِهِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ. أَمَّا عَلَامَاتُ السَّاعَةِ فَقَدْ ذَكَرَهَا الْقُرْءَانُ الْكَرِيمُ لِلتَّنْبِيهِ وَالتَّذْكِيرِ، كَمَا هُوَ شَأْنُ الْوَعَاظِ وَالْمُنْذِرِينَ فَمِنْ خُطْبَةِ الْإِمَامِ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي هَذَا الْبَابِ قَوْلُهُ:

« حَتَّى إِذَا بَلَغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ، وَالْأَمْرُ مَقَادِيرُهُ، وَالْحَقُّ آخِرُ الْخَلْقِ بِأَوَّلِهِ، وَجَاءَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا يُرِيدُهُ مِنْ تَجْدِيدِ خَلْقِهِ، أَمَادَ السَّمَاءِ وَقَطَرَهَا، وَأَرْجَ الْأَرْضِ وَأَرْجَفَهَا، وَقَلَعَ جِبَالَهَا وَنَسَفَهَا، وَذَكَ بَعْضُهَا بَعْضًا مِنْ هَيْبَةِ جَلَالَتِهِ، وَمَخُوفِ سَطَوْتِهِ، وَأَخْرَجَ مَنْ فِيهَا، فَجَدَّدَهُمْ بَعْدَ إِخْلَاقِهِمْ، وَجَمَعَهُمْ بَعْدَ تَفَرُّقِهِمْ، ثُمَّ مَيَّرَهُمْ لِمَا يُرِيدُهُ مِنْ مَسَائِلِهِمْ عَنْ خَفَايَا الْأَعْمَالِ، وَخَبَايَا الْأَفْعَالِ، وَجَعَلَهُمْ قَرِيبِينَ: أَنْعَمَ عَلَى هَؤُلَاءِ، وَأَنْتَقَمَ مِنْ هَؤُلَاءِ »^(٢).

أَجَارَنَا اللَّهُ مِنْ غَضَبِهِ وَسَطَوْتِهِ، وَشَمَلَنَا بِعَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ.

(١) نَقَلْنَا أَقْوَالَ الْعُلَمَاءِ الْغَرِيبِينَ فِي هَذَا الْبَابِ عَنْ كِتَابِ اللَّهِ وَالْعِلْمِ الْحَدِيثِ. وَالْقُرْءَانُ وَالْعِلْمُ الْحَدِيثُ لِلْأَسْتَاذِ عَبْدِ الرَّزَّاقِ نُوفَلٍ، وَمَنْ قَرَأَ هَذَيْنِ الْكِتَابَيْنِ يَحْمَدُ اللَّهُ وَالْمَوْلُفَ عَلَى مَا فَتَحَا لَهُ مِنْ أَبْوَابِ الْعِلْمِ بِنَفْسِهِ وَمَعْيِرِهِ. (مِنْهُ بَيِّنَاتٌ).

(٢) أَنْظَرِ. نَهَجُ الْبَلَاغَةِ: الْخُطْبَةُ (١٠٩).

التناسخ

اختلف الناس في حقيقة النفس، وتعددت الأقوال حتى بلغت أربعة عشر قولاً^(١)، أسخفها القول بأن نفس الإنسان هي الله بالذات، وأضعفها أنها الماء، والهواء، أو النار، أو هذه العناصر مجتمعة، لأنه لا حياة مع فقد أحدها، وأشهر الأقوال قولان:

الأول: أنها جوهر مجرد عن المادة وعوارضها، أي ليست جسماً، ولا حالة في جسم، وإنما تتصل به اتصال تدبير وتصرف، وبالموت ينقطع الاتصال. وعلى هذا الرأي جمهور الفلاسفة، والشيعية الإمامية، والغزالي من الأشاعرة. الثاني: أنها جوهر مادي، ذهب إليه جماعة المعتزلة، وكثير من المتكلمين^(٢) وقال الحنبلية، والكرامية وكثير من أهل الحديث: كل ما ليس جسماً، ولا يدرك بإحدى الحواس فهو لا شيء^(٣).

واستدل القائلون بنفي المادة عن النفس بأنها تدرك وتفكر، والمادة لا تدرك

(١) أنظر، بحار الأنوار: ١٤ باب السماء والعالم. طبعة الكُمباني و: ٤٨٧/٦٣.

(٢) أنظر، رسالة الباب المفتوح للشيخ علي بن يونس نقلها صاحب البحار في مجلد السماء والعالم. (منه ^٢).

(٣) أنظر، المبدأ والمعاد لصدر المتألهين الشيرازي. (منه ^٣).

وَلَا تُفَكِّرْ، فَتَكُونَ مُعَايِرَةً لَهَا.

وَأَجَابَهُمُ الْقَائِلُونَ بِثُبُوتِ الْمَادَّةِ لِلنَّفْسِ، بِأَنَّ الْجِسْمَ يَحْسُ وَيُدْرِكُ حَرَارَةَ النَّارِ، وَيُرْوَدَةُ الثَّلَجِ، وَحَلَاوَةُ الْعَسَلِ، وَأَلَمُ الضَّرْبِ، وَكَذَلِكَ إِذَا قَالَ الْقَائِلُ: أَكَلْتُ، وَنَمْتُ، وَتَرَوَّجْتُ وَسَافَرْتُ، فَإِنَّ هَذِهِ وَمَا إِلَيْهَا مِنْ خَوَاصِّ الْجِسْمِ وَعَلَيْهِ يَكُونُ الْجِسْمُ مُدْرِكاً مِثْلَ النَّفْسِ.

الْجَوَابُ:

إِنَّ إدْرَاكَ الْحَرَارَةِ، وَالْبُرُودَةِ، وَالْأَلَمِ مِنْ خَوَاصِّ النَّفْسِ، وَالْجِسْمِ وَاسْطَةً وَآلَةً، تَمَاماً كَأَدَوَاتِ الْبِنَاءِ بِالْقِيَاسِ إِلَى الْبَانِي، وَإِلَّا لَوْ كَانَ الْإِدْرَاكُ، وَالْإِحْسَاسُ لِلْجِسْمِ وَحْدَهُ لَكَانَ كُلُّ جِسْمٍ يَحْسُ وَيُدْرِكُ حَتَّى الْحَجَرِ.

أَمَّا عَدَمُ فَنَاءِ النَّفْسِ وَبَقَاؤُهَا بَعْدَ الْمَوْتِ فَقَدْ أَطَالَ الْفَلَاسِفَةُ فِي إِقَامَةِ الْبِرَاهِينِ الْعَقْلِيَّةِ عَلَيْهِ. وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ فَنَاءَ الْجِسْمِ لَا يَسْتَدْعِي فَنَاءَ النَّفْسِ وَلَا بَقَاءَهَا، وَأَنَّ الْعَقْلَ لَا يَحْكُمُ بِذَلِكَ سَلْباً وَلَا إِيجَاباً، بَلْ يَتْرَكُهُ إِلَى الشَّرْعِ. وَقَدْ أَجْمَعَتِ الْأُمَّةُ، وَتَوَاتَرَتِ السُّنَّةُ، وَنَصَّ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ عَلَى أَنَّ النَّفْسَ بَاقِيَةً بَعْدَ فَنَاءِ الْجِسْمِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾^(١).

وَقَدْ دَانَتْ طَوَائِفُ مِنَ شُعُوبِ شَتَّى بِبَقَاءِ النَّفْسِ بَعْدَ فَنَاءِ الْجِسْمِ، وَبِتَنَاسُخِهَا مُتَنَقِّلَةً مِنْ بَدَنٍ إِلَى بَدَنٍ، بِحَيْثُ يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الثَّانِي مِنَ الْعَلَاقَةِ مَا كَانَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْأَوَّلِ. وَمِنْ عَقِيدَةِ أَهْلِ التَّنَاسُخِ أَنَّ النَّفْسَ إِذَا كَانَتْ مُطِيعَةً لِلَّهِ تَعَالَى، وَمِنْ ذَوَاتِ الْأَعْمَالِ الطَّيِّبَةِ وَالْأَخْلَاقِ الطَّاهِرَةِ انْتَقَلَتْ بَعْدَ مَوْتِهَا إِلَى أَبْدَانِ السُّعْدَاءِ وَأَهْلِ الْجَهَنَّمَ وَالنَّارِ، وَإِذَا كَانَتْ عَاصِيَةً شَقِيَّةً انْتَقَلَتْ إِلَى أَبْدَانِ الْحَيَوَانَاتِ، وَكُلَّمَا

كَانَتْ أَكْثَرَ شَقَاوَةً أُخْتِيرَ لَهَا بَدَنٌ أَحْسَنُ وَأَكْثَرَ تَعَبًا.

وَقَالَ صَدْرُ الْمُتَأَلِّهِينَ الشَّيْرَازِي فِي كِتَابِ «الْمَبْدَأِ وَالْمَعَادِ» إِذَا انْتَقَلَتِ النَّفْسُ الْإِنْسَانِيَّةُ إِلَى بَدَنٍ إِنْسَانٍ سُمِّيَ ذَلِكَ نَسْخًا، وَإِذَا انْتَقَلَتِ إِلَى بَدَنٍ حَيَوَانٍ كَانَ مَسْخًا، وَإِذَا انْتَقَلَتِ إِلَى النَّبَاتِ فَهُوَ الْفَسْخُ، أَوْ إِلَى الْجَمَادِ فَهُوَ الرَّسْخُ. وَلَا حِسَابَ عِنْدَ أَهْلِ التَّنَاسُخِ، بَلْ تَنْتَقِلُ النَّفْسُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ مِنْ كَائِنٍ إِلَى كَائِنٍ، وَهَكَذَا إِلَى مَا لَا نَهَايَةَ، وَغَيْرَ بَعِيدٍ أَنْ مُخْتَرَعُ هَذِهِ الْفِكْرَةِ كَانَ رَحَلًا مِنْ عُشَاقِ الْأَسْفَارِ. وَمَهْمَا يَكُنْ فَقَدْ اسْتَدَلُّوا عَلَى التَّنَاسُخِ بِمَا يَلِي:

١- أَنَّ النَّفْسَ لَوْ لَمْ تَنْتَقِلْ بَعْدَ فَسَادِ الْجِسْمِ الْأَوَّلِ إِلَى غَيْرِهِ لَبَقِيَتْ مُعْطَلَّةً بِلَا عَمَلٍ، لِأَنَّ الْبَدَنَ بِمَنْزِلَةِ الْآلَاتِ، وَالْأَدَوَاتِ لِلنَّفْسِ، وَبِدُونِهِ لَا تَسْتَطِيعُ الْقِيَامَ بِأَيِّ عَمَلٍ.

وَأُجِيبُوا بِأَنَّهُ ثُمَّ مَاذَا؟! وَأَيُّ بَاطِلٍ يَتَرْتَّبُ عَلَى تَرْكِهَا لِلْعَمَلِ؟! وَعَلَى افْتِرَاضِ أَنَّهُ لَا بُدَّ لَهَا مِنْ تَدْبِيرِ عَمَلٍ فَلَيْسَ مِنَ الضَّرُورِيِّ أَنْ يَكُونَ عَمَلُهَا بَعْدَ مُفَارَقَةِ الْبَدَنِ تَمَامًا كَعَمَلِهَا حِينَ اتِّصَالِهَا بِهِ، فَرُبَّمَا كَانَ مِنْ نَوْعٍ آخَرَ كَالْإِشْرَاقِ وَالْإِبْتِهَاجِ وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِمَّا لَا يَسْتَدْعِي وَجُودَ الْبَدَنِ.

٢- أَنَّ النَّفْسَ هِيَ عِبَارَةٌ عَنْ كَمِيَّةٍ مَحْدُودَةِ الْعَدَدِ، لِأَنَّهَا مَوْجُودَةٌ بِكَامِلِهَا فِعْلًا وَخَارِجًا لَا تَزِيدُ وَلَا تَنْقُصُ، أَمَّا الْأَجْسَامُ فَلَا نَهَايَةَ لَهَا، بَلْ تَتَجَدَّدُ وَتَتَبَدَّلُ عَلَى التَّوَالِي وَالتَّعَاقِبِ، وَبِذَلِكَ تَكُونُ الْأُبْدَانُ أَكْثَرَ عَدَدًا مِنَ النَّفُوسِ، فَإِذَا لَمْ تَنْتَقِلِ النَّفْسُ الْوَاحِدَةُ بَيْنَ أُبْدَانٍ عَدِيدَةٍ لَزِمَ أَنْ تَبْقَى أُبْدَانُ بِلَا نَفُوسٍ، لِأَنَّ تَوْزِيعَ الْأَقْلِ عَلَى الْأَكْثَرِ بِالنِّسَاءِ مَحَالٌ.

وَالْجَوَابُ: أَنَّ هَذِهِ دَعْوَى بِلَا دَلِيلٍ، وَافْتِرَاضُ بَدُونِ أُسَاسٍ، وَمَنْ الَّذِي قَامَ

بعملية الإحصاء، وثبت له بالتشبع، والإستقراء أن النفوس أقل من الأجسام ؟ ! .
وعلى الرغم من أن أقوال أهل التناسخ كلها من هذا القبيل فقد أستدل العقلاء
على بطلان التناسخ بأمر :

١- لو انتقلت النفس من البدن الأول إلى الثاني للزم أن يتذكر الإنسان شيئاً
من أحوال البدن الأول، لأن العلم، والحفظ، والتذكر من الصفات التي لا تختلف
باختلاف الأبدان، والأحوال، مع أننا لا نعرف شيئاً عما كان قبل وجودنا الحالي .

٢- لو تعلقَت النفس بعد مفارقة هذا البدن ببدن آخر للزم أن يكون عدد
الوفيات بمقدار عدد المواليد دون زيادة أو نقصان، لأنه إذا زادت المواليد بقيت
أبدان بلا نفوس، وهو باطل عند أهل التناسخ، لأنه يستلزم تعطيل النفوس، وأما
تعطيل الأبدان، فإنهم يمنعون من وجود المعطل في الطبيعة، هذا بالإضافة إلى أن
المواليد لا تتساوى أبداً مع الوفيات، فأيام الحرب، والجوع، والأمراض،
والطوفان، والزلازل تزيد الوفيات، وأيام السلم، والرخاء تزيد المواليد .

٣- أن النفس لا تتصل بالبدن إلا بعد أن يكون له الصلاحية، والإستعداد التام
لقبولها، فالجماد، والنبات، والحيوانات غير صالحة لتقبل النفس الإنسانية وكذا
بدن عمره لا يصلح بحال لأن يتقبل نفس زيد، لأنه منذ تكوينه في بطن أمه
تتصل به نفسه المختصة به، ولا تنفك عنه بحال، وإلّا لزم تخلف المعلول عن
علته، وبعد أن تتصل به نفسه الخاصة لا يمكن أن تتقل إليه نفس أخرى، إذ لا
تجتمع نفسان في بدن واحد، كما لا يشترك بدنان في نفس واحدة .

وبالتالي، فلا أحد منا يشعر بأن له نفسين مختلفتين تتصرفان بشؤونه وبدنه،
وإنما الذي يحسه ويشعر به أن له ذاتاً واحدة لا غير، وأنه لا يعلم شيئاً عما كان

قَبْلَ حَيَاتِهِ هَذِهِ، كَمَا أَنَّهُ لَا يَجِدُ وَلَنْ يَجِدَ شَخْصًا يُعَاثِلُهُ فِي جَمِيعِ صِفَاتِهِ النَّفْسِيَّةِ،
وَمِنْ هَذَا يَتَبَيَّنُ أَنَّ التَّنَاسُخَ وَهَمٌّ وَهَرَاءٌ^(١).

(١) أنظر، بيان الأديان: ٢٩، الآثار الباقية للبيروني: ٣٢، دراسات في الفرق والمعتقدات الإسلامية: ٧٤، رسالة أضحوية في أمر المعتقد لابن سينا: ٥٨، القلوع والفرق العالية للسامرائي: ١٢٦، رسالة الغفران: ٤٠٩، موسوعة الأديان في العالم، البيانات القديمة: ٩٤، أديان الهند الكبرى: ٢٩.

...the ...
...
...
...

...the ...
...
...
...

...the ...
...
...
...

...the ...
...
...
...

...the ...
...
...
...

...the ...
...
...
...

...the ...
...
...
...

مَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى

مِنَ الْأَوْهَامِ أَنَّ فِكْرَةَ الْآخِرَةِ تُعَارِضُ وَتُقَاوِمُ التَّطَوُّرَ وَالتَّقَدُّمَ، لِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ بِهَا يَهْتَمُّونَ بِخَلَاصِهِمْ فِي الْعَالَمِ الثَّانِي أَكْثَرَ مِنْ أَهْتِمَائِهِمْ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ، لَا فَرْقَ عِنْدَهُمْ بَيْنَ أَنْ يَظْلَلُوا فِي الْوَضْعِ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ أَوْ يَنْتَقِلُوا مِنْهُ إِلَى أَسْوَأَ أَوْ أَحْسَنَ. وَلِذَا تَرَاهُمْ يَسْمَحُونَ لِلِإِهْتِمَازِيِّينَ بِإِسْتِمَارِهِمْ، وَإِسْتِغْلَالِ أَوْطَانِهِمْ.

وَلَيْسَ مِنْ شِكِّ بَأَنَّ هَذَا صَحِيحٌ بِالْقِيَاسِ إِلَى دِينِ يُعَارِضُ الْإِصْلَاحَ، وَيَأْمُرُ أَتْبَاعَهُ بِالْبُعْدِ عَنِ الْوَقْعِ الْحَيَاةِ وَأَشْيَائِهَا، أَمَّا الَّذِينَ يَثِقُ بِالْإِنْسَانِ وَعَظَمَتِهِ، وَيَحْتَسِبُ عَلَى الْعِلْمِ، وَالْعَمَلِ حَتَّى لَا يَقُوتَهُ شَيْءٌ مِنْ مُقَدَّسَاتِ الْحَيَاةِ، وَحَتَّى يَسْتَغْلَ كُلُّ مَا فِي هَذَا الْكَوْنِ لِمَنْفَعَةِ الْعَالَمِ، أَمَّا الْعَقِيدَةُ الَّتِي يَقُولُ كِتَابُهَا الْمُقَدَّسُ: «وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا»^(١).

وَقَالَ تَعَالَى: «يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذِلُّكُمْ عَلَى تَجَنُّدِ تَنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ»^(٢).

(١) الْأَشْرَاءُ: ٧٢.

(٢) الْأَصْف: ١٠-١١.

وَيَقُولُ قَادَتَهَا: «أَعْمَلْ لِدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَدًا - أَيْ مَعَ الْأُخْتِيَالِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ - وَأَعْمَلْ لِآخِرَتِكَ كَأَنَّكَ تَمُوتُ غَدًا»^(١). «إِنَّ أَهْلَ الْمَعْرُوفِ فِي الدُّنْيَا هُمْ أَهْلُ الْمَعْرُوفِ فِي الْآخِرَةِ»^(٢). «اللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ»^(٣). «خَيْرُ النَّاسِ مَنْ أَنْتَفَعَ النَّاسُ بِهِ»^(٤). أَمَّا فِكْرَةُ الْآخِرَةِ فِي هَذَا الدِّينِ وَهَذِهِ الْعَقِيدَةِ فَهِيَ غَايَةُ مَثَالِيَّةٍ تَدْفَعُ بِصَاحِبِهَا إِلَى التَّقَدُّمِ وَالْعَمَلِ فِي سَبِيلِ الْحَيَاةِ، وَحَافِزُاجْتِمَاعِي يَحْتَثُهُ عَلَى الْجِهَادِ وَالتَّضَحِّيَةِ مِنْ أَجْلِ أُمَمَتِهِ وَبِلَادِهِ. وَلَا شَيْءَ أَذَلَّ عَلَى هَذِهِ الْحَقِيقَةِ مِمَّا جَاءَ فِي الْكِتَابِ، وَالْحَدِيثِ عَنْ أَوْصَافِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ؛ فَمِنْ الْكِتَابِ:

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾^(٥).
وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ﴾^(٦).

(١) تَقَدَّمَ تَحْرِيجَاتُهُ.

(٢) أَنْظَرِ، الْمُشْتَدَّرُكَ عَلَى الصَّحِيحَيْنِ: ٢١٣/١ ح ٤٢٩، مَجْمَعُ الزَّوَائِدِ: ١١٥/٣، سُنَنِ السَّبْهَتِيِّ الْكُبْرَى: ١٠٩/١٠، الْمُصَنَّفُ لِابْنِ أَبِي شَيْبَةَ: ٢٢١/٥ ح ٢٥٤٢٨، الْمُعْجَمُ الْكَبِيرُ: ٢٦٤/٦ ح ٦١١٢، الْمُعْجَمُ الصَّغِيرُ: ١٣٣/١ ح ١٩٩، الْمُعْجَمُ الْأَوْسَطُ: ٥٦/١ ح ١٥٦، الْأَدَبُ الْمُرْدُ: ٨٦/١ ح ٢٢٠، الْفِرْدَوْسُ بِمَأْثُورِ الْخُطَّابِ: ٤٠٩/١ ح ١٦٥٣.

(٣) أَنْظَرِ، شَرْحُ الْأَرْهَارِ: ٤٦٩/١، سُبُلُ السَّلَامِ: ١٦٩/٤، الْمُعْجَمُ الْأَوْسَطُ: ١٨/٦.

(٤) أَنْظَرِ، قَبِيضُ الْقَدِيرِ: ٤٦٦/٣، شُعَبُ الْإِيمَانِ: ١١٧/٦ ح ٧٦٥٨، مُشْتَدَّرُكَ الْوَسَائِلِ: ٧٨/١٢ ح ٤، الْإِخْتِصَاصُ: ٢٤٣، أَمَالِي الصَّدُوقِ: ٢٨ ح ٤، لِسَانُ الْمِيزَانِ: ٣٩٥/٣، التَّشْدِيدُ فِي أَخْبَارِ

إِصْفَهَانَ: ٣٠٨/٢.

(٥) الشُّعْرَاءُ: ٨٨-٨٩.

(٦) الْأَغْرَافُ: ٥١.

وَقَالَ تَعَالَى: «وَأَدْخِلِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ»^(١).

وَقَالَ تَعَالَى: «إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ»^(٢).

وَقَالَ تَعَالَى: «كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ»^(٣).

وَقَالَ تَعَالَى: «ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ»^(٤).

وَقَالَ تَعَالَى: «هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ»^(٥).

وَمِنَ الْحَدِيثِ:

«مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ»^(٦).

«مَنْ كَتَمَ عِلْمًا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلُجَامٍ مِنْ نَارٍ»^(٧).

«مَنْ لَقِيَ النَّاسَ بِوَجْهَيْنِ وَلِسَانَيْنِ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَهُ لِسَانٌ مِنْ قَفَّاهُ، وَآخِرُ

(١) إِبْرَاهِيمَ: ٢٣.

(٢) الْأَنْعَامُ: ١٣ - ١٤.

(٣) الْأَصْف: ٣.

(٤) يُوسُف: ٥٢.

(٥) الْأَنْعَامُ: ١١٩.

(٦) أَنْظَر، صَحِيحُ أَبِي نَاجَةَ: ٨/١ ح ٢٢٣، صَحِيحُ التِّرْمِذِيِّ: ٤/١٣٧ ح ٢٧٨٤، مُسْنَدُ أَحْمَدَ:

٣٢٥/٢، مُسْنَدُ أَبِي دَاوُدَ: ١٧٥/٢ ح ٣٦٤١، الْمُسْتَدْرَكُ عَلَى الصَّحِيحَيْنِ: ٨٩/١، الشَّعَرُ الدَّانِي:

٧٢١، الْمَجْمُوعُ: ١٩/١، مُسْنَدُ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ: ٣٨٣، مُغْنِي الْمُحْتَاجِ: ٨/١، إِعَانَةُ الطَّالِبِينَ: ٢٣/١.

(٧) أَنْظَر، صَحِيحُ أَبِي نَاجَةَ: ٩٧/١ ح ٢٦٥، مُسْنَدُ أَحْمَدَ: ٤٩٩/٢ ح ١٠٤٩٢، الْمُسْتَدْرَكُ عَلَى

الصَّحِيحَيْنِ: ١٨٢/١ ح ٣٤٦، مَجْمُوعُ الرُّوَاثِدِ: ١٦٣/١، الْمُفْعَمُ الْكَبِيرُ: ٥/١١ ح ١٠٨٤٥، مَوَارِدُ

الظَّمَانِ: ٥٥/١ ح ٩٥، صَحِيحُ أَبِي جَبَّانَ: ٢٩٧/١ ح ٩٥ و ٩٦.

مِنْ قَدَامِهِ يَلْتَهِنَانِ نَارًا»^(١).

«يُخْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ عَلَى هَيْئَةِ الذَّرِّ يَطَاهُمُ النَّاسُ بِأَقْدَامِهِمْ جَزَاءً، وَفَاقًا عَلَى تَعَالِيهِمْ»^(٢).

«مَنْ خَافَ النَّاسَ مِنْ لِسَانِهِ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»^(٣).

«إِنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرَفًا يَرَى ظَاهَرَهَا مِنْ بَاطِنِهَا وَبَاطِنَهَا مِنْ ظَاهَرِهَا لَا يَسْكُنُهَا إِلَّا مَنْ أَطَابَ الْكَلَامَ، وَأَنْعَمَ الطَّعَامَ، وَأَفْشَى السَّلَامَ»^(٤).

وَمَا إِلَيَّ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَتَسَعُّ لَهُ الْمَجَالُ. إِذَنْ فَطَرِيقُ الْجَنَّةِ هُوَ الْعِلْمُ، وَالْعَمَلُ النَّافِعُ، وَاتِّبَاعُ الْحَقِّ وَالصَّدَقِ، وَإِفْشَاءُ السَّلَامِ، وَالْأَمْنِ، وَالْأَمَانِ. وَطَرِيقُ النَّارِ هُوَ الظُّلْمُ، وَالْفَسَادُ، وَكتمانُ الْعِلْمِ، وَالْكَذِبُ، وَالتَّمِيمَةُ وَمَا إِلَيَّ ذَلِكَ.

وَأَجْمَعَ كَلِمَةً وَأَبْلَغَهَا قَوْلَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي

(١) أنظر، مَجْمُوعُ الزَّوَائِد: ٩٦/٨، الْمُعْجَمُ الْكَبِيرُ: ٢٣٨/٩، سُنَنِ الدَّارِمِيِّ: ٤٠٥/٢ ح ٢٧٦٤، الْمُصَنَّفُ لِابْنِ أَبِي شَيْبَةَ: ٢٢٣/٥ ح ٢٥٤٦٢، التَّخْوِيفُ مِنَ النَّارِ: ١٢٨/١، السُّنَّةُ لِابْنِ أَبِي عَاصِمٍ: ٢١٦/١، الزُّهْدُ لِابْنِ حَنْبَلٍ: ١٠٩/١ ح ٢١٣ - ٢١٤، فَتَحُ الْبَارِيِّ: ٢٧٥/١٠، الإِسَابَةُ: ١٩٥/١ تَحْتَ رَقْمٍ «٤٥٠».

(٢) أنظر، كَشَفُ الْغَفَاءِ: ٥٣٣/٢ ح ٣٢٣٦، تَأْرِيخُ بَغْدَادَ: ١٢/٢٩٤ رَقْم (٦٧٤٠)، حَلِيَّةُ الْأَوْلِيَاءِ: ٣٧٠/٥، تَحْقِيقَةُ الْأَخْوَذِيِّ: ١٦٢/٧، التَّرْغِيبُ وَالتَّرْهِيْبُ: ٣/٣٥٥ ح ٤٤١٨، الْأُدْبُ السُّفَرْدِ: ١٩٦/١ ح ٥٥٧، شُعْبُ الْإِيْمَانِ: ٢٨٨/٦ ح ٨١٨٥، تَفْسِيرُ الْقُرْطُبِيِّ: ٢٧٤/١٥، سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ: ٦٥٥/٤ ح ٢٤٩٢، مَجْمَعُ الزَّوَائِد: ١٠/٣٣٤، مُسْتَدْرَكُ أَحْمَدَ: ٢/١٧٩ ح ٦٦٧٧، مُسْتَدْرَكُ الْحَمِيدِيِّ: ٢٧٢/٢ ح ٥٩٨، التَّخْوِيفُ مِنَ النَّارِ: ٩٠/١.

(٣) أنظر، مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ: ٤٣٣، وَسَائِلُ الشَّيْئَةِ: ١٦/٣٤ ح ١١، مَنْ لَا يَحْضُرُهُ الْفَقِيْهَ: ٤/٣٥٣ ح ٥٧٦٢، السَّرَائِرُ: ٣/٦١٥.

(٤) أنظر، وَسَائِلُ الشَّيْئَةِ: ١٢/٦٠ ح ٧، مَعَانِي الْأَخْبَارِ: ٢٥١ ح ١، أَمَالِي الصَّدُوقِ: ٤٠٧.

الْآخِرَةَ أَعْمَى وَأَضَلَّ سَبِيلَهُ»^(١).

وَقَدْ يَتَسَاءَلُ: إِذَا كَانَتْ الْجَنَّةُ تُدْرَكُ بِالْعَمَلِ لِلْعِمْرَانِ، وَالسَّعَادَةُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ فَمَاذَا نَفْسَرُ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ، وَالْحَدِيثِ مِنْ ذَمِّ الدُّنْيَا وَأَهْلِهَا، وَالْحَثِّ عَلَى الْإِعْرَاضِ عَنْهَا، وَزُهْدِ الْأَنْبِيَاءِ فِيهَا؟!

الْجَوَابُ:

لَقَدْ خَلَطَ النَّاسَ لِرَمَنْ طَوِيلٌ بَلْ حَتَّى الْآنُ بَيْنَ حُبِّ الْمَالِ وَجَمْعِهِ كِفَايَةً، وَبَيْنَ حُبِّ الْحَيَاةِ، وَظَنُّوْا أَنَّ الْإِثْنَيْنِ شَيْءٌ وَاحِدٌ، أَوْ أَنَّهُمَا مُتَسَاوِيَيْنِ لَا يَفْتَرِقَانِ، وَمَنْشَأُ هَذَا الْخَلْطِ، وَالْوَهْمُ مَا جَاءَ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ:

«وَمَا الْحَيَوَةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتْنَعٌ الْغُرُورِ»^(٢).

وَقَالَ تَعَالَى: «بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى»^(٣).

وَفِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عُدْوَانٌ مُتَفَاوِتَانِ، وَسَبِيلَانِ مُخْتَلِفَانِ؛ فَمَنْ أَحَبَّ الدُّنْيَا وَتَوَلَّاهَا أَبْغَضَ الْآخِرَةَ وَعَادَاهَا، وَهَمَّا بِمَنْزِلَةِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَمَا شِ بَيْنَهُمَا؛ كُلَّمَا قَرُبَ مِنْ وَاحِدٍ بَعُدَ مِنَ الْآخَرِ، وَهَمَّا بِعَدُوِّ ضَرَّتَانِ!»^(٤). وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِمَّا أَكَّدَ هَذَا الْمَعْنَى تَصْرِيحًا أَوْ تَلْوِيحًا.

وَلَكِنْ مَعَ النَّظَرِ الْفَاحِصِ يَتَبَيَّنُ لَنَا أَنَّ أَحَدَهُمَا غَيْرُ الْآخَرِ، إِذِ الْمُرَادُ بِالدُّنْيَا الْمَذْمُومَةُ تَأْلِيهِ الْمَالِ، وَالتَّكَالِبِ عَلَيْهِ، وَبِالْآخِرَةِ الْحَقُّ، وَالْعَدْلُ. وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْحَقَّ، وَالبَاطِلَ ضِدَّانِ لَا يَجْتَمِعَانِ، أَمَّا طَلَبُ الْمَالِ لِلْعَيْشِ، وَسَدِّ الْخِلَةِ فَهُوَ مِنْ

(١) الْأَشْرَاءُ: ٧٢.

(٢) آلِ عِمْرَانَ: ١٨٥.

(٣) الْأَعْلَى: ١٦-١٧.

(٤) أَنْظِرْ، نَهَجُ الْبِلَآغَةِ: الْجَنَّةُ (١٠٣).

أَفْضَلُ الطَّاعَاتِ بِحُكْمِ الْعَقْلِ، وَالشَّرْعِ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾^(١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا تَحْرِمُوا طَبِيعَتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾^(٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ﴾^(٣).

وَفِي الْحَدِيثِ: «لَيْسَ خَيْرُكُمْ مَنْ تَرَكَ الدُّنْيَا، وَطَبِيعَتَهَا لِغَيْرِهِ»^(٤). قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْسَ خَيْرُكُمْ مَنْ تَرَكَ الدُّنْيَا لِلْآخِرَةِ، لِلدُّنْيَا، وَلَكِنْ خَيْرُكُمْ مَنْ أَخَذَ مِنْ هَذِهِ لِهَذِهِ»^(٥). وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَيَّ اللَّهُ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ»^(٦).

إِنَّ الْإِنْسَانَ مَهْمَا تَجَرَّدَ وَعَقَفَ، وَسَمِيَ بِرُوحَانِيَّتِهِ فَلَا يُمْكِنُهُ بِحَالٍ أَنْ يَدَعَ التَّفَكِيرَ فِي عَيْشِهِ، وَطَعَامِهِ، وَشَرَابِهِ، فَقَدْ يَهْوَنُ عَلَيْهِ أَنْ يَكْبَحَ شَهْوَتَهُ الْجِنْسِيَّةَ، وَيَهْوَنَ عَلَيْهِ أَنْ يَتْرَكَ الْكَثِيرَ مِمَّا أَعْتَادَ وَالْفَ، وَلَكِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ لَا يُفَكِّرَ فِي الْغَدَاءِ مَا دَامَتْ مِعْدَتُهُ تَطْلُبُ ذَلِكَ. وَعَلَى هَذَا لَا يَكُونُ الْعَمَلُ فِي نِطَاقِ الْعَيْشِ وَسَدِّ الْحَاجَةِ ضَرْبًا مِنَ الْإِنَانِيَّةِ، وَالْمَنَافَعِ الْخَاصَّةِ، وَإِنَّمَا هُوَ عَمَلُ إِنْسَانِي وَنِضَالٌ مِنْ أَجْلِ الْحَيَاةِ الْعَامَّةِ، وَالْمَصْلَحَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، فَمَنْ عَمَلَ لِصَيَانَةِ نَفْسِهِ، وَحِفْظِ

(١) الْقَفْصِ: ٧٧.

(٢) الْمُنَازَعَةُ: ٨٧.

(٣) الْحَجَّ: ٦٥.

(٤) تَقَدَّمَ تَخْرِيجَاتُهُ.

(٥) أَنْظَرِ، الْفِرْدَوْسُ بِمَأْثُورِ الْخِطَابِ: ٤٠٩/٣ ح ٥٢٤٩، كَشَفُ الْخَفَاءِ: ٢/٢٢٠ ح ٢١٣٩، ذَكَرَ أَخْبَارَ

إِصْبَهَانَ: ١٩٧/٢.

(٦) تَقَدَّمَ تَخْرِيجَاتُهُ.

حَيَاتِهِ فَقَدْ عَمَلَ لِصَالِحِ الْجَمَاعَةِ الَّتِي هُوَ فَرَدَ مِنْهَا، وَنَاضَلَ فِي سَبِيلِ مَثَلِ إِنْسَانِي نَبِيلٍ، أَمَّا إِذَا عَمَلَ لِلتَّفَاخُرِ، وَالتَّكَاثُرِ بِالمَالِ، وَإِثَارًا لِلرَّاحَةِ، وَحُبَّ الشَّهَوَاتِ، فَقَدْ عَمَلَ لِمَآرِبِهِ الشَّخْصِيَّةِ.

قَالَ الرَّسُولُ الْأَعْظَمُ: « طَلَبُ الدُّنْيَا مَكَاثِرٌ مُفَاخِرٌ أَلْقَى اللَّهُ، وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانِ، وَمَنْ طَلَبَهَا أَسْتَعْفَافًا، وَصَيَانَةً لِنَفْسِهِ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَوَجْهُهُ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَذْرِ »^(١) لَأَنَّ عَمَلَ الثَّانِي اتَّخَذَ شَكْلًا إِنْسَانِيًّا، بَعَكَسِ الْأَوَّلِ الَّذِي تَمَثَّلَ فِي عَمَلِهِ الطَّمَعُ وَالْجَسَعُ.

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: كُلُّ مَا تَدْعُوا إِلَيْهِ الْحَاجَةُ مِنَ الْمَأْكُلِ، وَالْمَلْبَسِ، وَالْمَسْكَنِ فَهُوَ اللَّهُ، وَمَا زَادَ عَنْهَا، وَصَرَفَ لِلتَّنَعُّمِ، وَالتَّرَفِّ فَهُوَ لغيرِ اللَّهِ^(٢). إِذَنْ مَعَاشُ الْإِنْسَانِ فِي حَيَاتِهِ هَذِهِ حَقٌّ مِنْ حُقُوقِ اللَّهِ. وَلِذَا أَوْلَاهَا الْأَنْبِيَاءُ الْعَنَاءَ وَالْإِهْتِمَامَ، وَأَعْلَنُوا حَرْبًا شَعَوَاءَ عَلَى الَّذِينَ يَجْمَعُونَ المَالَ كَعَايَةِ قُصُوصِ لَجْهَوْدِهِمْ، وَلَا يَزِرُونَ الْخَيْرَ وَالْجَمَالَ وَالْحَقَّ إِلَّا بِجَمْعِهِ وَاحْتِكَارِهِ، فَمِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْمُنْزَلِ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ: «أُولَئِكَ الَّذِينَ اسْتَرَوْا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ»^(٣).

(١) أنظر، شُعَبُ الْإِيمَانِ: ٢٩٨/٧ ح ١٠٣٧٤، نَوَادِرُ الْأُصُولِ فِي أَحَادِيثِ الرَّسُولِ: ٢٧/٤، مُسْنَدُ عَبْدِ أَبِي حُمَيْدٍ: ٤١٨/١ ح ١٤٣٣، مُسْنَدُ إِسْحَاقَ بْنِ زَاهَوِيَّةَ: ٣٥٣/١ ح ٣٥٢، مُسْتَدْرَكُ الْوَسَائِلِ: ٣٢/١٣ ح ١٩، كِتَابُ الْمَجْرُوحِينَ لِابْنِ جَبَّانٍ: ١١٨/١.

(٢) الْحَاجَةُ وَسَطُ بَيْنِ الضَّرُورَةِ وَالتَّرَفِّ، فَالضَّرُورَةُ مَا تُبْقِي عَلَى الْأَنْفَاسِ، كَأَكْلِ الْخُبْزِ بِلَا أَدَامٍ، وَالتَّرَفُّ أَنْ يَكُونَ لَدَيْكَ مَا لَدَّ وَطَآبٍ، وَسَدَّ الْحَاجَةَ أَنْ يَتَوَافَرَ لَكَ كُلُّ مَا اسْتَدْعِيهِ الْحَيَاةُ دُونَ زِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ. (مِنْهُ بَيِّنَةٌ).

(٣) الْبَقَرَةُ: ٨٦.

وَمِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْمُنَزَّلِ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(١).
وَمِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْمُنَزَّلِ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾^(٢).

وفي الحديث: «حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ»^(٣).... «مِثْلُ الْحَرِيصِ عَلَى الدُّنْيَا كَمِثْلِ دُودَةٍ الْقَزِّ كُلَّمَا أَرْدَادَتْ عَلَى نَفْسِهَا لَقَا كَانَ أَبْعَدَ لَهَا مِنَ الْخُرُوجِ حَتَّى تَمُوتَ غَمًّا»^(٤). وَقَالَ عِيسَى رُوحُ اللَّهِ: «الرَّبُّ مَسَحَنِي لِأُبَشِّرَ الْمَسَاكِينَ وَأَرْسَلَنِي لِأُشْفِيَ مُنْكَسِرِي الْقُلُوبِ، وَأُنَادِيَ لِلْمَأْسُورِينَ بِالْإِنْطِلَاقِ، وَلِلْعُمَى بِالْبَصَرِ، وَلِلْمُسْتَحْقِقِينَ بِالْحُرِّيَّةِ»^(٥).

(١) آلِ عِمْرَانَ: ١١٦.

(٢) التَّوْبَةُ: ٣٤-٣٥.

(٣) أنظر، عُيُونُ الْحِكْمِ وَالْمَوَاعِظ: ٢٣١، تُحْفَةُ الْأَخْوَاضِي: ٨٢/٦، الْجَامِعُ الصَّغِيرُ: ٥٦٦/١ ح ٣٦٦٢، كَنْزُ الْعُمَالِ: ١٩٢/٣ ح ٦١١٤، قَبِيضُ الْقَدِيرِ شرح الْجَامِعِ الصَّغِيرِ: ٤٨٧/٣ ح ٣٦٦٢، كَشَفُ الْخَفَاءِ: ١/٣٤٤ ح ١٠٩٩، شَرْحُ نَهْجِ الْأَبْلَاغَةِ لِابْنِ أَبِي الْعَدِيدِ: ٣٣١/١٩، الْبَحْرُ الرَّائِقُ: ٤٨٣/٧، الدُّرُ الْمَخْتَارُ: ٢٥٥/٦، الْكَافِي: ١٣١/٣ ح ١١، الْخِصَالُ لِلشَّيْخِ الصَّدُوقِ: ٢٥ ح ٨٧، وَسَائِلُ الشَّيْمَةِ: ٩/١٦ ح ٢.

(٤) أنظر، الْكَافِي: ١٣٤/٢ ح ٢٠، وَسَائِلُ الشَّيْمَةِ: ١٦/٢٠ ح ١.

(٥) مَفْنَى رُوحُ اللَّهِ رَحْمَتَهُ تَعَالَى أَيُّ أَنْ عِيسَى أَرْسَلَهُ اللَّهُ رَحْمَةً لِلنَّاسِ كَالْمَطَرِ، فَهُوَ شَيْبُهُ مُحَمَّدٌ الَّذِي قَالَ سُبْحَانَهُ عَنْهُ: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ» الْأَنْبِيَاءُ: ١٠٧. وَقَدْ اسْتَعْمَلَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمَ لَفْظَةَ الرُّوحِ بِهَذَا الْمَعْنَى فِي الْآيَةِ ٢٢ مِنْ سُورَةِ الْمَجَادِلَةِ: «وَأَيُّدُهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيَدْخُلُهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ

وَمِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ، وَالْأَحَادِيثِ يَتَبَيَّنُ لَنَا أَنَّ زُهْدَ الْأَنْبِيَاءِ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَجْلِ الْفَقْرِ وَالْعُزْرِ، وَلَا تَحْقِيرِ الْمَلَذَاتِ، وَتَحْرِيمِ اللَّطِيبَاتِ، وَلَا مِنْ أَجْلِ تَرْوِيعِ النَّفْسِ وَتَمَرِّينِهَا عَلَى الْمَشَاقِّ، وَالْأَثْقَالِ، وَلَا لَأَنَّ الزُّهْدَ عَقِيدَةٌ دِينِيَّةٌ، وَمِنْ الْقِيمِ الرُّوحِيَّةِ، كَمَا يَظُنُّ كَثِيرُونَ، وَإِنَّمَا هُوَ إِحْتِجَاجٌ صَارَخَ عَلَى الْمُسْتَغْلِينَ، وَتَوَرَّعَ عَلَى مَنْ قَسَمَ النَّاسُ إِلَى مِثَالِ، وَعَلَى مَنْ ظَنَّ أَنَّ الْفَقْرَ خَسَاسَةٌ، وَإِنْحِطَاطٌ، وَالثَّرْوَةَ شَرَفٌ، وَكَرَامَاتٌ^(١). وَهُوَ دَلِيلٌ أَيْضًا عَلَى أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ يُحْيُونَ مَا يَقُولُونَ وَيَقُولُونَ مَا يُحْيُونَ، وَهُوَ دَرَسٌ كَذَلِكَ أَعْطَاهُ الْأَنْبِيَاءَ لِلْمُسْتَغْفِينَ بِأَنْ لَا يَبْأَسُوا وَلَا يَقْنَطُوا مَهْمَا تَكُنَّ الظُّرُوفُ وَالْأَحْوَالُ، وَبِأَنَّ الْفَقْرَ، وَالْجُوعَ لَا يَعُوقُ عَنِ النَّضَالِ، وَالْكِفَاحِ، وَأَنَّ السَّلَاحَ الْأَكْبَرَ هُوَ الْحَقُّ، فَمَا دُمْتَ تَطْلُبُ بِحَقِّكَ فَإِنَّكَ قَوِيٌّ، وَإِنْ كُنْتَ جَانِعًا مُعَدِّمًا، وَإِذَا نَاصَرْتَ الْبَاطِلَ فَإِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنْ تَمَّتْ لَكَ الْعِدَّةُ وَالْعَدَدُ.

لَقَدْ قَاوَمَ الْأَنْبِيَاءُ الْمُسْتَغْلِينَ، وَهُمْ عَزَلٌ مِنَ الْمَالِ، وَالسَّلَاحِ، لِيُحَرِّكُوا فِي نَفُوسِ الْمُضْطَهَّدِينَ، إِزَادَةَ التَّحَدِي لِكُلِّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ، وَلَا يَتَنَازَلُوا لَهُ عَنْ شَيْءٍ مِنْ حَقِّهِمْ، وَإِنْ أَمْتَلَأَتْ بِهِمُ السَّجُونُ، وَارْتَفَعَتْ أَجْسَامُهُمْ عَلَى أَعْوَادِ الْمَشَانِقِ، أَنَّ زُهْدَ الْأَنْبِيَاءِ، وَالصُّلَحَاءِ كَانَ لِحَسَابِ الْإِنْسَانِ، وَمِنْ أَجْلِ حَقُوقِهِ،

«تَحَبُّبِ الْأَنْهَارِ خَلِيدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ جِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ جِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» أَيِ بِرَحْمَةِ مِنْهُ. (مِنْهُ ﷺ).

(١) بَيْلٌ: أَنْ قَرِيبًا تَأْتَاهُ وَأَتَفَخَّرَ عَلَى فَقِيرٍ. فَقَالَ لَهُ: إِنْ أَتَفَخَّرْتَ بِفَرَسِكَ فَالْحُسْنُ لِلْفَرَسِ لَا لَكَ، وَإِنْ أَتَفَخَّرْتَ بِبَيْتِكَ فَالْحُسْنُ لَهَا دُونَكَ، وَإِنْ أَتَفَخَّرْتَ بِأَبْنَانِكَ، فَالْفَضْلُ فِيهِمْ لَا فِيكَ، وَإِنْ أَتَفَخَّرْتَ بِمَنْصَبِكَ فَالشَّرَفُ مِنْهُ لَا مِنْكَ، فَكُلُّ الْمَخَاسِنِ خَارِجَةٌ عَنْكَ، وَأَنْتَ مُسْتَخْلَعٌ عَنْهَا. وَقَدْ رَدَدْنَاهَا عَلَى أَصْحَابِهَا، وَبَقِيَ صِفَرُ الْيَدَيْنِ... (مِنْهُ ﷺ).

وَكِرَامَتِهِ، أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ هَذَا الرَّغِيفَ، وَهَذَا الْقَمِيصَ مِنْ عَرَقِ الْكَادِحِينَ وَدَمَائِهِمْ، فَكَيْفَ يَشْبَعُونَ مِنَ الطَّعَامِ، وَلَعَلَّ الَّذِي زَرَعَهُ، وَحَصَدَهُ جَانِعًا! وَكَيْفَ يَلْبَسُونَ فَاحِرَ الثِّيَابِ، وَرُبَّمَا الَّذِي حَاكَهَا عُرْيَانٌ! قَالَ الْإِمَامُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام:

«لَوْ شِئْتُ لَاهْتَدَيْتُ الطَّرِيقَ، إِلَى مُصَفَّى هَذَا الْعَسَلِ، وَلُبَابِ هَذَا الْقَمَحِ، وَنَسَائِجِ هَذَا الْقَرَزِ. وَلَكِنْ هُنَاهَا أَنْ يَغْلِيَنِي هَوَايَ، وَيَقُودَنِي جَشَعِي إِلَى تَخْيِيرِ الْأُطْعَمَةِ - وَلَعَلَّ بِالْحِجَارِ أَوْ النِّعَامَةِ مَنْ لَا طَمَعَ لَهُ فِي الْقُرْصِ، وَلَا عَهْدَ لَهُ بِالشَّبْعِ - أَوْ أُبَيَّتْ مِبْطَانًا وَحَوْلِي بَطُونُ غَزَتِي، وَأَكْبَادُ حَرَّتِي، أَوْ أَكُونُ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ ^(١):

وَحَسْبُكَ دَاءٌ أَنْ تَبِيْتَ بِسِطْنَةٍ وَحَوْلَكَ أَكْبَادُ تَحْنٍ إِلَى الْقِدِّ

أَنَّ التَّكَالِبَ عَلَى الْمَالِ يُفْقِدُ الشَّخْصَ إِنْسَانِيَّتَهُ، وَيُزِيلُ مِنْ نَفْسِهِ كُلَّ شُعُورٍ بِالْوَاجِبِ، أَيْ وَاجِبِ، فَلَقَدْ رَأَيْنَا كَيْفَ تَعَاوَنَ أَرْبَابُ الْمَصَانِعِ، وَالْمَكَاسِبِ مَعَ الْمُسْتَعْمِرِينَ ضِدَّ أَوْطَانِهِمْ! وَكَيْفَ اسْتَقْبَلُوهُمْ بِأَقْوَامِ النَّصْرِ، وَأَكَايِلِ الزَّهْرِ كَأَنَّهُمْ مُحَرَّرُونَ مُنْقَذُونَ! وَكَيْفَ يُتَاجَرُونَ بِالْعَوَاطِفِ الدِّينِيَّةِ، وَلَا يَعْبُدُونَ اللَّهَ إِلَّا عَلَى حَرْفٍ. وَمِنْ هُنَا كَانَ مَوْقِفُ الْأَنْبِيَاءِ مَعَهُمْ تَمَامًا كَمَوْقِفِهِمْ مَعَ الْجَاهِلِينَ وَالْمُشْرِكِينَ.

وَبِالنَّالِيِّ، نُعِيدُ الْقَوْلَ مَرَّةً ثَانِيَةً أَنَّ طَرِيقَ الْجَنَّةِ هُوَ الْعِلْمُ النَّافِعُ، وَالْعَمَلُ الْبَنَاءُ، وَيَكْفِي شَاهِدًا عَلَى هَذِهِ الْحَقِيقَةِ قَوْلُ الْإِمَامِ عَلِيِّ عليه السلام لَمَنْ دَمَّ الدُّنْيَا:

«الدُّنْيَا مَنَزَلٌ صِدْقٌ لِمَنْ صَدَّقَهَا، وَمَسْكَنٌ عَافِيَةٌ لِمَنْ فَهَمَ عَنْهَا، وَدَارٌ غِنَى لِمَنْ

(١) يُنسَبُ هَذَا الْبَيْتُ لِخَاتَمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الطَّائِفِيِّ كَمَا جَاءَ فِي شَرْحِ نَهْجِ الْبَلَاغَةِ لِابْنِ أَبِي الْحَدِيدِ:

تَزُودُ مِنْهَا، فِيهَا أَنْبِيَاءُ اللَّهِ، وَمَهْبطُ وَحْيِهِ، وَمُصَلَّى مَلَائِكَتِهِ، وَمَسْكَنُ أَحِبَّابِهِ،
وَمَتَجَرُّ أَوْلِيَائِهِ، أَكْتَسَبُوا فِيهَا الرَّحْمَةَ، وَرَبَحُوا مِنْهَا الْجَنَّةَ. فَمَنْ ذَا يَذِمُّ
الدُّنْيَا؟! ^(١).

أَنَّ فِكْرَةَ الْآخِرَةِ تَنْهَى عَنِ الظُّلْمِ، وَالْإِحْتِكَارِ، وَاسْتِغْلَالِ الْإِنْسَانِ لِلْإِنْسَانِ
وَتَبَعَتْ عَلَى الْعَمَلِ، وَالتَّضَحِّيَةِ لَخَيْرِ النَّاسِ، وَالصَّالِحِ الْعَامِ، وَهَذَا مَا أَرَادَهُ الْإِمَامُ
بِقَوْلِهِ: «وَمَتَجَرُّ أَوْلِيَائِهِ، أَكْتَسَبُوا فِيهَا الرَّحْمَةَ، وَرَبَحُوا مِنْهَا الْجَنَّةَ.».

(١) أنظر، كتاب الزُّهد لِحُسَيْنِ بْنِ سَعِيدٍ الْأَهْوَازِيِّ: ٤٧ ح ١٢٨، أَتَّالِي الطُّوسِيِّ: ٥٩٤، الْمِيعْيَارُ
وَالْمَوَازَنَةُ: ٢٦٨، تُحْفُ الْعُقُولِ: ١٨٦.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعل القرآن الكريم من أجل أن يهدينا إلى صراط مستقيم

والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

وبعد

فإن من أهم ما يجب علينا أن نعرفه

هو أن القرآن الكريم هو كلام الله تعالى

الذي نزل به الحكيم الخبير

لنبي محمد صلى الله عليه وسلم

وأن القرآن الكريم هو الكتاب العظيم

الذي به الهدى للبشر كافة

وأن القرآن الكريم هو الكتاب الذي به

الحق والعدل والبر

وأن القرآن الكريم هو الكتاب الذي به

الحياة والنعيم

وأن القرآن الكريم هو الكتاب الذي به

الهدى والبر

وأن القرآن الكريم هو الكتاب الذي به

الحق والعدل

وأن القرآن الكريم هو الكتاب الذي به

الحياة والنعيم

وأن القرآن الكريم هو الكتاب الذي به

الهدى والبر

وأن القرآن الكريم هو الكتاب الذي به

الدِّينَ وَالضَّمِيرَ^(١)

تُسَيطِرُ عَلَى عُقُولِ أَهْبَانِنَا فِكْرَةَ ظَاهِرِهَا الرَّحْمَةُ وَبَاطِنِهَا الْعَذَابُ، وَهِيَ أَنَّ الدِّينَ صَلَاحُ الضَّمِيرِ وَكَفَى، أَيْ لَا تَسْرِقُ، لَا تَكْذِبُ، وَلَا تَعْتَدِ عَلَى أَحَدٍ، أَمَّا الصُّومُ، وَالصَّلَاةُ، أَمَّا تَمْجِيدُ الْحَقِّ، وَالخُضُوعُ لِلَّهِ فَمَرَّاسِمٌ، وَأَشْكَالٌ لَا دَاعِيَ إِلَيْهَا.!

وَقَدْ وَضَعَ مُحَمَّدُ الشَّرْقَاوِي كِتَابًا أَسَمَاهُ «الدِّينَ وَالضَّمِيرَ» لِهَذِهِ الْغَايَةِ، نَنْقُلُ مِنْهُ بَعْضَ الْفِقَرَاتِ لِيَتَبَيَّنَ لِلْقُرَّاءِ أَنَّهُ لَا هَدَفَ لَأَرْيَابِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ إِلَّا أَنْتِشَارَ الْفَوْضَى، وَالْفَسَادِ، وَالْقَضَاءِ عَلَى الدِّينِ، وَالْأَخْلَاقِ.

قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ»^(٢). تَقَرَّرَ أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِي يَتَكَرَّرُ مِنْهُ الذَّنْبُ وَالْخَطِيئَةُ، ثُمَّ تَتَكَرَّرُ مِنْهُ التَّوْبَةُ^(٣). وَقَالَ: «ثُمَّ نَجِدُ ذَلِكَ الْحَدِيثَ الَّذِي يَحْتَوِي دَلَالَهَ لَيْسَ بَعْدَهَا دَلَالَةٌ، وَهُوَ حَدِيثٌ قُدْسِي يَتَلَخَّصُ فِي: «أَنْ عَبْدًا أَذْنَبَ فَأَسْتَغْفِرَ اللَّهَ، فَغَفَرَ لَهُ ثُمَّ عَادَ، فَأَسْتَغْفِرَ، فَغَفَرَ اللَّهُ لَهُ، تَكَرَّرَ ذَلِكَ مِنْهُ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ».

(١) أَقْطَعْنَا هَذِهِ الْفِقَرَاتِ مِمَّا كَتَبْنَاهُ حَوْلَ كِتَابِ (الدِّينِ وَالضَّمِيرِ) لِأَنَّ الْمَقَامَ لَا يَتَّسِعُ لِأَكْثَرِ مِنْهَا. (مِنْهُ ﷺ).

(٢) الْبَقَرَةُ: ٢٢٢.

(٣) أَنْظِرْ، الدِّينَ وَالضَّمِيرَ، لِمُحَمَّدِ الشَّرْقَاوِي: ٧٦. (مِنْهُ ﷺ).

فَقَالَ اللَّهُ لَهُ: أَعْمَلْ مَا شِئْتَ لَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ»^(١).

وَقَالَ أَيْضًا: «جَاءَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ مَنْ مَاتَ عَلَى التَّوْحِيدِ لَمْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ غَيْرُهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَإِنْ زَنَى وَسَرَقَ»^(٢).

وَقَالَ: «رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ أَنَّهُ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تَذَنْبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذَنْبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ...»^(٣). وَلَعَلَّنَا نَوْشِكُ أَنْ نَقُولَ: أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ لَا يَهْوَنُ الذَّنُوبَ فَقَطْ. بَلْ كَأَنَّهُ يَحْضُ وَيُحَرِّضُ، وَهُوَ وَاضِحٌ فِي جَعْلِ الْخَطِيئَةِ وَالتَّوْبَةِ مِنْ مُبَرَّرَاتِ الْحَيَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَمِنْ أَسْبَابِ إِبْقَاءِ اللَّهِ عَلَيْهَا».

ثُمَّ تَتَلَاخَقُ أَقْوَالُ الْمُؤَلِّفِ فِي هَذَا الْبَابِ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى قَوْلٍ مَا نَصَّهُ بِالْحَرْفِ الْوَاحِدِ:

«وَنَحْنُ عِنْدَ مَا نَجْعَلُ الْمَقَائِيسَ هَذِهِ أَسَاسًا لَهُمُ الْعَقِيدَةُ وَتَقْدِيرُ الْخَلْقِ، نَقْتَحِمُ مِيدَانًا جَدِيدًا مِنْ مَيَادِينِ الْأَذْرَاكِ السَّلِيمِ لِتَأْرِخِنَا الْعَرَبِيَّ وَالْإِسْلَامِيَّ، وَنَضْعُ قَوَاعِدَ قَدْ تَكُونُ صَارِمَةً قَاسِيَةً، وَلَكِنَّهَا صَحِيحَةٌ، مُسْتَنْبِرَةٌ، وَاعِيَةٌ مُجَرَّدَةٌ مِنَ التَّأَثِيرِ، وَالْعَوَاطِفِ، وَالْإِنْتِقَادِ، وَهِيَ فِي نَفْسِ الْوَقْتِ مُفِيدَةٌ إِلَى أَبْعَدِ غَايَةٍ فِي تَرْبِيَةِ نَفُوسِنَا، كَمَا هِيَ مُفِيدَةٌ إِلَى أَبْعَدِ غَايَةٍ أَيْضًا فِي فَهْمِ تَأْرِخِنَا فَهْمًا سَلِيمًا»^(٤).

(١) أنظر، الدين والضمير، لمحمود الشرقاوي: ٧٧. (منه). وأنظر، مثل هذه الأحاديث في تأريخ بغداد: ١٣٧/٩، وتأريخ دمشق: ٧١/٦ ح ١٤١٤، وغريب الحديث: ٦٩٥/٢.

(٢) أنظر، الدين والضمير، لمحمود الشرقاوي: ١٠٠. (منه). أنظر، كتاب السنة لابن أبي عاصم: ٤٥٠ ح ٩٥٦، صحيح البخاري: ١١٦/٨، صحيح مسلم: ٦٨٨/٢، مسند أحمد: ١٥٢/٥.

(٣) أنظر، الدين والضمير، لمحمود الشرقاوي: ١٠٤. (منه). أنظر، صحيح مسلم: ٩٤/٨، مسند أحمد: ٣٠٩/٢، مجمع الزوائد: ٢١٥/١٠، الديباج على صحيح مسلم: ٩٥/٦ ح ٩، تحفة الأحوذى: ٣٦٧/٩، المعجم الأوسط: ١٢٣/٢، كنز العمال: ٢١٦/٤ ح ١٠٢٢٦.

(٤) أنظر، الدين والضمير، لمحمود الشرقاوي: ١١٨. (منه).

وَلَا تُرِيدُ أَنْ تُطِيلَ الْكَلَامَ مَعَ صَاحِبِ هَذَا الْقَوْلِ، بَلْ نُوَجِّهْ إِلَيْهِ الْأَسْئَلَةَ التَّالِيَةَ :
أَوَّلًا: إِنَّكَ دَعَوْتَ إِلَى تَقْوِيمِ الْأَخْلَاقِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَقُلْتَ: أَنَّهُ الْعَايَةُ
الْأُولَى وَالْآخِرَةُ مِنْ وَجُودِ الْأَدْيَانِ. فَهَلِ الزُّنَى، وَالسَّرَقَةُ، وَتِكْرَارُ الذَّنْبِ
وَالْخَطِيئَةُ مِنَ الْأَخْلَاقِ الْكَرِيمَةِ، وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ؟ ثُمَّ إِذَا اتَّخَذْنَا مِنْ حُبِّ اللَّهِ
لِلْجَرِيمَةِ وَتِكْرَارِهَا، وَتَحْرِيطِهِ عَلَى دَوَامِهَا، وَالْإِبْقَاءِ عَلَيْهَا أَسَاسًا لِفَهْمِ الْعَقِيدَةِ
وَتَقْدِيرِ الْأَخْلَاقِ فَهَلِ تَكُونُ عَقِيدَتَنَا، وَالْحَالُ هَذِهِ صَحِيحَةٌ مُسْتَنِيرَةٌ، وَاعْبَةِ
مُجَرَّدَةٌ، وَتَكُونُ أَخْلَاقَنَا قَوِيَّةَ كَرِيمَةٍ؟ وَتَأْرِخُنَا الْعَرَبِي، وَالْإِسْلَامِي سَلِيمًا مُفِيدًا
إِلَى أَبْعَدِ الْعَايَاتِ؟!

ثَانِيًا: إِذَا كَانَتِ الْعَايَةُ مِنَ التَّوْبَةِ هِيَ تِكْرَارُ الذُّنُوبِ وَدَوَامِهَا، وَالْإِبْقَاءُ عَلَيْهَا،
لأنَّهَا مِنْ مُبَرَّرَاتِ الْحَيَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ فَلِمَاذَا لَمْ يَأْمُرِ اللَّهُ بِهَا، وَيُحَرِّضَ عَلَيْهَا بَدُونِ
التَّوْبَةِ مَا دَامَتِ الْجَرِيمَةُ مُحِبُّوْبَةً، وَمَطْلُوبَةً بِذَاتِهَا عِنْدَ اللَّهِ؟! لِمَاذَا التَّوْبَةُ،
وَالضَّحْكُ عَلَى الذُّقُونِ؟!

وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ قَبِلَ مِنَ التَّائِبِ بَقْلِبٍ طَاهِرٍ نَقِيٍّ، كَيْ لَا يَقْنُطَ،
فَيَسْتَرِيدَ مِنَ الذَّنْبِ، وَيَقُولُ: أَنَا الْعَرِيقُ فَلَا أَخْشَى مِنَ الْبَلَلِ. فَالْعَايَةُ إِذَنْ مِنَ
التَّوْبَةِ إِسْتِصْلَاحُ الْفَاسِدِ لَا الْمَزِيدُ مِنَ الْفَسَادِ، وَالْحَدُّ مِنَ الذَّنْبِ لَا تِكْرَارَهُ،
وَالْإِبْقَاءُ عَلَيْهِ.

ثَالِثًا: لِمَاذَا أَخَذَتْ أَيْهَا الْمُؤَلَّفِ بِالْحَدِيثِ الَّذِي أَبَاحَ الزُّنَى، وَالسَّرَقَةَ،
وَتَجَاهَلَتْ قَوْلَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ
وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾^(١).

وَقَوْلَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا

نَكْلًا مِنَ اللَّهِ»^(١).

كَيْفَ تَشَبَّهَتْ بِهَذَا الْحَدِيثِ الضَّعِيفِ الَّذِي لَا نَشْكُ بَأْنَ وَاضَعَهُ مِنْ كِبَارِ الرُّنَاةِ، وَاللُّصُوصِ، وَأَعْرَضَتْ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى، مَعَ أَنَّ الْمَذَاهِبَ الْإِسْلَامِيَّةَ بِكَامِلِهَا لَا تَقْبَلُ حَدِيثًا يُخَالِفُ صَرِيحَ الْقُرْآنِ^(٢)؟!.

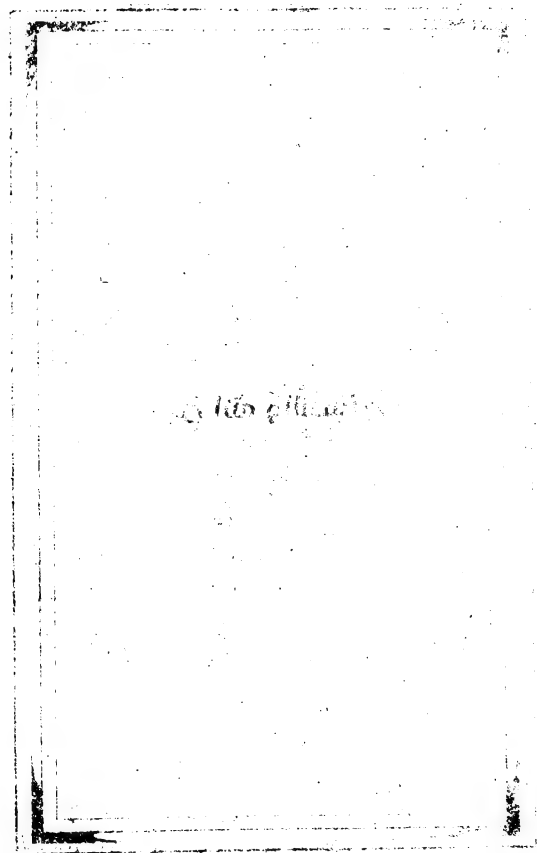
أَمَّا حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ، مِنْ أَنَّ النَّاسَ إِذَا لَمْ يَقْطَعُوا مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسَدُوا فِي الْأَرْضِ يَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَهُمْ يَسْفِكُونَ الدَّمَاءَ، وَيَزْنُونَ، وَيَسْرِقُونَ، أَمَّا هَذَا الْحَدِيثُ فَإِنَّهُ يُعْطِي مُهِمَّةَ الشَّيْطَانِ لِلْأَنْبِيَاءِ، وَمُهِمَّةَ الْأَنْبِيَاءِ لِلشَّيْطَانِ، فَيَحْمِلُ هُوَ زَايَةَ الْهُدَى، وَالْحَقِّ، وَيَبْسُطُ الْعَدْلَ، وَيُقِيمُ الْحُدُودَ، أَمَّا الْأَنْبِيَاءُ فَيُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ، وَيَلْقُونَ بَيْنَ النَّاسِ الْعَدَاوَةَ، وَالْبَغْضَاءَ، وَيَصْدُونَهُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ، وَعَنِ الصَّلَاةِ.

هَذَا هُوَ كِتَابُ الشَّرْقَاوِيِّ «الدِّينَ وَالضَّمِيرَ». وَهَذِي هِيَ طَهَارَةُ النَّفْسِ، وَتَرْكِيةُ الضَّمِيرِ عِنْدَهُ، وَبِهَذَا الْمَنْطِقِ يُحَاوِلُ اقْتِنَاعَنَا بِأَنَّ الصَّلَاةَ، وَالصِّيَامَ وَهُمْ، وَإِذَا دَلَّ هَذَا التَّهَامُتُ، وَالتَّنَاقُضُ عَلَى شَيْءٍ فَإِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى وَاحِدٍ مِنَ أَشْيَيْنِ لَا ثَالِثَ لَهُمَا: إِمَّا أَنَّهُ لَيْسَ لِلْمُؤَلَّفِ هَدَفٌ مُعَيَّنٌ، وَلَا خُطَّةٌ مَرْسُومَةٌ. وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ غَايَتُهُ هَدْمُ الدِّينِ، وَالْأَخْلَاقِ، وَانْتِشَارُ الْفَسَادِ، وَالْفُوضَى، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَجْرَءْ عَلَى إِعْلَانِهَا وَالْجَهْرِ بِهَا، فَتَسْتَرَّ بِأَسْمِ تَرْبِيَةِ الضَّمِيرِ، وَعَمَلَ عَلَى هَدْمِ فِي الْخَفَاءِ.

(١) الْمَتَابِدَةُ: ٣٨.

(٢) مِنْ أَغْرَبِ مَا قُرِئْتُ أَنَّ مُسْتَشْرَفًا يُدْعَى «لَامَانَس» يَرَى أَنَّ كُلَّ مَا يُؤَافِقُ الْقُرْآنَ فَهُوَ دَسٌّ، وَأَفْتَرَاءٌ عَلَى الرُّسُولِ!... مَعَ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ كَأَنَّهُ يَمَكُونُ الْقَوْلَ، وَيَزِنُونَ الْحَدِيثَ شَارِحًا، وَمُفَسِّرًا لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ. (مِنْهُ ﷺ).

بَيْنَ اللَّهِ وَالْإِنْسَانِ



المُفْتَرَةُ



وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الْأَكْرَمِينَ

أَنَا وَلِئْسَ:

أَنَا أَكْتُبُ، وَأَنْتَ تَقْرَأُ، وَكُلُّ مَنَا يَتَأَثَّرُ بِالْآخِرِ، وَيُؤَثِّرُ بِهِ، أَنَا أَتَأَثَّرُ بِكَ، لِأَنَّكَ بِإِيمَانِكَ، وَحُسْنِ إِقْبَالِكَ عَلَيَّ مَا أَكْتُبُ خَلَقْتَ فِي الشُّعُورِ بَأَنِّي مَسْئُولٌ عَنْكَ، وَأَنْ عَلَيَّ أَنْ أَنْصَحَكَ وَأَدْلِكَ عَلَى الْحَقِّ وَالْخَيْرِ، وَأَنْ وَفْتِي الَّذِي أَخْرَصَ عَلَيْهِ كُلَّ الْجِرْصِ، وَعَمَلِي الَّذِي لَا يَعْرِفُ التَّوَقُّفَ وَالرَّكُودَ هُوَ لِي وَلَكَ، وَنَحْنُ فِيهِ شُرَكَاءُ.

وَأَنْتَ تَتَأَثَّرُ بِي، لِأَنِّي بِسَهُولَةِ التَّعْبِيرِ، وَالْبُعْدِ عَنِ التَّعْقِيدِ الْمُنْفَرِّ، وَالْجِرْصِ عَلَى الْحَقِيقَةِ اسْتَطَعْتُ - بِحَمْدِ اللَّهِ - أَنْ أُثِيرَ رَغْبَتَكَ فِي قِرَاءَتِي وَمُتَابَعَتِي، وَأُحْمِلَكَ مِنْ حَيْثُ تُرِيدُ أَوْ لَا تُرِيدُ عَلَى إِنْتِظَارِ مَا تُخْرِجُهُ لِي الْمَطَابِعُ بَيْنَ فِتْرَةٍ، وَفِتْرَةٍ... قَالَ حَكِيمٌ قَدِيمٌ: «مَنْ لَمْ يَكْتُبْ وَلَمْ يَقْرَأْ خَسِرَ الْعُمُرَ كُلَّهُ».

فَإِ عَكَفْتُ أَنَا عَلَى الْكِتَابَةِ، وَأَنْتَ عَلَى الْقِرَاءَةِ رَبَحْنَا مَعَ الْعُمُرِ كُلِّهِ... وَبَدِيعَةُ

أَنَّ الْكَاتِبَ يَكْتُبُ حِينَ يَجِدُ الْقَارِيءَ ، تَمَامًا كَالْخَطِيبِ يَخْطُبُ حَيْثُ يُوجَدُ الْجُمُهورُ ، وَالْقَارِيءُ إِنَّمَا يَقْرَأُ ، حَيْثُ يَجِدُ الْفَائِدَةَ وَالْمُنْتَعَةَ ، كَالظَّمَانِ يَشْرَبُ الْمَاءَ ، حَيْثُ يَجِدُهُ عَذْبًا فَرَاتًا .

وَأَنْتَ تَعْرِفُنِي - أَهْيَا الْقَارِيءُ - بِكِتَابِي هَذَا وَغَيْرِهِ ، وَأَنَا لَا أَعْرِفُ عَنْكَ شَيْئًا وَلَكِنِّي أُحِبُّكَ كَثِيرًا ، لِأَنَّ قُرْآنِي يَرْدَادُونَ بِكَ وَاحِدًا ، بَلْ لَأَتِي بِقِرَاءَتِكَ أَخْصَلَ عَلَى تَأْشِيرَةِ الدَّخُولِ إِلَى الْجَنَّةِ وَإِيَّاكَ إِذَا أَنْتَفَعْتُ بِمَا قَرَأْتُ . وَأَخْذُ بِكَ فِي سَبِيلِ الْهَدَايَةِ وَالرَّشَادِ . وَأَسْأَلُ اللَّهَ لَكَ وَلِيَّ الْعَمَلِ بِمَا نَعْلَمُ .

وَأَحْسِبُ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ أَرَادَ لَكَ وَلِيَّ الْخَيْرِ ... أَرَادَ الْخَيْرَ لَكَ ، حَيْثُ صَرَفَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسَرِ ، وَالْكَتَبِ الْجَنَسِيَّةِ ، وَالْقَصَصِ الْخَلَاعِيَةِ ، وَالرَّوَايَاتِ الْإِجْرَامِيَّةِ إِلَى هَذَا الْكِتَابِ ، وَمَا إِلَيْهِ مِمَّا يَنْتَجِهُ بِكَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ ، وَيَغْرُسُ فِي نَفْسِكَ بَذُورَ الْإِيمَانِ وَالْخَيْرِ وَالْفَلَاحِ .

وَأَرَادَ لِي الْخَيْرَ ، حَيْثُ أَبْعَدَنِي عَنِ الْخُمُولِ وَالْكَسَلِ إِلَى الْكِتَابَةِ وَالتَّأْلِيفِ فِي الْعَقِيدَةِ ، وَالْفَضَائِلِ ، وَالْفِقْهِ ، وَالْأَخْلَاقِ ... وَقَدْ دَلَّتْنِي التَّجَارِبُ الْكَثِيرَةُ الْمُتَكَرِّرَةُ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَوْ جَمَعَ عُلُومَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ، وَبَلَغَ مِنَ الذِّكَاءِ مَا بَلَغَ ، وَتَوَفَّرَتْ لَهُ الرِّغْبَةُ ، وَالْعَافِيَةُ ، وَالرَّفَاهِيَةُ لَا يَسْتَطِيعُ الْقِيَامَ بِأَيِّ عَمَلٍ فَضْلًا عَنْ تَأْلِيفِ كِتَابٍ ، أَوْ وَضْعِ مَقَالٍ إِذَا لَمْ يُحَافِلْهُ التَّوْفِيقُ وَالْعِيَايَةُ الْإِلَهِيَّةُ .

الغرض من هذا الكتاب :

لَيْسَ الْغَرْضُ مِنْ هَذِهِ الصَّفَحَاتِ التَّسْلِيَّةِ وَالتَّرْفِيهِ عَنِ النَّفْسِ الْقَارِيءِ ، وَلَا الْكَشْفُ عَنْ نَظَرِيَّةٍ جَدِيدَةٍ لَا يَعْرِفُهَا الْأَوَّلُونَ ، وَإِنَّمَا الْغَرْضُ أَنْ يَتَذَوَّقَ الْقَارِيءُ

حَلَاوَةُ الْإِيمَانِ وَعَذُوبَتُهُ بِالتَّوَجُّهِ إِلَى اللَّهِ، وَالثَّقَّةُ بِهِ، وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ وَالرَّجَاءُ لثَوَابِهِ، وَالْخَوْفُ مِنْ عَذَابِهِ، الْقَرَضُ أَنْ يَصْبِحَ الْقَارِيءُ فَاضِلاً مُتَسَامِياً فِي أَخْلَاقِهِ، صَالِحاً تَقِيّاً فِي أَعْمَالِهِ، صَادِقاً فِي نَوَايَاهُ وَمَقَاصِدِهِ.

وَلَا شَيْءٌ يُحَقِّقُ هَذِهِ الْفَضَائِلَ، وَيُضَمِّنُهَا لِلْإِنْسَانِ كَتَعَالِيمِ أَهْلِ الْبَيْتِ (عَلَيْهِمُ السَّلَامُ) وَمَقَايِسِهِمُ الَّتِي تَرْتَكِزُ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ، وَسُنَّةِ جَدِّهِمْ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ)، وَلَأَجْلِ هَذَا أَقْطَعْتُ جُمُلاً مِنْ مُنَاجَاةِ الْإِمَامِ زَيْنِ الْعَابِدِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) فِي الصَّحِيفَةِ السَّجَّادِيَّةِ، وَمَضَيْتُ فِي شَرْحِهَا، وَتَحْلِيلِهَا مَعَ الْفِطْرَةِ دُونَ تَعْسُفٍ وَتَكَلُّفٍ، وَلَوْ تَهَيَّأتَ لِي ثِقَافَةٌ أَشْمَلُ، وَذَوْقٌ أَكْمَلُ لَكَشَفْتُ عَنْ جَوَانِبِ مِنْهَا أَسْمَى وَأَعْظَمَ، عَلَى أَنْيَ اعْتَقَدُ جَازِماً بِأَنْ أَيَّ إِنْسَانٍ كَانَتْ أَمْ كَانَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَبْلُغَ الْغَايَةَ مِنْ أَسْرَارِهَا وَكُنُوزِهَا.

أَقْسَامُ الْكِتَابِ:

سَبَقَ أَنْ كَتَبْتُ وَنَشَرْتُ كَلِمَاتٍ مُتَفَرِّقَةً حَوْلَ مُنَاجَاةِ الْإِمَامِ زَيْنِ الْعَابِدِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ)، ثُمَّ أَحْسَسْتُ بِالرَّغْبَةِ فِي جَمْعِهَا بِكِتَابٍ لَتَكُونَ الْفَائِدَةُ أَتَمَّ وَأَكْمَلَ، وَلَكِنِّي رَأَيْتُهَا لَا تَتَجَاوَزُ خَمْسَةَ أَوْ سِتَّةَ فُصُولٍ، فَكَتَبْتُ نَحْوَ عِشْرِينَ فَصَلاً جَدِيداً، لَمْ أَنْشُرْ مِنْهَا شَيْئاً مِنْ قَبْلُ، وَأَضَفْتُهَا إِلَى تِلْكَ، وَأَخْرَجْتُهَا مُجْتَمِعَةً فِي هَذَا الْكِتَابِ، وَقَسَمْتَهُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: الْبَرَهَانُ عَلَى وَجُودِ اللَّهِ، وَبَقَاءُ الرُّوحِ بَعْدَ الْمَوْتِ بِأَسْلُوبٍ جَدِيدٍ يُخَالِفُ الْأَسْلُوبَ الَّذِي اتَّبَعْتُهُ فِي مُؤَلَّفَاتِي السَّابِقَةِ، الْقِسْمُ الثَّانِي، يَشْتَمِلُ عَلَى الْفُصُولِ الَّتِي لَمْ تُنْشَرْ مِنْ قَبْلُ فِي صَحِيفَةٍ أَوْ كِتَابٍ، الْقِسْمُ الثَّالثُ جَمَعْتُ فِيهِ

مَا سَبَقَ أَنْ نُشَرَّ^(١)، مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّ الثَّانِي وَالثَّلَاثَ مِنَ الْمُنَاجَاةِ، وَأَنَّ الْأَقْسَامَ الثَّلَاثَةَ يَرْبِطُهَا رَابِطٌ وَاحِدٌ، وَيَجْمَعُهَا جَامِعٌ وَاحِدٌ.

فَصِيحَةٌ:

إِذَا أُرِدَتْ هِدَايَةٌ مَن تَحَبَّ، أَوْ تَخَشَى عَلَى دِينِهِ وَخُلُقِهِ مِنْ تَجَارَاتِ الْفَسَادِ وَالْإِلْحَادِ فَأَخْمَلْهُ بِكُلِّ سَبِيلٍ عَلَى قِرَاءَةِ هَذَا الْكِتَابِ، فَإِنَّ فِيهِ حَوَادِثَ وَوَقَائِعَ مِنْ حَيَاةِ النَّاسِ تَحْمِلُ الْإِنْسَانَ تَلَقَّائِيًّا عَلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ، وَخُلُودِ الرُّوحِ وَبَقَائِهَا حَيَّةً بَعْدَ الْمَوْتِ، هَذَا، إِلَى أَنْ فَضُولُهُ الْأُخْرَى تَبْعَثُ الْإِنْسَانَ عَلَى الْعَمَلِ بِوَحْيِ هَذَا الْإِيمَانِ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْسُ وَلَا يَشْعُرُ.

وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ الْمَسْئُولُ أَنْ يُوقِنَنَا جَمِيعًا إِلَى طَاعَتِهِ، وَيَشْمَلَنَا بِرَحْمَتِهِ، أَنَّهُ خَيْرُ مَسْئُولٍ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الْأَطْهَارِ.

(١) لَقَدْ تَقَلَّنَا هَذَا الْقِسْمَ (الثَّلَاثَ) إِلَى الْجُزْءِ الْأَوَّلِ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ وَذَلِكَ لِلثَّلَاثَةِ بَيْنَهُمَا.

القِسْمُ الْأَوَّلُ
فِي وَجُودِ اللَّهِ، وَخُلُودِ الرُّوحِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَبِاللَّهِ الْمَعْلُومِ. آمِينَ رَبِّهِمْ

كَيْفَ آمَنْتَ

أَسْتَجَبْتُ - أَوَّلَ مَا أَسْتَجَبْتُ - إِلَى دِينِ آبَائِي، وَأَجْدَادِي تَمَامًا كَمَا أَسْتَجَبْتُ
إِلَى لُغَتِهِمْ، وَعَادَاتِهِمْ، وَكُلِّ مَا يَتَّصِلُ بِحَيَاةِ النَّبِيِّ الَّذِي عِشْتُ فِيهِ مِنْ قِيمٍ وَمَعَايِيرٍ
وُمَثَلٍ.

لَقَدْ آمَنْتُ تِلْقَائِيًّا دُونَ أَنْ يَكُونَ لِي الْخِيَارُ فِي الْقَبُولِ، أَو الرِّفْضِ، وَفِي
التَّبْدِيلِ، أَو التَّعْدِيلِ... وَلَسْتُ أَقْصِدُ بِالْإِسْتِجَابَةِ - هُنَا - التَّقْلِيدَ، بَلْ أَقْصِدُ مَعْنَى
وَرَاءَ التَّقْلِيدِ، وَأَكْثَرَ مِنْهُ، وَأَقْصِدُ مَعْنَى يَشْبَهُ الْإِمْتِصَاصَ وَالتَّقَمُّصَ إِنَّ صَحَّ
التَّعْبِيرُ... لِأَنَّ التَّقْلِيدَ يُؤَاخِذُ عَلَيْهِ صَاحِبَهُ، وَيُلَاحِظُ، وَالطُّفْلُ لَا يُؤَاخِذُ بِشَيْءٍ وَلَا
يُلَاحِظُ عَلَى شَيْءٍ.

كَانَتْ أُمِّي، وَهِيَ مِنْ بَيْتِ عِلْمٍ وَدِينٍ، تُرَدِّدُ فِي كَلَامِهَا كَثِيرًا أَسْمَاءَ اللَّهِ، وَمُحَمَّدَ،
وَعَلِيَّ، وَفَاطِمَةَ وَحَسَنَ وَحُسَيْنَ، فَإِذَا تَحَرَّكَتْ حَرَكَةً تَخَافُهَا عَلَيَّ، أَوْ عَطَسَتْ،
وَمَا أَشْبَهَ قَالَتْ: اللَّهُ... وَإِذَا نَظَرْتُ إِلَيَّ أَمْرًا تَخْشَى مِنْ عَيْنِهَا رَفَعَتْ صَوْتَهَا
بِالصَّلَاةِ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ.

وَلَمْ يَقِفْ الْأَمْرُ بَوَالِدَتِي عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ، بَلْ كَانَتْ تُلَقِّنِي أَسْمَاءَ اللَّهِ، وَالنَّبِيِّ،
وَالْأَنْبِيَاءِ الْأَطْهَارِ، تَمَامًا كَمَا هُوَ شَأْنُ الْأُمَمَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ... وَمُنْذُ الْقَدِيمِ أَدْرَكَ
شَاعِرُ إِمَامِي أَنَّهُ مَدِينٌ لِأُمَمِهِ بِهَذَا الْوَلَاءِ، فَأَنْشَأَ يَقُولُ طَالِبًا لَهَا مِنَ اللَّهِ الْعَفْوَ

وَالْغُفْرَانُ :

لَا عَذَابَ لِلَّهِ أُمِّي أَنَّهَا شَرِبَتْ

حُبِّ الْوَصِيِّ وَغَذَّتْنِيهِ بِاللَّبَنِ

وَكَانَ لِي وَالِدٌ يَهْوَى أَبَا حَسَنٍ

فَصِرْتُ مِنْ ذَا وَذِي أَهْوَى أَبَا حَسَنٍ^(١)

أَمَّا وَالِدِي فَقَدْ كَانَ لَا يَهْتَمُّ بِشَأْنٍ مِنْ شُؤُونِي كَمَا يَهْتَمُّ بِتَنْشِئَتِي عَلَى الدِّينِ وَالْوَلَاءِ لِأَهْلِ الْبَيْتِ : ... فَقَدْ كَانَ عَالِمًا مِنْ عُلَمَاءِ الدِّينِ مُهَيِّمَةً وَهَمَّهُ غَرْسُ التَّقْوَى وَالْوَلَاءِ فِي النَّفُوسِ مُؤَمَّنًا بِهَذِهِ الْمُهْمَةِ كُلِّ الْإِيمَانِ، مُخْلِصًا لَهَا كُلَّ الْإِخْلَاصِ، وَكَانَ رَقِيقَ الشُّعُورِ، مُرْهَفَ الْحِسِّ، سَخِي الدَّمْعَةِ، وَتَرَوَى عَنْهُ فِي ذَلِكَ حِكَايَاتٍ، مِنْهَا : أَنَّهُ حَضَرَ مَجْلِسًا لَتَعْرِيزَةِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْحُسَيْنِ (ع)، وَمَا أَنْ أَفْتَتَحَ الْقَارِيءُ كَلَامَهُ بِقَوْلِهِ : (صَلَّيْ اللَّهُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّيْ اللَّهُ عَلَيْكَ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ) .

حَتَّى أَخَذَهُ الْحُزْنَ، وَأَجْهَشَ بِالْبُكَاءِ

فَقَالَ لَهُ أَحَدُ الظُّرَفَاءِ مِنْ أَهْلِ الْمَجْلِسِ : « طَوَّلَ رُوحَكَ، حَتَّى نَعْرِفَ الْحَقَّ عَلَى مَنْ ؟ ... » .

وَإِذَا كَانَتْ مُهْمَةُ أَبِي غَرْسِ الْوَلَاءِ فِي النَّفُوسِ فَبِالْأُولَى أَنْ يَهْتَمَّ بِطِفْلِهِ، وَيَبْذُلَ كُلَّ جُهدٍ لَغَرْسِ هَذَا الْوَلَاءِ وَتَنْمِيَّتِهِ فِي نَفْسِهِ ... وَمَا زِلْتُ أَذْكُرُ أَنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ حَفِظْتُهُ مِنَ الشُّعْرِ هُوَ لِلشَّيْخِ الْأَزْرِيِّ مِنْ قَصِيدَتِهِ الْأَزْرِيَّةِ الشَّهِيرَةِ وَهَذَا هُوَ^(٢) :

(١) أنظر، ديوان الشافعي الطبعة الثالثة بيروت : ٥٥، دليل فقه الشافعي : ١١ .

(٢) أنظر، ديوان الأزري الكبير، للشَّيْخِ كَاطِمِ الْأَزْرِيِّ التَّمِيمِيِّ : ٢٧٨ .

مَلِكٌ شَدَّ أَرْزَهُ بِأَخِيهِ فَاسْتَقَامَتْ مِنَ الْأُمُورَ قَنَاها
 وَأَبِي هُوَ الَّذِي أَغْرَانِي بِحِفْظِهِ بَقِيعَةً مِنَ النُّقُودِ، وَكَانَ لِي يَوْمَ ذَلِكَ سِتٌّ مِنْ
 الْعُمْرِ. وَأَعْتَقِدُ جَازِماً أَنَّ حِفْظِي الْأَوَّلَ لِهَذَا الْبَيْتِ فِي مَدِيحِ عَلِيِّ أَمِيرِ
 الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام، وَسَيِّدِ الْوَصِيِّينَ، وَتَرْدَادِي لِكَلَامِهِ، وَأَنَا أَبْنُ سِتِّ سِنِينَ كَانَ لَهُ أَبْلَغُ
 الْأَثَرِ فِي حَيَاتِي الْمُقْبِلَةِ، فَقَدْ كَانَ وَلَا شَكَّ مِفْتَاحَ الْخَيْرِ، وَسِرَّ التَّوْفِيقِ رَغْمَ أَنِّي
 حَفَظْتَهُ كَالْبَيْعَاءِ، تَنْطِقُ، وَلَا تُدْرِكُ.

وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِأَبِي عَلِيٍّ سِوَى هَذِهِ الْيَدِ الْكَرِيمَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ فِيهَا خَيْراً
 كَثِيراً لَوْجِبَ عَلَيَّ أَنْ أَبْرَهُ وَأَشْكُرَهُ... فَعَلَيْكَ مِنْ اللَّهِ الرَّحْمَةِ يَا أَبْنَتَاهُ، وَخَصَّكَ
 بِالْمَغْفِرَةِ وَالرَّضْوَانِ، وَحَشَرَكَ مَعَ الْأَيْمَةِ الْأَطْهَارِ أَنْتَ وَجَمِيعِ الْأَبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ
 الَّذِينَ يَغْرُسُونَ فِي نَفُوسِ أَبْنَائِهِمُ الْحُبَّ وَالْوَلَاءَ لِلنَّبِيِّ وَآلِهِ الْهُدَاةِ،
 وَكَانَ أَبِي - أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْهِ - يَأْمُرُنِي إِذَا شَرِبْتُ الْمَاءَ أَنْ أَقُولَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَعَنَ
 اللَّهُ مَنْ ظَلَمَكَ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، وَمَنْعَكَ شَرْبَ الْمَاءِ، وَكَانَ يُرَدِّدُ عَلَيَّ مَسْمَعِي صَبَاحَ
 مَسَاءٍ أَسْمَاءَ الْأَيْمَةِ الْإِثْنَاءِ عَشَرَ، حَتَّى أَطْمَأَنَّ إِلَى حِفْظِي لَهَا عَلَى التَّرْتِيبِ، كَمَا
 كَانَ يَضْحِكُنِي مَعَهُ إِلَى مَجَالِسِ التَّعْزِيَةِ، وَزِيَارَةِ الْمَشَاهِدِ الْمُشْرِفَةِ، وَصَلَاةِ
 الْجَمَاعَةِ.

وَمَا زِلْتُ أَذْكَرُ أَنَّهُ حَضَرَ فِي ذَاتِ يَوْمٍ أَحَدَ الْمَجَالِسِ لَتَعْزِيَةِ الْحُسَيْنِ عليه السلام فِي
 قَرْيَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ، فَتَجَمَّعَ أَطْفَالُ الْقَرْيَةِ، وَجَلَسُوا فِي الطَّرَفِ، فَحَاوَلَ أَحَدُ
 الْحَاضِرِينَ أَنْ يَطْرُدَهُمْ، فَزَجَرَهُ أَبِي، وَقَالَ لَهُ: «دَعَهُمْ يَتَمَرَّنُوا وَيَعْتَادُوا».
 وَكَانَ مِنْ نَتِيجَةِ هَذِهِ التَّرْبِيَةِ أَنْ صَارَ الدِّينَ وَالْوَلَاءَ فِي نَفْسِي كَطَبِيعَةٍ أَصِيلَةٍ، لَا
 شَيْءَ مُكْتَسَبٍ، وَحِينَ بَلَغْتُ سِنَّ الْمُرَاهِقَةِ، وَالتَّمْيِيزِ كُنْتُ أَعْتَقِدُ أَنَّ الْحَقَّ وَالْعَدْلَ

لَا يُوجَدَانِ إِلَّا فِي الْقُرْآنِ، وَعِنْدَ النَّبِيِّ وَآلِهِ الْكَرَامِ.

وَتَأَكَّدَ هَذَا الشُّعُورَ أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ بَعْدَ أَنْ ذَهَبْتُ إِلَى النَّجَفِ الْأَشْرَفِ لَطَلِبِ الْعِلْمِ... فَمَا وَقَعَ بَصْرِي، وَأَنَا فِيهَا إِلَّا عَلَى شَعَائِرِ الدِّينِ، وَمَظَاهِرِ الْوَلَاءِ... فَمِنْ الْأَذَانِ إِلَى الصَّلَوَاتِ وَالْعِبَادَاتِ، إِلَى تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، وَالْأَدْعِيَةِ وَالْأُورَادِ، وَمِنْ الرِّيَازَاتِ إِلَى مَجَالِسِ التَّعْزِيَةِ، وَالْوَعْظِ، وَالْإِرْشَادِ، وَحَلَقَاتِ الدَّرْسِ عِنْدَ الْأَتْقِيَاءِ الْأَبْرَارِ.

إِلَى هُنَا، وَلَا سَبَبَ لِإِيمَانِي إِلَّا عَقِيدَةُ آبَائِي الَّتِي وَلَدْتُ عَلَيْهَا، وَإِلَّا الْبَيْتَةَ الَّتِي عِشْتُ فِيهَا، وَبَعْدَ أَنْ اتَّسَعَتْ مَدَارِكِي، وَأَسْتَطَعْتُ أَنْ أَتَفَهَّمُ وَأَهْضُمُ أَدَلَّةَ الْمُتَكَلِّمِينَ وَالْفَلَّاسِفَةِ الْإِلَهِيِّينَ، وَبَعْدَ أَنْ تَقَدَّمْتُ فِي الدِّرَاسَةِ، وَأَطْلَعْتُ عَلَى تِلْكَ الْأَدَلَّةِ أَصْبَحَ إِيمَانِي عَنْ بَيِّنَةٍ وَعِلْمٍ بَعْدَ أَنْ كَانَ عَاطِفِيًّا مُحْضًا، أَوْ تَقْلِيدًا أَعْمَى.

إِنَّ وَسَائِلَ الْإِيمَانِ مُعَدَّةٌ لِكُلِّ طَالِبٍ وَرَاغِبٍ... إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ إِذَا أَرْسَلَ إِلَى عِبَادِهِ رَسُولًا، وَأَمَرَهُمْ بِإِطَاعَتِهِ، وَاتَّبَاعِهِ وَجَبَ أَنْ يُعَزِّزَهُ، وَيُؤَيِّدَهُ بِالْأَدَلَّةِ الْقَاطِعَةِ عَلَى نُبُوَّتِهِ، فَبِالْأَحْرَى إِذَا دَعَاهُمْ إِلَى الْإِعْتِرَافِ بِرُبُوبِيَّتِهِ أَنْ يَفْتَحَ لَهُمْ أَبْوَابَ الْعِلْمِ بِهَا، وَيُمَهِّدَ السَّبِيلَ إِلَى مَعْرِفَتِهَا، وَقَدْ يَسَّرَ اللَّهُ سُبُلَ الْإِيمَانِ بِهِ، حَتَّى كَادَتْ تُلْحَقُ بِالْبَدِيهِيَّاتِ، لِلَّذِينَ لَمْ يَنْحَرْفُوا عَنْ جَادَةِ الْعَقْلِ السَّلِيمِ، وَالْفِطْرَةِ الصَّافِيَةِ.

وَلَا تَنْحَصِرُ هَذِهِ السَّبِيلُ بِأَدَلَّةِ الْمُتَكَلِّمِينَ وَالْفَلَّاسِفَةِ، بَلْ يَجِدُهَا النَّاظِرُ فِي الْعَالَمِ بِجُمْلَتِهِ، وَفِي نَفْسِهِ، وَفِي الْجَمَادِ وَالنَّبَاتِ، وَالْحَيَوَانَ، وَفِي كُلِّ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، وَفِي كُلِّ خَلِيَّةٍ وَجُزْءٍ مِنْ جِسْمٍ حَيٍّ، وَغَيْرِ حَيٍّ... يَجِدُ هَذِهِ الْأَدَلَّةَ كُلَّ إِنْسَانٍ، سِوَاكَ أَمَا كَانَ عَالِمًا، أَمْ جَاهِلًا، صَالِحًا، أَمْ طَالِحًا عَلَى شَرِيطَةٍ أَنْ

يَكُونُ مِنْ طُلَّابِ الْحَقِيقَةِ، لَا مِنْ مُدْعِيهَا جَهْلًا وَغُرُورًا.

وَمِنْ هُنَا، وَلِأَجْلِ تَوْفَرِ هَذِهِ الْأَدَلَّةِ وَالْبَرَاهِينِ عَلَى وَجُودِ الْخَالِقِ لَا عُذْرَ عِنْدَ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ لِمَنْ يَجْحَدُهُ وَيُنْكِرُهُ كَانَتْ أَمْ كَانَ، أَمَّا الْأُصُولُ الْأُخْرَى فَيُعْذَرُ فِيهَا الْمُخَالَفُ إِنْ عَجَزَ عَنِ النَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ، أَمَّا إِذَا قَدَّرَ فَاهْمَلْ، أَوْ نَظَرَ نَظْرَةً نَاقِصَةً غَيْرَ كَامِلَةٍ فَهُوَ غَيْرُ مَعْذُورٍ بِحَالٍ.

وَبِكَلِمَةٍ أَنَّ الْقَادِرَ الْمُقْصِرَ مَسْئُولٌ، وَالْعَاجِزَ الْقَاصِرَ لَا شَيْءَ عَلَيْهِ. إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يُؤَاخِذُ النَّاسَ بِقَدْرِ مَا وَهَبَهُمْ مِنَ الْعَقْلِ وَالِاسْتِعْدَادِ، وَلَا يُكَلِّفُهُمْ فَوْقَ مَا يُطِيقُونَ.

وَمَهْمَا يَكُنْ، فَإِنَّ مَوَاقِفَ الْآبَاءِ وَالْأُمَهَاتِ فِطْرَةٌ فِي الْإِنْسَانِ، أَوْ أَشْبَهَ بِالْفِطْرَةِ يَسْأَقُ وَرَاءَهَا مِنْ غَيْرِ شُعُورٍ، وَلَا يَتَحَرَّرُ مِنْهَا إِلَّا مَنْ أَتَسَّعَتْ مَدَارِكُهُ، وَتَقَدَّمَ فِي الْوَعْيِ وَالْعِلْمِ، عَلَى أَنْ تَحَرَّرَ الْعُلَمَاءُ عَلَى خَطَرٍ، حَيْثُ يَرَى أَكْثَرُهُمْ أَنَّ الْحَقَّ وَالْعَدْلَ فِيمَا كَانَ عَلَيْهِ أَبَوَاهُ دُونَ غَيْرِهِمَا... وَلَكِنْ إِذَا أَرَادَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بَعْدَهُ خَيْرًا هَيَّا لَهُ الْأَسْبَابَ عَالِمًا كَانَ أَوْ جَاهِلًا، شَابًا أَوْ شَيْخًا... وَلَيْسَ مِنْ شَكٍّ أَنَّهُ جَلَّ وَعَزَّ لَا يُخَيِّبُ مَنْ أَخْلَصَ النِّيَّةَ، وَتَجَرَّدَ لَطَلَبِ الْحَقِيقَةِ.

فِي ذَاتِ يَوْمٍ جَاءَنِي شَابٌ فِي مُقْتَبِلِ الْعُمْرِ، وَقَالَ: إِنِّي فِي طَرِيقِ الْهِدَايَةِ، وَكُنْتُ قَبْلًا مِنَ الضَّالِّينَ، وَقَدْ أَتَيْتُكَ لَأَقْتَنِعَ نَهَائِيًا، أَوْ أَحَبُّ أَنْ أَسْمَعَ مِنْ فَمِكَ. فَقُلْتُ لَهُ: هَلْ أَنْتَ طَالِبٌ، أَوْ أَنْتَهَيْتَ مِنْ دَرَاسَتِكَ؟

قَالَ: فِي هَذِهِ السَّنَةِ حَصَلْتُ عَلَى الثَّانَوِيَّةِ، وَعَزَمِي عَلَى الْمُتَابَعَةِ وَالتَّخْصِصِ. قُلْتُ: تُخْصِصُ بِمَاذَا؟

قَالَ: فِي الطَّبِّ.

قُلْتُ: أَلَا إِنَّ مِنَ الْإِنْسَانِ الْأَسْوَدَ، وَالْأَبْيَضَ، وَالْأَصْفَرَ، وَالطَّوِيلَ وَالْقَصِيرَ، وَالذَّكِيَّ، وَالْبَلِيدَ، وَالذَّكَرَ، وَالْأُنْثَى، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟
قَالَ: أَجَلٌ، بِالْبَدِيهَةِ.

قُلْتُ: لَوْ أَجْتَمَعَ الْعُلَمَاءُ وَالْأَطْبَاءُ، وَفَحَصُوا وَحَلَّلُوا بُوَيْضَةَ الْعَنِيِّ الَّتِي يَتَوَلَدُ مِنْهَا الْإِنْسَانُ هَلْ يَسْتَطِيعُونَ التَّمْيِيزَ بَيْنَ بُوَيْضَةِ الْأَسْوَدِ وَالْأَبْيَضِ، وَبُوَيْضَةِ الطَّوِيلِ وَالْقَصِيرِ، وَالذَّكَرِ وَالْأُنْثَى؟ بِحَيْثُ يَتَبَأَوْنَ أَنَّ هَذِهِ الْبُوَيْضَةُ يَتَكَوَّنُ مِنْهَا الْأَسْوَدُ، وَتِلْكَ يَتَكَوَّنُ الطَّوِيلُ، وَهَكَذَا...
قَالَ: كَلَّا.

قُلْتُ: إِذَنْ، لَا سَبَبَ إِلَّا إِرَادَةُ اللَّهِ وَمَشِيئَتُهُ.

قَالَ: إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْفَلَاسِفَةِ يَحْصُرُونَ سَبَبَ الْمَعْرِفَةِ بِالتَّجَرُّبَةِ، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِغَيْرِهَا، وَيَعْدُونَ ذَلِكَ هَذَا، وَمَا إِلَيْهِ مُجَرَّدَ نَظَرِيَّةٍ، وَالنَّظَرِيَّةُ لَا تَكُونُ عِلْمِيَّةً، حَتَّى تُثَبِّتَهَا التَّجَرُّبَةُ.

قُلْتُ: لَا بُدَّ لِلتَّجَرُّبَةِ مِنْ دَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَى صِحَّتِهَا، وَأَيْضًا لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ هَذَا الدَّلِيلُ غَيْرَ التَّجَرُّبَةِ، لِأَنَّ الشَّيْءَ لَا يَكُونُ دَلِيلًا وَمَدْلُولًا مِنْ جِهَةٍ وَاحِدَةٍ، وَفِي آيٍ وَاحِدَةٍ، وَلَا دَلِيلٌ عَلَى الْأَخْذِ بِالتَّجَرُّبَةِ إِلَّا الْعَقْلُ، وَعَلَيْهِ فَلَا يَكُونُ سَبَبُ الْمَعْرِفَةِ مُنْحَصَرًا بِالتَّجَرُّبَةِ، فَإِنَّ هُنَاكَ الْعَقْلَ، وَهُوَ أَقْوَى مِنْهَا، لِأَنَّهُ الدَّلِيلُ عَلَى صِحَّتِهَا، وَلَوْلَا هَلَمْ تَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا.

ثُمَّ أَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالتَّجَرُّبَةِ يُنَاقِضُونَ أَنْفُسَهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ، حَيْثُ يَنْفُونَ وُجُودَ مُدَبِّرٍ لِهَذَا الْكَوْنِ دُونَ أَنْ يَسْتَدُوا فِي نَفْسِهِمْ هَذَا إِلَى التَّجَرُّبَةِ، أَوْ إِلَى شَيْءٍ

يَرْكُنُ إِلَيْهِ^(١) هَذَا، إِلَى أَنَّ التَّجَرِبَةَ وَالْعِلْمَ أُعْجَزَ مِنْ أَنْ يُحِيطَ بِالْكَوْنِ وَمَا يَزَخَرُ بِهِ مِنْ عَجَائِبٍ وَأَسْرَارٍ، فَضْلاً عَمَّا وَرَاءَهُ إِذَنْ لَا بُدَّ مِنَ الْعَقْلِ وَالْوَحْيِ لِمَعْرِفَةِ مَا لَا يَنَالُهُ الْحِسُّ وَالتَّجَرِبَةُ.

ثُمَّ ذَكَرْتُ لِلشَّابِّ مَا حَضَرَنِي مِنْ أَقْوَالِ الْفَلَّاسِفَةِ وَالْعُلَمَاءِ.

مِنْهَا أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِسُقْرَاطَ: لِمَاذَا لَا تَرَى اللَّهَ؟

فَقَالَ لَهُ سُقْرَاطُ: وَأَنْتَ أَيْضًا لَا تَرَى رُوحَكَ الَّتِي تَتَسَلَطُ عَلَى أَعْضَائِكَ فَهَلْ مَعْنَى هَذَا أَنْ تَقُولَ: أَنَّ أَفْعَالَكَ صَادِرَةٌ عَنْ أَتْفَاقٍ، وَبَدُونِ إِدْرَاكَ؟..

وَمِنْهَا: مَا قَالَهُ أَحَدُ الْعَارِفِينَ: لَوْ أَفْتَرَضَ أَنَّ الرَّجُلَ وَجِدَ صِدْقَةً فَهَلْ وَجِدَتْ الْمَرْأَةُ الَّتِي تُرَافِقُ الرَّجُلَ صِدْقَةً أَيْضًا، لَتُعَمَّرَ الْأَرْضُ بِالسَّكَّانِ، وَيَدُومُ فِيهَا النَّسْلُ؟.

وَمِنْهَا: قَوْلُ فُولْتِير: «إِذَا كَانَ أَمَامَ الْفِكْرَةِ فِي وَجُودِ اللَّهِ عَقَبَاتٌ، فَإِنَّ فِي الْفِكْرَةِ الْمُضَادَّةَ حِمَاقَاتٍ».

وَقُلْتُ لَهُ فِيمَا قُلْتُ: أَنَّ تَقَدُّمَ الْعِلْمِ أَقَادَ الدِّينِ كَثِيرًا بَخَاصَّةٍ فِيمَا يَعُودُ إِلَى إِثْبَاتِ الْخَالِقِ، حَيْثُ أَصْبَحَ بَوَسَعِ الْإِنْسَانِ أَنْ يَسْتَعِينَ عَلَى ذَلِكَ بِالْوَسَائِلِ الْعِلْمِيَّةِ، وَيَعْرِفَ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ مَنْ يقرأ كِتَابَ «اللَّهُ يَتَجَلَّى فِي عَصْرِ الْعِلْمِ».

وَحْتَمْتُ كَلَامِي بِأَنَّ الْإِسْلَامَ لَمْ يَدْعُو إِلَى الْإِيمَانِ تَقْلِيدًا، بَلَى نَعَى عَلَى الْجُهَالِ وَالْمُقَلِّدِينَ، وَدَعَا إِلَى التَّفَكُّرِ، وَإِنْعَامِ النَّظَرِ أَوَّلًا وَقَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، ثُمَّ الْإِيمَانُ بِوَحْيِ

(١) وَقَدْ زَانَا عُلَمَاءُ الطَّبِيعَةِ يُؤْمِنُونَ بِشَيْءٍ عَنْ طَرِيقِ التَّجَرِبَةِ بِرُغْمِهِمْ، وَبِعُرُورِ الْأَيَّامِ ثَبَتَ بِالتَّجَرِبَةِ أَيْضًا أَنَّهُمْ عَلَى خَطَأٍ. وَيُنَالُ ذَلِكَ أَنَّهُمْ قَالُوا: الْفَضَاءُ مَمْلُوءٌ بِالْأَثِيرِ الَّذِي لَا يُرَى، وَالْآنَ وَبَعْدَ النَّظَرِيَّةِ النَّسَبِيَّةِ آمَنُوا بِأَنَّ الْفَضَاءَ فَارِغٌ مِنَ الْأَثِيرِ وَغَيْرِ الْأَثِيرِ. أَنْظِرْ، «مَجْلَّةُ الْمَجَلَّةِ الْمَصْرِيَّةِ عَدَدُ أَيْلُولِ سَنَةِ ١٩٦٣ م». (مِنْهُ بَيِّنَةٌ).

العقل والضمير، وَلَا أَحَدٌ يُنْكِرُ عَلَى الْإِسْلَامِ دَعْوَتَهُ هَذِهِ، أَوْ يُنْكِرُ ضَرُورَةَ
الِإِحْتِكَامِ إِلَى الْعَقْلِ وَالْفِطْرَةِ، إِنْ كَانَ مِنْ أُولَى الْأَلْبَابِ: «وَلَقَدْ يَسْرُنَا الْقُرْآنُ
لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ»^(١).

فَخَرَجَ الشَّابُّ، وَهُوَ إِلَى الْإِيمَانِ أَقْرَبُ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ. وَفَضْلاً عَنِ الْأَدَلَّةِ الْعَامَّةِ
عَلَى وَجُودِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فَإِنَّ هُنَاكَ تَجَارِبَ وَحَوَادِثَ شَخْصِيَّةَ تَحْصُلُ لِكُلِّ إِنْسَانٍ
لَوْ تَنَبَّهَ إِلَيْهَا، وَبَحَثَ عَنْ سَبَبِهَا الْحَقِيقِيِّ لَمْ يَجِدْ سِوَى إِرَادَةِ اللَّهِ وَمَشِئَتِهِ.
وَقَدْ حَصَلَ لِي أَكْثَرُ مِنْ تَجْرِبَةٍ خَاصَّةٍ فِي التَّدْلِيلِ عَلَى أَنَّهُ لَا رَادَّ لِمَا أَرَادَ جَلَّ
وَعَزَّ.

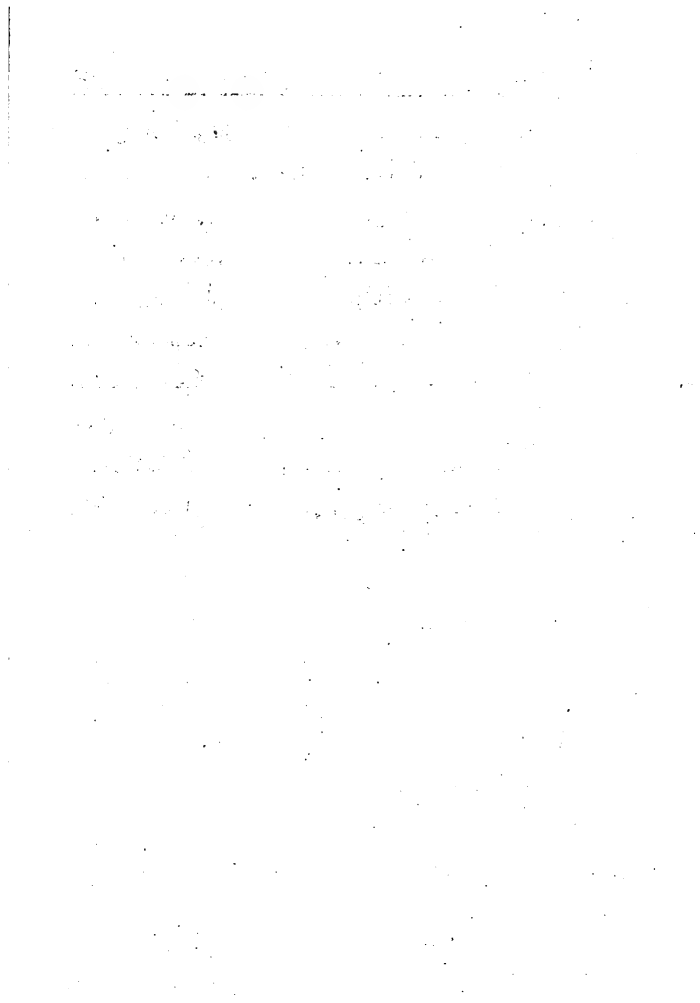
مِنْ ذَلِكَ أَنِّي كُنْتُ عَازِماً عَلَى شَيْءٍ، وَلَا عَائِقَ أَوْ حَاجِزَ يَصْدِنِي عَنْهُ، وَمَا أَنْ
هَمَمْتُ، حَتَّى غَابَ عَنِ ذِهْنِي مَا قَصَدْتُ إِلَيْهِ كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ.
وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ ذَهَبْتُ إِلَى بَيْتِ رَجُلٍ أَعْرِفُهُ، وَيَعْرِفُنِي، قَصَدْتُهُ لِأَكْلِفِهِ بِأَمْرٍ
يَهْمُنِي، وَلَمَّا دَخَلْتُ عَلَيْهِ رَحَبٌ، وَأَسْتَقْبَلَنِي بِمَا أَحَبُّ، وَلَكِنِّي نَسِيتُ الْفَرَضَ
الَّذِي زُرْتُهُ مِنْ أَجْلِهِ، وَالْغَرِيبُ أَنَّهُ عَرَّضَ عَلَيَّ خِدْمَاتِهِ، وَقَالَ: إِنِّي عَلَى اسْتِعْدَادٍ
لِكُلِّ مَا تَأْمُرُ، فَقَابَ عَنِّي كُلَّ شَيْءٍ، وَقُلْتُ: شُكْرًا، وَخَرَجْتُ... وَبَعْدَ خُرُوجِي
ذَكَرْتُ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِي فَعَجِبْتُ، وَلَمْ أَجِدْ تَفْسِيرًا إِلَّا إِرَادَةَ اللَّهِ وَمَشِئَتِهِ.
وَكَمْ عَزَمْتُ عَلَى أَمْرٍ عَزَمًا لَا يَصْدِنِي عَنْهُ إِلَّا الْمَوْتُ - فِيمَا كُنْتُ أَحْسَبُ - وَإِذَا
بِالْعَزَمِ يَتَبَخَّرُ بِدُونِ سَبَبٍ ظَاهِرٍ، وَالسَّلَامُ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام، حَيْثُ قَالَ:
«عَرَفْتُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بِفَسْخِ الْعَرَائِمِ، وَحُلِّ الْمُقُودِ، وَتَقْضِ الْهِمَمِ»^(٢).

(١) الْقَمَر: ٤٠.

(٢) أَنْظَر، نَهْجُ الْبَلَاغَةِ: أَلْحِكْمَةُ (٢٤٩).

وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ لَوْ قَالَ لِي قَائِلٌ - وَأَنَا يَتِيمٌ أَبْحَثُ عَنْ لُقْمَةِ الْعَيْشِ بِبَيْرُوتَ - :
 سَتَذْهَبُ إِلَى النَّجْفِ ، وَتَكُونُ فِيهَا طَالِبًا نَاجِحًا . لَقُلْتُ : إِنَّهُ يَسْخَرُ مِنِّي .
 وَأَيْضًا لَوْ قَالَ لِي - وَأَنَا فِي النَّجْفِ أَعِيشُ فَقِيرًا بَائِسًا - : سَتَذْهَبُ إِلَى لُبْنَانَ ،
 وَتَبْنِي لَكَ بَيْتًا ، وَتَعِيشُ بِلَا دِيُونَ وَعَنَاءٍ ، لَقُتُ : أَضْعَافُ أَحْلَامٍ .
 وَلَوْ قَالَ لِي بَعْدَ أَنْ تَمَّ هَذَا : سَتَكُونُ مُؤَلَّفًا نَاجِحًا ، يَقْبَلُ الْقُرَاءُ عَلَيَّ مَا تَكْتُبُ ،
 وَتُعِيدُ طَبْعَ مَا تُؤَلِّفُ ثَانِيَةً ، وَثَالِثًا وَرَابِعًا ، فِي أَمَدٍ قَصِيرٍ ، وَتَتَسَابَقُ دُورُ النُّشْرِ إِلَى
 مُؤَلَّفَاتِكَ ، وَتُدْفَعُ لَكَ أَتْعَابُ التَّأْلِيفِ سَلَفًا ، وَأَكْثَرُ مِنَ الْمُعْتَادِ . لَقُلْتُ : خَيَالُ
 أَطْفَالٍ .

وَقَدْ تَمَّ ذَلِكَ كُلُّهُ وَلِلَّهِ الْمِنَّةُ وَالْحَمْدُ ، حَمْدًا يَبْلُغُ رِضَاهُ ، وَشُكْرًا يُلِيقُ بِعَظَمَتِهِ
 وَعُلَاوِهِ ... وَبِالتَّالِي ، فَلَا تَفْسِيرَ لشيءٍ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا إِرَادَةَ اللَّهِ وَمَشِيئَتَهُ جَلَّ وَعَزَّ .



الله وَأَنْتَ

الإيمان بالله قديم:

إِنَّ جَمِيعَ الْآرَاءِ وَالْمُعْتَقَدَاتِ، وَالْمَبَادِيءِ وَالنَّظَرِيَّاتِ وَجِدَتْ بَعْدَ وَجُودِ الْإِنْسَانِ بَرَزَ مِنْ قَصِيرٍ أَوْ طَوِيلٍ إِلَّا مُعْتَقَدًا وَاحِدَ فَقَطْ لَا غَيْرَ، فَإِنَّهُ وَجِدَ مَعَ الْإِنْسَانِ مِنْذُ اللَّحْظَةِ الْأُولَى لِإِذْرَاكَ وَمَعْرِفَتِهِ، وَلَمْ يُفَارِقْهُ بِحَالٍ، وَسَيَبْقَى مَعَهُ أَبَدَ الْأَبَدِينَ، وَهَذَا الْمُعْتَقَدُ هُوَ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ، فَمَا نَقَلَ مُؤْمِنٌ وَلَا جَا حَادٌ أَنَّ فِتْرَةَ مِنَ الزَّمَنِ مَرَّتْ بِالْإِنْسَانِيَّةِ دُونَ أَنْ يُوجَدَ فِيهَا وَاحِدٌ غَيْرُ مُؤْمِنٍ... مَعَ الْعِلْمِ أَنَّ جَمِيعَ الْآرَاءِ وَالْمُعْتَقَدَاتِ، أَوْ أَكْثَرَهَا حَتَّى الْبَدِيعِيَّاتِ ^(١) قَدْ حَدَّثَتْ بَعْدَ وَجُودِ الْإِنْسَانِ بِزَمَانٍ، مَا عَدَا الْإِيمَانَ بِاللَّهِ، فَإِنَّهُ كَانَ، وَمَا زَالَ الْهَدَفُ الَّذِي يَتَّجِهُ إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ بِفِطْرَتِهِ فِي جَمِيعِ أَدْوَارِ التَّأْرِيخِ. وَالْإِخْتِلَافُ إِنَّمَا هُوَ فِي الْأُسْلُوبِ، وَفِي تَصَوُّرِ الذَّاتِ وَالصِّفَاتِ أَمَّا أَصْلُ الْفِكْرَةِ فَقَدِيمَةٌ بِقَدَمِ الْإِنْسَانِ نَفْسِهِ.

وَمِنْ هُنَا كَانَ مَبْدَأُ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ أَقْدَمُ مِنَ الْعُلُومِ وَالْفَلَسَفَاتِ، وَمِنْ الْأَدَابِ

(١) أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْحَقَائِقِ لَمْ تَبْلُغْ دَرَجَةَ الْوُضُوحِ إِلَّا بَعْدَ التَّجَرُّبَةِ الْمُتَكَثِّرَةِ كَقَوْلِنَا: وَجُودُ الدُّخَانِ يَدُلُّ عَلَى وَجُودِ النَّارِ، وَوُجُودُ النَّهَارِ يَدُلُّ عَلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ فَإِنَّهُ لَوْلَا التَّجَرُّبَةُ لَمَا كَانَ بَدِيعِيًّا، أَجَلْ، هُنَاكَ حَقَائِقُ بَدِيعِيَّةٌ بِالذَّاتِ، لَا بِالْوَاسِطَةِ، كَقَوْلِنَا: هَذَا إِنَّمَا مَوْجُودٌ، وَإِنَّمَا مَسْغُومٌ. (منه يه)

وَالْفُتُونُ، وَفِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ هُوَ مَبْدَأُ عَالَمِي تَعَتَّقُهُ الْمَلَائِكِينَ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، وَفِي كُلِّ عُنْصُرٍ وَلَوْنٍ، وَقَدْ يُوجَدُ إِنْسَانٌ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ فِي قَارَةِ مِنَ الْقَارَاتِ، أَوْ فِي زَمَنٍ مِنَ الْأَزْمَانِ، أَوْ فِي لَوْنٍ مِنَ الْأَلْوَانِ، أَمَّا أَنْ لَا يُوجَدُ مُؤْمِنٌ وَاحِدٌ إِطْلَاقًا فَلَمْ يَقُلْ بِهِ قَائِلٌ، أَوْ يَهْزُلُ بِهِ هَازِلٌ.

العالم مع الدليل:

العالم واحد من ثلاثة إمَّا أَنْ يَثْبُتَ عِنْدَهُ الدَّلِيلُ عَلَى وَجُودِ الشَّيْءِ فَيَعْتَقَدُ بِوُجُودِهِ، وَإِمَّا أَنْ يَقُومَ الدَّلِيلُ عَلَى عَدَمِهِ فَيَعْتَقَدُ بِالْعَدَمِ، وَإِمَّا أَنْ لَا يَكُونَ دَلِيلٌ عَلَى الْإِيجَابِ وَالسَّلْبِ فَيَشْكُ، وَلَا يَعْتَقَدُ بِشَيْءٍ، فَعَلَيْهِ وَالْحَالُ هَذِهِ، أَنْ يَبْحَثَ وَيَفْحَصَ عَنِ الدَّلِيلِ... أَمَّا مَنْ يَجْزَمُ بِالْعَدَمِ لِشَيْءٍ إِلَّا لَعَدَمِ الدَّلِيلِ عَلَى الْوُجُودِ فَهُوَ جَاهِلٌ... لِأَنَّ عَدَمَ الدَّلِيلِ لَيْسَ بِدَلِيلٍ عَلَى الْعَدَمِ الْوَاقِعِ، إِذْ قَدْ يُوجَدُ، وَلَمْ نَطْلُعْ عَلَيْهِ.

وَالْيَكُ هَذَا الْمِثَالُ: إِذَا دَخَلْتَ دَارًا، وَرَأَيْتَ فِيهِ إِنْسَانًا جَارَ لَكَ أَنْ تَقُولَ: فِي الدَّارِ إِنْسَانٌ، وَإِذَا دَخَلْتَهُ، وَلَمْ تَرَ أَحَدًا، وَلَمْ تَسْمَعْ صَوْتًا صَحَّ مِنْكَ الْقَوْلُ: لَيْسَ فِي الدَّارِ إِنْسَانٌ، وَإِذَا لَمْ تَدْخُلِ الدَّارَ قَطَّ فَلَيْسَ لَكَ أَنْ تَثْبُتَ أَوْ تَنْفِي، وَإِنَّمَا عَلَيْكَ أَنْ تَبْحَثَ وَتَسْأَلَ الْعَارِفِينَ، فَإِذَا أَتَبَتَ وَجُودَ الْإِنْسَانِ، أَوْ نَفَيْتَهُ مِنَ الدَّارِ، وَالْحَالُ هَذِهِ، فَأَنْتَ جَاهِلٌ مُتَسَرِّعٌ.

وَمِنْ هُنَا لَمْ يَدْعِ أَحَدٌ وَجُودَ بَيِّنَةٍ عِلْمِيَّةٍ عَلَى عَدَمِ وَجُودِ اللَّهِ، لِأَنَّ إِقَامَةَ هَذِهِ الْبَيِّنَةِ أَكْثَرُ مِنْ مَحَالٍ - إِنْ صَحَّ التَّعْبِيرُ - إِذْ لَا شَيْءَ خَطِيرٌ أَوْ حَقِيرٌ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ غَيْرُ مَوْجُودٍ، إِذَا لَمْ تَقُلْ بِأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَيْهِ بِالذَّاتِ - إِذَنْ - لَا أَحَدٌ أَحَقُّ بِمَنْ يَنْفِي

وَجُودَ اللَّهِ، أَوْ يَدْعِي وَجُودَ الْبَيِّنَةِ عَلَى النَّفْيِ... حَتَّى الْمُشَكَّكِ الْمُتَوَقِّفِ لَوْ أَلْقَى
نَظْرَةً وَاحِدَةً بَتَّامِلٍ وَإِمْعَانٍ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ يَمُرُّ بِعَالَمِهِ لِتَحْوِيلِ شَكِّهِ إِلَى يَقِينٍ،
وَتَرَدُّدِهِ إِلَى إِيْمَانٍ بِاللَّهِ الْقَدِيرِ الْعَلِيمِ.

أَيُّهَا الْمُشَكَّكُ:

أَيُّهَا الْمُشَكَّكُ الْمُتَرَدِّدُ فِي وَجُودِ اللَّهِ أَلْقِ نَظْرَةً وَاحِدَةً عَلَى مَا شِئْتَ مِنْ هَذَا
الْعَالَمِ خَطِيرًا كَانَ أَوْ حَقِيرًا، وَتَأَمَّلْهُ جَيِّدًا، فَسَيَكْشِفُ لَكَ عَنْ وَجُودِ اللَّهِ بِجَلَاءٍ،
عَلَى شَرِيْطَةٍ أَنْ تَأْخُذَ عَلَى عَاتِقِكَ مَسْئُولِيَّةَ الْبَحْثِ بِجِدٍّ وَعَنَائَةٍ... وَلَا أُجَسِّمُكَ
التَّأَمُّلَ فِي الْخُطُوطِ الْعَرِيضَةِ، وَالْأَدْلَةَ الْعَامَّةَ عَلَى وَجُودِ اللَّهِ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ، وَلَا أَعْمَالَ الْفِكْرِ فِي الْأَقْسَسَةِ الْمُنْطَقِيَّةِ، وَالْإِلْزَامَاتِ الْعَقْلِيَّةِ، كَمَا فَعَلْتَ
فِي كِتَابِ «اللَّهُ وَالْعَقْلُ» وَكِتَابِ «فَلَسَفَةُ الْمَبْدَأِ وَالْمَعَادِ»، لَا أُجَسِّمُكَ شَيْئًا مِنْ
ذَلِكَ، وَإِنَّمَا أَرْغَبُ إِلَيْكَ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى تَارِيخِ حَيَاتِكَ، وَتُلْقِيَ نَظْرَةً عَلَى مَا مَرَّ بِكَ
مِنْ أَحْدَاثٍ خَاصَّةٍ، فَتَسْتَرَى أَشْيَاءَ وَأَشْيَاءَ لَا تَجِدُ لَهَا تَفْسِيرًا إِلَّا بِوَجُودِ اللَّهِ
وإِرَادَتِهِ تَبَارَكَتْ أَسْمَاؤُهُ... فَإِنَّهُ جَلَّ وَعَزَّ قَدْ أَعْطَى كُلَّ نَفْسٍ أَدْلَةً خَاصَّةً عَلَى
وَجُودِهِ لَا يُشَارِكُهَا فِيهَا أَحَدٌ، تَمَامًا كَبَصْمَةِ الْإِنْهَامِ، وَمَلَامَحِ الْوَجْهِ الَّتِي تُعَيِّرُهُ عَنْ
النَّاسِ أَجْمَعِينَ، حَتَّى عِنْدَ الْوَلَدِ وَوَلَدِهِ، هَذَا، بِالْإِضَافَةِ إِلَى الْأَدْلَةِ الْعَامَّةِ الَّتِي
يَشْتَرِكُ فِيهَا الْعُقَلَاءُ عَلَى السَّوَاءِ.

مِنْ الْأَدْلَةِ الْخَاصَّةِ:

وَبَقِيَتْ أَمْدًا غَيْرَ قَصِيرٍ أَبْحَثُ عَنْ هَذِهِ الْأَدْلَةِ وَالْأَمْثَلَةِ فِي حَيَاةِ النَّاسِ، وَأَتَّبِعُ

الْكُتُبِ وَالصُّحُفِ، حَتَّى أَطْلَعْتُ عَلَى الْكَثِيرِ:

مِنْهَا: أَنَّ شَابًا مِنْ صَعِيدِ مَضَرَ تَزَوَّجَ فَتَاةً، وَبَعْدَ الزَّوْاجِ بِتِسْعَةِ أَشْهُرٍ وَلَدَتْ طِفْلَيْنِ، وَبَعْدَ فِتْرَةٍ قَصِيرَةٍ حَمَلَتْ وَوَضَعَتْ طِفْلَيْنِ آخَرَيْنِ، فَأَصْبَحَ فِي الْبَيْتِ أَرْبَعَةُ أَطْفَالٍ فِي أَقْلٍ مِنْ سَنَتَيْنِ، وَسُرْعَانَ مَا حَمَلَتْ لِلْمَرَّةِ الثَّلَاثَةِ، وَكَانَ الزَّوْجُ فَقِيرًا رَقِيقَ الْحَالِ، فَأَسْتَشَاطَ الْأَبُ غَضَبًا، وَخَافَ أَنْ تَلِدَ طِفْلَيْنِ، وَيَحْتَوِي بَيْتُهُ عَلَى سِتَّةِ أَطْفَالٍ... فَأَقْسَمَ بِالطَّلَاقِ إِذَا وَلَدَتْ هَذِهِ الْمَرَّةَ اثْنَيْنِ، وَبَكَتِ الْمَرْأَةُ بُكَاءَ حَارًّا خَوْفًا مِنَ الْفِرَاقِ، وَلَكِنَّمَا مَا أُنْتَمَتْ أَشْهُرُ الْحَمْلِ، حَتَّى وَلَدَتْ ثَلَاثَةَ أَطْفَالٍ^(١).

وَأَصْبَحَتِ الْيَمِينُ لَعْوًا، لِأَنَّهَا وَقَعَتْ عَلَى اثْنَيْنِ، فَجَاءَتِ الْمَرْأَةُ بِثَلَاثَةٍ... وَمَاذَا صَنَعَ الرَّجُلُ بَعْدَ هَذِهِ التَّجَرِبَةِ؟... أَنَّهُ عَادَ إِلَى رُشْدِهِ، وَرَجَعَ إِلَى رَبِّهِ وَقَالَ: أَنْكَ يَا إِلَهِي لَا تُضَادَّ وَلَا تُعَانِدْ، فَاسْتَغْفِرْكَ، وَأَتُوبُ إِلَيْكَ، وَكَانَ مِنْ نَتِيجَةِ إِنَابَتِهِ وَتَوْبَتِهِ أَنْ أَعْدَقَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَلْوَانًا مِنَ الرِّزْقِ وَالْخَيْرِ، مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ.

و «مِنْهَا»: أَنَّ فَتَاةً غَرِيبَةً، أَسَمَهَا «مَای باولز»^(٢) خُلِقَتْ كَسِيحَةً لَا تَسْتَطِيعُ الْمَشْيَ، وَقَدْ أَحَبَّهَا ابْنُ الْجِيرَانِ، وَتَقَدَّمَ لِحُطْبَتِهَا، وَأَسْرَعَتْ الْفَتَاةُ لِأُمِّهَا تَرْفِ الْبُشْرَى، وَلَكِنْ الْأُمُّ أَغْرَقَتْ فِي الْبُكَاءِ، لِأَنَّ الْأَطِبَّاءَ قَالُوا لَهَا: أَنَّ أَبْنَتَهَا إِذَا تَزَوَّجَتْ فَلَنْ تُرْزَقَ بِأَوْلَادٍ، وَأَنَّهَا سَتَعِيشُ طَوَالَ عُمْرِهَا عَاقِرًا... فَقَالَتِ الْأُمُّ لِابْنَتِهَا: يَجِبُ أَيُّ تَصَارُحِي الشَّابِ بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ.

وَقَالَتِ الْفَتَاةُ: وَلَكِنِّي سَأُصَلِّي كُلَّ لَيْلَةٍ، وَأَطْلُبُ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَمُنِّحَنِي أَوْلَادًا.

(١) أنظر، كتاب مُقَارَنَةِ الْأَدْيَانِ لِأَحْمَدَ شَلْبِي: ج ٣، (مِنْهُجَةٌ).

(٢) أنظر، جَرِيدَةُ الْأَخْبَارِ الْمَضَرِّيَّةِ (عَدَد ٢٤ أَيْار سَنَةِ ١٩٦٤ م)، (مِنْهُجَةٌ).

قَالَتْ لَهَا الْأُمُّ: لَا تَتَعَلَّقِي بِأَمَالٍ كَاذِبَةٍ، لَقَدْ أَكَّدَ أَكْبَرُ الْأَخْصَائِيِّينَ أَنَّكَ سَتَعِيشِينَ عَاقِرًا، وَمِنَ السَّدَاجَةِ أَنْ تَتَشَبَّهِي بِالسَّمَاءِ، يَجِبُ أَنْ يَعْرِفَ خَطِيْبُكَ الْحَقِيقَةَ كَامِلَةً.

وَصَارَحَتِ الْفَتَاةُ الشَّابَّ بِرَأْيِ كِبَارِ الْأَخْصَائِيِّينَ، فَأَصَرَ عَلَى الزَّوَّاجِ. وَبَعْدَ أَنْ تَمَّ كَانَتْ الْكَسِيحَةُ تَدْعُو رَبَّهَا فِي كُلِّ لَيْلَةٍ، وَتَقُولُ: إِلَهِي حَرِّمْتَنِي نِعْمَةَ الْمَشْيِ، فَهَلْ يُرْضِيكَ، أَنْ تَحْرِمَنِي نِعْمَةَ الْأُمُومَةِ الَّتِي تَتَمَتَّعُ بِهَا مَلَائِكَةُ الْأُمَمَاتِ اللَّائِي يَمْشِينَ عَلَى أَقْدَامِهِنَّ؟. أُنْعِطِي غَيْرِي النُّعْمَتَيْنِ، وَلَا تُعْطِنِي وَاحِدَةً مِنْهُمَا. وَاسْتَمَرَّتْ تَدْعُو هَذَا الدُّعَاءَ مِنْ أَعْمَاقِ قَلْبِهَا مُدَّةَ أَرْبَعَةِ عَشَرَ عَامًا لَا تَكُلْ وَلَا تَمَلْ، وَلَا تَقْتَرْ وَلَا تَقْنَطْ وَتَيَاسُ، وَبَعْدَ هَذِهِ السَّنَوَاتِ الطَّوَالِ وَضَعَتْ ثَلَاثَةَ أَوْلَادٍ فِي حَمْلِ وَاحِدٍ، وَعَاشُوا جَمِيعًا بِكَامِلِ الصَّحَّةِ وَالْعَافِيَةِ.

و« مِنْهَا »: أَنَّ رَجُلًا لُبْنَانِيًّا هَاجَرَ قَبْلَ الْحَرْبِ الْعَالَمِيَةِ الْأُولَى إِلَى أَمِيرِكَا طَلَبًا لِلرِّزْقِ كَثِيرٍ مِنَ اللَّبْنَانِيِّينَ، وَلَدَى وَصُولِهِ إِلَيْهَا لَمْ يَجِدْ وَسِيلَةً لِلْعَيْشِ إِلَّا أَنْ يَحْمِلَ بَعْضَ الْأَدَوَاتِ الْخَفِيفَةِ كَالْمَحَارِمِ وَفَرَشَاتِ الْأَسْنَانِ وَيَتَجَوَّلَ فِي الْأَسْوَاقِ وَالشُّوَارِعِ. يَغْرِضُهَا عَلَى الْمَارَّةِ، وَلَكِنَّهُ أَخْفَقَ فِي مِهْنَتِهِ، حَتَّى ضَاقَتْ عَلَيْهِ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ مَرَّ بِهِ خُورِي، فَعَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يَشْتَغَلَ خَادِمًا فِي الْكَنِيسَةِ لِقَاءَ دُولَارَيْنِ فِي الْيَوْمِ، فَطَارَ فَرَحًا، وَلَبَّى شَاكِرًا.

وَبَعْدَ يَوْمَيْنِ أَكْتَشَفَ الْخُورِي أَنَّ الرَّجُلَ أُمِّي لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ، فَطَرَدَهُ، وَقَالَ: ظَنَنْتُكَ مُتَعَلِّمًا... فَعَادَ الْمَسْكِينُ إِلَى مِهْنَتِهِ الْأُولَى... وَلَكِنَّهُ بِمَرُورِ الْأَيَّامِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَفْتَحَ حَائِوَتًا صَغِيرًا، ثُمَّ اتَّسَعَتْ تِجَارَتُهُ، حَتَّى أَصْبَحَ مِنْ أَصْحَابِ الْمَلَائِكَةِ، وَالْمُسَاهِمِينَ فِي أَعْظَمِ الْبُنُوكِ وَأَغْنَى الشَّرَكَاتِ.

وَصَادَفَ أَنْ دُعِيَ إِلَى إِجْتِمَاعِ هَامَ عَقْدِهِ الرِّاسَالِيُّونَ الْكِبَارُ، وَمُدْرَاءُ الْبَنُوكِ، فَحَضَرَ مَعَهُمْ، وَبَعْدَ أَنْ اتَّخَذُوا قَرَارَاتٍ تَتَّصِلُ بِمِهْنَتِهِمْ عَرَضَ عَلَيْهِ الرَّئِيسُ أَنْ يُوقَعَ، فَقَالَ لَهُ: أَنَا أُمِّي، فَتَعَجَّبَ الْجَمِيعُ، وَقَالُوا لَهُ: هَذَا لَا يَكُونُ أَبَدًا... فَقَالَ: لَوْ كُنْتُ أَقْرَأُ وَأَكْتُبُ لَكُنْتُ الْآنَ كَنَاسًا فِي الْأَدِيرَةِ وَالْكَنَائِسِ، وَلَمَّا تَسْنَى لِي الْحُضُورُ مَعَكُمْ.

و« مِنْهَا »: أَنَّ شَابَا مُتَوَسِّطَ الثَّقَافَةِ وَالثَّرَاءِ تَزَوَّجَ مِنْ فَتَاةٍ أَحْلَامَهُ، وَبَعْدَ أَنْ رُزِقَ مِنْهَا طِفْلَةً حَمَلَتْ وَوَضَعَتْ طِفْلَةً ثَانِيَةً، وَلَمْ يُحْسِنِ الْأَبُ اسْتِقْبَالَ الثَّانِيَةِ، وَحَمَلَتْ لِلْمَرَّةِ الثَّالِثَةِ^(١)، وَوَضَعَتْ طِفْلَةً كَذَلِكَ، وَأَظْهَرَ الرَّجُلُ مِنْ سَخَطِهِ مَا كَانَ قَدْ كَتَمَهُ فِيمَا سَبَقَ، وَلَمْ يَرْضَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ وَرَزَقَ، وَحَمَلَتْ الْمَرْأَةُ لِلْمَرَّةِ الرَّابِعَةِ، وَلَكِنَّمَا وَضَعَتْ ذَكَرًا، فَقَامَتِ الزَّيِّنَاتُ وَدَقَّتِ الطَّبُولُ، وَأَتَجَهَّتِ الْعِنَايَةُ بِالطِّفْلِ دُونَ الْبَنَاتِ، وَلَكِنْ لَمْ تَمُضِ الْأَيَّامُ، حَتَّى تَبَيَّنَ أَنَّ فِي الطِّفْلِ دَاءً لَا دَوَاءَ لَهُ، وَكَانَ الْإِبْنُ مُضْطَرُّ شَقَاءِ الْأَبِ، وَمَبْعَثُ أَلَمِهِ، وَتَمَنَّى أَلْفَ مَرَّةٍ وَمَرَّةٍ لَوْ أَرَادَهُ اللَّهُ مِنْهُ... أَمَّا الْفَتَيَاتُ فَكُنَّ لِأَبِيهِنَّ وَأُمَمِهِنَّ مُضْطَرُّ الْيَمْنِ وَالسَّعَادَةِ.

(١) حِينَ كَانَ الشَّيْخُ الْكَاشَانِيُّ الشَّهِيرَ، بَلْبَنَانُ سَأَلَتْهُ: كَمْ لَكَ مِنَ الْأَوْلَادِ؟

قَالَ: عِنْدِي عَشْرُ بَنَاتٍ، وَقَدْ أَسَمَيْتِ الْعَاشِرَةَ «الْعَاشِرَةَ». وَغَيْرَ يَبْعِيدُ أَنْ يَكُونَ السَّبَبُ فِي تَسْمِيَةِ زَابِعَةِ الْقَدَوِيَّةِ بِهَذَا الْإِسْمِ أَنَّهَا كَانَتْ زَابِعَةً أَخَوَاتِهَا. (مِنْهُ ﷺ).

أَعْطِ الزَّمَنَ فُرْصَةَ^(١)

أَدَارَتْ لَهُ الدُّنْيَا ظَهْرَهَا فِي عِنَادٍ وَإِصْرَارٍ !.

كُلُّ أَبْوَابِ الرِّزْقِ أُغْلِقَتْ فِي وَجْهِهِ . كَانَ النِّحْسُ يُلَازِمُهُ كَظْلِهِ ! الذَّهَبُ يَتَحَوَّلُ فِي يَدِهِ إِلَى تُرَابٍ . كُلُّ عَمَلٍ أَلْتَحَقَ بِهِ فَشَلَّ فِيهِ . كُلُّ مُحَاوَلَةٍ لِلوُصُولِ إِلَى النَّجَاحِ أَتَتْهُ بِالْخَيْبَةِ ! كَانَ يَغِيشُ بِلَا طَعَامٍ وَلَا حُبٍّ وَلَا أَمَلٍ ! وَتَحَطَّمَتِ أَعْصَابُهُ وَنُقِلَ إِلَى مُسْتَشْفَى الْمَجَازِيبِ ، وَلَكِنِ الْأَطْبَاءَ حَيَّبُوا أَمَلَهُ . قَالُوا لَهُ إِنَّهُ لَيْسَ مَجْنُونًا ، وَأَخْرَجُوهُ مِنَ الْمُسْتَشْفَى ، وَأَضَاعُوا مِنْهُ فُرْصَةَ النَّوْمِ عَلَى سَرِيرٍ وَتَنَاوَلَ وَجَبَاتِ الطَّعَامِ مَجَانًا فِي مَوْعِدِهَا !.

وَأَقْنَنَعَ بِأَنَّهُ جَرَّبَ كُلَّ شَيْءٍ وَفَشَلَ فِي كُلِّ شَيْءٍ ! شَعَرَ أَنَّ الدُّنْيَا لَمْ تَعُدْ تَتَّسِعْ لَهُ . أَحَسَّ أَنَّهُ يَزْحَمُ الدُّنْيَا بِلَا مُبَرَّرٍ ، وَأَنَّ مِنْ وَاجِبِهِ أَنْ يُقَلِّلَ زُحَامَهَا وَيَخْتَفِيَ مِنْهَا !.

وَأَمْسَكَ مُسَدِّسَهُ ، وَخَلَّ فَوْهَتَهُ بَيْنَ شَفَتَيْهِ ، وَضَغَطَ عَلَى الزَّنَادِ ! وَلَمْ تَنْطَلِقِ الرِّصَاصَةُ !.

وَضَغَطَ بِقُوَّةٍ مَرَّةً أُخْرَى عَلَى زَنَادِ الْمُسَدِّسِ ، فَلَمْ تَنْطَلِقِ الرِّصَاصَةُ !.

(١) مِنْ كِتَابِ دُعَاءِ أَلَمِيٍّ صَاحِبِ جَرِيدَةِ الْأَخْبَارِ الْمِصْرِيَّةِ . (مِنْهُ ﷺ) .

وَأَغْرَقَ فِي الضَّحْكَ ! لَقَدْ فَشَلَ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى فِي الْإِنْتِحَارِ !
وَحَظَرَ لَهُ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ أَنْ يُعْطِيَ الزَّمَنَ فُرْصَةً أُخْرَى ! لَقَدْ عَانَدَهُ الزَّمَنُ عِدَّةَ
سَنَوَاتٍ ، حَارَبَهُ فِي رِزْقِهِ وَحَطَمَ آمَالَهُ وَدَاسَ عَلَى كِبَرِيَّاتِهِ . وَمَعَ ذَلِكَ فَلَيْسَتْ تَنْتَظِرُ
بِضَعَةِ أَصَابِيحٍ ، فَقَدْ يَتَذَكَّرُهُ الْحَظُّ ، فَيَعُودُ إِلَيْهِ وَيَدُقُّ بَابَهُ !
وَتَذَكَّرُهُ الْحَظُّ وَهُوَ يَعُودُ حَوْلَ الدُّنْيَا ! أَصْبَحَ بَعْدَ سَنَوَاتٍ أَشْهَرَ رَجُلٍ فِي الْعَالَمِ ،
وَأَصْبَحَ بَعْدَ سَنَوَاتٍ أُخْرَى مِنْ أَصْحَابِ الْمَلَائِكِينَ !
هَلْ تَعْرِفُ أَسْمَ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي كَانَ قَدْ يُقَرَّرُ الْإِنْتِحَارُ ؟ أَنْ أَسْمَهُ مُوَرِّيسَ
شِفَالِييهِ الْمُغْنِي الْفَرَنْسِيِّ الَّذِي يَعِيشُ فِي ذَاكَرَتِكَ وَهُوَ يَضْحَكُ دَائِمًا !
إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ الضَّاحِكَ النَّاجِحَ عَاشَ سَنَوَاتٍ وَسَطَ الدَّمُوعِ وَالْفَقْشَلِ ! . وَيَتَسَّسُ
فِي لَحْظَةٍ مِنَ اللَّحْظَاتِ كَمَا يَبْأَسُ مَلَائِكَةُ الشُّبَّانِ ! وَلَكِنَّهُ أُعْطِيَ الزَّمَانَ فُرْصَةً ...
فَعَادَ لَهُ الْحَظُّ وَدَقَّ بَابَهُ !
أَعْطَى أَيْضًا الزَّمَنَ فُرْصَةً أُخْرَى !

صَانِعُ الْمُصَادَفَاتِ^(١)

وَقَعَتْ سَيَّارَةٌ فِي حُفْرَةٍ، وَرَاحَ سَائِقُهَا الْعَجُوزُ يُحَاوِلُ دَفْعَهَا دُونَ جَدْوَى!
وَمَرَّ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ أَحَدُ رِجَالِ الدِّينِ وَرَأَى السَّائِقَ وَهُوَ يَتَصَبَّبُ عَرْقًا،
فَسَأَلَهُ: هَلْ أَشْتَطِيعُ أَنْ أَسَاعِدَكَ!.

وَأَجَابَ السَّائِقُ: هَلْ عِنْدَكَ طَرِيقَةٌ لِإِخْرَاجِ السَّيَّارَةِ مِنَ الْحُفْرَةِ؟
فَفَكَّرَ رَجُلُ الدِّينِ قَلِيلًا ثُمَّ قَالَ: أَتَجِدُ إِلَى السَّمَاءِ... وَقُلْ «يَا رَبِّ»!
وَأَغْرَقَ السَّائِقُ فِي الضَّحْكَ وَقَالَ: وَهَلْ سَيَّرَ لِي اللهُ مَلَكَامِنَ السَّمَاءِ وَمَعَهُ
«وَنَشْ»؟.

فَقَالَ رَجُلُ الدِّينِ: إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ!
وَأَنْصَرَفَ رَجُلُ الدِّينِ، وَعَادَ السَّائِقُ يُحَاوِلُ دَفْعَ السَّيَّارَةِ مِنَ الْحُفْرَةِ الَّتِي
وَقَعَتْ فِيهَا...

وَرَفَضَتْ السَّيَّارَةُ أَنْ تَتَحَرَّكَ!
وَلَمَّا تَعَبَ السَّائِقُ أَلْتَفَتَ إِلَى السَّمَاءِ وَقَالَ: يَا رَبِّ سَاعِدْنِي!
وَلَمْ تَفْتَحْ أَبْوَابَ السَّمَاءِ! لَمْ يَهْبِطْ مِنْ بَيْنِ السُّحُبِ مَلَكَ بِالْبَارِأَشُوتِ يَحْمِلُ

(١) مِنْ كِتَابِ دُعَاءِ أَمِينٍ صَاحِبِ جَرِيدَةِ الْأَخْبَارِ الْمِصْرِيَّةِ. (مِنْهُ ﷺ).

وَنَشَأُ!.

وَعَادَ السَّائِقُ يُحَاوِلُ دَفْعَ السَّيَّارَةِ... وَهِيَ تَرْفُضُ الْحَرَكَةَ! وَفُجْأَةً مَرَّتْ عَرَبَةٌ لُورِي تَحْمِلُ وَنَشَأُ لِحَمْلِ السَّيَّارَاتِ الْمُعْطَلَةِ!.

وَتَوَقَّفتْ أَمَامَ السَّيَّارَةِ الْمُعْطَلَةِ، وَنَزَلَ سَائِقُهَا، وَرَفَعَ السَّيَّارَةَ مِنَ الْحُفْرَةِ!.

وَرَكَعَ السَّائِقُ الْعَجُوزَ عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَقَالَ وَالْذَّمُوعُ فِي عَيْنَيْهِ: شُكْرًا يَا رَبِّ! لَمْ أَكُنْ أَتَصَوَّرُ أَنَّ «الْخِدْمَةَ» فِي السَّمَاءِ بِهَذِهِ السَّرْعَةِ!.

وَأَرْسَلَ السَّائِقُ الْعَجُوزَ قِصَّتَهُ إِلَى الصُّحُفِ؟! وَأَهْتَمَّتْ إِحْدَى الْجَرَائِدِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ بِهَا وَأَرْسَلَتْ تَحْقِيقَهُ. سَأَلَتْ رَجُلَ الدِّينِ إِنْ كَانَ قَدْ أَرْسَلَ عَرَبَةَ الْإِنْفَازِ فَنَفَى ذَلِكَ. وَسَأَلَتْ الْمُتَنَقِّذَ إِنْ كَانَ أَحَدٌ أَتَصَلُ بِهِ وَأَبْلَغُهُ عَن حَادِثِ السَّيَّارَةِ، فَأَكَّدَ أَنَّهُ مَرَّ أَمَامَهَا بِمَحْضِ الصَّدَقَةِ!.

وَقَدْ يَكُونُ مَرُورَ عَرَبَةِ الْإِنْفَازِ مُجَرَّدَ صِدْقَةٍ؟.

وَلَكِنْ مَنْ الَّذِي يَصْنَعُ هَذِهِ الْمُصَادَفَاتِ؟.

مَنْ الَّذِي يَتَحَكَّمُ فِي «الصَّدَقَةِ» وَيُنْظِمُهَا وَيُرْتَبِهَا؟.

إِنَّهُ اللَّهُ!.

وَبَعْدَ، فَإِنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ لَوْ تَنَبَّهَ، وَرَاجَعَ سِيرَتَهُ، وَتَأَرَّخَ حَيَاتِهِ لَوَجَدَ حَوَادِثَ وَحَوَادِثَ قَدْ مَرَّتْ بِهِ لَا تُفَسَّرُ بِنَظَرِيَّةِ دَارُون، وَلَا بِنَظَرِيَّةِ نِيُوتِن، وَلَا بِنَظَرِيَّةِ أَنْشْتَيْن، وَلَا بِشَيْءٍ إِلَّا بِإِزَادَةِ اللَّهِ وَمَشِئَتِهِ.

وَنَقُولُ: إِذَا أَرْجَعْنَا الْحَادِثَةَ الطَّبِيعِيَّةَ إِلَى سَبَبٍ غَيْرِ طَبِيعِي فَإِنَّ مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهَا مُعْجَزَةٌ.

قُلْتُ: فَلَتَكُنْ مُعْجَزَةٌ خَاصَّةٌ لَأَعَامَةِ لَجَمِيعِ النَّاسِ، بَلْ أَقَامَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ،

لَتَكُونَ حُجَّةً عَلَى صَاحِبِهَا بِالذَّاتِ إِذَا جَحَدَ وَأَنْكَرَ، هَذَا بِالْإِضَافَةِ إِلَى الْأَدَلَّةِ الْعَامَّةِ، وَمِنْهَا مَا أَشَارَ إِلَيْهِ أَنْشَتَيْنِ بِقَوْلِهِ: «هَذَا التَّنَاسُقُ الْعَجِيبُ بَيْنَ قَوَائِنِ الطَّبِيعَةِ، وَمَا يُخْفِي مِنْ عَقْلِ جَبَّارٍ لَوْ اجْتَمَعَتْ كُلُّ أَفْكَارِ الْبَشَرِ إِلَى جَانِبِهِ لَمَا كَوْنَتْ غَيْرَ شُعَاعِ ضَبِيلٍ أَقْرَبَ الْقَوْلِ فِيهِ أَنَّهُ لَا شَيْءَ».

وَنُخْتِمُ الْفَصْلَ بِمَا ذَكَرَهُ الدُّكْتُورُ مُحَمَّدٌ غَالِي، قَالَ: أَنَّ أَيْنِسْتَايْنِ الْعَالِمَ الشَّهِيرَ، وَصَاحِبَ نَظَرِيَةِ النَّسَبِيَّةِ كَتَبَ بِخَطِّ يَدِهِ أَنَّهُ حَصَلَ لَهُ حَادِثٌ هَامٌ، وَهُوَ فِي الرَّابِعَةِ أَوِ الْخَامِسَةِ مِنْ عُمُرِهِ، ذَلِكَ أَنَّ أَبَاهُ أَعْطَاهُ بَوْصَلَةً لِيَلْهَوْهَا، فَلَا حَظَّ الطِّفْلُ إِلَّا تَجَاهُ الثَّابِتِ لِأَبْرَثَتِهَا الَّتِي تَعُودُ إِلَيْهِ مَهْمَا أَدَارَهَا، فَأَكْتَشَفَ بِفِطْرَتِهِ الصَّافِيَةِ أَنَّ شَيْئًا وَرَاءَ ذَلِكَ^(١).

وَمَعْنَى هَذَا أَنَّ التَّكَرَّارَ عَلَى وَبَيْرَةٍ وَاحِدَةٍ يُبْطِلُ الْمُضَادَّةَ وَأَنَّ قَانُونَ السَّبَبِيَّةِ غَرِيزَةٌ، حَتَّى فِي نَفُوسِ الْأَطْفَالِ... وَإِذَا اسْتَنْتَجَ الطِّفْلُ أَنَّ وَرَاءَ نِظَامِ الْبُوصَلَةِ الصَّغِيرَةِ مُنْظَمٌ فَأَحْرَى أَنْ يَسْتَنْتَجَ الْعَاقِلُ مِنْ نِظَامِ الْعَالَمِ وَجُودَ الْمُنْظَمِ.

وَإِذَا صَرَفْنَا النَّظَرَ عَنِ الْأَدَلَّةِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ عَلَى وَجُودِ اللَّهِ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ نَذْهَلَ أَوْ تَتَجَاهَلَ أَنَّ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ مَعْنَاهُ الْإِيمَانُ بِالْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَالْجَمَالِ، وَالْعَدَالَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالْحِكْمَةِ، وَأَنَّ الْكَوْنَ صَادِرٌ عَنْ قَضَدٍ وَإِرَادَةٍ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ مَسْئُولٌ عَنْ أَعْمَالِهِ أَمَامَ قَادِرٍ عَادِلٍ، وَأَنَّ عَدَمَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ مَعْنَاهُ عَدَمُ الْإِيمَانِ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ... فَأَحْثَرَ لِنَفْسِكَ أَيُّهُمَا شِئْتَ.

(١) أنظر، مجلَّة التَّجَلَّةِ الْمِصْرِيَّةِ عَدَدُ أَيْلُولِ سَنَةِ (١٩٦٣م): ٧٥ بِقَلَمِ الدُّكْتُورِ مُحَمَّدٍ غَالِي. (مِثْنُ ١).

الإنسان رُوح لا جسد

أضلّان أساسيان:

تَرْتَكِزُ الأديان السّماوية على دَعَامَتَيْنِ: وجود الله، وخلود الرّوح، ومَعْنَى خُلُود الرّوح بقاءها حيّة بعد انحلال الجسد وفساده، وهَذَانِ الأضلّان هُمَا الحَجَرُ الأوّل في أساس الدّين وَعَنْهُمَا تَتَفَرّعُ سائر الأُصول والمبادئ، حتّى الإيمان بالأنبياء والرّسل، والكتب المقدّسة، إذ الإيمان بأنّ الله رَسولاً وكتاباً يُفْتَرَضُ مُسَبِّقاً للإيمان بوجود الله جَلَّ وَعَزَّ: «لأنّ ثبوت شيءٍ لشيءٍ فَرَعَ ثبوت المُثبت له»^(١).

وإذا يُؤمن الإنسان بالله، أو آمن به، وأنكر خلود الرّوح لم يكن مُسْلِماً ولا نصرانيّاً ولا يهوديّاً.

الدّليل:

أمّا الدّليل على هَذَيْنِ الأضلين، أي وجود الله، وخلود الرّوح فقد دَخَلَ فِي مَرَاحِلَ شَتَّى، وَتَطَوَّرَ مَعَ أسباب المعرفة... فقد كان أوّل ما كان الفِطْرَةُ وَالوَحْيُ،

(١) انظر، كتاب القضاء للشّيخ الأشتياني: ٣٠، مُسْتَمْسِكُ الرُّوْةِ الوُثْقَى للسّيّد مُحْسِنِ الْحَكِيم: ١٣٦/١.

ثُمَّ الْفَلَسَفَةُ وَالْعَقْلُ، وَالْأَقْيَسَةُ الْمُنْطَقِيَّةُ الَّتِي نَقَرَّاهَا فِي رَسَائِلِ الْفَارَابِيِّ، وَكُتِبَ
أَبْنُ سِينَا، وَأَبْنُ رُشْدٍ، وَالطُّوسِي، الْغَزَالِي، وَالشَّيْرَازِي، وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْفَلَسَفَةِ
وَعُلَمَاءِ الْكَلَامِ، وَلَا شَيْءَ مِنْهَا يَمْتَسِبُ إِلَى الْمَعْرِفَةِ التَّجْرِبِيَّةِ وَالْعِلْمِ الْمُعْمَلِي،
أَيِ الْمَأْخُوذِ مِنَ الْمُعْمَلِ وَالْأَرْقَامِ الْمَادِيَّةِ الْمَحْسُوسَةِ الْمَلْمُوسَةِ.

التَّجْرِبَةُ:

أَمَّا الْآنَ، وَبَعْدَ أَنْ أَصْبَحَتِ التَّجْرِبَةُ هِيَ السَّبَبُ الْمُعْتَمَدُ لِلْمَعْرِفَةِ عِنْدَ عُلَمَاءِ
الطَّبِيعَةِ فَهَلْ تَدُلُّ التَّجْرِبَةُ عَلَى وَجُودِ اللَّهِ، وَخُلُودِ الرُّوحِ، أَوْ أَنَّهَا أَجْنَبِيَّةٌ عَنْهُمَا
وَعَنِ الدَّلَالَةِ عَلَيْهِمَا؟

وإِلَى الْأَمْسِ الْقَرِيبِ كَانَ جَوَابُ عُلَمَاءِ الطَّبِيعَةِ عَلَى هَذَا السُّؤَالِ أَنَّ الدِّينَ
بِمَعْنَاهِ التَّأْرِيخِي وَالتَّقْلِيدِي يُنَاقِضُ جَمِيعَ الْحَقَائِقِ الْعِلْمِيَّةِ، لِأَنَّهَا تَقُومُ عَلَى
التَّجْرِبَةِ وَمُشَاهَدَةِ الطَّبِيعَةِ وَأَشْيَائِهَا، وَضِمْنَ حُدُودِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ عَلَى الْعَكْسِ
مِنْ مَبَادِيءِ الدِّينِ الَّتِي تَرْتَكِزُ عَلَى الْغَيْبِيَّاتِ، وَمَا فَوْقَ الطَّبِيعَةِ، وَتَتَجَاوَزُ حُدُودَ
الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ... وَمَعَ هَذَا التَّبَايُنِ يَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمَا طَرِيقًا لِمَعْرِفَةِ
الْآخَرِ.

وَهَذَا الْقَوْلُ كَمَا تَرَى - لَا يَعْدُو الْغَيْبَ، لِأَنَّهُ نَظَرِيَّةٌ مُجَرَّدَةٌ عَنِ التَّجْرِبَةِ
وَالْمُشَاهَدَةِ - إِذَنْ - هُوَ إِبْطَالٌ لِلْغَيْبِ بِمَنْطِقِ الْغَيْبِ. وَلِلْمَعْرِفَةِ النَّظَرِيَّةِ بِالْمَعْرِفَةِ
النَّظَرِيَّةِ، وَبِالتَّالِيِ اسْتِدْلَالٌ عَلَى إِنْكَارِ الشَّيْءِ بِنَفْسِ الْإِعْتِرَافِ بِهِ، تَمَامًا كَمَا لَوْ
قُلْتُ: هَذَا الشَّيْءُ مَعْدُومٌ، لِأَنَّهُ مُوجُودٌ، وَبِاطِلٌ لِأَنَّهُ صَحِيحٌ.

وَبَعْدَ أَنْ أَعْرَضَ عُلَمَاءُ الطَّبِيعَةِ، وَأَنْكَرُوا أَنْ يَكُونَ الْعِلْمُ وَالتَّجَارِبُ سَبِيلًا

لَمَعْرِفَةِ وجودِ الله، وَخُلُودِ الرُّوحِ عَادُوا، وَأَعْتَرَفُوا مُؤْمِنِينَ بِأَنَّ التَّجَرُّبَةَ الْعِلْمِيَّةَ قَدْ أَثْبَتَتْهُمَا وَذَلَّتْ عَلَيْهِمَا بِطَرِيقَةٍ لَا تَقْبَلُ الشَّكَّ، ذَلِكَ أَنَّ عَدَدًا كَبِيرًا مِنَ الْعُلَمَاءِ الْمُبْرَزِينَ قَدْ أَجْرَوْا الْكَثِيرَ مِنَ الْبَحْثِ عَلَى مَنْهَجِ عِلْمِي سَلِيمٍ، فَأَدَّتْ بِهِمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ إِيمَانًا مُسْتَمَدًّا مِنَ التَّجَارِبِ الَّتِي حَقَّقُوهَا بِأَنْفُسِهِمْ.

وَمُنْذَ عَهْدٍ قَرِيبٍ ظَهَرَ كِتَابُ أَسْمُهُ «اللهُ يَتَجَلَّى فِي عَصْرِ الْعِلْمِ» فِيهِ مَقَالَاتٌ لَأَكْثَرِ مِنْ ثَلَاثِينَ عَالِمًا مِنْ عُلَمَاءِ الْغَرْبِ الْكِبَارِ يُثَبِّتُونَ فِيهِ وَجُودَ اللهِ بِالْمَعْرِفَةِ الْعِلْمِيَّةِ، وَقَدْ نَقَلَ هَذَا الْكِتَابَ إِلَى اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَلَخَصْتُ الْكَثِيرَ مِنْهُ فِي فَضْلِ مِنْ فُصُولِ كِتَابِ «فَلَسَفَةِ الْمَبْدَأِ وَالْمَعَادِ» بِنَفْسِ الْعُنْوَانِ، أَمَّا خُلُودُ الرُّوحِ وَبَقَاؤُهَا بَعْدَ الْمَوْتِ فَقَدْ أَلَفَ فِيهِ الْعُلَمَاءُ الْجَدِّدَ كُتُبًا كَثِيرَةً تُعَدُّ بِالْآلَافِ لَا بِالْمِائَاتِ، وَبِكُلِّ لُغَةٍ، يَقْتَنِعُ بِهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِالْوَحْيِ، وَلَا بِالْفَلَسَفَةِ، وَلَا بِشَيْءٍ إِلَّا بِالتَّجَرُّبَةِ وَحْدَهَا، وَبِكَلِمَةٍ أَنَّ هَذِهِ الْكُتُبَ الْحَدِيثَةَ تَنَاسَبَ كُلُّ إِنْسَانٍ لَأَنَّ بَرَاهِينَهَا عِلْمِيَّةٌ، وَمُؤَلَّفِيهَا مِنْ أَفْضَلِ رُؤَادِ الْعُلُومِ الْمَادِيَةِ الَّذِينَ أَثْبَتُوا إِصَالَتهُ فِي مَجَالِ التَّجْرِبِ، وَمَثَلُوا مُسْتَوًى خَاصًّا مِنَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ. (إِقْرَأْ كِتَابَ الْإِنْسَانِ رُوحٌ لَا جَسَدٌ) الَّذِي نُشِيرُ إِلَيْهِ فِيمَا يَلِي:

العلم الروحي الحديث:

لَيْسَ الْمُرَادُ مِنَ الْعِلْمِ الرُّوحِيِّ الْحَدِيثِ عِلْمُ النَّفْسِ الَّذِي يُعْبَرُ عَنْهُ بِالسِّيكُولُوجِيَا وَإِنَّمَا الْمُرَادُ مِنْهُ مَا يَشْمَلُ ثُبُوتَ الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَاتِّصَالَ الْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ وَسَمِّيَ عِلْمًا؛ لِأَنَّ الْعُلَمَاءَ قَدْ أَشْتَعَمَلُوا فِيهِ نَفْسَ الْبَحْثِ وَالْأُسْلُوبِ الَّذِي أَشْتَعَمَلُوهُ فِي ظَوَاهِرِ الطَّبِيعَةِ، وَأَدَّى إِلَى نَتَائِجِ عِلْمِيَّةٍ مَلْمُوسَةٍ

تَمَامًا كَتَائِبُ الْعُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ، وَوَصَفُوهُ بِالْحَدِيثِ، لِأَنَّ الْبَحْثَ الْعِلْمِيَّ فِي خُلُودِ الرُّوحِ لَمْ يَكُنْ مَعْرُوفًا مِنْ قَبْلُ، وَإِنْ كَانَ الْإِيمَانُ بِهِ قَدِيمًا يُقَدِّمُ الْإِنْسَانَ، وَبَعْدَ أَنْ تَمَكَّنَ الْعُلَمَاءُ مِنْ اسْتِعْمَالِ الْوَسَائِلِ الْعِلْمِيَّةِ، وَالْأَدَوَاتِ الْفَنِّيَّةِ لِمَعْرِفَةِ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ اعْتَبَرُوا الْعِلْمَ بِهَا عِلْمًا جَامِعِيًّا، وَأَشَادُوا لَهُ الْكَلِمَاتِ، وَأَقَامُوا الْمَعَاهِدَ وَالْمُؤَسَّسَاتِ، وَخَصَّصُوا لَهُ الْجُمُعِيَّاتِ وَالْهَيَّاتِ، وَالْجَرَائِدَ وَالْمَجَلَّاتِ.

كِتَابٌ جَدِيدٌ:

آمَنْتُ مِنَ التَّجَارِبِ الْمُتَكَرِّرَةِ الَّتِي مَرَّرْتُ بِهَا فِي حَيَاتِي أَنَّ الْعِلْمَ وَالرَّغْبَةَ، وَالْعَافِيَةَ، وَالرَّفَاقَةَ، كُلُّ هَذِهِ وَمَا إِلَيْهَا لَيْسَتْ بِشَيْءٍ إِذَا لَمْ يُحَالِفَهَا التَّوْفِيقُ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَإِلَيْكَ قِصَّةُ هَذِهِ التَّجَرُّبَةِ الْأَخِيرَةِ، أَوْ قِصَّةُ هَذَا الْفَصْلِ مِنْ أَوَّلِهَا:

وَضَعْتُ هَذَا الْكِتَابَ عَلَى تَصْمِيمٍ سَابِقٍ، وَهُوَ حَمَلُ الْقَارِيءِ تَلَقُّائِيًّا، وَبِدُونِ أَفْسَسَةٍ عَقْلِيَّةٍ، وَادِّلَّةٍ أَدَبِيَّةٍ... عَلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ، وَخُلُودِ الرُّوحِ، وَالْعَمَلِ فِي سِيرِهِ وَسُلُوكِهِ بِوَحْيٍ مِنْ هَذَا الْإِيمَانِ، وَأَسْتَطَعْتُ أَنْ أَجْمَعَ الْفَصْلَ السَّابِقَ طَائِفَةً مِنْ حَوَادِثٍ فَرْدِيَّةٍ مُبَعَثَةٍ هُنَا وَهُنَا لَا تُفَسِّرُ لَهَا إِلَّا بِوُجُودِ اللَّهِ وَحِينَ أَرَدْتُ الشَّرُوعَ بِهَذَا الْفَصْلِ، وَالِاسْتِدْلَالَ عَلَى خُلُودِ الرُّوحِ، وَبَقَائِهَا بَعْدَ مَوْتِ الْجَسَدِ فَكَّرْتُ مَاذَا أَصْنَعُ؟ هَلْ أَذْكَرُ الْأَدْلَةَ الْعَقْلِيَّةَ وَالْأَدَبِيَّةَ الَّتِي ذَكَرْتُهَا فِي مُؤَلَّفَاتِي السَّابِقَةِ وَأُكْرِرُهَا بِتَغْيِيرٍ آخَرَ؟. وَهَذَا خِلَافُ التَّصْمِيمِ الَّذِي يَهْدَفُ إِلَى إِشْعَالِ شَمْعَةٍ جَدِيدَةٍ فِي هَذَا السَّبِيلِ.

وَبَقِيَتْ فِي خَيْرَتِي هَذِهِ إِلَى أَنْ فَتَحَ اللَّهُ الطَّرِيقَ مِنْ حَيْثُ لَا أَحْتَسِبُ.. ذَلِكَ أَنَّ مِنْ عَادَتِي أَنْ أَقْرَأَ الصُّحُفَ الصَّبَاحِيَّةَ، وَالْمَسَائِيَّةَ بِإِنْتِظَامٍ، اللَّبَنَانِيَّةَ مِنْهَا

والشورية والمضريّة، وفي مساء (١٩٦٤/٩/٦ م) اضطررتُ إلى زيارة صاحب كريم مصطاف في حمانا، وكُنْتُ قَدْ خَصَصْتُ هَذَا الْوَقْتُ بِالذَّاتِ مِنْ كُلِّ يَوْمٍ لِقَرَاءَةِ صُحُفِ الْمَسَاءِ، وَعُدْتُ إِلَى بَيْتِي مِنَ الزِّيَارَةِ، فِي وَقْتٍ مُتَأَخِّرٍ، وَقُلْتُ فِي نَفْسِي: «بَلَّاش» صُحِفَ فِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ... وَهَلْ هِيَ صَلَاةٌ مَفْرُوضَةٌ؟. وَلَكِنْ سُرْعَانَ مَا أَحْسَسْتُ بِخَافِزٍ مِنْ دَاخِلٍ يَلْحَ عَلَيَّ بِالذَّهَابِ إِلَى بِحْمَدُونَ^(١) لِشِرَاءِ الصُّحُفِ، وَلَمْ أَلْبَثُ أَنْ اسْتَسَلَمْتُ لَهُ، وَكَانَ الْخَيْرُ فِي هَذَا الْاسْتِسْلَامِ، حَيْثُ قَرَأْتُ فِيهَا عَنْ كِتَابٍ ظَهَرَ حَدِيثًا فِي نَحْوِ (٧٠٠ صَفْحَةً)، اسْمُهُ «الْإِنْسَانُ رُوحٌ لَا جَسَدٌ» فَخِيلَ إِلَيَّ أَنِّي سَاجِدٌ فِيهِ بُغْيَتِي، وَإِنَّهُ يَخْرِجُنِي مِنْ حَيْرَتِي، وَعَلَى الْأَقْلِ يَفْتَحُ لِي الطَّرِيقَ، أَوْ يُسَلِّطُ الْأَضْوَاءَ عَلَيْهِ، وَالْمُؤَلَّفُ هُوَ الدَّكْتُورُ رَوْوَفُ عُبَيْدُ أَسْتَاذٌ فِي كَلِيَّةِ الْحُقُوقِ. جَامِعَةُ عَيْنِ شَمْسٍ بِالْقَاهِرَةِ، وَقَدْ عَكَّفَ عَلَى وَضْعِهِ وَتَأْلِيفِهِ خَمْسَةَ عَشَرَ عَامًا، وَكَانَ الْمُؤَلَّفُ مِنْ قَبْلِ يَرَى أَنَّ خُلُودَ الرُّوحِ خَرَافَةٌ وَهَرَاءٌ، كَمَا جَاءَ فِي مُقَدِّمَةِ الْكِتَابِ، وَلَكِنَّهُ بَعْدَ الْإِطْلَاعِ الْكَافِي، وَالْعَنَاءِ الطَّوِيلِ أَقْنَعَ بِأَنَّ بَقَاءَ الرُّوحِ حَيَّةٌ بَعْدَ الْمَوْتِ حَقٌّ لَا رَيْبَ فِيهِ، فَالَّفَ هَذَا الْكِتَابَ لِإثْبَاتِهِ بِالْبُرْهَانِ الْعِلْمِيِّ خِدْمَةً لِلْحَقِيقَةِ.

وَتَكَلَّمْتُ الصُّحُفَ الْمَضْرِيَّةَ عَنْ هَذَا الْكِتَابِ، وَأَشَادَتِ بِبَحْثِهِ الْعِلْمِيَّةِ الدَّقِيقَةِ، وَبِمَا قَدَّمَهُ مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْوَقَائِعِ، وَهَنَأَتِ الْمُؤَلَّفَ عَلَى فَوْزِهِ وَنَجَاحِهِ، وَمِمَّا قَالَهُ الْأُسْتَاذُ الْمَعْرُوفُ أَحْمَدُ الصَّاوِي فِي جَرِيدَةِ الْأَخْبَارِ (١٩٦٤/٩/٦ م): «أَهْنِي الدَّكْتُورَ رَوْوَفَ عُبَيْدٍ فِي إِضْدَارِ هَذَا الْكِتَابِ الْقِيمِ

(١) أَضْطَافٌ فِي هَذِهِ السَّنَةِ (١٩٦٤ م) فِي بَلَدَةِ قَرْيَبَةِ مِنْ بِحْمَدُونَ، اسْمُهَا الْقَرْيَةِ، مُصَنَّرٌ قَرْيَةً.

بما بذله خلال (١٥ سنة) من الصبر الجميل ، والعكوف على درس كل ما كتب ونشر في عدة لغات في شئون الروح متبعا حتى آخر لحظة في يومنا هذا ما صدر في شرق أو غرب ، ولم يدع شاردة أو واردة إلا سجلها في كتابه الضخم الفخم .»

قرأت هذا ، فعشت الكتاب ، وشوقت إلى قراءته بالوصف والخبر ، وبعد عناء البحث والفحص حصلت على نسخة منه ، فألفيته كما قال الأستاذ الصاوي ، وإلى القراء هذه المقتطفات :

علم الروح يصبح جامعيًا:

إن دراسة العلم الروحي الحديث لا تقوم على الحدس والتخيل ، ولا على الوحي والنقل ، ولا على العقل المجرد فقط ، بل هي جزء لا يتجزأ من دراسة قوانين الطبيعة ، والمادة الصلبة ، وتحولها إلى طاقة ، وتحول الطاقة إليها ، ودراسة النظرية النسبية ، ومعدلاتها الرياضية ، ودراسة نظرية الاهتزاز وأمواج الأثير ، بل أن دراسة خلود الروح وبقائها بعد الموت تقوم أيضاً على علوم جديدة ناشئة ، مثل الفيزياء الروحية ، والكيمياء الروحية ، والفلسفة الروحية ، وعلم تأثير العقل على المادة ، وغير ذلك لذا يجد الباحث العلمي في الأرواح مشقة كبرى ، إن لم يزود بمقدار كافٍ في الثقافة في فروع شتى من العلوم الحديثة .

بعض الأسماء:

ومن أبرز العلماء الذين اكتشفوا خلود الروح ، وآمنوا به كحقيقة واقعة « وليام

كَرُوكس» رَئِيسَ المَجْمَعِ العِلْمِيِّ البَرِيطَانِي، و«وليام باريت» الَّذِي أَنشَأَ جُمُعِيَّةَ البَحْثِ الرُّوْحِيِّ فِي بَرِيطَانِيَا، «ولورد زايلي» أَسْتَاذَ الطَّبِيعَةِ التَّجْرِبِيَّةِ فِي جَامِعَةِ كَمْبَرِيدج، و«اوليفر لودج» وَهُوَ مِنْ أَقْوَى عُلَمَاءِ الطَّبِيعَةِ فِي القَرْنِ العِشْرِينَ، وَالدَّكْتُور «جون هتنجر»، وَالدَّكْتُور «الكساندر كانون» و«بيير كوري» أَشْهُرُ عُلَمَاءِ الرَّادِيُومِ إِطْلَاقاً، وَالعَالِمُ الإِلَزَاسِي «شارل هنري» الَّذِي كَانَ يُدِيرُ مَعْمَلَ فُسْيُولُوجِيَا الإِنْفِعَالَاتِ بِالسُّورْبُون، وَ«دَادَسُو نيفال» عَضْوَا أَكَادِمِيَةِ الطَّبِّ، وَالأُسْتَاذُ بِالكُولِيجِ دِي فَرَانْس، وَرَئِيسُ المَعْمَدِ العامِّ لِلتَّيْكُولُوجِيَا، وَالدَّكْتُور «جان لهرميت» الأُسْتَاذُ بِكَلِّيَةِ الطَّبِّ بِتَارِيس، إِلَى غَيْرِ هَؤُلَاءِ مِنْ مِثَالِ العُلَمَاءِ وَالمُفَكِّرِينَ وَالأُدَبَاءِ الَّذِينَ جَاءَ ذِكْرُهُمْ فِي كِتَابِ «الإنسان رُوح لا جسد» وَقَدْ أَنتَهَوْا جَمِيعاً مِنْ تَجَارِبِهِمْ فِي المَعْمَلِ إِلَى الإِثْبَاتِ العِلْمِيِّ لَخُلُودِ الرُّوحِ، وَالحَيَاةِ بَعْدَ المَوْتِ.

بَيِّنَاتُ وَوَقَائِعُ:

وَنَقَلَ الدَّكْتُورُ عُبَيْدُ فِي كِتَابِ «الإنسان رُوح لا جسد» اتِّصَالَاتَ شَتَّى مَعَ أَرْوَاحِ الأَمْوَاتِ، وَدَعَمَهُمَا بِالْأَرْقَامِ الَّتِي لَا تَقْبَلُ الشَّكَّ، نَقَلَهَا عَنْ مُؤَلَّفَاتِ لِأَشْهُرِ عُلَمَاءِ الغَرْبِ، وَأَبْرَزَ رَجَالَاتِهِ فِي مِيدَانِ العِلْمِ، وَلَا يَتَسَعُ هَذَا الفَضْلُ لِذِكْرِهَا أَوْ ذِكْرِ شَيْءٍ مِنْهَا، وَمَنْ أَرَادَهَا فَلْيَرْجِعْ إِلَى الكِتَابِ، أَوْ إِلَى مَا أَشَارَ إِلَيْهِ مِنَ المَرَاجِعِ المَوْثُوقِ بِقِيَمَتِهَا العِلْمِيَّةِ.

وَأَيْضاً أَشَارَ الدَّكْتُورُ عُبَيْدُ إِلَى رَمِيلٍ لَهُ فِي القَاهِرَةِ يَخْدُمُ الآنَ بِكُلِّ إِخْلَاصٍ قَضِيَّةَ عِلْمِ الرُّوحِ الْحَدِيثِ، وَهُوَ الدَّكْتُورُ عَلِيٌّ عَبْدُ الجَلِيلِ رَاضِي المُدْرَسِ بِكَلِّيَةِ

العلوم، وَلَهُ عِدَّةُ مُؤَلَّفَاتٍ قِيَمَةٌ مِثْلُ «الْعَالَمِ غَيْرِ الْمَنْظُورِ» أَوْ «أَرْوَاحُ مُرْسَلَةٍ» وَ«سَفِيرِ الْأَرْوَاحِ الْعُلْيَا» وَ«أَضْوَاءُ عَلَى الرُّوحِيَّةِ» كَمَا نَقَلَ إِلَى اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ كِتَابُ «ثَلَاثُونَ سَنَةً بَيْنَ الْمَوْتَيْنِ» لِلطَّبِيبِ الْأَمْرِيكِيِّ «كَلَالِ وَيْكَانْد» وَقِصَّةُ «أَوَّلِ فِرْعَوْنَ».

وَجَاءَ فِي كَلِمَةِ الْأُسْتَاذِ الصَّاوِي النَّبِيِّ أَشْرُنَا إِلَيْهَا أَنَّ الدُّكْتُورَ رَاضِيَّ أَرْسَلَ إِلَيْهِ رِسَالَةً قَالَ فِيهَا:

أَنَّ لَدَيْهِ الْآنَ كِتَابًا أَسْمُهُ «تَعَالَى مَمْلَكَةُ اللَّهِ» وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ رِسَائِلَ تَلَقَّاهَا مِنْ أَحَدِ الْأَمْوَاتِ الْمُؤَلِّفِ الْإِنْجِلِيزِيِّ «أَثَرِ جَرِيفْس»، وَقَدْ مَضَى عَلَى هَذَا الْكِتَابِ حَوَالِي عِشْرِينَ سَنَةً - نَحْنُ الْآنَ فِي سَنَةِ (١٩٦٤ م) - وَمِمَّا جَاءَ فِي هَذَا الْكِتَابِ بِلِسَانِ رُوحِ الْمَيِّتِ أَنَّ الْإِنْجِلِيزِ سَيَطْرُدُونَ مِنْ مَصْرَ وَقَنَاةِ السُّوَيْسِ، وَأَنَّ الْيَهُودَ سَيَحْتَلُونَ فَلَسْطِينَ، ثُمَّ يَطْرُدُونَ مِنْهَا.

وَقَدْ تَحَقَّقَ ذَلِكَ، وَمِنْ هَذَا يَنْبَغِي أَنَّ الرُّوحَ تَبَقِيَ حَيَّةً بَعْدَ مُفَارَقَتِهَا الْجَسَدِ، وَأَنَّ بَامْكَانَهَا أَنْ تَشْهَدَ بِالْعَدْلِ عَمَّا يَخْذُلُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ. وَهَكَذَا تَدْعُمُ الْمَعَاهِدُ وَالْجَامَعَاتُ الْحَدِيثَةَ فِي أُرُوبَا، وَأَمْرِيكََا رِسَالَةُ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ وَجَّهُوا الْبَشَرِيَّةَ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَخُلُودِ الرُّوحِ.

وَلَيْسَ مِنَ الْعِلْمِ فِي شَيْءٍ أَنْ يُنْكَرَ الْمُكَابِرُ الْحَقِيقَةَ لِمُجْرَدِ أَنَّ الدِّينَ يُشْبِثُهَا، وَأَنَّهُ لَا يُرِيدُ أَنْ يَقْرَأَ، يَسْمَعُ أَيَّ شَيْءٍ يَتَّصِلُ بِالْدِّينِ، حَتَّى وَلَوْ أَثْبَتَهُ الْعُلَمَاءُ بِالْبُرْهَانِ، وَالْحِسِّ وَالْعَيْنِ، وَمَهْمَا يَكُنْ، فَإِنَّ تَصَافِرَ الْأَدَلَّةِ الْعِلْمِيَّةِ عَلَى خُلُودِ الرُّوحِ كَفِيلٌ بِأَنْ يَجْعَلَ أَقْوَالَ الْمُنْكَرِينَ وَالْمُعَانِدِينَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ.

وَصَفَ الْحَيَاةَ بَعْدَ الْمَوْتِ

تَنَاقَلَ وَصَفَ الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَوْتِ كُتِبَ تُعَدُّ بِالْمِائَاتِ ، وَضَعَهَا أَغْلَامُ الْعِلْمِ فِي أَوْرَبَا وَأَمْرِيكَا ، ذَكَرَ أَسْمَاءَهُمْ وَمُؤَلَّفَاتِهِمُ الدَّكْتُورُ عُيَيْدُ فِي كِتَابِ «الْإِنْسَانُ رُوحٌ لَاجَسَدٍ» .

وَأَوَّلُ مَا يُلْفَتُ النَّظَرُ هُوَ التَّوَافُقُ وَالتَّطَابُقُ الْمَلْمُوسُ إِلَى أْبْعَدِ مَدَى فِي الْأَوْصَافِ الَّتِي جَاءَتْ فِي الْمُؤَلَّفَاتِ الْحَدِيثَةِ عَنِ عَالَمِ الرُّوحِ ، رَغْمَ كَثَرَتِهَا ، وَتَعَدُّدِ الْمُؤَلِّفِينَ ، وَاخْتِلَافِ أَزْمَنَتِهِمْ ، وَتَبَايُنِ اللُّغَاتِ الَّتِي كُتِبَتْ بِهَا ، وَلَوْ كَانَ مَا قَالُوهُ بَاطِلًا لَوْجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ، وَإِنْ دَلَّ هَذَا التَّوَافُقُ عَلَى شَيْءٍ فَإِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَكْثَشَافَ تِلْكَ الصِّفَاتِ كَانَ بِالْعِلْمِ لَا بِالْوَهْمِ ، وَبِالْحِسِّ لَا بِالْحَدْسِ ، وَأَنَّ الَّذِينَ أَكْثَشَفُوهَا قَدْ سَلَكَوا طَرِيقَ الْحَيْطَةِ وَالْحَذَرِ ، كَمَا أَنَّ هَذَا التَّوَافُقَ فِي الصِّفَاتِ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالَّذِينَ دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى أَنَّ الدِّينَ مِنَ خَالِقِ الْكَوْنِ وَالْإِنْسَانِ ، لَا مِنْ وَضَعِ الْإِنْسَانِ . نَذَكُرُ فِيمَا يَلِي طَرَفًا مِنْ تِلْكَ الْأَوْصَافِ الَّتِي اتَّفَقَ عَلَيْهَا أَقْطَابُ الْعِلْمِ الْحَدِيثِ :

١- أَنَّ الْأَرْوَاحَ فِي الْآخِرَةِ لَا تَتَخَيَّلُ وَلَا تَتَصَوَّرُ أَشْيَاءَ وَهْمِيَّةَ أَبَدًا لَا فِي الْيَقِظَةِ ، وَلَا فِي الْمَنَامِ ، بَلْ تَحْيَا حَيَاةَ الْحَقِّ وَالْوَاقِعِ فِي جَمِيعِ شُؤْنِهَا وَحَالَاتِهَا ، وَكُلُّ مَا تَقُولُهُ ، وَتَفْعَلُهُ ، وَتَتَصَوَّرُهُ حَقٌّ لَا رَيْبَ فِيهِ .

٢- أَنَّ مُدُنَ الْجَنَّةِ مُتَفَاوِتَةٌ فِي جَمَالِهَا، وَلَكِنَّهَا عَلَى كُلِّ خَالٍ أَجْمَلُ مِنْ مُدُنِ الدُّنْيَا إِلَى أَنْ سُكَّانَ الدَّرَجَةِ الثَّلَاثَةِ يَتَحَدَّثُونَ عَنِ الْمُدُنِ الْكُبْرَى مِثْلَ لَسْدَنْ، وَبَارِيسَ وَنِيُورِكَ وَكَمَا لَوْ كَانَتْ حَقِيرَةً تَافِهَةً وَبُنَايَاتِهَا عِبَارَةً عَنْ فِيلَاتٍ تُحِيطُ بِهَا حَدَاقُ مُتَرَامِيَةِ الْأَطْرَافِ... وَلَيْسَ هُنَاكَ صَخْبٌ وَلَا ضَجِيجٌ يَصْمُ الْأُذَانَ وَلَا غُبَارٌ وَدُخَانٌ .

٣- أَنَّ السَّفَرَ فِي الْجَنَّةِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى وَسَائِلِ النَّقْلِ كَالطَّائِرَةِ وَالْبَاخِرَةِ وَالسَّيَّارَةِ فَكُلُّ مَنْ أَرَادَ السَّفَرَ إِلَى مَكَانٍ يُوجَدُ فِيهِ حَالًا دُونَ أَنْ يَحْسَ وَيَشْعُرَ وَلِذَا لَا أَثَرَ هُنَاكَ لِمَشْكَلَةِ عَرَقَةِ السَّيْرِ .

٤- أَنَّ الْعَقْلَ فِي الْجَنَّةِ يَكُونُ فِي أَوْجِ نَشَاطِهِ وَأَنْطِلَاقِهِ، وَلَهُ تَأْثِيرٌ عَجِيبٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ بِحَيْثُ يُكَيِّفُ الْمَادَّةَ فِي الصُّورَةِ الَّتِي يَشَاءُ بِلاَ وَاسِطَةِ الْمَعْمَلِ وَالْأَدَوَاتِ الْفَنِيَّةِ .

٥- أَنَّ الْأَزْهَارَ، وَالْأُورَادَ، وَالْفَوَاكِهَ، وَالْأَشْجَارَ تُوْجَدُ بِدُونِ بَذَرٍ، وَغَرَسٍ، وَحَرَثٍ، وَسَقْيٍ وَتَبَرُّزٍ إِلَى الْوُجُودِ تِلْقَائِيًّا تَامَةً كَامِلَةً بِمُجَرَّدِ أَنْ يُرِيدَهَا الْإِنْسَانُ لِذَلِكَ، وَهَكَذَا الْقُصُورُ وَالْفِيلَاتُ لَا يَحْتَاجُ وَجُودَهَا إِلَى مُهَنْدِسٍ، وَبُنَاةٍ، وَعَمَالٍ، بَلْ تُوْجَدُ بِالْإِزَادَةِ فَقَطْ وَإِلَى هَذَا يُشِيرُ الْحَدِيثُ الْقُدْسِيُّ: «عَبْدِي أَطْعَمَنِي تَكُنْ مِثْلِي، تَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ»^(١). أَيِ أَطْعَمَنِي فِي الدُّنْيَا تَكُونُ لَكَ هَذِهِ الْمَكَانَةُ فِي الْآخِرَةِ .

٦- أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَا يَجُوعُونَ أَبَدًا، وَهُمْ بِالتَّالِيِ لَا يَسْتَحَاجُونَ إِلَى الطَّعَامِ،

(١) انظر، مُشْتَدِّدُ الشَّيْخَةِ لِلْمُحَقِّقِ الرَّافِيِّ: ٦/١، الْفَوَائِدُ الرَّجَالِيَّةُ لِلشَّيْخِ بَخْرِ الْمُلُومِ: ٣٩/١، أَبُو طَالِبٍ حَامِي الرُّسُولِ لِنَجْمِ الدِّينِ الْعَشْكِرِيِّ: ١٨٥، الْإِمَامُ عَلِيُّ لِأَخْمَدَ الرَّحْمَانِيِّ: ٣٦٢.

وَلَكِنْ إِذَا أَحَبَّ أَحَدُهُمْ أَنْ يَأْكُلَ فَيُمْكِنُهُ ذَلِكَ، وَيُوجَدُ الطَّعَامُ الْمُخْتَارَ بِمُجَرَّدِ
الْإِرَادَةِ وَيُدُونُ حَاجَةً إِلَى طَبْنِخٍ وَنَفْخٍ، وَبِهَذَا نَطَقَتِ الْآيَةُ: «إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا
وَلَا تَعْرَى»^(١).

٧- لِلْأَجْسَامِ هُنَاكَ نَفْسٌ مَظْهَرُهَا الْخَارِجِيُّ الَّذِي كَانَ لَهَا فِي الدُّنْيَا، وَالشَّابُّ
يَبْقَى عَلَى شَبَابِهِ، وَالشَّيْخُ يَرْجِعُ إِلَى صَبَاهُ، وَيَتَّفَقُ هَذَا مَعَ الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ:
«لَيْسَ فِي الْجَنَّةِ شَيْخٌ وَلَا عَجُوزٌ»^(٢).

٨- يَلْتَنِمُ شَمْلُ الْأُسْرَةِ مِنْ جَدِيدٍ، وَإِذَا رَغَبَ اثْنَانِ فِي الْعَيْشِ مَعًا فَلَهُمَا ذَلِكَ،
وَالصَّلَاتُ الزَّوْجِيَّةُ هُنَاكَ تُخْتَصَرُ عَلَى عَاطِفَةِ الْحُبِّ فَقَطْ.

٩- لَا يُوجَدُ فِي الْجَنَّةِ زَلْزَلٌ وَلَا بَرَائِكِينَ وَلَا أَعَاصِيرٌ وَلَا أَمْطَارٌ وَعَوَاصِفٌ،
وَتُوجَدُ رِيَّاحٌ نَاعِمَةٌ هَادِئَةٌ، وَغَيْومٌ خَفِيفَةٌ تَحْمِلُ الطَّلَّ، وَالْمِيَاةُ كَثِيرَةٌ وَعَذْبَةٌ،
وَمِنْ خَوَاصِّهَا الْبَلَلُ لَا يَحْدُثُ بُمْلًا مَسْتَهًا.

١٠- لَا يَحْتَاجُ الْإِنْسَانُ هُنَاكَ مِنَ اللُّغَاتِ وَاللَّهْجَاتِ، إِذْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَغْرِفَ
أَفْكَارَ الْآخَرِ، وَكُلَّ مَا يَدُورُ بِخُلْدِهِ بِمُجَرَّدِ أَنْ يَرَاهُ وَيَنْظُرَ إِلَيْهِ.

١١- كُلُّ نَفُوسٍ أَهْلُ الْجَنَّةِ طَاهِرَةٌ مُقَدَّسَةٌ، يَجْمَعُهَا الْحُبُّ، وَيَرْبِطُ بَيْنَهَا التَّقْوَى
وَالْوَرَعُ.

١٢- لَا رِيَاءَ فِي الْآخِرَةِ، وَلَا كَذِبَ، وَلَا نِفَاقَ، بَلِ الظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ سَوَاءٌ، بَلِ لَا
بَاطِنَ هُنَاكَ مِنَ الْأَسَاسِ.

١٣- لَا تَجَارَةَ، وَلَا شَيْءَ أَشْمَهُ النَّقُودِ وَلَا عُمْلَةً صَغْبَةً أَوْ سَهْلَةً، وَالشَّيْءُ

(١) طه: ١١٨.

(٢) أنظر، الْمُعْجَمَ الْأَوْسَطَ: ٣٥٧/٥ ح ٥٥٤٥، الزُّهْدَ لَهْثَادَ: ٥٨/١ ح ٢٤.

الوَاحِد الَّذِي يُنَظِّمُ عِلَاقَاتِ النَّاسِ بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ هُوَ التَّعَاطُفُ وَالصَّفَاءُ
وَالتَّأَلُّفُ .

١٤ - تُوجَدُ فِي الْجَنَّةِ حَيَوَانَاتٌ تَشَبَّهُ حَيَوَانَاتِ الدُّنْيَا، وَلَكِنْ الْمُفْتَرَسَةُ مِنْهَا
تَفْقَدُ رَغْبَتَهَا فِي الْإِفْتِرَاسِ وَالتَّوَحُّشِ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ بِحَاجَةٍ إِلَى الطَّعَامِ، وَهِيَ هُنَاكَ
لِمُجَرَّدِ الزَّيْنَةِ .

أَمَّا أَهْلُ النَّارِ فَإِنَّ كُلًّا مِنْهُمْ يُعَاقَبُ حَسَبَ مَا كَانَ قَدْ أُرْتَكِبَ مِنْ ذَنْبٍ، وَيَسْتَمِيرُ
عَذَابَ الْآخِرَةِ عَنْ عَذَابِ الدُّنْيَا بِأُمُورٍ :

« مِنْهَا » : أَنَّ الْمُجْرِمَ لَا يَسْتَطِيعُ مَعْرِفَةَ الْوَقْتِ الَّذِي يَنْتَهِي فِيهِ عَذَابُهُ، كَمَا هِيَ
الْحَالُ فِي الْمَسْجُونِ عِنْدَنَا، وَكُلُّ الَّذِي يَعْرِفُهُ أَنَّهُ يَتَأَلَّمُ مِنْ أَجْلِ الذَّنْبِ الَّذِي أَقْدَمَ
عَلَيْهِ مُخْتَاراً، وَجَهْلُهُ هَذَا بِأَمَدِ الْعَذَابِ يُضَاعَفُ مِنَ آلامِهِ، حَيْثُ تَبْدُو لَهُ أَبَدِيَّةٌ لَا
نَهَايَةَ لَهَا .

وَ « مِنْهَا » : أَنَّ الْجَرِيمَةَ تَبْقَى مَاثِلَةً فِي ذَهْنِ الْمُجْرِمِ أَمَامَ عَيْنَيْهِ بَدُونِ انْقِطَاعٍ
وَلَهُ فِي ذَلِكَ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

وَ « مِنْهَا » : أَنَّ كُلَّ نَفْسٍ هِيَ وَحْدَهَا الْمَسْئُولَةُ عَنْ أَخْطَائِهَا، وَلَا تَحْمِلُ وَزْرَهَا
نَفْسٌ أُخْرَى إِلَّا إِذَا كَانَتْ سَبَباً فِي دَفْعِهَا إِلَى الْخَطِيئَةِ .

وَ « مِنْهَا » : أَنَّ مِنْ عَذَابِ الْمُتَكَبِّرِ أَنْ يَرَى نَفْسَهُ أَحَقَرَ الْجَمِيعِ، وَأَنَّ مَنْ كَانَ
يَحْتَقِرُهُ قَدْ أَصْبَحَ أَعْلَى مِنْهُ مَكَانَةً تُحِيطُ بِهِ أَسْبَابُ الْمَجْدِ وَالْأُبْهَةِ . وَهَذَا عَيْنَ مَا
جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ : « يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ عَلَى هَيْئَةِ الدَّرِّ يَطَّأُهُمُ النَّاسُ
بِأَقْدَامِهِمْ جَزَاءً، وَفَاقاً عَلَى تَعَالِيهِمْ » ^(١) .

(١) انظر: كشف الخفاء: ٥٣٣/٢ ح ٣٢٣٦. تاريخ بغداد: ١٢/٢٩٤ رقم (٦٧٤٠)، حلية الأولياء:

و « مِنْهَا » : أَنْ يُصَافَ إِلَى عَذَابِ الْمُجْرِمِ نَفْسُ الْآلَامِ وَالْمَصَائِبِ الَّتِي تَهْرُبُ مِنْهَا فِي الدُّنْيَا بِفِعْلِ الْحَرَامِ ، وَأَزْتَكَابِ الْمَعَاصِي .

وَبَعْدَ أَنْ ذَكَرَ الْعُلَمَاءُ هَذِهِ الْأَوْصَافَ وَغَيْرَهَا لِأَهْلِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ قَالُوا : أَنَّ اللَّهَ رَحِيمٌ مَا فِي ذَلِكَ رَيْبٍ ، وَلَكِنْ رَحْمَتُهُ جَلَّ وَعَزَّ تَشْمَلُ مَنْ تَابَ وَأَنَابَ مِنْ جَرِيْمَتِهِ ، لَا مِنْ أَسْتَمَرَّ وَأَصْرَ عَلَيْهَا ، لِأَنَّ رَحْمَتَهُ بَصِيرَةٌ تَعْرِفُ طَرِيقَهَا إِلَى مَنْ هُوَ أَهْلٌ لَهَا وَلَيْسَتْ بِعَمِيَاءٍ تَخْبُطُ خَبْطَ عَشَوَاءٍ .

وَعَلَى تَعَدُّدِ الْبُحُوثِ الْعِلْمِيَّةِ وَكَثْرَتِهَا فَقَدْ أُجْمِعَتْ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ عَلَى أَوْصَافِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ الَّتِي جَاءَتْ بِعَيْنِهَا فِي كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ الرَّسُولِ وَآلِهِ الْكَرَامِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ... وَهَكَذَا نَرَى بوضوح أَنَّ خُلُودَ الرُّوحِ بِجَمِيعِ مُلَابَسَاتِهِ يَسْتَنِدُ إِلَى الْعِلْمِ وَالْعَقِيدَةِ مَعًا ، وَأَنَّ الْبَحْثَ الْعِلْمِيَّ وَالتَّجَارِبَ الْوَاقِعِيَّةَ الَّتِي قَامَ بِهَا أَسَاطِينُ الْعُلَمَاءِ فِي هَذَا الْعَصْرِ قَدْ أَدَّتْ إِلَى التَّيَجُّةِ الَّتِي بَشَّرَ بِهَا أَنْبِيَاءُ اللَّهِ وَرُسُلُهُ . وَتَظْهَرُ هَذِهِ الْحَقِيقَةُ أَكْثَرَ وَضُوحًا إِذَا قُرَأَتْ كِتَابُ « الْإِنْسَانُ رُوحٌ لَا جَسَدٌ » لِلدَّكْتُورِ عُبيد ، فَإِنَّ كُلَّ مَا ذَكَرْتُهُ فِي هَذَا الْفَصْلِ هُوَ تَلْخِيسٌ مِنْهُ بِتَصَرُّفٍ فِي الشَّكْلِ وَالصُّورَةِ ، لَا فِي الْمَضْمُونِ وَالْمُحْتَوَى .

وَبِالْتَّالِي فَإِنَّ هَذَا الْكِتَابَ يُقَدِّمُ الْبَيِّنَاتِ وَالْأَرْقَامَ الْمَادِيَّةَ عَلَى أَنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ أَنْكَرَ وَجَّهَ الدِّينِ تَعَصَّبًا لِلْعِلْمِ بِرَعْمِهِ قَدْ أَدْعَنَ فِي النَّهَايَةِ وَأَسْتَسَلَّمَ لِلْحَقِّ ، كَمَا أَدْعَنْتَ لَهُ ، وَأَسْتَسَلَّمْتَ كَنِيْسَةَ الْقُرُونِ الْوَسْطَى بَعْدَ أَنْ أَنْكَرْتَ الْعِلْمَ تَعَصَّبًا لِلدِّينِ

٣٧٠ / ٥ ، تُخَفَّةُ الْأُخُوذِي : ١٦٢ / ٧ ، التَّارِغِيْبُ وَالتَّارِهِيْبُ : ٣ / ٣٥٥ ح ٤٤١٨ ، الْأَدَبُ الْمُفْرَدُ :

١٩٦ / ١ ح ٥٥٧ ، شُعْبُ الْإِيْمَانِ : ٦ / ٢٨٨ ح ٨١٨٥ ، تَفْسِيْرُ الْقُرْطُبِي : ١٥ / ٢٧٤ ، سُنَنِ التِّرْمِذِي :

٦٥٥ / ٤ ح ٢٤٩٢ ، مَجْمَعُ الزَّوَائِدِ : ١٠ / ٣٣٤ ، مُسْتَدْرَأُ خَمْد : ٢ / ١٧٩ ح ٦٦٧٧ ، مُسْتَدْرَأُ الْحَمِيْدِي :

٢٧٢ / ٢ ح ٥٩٨ ، التَّخْوِيْفُ مِنَ النَّارِ : ١ / ٩٠ .

بَرَعَمَهَا، وَالسِّرَ لِهَذَا الْإِذْعَانِ وَالْإِسْتِسْلَامِ مِنَ الْفِتْنَتَيْنِ أَنَّ مَبَادِيءَ الدِّينِ وَأُصُولَهُ
هِيَ حَقَائِقُ وَاقِعِيَّةٌ، تَعَامَاكَ الْحَقَائِقُ الْعِلْمِيَّةُ، وَأَنَّ نَتَائِجَ الْعِلْمِ وَاقِعِيَّةٌ أَيْضًا كَأُصُولِ
الدِّينِ، وَأَنَّ الْعِلْمَ وَالدِّينَ مُتَآزِرَانِ مُتَعَاضِدَانِ بِخَاصَّةٍ فِي الْأُصُولِ الْأُولَى الَّتِي
تَقُومُ عَلَيْهَا الْعَقِيدَةُ، كَالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَخُلُودِ الرُّوحِ.

رُؤَادُ الْفَضَاءِ وَرِسَالَةُ الْأَنْبِيَاءِ

إِذَا أَرَادَ إِنْسَانٌ، أَيْ إِنْسَانٌ أَنْ يُنْكِرَ مَبْدَأَ مِنَ الْمَبْدَإِيِّ، أَوْ يَعْتَرِفَ بِهِ، فَهَلْ يُسَوِّغُ لَهُ أَنْ يُنْكِرَ عِنَادًا، وَيُؤْمِنَ تَقْلِيدًا دُونَ أَنْ يَسْتَنْدَ إِلَى مَنْطِقٍ يَسْتَدْعِي الْإِيمَانَ، أَوْ الْجُحُودَ؟.

وَالْجَوَابُ :

عَنْ هَذَا السُّؤَالِ وَاضِحَ كُلِّ الْوُضُوحِ... أَنَّ النَّضْجَ الْعَقْلِيَّ يُحْتَمُّ عَلَيْهِ أَنْ يَنْبَحَثَ، وَيُضَاعَفَ الْجُهُودُ فِي الْبَحْثِ وَالتَّنْقِيبِ عَنِ الْأَسْبَابِ الْمَوْجِبَةِ لِلْإِعْتِرَافِ، أَوْ الْإِنْكَارِ، وَفِي ضَوْئِهَا يَصْدُرُ حُكْمُهُ سَلْبًا، أَوْ إِنْجَابًا... وَمَتَى تَعَذَّرَتْ عَلَيْهِ مَعْرِفَةُ الْأَسْبَابِ وَعَجَزَ عَنْ اكْتِشَافِ مَعَالِمِ الطَّرِيقِ وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَقِفَ مَوْقِفَ الْمُحَايِدِ لَا يُنْكِرُ وَلَا يَعْتَرِفُ، وَإِلَّا كَانَ جَاهِلًا يُؤْمِنُ أَوْ يُجْدِي مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ، وَبَدِيهَةً أَنَّ الْجَاهِلَ كَأَيْمَانِهِ لَا وَزْنَ لَهُ مِنَ الْوَجْهَةِ الْعِلْمِيَّةِ.

سُؤَالٌ ثَانٍ :

مِنَ الْمَعْقُولِ أَنْ نَبْحَثَ وَنَنْقُبَ عَنِ الْأَسْبَابِ الْمَوْجِبَةِ فِي الْأَشْيَاءِ الْمَادِيَّةِ الَّتِي تَقَعُ تَحْتَ الْحِسِّ وَالتَّجَرُّبَةِ، كَمَا لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَعْرِفَ حَقِيقَةَ الْمَاءِ : هَلْ هِيَ بَسِيطَةٌ كَمَا قَالَ الْقَدَامِيُّ أَوْ مُرَكَّبَةٌ مِنَ الْأَكْسُوجِينَ وَالهَدْرُوجِينَ كَمَا يَقُولُ الْجُدَّدُ، أَمَّا مَا لَا يَقَعُ تَحْتَ الْحِسِّ وَالتَّجَرُّبَةِ، أَمَّا الْأُمُورُ الْغَيْبِيَّةُ، كَوْجُودِ الْخَالِقِ، وَاسْتِمْرَارِ

الْحَيَاةَ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَأَنَّ الْجَنَّةَ لَا شَقَاءَ فِيهَا وَلَا نَصَبَ، أَمَّا هَذِهِ وَمَا إِلَيْهَا مِمَّا أَخْبَرَ بِهِ الرَّسُولُ الْأَعْظَمُ مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ وَغَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الْكَرَامِ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ فَلَا يُمَكِّنُ الْبَحْثُ فِيهَا عَنْ طَرِيقِ الْحِسِّ وَالتَّجَرُّبَةِ، وَبِالتَّالِي، فَلَا يَصِحُّ الْأَمْرُ بِالرَّجُوعِ إِلَيْهَا لِإِرْتِفَاعِ الْمَوْضُوعِ.

الْجَوَابُ :

أَوَّلًا: أَنَّ أَسْبَابَ الْمَعْرِفَةِ لَا تَنْحَصِرُ بِالْحِسِّ وَالتَّجَرُّبَةِ، فَإِنَّ هُنَاكَ الْفِطْرَةَ وَالْمَقَائِيسَ الْعَقْلِيَّةَ، فَالْحِسَّ سَبِيلَ إِلَى مَعْرِفَةِ الْمَادَّةِ، وَعَنَاصِرَهَا وَمَا تَحْوِيهِ مِنْ قُوَى، أَمَّا الْعِلْمُ بِمَا وَرَاءَهَا فَسَبِيلُهُ الْفِطْرَةُ وَالْعَقْلُ.

وَقَدْ شَرَحْنَا ذَلِكَ مُفَصَّلًا وَمُطَوَّلًا فِي أَكْثَرِ مِنْ كِتَابٍ مِنْ مُؤَلَّفَاتِنَا.

ثَانِيًا: أَنَّ مَا فِي الْمَادَّةِ مِنْ إِبْدَاعٍ وَنِظَامٍ لَيْسَ إِلَّا سِلْسِلَةً لِلتَّدْلِيلِ عَلَى أَنَّ وَرَاءَهَا قُوَّةٌ مُبْدِعَةٌ وَمُنْظِمَةٌ، تَمَامًا كَدِلَالَةِ الْكِتَابَةِ عَلَى الْكَاتِبِ، وَالْكَلَامِ عَلَى الْمُتَكَلِّمِ فَالْقَوْلُ بِأَنَّ الْمَادَّةَ لَا تُجْدِي نَفْعًا لِلتَّدْلِيلِ عَلَى الْحَقَائِقِ الْغَيْبِيَّةِ لَا يَسْتَنْدِ إِلَى أَسَاسٍ.

ثَالثًا: عَلَى افْتِرَاضِ أَنَّ الْمَادَّةَ لَا تَكُونُ وَسِيلَةً لِلْإِيمَانِ بِمَا وَرَاءَهَا، فَيَجِبُ أَيْضًا أَنْ لَا تَكُونُ وَسِيلَةً لِإِنْكَارِهِ.

رَابِعًا: أَنَّ تَقَدُّمَ الْعُلُومِ فِي كُلِّ مِصْطَرَقٍ قَدْ أَتَاحَ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَسْتَعْمَلَ التَّجَرُّبَةَ، وَوَسَائِلَ الْعِلْمِ الْحِسِّيِّ، حَتَّى فِي حَقَائِقِ الْغَيْبِ وَإِلَيْكَ الدَّلِيلُ:

وَصَفَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَهْلَ الْجَنَّةِ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى نَبِيِّهِ الْعَظِيمِ وَصَفَهُمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ﴾^(١)؛ وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا

نُصِبُ^(١).

وَقَالَ قَائِلٌ: مَحَالٌ أَنْ يَحْيَا الْإِنْسَانُ مَعَ هَذَا الْجِسْمِ بَدُونِ فَرْعٍ وَلَا نَصَبٍ.
وَيَكْفِي لِلرَّدِّ عَلَى هَذَا أَنْ نَسْتَمَعَ إِلَى رُؤَادِ الْفَضَاءِ، وَهُمْ يَصِفُونَ أَحْسَاسَاتِهِمْ
حِينَ دَخَلُوا مَنْطِقَةَ أَنْعَادِ الْوِزْنِ، قَالَ (جَاجَارِين) زَائِدُ الْفَضَاءِ الرُّوسِي:
أَنِّي شَعَرْتُ بِحَالَةٍ تَشْبَهُ النَّشْوَةِ الَّتِي يَحْسُهَا شَارِبُ الْخَمْرِ، وَلَكِنْ بِلَا تَغْبِ.
وَقَالَ (شِبْرِد) زَائِدُ الْفَضَاءِ الْأَمْرِيكِي: أَنَّهَا حَالَةٌ تَشْبَهُ حَالَةَ أَنْعَادِ التَّغْبِ، تَمَامًا
كَطِفْلِ بِلَا ذَاكِرَةٍ، وَلَكِنَّهُ يَشْعُرُ بِالسَّعَادَةِ.

وَقَالَ (كوبر) الْأَمْرِيكِي: كُنْتُ فِي تَمَامِ الْإِنْتِعَاشِ.
وَقَالَتْ (فَالْتِينَا) الرُّوسِيَّةُ: كَانَتْ أَشَدَّ لِحَظَاتِ حَيَاتِي... لَقَدْ شَعَرْتُ
بِإِزْتِيَاكِ لَا نَظِيرَ لَهُ، وَتَمَنَيْتُ أَنْ أَبْقَى هَكَذَا إِلَى الْأَبَدِ.

إِذْ التَّجَرُّبَةُ الْحِسِّيَّةُ سَاهَمَتْ مُسَاهِمَةً فَعَالَةً تَمَامًا كَمَا سَاهَمَ الْعَقْلُ وَالْفِطْرَةُ فِي
الشَّهَادَةِ بِإِمْكَانِ الْحَيَاةِ بِلَا خَوْفٍ وَلَا تَغْبِ الَّتِي بَشَّرَ بِهَا مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ
وَجَمِيعُ الْأَدْيَانِ تَقُولُ هَذَا، مَعَ الْعِلْمِ بِضَالَةِ مَا اكْتَشَفَتْهُ التَّجَرُّبَةُ مِنْ حَقَائِقِ الْغَيْبِ
غَيْرِ أَنَّ مُتَفَائِلُونَ بِأَنَّ الْعِلْمَ الْحِسِّيَّ سَيَكْشِفُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ الْقَرِيبِ أَوْ الْبَعِيدِ عَنْ
كَثِيرٍ مِنْ حَقَائِقِ الْغَيْبِ، وَيُبْرِزُهَا لِلْعَيَانِ تَمَامًا كَالْأَشْيَاءِ الْمَحْسُوسَةِ الْمَلْمُوسَةِ.

وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ مَعْنَى أَنَّ تَقَدُّمَ الْعِلْمِ فِي أَيِّ مِضْمَارٍ هُوَ أَنْتِصَارُ لِدِينِ مُحَمَّدٍ ﷺ لِأَنَّهُ
دِينُ الْعِلْمِ وَالْحَقِّ وَبِدْيَهَةِ أَنَّ الْحَقَّ لَا يُعَانِدُ الْحَقَّ، بَلْ يُؤَازِرُهُ وَيُنَاصِرُهُ إِذْ يَتَحَتَّمُ
عَلَى كُلِّ إِنْسَانٍ يُؤْمِنُ بِالْعِلْمِ وَالْحَقِّ أَنْ يُؤْمِنَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ لِأَنَّ الْإِيمَانَ بِهِ إِيْمَانٌ
بِهِمَا، وَتَكَرُّبُهُ تَكَرُّبُهُمَا، وَجُحُودُ رِسَالَتِهِ جُحُودُ لِهَُمَا، وَلِلْإِنْسَانِيَّةِ مِنْ

الأساس.

وَقَدْ يَهْتَدِي عَالِمٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ، أَوْ فَيْلَسُوفٌ مِنَ الْفَلَّاسِفَةِ إِلَى حَقِيقَةِ تَفَجُّزٍ عَنْ إِدْرَاكِهَا، وَتُصَوِّرُهَا الْعُقُولُ الْإِعْتِيَادِيَّةُ، فَتَرُدُّهَا عَلَيْهِ، وَتَسْخَرُ مِنْهَا وَمِنْهُ، حَتَّى إِذَا مَرَّتِ الْأَيَّامُ، وَظَهَرَتْ هَذِهِ الْحَقِيقَةُ لِلْعَيَانِ آمَنَتْ بِهَا الْأَجْيَالُ وَأَصْبَحَ صَاحِبُهَا الَّذِي كَانَ بِالْأُمْسِ مَوْضِعَ السُّخْرِيَّةِ وَالْإِسْتِهْزَاءِ عُنْوَانًا لِلتَّقْدِيرِ وَالْتَعْظِيمِ.

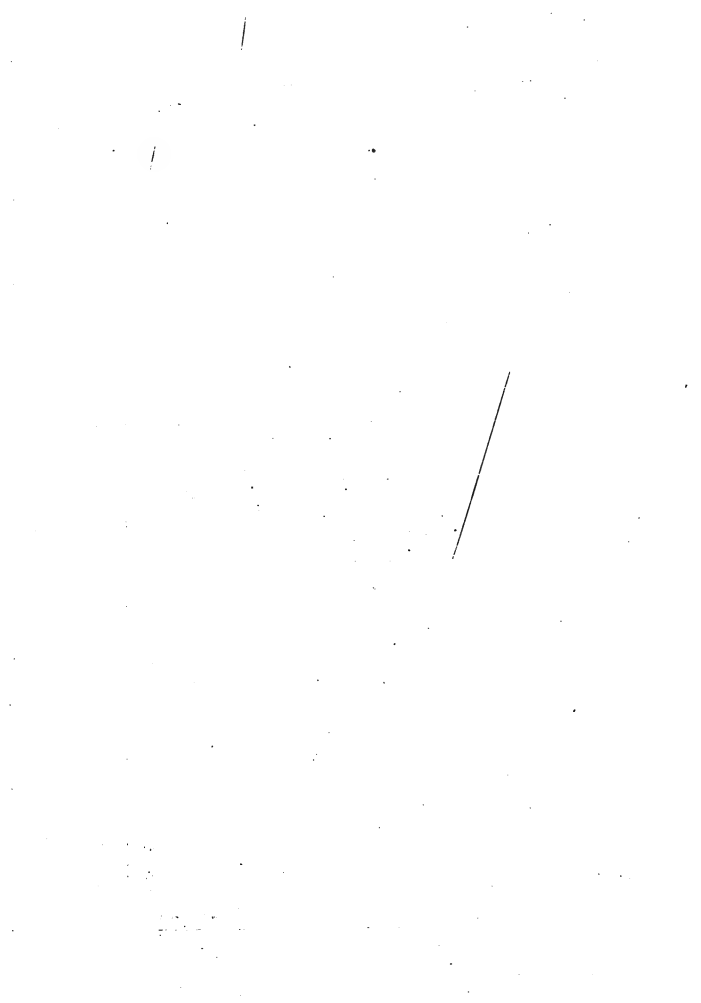
لَقَدْ أَغْلَنَ الْفَيْلَسُوفُ الْيُونَانِيُّ «أَرِيستاركوس» الْقَوْلَ بِدَوْرَانِ الْأَرْضِ حَوْلَ الشَّمْسِ عَامَ (٢٨٠) قَبْلَ الْمِيلَادِ، فَعَارِضُهُ «بَطْلِيمُوس» مُؤَكِّدًا أَنَّ الشَّمْسَ هِيَ الَّتِي تَدُورُ، وَأَنَّ الْأَرْضَ ثَابِتَةٌ وَسَطَ الْكَوْنِ، وَظَلَّ مَذْهَبُهُ مُعْتَمَدًا مِثْلَ السَّنِينَ، حَتَّى أَعْلَنَ مِنْ جَدِيدِ الْعَالَمِ الْبُولُونِيِّ «كوبرنيك» حَرَكَةَ الْأَرْضِ حَوْلَ الشَّمْسِ، فَهَجَرَ النَّاسَ الْقَوْلَ الْأَوَّلَ، وَاعْتَنَفُوا الرَّأْيَ الثَّانِي، لَا كُرْهًا بِبَطْلِيمُوسَ، وَلَا حُبًّا بِكُوبرنيكَ، بَلْ لِأَنَّ الْعِلْمَ فَرَضَ نَفْسَهُ عَلَى جَمِيعِ أَهْلِ الْمَذَاهِبِ وَالْأَدْيَانِ فِي أَنْحَاءِ الْمَعْمُورَةِ، حَيْثُ يَعْلُو سُلْطَانُهُ وَيَسْمُو عَلَى كُلِّ سُلْطَانٍ، وَبِهِ يُخْلَدُ الْإِنْسَانُ مَدَى الْأَجْيَالِ وَالْأَزْمَانِ... وَسَيَأْتِي الْيَوْمَ الَّذِي تُدِينُ فِيهِ بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ جَمِيعَ الْأُمَمِ فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ، لَا لَشَيْءٍ إِلَّا لِأَنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْحَقِّ وَالْعِلْمِ لِلَّذِينَ تَبَسَّرَ مِنْهُمَا هَذِهِ الرِّسَالَةَ الْمُقَدَّسَةَ جَنَبًا إِلَى جَنْبِ.

سَتُدِينُ الْأَجْيَالُ، كُلُّ الْأَجْيَالِ، بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ عَنْ طَرِيقِ الْمُشَاهَدَةِ وَالتَّجَرُّبَةِ اللَّتَيْنِ هُمَا أَسَاسُ الْمَنْهَجِ الْعِلْمِيِّ الْحَدِيثِ، مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ لَمْ يَسْتَعْمَلْ فِي حَيَاتِهِ التَّجَرُّبَةَ وَالْإِخْتِبَارَ - إِذْ - تَعَيَّنَ بِحُكْمِ الْوَاقِعِ أَنَّ الصَّلَاةَ الْوَثِيقَةَ بِخَالِقِ الْكَوْنِ هِيَ السَّبِيلُ الْوَحِيدُ إِلَى مَعْرِفَتِهِ بِحَقَائِقِ الْكَوْنِ وَمَا قَبْلَهُ، وَمَا بَعْدَهُ... لَقَدْ سَبَقَ مُحَمَّدٌ ﷺ بِعُلُومِهِ وَمَعَارِفِهِ التَّقْدُمَ الْإِنْسَانِي بِالْأُلُوفِ السَّنِينَ، لِيَكُونَ هَذَا

السَّبْقِ دَلِيلًا عَلَى وَجُودِ تِلْكَ الصُّلَّةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعَلِيِّ الْأَعْلَى.....
 وَمِنْ هُنَا أَفْتَرَقَ عَنِ الْعُلَمَاءِ، وَالْفَلَّاسِفَةِ، وَالْعَبَاقِرَةِ، وَالنَّاسِغِينَ وَكَانَ فَوْقَ
 النَّاسِ أَجْمَعِينَ.



القِسْمُ الثَّانِي
مَبَادِيءُ عَامَّةٌ، وَمُقْتَطَعَاتٌ مِنْ
الصَّحِيفَةِ السَّجَّادِيَّةِ



مَبَادِيْ عَامَّة

طَرِيقُ الْمَعْرِفَةِ إِلَى الْآخِرَةِ:

مَا هُوَ الطَّرِيقُ إِلَى مَعْرِفَةِ الْآخِرَةِ، وَبِأَيِّ شَيْءٍ تُثْبِتُهَا وَنُسْتَدِلُّ عَلَيْهَا؟
قَالَ قَائِلٌ: تُثْبِتُهَا بِالْمَنْطِقِ، وَالْأَقْسِيَّةِ الْعَقْلِيَّةِ. وَقَالَ آخَرٌ بَلْ بِشُعُورِ الْقَلْبِ،
وَكَشْفِهِ الْمُسَمَّى بِالْحَدْسِ. وَقَالَ ثَالِثٌ: بَلْ بِالْوَحْيِ، وَهُوَ الْكُتُبُ السَّمَاوِيَّةُ،
وَالْأَحَادِيثُ النَّبَوِيَّةُ.

وَالْوَحْيُ ثَابِتٌ بِالْوُجْدَانِ، وَالْعَقْلُ يَدُلُّ، وَلَكِنْ بَضْمِيَّةٌ مَبْدَأٌ وَاجِبُ الْوُجُودِ،
وَالْحَدْسُ مُمَكِّنٌ، وَلَكِنَّهُ صَعْبُ التَّحْصِيلِ وَمَهْمَا يَكُنْ، فَإِنَّ الْمُهْمَ أَنْ تَكُونَ مُؤْمِنًا
إِيمَانًا صَحِيحًا مُطَابِقًا لِلْوَاقِعِ، سَوَاءٌ أَحْصَلَ هَذَا الْإِيمَانُ مِنْ طَرِيقِ الْعَقْلِ، أَوْ
الْقَلْبِ، أَوْ التَّقْلِيدِ الْأَعْمَى فَالْمُعْتَقَدُ يَكُونُ صَحِيحًا وَحَقًّا إِذَا كَانَ أَنْعَكَاسًا عَنِ
الْوَاقِعِ، كَمَا هُوَ فِي وَاقِعِهِ بِصَرَفِ النَّظَرِ عَنِ أَسْبَابِهِ لِأَنَّ الْعِبْرَةَ بِالنَّاتِجَةِ، لَا
بِالْمُقَدَّمَاتِ.

الْخَلَاصُ مِنَ النَّارِ:

بَعْدَ أَنْ اتَّفَقُوا عَلَى وُجُودِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَأَنَّ لِكُلِّ مِنْهُمَا أَهْلًا وَأَصْحَابًا
اِخْتَلَفُوا: أَهْلُ الْخَلَاصِ مِنَ النَّارِ يَكُونُ بِمَجَرَّدِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ بِصَرَفِ

النَّظَرُ عَنِ الْأَعْمَالِ خَيْرٌ أَكَانَتْ أَوْ شَرًّا بَحِثْ لَا يَكُونُ الْمُؤْمِنُ مَسْتَوْلاً عَنْ شَيْءٍ وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ خَيْرًا قَطُّ، أَوْ لَا بُدَّ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ مَعًا فَمَنْ آمَنَ وَلَمْ يَفْعَلْ، أَوْ عَمِلَ دُونَ أَنْ يُؤْمِنَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ.

وَلَيْسَ مِنْ شَكٍّ أَنَّ الْإِيمَانَ أَسَاسَ، وَالْعَمَلَ بِنَاءَ، وَالْإِخْلَاصَ مِنْ سُوءِ الْمَصِيرِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالْبِنَاءِ السَّلِيمِ عَلَى أَسَاسٍ مَتِينٍ إِذَنْ لَا بُدَّ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ مَعًا.

صَلَاحُ الْآخِرَةِ:

رَبَطَ الْإِسْلَامُ صَلَاحَ الْآخِرَةِ بِصَلَاحِ الدُّنْيَا، وَجَعَلَ الثَّانِي وَسِيلَةً لِلأَوَّلِ، فَمَنْ جَاهَدَ وَنَاضَلَ، وَأَكَلَ مِنْ تَعْبِهِ وَعَرَقَهُ فِي حَيَاتِهِ هَذِهِ كَانَ سَعِيدًا فِي الْآخِرَةِ، وَمَنْ عَمِلَ لِإِسْعَادِ النَّاسِ، وَصَفَاءِ الْقُلُوبِ، وَبَثَّ الْمَحَبَّةَ وَالْإِخَاءَ فَهُوَ أَسْعَدُ، لِأَنَّهُ مَعَ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّادِقِينَ، وَكَمَا عَمِلَ عَلَى إِسْعَادِ عَدَدٍ أَكْثَرَ كَانَ حَظُّهُ عِنْدَ اللَّهِ أَكْبَرَ وَأَوْفَرَ.

أَمَّا مَنْ يَعِيشَ عَلَى حِسَابِ غَيْرِهِ، وَيَشْقَى النَّاسَ بِوَجُودِهِ، وَيَخَافُونَ مِنْهُ وَمِنْ شَرِّهِ فَإِنَّ عَاقِبَتَهُ الْحَسْرَةَ وَالتَّوَدُّعَ، وَالْحَسَابَ وَالْعِقَابَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾^(١).

وَفِي الْحَدِيثِ: «أَهْلُ الْمَعْرُوفِ فِي الدُّنْيَا أَهْلُ الْمَعْرُوفِ فِي الْآخِرَةِ»^(٢).

(١) الْأَنْزَاء: ٧٢.

(٢) أَنْظَرِ، الْمُشْتَدَّكَ عَلَى الصَّحِيحَيْنِ: ٢١٣/١ ح ٤٢٩، مَجْمَعُ الرُّوَاثِدِ: ١١٥/٣، سُنَنِ الْبَيْهَقِيِّ الْكُبْرَى: ١٠٩/١٠، الْمُصَنَّفُ لِابْنِ أَبِي شَيْبَةَ: ٢٢١/٥ ح ٢٥٤٢٨، الْمُتَجَمُّمُ الْكَبِيرُ: ٢٦٤/٦ ح ٦١١٢، الْمُتَجَمُّمُ الصَّغِيرُ: ١٣٣/١ ح ١٩٩، الْمُتَجَمُّمُ الْأَوْسَطُ: ٥٦/١ ح ١٥٦، الْأَدَبُ الْمُفْرَدُ: ٨٦/١ ح ٢٢٠، الْفِرْدَوْسُ بِمَثَاوِيرِ الْخِطَابِ: ٤٠٩/١ ح ١٦٥٣.

أُتِسَكْتُ أَوْ تَتَكَلَّمُ؟

إِذَا رَأَيْتَ إِنْسَانًا يَأْكُلُ لَحْمَ الْخِنْزِيرِ، أَوْ يُصَلِّيَ بِالنَّجَسِ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ فَهَلْ يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَتَكَلَّمَ مَعَهُ وَتُنَبِّهَ إِلَى ذَلِكَ، أَوْ يَجُوزُ أَنْ تَتَجَاهَلَ وَتُسَكَّتْ؟

الجواب:

يَخْتَلِفُ الْحُكْمُ بِاخْتِلَافِ الْحَالَاتِ:

١- أَنْ يَكُونَ الْفَاعِلُ عَالِمًا بِالْمَوْضُوعِ، جَاهِلًا بِالْحُكْمِ، كَمَا لَوْ عَلِمَ أَنَّ هَذَا لَحْمَ خِنْزِيرٍ، وَلَا يَعْلَمُ أَنَّ لَحْمَ الْخِنْزِيرِ حَرَامٌ، فَالْمَوْضُوعُ الَّذِي يَعْلَمُهُ هُوَ لَحْمُ خِنْزِيرٍ، وَالْحُكْمُ الَّذِي يَجْهَلُهُ هُوَ التَّحْرِيمُ، وَفِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تُرْشِدَهُ إِلَى الْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ، وَتُبَيِّنَ لَهُ الْحَقِيقَةَ مِنْ بَابِ الْإِشَادِ، وَجُوبِ التَّعْلِيمِ.

٢- أَنْ يَعْلَمَ الْحُكْمَ وَالْمَوْضُوعَ مَعًا، مِثْلَ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ هَذَا لَحْمَ خِنْزِيرٍ، وَأَنَّهُ حَرَامٌ، وَمَعَ ذَلِكَ أَقْدَمَ، وَلَمْ يَكْتَرِثْ، وَيَجِبُ هُنَا أَنْ تُذَكِّرَهُ بِأَمْرِ اللَّهِ، وَتُخَوِّفَهُ مِنْ عِقَابِهِ مِنْ بَابِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، مَعَ أَحْتِمَالِ الْفَائِدَةِ، وَعَدَمِ الضَّرَرِ.

٣- أَنْ يَعْلَمَ الْحُكْمَ - وَيَجْهَلَ الْمَوْضُوعَ، كَمَا لَوْ عَلِمَ أَنَّ لَحْمَ الْخِنْزِيرِ حَرَامٌ، وَأَنَّ الصَّلَاةَ بِالنَّجَاسَةِ لَا تَصَحُّ وَلَكِنَّهُ لَا يَعْلَمُ أَنَّ هَذَا لَحْمُ خِنْزِيرٍ، وَأَنَّ عَلَى ثَوْبِهِ نَجَاسَةٌ، وَفِي مِثْلِهِ لَا يَجِبُ الْكَلَامُ وَالتَّنْبِيهُ، لِأَنَّ الْجَاهِلَ لَمْ يَر تَكْبِ حَرَامًا... فَإِذَا رَأَيْتَ شَخْصًا يُصَلِّي، وَعَلَى ثَوْبِهِ نَجَاسَةٌ يَجْهَلُهَا فَلَا يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تُنَبِّهَهُ إِلَيْهَا، وَيَجُوزُ لَكَ أَنْ تَأْتِمَ بِهِ جَمَاعَةً، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْعَدَالَةِ، وَكَذَا لَا يَجِبُ التَّنْبِيهُ لَوْ أَكَلَ لَحْمَ الْخِنْزِيرِ بِإِعْتِقَادِهِ أَنَّهُ غَنَمٌ. وَعَنْ أَهْلِ الْبَيْتِ عليهم السلام أَنَّ رَجُلًا أَغْتَسَلَ مِنْ الْجَنَابَةِ، وَلَمْ يَسْتَوْعِبِ الْمَاءَ بَدَنَهُ، فَنَبِّهَهُ آخِرُ إِلَى ذَلِكَ، فَقَالَ الْإِمَامُ عَلِيُّ عليه السلام: «مَا

كَانَ عَلَيْكَ لَوْ سَكَتَ» ^(١).

أَجَلٌ، لَا يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ أَنْتَ الْمُسَبَّبُ لِذَلِكَ، كَأَنْ تُطْعِمَهُ لَحْمَ الْخِنْزِيرِ، وَالنَّجَسِ، وَهُوَ لَا يَعْلَمُ، أَمَّا لَوْ رَأَيْتُهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ فَلَا شَيْءَ عَلَيْكَ لَوْ سَكَتَ.

هَلْ الْجَهْلُ عُذْرٌ؟

لَوْ جَهَلَ إِنْسَانٌ أَنَّهُ مُقَدِّمٌ عَلَى الْحِسَابِ وَالْعِقَابِ، أَوْ أَرْتَكَبَ الْحَرَامَ، وَهُوَ لَا يَعْلَمُ بِأَنَّهُ حَرَامٌ، أَوْ تَرَكَ وَاجِبًا عَنْ جَهْلٍ بِالْوُجُوبِ، فَهَلْ يَكُونُ مَعْذُورًا لِلْجَهْلِ، أَوْ لَا؟.

الجَوَابُ:

أَنَّ الْجَهْلَ بِإِعْتِبَارِ سَبَبِهِ عَلَى نَوْعَيْنِ:

١- أَنْ يَنْشَأَ مِنْ تَرْبِيَّتِهِ وَبَيْتِهِ، كَمَا لَوْ عَاشَ مِنْذُ طُفُولَتِهِ بَيْنَ قَوْمٍ لَا يُوجِبُونَ الصَّلَاةَ، وَلَمْ يَلْتَفِتْ هُوَ أَوْ يَحْتَمِلَ أَنَّهَا وَاجِبَةٌ بِحُكْمِ ظُرُوفِهِ وَمُلَابَسَاتِهِ... وَلَيْسَ مِنْ شَكٍّ أَنَّ هَذَا الْجَاهِلَ يَثْبِتُ التَّكْلِيفَ وَالْوُجُوبَ فِي حَقِّهِ وَاقْعًا، لِأَنَّهُ بَالِغٌ، عَاقِلٌ، قَادِرٌ بِذَاتِهِ عَلَى الْفِعْلِ، غَايَةُ الْأَمْرِ أَنَّهُ مَعْذُورٌ فِي التَّرْكِ مَا دَامَ فِي هَذِهِ الْحَالِ، فَإِذَا أَرْتَفَعَتْ وَزَالَتِ، وَعَرَفَ الْحَقِيقَةَ وَجَبَ عَلَيْهِ الْأَدَاءُ فِي الْوَقْتِ، وَالْقَضَاءُ فِي خَارِجِهِ، تَمَامًا كَمَا هُوَ الشَّانُ فِي النَّائِمِ وَالنَّاسِي، فَإِنْ مَنْ نَسِيَ الصَّلَاةَ يُعْذَرُ فِي تَرْكِهَا حَالِ النِّسْيَانِ، وَلَكِنَّهَا لَا تَسْقُطُ عَنْهُ فِي الْوَاقِعِ، لِذَا إِذَا تَذَكَّرَ وَجَبَ الْفِعْلُ أَدَاءً فِي الْوَقْتِ، وَقَضَاءً فِي خَارِجِهِ وَكَذَا النَّائِمُ وَمَنْ عَاشَ بَيْنَ قَوْمٍ لَا يَعْرِفُونَ الصَّلَاةَ إِطْلَاقًا.

(١) أنظر: الكافي: ٤٥/٣ ح ١٥، التهذيب: ٣٦٥/١ ح ١١٠٠٨، وسنن أبي شيبة: ٥٢٤/١ ح ١.

٢- أَنْ يَنْشَأَ الْجَهْلُ مِنْ عَدَمِ الْقَابِلِيَّةِ وَالْإِسْتِعْدَادِ لِلْفَهْمِ وَالتَّفْهَمِ، وَهَذَا غَيْرُ مُكَلَّفٍ مِنَ الْأَسَاسِ بَمَا لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَتَفَهَمَهُ، لِأَنَّهُ أَشْبَهَ بِالْجَمَادِ وَالْحَيَوَانَ... وَيُعَبَّرُ عَنْهُ بِالْقَاصِرِ.

وَمِنْ أَفْرَادِ الْقَاصِرِ، الْمُجْتَهِدُ الَّذِي يَبْذُلُ كُلَّ جُهِدِهِ فِي الْبَحْثِ عَنِ الدَّلِيلِ... فَلَوْ افْتَرَضَ أَنَّ أَحَدَ الْمُجْتَهِدِينَ لَمْ يَطَّلِعْ عَلَى دَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ عَرَقَ الْجَنْبِ مِنَ الْحَرَامِ نَجَسٌ، وَحَكَمَ بَعْدَ الْبَحْثِ وَالتَّنْقِيبِ بِطَهَارَتِهِ لِلْأَصْلِ، وَكَانَ هَذَا الْعَرَقُ نَجَسًا فِي الْوَاقِعِ، لَوْ افْتَرَضَ هَذَا لَكَانَ الْمُجْتَهِدُ مَعْدُورًا فِي حُكْمِهِ بِالطَّهَارَةِ، وَبِكَلِمَةٍ أَنَّ الْجَهْلَ مِنَ حَيْثُ هُوَ لَا يَتَنَافَى مَعَ وَجُودِ التَّكْلِيفِ إِلَّا إِذَا رَجَعَ إِلَى الْعِزْزِ وَعَدَمِ الْقُدْرَةِ، كَمَا هِيَ الْحَالُ فِيمَنْ لَا قَابِلِيَّةَ لَهُ وَلَا أَهْلِيَّةَ.

النِّتَّةُ:

النِّتَّةُ حَيْثُ هِيَ لَيْسَتْ سَبَبًا لِلْحِسَابِ وَالْعِقَابِ فِي نَظَرِ الْإِسْلَامِ، فَمَنْ نَوَى أَنْ يَزْنِيَ، أَوْ يَسْرِقَ، أَوْ يَقْتُلَ، وَلَمْ يُبَاشِرْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَلَا يُسْأَلُ عَنْ نِيَّتِهِ، لِأَنَّ الْعِقَابَ إِنَّمَا يَكُونُ عَلَى عَمَلٍ مَادِّيٍّ مُحْسُوسٍ....
أَمَّا إِذَا نَوَى الْخَيْرَ، وَعَجَزَ عَنْ فِعْلِهِ فَإِنَّ اللَّهَ يَكْتُبُهُ لَهُ وَيُشِيبُهُ عَلَيْهِ تَكْرُمًا وَتَفَضُّلاً، وَفِي الْحَدِيثِ: «مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ، فَلَمْ يَفْعَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ، وَلَمْ يَفْعَلْهَا لَمْ يَكْتُبْ عَلَيْهِ شَيْءٌ»^(١)...

(١) أنظر، إختيلاء علوم الدين - للفرالي: ٣/٣٩، الكافي: ٢/٢٧٢ ح ١٧، تفسير القرطبي: ١/٤٨٤، صحيح مسلم: ١/١١٧ ح ١٢٨، صحيح ابن جبان: ١٤/٤٥، تفسير ابن كثير: ١/١٥٣، المصنف لابن أبي شيبة: ٧/٣٣٤، المعجم الأوسط: ٤/٣٤٥ ح ٤٣٩٠، مسند أحمد: ٣/١٤٨ ح ١٢٥٢٧.

بَلْ لَوْ قَالَ، وَلَمْ يَفْعَلْ لَا يُؤَاخِذْ عَلَى مُجَرَّدِ الْقَوْلِ إِذَا لَمْ يَكُنْ سَبَبًا فِي إِيْذَاءِ الْغَيْرِ.

فَنَنْ لَا يَرْحَمُ:

جاء في الحديث: «مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يَرْحَمُ»^(١).

وَهَذِي هِيَ الرَّحْمَةُ بِالذَّاتِ، فَإِنَّ التَّسَامُحَ مَعَ الشَّرِّيرِ الظَّالِمِ الْمُفْسِدِ هِيَ عَيْنُ الْقِسْوَةِ وَالظُّلْمِ... تَصَوَّرَ رَجُلًا يَقْسُو، حَتَّى عَلَى الْمَسَاكِينِ وَالْفُقَرَاءِ وَلَا يَتَسَامَحُ، حَتَّى مَعَ الْأَرْحَامِ وَالْأَصْدِقَاءِ وَيَتَأَمَّرُ، حَتَّى عَلَى بِلَادِهِ، وَيَهْتَفُ لِلْمُجْرِمِينَ وَالْمُخْرِبِينَ... أَوْ يُلْقِي الْقَنَابِلَ الْمُهْلِكَةَ عَلَى النِّسَاءِ، وَالْأَطْفَالِ، وَالْآمَنِينَ وَيُحَوِّلُ الْعِمَارَ إِلَى خَرَابٍ وَبَوَارٍ، ثُمَّ يَطْلُبُ الرَّحْمَةَ وَالْمَغْفِرَةَ... أَلَيْسَتْ الرَّحْمَةُ مَعَ هَذَا الْمُجْرِمِ مَعْنَاهَا الرِّضَا عَنْهُ، وَتَشْجِيعُهُ عَلَى إِجْرَامِهِ؟... أَنْ الرَّحْمَةَ بِالنَّاسِ وَبِالْإِنْسَانِيَةِ جَمْعَاءُ أَنْ تُحْطَمَ الْقَنَابِلُ الْمُدْمِرَةُ... وَمِنْ هُنَا قِيلَ: لَيْسَ مِنَ الْعُنْفِ الْقَضَاءُ عَلَى الْعُنْفِ.

الثَّوَابُ:

اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ الْعَاصِيَ يُعَاقَبُ بِالِاسْتِحْقَاقِ، وَأَخْتَلَفُوا: هَلْ يُثَابَرُ

➤ مُسْنَدُ الشَّامِيِّينَ: ٨٧/١، مُسْنَدُ أَبِي يَعْلَى: ٢١٨/٦، الْمُعْجَمُ الْكَبِيرُ: ٢٠٦/٤ ح ٤١٥٢، فَتْحُ الْبَارِي: ٢١٦/٧، شَرْحُ التَّوْوَيْ عَلَى صَحِيحِ مُسْلِمٍ: ١٥١/٢، الدِّيْنِيَّاتُ: ١٤٥/١ ح ١٣٠.

(١) أَنْظِرْ، صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ: ٦١/٤ و: ٧٥/٧، مَنَاقِبُ آلِ أَبِي طَالِبٍ: ١٨٩/٣، دَحَايِرُ الْمُفْتَنِيِّ: ١٢٥، الْإِسْتِيفَاقُ الْمَطْبُوعُ بِهَامِشِ الْإِصَابَةِ: ٩٦/١، صَحِيحُ مُسْلِمٍ: ١٠٩/٣ و: ٧٧/٧، سُنَنُ أَبِي دَاوُدَ: ٥٢٢/٢ ح ٥٢١٨، مَجْمَعُ الزَّوَائِدَ: ١٨٧/٨، الْمُصَنَّفُ لِغَبَدِ الزَّرَاقِ الصَّنْعَانِيِّ: ٥٥٣/٣ ح ٦٦٧٢.

المُطِيعَ بِالِاسْتِحْقَاقِ ، أَوْ بِالتَّفْضِيلِ ؟ .

وَفِي كَلَامِ الْإِمَامِ زَيْنِ الْعَابِدِينَ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَوَاتِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ بِالتَّفْضِيلِ ،
وَأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ إِذَا لَمْ يُشِيبِ الْمُطِيعَ فَلَا يَكُونُ لَهُ ظُلَامًا ، قَالَ مُنَاجِيًّا رَبَّهُ :
« لَا يَجِبُ لِأَحَدٍ أَنْ تَغْفِرَ لَهُ بِاسْتِحْقَاقِهِ ، وَلَا أَنْ تَرْضَى عَنْهُ بِاسْتِيجَابِهِ ؛ فَحِينَ
غَفَرْتَ لَهُ فَبَطَوْلِكَ ، وَمَنْ رَضِيتَ عَنْهُ فَبِفَضْلِكَ ، تَشْكُرُ يَسِيرَ مَا شَكَرْتَهُ ، وَتُشِيبُ
عَلَى قَلِيلٍ مَا تَطَاعُ فِيهِ ، حَتَّى كَأَنَّ شُكْرَ عِبَادِكَ الَّذِي أَوْجَبْتَ عَلَيْهِ ثَوَابَهُمْ ،
وَأَعْظَمْتَ عَنْهُ جَزَاءَهُمْ ... أَمَرْتُ مَلَكَوَا اسْتَطَاعَةَ الْإِمْتِنَاعِ مِنْهُ دُونَكَ ، فَكَافَيْتَهُمْ ، أَوْ
لَمْ يَكُنْ سَبَبُهُ بِيَدِكَ فَجَازَيْتَهُمْ » ^(١) .

(٧) أَنْظِر . الصَّحِيفَةُ السَّجَّادِيَّةُ : الدُّعَاءُ السَّامِعُ وَالتَّلَاثُونَ (دُعَاؤُهُ فِي الشُّكْرِ) بِتَحْقِيقِنَا .



أَبْوَابُ الرَّحْمَةِ

الآلةُ الكاشِفةُ :

أَسْتَطَاعَ عُلَمَاءُ الْيَوْمِ أَنْ يَخْتَرَعُوا آلَةً تَكْشِفُ وَتُصَوِّرُ مَا تَخْدُثُ مِنْ خَلَلٍ وَمَرَضٍ فِي أَمْعَاءِ الْإِنْسَانِ وَدِمَاغِهِ وَعَظَامِهِ ، وَكُلِّ مَا فِي بَاطِنِ الْجِسْمِ ، وَلَكِنَّهُمْ - حَتَّى الْآنَ - لَمْ يَهْتَدُوا إِلَى آلَةٍ تُعَرِّفُهُمْ بِنَفْسِهِ ، وَمَا فِيهَا مِنْ خُبْرٍ ، وَحَقْدٍ ، وَجَهْلٍ ، وَغُرُورٍ .

وَأَيْضاً أَسْتَطَاعُوا أَنْ يَجْعَلُوا صِنَاعِيّاً مَكَانَ آخَرٍ طَبِيعِيٍّ ، يُؤَدِّي وَظِيفَتَهُ كَامِلَةً ، كَيْدَ مَكَانِ يَدٍ ، وَرِجْلِ مَكَانِ رِجْلِ ، وَلَكِنَّهُمْ - حَتَّى الْآنَ - عَجَزُوا عَنْ اخْتِرَاعِ آلَةٍ تُطَهِّرُ النَّفُوسَ مِنَ الرَّذَائِلِ ، وَتَغْرِسُ فِيهَا بَذُورَ الْفَضَائِلِ .

عِنْدَ الْإِمَامِ ﷺ :

وَعِنْدَ الْإِمَامِ زَيْنِ الْعَابِدِينَ ﷺ آلَةٌ وَاحِدَةٌ تَكْشِفُ لِلْمَرْءِ عَنْ جَمِيعِ مَا فِي نَفْسِهِ مِنْ عُيُوبٍ ، وَفِي الْوَقْتِ ذَاتَهُ تُطَهِّرُهَا مِنْ جَمِيعِ الشَّوَابِ ، وَتَغْرِسُ مَكَانَهَا الْأَخْلَاقَ الْفُضْلَى ، وَالْمَثَلَ الْعَلِيَّ ... أَنَّهَا آلَةٌ ، وَلَكِنْ لَيْسَتْ مِنْ نَوْعِ مَا تَخْرِجُهُ الْمَصْنَعُ ، وَلَا تَحْتَاجُ إِلَى وَقُودٍ كَوْقُودِهَا ... أَنَّهَا كَلَامٌ ، وَلَكِنْ لَا مِنْ نَوْعِ مَا يُقَالُ ، أَنَّهَا « الصَّحِيفَةُ السَّجَّادِيَّةُ » ، أَوْ مَزَامِيرُ الْإِمَامِ زَيْنِ الْعَابِدِينَ ﷺ الَّتِي فَاقَتْ بَيَّهَانَهَا

وَجَلَالَهَا مَرَامِيرُ دَاوُدَ ﷺ .

هَلْ تُرِيدُ أَنْ تَعْرِفَ مَنْ أَنْتَ وَإِلَى أَيْنَ مَصِيرُكَ ؟ . هَلْ تُرِيدُ أَنْ تَنْتَصِرَ عَلَى شَهَوَاتِكَ ، وَتَتَغَلَّبَ عَلَى أَهْوَاكَ الْمُعْرِبَةِ ؟ . هَلْ تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ إِنْسَانًا كَامِلًا ، بَلْ مَلَأًا ؟ . إِذَنْ إِقْرَأْ هَذِهِ الصَّحِيفَةَ ، إِقْرَأْهَا ، ثُمَّ قَارِنْ بِسَيْنِ حَالِكَ ، قَبْلَ الْقِرَاءَةِ ، وَبَعْدَهَا ، فَلَقَدْ قَرَأْتُ كَثِيرًا ، وَسَمِعْتُ كَثِيرًا ، وَلَكِنَّكَ لَمْ تَقْرَأْ وَلَمْ تَسْمَعْ مَا يَرْجِعُ بِكَ إِلَى «فِطْرَتِ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ»^(١) . كُلُّ النَّاسِ يَدْعُونَ اللَّهَ وَيُتَابِعُونَهُ ، وَيَتَضَرَّعُونَ إِلَيْهِ ، وَلَكِنَّ الْإِمَامَ زَيْنَ الْعَابِدِينَ ﷺ دَعَا بَعْدَمَا شَاهَدَ اللَّهَ وَرَأَاهُ ، وَبَعْدَ أَنْ عَرَفَ مَا كَانَ وَمَا هُوَ عَلَيْهِ الْآنَ ، وَإِلَى أَيْنَ الْمَصِيرِ .

قَدْ تَمَرَّ بَأَحَدِنَا فِي وَقْتِ لَحْظَةٍ مُبَارَكَةٍ مُشْرِقَةً ، أَمَا أَنْ تَكُونَ جَمِيعَ أَوْقَاتِهِ نُورًا وَإِشْرَاقًا ، أَمَا أَنْ تُفْتَحَ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ فِي كُلِّ آتٍ وَحِينَ فَتِلْكَ خَاصَّةً لِأَهْلِ بَيْتِ الطُّهْرِ وَالنَّبَوَةِ ، وَهُمْ وَحْدَهُمْ - بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ - الَّذِينَ عَرَفُوا عَظَمَةَ الْخَالِقِ وَجَلَالَهُ ، وَصَفَاتِهِ وَكَمَالَهُ ، وَأَوْضَحُوا سَبِيلَ الْهَدَايَةِ إِلَى رَحْمَتِهِ ، وَهُمْ وَحْدَهُم الَّذِينَ عَرَفُوا الدُّنْيَا بِسَيِّئَاتِهَا وَحَسَنَاتِهَا ، وَوَضَعُوا الدَّلَالَاتِ وَالْعَلَامَاتِ عَلَى كُلِّ وَاحِدَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ... وَهُمْ وَحْدَهُم الَّذِينَ أَدْرَكُوا حَقِيقَةَ الْإِنْسَانِ ، وَمَا فِيهِ مِنْ أَسْقَامٍ وَأَوْهَامٍ ، وَوَضَعُوا لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءً ، وَهُمْ وَحْدَهُم الَّذِينَ يَحْرُصُونَ كُلَّ الْحَرَصِ عَلَى أَنْ يَعْيشَ الْإِنْسَانُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ شَرِيفًا سَلِيمًا ، وَفِي آخِرَتِهِ سَعِيدًا كَرِيمًا ... كُلُّ هَذَا ، وَمَا إِلَيْهِ تَجَدُّهُ جَلِيلًا وَاضِحًا فِي أَدْعِيَةِ الصَّحِيفَةِ السَّجَّادِيَّةِ لِلْإِمَامِ زَيْنِ الْعَابِدِينَ ﷺ .

الدُّعَاءُ عِنْدَ الْإِجَامِ ۞ :

الدُّعَاءُ عِنْدَ الْإِجَامِ وَاجِبٌ لَا نَذْبَ، وَضُرُورَةٌ مُلِحَّةٌ لَا تَسْلِيَّةٌ وَأَسْتِمْتَاعٌ، وَلَا أَدَلٌّ عَلَى ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ :

وَقُلْتُ - الْخِطَابُ لِلَّهِ تَعَالَى - : «وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ» ^(١) فَسَمِعْتُ دُعَاءَكَ عِبَادَةً، وَتَرَكُهُ اسْتِكْبَارًا؛ وَتَوَعَّدْتَ عَلَى تَرْكِهِ دُخُولَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ؛ فَذَكَرْتُكَ بِسَمْنِكَ، وَشَكَرْتُكَ بِفَضْلِكَ، وَدَعَوْتُ بِأَمْرِكَ، وَتَصَدَّقُوا لَكَ طَلِبًا لِمَزِيدِكَ، وَفِيهَا كَانَتْ نَجَاتُهُمْ مِنْ غَضَبِكَ، وَفَوْزُهُمْ بِرِضَاكَ ^(٢).

فَكُلُّ شَيْءٍ دُعَاءٌ عِنْدَهُ... لِلْمَهْمَاتِ وَالِاسْتِعَاذَةِ، وَالْعَافِيَةِ، وَلِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَالشُّكْرِ، وَالتَّوْبَةِ، إِلَى مَا لَا نَهَايَةَ، وَلَيْسَ مَعْنَى هَذَا أَنَّهُ يَطْلُبُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ بِالْإِجَامِ وَحْدَهُ، وَبِدُونِ عَمَلٍ، بَلْ يَعْمَلُ وَيَبْذُلُ كُلَّ مَا فِي طَاقَتِهِ وَجُهْدِهِ، وَهُوَ يَلُودُ بِاللَّهِ، وَيَتَّجِعُ إِلَيْهِ بِكَلِمَاتٍ هِيَ الْعَمَلُ بِالذَّاتِ، وَالنِّصَالُ الْمُثْمَرُ، وَهُنَا سِرُّ الْإِعْجَازِ، كَلِمَاتٍ، وَلَكِنَّهَا أَحْلَى مَذَاقًا مِنَ الشَّهَدِ، وَأَذْكَى أَرْجَاءً مِنَ الْوُرُودِ، وَأَعْظَمَ تَأْثِيرًا مِنَ السَّحَرِ، كَلِمَاتٍ وَلَكِنَّهَا تُبِيرُ الْعُقُولَ، وَتُحْيِي النُّفُوسَ، وَتَبْعَثُ فِيهِ الْأَمَلَ، وَتُطَهِّرُهَا مِنَ الرِّجْسِ وَالذَّنْسِ وَتَغْرَسُ فِيهَا الْفَضِيلَةَ وَالثَّقَةَ وَالْإِيمَانَ، وَالْإِيمَانَ بِشَجَاعَتِهَا عَلَى نَقْدِ ذَاتِهَا بِذَاتِهَا، وَإِعْلَانِ عِيُوبِهَا، ثُمَّ بِالتَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ، وَآيَاتِ تَشَعُّ بُرُوقِ اللَّهِ وَبِهَائِهِ وَجَلَالِهِ وَأَبْتِهَالَاتِ تَعْبِيرٍ تَعْبِيرًا حَيًّا وَصَافِيًّا عَنْ شَخْصِيَّةِ الْأَلْ كِرَامِ وَأَخْلَاقِهِمْ وَعَظَمَتِهِمُ الَّتِي لَا شَيْءَ فَوْقَهَا إِلَّا عَظَمَةُ الْخَالِقِ الْقَهَّارِ.

(١) غافر: ٦٠.

(٢) أنظر، الصَّحِيفَةَ السَّجَّادِيَّةَ الدُّعَاءَ الْخَامِسَ وَالْأَرْبَعُونَ (دُعَاؤُهُ لَوْدَاعِ شَهْرِ رَمَضَانَ). بِتَحْقِيقِنَا.

الأهل :

وَتَعَالِ مَعِيَ الْآنَ لِنَقْرَأَ هَذِهِ الْمُنَاجَاتَ لِلْإِمَامِ زَيْنِ الْعَابِدِينَ عليه السلام :

« اللَّهُمَّ هَذَا مَقَامُ الْعَائِدِ بِكَ ، وَمَحَلُّ الْمُعْتَرِفِ لَكَ ، فَلَا يَضِيقُنِّي عَنِّي فَضْلُكَ ، وَلَا يَقْصُرُنِّي دُونِي عَفْوُكَ ، وَلَا أَكُنْ أَخِيْبَ عِبَادِكَ التَّائِبِينَ ، وَلَا أَقْنَطَ وَفُودِكَ الْآمِلِينَ ، وَاعْفِرْ لِي ، إِنَّكَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ . اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَمَرْتَنِي فَرَكْبْتُ ، وَنَهَيْتَنِي فَرَكَبْتُ ، وَسَوَّلَ لِي الْخَطَاءَ خَاطِرُ السُّوءِ فَفَرَّطْتُ » ^(١) .

وَمِنْ دُعَاءِ آخَر :

« يَا حَلِيمُ أَنْتَ الَّذِي فَتَحْتَ لِعِبَادِكَ بَاباً إِلَى عَفْوِكَ ، وَسَمَّيْتَهُ التَّوْبَةَ ، وَجَعَلْتَ عَلَى ذَلِكَ الْبَابِ دَلِيلاً مِنْ وَحْيِكَ لِنَلَّا يَصِلُوا عَنْهُ ، فَقُلْتَ تَبَارَكَ أَسْمُكَ «يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » ^(٢) ، فَمَا عَذْرُ مَنْ أَغْفَلَ دُخُولَ ذَلِكَ الْمَنْزِلِ بَعْدَ فَتْحِ الْبَابِ وَإِقَامَةِ الدَّلِيلِ » ^(٣) .

يَقُولُ الْإِمَام :

إِلَهِي ، لَقَدْ أَمَرْتَ وَنَهَيْتَ وَكَانَ عَلَيَّ أَنْ أَسْمَعَ وَأَطِيع ، وَلَكِنْ خَاطَرَ السُّوءِ أَمْسَكَ بِي عَنِ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ، وَأَوْقَعَنِي فِيمَا لَا تُحِبُّ ، وَلَا تَرْضَى ، وَقَدْ أَمَرْتَنِي

(١) انظر ، الصَّحِيفَةُ السَّجَّادِيَّةُ الدُّعَاءُ الثَّانِي وَالثَّلَاثُونَ (دُعَاؤُهُ فِي صَلَاةِ اللَّيْلِ) . (بِتَحْقِيقِنَا) .

(٢) اَلْتَّخْرِيم : ٨ .

(٣) انظر ، الصَّحِيفَةُ السَّجَّادِيَّةُ الدُّعَاءُ الْخَامِسُ وَالْأَرْبَعُونَ (دُعَاؤُهُ لِوَدَاعِ شَهْرِ رَمَضَانَ) . (بِتَحْقِيقِنَا) .

فِي حَالِي هَذِهِ أَنْ أَطْرُقَ بَابَ التَّوْبَةِ آسَفًا نَادِمًا، وَهَذَا قَدْ فَعَلْتُ، وَأَتَيْتُكَ تَائِبًا،
فَأَفْتَحْ لِي بَابَ رَحْمَتِكَ وَغُفْرَانِكَ.

وَإِذَا كَانَ هَذَا الْخُطَابُ مِنَ الْإِمَامِ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ، فَإِنَّهُ فِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ خُطَابًا لِي
وَلَكَ - أَيُّهَا الْقَارِئُ - وَلِكُلِّ مَنْ سَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ، أَنَّهُ خُطَابٌ
لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ أَنْ لَا يَيَاسُوا وَلَا يَقْنَطُوا وَلَا يَصْرُوا عَلَى مَعْصِيَتِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ يَرْحَمُ
وَلَا يَغْرِفُ الْحَقْدَ، لِأَنَّ الْحَقْدَ شَأْنُ الضُّعَفَاءِ وَالْجُبْنَاءِ، وَاللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ، وَبِهَذَا الْأَمَلِ
تَتَنَعَّشُ الْأَرْوَاحُ، وَتَرْجِعُ إِلَى بَارِئِهَا، وَتَتَحَرَّرُ مِمَّا يُشِينُ.

وَكُلُّنَا يَعْرِفُ قِصَّةَ الْمَرْأَةِ السَّاقِطَةِ الَّتِي قَبِضُوا عَلَيْهَا مَعَ عَاشِقِهَا بِالْجُرْمِ
الْمَشْهُودِ، وَاتُّوَا بِهَا إِلَى السَّيِّدِ الْمَسِيحِ ﷺ، لِيُقِيمَ عَلَيْهَا الْحَدَّ، فَعَنَقَهُمْ، وَأَطْلَقَ
سَبِيلَهَا، فَكَانَ رَفَقَهُ بِهَا سَبِيًّا لِتَوْبَتِهَا، وَسَلَّوَكَهَا سَبِيلَ الصَّوْنِ وَالْعَقَافِ، حَتَّى أَصْبَحَ
الْحَرَامُ أَبْغَضَ الْأَشْيَاءِ إِلَى نَفْسِهَا.

أَنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ وَمَغْفِرَتَهُ لَا تَفْتَحُ أَبْوَابَهَا لِمَنْ جَحَدَ وَعَانَدَ، وَأَصْرَعَ عَلَى ضَلَالِهِ
وَعُتَايَتِهِ، أَمَّا مَنْ تَابَ وَأَنَابَ فَإِنَّ نَصِيْبَهُ مِنَ اللَّهِ الرِّضْوَانَ وَالْثَوَابَ... إِنَّ اللَّهَ جَلَّ
وَعَزَّ لَا يُعْطِي الْحَجَرَ لِمَنْ اسْتَجَارَ بِرَحْمَتِهِ، وَلَا ذَ بَعُودَهُ وَكَرَمَهُ.



أَيُّهُمَا نَخْتَارُ؟

لَوْ افْتَرَضَ أَنَّ إِنْسَانًا قَالَ لَكَ: إِذَا خُيِّرْتَ بَيْنَ الْفَقْرِ وَالْغِنَى، فَمَاذَا تَخْتَارُ؟ أَوْ بَيْنَ الصَّحَّةِ وَالْمَرَضِ، فَأَيُّهُمَا تُفَضِّلُ، لَوْ سُئِلْتَ مِثْلَ هَذَا لَقُلْتَ لِلسَّائِلِ - أَنْتَ مَجْنُونٌ... لِأَنَّ النَّاسَ تَسْأَلُ عَنِ الْمُتَشَابِهَاتِ وَالْمُشْكَلَاتِ، وَأَنْتَ تَسْأَلُ عَنِ الْوَاضِحَاتِ وَالْبَدِيدَاتِ.

وَلَوْ غَيَّرَ صِيغَةَ السُّؤَالِ، وَأَبْرَزَهُ، بِهَذَا الْأَسْلُوبِ، وَقَالَ: أَمَامَكَ طَرِيقَانِ: أَحَدُهُمَا شَاقٌّ وَعَسِيرٌ، وَلَكِنَّهُ يُؤَدِّي بِكَ إِلَى الْغِنَى وَالثَّرْوَةِ، وَالْآخَرُ سَهْلٌ يَسِيرٌ، وَلَكِنَّهُ يُؤَدِّي بِكَ إِلَى الْعُوزِ وَالْفَقْرِ، فَأَيُّهُمَا تَسْلُكُ؟ لَوْ قَالَ هَذَا لَا تَقُولُ لَهُ: أَنْتَ مَجْنُونٌ، بَلْ تُقَارَنُ وَتَوَازَنُ بَيْنَ مَشَقَّةِ الطَّرِيقِ وَأَضْرَارِهِ، وَبَيْنَ مَا يَتَرْتَبِ عَلَى سَلُوكِهِ مِنْ مَنَافِعَ وَفَوَائِدَ، فَإِنْ كَانَتْ تَسْتَأْهِلُ تَحْتَمِلُ هَذِي الْمَشَاقِ وَالْأَضْرَارِ أَقْدَمَتْ، وَإِلَّا أَحْجَمَتْ.

وَقَدْ رَأَيْنَا الْعُقْلَاءَ يَرْكَبُونَ الْبَحَارَ، وَيَقْطَعُونَ الْقِفَارَ، وَيُجَازِفُونَ مِنْ أَجْلِ نَفْعٍ مُحْتَمَلٍ، وَرِيحٍ مَظْثُونٍ، وَيَسْخُونُ بِأَمْوَالِ طَائِلَةٍ، لِفَائِدَةٍ قَدْ تَحْصُلُ، وَقَدْ لَا تَحْصُلُ، إِذَنْ، فَالْغَايَةُ هِيَ الْمَسْوُوعُ وَالْمُبَرَّرُ، وَإِيشَارُ الْآجِلِ الْأَعْلَى عَلَى الْعَاجِلِ الْأَدْنَى هُوَ الْبَاعِثُ وَالْمُحَرِّكُ.

وَإِذَا أَشْتَهَيْتَ نَوْعًا خَاصًّا مِنَ الطَّعَامِ وَمَالَتَ إِلَيْهِ نَفْسَكَ فَإِنَّكَ تَخْجَمُ عَنْ تَنَاوُلِهِ

بَطِيبَ نَفْسٍ إِذَا نَهَاكَ عَنْهُ الطَّيِّبُ، وَعَلِمْتَ أَنَّهُ مُضِرٌّ بِصَحَّتِكَ، وَالسَّرُّ هُوَ الْمُوَازَنَةُ بَيْنَ الْأَجَلِ وَالْعَاجِلِ، وَتَرْجِيحَ الْأَوَّلِ عَلَى الثَّانِي، فَالْإِنْسَانُ بِفِطْرَتِهِ يُوَازِنُ وَيُقَارِنُ بَيْنَ خَيْرٍ حَاضِرٍ يُؤَدِي إِلَى الشَّرِّ، وَبَيْنَ شَرٍّ حَاضِرٍ يُؤَدِي إِلَى الْخَيْرِ، وَيَأْخُذُ بِالْكَفَّةِ الرَّاجِحَةِ، وَقَدْ اعْتَمَدْتَ هَذَا الْمَبْدَأَ جَمِيعَ الشَّرَائِعِ السَّمَاوِيَّةِ وَالْوَضْعِيَّةِ، وَبَنَيْتَ عَلَيْهِ أَحْكَاماً شَتَّى، وَإِلَيْهِ أَشَارَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: «يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا»^(١). وَتَقُولُ: إِذَا كَانَ هَذَا الْمَبْدَأُ فِطْرِيًّا، وَمَدْعُومًا بِالْقُرْآنِ وَالشَّرَائِعِ، فَكَيْفَ سَلَكَ الْكَثِيرُونَ الطَّرِيقَ الْمُؤَدِّيَّةَ إِلَى النَّارِ، وَأَتَرَوْهَا عَلَى طَرِيقِ الْجَنَّةِ؟. أَتَقُولُ: أَنَّهُمْ غَيْرُ عَقْلَاءَ أَوْ لَا يَدِينُونَ بِدِينِ؟. وَالْمَفْرُوضُ أَنَّهُمْ عَقْلَاءَ، وَأَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَتَوَابِهِ وَعِقَابِهِ.

الْجَوَابُ:

كَلَّا نَحْنُ نَتَّقُ بِعَقْلِهِمْ، لِأَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ التَّمَيُّزِ وَالْإِدْرَاكِ، وَأَيْضًا نَتَّقُ بِعَقِيدَتِهِمْ، لِأَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلَكِنْ لَا تَتَّقُ بِإِرَادَتِهِمْ... أَنَّهُمْ ضِعَافُ الْإِرَادَةِ، أَقْوِيَاءُ الْعَاطِفَةِ، لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ إِذَا مَالَتْ، وَشَهَوَتِهِمْ إِذَا طَغَتْ، تَحَامًا كَالْمَرِيضِ تَغْلِبُهُ نَفْسُهُ إِلَى الطَّعَامِ الْمُضِرِّ، وَكَالتَلْمِيزِ الْكَسُولِ يُؤْثِرُ الرَّاحَةَ عَلَى الْجِدِّ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ الْكَسَلَ يُؤَدِي إِلَى الْفَشْلِ، وَأَنَّ النَّجَاحَ خَيْرُ أَلْفِ مَرَّةٍ مِنَ الرِّشْوَةِ.

وَبِالنَّالِيِّ فَإِنَّ الْعَاقِلَ إِذَا رَأَى طَرِيقًا جَمِيلًا وَمُرِيحًا لَا يُبَادِرُ إِلَى سَلُوكِهِ قَبْلَ أَنْ يَعْرِفَ إِلَى أَيْنَ يَنْتَهِي.

التَّزْغِيبُ فِي الْخَيْرِ

الإمام زين العابدين عليه السلام هو سيّد الواقعيين، وإمام العارفين، ومع ذلك يطلب من الله أشياء وأشياء، ويلج عليه بالسؤال، ويستعجله بالإجابة، والأشياء التي يطلبها الإمام من الله سبحانه ليست من نوع الصحة، وطول العمر، وما إليه ممّا لا يدخل في مقدور الإنسان فحسب، بل يسأله أيضاً أن يخلصه من الحسد ويبتعد به عن المعاصي والذنوب قال: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَخَلِّصْنِي مِنَ الْحَسَدِ، وَأَخْضِرْنِي عَنِ الذُّنُوبِ، وَوَرِّعْنِي عَنِ الْمَحَارِمِ، وَلَا تُجَرِّثْنِي عَلَى الْمَعَاصِي، وَأَجْعَلْ هَوَايَ عِنْدَكَ، وَرِضَايَ فِيمَا يَرُدُّ عَلَيَّ مِنْكَ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا رَزَقْتَنِي، وَفِيمَا خَوَّلْتَنِي، وَفِيمَا أَنْعَمْتَ بِهِ عَلَيَّ، وَأَجْعَلْنِي فِي كُلِّ حَالَتِي مُحْفُوظاً مَكْلُوءاً مُسْتَوِراً مَمْنُوعاً مُعَاذاً مُجَاراً» ^(١).

ونقول: أن هذه وما إليه تعود إلى قدرة الإنسان واختياره، لذا طلبها الله من عبادة، وكلفهم بها، فعلياً نحن أن نبتعد عن الذنوب، ونتورّع عن المحارم، ولا نتجرأ على المعاصي بإختيارنا، لا أن نطلب من الله جلّ وعلا أن يحملنا على ذلك.

(١) أنظر، الصّحيفة السّجّاديّة: الدّعاء الثّاني والعشرون (دُعاؤه عند الشّدّة). بتحقّقنا.

وَقَبْلَ أَنْ نُجِيبَ نُمَهِّدَ بِهَذَا الْمِثَالِ: وَالِدَ طَلَبٍ مِنْ وَلَدِهِ أَنْ يَنْصَرِفَ إِلَى الدَّرْسِ، وَيُؤَلِّهِ الْعِنَايَةَ وَالْإِهْتِمَامَ، كَيْ يَتَجَاوَزَ الْإِمْتِحَانَ بِنَجَاحٍ، فَطَلَبُ الْوَلَدِ بِدَوْرِهِ مِنْ أَبِيهِ أَنْ يُهَيِّئَ لَهُ جَوًّا صَالِحًا لِلدِّرَاسَةِ، كَيْ لَا يَعْوقَهُ شَيْءٌ... وَلَيْسَ مِنْ شَكِّ أَنْ الْوَالِدَ إِذَا عَرَفَ الْإِخْلَاصَ مِنْ وَلَدِهِ، وَصَدَّقَ النِّيَّةَ وَالْعَزَمَ يُخَصِّصَ لَهُ غُرْفَةً مُسْتَقْلَةً هَادِئَةً، وَيُنْفِقَ عَلَيْهِ بِسَعَةٍ، وَيُعِيفِهِ مِنْ جَمِيعِ الْخِدْمَاتِ وَيَخْتَارَ لَهُ أَسَاتِذًا خَاصًّا يُعِينُهُ عَلَى تَفْهَمِ دُرُوسِهِ إِذَا أَقْتَضَى الْأَمْرَ، أَمَا إِذَا كَانَ يَأْسَأُ مِنْهُ، وَعَلَى يَقِينٍ مِنْ عَدَمِ رَغْبَتِهِ، وَكَذَبِهِ فِي أَقْوَالِهِ فَإِنَّهُ يَهْمِلُ طَلَبَهُ لِعِلْمِهِ بِعَدَمِ الْفَائِدَةِ وَالْجَدْوَى.

وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ مَعْنَا أَنَّهُ حِينَ نَطْلُبُ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ أَنْ يَجْعَلَ لَنَا طَائِعِينَ غَيْرَ عَاصِينَ فَإِنَّهُ نَطْلُبُ مِنْهُ أَنْ يُنَهِّدَ لَنَا الْأَسْبَابَ، وَيُهَيِّئَ الْجَوَّ الصَّالِحَ لِلطَّاعَةِ، وَعَدَمَ الْمَعْصِيَةِ، وَبِكُلِّ تَأْكِيدٍ أَنَّ اللَّهَ مَتَى عَرَفَ مِنَّا الصَّدْقَ وَالتَّصَحُّحَ فَإِنَّهُ يَتَكَرَّمُ وَيَتَفَضَّلُ بِالْهِدَايَةِ وَالتَّوْفِيقِ، وَالْإِعْرَاضِ وَأَهْمَلْ، وَبِهَذَا نَجِدُ تَفْسِيرَ قَوْلِ الْإِمَامِ زَيْنِ الْعَابِدِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «اللَّهُمَّ وَإِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِي بِالتَّوْبَةِ إِلَّا بِعِصْمَتِكَ، وَلَا اسْتِمْسَاكَ بِي عَنْ الْخَطَايَا إِلَّا عَنْ قُوَّتِكَ، فَقَوِّنِي بِقُوَّةِ كَافِيَةٍ، وَتَوَلَّنِي بِعِصْمَةِ مَانِعَةٍ»^(١). بَلْ أَنَّ الْإِمَامَ طَلَبَ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ أَنْ يَنْحَحَهُ الرَّغْبَةَ فِي الْعَمَلِ لَهُ، وَلَا خِرَتَهُ، قَالَ: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَأَزِدْنِي الرَّغْبَةَ فِي الْعَمَلِ لَكَ لِأَخِرَتِي، حَتَّى أَعْرِفَ صِدْقَ ذَلِكَ مِنْ قَلْبِي، وَحَتَّى يَكُونَ الْغَالِبُ عَلَيَّ الزُّهْدُ فِي دُنْيَايَ، وَحَتَّى أَعْمَلَ الْحَسَنَاتِ شَوْقًا، وَأَمِنَ مِنَ السَّيِّئَاتِ فَرَقًا، وَخَوْفًا، وَهَبْ لِي نُورًا أَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ، وَأَهْتَدِي بِهِ فِي الظُّلُمَاتِ، وَأَسْتُضِيءَ بِهِ مِنَ الشُّكِّ وَالشُّبُهَاتِ»^(٢).

(١) أنظر، الصَّحِيفَةَ السَّجَّادِيَّةَ: الدُّعَاءُ الْحَادِي وَالتَّلَاثُونَ (دُعَاؤُهُ بِالتَّوْبَةِ). بِتَحْقِيقِنَا.

(٢) أنظر، الصَّحِيفَةَ السَّجَّادِيَّةَ: الدُّعَاءُ الثَّانِي وَالْعِشْرُونَ (دُعَاؤُهُ عِنْدَ الشَّدَةِ). بِتَحْقِيقِنَا.

وَإِذَا كَانَ الْوَلَدُ لَا يَطْلُبُ مِنْ أَبِيهِ أَنْ يُعْنَحَهُ الرَّغْبَةُ فِي الدَّرْسِ فَإِنَّ عَلَى الْآبِ أَنْ
يُوجِدَ لَهُ أَسْبَابَ الرَّغْبَةِ، وَيُبَيِّنَ لَهُ ثَمَرَاتِ الْجِدِّ، وَالنَّشَاطِ، وَعَاقِبَةَ الْإِهْمَالِ
وَالْكَسَلِ، وَيُقَدِّمَ لَهُ الشَّوَاهِدَ، وَيَضْرِبَ لَهُ الْأَمْثَالَ، تَمَامًا كَمَا يَفْعَلُ التَّجَارِ حِينَ
يَبْشُرُونَ الدَّعَايَا لِعَمَلِهِمْ، وَكَمَا تَفْعَلُ الْمَدَارِسُ وَالْجَامَعَاتُ حِينَ تُقَدِّمُ الْجَوَائِزَ
وَالْمِنَحَ لِلْمُتَفَوِّقِينَ، وَقَدْ رَغَبَنَا اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ فِي الْحَقِّ وَالْخَيْرِ، وَكَرِهَنَا فِي الْبَاطِلِ
وَالشَّرِّ حِينَ صَوَّرَ كُلًّا عَلَى مِثَالِهِ، وَأَرْشَدَ إِلَى طَرِيقِهِ، وَحِينَ أَتْنَى عَلَى الْمُطِيعِ،
وَقَرَّبَهُ مِنْهُ، وَوَعَدَهُ بِأَجْزَلِ الثَّوَابِ، وَحِينَ ذَمَّ الْعَاصِيَ، وَأَبْعَدَهُ عَنِ رَحْمَتِهِ،
وَتَوَعَّدَهُ بِأَشَدِّ الْعِقَابِ... فَإِنْ لَمْ نَعْمَلْ وَنُمَثِّلْ كُنَّا نَحْنُ الْمَسْئُولِينَ دُونَ غَيْرِنَا،
وَصَدَقَتْ عَلَيْنَا الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْنَهَا﴾^(١).
وَهُنَا شَيْءٌ، وَهُوَ إِنَّا قَدْ رَأَيْنَا الْأُلُوفَ لَا تُؤَثِّرُ فِيهِمُ الدَّعَايَا، حَتَّى الصَّادِقَةُ
مِنْهَا، وَلَا الْوَعْدُ وَالْوَعِيدُ، فَكَمْ مِنْ تَلْمِيزِ كَرِهَ الدَّرْسِ، وَأَنْصَرَفَ عَنْهُ بَعْدَ أَنْ أُعِيَتْ
الْحِيلُ وَغَيْرِ الْحِيلِ أَوْلِيَاؤُهُ، وَأَسَاتِذَتُهُ، وَأَطْبَاؤُهُ... وَكَمْ مِنْ إِنْسَانٍ يَتْلُو كِتَابَ اللَّهِ،
وَيَقْرَأُ الْأَحَادِيثَ، وَيَسْمَعُ الْوَعَاظَ وَالْمُرَشِدِينَ، وَمَعَ ذَلِكَ يَغْرُضُ وَيَنَاقِ بِجَانِبِهِ،
وَلَا يَزِيدُهُ الْوَعْدُ وَالْوَعِيدُ إِلَّا إِصْرَارًا وَخَسَارًا، ذَلِكَ أَنَّ الْمُرْغَبَاتِ وَالْمُشَوَّقاتِ لَمْ
تَخْلُقْ فِيهِ الْمِيلَ وَالْإِرَادَةَ لِفِعْلِ الْخَيْرِ وَتَرْكِ الشَّرِّ... وَبَدِيهَةٌ أَنَّ الْإِرَادَةَ لَيْسَتْ أَمْرًا
أَخْتِيَارًا، وَإِنَّمَا تَنْشَأُ مِنْ ظُرُوفٍ وَمُلَابَسَاتٍ لَا يُسَيِّرُ الْإِنْسَانُ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا،
وَإِذَا لَمْ تَكُنْ الْإِرَادَةُ بِالْقُدْرَةِ وَالْإِخْتِيَارِ يَكُونُ الصَّادِرُ عَنْهَا كَذَلِكَ... لَا يَدْخُلُ
تَحْتَ الْقُدْرَةِ، وَعَلَيْهِ يَكُونُ الْإِنْسَانُ مُسَيِّرًا غَيْرَ مُخَيَّرٍ، لَا حِيلَةَ وَلَا وَسِيلَةَ، فَكَيْفَ
سَاعَ سُؤَالِهِ وَعَقَابِهِ؟

هَذَا، مِنْ نَاحِيَةٍ، وَمِنْ نَاحِيَةٍ ثَانِيَةٍ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَادِرٌ عَلَى عِبَادِهِ، وَأَفْعَالِهِمْ وَتَرْوِكِهِمْ فَإِذَا أَرَادَ الْخَيْرَ وَكَرِهَ الشَّرَّ مِنْهُمْ فَلَمَّا ذَا لَا يَحْمِلُهُمْ عَلَى فِعْلِ ذَلِكَ، وَتَرَكَ هَذَا؟.

وَجَوَابُنَا عَنْ الْجَهَةِ الْأُولَى وَهِيَ: أَنَّ مَعْنَى الْإِنْسَانِ مُسْتَعِيرٌ غَيْرُ مُخَيَّرٍ؟ أَنَّ الْفِعْلَ يَصْدُرُ عَنْهُ بِإِرَادَتِهِ وَاخْتِيَارِهِ، وَهَذَا مَا حَصَلَ بِالْوَجْدَانِ. أَمَّا أَنَّ الْإِرَادَةَ قَدْ صَدَرَتْ بِدُونِ إِرَادَةٍ وَاخْتِيَارٍ فَكَلَامٌ آخَرٌ... عَلَى أَنَّ الْإِرَادَةَ، وَإِنْ كَانَتْ أَمْرًا قَهْرِيًّا لَا أَسْبَابَ لَهَا بِصِلَةٍ إِلَى الْإِخْتِيَارِ، فَإِنَّ تَرْتِيبَ الْأَثَرِ عَلَيْهَا، وَالْإِنْدِفَاعَ وَرَأَاهَا أَمْرٌ اخْتِيَارِي لَا يَخْرُجُ مِنَ الطَّاقَةِ وَالْمَقْدَرَةِ، فَلَقَدْ رَأَيْنَا الْمَرِيضَ يَحْجُمُ عَنْ الطَّعَامِ الْمُضَرِّ، وَهُوَ مُرِيدُ لَهُ، وَيَتَشَرَّبُ الدَّوَاءَ الْمَرُّ، وَهُوَ كَارِهِ لَشُرْبِهِ، وَرَأَيْنَا الْعُقَلَاءَ يَذْمُونَ الطَّالِبَ الْكَثُولَ عَلَى كَسَلِهِ، مَعَ عِلْمِهِمْ. بِأَنَّهُ مُرِيدُ لِلْكَسَلِ، وَأَنَّ الْإِرَادَةَ قَهْرِيَّةٌ لَا إِرَادِيَّةَ، وَرَأَيْنَاهُمْ يَذْمُونَ الْمُجْرِمَ، وَيَعَاقِبُونَهُ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ الْجَزِيْمَةَ صَدَرَتْ عَنْ إِرَادَتِهِ، بَلْ أَنَّ إِرَادَتَهُ هَذِهِ أَدْعَى وَأَوْكَدَ عِنْدَهُمْ لِلْعِقَابِ، بَلْ هِيَ الْمُسَوِّغُ وَالْمُبَرِّرُ لَهُ فَالْإِرَادَةُ - إِذَنْ - أَشَبَّهَ بِالْحَسَدِ، وَالطَّيْرَةِ، وَالْوَسْوَسَةِ الَّتِي نَهَى الرَّسُولُ الْأَعْظَمُ ﷺ عَنِ الْعَمَلِ بِمُوجِبِهَا، لِأَنَّهُ مَقْدُورٌ، وَلَمْ يَنْهَ عَنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ، لِأَنَّهَا قَهْرِيَّةٌ لَا اخْتِيَارِيَّةَ. قَالَ ﷺ: «رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي تِسْعَةٌ:» الْخَطَأُ، وَالنِّسْيَانُ، وَمَا أَكْرَهُوا عَلَيْهِ، وَمَا لَا يَعْلَمُونَ، وَمَا لَا يُطِيقُونَ، وَمَا أَصْطَرُّوا إِلَيْهِ، وَالْحَسَدَ، وَالطَّيْرَةَ، وَالتَّفَكِيرَ فِي الْوَسْوَسَةِ فِي الْخَلْقِ مَا لَمْ يَنْطِقْ بِشَفِّهِ» (١).

(١) أنظر، الكافي: ٦٣/٢ ح ٢، تحف العقول: ٥٠، من لا يحضره الفقيه: ٣٦٥/١، وسائل الشريعة:

٣٦٩/١٥ ح ١، مجمع الفائدة: ٦٠/٥، الإختصاص للشيخ المفيد: ٣١، الخصال للشيخ الصدوق:

١٧/٢ ح ٩، التوحيد للصدوق: ٣٥٣ ح ٢٤.

فَلَمْ يَنْهَ عَنِ الْحَسَدِ وَالطَّيْرَةِ بِالذَّاتِ، بَلْ نَهَى عَنْ أَثَرِهَا بِمُوجِبِهَا.
أَمَّا جَوَابُنَا عَنْ الْجِهَةِ الثَّانِيَةِ: فَهُوَ أَنَّ اللَّهَ أَرَادَ الْفِعْلَ وَالتَّرْكَ مِنَ الْإِنْسَانِ بِرِضَاهُ
وَأَخْتِيَارِهِ، بِحَيْثُ يَفْعَلُ الْخَيْرَ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى تَرْكِهِ، وَيَتْرَكُ الشَّرَّ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى
فِعْلِهِ، وَإِلَّا لَوْ أُلْجِيَءُ إِلَى الْفِعْلِ فَقَطَّ، أَوْ التَّرْكَ فَقَطَّ لَانْتَفَتْ عَنْهُ الْإِنْسَانِيَّةُ، وَأَصْبَحَ
آلَةٌ صَمَاءَ لَا يَسْتَحِقُّ مَدْحًا وَثَوَابًا وَلَا ذَمًّا وَعِقَابًا.

ثُمَّ إِنَّ اخْتِيَارَ الْإِنْسَانِ فِي فِعْلٍ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، وَتَرَكَ مَا نَهَى عَنْهُ لَا يَتَنَافَى أَبَدًا فِي
أَنْ يَكُونَ فِي ظُرُوفٍ خَاصَّةٍ تَخْرُجُ عَنْ إِرَادَتِهِ، وَأَنْ يَكُونَ لِهَذِهِ الظُّرُوفِ نَوْعٌ مِنَ
التَّأثيرِ فِيمَا يَفْعَلُ، أَوْ يَتْرَكُ وَإِلَيْكَ هَذَا الْمِثَالُ:

رَجُلٌ جَانِعٌ دُعِيَ إِلَى شَهَادَةِ الزُّورِ لِقَاءَ مَبْلَغٍ مِنَ الْمَالِ، فَهُوَ مِنْ جِهَتِهِ هَذِهِ يَبْدُو
أَنَّهُ مُضْطَرٌّ إِلَى الْكَذِبِ، وَلَكِنَّهُ مِنْ جِهَةٍ ثَانِيَةٍ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَضْغَطَ عَلَى إِرَادَتِهِ،
وَيَصْبِرَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ، وَيَجْتَهِدَ فِي الْبَحْثِ عَنْ سَبِيلِ مَشْرُوعٍ، وَيَطْرُقَ مِنْ
أَجْلِهِ كُلِّ بَابٍ، فَإِنَّا تَعَجَّلَ وَلَمْ يَضْبِرْ كَانَ آثِمًا وَإِنْ كَانَ جُرْمُهُ دُونَ جُرْمِ الْمُتَخَمِّنِ،
أَمَّا إِذَا صَبَرَ وَلَمْ يَشْهَدْ فَيَضَاعِفْ لَهُ الْأَجْرَ مَرَّتَيْنِ، مَرَّةً عَلَى التَّرْكِ، وَأُخْرَى عَلَى
الصَّبْرِ.

وَفِي هَذِهِ الْحَالِ تُعْرِفُ الرِّجَالَ، وَتَمَيِّزُ الدِّينَ الصَّحِيحَ مِنَ الزَّائِفِ، وَالْإِيمَانَ
الْقَوِي مِنَ الضَّعِيفِ، فَالْمُؤْمِنُ حَقًّا يُطِيعُ اللَّهَ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَالصَّحَّةِ وَالْمَرَضِ،
وَالرِّضَا وَالْغَضَبِ، لَا فِي حَالِ دُونَ حَالٍ، قَالَ الْإِمَامُ زَيْنُ الْعَابِدِينَ عليه السلام: «اللَّهُمَّ
صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَارْزُقْنِي التَّحَفُّظَ مِنَ الْخَطَايَا، وَالْإِحْتِرَاسَ مِنَ الزَّلَلِ فِي
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فِي حَالِ الرِّضَا وَالْغَضَبِ، حَتَّى أَكُونَ بِمَا يَرِدُ عَلَيَّ مِنْهُمَا بِمَنْزِلَةِ
سَوَاءٍ، غَامِلًا بِطَاعَتِكَ، مُؤثِّرًا لِرِضَاكَ عَلَى مَا سِوَاهُمَا فِي الْأَوْلِيَاءِ وَالْأَعْدَاءِ، حَتَّى

يَأْمَنَ عَدُوِّي مِنْ ظُلْمِي وَجَوْرِي» ^(١).

وَبَيَّتَ الْقَصِيدُ فِي هَذِهِ الْمُنَاجَاةِ هُوَ قَوْلُهُ ﷺ: «مُؤَثِّرًا لِرِضَاكَ عَلَيَّ مَا سِوَاهُمَا فِي الْأَوْلِيَاءِ وَالْأَعْدَاءِ»، فَلَا يَجْحَدُ لِعَدُوِّهِ مِنْ خُلُقٍ وَفَضْلٍ، وَلَا يُنْسِبُ إِلَيْهِ مَا لَيْسَ فِيهِ مِنْ سُوءٍ وَجَهْلٍ تَشْفِيًا وَانْتِقَامًا... وَلَا أَعْرِفُ مُخْتَبِرًا لِمَنْ يَدْعِي التَّيَابَةَ عَنِ الْإِمَامِ أَصَحَّ وَأَدَقَّ مِنْ هَذَا الْمُخْتَبِرِ، وَلَا مِيزَانًا لِإِيْمَانِهِ أَعْدَلُ وَأَصْدَقُ مِنْ هَذَا الْمِيزَانِ أَنَّ الَّذِي يُنْفَسُ عَنْ غَضَبِهِ بِتَجْرِيحِ الْأَبْرِيَاءِ وَإِيْذَانِهِمْ لَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ، فَكَيْفَ بِمَنْ يَلُونِ هَذَا التَّجْرِيحِ وَالْإِيْذَاءَ بِلَوْنِ الدِّينِ، وَيَزْعَمُ أَنَّهُ بَوْحِي مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ؟... تَعَالَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

لَا حُجَّةَ وَلَا عَذْرَ:

وَأُعَقِّبُ عَلَيَّ مَا قَدَّمْتُ مِنْ أَنَّ الْإِنْسَانَ مُخْتَرٍ مُسْتَرٍ بِهَذِهِ الْحُجَّةِ الْبَالِغَةِ الَّتِي أَوْدَعَهَا اللَّهُ عِنْدَ أَوْلِيَائِهِ وَأَحْبَائِهِ، قَالَ الْإِمَامُ زَيْنُ الْعَابِدِينَ ﷺ: «وَضَعَ عَنَّا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ، وَلَمْ يُكَلِّفْنَا إِلَّا وُسْعًا، وَلَمْ يُجَسِّمْنَا إِلَّا يُسْرًا، وَلَمْ يَدْعُ لِأَحَدٍ مِنَّا حُجَّةً، وَلَا عَذْرًا» ^(٢).

(١) انظر، الصَّحِيفَةُ السَّجَّادِيَّةُ: الدُّعَاءُ الثَّانِي وَالْعُشْرُونَ (دُعَاؤُهُ عِنْدَ الشَّدْوَةِ). بِتَحْقِيقِنَا.

(٢) انظر، الصَّحِيفَةُ السَّجَّادِيَّةُ الدُّعَاءُ الْأَوَّلُ (التَّخْيِيدُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ). بِتَحْقِيقِنَا.

مِثَّةُ السُّوءِ

قَضَتِ الْحِكْمَةُ الْإِلَهِيَّةُ أَنْ لَا يَعْلَمَ الْإِنْسَانُ، حَتَّى سَيِّدَ الْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ مَتَى يَأْتِيهِ أَجَلُهُ، فَإِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ لَا يَضْمَنُ أَنْ يَعُودَ إِلَيْهِ، وَإِذَا دَخَلَهُ لَا يَذْرِي: أَيْخُرُجُ مِنْهُ وَاقِفًا عَلَى قَدَمِيَّةٍ، أَوْ مَحْمُولًا عَلَى الْأَعْوَادِ، بَلْ فِي كُلِّ ثَانِيَةٍ يَرْتَقِبُ أَنْ لَا يَبْلُغَ النَّبِيَّ بَعْدَهَا، وَيَبْقَى حَيًّا لِيَأْخُذَ النَّفْسَ الثَّانِي، حَتَّى وَلَوْ كَانَ فِي مُقْتَبِلِ الْعُمْرِ سَلِيمًا مِنَ الْأَعْرَاضِ وَالْأَمْرَاضِ... هَذِهِ حَقِيقَةُ وَاقِعَةٍ تَسْبِيحُهَا إِلَيْهَا، أَوْ لَمْ تَسْبِيحْهُ، عَمَلْنَا بِمُوجِبِهَا، أَوْ لَمْ نَعْمَلْ... أَنَّهَا تُلَازِمُ طَبِيعَةَ الْحَيَاةِ بِمَا هِيَ، وَلَا تَخْتَلِفُ بِإِخْتِلَافِ الظُّرُوفِ وَالْمَلَابَسَاتِ.

وَقَدْ سَأَلَ الْإِمَامُ زَيْنُ الْعَابِدِينَ رَبَّهُ جَلَّ وَعَزَّ أَنْ لَا يَنَأَى بِهِ عَنِ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ، وَأَنْ يَجْعَلَهَا نَضْبَ عَيْنَيْهِ أَبَدًا وَدَائِمًا فِي جَمِيعِ أَعْمَالِهِ وَتَصَرُّفَاتِهِ، قَالَ: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَاكْفِنَا طُولَ الْأَمَلِ، وَقَصِّرْهُ عَنَّا بِصَدَقِ الْعَمَلِ حَتَّى لَا نُؤْمَلَ أَسْتِثْمَامَ سَاعَةٍ بَعْدَ سَاعَةٍ، وَلَا أَسْتِيفَاءَ يَوْمٍ بَعْدَ يَوْمٍ، وَلَا اتِّصَالَ نَفْسٍ بِنَفْسٍ، وَلَا لِحُوقِ قَدَمٍ بِقَدَمٍ»^(١).

وَمَرَّةً ثَانِيَةً وَثَالِثَةً أَعِدْ مَعِيَ - أَيُّهَا الْقَارِيءُ - هَذِهِ الْمُنَاجَاةَ، فَإِنَّهَا حَتْمًا

(١) انظر، الصَّحِيفَةَ السَّجَّادِيَّةَ الدُّعَاءَ الْأَرْبَعُونَ (دُعَاؤُهُ عِنْدَ ذِكْرِ الْمَوْتِ). بِتَحْقِيقِنَا.

سُخِّفَ مِنْ غَلَوَاءِ نَفْسِكَ، وَتَكُنَّجَ مِنْ جَمَاحِهَا وَكِبَرِيَّانِهَا، إِنْ حَاوَلْتَ أَنْ تَشْطَحَ وَتَطْفَحَ، وَأَنَّهَا سَتَضْبِرُ وَتَنْتَظِرُ - لَا مَحَالَةَ - إِذَا بُلِيَتْ بِالْمَصَائِبِ وَالْمَتَاعِبِ كَرَّرَ هَذِهِ الْمُنَاجَاةَ صَبَاحَ مَسَاءٍ فَإِنَّهَا وَسِيلَةٌ إِلَى التَّوَاضِعِ وَالْخُشُوعِ، وَإِلَى الْإِيمَانِ وَالتَّقَى، وَالْحُبِّ وَالتَّسَامُحِ.

أَنَّ الْعَاقِلَ إِذَا وَضَعَ الْمَوْتَ نُصِبَ عَيْنَيْهِ عَمَلٌ بَوَاحِي مِنْهُ، تَمَامًا وَالسَّيْفَ مُسَلَّطَ عَلَى رَأْسِهِ، وَهَذَا أَحَدُ الْفُرُوقِ بَيْنَ مَنْ عَمِلَ عَلَى أَسَاسِ الشُّعُورِ بِالْمَسْئُولِيَّةِ وَالْحِسَابِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَبَيْنَ مَنْ عَمِلَ بِدُونِ هَذَا الشُّعُورِ غَيْرِ مُكْتَرِثٍ بِشَيْءٍ.

فَالْأَوَّلُ لَا يَخْشَى الْمَوْتَ، بَلْ يَطْلُبُهُ وَيَأْنَسُ بِهِ، لِأَنَّهُ وَاثِقٌ بِمَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُ مِنَ الْخَيْرَاتِ، الْمَسَرَّاتِ، تَمَامًا كَالْبَرِيِّ يُنْشَدُ الْعَدَالَةَ وَيَسْتَعَجِلُهَا.... حِينَ رَأَتْ فَاطِمَةُ (ع) أَبَاهَا يَجُودُ بِنَفْسِهِ، صَاحَتْ «وَأَبَاهُ»!!

فَقَالَ لَهَا الرَّسُولُ الْأَعْظَمُ (ﷺ): «لَا خَوْفَ عَلَى أَبِيكَ بَعْدَ الْمَوْتِ» (١).

وَقَالَ عَلِيٌّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ (ع) حِينَ ضَرَبَهُ ابْنُ مُلْجَمٍ: «فَزْتُ وَرَبَّ الْكَفْبَةِ» (٢).

(١) أنظر، ميزان الاعتدال: ١٣٥/٣، بشارة المصطفى: ٣٥٣، فتح القدير: ٢٢٤/٣، جواهر المطالب في مناقب الإمام علي (ع) لابن الدمشقي: ١٥٦/١، ينابيع النور: ١٣٨/١، الإمامة والسياسة: ١٢/١، أنساب الأشراف: ٥٨٦/١، الزِّيَارَةُ النَّصْرَةُ: ١٦٧/١، السِّيَقَةُ لِلجَوْهَرِيِّ بِرَوَايَةِ شَرْحِ النَّهْجِ لِابْنِ أَبِي الْحَدِيدِ: ١٣٢/٢، تَارِيخُ الْحَمِيْسِ: ١٧٨/١، الدَّرُ الْمَشْهُورُ: ١٧٧/٤، لُبَابُ النُّقُولِ لِلسِّيُوطِيِّ: ١٢٣، الْكَامِلُ فِي التَّأْرِيخِ: ١٩١/٥.

(٢) أنظر، تَارِيخُ الطُّبَرِيِّ: ١٤٣/٥، مَقَاتِلُ الطَّالِبِينَ: ٢٩ و ٤٧، طَبَقَاتُ أَبِي سَعْدٍ: ٣٥/٣، أنساب الأشراف: ٤٨٩/٢ و ٤٩٩ و ٥٢٤، مَرْوَجُ الذَّهَبِ: ٤١١/٢، الإمامة والسياسة: ١٥٩/١، الْكَامِلُ فِي التَّأْرِيخِ: ٣٨٩/٣، مناقب الخوارزمي: ٣٨٠ - ٤١٠، مناقب ابن شهر آشوب: ٣١١/٣، تَارِيخُ ابْنِ عَسَاكِرَ: ٣٦٧/٣ ح ١٢٤، أنساب الأشراف: ٤٨٨/١ و ٤٩٠، تَارِيخُ دِمَشْقَ: ٩٧/٢٨.

وَقَالَ ﷺ: «وَاللَّهِ لَا بُنْ أَيْ طَالِبِ آتَسُ بِالْمَوْتِ مِنَ الطُّفْلِ بِتَذِي أُمِّهِ»^(١).
 وَالسَّرُّ هُوَ الثَّقَةُ بِالرَّاحَةِ وَالثَّوَابِ بَعْدَ الْمَوْتِ. عَلَى عَكْسِ الثَّانِي، فَإِنَّهُ يَكْزِرُهُ
 الْمَوْتُ وَذِكْرُهُ، وَيَسْتَوْحِشُ مِنْهُ وَمِنْ تَصَوُّرِهِ، لِأَنَّهُ يَسْعُو بِهِ إِلَى الْحِسَابِ وَيَفْتَحُ
 عَلَيْهِ بَابَ الْخِزْيِ وَالْعَذَابِ، قَالَ سَيِّدُ السَّاجِدِينَ وَإِمَامُ الْعَابِدِينَ: «اللَّهُمَّ صَلِّ
 عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَاكْفِنَا طُولَ الْأَمَلِ، وَقَصِّرْهُ عَنَّا بِصِدْقِ الْعَمَلِ حَتَّى لَا نُؤْمَلَ
 أَسْتِثْمَامَ سَاعَةٍ بَعْدَ سَاعَةٍ، وَلَا أَسْتِيفَاءَ يَوْمٍ بَعْدَ يَوْمٍ، وَلَا أَنْصَالَ نَفْسٍ بِنَفْسٍ، وَلَا
 لُحُوقَ قَدَمٍ بِقَدَمٍ وَسَلَّمْنَا مِنْ غُرُورِهِ، وَآمَنَّا مِنْ شُرُورِهِ، وَأَنْصِبِ الْمَوْتَ بَيْنَ أَيْدِينَا
 نَضْبًا، وَلَا تَجْعَلْ ذِكْرَنَا لَهُ غِبًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ صَالِحِ الْأَعْمَالِ عَمَلًا نَسْتَبِطِي مَعَهُ
 الْمَصِيرَ إِلَيْكَ، وَنَحْرُصْ لَهُ عَلَى وَشِكِّ اللَّحَاقِ بِكَ حَتَّى يَكُونَ الْمَوْتُ مَا نُسْنَا الَّذِي
 نَأْسُ بِهِ، وَمَا لَفْنَا الَّذِي نَشْتَأِقُ إِلَيْهِ وَاجْعَلْهُ بَابًا مِنْ أَبْوَابِ مَغْفِرَتِكَ، وَيفْتَحَا مِنْ
 مَفَاتِيحِ رَحْمَتِكَ أَمِنَّا مُهْتَدِينَ غَيْرَ ضَالِّينَ، طَائِعِينَ غَيْرَ مُسْتَكْرِهِينَ، تَائِبِينَ غَيْرَ
 عَاصِينَ وَلَا مُصِرِّينَ، يَا ضَامِنَ جَزَاءِ الْمُحْسِنِينَ، وَمُسْتَظْلِعِ عَمَلِ
 الْمُفْسِدِينَ»^(٢).

لَيْسَتْ مِيتَةُ السُّوءِ أَنْ يَمُوتَ الْمَرْءُ خَنْقًا بِالْغَازَاتِ السَّامَةِ، أَوْ دَفْنًا تَحْتَ الرِّكَامِ
 وَالْحِطَامِ، أَوْ غَرَقًا فِي الْبَحَارِ وَالْأَنْهَارِ أَوْ دَهْسًا بِالشَّاحَاتِ وَالْقَطَارَاتِ أَوْ سَقُوطًا
 مِنْ عُلوٍّ... أَنْ مِيتَةُ السُّوءِ أَنْ يَمُوتَ الْمَرْءُ، وَاللَّهُ عَنْهُ غَيْرُ رَاضٍ وَإِنْ يُلَاقِيهِ بِسَوَادِ

❦ و ٣/٣٠٣ ح ١٤٠٢ وَمَا بَعْدَهَا. كَثُرَ الْمُنَالُ: ١٣/٦٩٧، أَلْفَتْحُ الزَّبَّانِي: ٢٣/١٦٣، وَالْحَاكِمُ فِي
 الْمُشْتَدِّزِ: ٣/١٤٤، دَخَائِرُ الْمُفْتِيِّ: ١١٠، الصَّوَائِقُ الْمُخْرِقَةُ: ١٣٣، الْفَتْوحُ لِابْنِ أَغَثَمَ: ٢/٢٧٦،
 الْإِسْتِيعَابُ: ٣/٥٩، أَسَدُ الْقَابَةِ: ٤/٣٨، يَتَابِعُ الْمَوَدَّةَ: ١٦٤، أَرْجَعَ الْمَطَالِبَ: ٦٥١.

(١) أَنْظَر، شَرْحُ الْخُطْبَةِ: (٥).

(٢) أَنْظَر، الصَّحِيفَةُ السَّجَّادِيَّةُ الدُّعَاءُ الْأَرْبَعُونَ (دُعَاؤُهُ عِنْدَ ذِكْرِ الْمَوْتِ). بِتَحْقِيقِنَا.

الوجه ، وَبَذَنُوبِ كِبَارِ ثَقَال .

أَمَّا مِثَّةُ الْعِزِّ وَالْخَيْرِ فَهِيَ الَّتِي طَلَبَهَا الْإِمَامُ زَيْنُ الْعَابِدِينَ ع مِنْ رَبِّهِ جَلَّ وَعَزَّ قَالَ : « أَللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ ، وَأَقْبِضْ عَلَيَّ الصَّدَقِ نَفْسِي ، وَأَقْطَعْ مِنْ الدُّنْيَا حَاجَتِي ، وَاجْعَلْ فِيمَا عِنْدَكَ رَغْبَتِي ، شَوْقًا إِلَى لِقَائِكَ ، وَهَبْ لِي صَدَقَ التَّوَكُّلِ عَلَيْكَ » ^(١) .

فَمَنْ مَاتَ عَلَى الْحَقِّ وَالصَّدَقِ رَاغِبًا بِعَمَلِهِ فِيمَا عِنْدَ اللَّهِ ، مُنْقَطِعًا عَمَّا سِوَاهُ مَاتَ عَزِيزًا مُكْرَمًا ، وَإِنْ لَمْ يُشَيْعَهُ الْمَشِيعُونَ ، وَيَمْدَحَهُ الْمُؤَبِّنُونَ .

(١) انظر ، الصَّحِيفَةُ السَّجَّادِيَّةُ الدُّعَاءُ الرَّابِعُ وَالْخُمْسُونَ (دُعَاؤُهُ فِي اسْتِكْشَافِ الْهُمُومِ) . بِتَحْقِيقِنَا .

إِرْحَمْ نَفْسَكَ

لِنَفْتَرِضَ وَجُودَ رَجُلَيْنِ: أَحَدُهُمَا مِنْ أَصْحَابِ الْمَلَائِكِينَ، وَالْجَاهِ الطَّوِيلِ
الْعَرِيضِ، وَالْأُخَيْرِ يُهَيِّمُ فِي الْأَرْضِ، وَلَا يَأْتِي بِخَيْرٍ، قَدْ أَغْلَقَتْ فِي وَجْهِهِ جَمِيعَ
الْأَبْوَابِ، وَفَشَلَ فِي كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى تَحَطَّمَتْ أَعْصَابُهُ، وَحَاقَ الْإِنْتِحَارُ لَأَنَّهُ
السَّبِيلُ الْوَحِيدَ لَخَلَاصِهِ فِيمَا يَرَى.

فَقَالَ لَهُ صَاحِبُ الْجَاهِ وَالْمَالِ: مَهْلًا، فَإِنَّ عِنْدِي جَمِيعَ مَا تَبْتَغِيهِ، وَأَنَا عَلَى أَتَمِّ
الِإِسْتِعْدَادِ لَأَمْنَحَكَ الثَّرَاءَ وَالْكَرَامَةَ بِلَا ثَمَنٍ وَلَا أَمْتَانٍ، عَلَى شَرِيطَةٍ أَنْ تَكُونَ
طَيِّبًا حَسَنَ السَّيَرَةِ مَعَ النَّاسِ، مَعْدُوحًا وَغَيْرَ مَذْمُومٍ مِنْ مَعَارِفِكَ... وَهَذَا الشَّرْطُ
- كَمَا تَرَى - فَضْلٌ عَلَى فَضْلٍ، وَنُورٌ عَلَى نُورٍ... فَإِذَا رَفَضَ هَذَا الْعَطَاءَ الْمَشْرُوعَ
لخَيْرِهِ وَمَصْلَحَتِهِ فَهُوَ مَجْنُونٌ، وَإِنْ تَقَبَّلَهُ وَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ فَهُوَ خَائِنٌ مُحْتَالٌ، أَوْ ضَعِيفٌ
لَا يَسْتَأْهِلُ الْحَيَاةَ، وَلَا شَيْءَ مِنْهَا فِي مَنْطِقِ الْعُقَلَاءِ.

وَقَدْ وَهَبَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْوُجُودَ وَالْحَيَاةَ لِلْإِنْسَانِ، وَلَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا وَمَنْحَهُ
السَّمْعَ، وَالْبَصَرَ، وَالْفُؤَادَ، وَأَعْطَاهُ دُنْيَا تَزْخَرُ بِالْخَيْرِ وَالْهَنَاءِ، وَتُفَيْضُ بِالْجَمَالِ
وَالْبَهَاءِ، أَعْطَاهُ الْكَوْنَ بِأَرْضِهِ وَسَمَائِهِ، وَجَمِيعَ كَوَاكِبِهِ، وَقَالَ لَهُ، تَمَتَّعْ بِهِ كَمَا لَكَ
أَصِيلٌ، لَا كَضِيفٍ خَفِيفٍ أَوْ ثَقِيلٍ، وَلَا أَتْبَغِي مِنْكَ جَزَاءً وَلَا عُوضًا، وَإِنَّمَا الَّذِي
أَرِيدُهُ شَيْءٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ عَلَيْكَ سَهْلٌ يَسِيرٌ، فَلَيْسَ مِنْ شَأْنِي التَّكْلِيفُ بِمَا لَا

يُطَاق... وَلَا ضَرَرَ عَلَيْكَ فِيهِ وَلَا حَرَجَ، إِذْ لَا ضَرَرَ وَلَا حَرَجَ فِي شَرْعِي وَشَرِيعَتِي، وَلَا يَحِطُّ شَيْئًا مِنْ كَرَامَتِكَ، فَلَقَدْ كَتَبْتُ عَلَى نَفْسِي الرَّحْمَةَ وَالْكَرَامَةَ لِلْبَشَرِيَّةِ جَمْعَاءَ، وَهَذَا الَّذِي أَدْعُوكَ إِلَيْهِ هُوَ عَيْنُ مَا يَأْمُرُ بِهِ الْعَقْلُ وَالضَّمِيرُ، لِأَنَّهُ يَعُودُ عَلَيْكَ وَحَدِّكَ بِالنَّفْعِ الْجَزِيلِ، وَلَا يَنَالُنِي مِنْهُ كَثِيرًا وَلَا قَلِيلًا، فَأَنَا غَنِيٌّ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَلَا غَنَى عَنِّي لَشَيْءٍ.

أُرِيدُ أَنْ تَكُونَ صَادِقًا فِي أَقْوَالِكَ، مُخْلِصًا فِي أَفْعَالِكَ، تُنَزِّهَ نَفْسَكَ عَنِ الْحِقْدِ وَالضَّغِينَةِ، وَعَنْ كُلِّ مَا يُشِينُ، إِنْ لَمْ تَسْمِ بِهَا إِلَى ذُرَى الْفَضَائِلِ وَالْمُكْرَمَاتِ لَقَدْ خَلَقْتُكَ إِنْسَانًا سَوِيًّا، فَلَا تَتَنَحَّلْ صِفَاتِ الْأَفْعَالِ وَالشُّعَالِ، إِنِّي أُرِيدُكَ عَادِلًا لَا ظَالِمًا، وَصَرِيحًا لَا مُرَاوِعًا، وَمُحِبًّا لِلْإِنْسَانِ لَا عَدُوًّا لِلْإِنْسَانِيَّةِ، لِأَنَّكَ بِهِذَا تُعَادِي نَفْسَكَ بِنَفْسِكَ، بَلْ أُرِيدُكَ مُحِبًّا لِكُلِّ شَيْءٍ، لِأَنَّ الْإِنْسَانِيَّةَ تَتَسَّعُ لِكُلِّ شَيْءٍ.

هَذَا هُوَ عَطَاءُ رَبِّكَ الَّذِي لَا تَجِدُهُ عِنْدَ غَيْرِهِ... حَيَاةٌ وَكَوْنٌ وَعَقْلٌ، تَسْتَغْلَهُ لِهَنَائِكَ وَسَعَادَتِكَ، وَهَذَا شَرْطُهُ جَلٌّ وَعَزٌّ، وَهُوَ أَنْ تُحَافِظَ، وَتَحْتَفِظَ بِالْخَيْرِ لِنَفْسِكَ، وَتُثَبِّتَ أَنَّكَ جَدِيرٌ بِهِ، وَأَهْلٌ لَهُ، تَمَامًا كَالْوَارِثِ الْعَاقِلِ الَّذِي يَحْفَظُ الثَّرَاءَ الْمَوْرُوثَ، وَيَصُونُهُ عَنِ التَّلَفِ وَالضِّيَاعِ لِيَتِمَّعَ بِهِ وَبِمَنَافِعِهِ، قَالَ الْإِمَامُ زَيْنُ الْعَابِدِينَ (ع): «وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَكَّبَ فِيْنَا آلَاتِ الْبَسْطِ، وَجَعَلَ لَنَا أَدَوَاتِ الْقَبْضِ، وَمَتَمَّنَّا بِأَرْوَاحِ الْحَيَاةِ، وَأَثَبَتْ فِيْنَا جَوَارِحَ الْأَعْمَالِ، وَغَدَّانَا بِطَيِّبَاتِ الرُّزْقِ، وَأَغْنَانَا بِفَضْلِهِ، وَأَقْنَانَا بِمَنِّهِ»^(١).

وَلَيْسَ مِنْ شَكٍّ أَنْ مَنْ يُخَالَفَ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ - بَعْدَ هَذِهِ النُّعْمِ - وَلَمْ يُؤَدِّهِ عَلَى وَجْهِهِ فَإِنَّ فِيهِ خِلَافًا وَشُدُودًا... وَلَيْتَ شِعْرِي بِأَيِّ شَيْءٍ يَتَذَرَعُ مَنْ لَمْ يَسْمَعْ

(١) انظر، الصَّحِيفَةُ السَّجَّادِيَّةُ الدُّعَاءُ الْأَوَّلُ (التَّحْمِيدُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ). بِتَحْقِيقِنَا.

وَيَمْتَثِلُ؟ هَلْ يَجْعَدُ الْخَالِقُ مِنَ الْأَسَاسِ؟ إِذَنْ، فَقَدْ نَصَبَ نَفْسَهُ قَاضِيًا يَحْكُمُ عَلَى اللَّهِ وَالْكَوْنِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى، وَهَذَا هُوَ النُّقْصُ وَالْخَلَلُ. وَلَيْسَ مِنَ الضَّرُورَةِ إِذَا كَانَ شَاذًا مِنْ جِهَةٍ أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ مِنْ كُلِّ الْجِهَاتِ... فَلَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْجَاهِلِينَ بِالْعَمَى، وَالْبُكْمَ، وَالصَّمَّ، وَعَدَمَ الْإِذْرَاكِ مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّهُمْ يُبْصِرُونَ وَيَسْمَعُونَ وَيَتَكَلَّمُونَ وَيَعْقِلُونَ أَشْيَاءَ وَأَشْيَاءَ، قَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: «وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُنَى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ»^(١).

وَتَقُولُ مَا دَامَ اللَّهُ تَبَارَكَ أَسْمُهُ قَدْ أَمَرَ الْإِنْسَانَ بِمَا فِيهِ خَيْرُهُ وَصَلَّاحُهُ فَلِمَاذَا لَا يُعَاجِلُهُ بِالْعُقُوبَةِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ إِذَا خَالَفَ وَلَمْ يَطِعْ، لِيَتَعَظَّ هُوَ وَكُلُّ مَنْ خَالَفَ وَتَمَرَّدَ، وَيَقِفَ الْجَمِيعُ عِنْدَ حُدُودِ اللَّهِ وَتَعَالِيهِ؟

الْجَوَابُ:

أَوَّلًا: لَوْ عَجَّلَ اللَّهُ الْعُقُوبَةَ لِلْعَاصِي لَبْطَلَ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ، وَسَقَطَ الْوَعْدُ وَالْوَعِيدُ وَلَمَّا كَانَ لِفَاعِلِ الْخَيْرِ مِنْ فَضْلِ، لِأَنَّ مَنْ فَعَلَ قَهْرًا كَمَنْ تَرَكَ عَجْزًا، كِلَاهُمَا لَا يَسْتَحِقُّ مَدْحًا وَلَا ثَوَابًا... أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَرَادَ مِنَ الْإِنْسَانِ فِعْلَ مَا أَمَرَ بِهِ، وَتَرَكَ مَا نَهَى عَنْهُ اخْتِيَارًا لَا إِكْرَاهًا، وَتَخِيرًا لَا إِجْبَارًا.

ثَانِيًا: أَنَّ قِيَامَ الْحُجَّةِ عَلَى الْعَاصِي لَا يَنْحَصِرُ بِتَعْجِيلِ الْعُقُوبَةِ لَهُ، فَإِنَّ الْحُجَجَ الَّتِي أَقَامَهَا اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ مِنْ إِرْسَالِ الرُّسُلِ، وَقِيَامِ الْآيَاتِ الْبَالِغَةِ لَا يُحْصِيهَا الْقَدَّ. ثَالِثًا: إِنَّ أَرْجَاءَ الْعُقُوبَةِ إِنَّمَا هُوَ رِفْقٌ بِالْعَاصِي، وَلِمُصْلَحَتِهِ بِالْخُصُوصِ، كَيْ يَسْتَدْرِكَ، وَيَرْجِعَ إِلَى رَبِّهِ، وَيَتُوبَ مِنْ ذُنُوبِهِ، قَالَ الْإِمَامُ زَيْنُ الْعَابِدِينَ عليه السلام:

« فَأَمَّا الْعَاصِي أَمْرَكَ ، - الْخِطَابُ لِلَّهِ جَلَّ وَعَلَا - وَالْمَوَاقِعُ نَهْيَكَ ... فَلَمْ تُعَاجِلْهُ
بِنَقْمَتِكَ ، لَكِنِّي يَسْتَبْدِلُ بِحَالِهِ فِي مَعْصِيَتِكَ ... حَالُ الْإِنَابَةِ إِلَى طَاعَتِكَ ، وَلَقَدْ
كَانَ يَسْتَحِقُّ فِي أَوَّلِ مَا هَمَّ بِعُصْيَانِكَ كُلِّ مَا أُعِدَّتْ لِجَمِيعِ خَلْقِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ ،
فَجَمِيعُ مَا أَخْرَجَتْ عَنْهُ مِنْ وَقْتِ الْعَذَابِ ، وَأَبْطَأَتْ بِهِ عَلَيْهِ مِنْ سَطَوَاتِ النَّقْمَةِ
وَالْعِقَابِ ... تَرَكَ مِنْ حَقِّكَ ، وَرَضِيَ بِدُونِ وَاجِبِكَ . فَمَنْ أَكْرَمَ مِنْكَ يَا إِلَهِي » ^(١) .
وَقَالَ : « وَإِنْ أَهْلَكْتَنِي فَمَنْ ذَا الَّذِي يَغْرِضُ لَكَ فِي عَبْدِكَ ، أَوْ يَسْأَلُكَ عَنْ أَمْرِهِ ،
وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ لَيْسَ فِي حُكْمِكَ ظُلْمٌ ، وَلَا فِي نِقْمَتِكَ عَجَلَةٌ ، وَإِنَّمَا يَعْجَلُ مَنْ
يَخَافُ الْفُوتَ ، وَإِنَّمَا يَخْتَاجُ إِلَى الظُّلْمِ الضَّعِيفُ ، وَقَدْ تَعَالَيْتَ يَا إِلَهِي عَنْ ذَلِكَ
عُلُوًّا كَبِيرًا » ^(٢) .

وَبَعْدَ ، فَإِنَّ أَفْضَلَ الشُّكْرِ لِلَّهِ ، وَعِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَرْحَمَ نَفْسَكَ ، وَتُحْلِلَهَا بِمَا يُزِينُ ،
وَتَبْتَغِدَ بِهَا عَمَّا يُشِينُ ، وَبِهَذَا وَحْدَهُ يَسْتَخْلَصُكَ اللَّهُ لِنَفْسِهِ ، وَيُقَرِّبَكَ مِنْ رَحْمَتِهِ .

الْحِجَاجُ :

نُقِلَ عَنِ الْحِجَاجِ أَنَّهُ قَالَ : أَمَرَنَا اللَّهُ بِطَلَبِ الْآخِرَةِ وَضَمِنَ لَنَا مُوَوَّنَةَ الدُّنْيَا فِيمَا
لَيْتَهُ ضَمِنَ لَنَا الْآخِرَةَ ، وَأَمَرَنَا بِطَلَبِ الدُّنْيَا ، وَحِينَ نُنْقِلُ قَوْلَهُ هَذَا إِلَى الْحَسَنِ
الْبَصْرِيِّ قَالَ : « ضَالَّةٌ مُؤْمِنٍ عِنْدَ فَاسِقٍ » .

وَإِنْ دَلَّ هَذَا عَلَى شَيْءٍ فَإِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى غِبَاوَةِ الْبَصْرِيِّ وَغَفْلَتِهِ ، وَعَلَى جِرْصِ
الْحِجَاجِ عَلَى الدُّنْيَا ، وَأَهْتِمَامِهِ بِهَا ، وَإِعْرَاضِهِ عَنِ اللَّهِ وَالْآخِرَةِ ، وَلَوْ فَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ

(١) أنظر ، الصَّحِيفَةَ السَّجَّادِيَّةَ الدُّعَاءَ السَّامِعَ وَالْقَلَّاتُونَ (دُعَاؤُهُ فِي الشُّكْرِ) . بِتَحْقِيقِنَا .

(٢) أنظر ، الصَّحِيفَةَ السَّجَّادِيَّةَ الدُّعَاءَ الثَّامِنَ وَالْأَرْبَعُونَ (دُعَاؤُهُ فِي يَوْمِ الْأَضْحَى وَالْجُمُعَةِ) . بِتَحْقِيقِنَا .

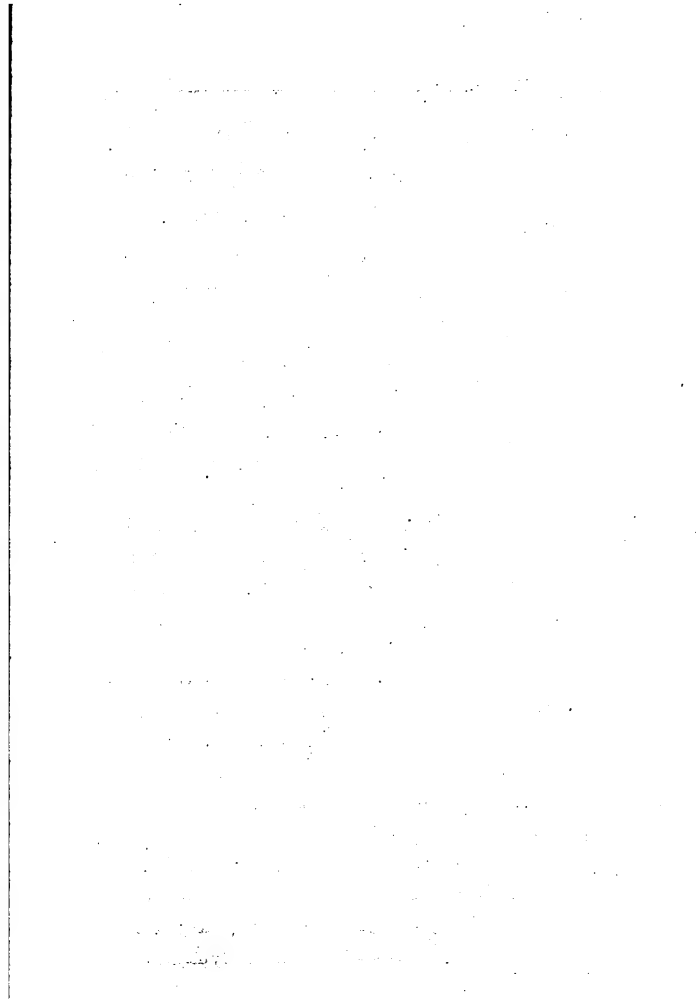
لَتَكَالِبَ النَّاسَ عَلَى الدُّنْيَا وَتَقَاتُلُوا عَلَيْهَا أَضْعَافَ مَا يَفْعَلُونَهُ الْآنَ. وَلَمَّا عُرِفَ الصَّالِحُ مِنَ الطَّالِحِ، وَالْحَقُّ مِنَ الْبَاطِلِ، وَلَمَّا لُغِنَ الْحَجَّاجُ وَأَسْيَادَهُ عَلَى كُلِّ لِسَانٍ إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ، وَهَذَا مَا يَهْدَفُ إِلَيْهِ الْحَجَّاجُ... وَإِذَا كَانَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لَمْ يَضْمَنْ الْآخِرَةَ لِلْحَجَّاجِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَعَلَ مَا فَعَلَ، وَمَلَأَ الدُّنْيَا ظُلْمًا وَجَوْرًا، فَكَيْفَ لَوْ ضَمَّنَهَا لَهُ وَلَأَمَثَالَهُ^(١)؟!...

(١) كَانَ الْحَجَّاجُ سَفَاكَاً بِطَبْعِهِ، يَقْتُلُ النَّاسَ حَتَّى الشُّبُوحَ وَالصَّبِيَّانَ لِأَلْشِيءِ إِلَّا حُبًّا بِالْقَتْلِ وَإِزَاقَةِ الدَّمَاءِ، يَقُولُ صَاحِبُ مَرْجُوحِ الذَّهَبِ، وَصَاحِبُ الْبَيْتِ الْفَرِيدِ فِي أَقْوَالِ النَّاسِ فِي الْحَجَّاجِ: (أَحْصَى مِنْ قَتْلِهِمُ الْحَجَّاجَ صَبْرًا سِوَاءَ مَنْ قَتَلَ فِي حُرُوبِهِ فَكَانُوا (١٢٠) أَلْفًا، وَكَانَ فِي حَبْسِهِ (٥٠) أَلْفَ رَجُلًا، وَ (٣٠) أَلْفَ امْرَأَةٍ سِتَّةَ عَشَرَ مِئْتَهُنَّ غَارِيَّاتٍ، وَكَانَ يُطْعِمُ الْمَسَاجِينَ كَمَا يَقُولُ أَبُو الْجَوَازِي فِي تَارِيخِهِ، الْخُبَيْرَ مَمْرُوجًا بِالرَّمَادِ). وَجَاءَ فِي الْبَيْتِ الْفَرِيدِ أَيْضًا عَلَى لِسَانِ عُمَرَ بْنِ الْغَزِيرِ: (لَوْ جَاءَ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَسَاقِهِمْ، وَجِئْنَا بِالْحَجَّاجِ لِرَدِّهَا عَلَيْهِمْ). وَكَانَتْ تَهْمَةُ التَّشْيِيعِ الْمُبِيرِ الْوَجِيدَ لَصَرْبِ الْأَعْنَاقِ، وَفِي عَهْدِهِ كَانَ أَحَبَّ إِلَى الرَّجُلِ أَنْ يَقَالَ لَهُ: زَنْدِيقٌ، وَكَافِرٌ مِنْ أَنْ يَقَالَ لَهُ: شَيْعِي...! أَنْظِرْ، شَرَحَ التَّوْحِيدُ لِابْنِ أَبِي الْحَدِيدِ: ١٥/٣.

« قَالَ الْإِمَامُ مُحَمَّدُ الْبَاقِرُ: قُتِلَتْ شِيعَتُنَا بِكُلِّ بَلَدٍ، وَقُطِعَتِ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلُ عَلَى الطُّنَّةِ، وَكَانَ مَنْ يُذَكِّرُ بِحُبْنَا وَالْإِنْقِطَاعِ الْيَنَاسُجْنَ أَوْ نَهَبَ مَالَهُ، أَوْ هَدَمَتْ دَارَهُ، ثُمَّ لَمْ يَزَلِ الْبَلَاءُ يَشْتَدُّ، وَيَزْدَادُ إِلَى زَمَنِ غِيَاثِ اللَّهِ بْنِ زِيَادٍ قَاتِلِ الْحُسَيْنِ، ثُمَّ جَاءَ الْحَجَّاجُ، فَقَتَلَهُمْ كُلَّ قَتْلَةٍ، وَأَخَذَهُمْ بِكُلِّ ظَنَّةٍ وَتَهْمَةٍ حَتَّى أَنَّ الرَّجُلَ لَيَقَالَ لَهُ: زَنْدِيقٌ أَوْ كَافِرٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَقَالَ شِيعَةٌ عَلَيٌّ ».

أَنْظِرْ، شَرَحَ التَّوْحِيدُ لِابْنِ أَبِي الْحَدِيدِ: ٤٤/١١.

أَتَى لِلْحَجَّاجِ بِرَجُلَيْنِ مِنْ شِيعَةِ عَلِيٍّ، فَقَالَ لِأَحَدِهِمَا: أَبْرَأُ مِنْ عَلِيٍّ، فَقَالَ لَهُ: وَمَاذَا فَعَلَ حَتَّى أَبْرَأَ مِنْهُ؟ قَالَ: قَتَلَنِي اللَّهُ إِنْ لَمْ أَقْتُلْكَ، فَأَخْتَرْتُ لِنَفْسِكَ قَطْعَ يَدَيْكَ أَوْ رِجْلَيْكَ، فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: أَخْتَرْتُ أَنْتَ لِنَفْسِكَ أَيْ قَتْلَهُ تَرِيدُ أَنْ أَقْتُلَكَ بِهَا غَدًا، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ سَيَجْعَلُ لِي الْقَصَاصَ مِنْكَ، فَأَقْتُلْ بِكَ مَا تَفْعَلُهُ بِي الْآنَ، فَقَالَ لَهُ الْحَجَّاجُ سَاحِرًا: أَيْنَ رَبُّكَ؟ قَالَ: هُوَ بِالْمِرْصَادِ لِكُلِّ ظَالِمٍ، فَأَمَرَ بِقَطْعِ يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ وَصَلَبِهِ، ثُمَّ نَفَثَ إِلَى الْآخَرِ، وَقَالَ لَهُ: مَا تَقُولُ أَنْتَ؟ فَقَالَ لَهُ: أَنَا عَلَى دِينِ صَاحِبِي الَّذِي قَتَلْتَهُ، فَأَمَرَ أَنْ تُصْرَبَ عُنُقُهُ وَيُصَلَبَ. أَنْظِرْ، أَمَالِي الشَّيْخِ الصَّدُوقِ: ٣٥٩.



السَّعَادَةُ

مَنْ هُوَ السَّعِيدُ؟

مُنْذُ آلَافِ السِّنِينَ، وَأَهْلُ الْمَعْرِفَةِ يَتَكَلَّمُونَ فِي السَّعَادَةِ وَمَعْنَاهَا، وَكَلَّ يُحَدِّدُهَا بِتَحْدِيدٍ، وَيُعَرِّفُهَا بِتَعْرِيفٍ... فَمِنْهُمْ مَنْ يَرَاهَا فِي الْجَاهِ وَالْمَالِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَرَاهَا فِي الْإِنْتِصَارِ عَلَى الْخُصُومِ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: أَنَّهَا فِي عَمَلِ الْخَيْرِ، وَإِسْعَادِ الْغَيْرِ، وَقَالَ آخَرُونَ: أَنَّهَا مَعْرِفَةُ الْحَقِيقَةِ، وَذَهَبَ كَثِيرُونَ إِلَى أَنَّهَا إِشْبَاعُ الْغَرَائِزِ وَالرَّغَبَاتِ، وَالْقَوْلُ الشَّائِعُ: أَنَّ مَنْ تَوَافَرَتْ لَهُ الصَّحَّةُ وَالْأَمَانُ، وَسَعَةُ الرِّزْقِ، وَالْمَكَانَةُ الْإِجْتِمَاعِيَّةُ وَالزَّوْجَةُ الصَّالِحَةُ، وَالصَّدِيقُ الْوَفِيُّ فَهُوَ سَعِيدٌ.

لَا سَعَادَةَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ:

وَلَيْسَ مِنْ شَكٍّ أَنَّ الدُّنْيَا لَا تَصْفُو لِإِنْسَانٍ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ، فَإِنْ كَانَ فِي يُسْرِ مِنَ الْعَيْشِ شَكْنَى الْأَمْرَاضِ وَالْأَسْقَامِ، وَإِنْ جَمَعَ الصَّحَّةَ وَالثَّرَاءَ شَكْنَى مِنْ بَيْتِهِ أَوْ أَرْحَامِهِ أَوْ خُصُومِهِ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ... قَالَ الْإِمَامُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (عليه السلام): «وَأِنْ جَانِبَ مِنْهَا أَغْذَوْذَبَ، وَأَخْلَوْلَى، أَمَرَّ مِنْهَا جَانِبٌ فَأَوْبَى! لَا يَنَالُ أَمْرٌ مِنْ غَضَارَتِهَا رَغْبًا، إِلَّا أَرْهَقَتْهُ مِنْ نَوَائِبِهَا تَعَبًا! وَلَا يُمَسِّي مِنْهَا فِي جَنَاحِ أَمْنٍ، إِلَّا أَصْبَحَ عَلَى قَوَادِمِ خَوْفٍ! غَرَارَةٌ، غُرُورٌ مَا فِيهَا، فَايْتَهُ فَإِنْ مَنْ عَلَيْهَا، لَا خَيْرَ فِي شَيْءٍ مِنْ

أَزْوَادِهَا إِلَّا التَّفَوُّى» ^(١).

إِذَنْ لَأَسْعَادَةٌ مُطْلَقَةٌ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ، وَبِالنَّالِي لَأَشْيءٌ تُقَاسُ بِهِ لَعَدَمُ الْمَوْضُوعِ مِنْ أَسَاسٍ، أَجَلٌ، أَنَّ مَنْ يَرَى نَفْسَهُ سَعِيداً فَهُوَ سَعِيدٌ عِنْدَ نَفْسِهِ، لَا فِي الْوَاقِعِ ^(٢)، وَلَكِنْ أَخْشَى أَنْ يَصْدُقَ عَلَيْهِ قَوْلُ الْقَائِلِ: مَا لَذَّةُ الْعَيْشِ إِلَّا لِلْمَجَانِينِ وَبَدِيهَةٌ أَنَّ كُلَّ مَنْ لَا يُفَكِّرُ بِآلَامِ النَّاسِ، وَلَا يَهْتَمُّ بِمَا يَجْرِي حَوْلَهُ فَهُوَ مَجْنُونٌ، أَوْ فِي حُكْمِهِ.

وَإِذَا افْتَرَضْنَا جَدلاً أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَشْعُرُ بِالْغَيْبَةِ وَالسَّعَادَةِ فِي حَيَاتِهِ هَذِهِ بِشَتَّى جِهَاتِهَا، وَيَجْمَعُ بَيْنَ الْجَاهِ وَالْمَالِ، وَالصَّحَّةِ وَالْأَمَانِ، وَالزَّوْجَةِ التَّقِيَّةِ النَّقِيَّةِ، وَالْأَنْبَاءِ الْمُخْلِصِينَ الْأَبْرَارِ، وَالْأَصْدِقَاءِ الْأَوْفِيَاءِ الْأَخْيَارِ، وَأَنَّهُ لَا يَهْتَمُّ بِمَنْ عَدَاهُ أَبَداً، إِذَا افْتَرَضْنَا ذَلِكَ فَإِنَّ فِكْرَةَ الْمَوْتِ وَسَكَرَتِهِ، وَالْقَبْرِ وَوَحْشَتِهِ تَهْدِمُ جَمِيعَ مِلَذَّاتِهِ، وَتُعَكِّرُ عَلَيْهِ صَفْوَ حَيَاتِهِ.

لَمَّا حَضَرَتِ الْوَفَاةَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ قَالَ: «لَيْتَنِي كُنْتُ غَسَلاً، أَعِيشُ بِمَا أَكْسَبَ يَوْماً يَوْمٌ... فَقَالَ أَحَدُ الزُّهَادِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الْمُلُوكَ عِنْدَ الْمَوْتِ يَتَمَنُّونَ مَا نَحْنُ فِيهِ، وَلَا تَتَمَنَّى عِنْدَ الْمَوْتِ مَا هُمْ فِيهِ» ^(٣).

(١) أَنْظَرِ، نَهَجُ الْبَلَاغَةِ: الْخُطْبَةُ (١١١).

(٢) إِنَّ مُجَرَّدَ الشُّعُورِ بِالسَّعَادَةِ لَا يَجْعَلُ الْإِنْسَانَ سَعِيداً، فَرُبَّمَا كَانَتْ عَاقِبَتُهُ أَسَدَ مِنْ عَاقِبَةِ الْبُؤْسَاءِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ. قَالَ الْإِمَامُ عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الْمَعْرُورُ وَاللَّهُ مِنْ غَرَزْتُمُوهُ، وَمَنْ فَازَ بِكُمْ فَقَدْ فَازَ - وَاللَّهُ - بِالسَّهْمِ الْأَخْشَبِ، وَمَنْ رَمَى بِكُمْ فَقَدْ رَمَى بِأَفْوَقٍ نَاصِلٍ؟». أَنْظَرِ، نَهَجُ الْبَلَاغَةِ: الْخُطْبَةُ (٢٩).

الْمَعْرُورُ فِي الدُّنْيَا مَسْكِينٌ، وَفِي الْآخِرَةِ مَغْنُونٌ، بَاعَ الْأَفْضَلَ بِالْأَدْنَى. وَقَالَ: «إِنْ كُنْتُ رَاضِياً بِمَا أَنْتَ فِيهِ فَمَا أَحَدٌ أَشَقَى يَعْلَمُهُ مِنْكَ، وَأَضْيَعُ عُمْراً، فَأَوْرَثْتَ حَسْرَةَ يَوْمٍ

الْقِيَامَةِ».

(٣) لَمْ أَغْتَرِ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ، (بَلْ مِنْهُ عَجْزٌ).

السَّعَادَةُ الْحَقَّةُ:

أَنَّ السَّعَادَةَ الْحَقَّةَ الْمُطْلَقَةَ الْخَالِصَةَ مِنْ كُلِّ عُسْرٍ وَشَقَاءٍ لَا تُوجَدُ، وَلَنْ تُوجَدَ إِلَّا فِي الْآخِرَةِ عِنْدَ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا... وَإِنْ كَانَ لَهَا مِنْ أَثَرٍ صَحِيحٍ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ الشُّعُورُ بِمَرْضَاةِ اللَّهِ، وَرَاحَةِ الضَّمِيرِ، وَالتَّحَرُّرِ مِنَ الْمَعْصِيَةِ، وَالْعَمَلِ بِالطَّاعَةِ، وَالثَّقَّةِ بِاللَّهِ وَثَوَابِهِ، قَالَ الْحُكَمَاءُ: «كُلَّ عَاصٍ مُسْتَوْحَشٍ، وَكُلَّ مُطِيعٍ مُسْتَأْنَسٍ»^(١).

بَلَاءُ الدُّنْيَا وَبَلَاءُ الْآخِرَةِ:

وَقَدْ تَحَمَّلَ الْعَارِفُونَ بِاللَّهِ الْكَثِيرُ مِنْ بَلَاءِ الدُّنْيَا بِصَبْرٍ وَشَجَاعَةٍ، وَخَافُوا وَاضْطَرَبُوا مِنْ أَقْلِ الْقَلِيلِ مِنْ بَلَاءِ الْآخِرَةِ وَعَذَابِهَا، وَآثَرُوا الْعَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ فِي دَارِ الْبَقَاءِ عَلَى كُلِّ نَعِيمٍ فِي دَارِ الْفَنَاءِ، وَلَوْ خُيروا بَيْنَ أَنْ يَمْلِكُوا الدُّنْيَا بِكَامِلِهَا عَلَى أَنْ يُحَاسِبُوا عَلَيْهَا وَيُعَاقِبُوا، وَبَيْنَ أَنْ يَتَحَمَّلُوا جَمِيعَ أَعْيَابِهَا وَأَوْصَابِهَا عَلَى أَنْ يَلْقُوا اللَّهَ رَاضِينَ مَرْضِيِينَ لَفَضَّلُوا الثَّانِيَةَ عَلَى الْأُولَى.

قَالَ الْإِمَامُ زَيْنُ الْعَابِدِينَ عليه السلام مُنَاجِيًا رَبَّهُ:

«اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى حُسْنِ قَضَائِكَ، وَبِمَا صَرَفْتَ عَنِّي مِنْ بَلَائِكَ؛ فَلَا تَجْعَلَ حَظِّي مِنْ رَحْمَتِكَ مَا عَجَلْتُ لِي مِنْ عَافِيَتِكَ، فَأَكُونَ قَدْ شَقِيتُ بِمَا أَحْبَبْتُ، وَسَعِدَ غَيْرِي بِمَا كَرِهْتُ، وَإِنْ يَكُنْ مَا ظَلَمْتُ فِيهِ، أَوْبْتُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الْعَافِيَةِ... بَيْنَ يَدَيَّ بَلَاءٌ لَا يَنْقَطِعُ، وَوِزْرٌ لَا يَزِيدُ، فَقَدَّمْ لِي مَا أَخَرْتَ، وَأَخَّرْ عَنِّي مَا قَدَّمْتَ؛ فَعَيَّرَ كَثِيرٌ مَا عَاقِبْتَهُ الْفَنَاءُ، وَغَيَّرَ قَلِيلٌ مَا عَاقِبْتَهُ الْبَقَاءُ، وَصَلُّ عَلَى

(١) أنظر، شُعَبُ الْإِيمَان: ١/٣٤٨ ح ٤٨٦.

مُحَمَّدٍ وَآلِهِ»^(١).

وَقَالَ ﷺ: «سُبْحَانَكَ أَخْشَى خَلْقِكَ لَكَ أَعْلَمُهُمْ بِكَ، وَأَخْضَعُهُمْ لَكَ أَعْمِلُهُمْ بِطَاعَتِكَ؛ وَأَهْوَنُهُمْ عَلَيْكَ مَنْ أَنْتَ تَرْزُقُهُ، وَهُوَ يَغْبُدُ غَيْرَكَ»^(٢).

لَقَدْ رَفَضَ الْإِمَامُ الْعَافِيَّةُ الْعَاجِلَةَ مَعَ الْبَلَاءِ الْآجِلِ، وَأَخْتَارَ الْبَلَاءَ الْعَاجِلَ، وَإِنْ كَثُرَ عَلَى الْبَلَاءِ الْآجِلِ، وَإِنْ قَلَّ لِأَنَّ الْأَوَّلَ يَزُولُ، وَالزَّائِلُ قَلِيلٌ مَهْمَا كَثُرَ، وَالثَّانِي يَدُومُ، وَالذَّائِمُ كَثِيرٌ مَهْمَا قَلَّ... فَضَّلَ الْآجِلَ صَلَوَاتِ اللَّهِ وَسَلَامِهِ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ أَعْلَمَ النَّاسَ بِاللَّهِ، وَأَخْضَعَهُمْ لَهُ، وَأَعْلَمَهُمْ بِطَاعَتِهِ.

(١) أنظر، الصَّحِيفَةُ السَّجَّادِيَّةُ الدُّعَاءُ الثَّامِنُ عَشَرَ (دُعَاؤُهُ فِي الْمَحْذُورَاتِ). بِتَحْقِيقِنَا.

(٢) أنظر، الصَّحِيفَةُ السَّجَّادِيَّةُ الدُّعَاءُ الثَّانِي وَالْخَمْسُونَ (دُعَاؤُهُ فِي الْإِلْحَاحِ عَلَى اللَّهِ). بِتَحْقِيقِنَا.

الصَّلَاةُ

الصَّلَاةُ بَيْنَ اللَّهِ وَالْعَبْدِ:

الصَّلَاةُ صَلَاةٌ بَيْنَ اللَّهِ وَالْعَبْدِ، وَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ قَطَعَ كُلَّ صَلَاةٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَالِقِهِ، وَمِنْ هُنَا كَانَتْ «الصَّلَاةُ عَمُودُ الدِّينِ»^(١)، وَرُكْنُهُ الرَّاكِعِينَ، وَقُرَّةُ عَيْنِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، يُقْبَلُ مَا عَدَّاهَا تَبَعًا لَهَا، وَلَا يَقْبَلُ شَيْءٌ بَدُونَهَا، وَأَبْرَزُ مَا فِي هَذِهِ الصَّلَاةِ هُوَ تَطَابُقُ أَوْ تَعْلُقُ إِزَادَةِ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ فِي الطَّاعَةِ الَّتِي تَرْفَعُ الْإِنْسَانَ إِلَى رَبِّهِ وَتُقَرِّبُهُ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَتُؤَكِّدُ فِيهِ صِفَةَ الْعِبُودِيَّةِ، وَمِنْ كُلِّ عَلَى شَيْءٍ مِنْ مَعْرِفَةِ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَأَسْرَارِهَا لَا يَشْكُ أَبَدًا فِي أَنَّ التَّسْلِيمَ لِلَّهِ حَقًّا، وَالْإِنْقِيَادَ لَهُ صِدْقًا لَا يَتِمُّ وَلَنْ يَتِمَّ إِلَّا بِهَذِهِ الصَّلَاةِ الْخَاصَّةِ وَهَذَا الشَّكْلِ الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ الْإِمَامُ زَيْنُ الْعَابِدِينَ (ع) فِي هَذِهِ الْمُنَاجَاةِ:

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَقِفْنَا فِيهِ عَلَى مَوَاقِيتِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ بِحُدُودِهَا الَّتِي حَدَّدْتَ، وَفُرُوضِهَا الَّتِي فَرَضْتَ، وَوُظَائِفِهَا الَّتِي وَظَّفْتَ، وَأَوْقَاتِهَا الَّتِي وَقَّتَ، وَأَنْزَلْنَا فِيهَا مَنْزِلَةَ الْمُصِيبِينَ لِمَنْزَلِهَا، الْحَافِظِينَ لِأَرْكَانِهَا، الْمُؤَدِّينَ لَهَا

(١) أنظر، الفيروز دُوس بَنَاتُورُ الْخِطَاب: ١٩٩/٢ ح ٢٩٨٧، فَيْضُ الْقَدِير: ٢٤٨/٤، عِلَّلُ أَبِي خَاتَم:

١٥٦/٢ ح ١٩٦٢، كَشَفُ الْخَفَاء: ٤٠/٢ ح ١٦٢١، تَلْخِيسُ الْحَبِير: ١٧٣/١ ح ٢٤٢، تَعْظِيمُ قَدَرِ

الصَّلَاةِ: ٢١٩/١ ح ١٩٤، جَامِعُ الْعُلُومِ وَالْحِكَم: ٤٥/١.

فِي أَوْقَاتِهَا عَلَى مَا سَنَّهُ عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ صَلَوَاتُكَ عَلَيْهِ وَآلِهِ فِي رُكُوعِهَا، وَسُجُودِهَا، وَجَمِيعِ فَوَاضِلِهَا عَلَى أَتَمِّ الطَّهْوَرِ وَأَسْبَغِهِ، وَأَبْيَنِ الْخُشُوعِ وَأَبْلَغِهِ» ^(١).

حَقِيقَةُ الصَّلَاةِ:

تَتَقَوَّمُ الصَّلَاةُ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ، وَمِنَ الْإِخْلَاصِ لَهُ، وَمِنَ الْخُشُوعِ، بِالرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ، وَمِنَ أَلْفَافِ التَّهْلِيلِ، وَالتَّكْبِيرِ، وَالتَّسْبِيحِ بِشَرَطِ الطَّهَّارَةِ مِنَ الْحَدَثِ وَالْخَبَثِ، وَإِذَا تَرَكَ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ اخْتِيَارًا لَمْ تَتَحَقَّقْ الصَّلَاةُ.

وَإِذَا تَسَرَّعْتَ وَقُلْتَ مَعَ أَخَوَانِ الشَّيَاطِينِ: لِمَاذَا تَجِبُ الصَّلَاةُ بِهَذَا الشَّكْلِ الْمُعَيَّنِ الْخَاصِّ بِلا زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ، مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّ الْعَقْلَ لَا يَفْرُضُهُ وَيُحْتَمَهُ.

قُلْتُ فِي الْجَوَابِ:

لَا أَعْلَمُ، وَكُلُّ الَّذِي أَعْرِفُهُ أَنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا أَصَرَ عَلَى تَرْكِ الصَّلَاةِ عَمْدًا يَجِبُ قَتْلُهُ شَرْعًا، مَعَ التَّأَكُّيدِ بِأَنَّهُ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ، وَالرَّسُولِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَبِهَذَا يَكُونُ فِي نَظَرِ الْإِسْلَامِ أَسْوَأَ حَالًا مِنَ الْمُتَرَدِّ عَنِ فِطْرَةٍ، أَوْ فِي حُكْمِهِ مِنْ حَيْثُ وَجُوبُهُ الْقَتْلُ.

وَإِذَا قُلْتُ: أَنَّ عِلْمَكَ هَذَا لَيْسَ بِالْجَوَابِ الشَّافِي، لِأَنَّ السُّؤَالَ عَنِ السَّبَبِ لَهُيئَةَ الصَّلَاةِ وَشَكْلِهَا، لَا عَنِ حُكْمِ تَارِكِ الصَّلَاةِ.

قُلْتُ: أَنَّ عِلْمِي هَذَا لَيْسَ بِجَوَابٍ لِأَنَّ سُؤَالَكَ لَا مَعْنَى لَهُ، وَلَا يَسْتَجِبُ مِنَ الْأَسَاسِ بَعْدَ أَنْ أَفْتَرَضْنَا أَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ أَمَرَ بِهَا كَذَلِكَ، فَإِنَّ الْعَيْنَ تَرَى شَيْئًا، وَلَا

(١) انظر، الصَّحِيفَةُ السَّجَّادِيَّةُ الدُّعَاءُ الرَّابِعُ وَالْأَرْبَعُونَ (دُعَاؤُهُ لِدُخُولِ شَهْرِ رَمَضَانَ). بِتَحْقِيقِنَا.

تَرَى أَشْيَاءَ، وَالْإِذْنَ تَسْمَعُ أَشْيَاءَ، وَلَا تَسْمَعُ كُلَّ شَيْءٍ، وَالْحِسَّ الصَّافِي النَّقِي
يَعْكُسُ بَعْضُ الْإِنْفِعَالَاتِ لَا كُلُّهَا، وَكَذَلِكَ الْعَقْلُ يُدْرِكُ أَشْيَاءَ وَأَشْيَاءَ، وَلَا يُحِيطُ
بِكُلِّ شَيْءٍ بِخَاصَّةِ الْعِبَادَاتِ.

الغَايَةُ مِنَ الصَّلَاةِ:

الغَايَةُ مِنَ الصَّلَاةِ حُصُولُ الْمُصَلِّي عَلَى مَغْفَرَةِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَى نَفْسِهِ وَتَوَكُّلِ الْغَايَةِ مِنَ الصَّلَاةِ حُصُولُ الْمُصَلِّي عَلَى ثَوَابِهِ وَنَعِيمِهِ، أَوْ شُكْرِهِ عَلَى مَا تَقْضَى وَأَنْتَعِمَ، أَوْ طَاعَةِ
لِأَمْرِهِ وَخُرُوجًا عَنْ عَهْدِهِ، أَوْ لِتَذَكُّرِنَا الصَّلَاةَ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَتَحَنُّنًا عَلَيْهَا، أَوْ لِتَذَكُّرِ
بِالْعِبَادَةِ وَالْمُنَاجَاةِ، أَوْ لِلتَّأَمُّلِ وَالتَّفَكُّرِ، أَوْ لِتَعْزِيزِ الْإِسْلَامِ وَكَيْانِهِ وَإِعْلَانِهِ عَلَى
الْمَلَأِ، أَوْ لِهَذِهِ مُجْتَمَعَةٍ، وَكُلٌّ مِنْهَا صَحِيحٌ وَمَقْبُولٌ، وَكَافٍ وَافٍ، وَيَجْمَعُهَا كَامِلَةٌ
الْقَصْدُ بِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَهْلٌ لِلْعِبَادَةِ، وَهِيَ لِلْعِبَادَةِ، وَهِيَ عِبَادَةٌ عَلَى أَمِيرِ
الْمُؤْمِنِينَ ﷺ، وَصِفَةُ الصَّفْوَةِ، كَالْأَنْتَمَةِ الْمَعْصُومِينَ، وَالْأَوْلِيَاءِ الْعَارِفِينَ.

صَلَاةُ الْإِمَامِ زَيْنِ الْعَابِدِينَ ﷺ:

وَالْآنَ هَلْ تُرِيدُ أَنْ تُصَلِّيَ بِصَلَاةِ الْإِمَامِ زَيْنِ الْعَابِدِينَ ﷺ؟ هَلْ تُرِيدُ أَنْ تَعْرِفَ
عَظَمَةَ اللَّهِ، أَوْ أَنَّ أَهْلَ الْعِبَادَةِ، وَأَنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ صَبْرًا عَلَى تَأْدِيَةِ حَقِّهِ، مَهْمَا
بَالِغَتْ وَاجْتَهَدَتْ؟ هَلْ تُرِيدُ أَنْ تُصَلِّيَ أَنْقَى صَلَاةٍ وَأَخْلَصَهَا وَأَغْرَزَهَا؟ هَلْ
تُرِيدُ صَلَاةَ أَسَاسِهَا الْمَعْرِفَةُ بِاللَّهِ، وَشَرْطُهَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ، وَجَزَاؤُهَا الشُّكْرُ لِلَّهِ،
وَهَدَفُهَا الْوُصُولُ إِلَى اللَّهِ؟ هَلْ تُرِيدُ أَنْ تُصَلِّيَ بِرُوحِكَ وَعَقْلِكَ، وَلِسَانِكَ وَلَحْمِكَ
وَدَمِكَ، وَجَمِيعِ جَوَارِحِكَ؟

إِذْ أَرَدْتَ شَيْئاً مِنْ هَذِهِ فَرَدَدَ مِنْ أَعْمَاقِ قَلْبِكَ مَعَ زَيْنِ الْعَابِدِينَ، وَسَيِّدِ السَّاجِدِينَ أَنْفَاسَهُ هَذِهِ الرِّكِيَّةُ السَّمَاوِيَّةُ، وَأَنْوَارُهُ الْقُدْسِيَّةُ الْإِلَهِيَّةُ، وَقُلْ مَعَهُ:

«يَا إِلَهِي لَوْ بَكَيْتُ إِلَيْكَ حَتَّى تَسْقُطَ أَشْفَارُ عَيْنَيَّ، وَأَنْتَحَبْتُ حَتَّى يَنْقَطِعَ صَوْتِي، وَقُمْتُ لَكَ حَتَّى تَتَنَشَّرَ قَدَمَايَ، وَرَكَعْتُ لَكَ حَتَّى يَنْخَلِعَ صُلْبِي، وَسَجَدْتُ لَكَ حَتَّى تَتَفَقَّأَ حَدَقَتَايَ، وَأَكَلْتُ تُرَابَ الْأَرْضِ طُولَ عُمْرِي، وَشَرِبْتُ مَاءَ الرَّمَادِ آخِرَ دَهْرِي، وَذَكَرْتُكَ فِي خِلَالِ ذَلِكَ حَتَّى يَكِلَ لِسَانِي، ثُمَّ لَمْ أَرْفَعْ طَرْفِي إِلَى آفَاقِ السَّمَاءِ اسْتِخْيَاءً مِنْكَ مَا اسْتَوْجَبْتُ بِذَلِكَ مَحْوَ سَيِّئَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ سَيِّئَاتِي. وَإِنْ كُنْتُ تَغْفِرُ لِي حِينَ اسْتَوْجِبُ مَغْفِرَتَكَ، وَتَغْفُو عَنِّي حِينَ اسْتَسْحِقُّ عَفْوُكَ فَإِنَّ ذَلِكَ غَيْرُ وَاجِبٍ لِي بِاسْتِحْقَاقِي، وَلَا أَنَا أَهْلٌ لَهُ بِاسْتِجَابٍ»^(١).

وَمَاذَا أَحْسَسْتَ - أَيُّهَا الْقَارِيءُ - وَأَنْتَ تَتْلُو هَذِهِ الْمَزَامِيرَ؟ هَلْ أَغْتَرَكِ رَعَشَةُ أَهْتَرٍّ لَهَا كَيَانُكَ مِنَ الْأَعْمَاقِ؟ وَهَلْ فَاضَتْ عَيْنَاكَ مِدْرَاراً بِالدَّمْعِ؟ وَهَلْ خَفَقَ قَلْبُكَ بِعُنفٍ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَرَهْبَتِهِ؟ إِذَا كَانَ شَيْءٌ مِنْ هَذَا فَطُوبَى لَكَ، حَيْثُ أَخَذَتْ هَذِهِ الْأَنْفَاسُ الرِّكِيَّةُ طَرِيقَهَا تَوَّاً مِنْ قَلْبِ إِمَامِكَ الْأَعْظَمِ إِلَى قَلْبِكَ وَهَذَا هُوَ مَقْيَاسُ الصَّلَةِ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ، وَدَلِيلُ الْأَرْضِ الطَّيِّبَةِ الصَّالِحَةِ لِلْبَذْرِ الصَّالِحِ، وَنُمُوهُ وَحَصَادُ الْخَيْرِ وَالْفَلَاحِ.

وَقَبْلَ أَنْ تَتَرَكَ هَذِهِ الصَّفْحَةَ إِلَى غَيْرِهَا قِفْ طَوِيلاً، وَسَرِّحِ النَّظَرَ، وَأَطْلُقِ عَنَانَ التَّدْبِيرِ وَالتَّأَمَّلِ فِي قَوْلِ الْإِمَامِ: «ثُمَّ لَمْ أَرْفَعْ طَرْفِي إِلَى آفَاقِ السَّمَاءِ اسْتِخْيَاءً مِنْكَ مَا اسْتَوْجَبْتُ بِذَلِكَ مَحْوَ سَيِّئَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ سَيِّئَاتِي». تَدَبَّرْ وَتَأَمَّلْ مَعْنَاهُ وَأَسْرَارَهُ وَمَرَمَاهُ عَسَى أَنْ يَنْقُذَكَ مِنَ الْهَلَكَةِ، وَيَأْخُذَ بِيَدِكَ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ، وَعَلَى الْأَقْلِ

(١) أَنْظِرِ، الصَّحِيفَةَ السَّجَّادِيَّةَ الدُّعَاءَ السَّادِسَ عَشَرَ (دُعَاؤُهُ فِي الْإِسْقَالَةِ). بِتَحْقِيقِنَا.

يُولَدُ فِيكَ الشَّعُورُ بِالْخَوْفِ مِنْ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ فِي لَحْظَةٍ صَافِيَةٍ مُشَوِّقَةٍ، تُعَادِلُ عِبَادَةَ سَنَوَاتٍ وَسَنَوَاتٍ... وَعَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ أَفْضَلُ التَّحِيَّاتِ وَالصَّلَوَاتِ الَّذِي قَالَ: «الْفِكْرُ مِزَاةٌ صَافِيَةٌ، وَالْإِعْتِبَارُ مُنْذِرٌ نَاصِحٌ، وَكَفَى أَدْبًا لِنَفْسِكَ تَجَنُّبُكَ مَا كَرِهَتْهُ لِبَغِيرِكَ»^(١).

وَبَعْدَ فَإِنَّ الْإِمَامَ يَغْلَمُ حَقَّ الْعِلْمِ أَنَّ عَظَمَةَ اللَّهِ لَا حُدُودَ لَهَا وَلَا نَهَايَةَ، وَأَنَّ طَاقَةَ الْإِنْسَانِ تَقِفُ عِنْدَ حَدٍّ، وَمِنْ هُنَا يَسْتَحِيلُ عَلَى أَيِّ إِنْسَانٍ -وإنْ حَرَّصَ وَاجْتَهَدَ- أَنْ يَعْبُدَ اللَّهَ عِبَادَةً تَتَّفَقُ مَعَ عَظَمَتِهِ جَلَّ وَعَزَّ، حَتَّى وَلَوْ سَقَطَتْ أَشْفَارُ عَيْنَيْهِ مِنْ الْبُكَاءِ، وَانْقَطَعَ صَوْتُهُ مِنَ الدُّعَاءِ، وَانْتَشَرَ لَحْمُ قَدَمَيْهِ مِنَ الْقِيَامِ، وَانْخَلَعَ صُلْبُهُ مِنَ الرُّكُوعِ، وَتَفَقَّاتَ حَدَقَتَاهُ مِنَ السُّجُودِ، وَحَتَّى لَوْ أَكَلَ التُّرَابَ، وَشَرَبَ مَاءَ الرَّمَادِ كُلَّ ذَلِكَ وَفَوْقَ ذَلِكَ يَضْعُرُ عِنْدَ عَظَمَةِ اللَّهِ، لَا، كُلَّ مَا سِوَاهُ صَغِيرٌ وَحَقِيرٌ بِالْقِيَاسِ إِلَيْهِ تَعَالَى، أَوْ لَا شَيْءَ أَبَدًا.

الْإِنْسِجَامُ:

وَالرَّسُولُ الْأَعْظَمُ ﷺ يَفْعَلُونَ مَا يَقُولُونَ، وَلَا يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، فَقَدْ تَوَاتَرَ عِنْدَ أَهْلِ السَّيْرِ وَالتَّارِيخِ أَنَّ الْإِمَامَ زَيْنَ الْعَابِدِينَ عليه السلام كَانَ يُصَلِّي فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ أَلْفَ رُكْعَةٍ^(٢)، تَمَامًا كَجَدِّهِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام، وَكَانَ يُصَلِّي صَلَاةَ مُودَعٍ،

(١) أنظر، نهج البلاغة: الْحِكْمَةُ (٣٦٤).

(٢) أنظر، سِيرَ أَعْلَامِ النَّبَلَاءِ: ٣٩٢/٤، يَتَابِعُ التَّوَدُّعَ: ١٠٥/٣، الصَّوَاغِقُ الْمُحَرِّقَةُ لِابْنِ حَجَرٍ: ٢٠٠. تَهْذِيبُ التَّهْذِيبِ لِلشَّيْخِ الْأَنْصَارِيِّ: ٣٠٦/٧، نُورُ الْأَبْصَارِ لِلشَّيْخِ: ١٣٦، الْإِنْخَافُ بِحُبِّ الْأَشْرَافِ: ٤٩، تَذَكُّرَةُ الْحَفَاطِ: ٧١/١، شَذَرَاتُ الذَّهَبِ لِابْنِ الْعِمَادِ: ١٠٤/١، أَخْبَارُ الدُّوَلِ لِلرَّمَانِيِّ: ١١٠، تَارِيخُ

أَيَّ كَمَا لَوْ عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَبْقَى بَعْدَهَا، وَكَانَ إِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ أَفْشَعَرَ جِلْدَهُ، وَأَصْفَرَ لَوْنَهُ، وَأَزْثَعَدَ كَالسَّعْفَةِ خَشْيَةً مِنَ اللَّهِ، وَقَدْ أَنْخَرَمَ أَنْفُهُ مِنْ كَثَرَةِ السَّجُودِ، وَشَقِقتْ جَنْبَتَهُ وَرُكْبَتَاهُ، وَمَعَ هَذَا كَانَ يُكْرِّرُ فِي مُنَاجَاتِهِ، وَيَقُولُ: «سُبْحَانَكَ مَا عَبْدُكَ حَقٌّ عِبَادَتُكَ»^(١).

العُجْبُ:

وَأَهْدِي قَوْلَ الْإِمَامِ زَيْنِ الْعَابِدِينَ عليه السلام: «سُبْحَانَكَ مَا عَبْدُكَ حَقٌّ عِبَادَتُكَ». وَقَوْلُهُ: «ثُمَّ لَمْ أَرْفَعْ طَرْفِي إِلَى أَفَاقِ السَّمَاءِ أَسْتَحْيَاءَ مِنْكَ مَا أَسْتَوْجِبْتُ بِذَلِكَ مَحْوَ سَيِّئَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ سَيِّئَاتِي». أَهْدِيهِ إِلَى مَنْ أَعْرَفَ مِنَ الشُّيُوخِ وَالْحُجَّاجِ، وَمَنْ لَا أَعْرَفَ مِنْ هَؤُلَاءِ وَغَيْرِ هَؤُلَاءِ الْمُعْجِبِينَ الْمُدْلِينَ بِطَهَارَةِ أَثْوَابِهِمْ وَأَبْدَانِهِمْ، وَبِصَلَاتِهِمْ وَصِيَامِهِمْ... عَسَى أَنْ يَتَعَطَّوْا وَيَنْتَفِعُوا، وَلَا يَنْسُوا ذُنُوبَهُمْ، وَيَسْتَكْثِرُوا الْقَلِيلَ مِمَّا يَعْمَلُونَ.

أَنَّ الْعُجْبَ سَيِّئَةٌ تُشَوِّهِ وَجْهَ الْحَسَنَاتِ، وَتَذْهَبُ بِمَا فِيهَا مِنْ جَمَالٍ وَبَهَاءٍ قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: «سَيِّئَةٌ تَسُوءُكَ خَيْرٌ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ حَسَنَةٍ تُعْجِبُكَ»^(٢). وَقَالَ الْإِمَامُ الصَّادِقُ عليه السلام: «أَنَّ الذَّنْبَ خَيْرٌ لِلْمُؤْمِنِ مِنَ الْعُجْبِ»^(٣). ذَلِكَ أَنَّ الْمُذْنِبَ قَدْ يَنْدَمُ وَيَتُوبُ، أَمَّا الْمُعْجَبُ فَإِنَّهُ، تَمَامًا كَالْمَرِيضِ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ

﴿مَشَقُّ: ١٥١/٣٦، الْمِرْبَرُ فِي خَيْرٍ مِنْ غَيْرٍ: ١١١/١، تَأْرِيخُ الْيَعْقُوبِيِّ: ٤٥/٣، الْمُنتَظَمُ: ٦ وَرَقَّة

١٤٣، الْكَوَاكِبُ الدَّرِّيَّةُ: ١٣١/٢، الْبَدَايَةُ وَالنَّهَائَةُ: ١٠٥/٩.

(١) أَنْظَرِ، الصَّحِيفَةُ السَّجَّادِيَّةُ الدُّعَاءُ الثَّالِثُ (الصَّلَاةُ عَلَى حَمَلَةِ الْفَرَسِ). (بِتَحْقِيقِنَا.

(٢) أَنْظَرِ، نَهْجُ الْبَلَاغَةِ: الْجُحْمَةُ (٤٥).

(٣) أَنْظَرِ، وَشَائِلُ الشَّيْئَةِ: ١/عِبَادَاتُ ح ٧.

صَحِيح مُعَاْفِي ... وَقَالَ: يَدْخُلُ رَجُلَانِ إِلَى الْمَسْجِدِ: أَحَدُهُمَا عَابِدٌ، وَالْآخَرُ فَاسِقٌ، فَيَخْرُجَانِ، وَالْفَاسِقُ صَدِيقٌ، وَالْعَابِدُ فَاسِقٌ، لِأَنَّ الْعَابِدَ يَدْخُلُ، وَهُوَ مَدَلٌ بِعِبَادَتِهِ، وَيَكُونُ فِكْرُهُ فِي ذَلِكَ، أَمَّا الْفَاسِقُ فَيَكُونُ فِكْرُهُ فِي النَّدَمِ عَلَى فِسْقِهِ، فَسَيَتَغْفَرُ اللَّهُ مِنْ ذَنْبِهِ»^(١). وَقَالَ: «الْعُجْبُ كُلُّ الْعُجْبِ حَبَّةُ الْكُفْرِ، وَأَرْضُهُ التَّفَاقُ، وَمَاؤُهُ الْبَغْيُ، وَأَغْصَانُهُ الْجَهْلُ، وَوَرَقُهُ الضَّلَالَةُ، وَثَمَرُهُ اللَّعْنَةُ وَالْخُلُودُ فِي النَّارِ»^(٢).

وَبِالْتَّالِي، فَإِنَّ الضَّاحِكَ مَعَ الْخَوْفِ مِنَ اللَّهِ أَفْضَلُ أَلْفَ مَرَّةٍ مِنَ الْبَاكِي الْمُدَلِّ الْمُعْجَبِ بِعَمَلِهِ، وَمِثْلُهُ مَا يَعْرِفُ لِأَحَدٍ فَضْلًا.

وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ الْمَسْئُولُ أَنْ يَجْعَلَكَ وَإِيَّايَ - أَيُّهَا الْقَارِيءُ - مِنَ الْمُصْلِحِينَ السُّعْدَاءِ عِنْدَ رَبِّهِمْ، وَيُشِيكَ عَلَى قِرَاءَةِ كَلِمَتِي هَذِهِ، وَيُثَبِّتِي مَعَكَ أَجْرَ مَنْ صَلَّى لِلَّهِ، وَقَرَأَ لِلَّهِ، وَكَتَبَ لِلَّهِ ... بِحَقِّ الرَّسُولِ وَآلِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ ... أَنَّهُ خَيْرُ مَسْئُولٍ.

(١) أنظر، وسائِلُ الشَّيْخَةِ: ١/ العِبَادَاتُ ح ١٠، وسَائِلُ الشَّهِيدِ الثَّانِي: ١٤٤.

(٢) أنظر، مِصْبَاحُ الْفَقِيهِ: ج ١/ ق ١/ لِرِضَا الْهَمْدَانِي.



لَا إِيمَانَ مَعَ كَذِبٍ

قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَيْكُونُ الْمُؤْمِنُ جَبَانًا؟.

قَالَ: قَدْ يَكُونُ.

قِيلَ لَهُ: أَيْكُونُ بَخِيلًا؟.

قَالَ: قَدْ يَكُونُ.

قِيلَ: أَيْكُونُ كَذَّابًا؟.

قَالَ: لَا.

وفي الآية: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَذِبُونَ﴾^(١).

وَقَالَ عَلِيٌّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: «لَا يَجِدُ عَبْدٌ طَعْمَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَتْرِكَ الْكَذِبَ جِدَّهُ، وَهَزْلَهُ»^(٢)، وَقَالَ: «الْإِيمَانُ أَنْ تُؤَثِّرَ الصَّدَقُ حَيْثُ يَضُرُّكَ عَلَى الْكَذِبِ حَيْثُ يَنْفَعُكَ، وَالْأَيُّ يَكُونُ فِي حَدِيثِكَ فَضْلٌ عَنْ عَمَلِكَ، وَأَنْ تَتَّقِيَ اللَّهَ فِي حَدِيثِ

(١) أَلْتَحَلَّ: ١٠٥. أنظر، التمهيد لابن عبد البر: ١٦/٢٥٣ ح ٧، موطأ الإمام مالك: ٢/٩٩٠ ح ١٧٩٥.

الفضول المهمة في معرفة الأئمة: ٢/٢٧٩، بتحقيقنا.

(٢) أنظر، الكافي: ٢/٣٤٠ ح ١١، تحف العقول: ٢١٦، بخار الأنوار: ٧٢/٢٤٩ ح ١٤، وسائيل

الشيعة: ٨/٥٧٧ ح ٢، مجمع الفائدة: ١٢/٣٦١.

غَيْرِكَ»^(١).

وَهَذَا يَدُلُّ بِصَرَاحَةٍ عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ وَحِدَةٌ لَا تَتَجَزَّأُ، وَحَقِيقَةٌ لَا تَتَعَدَّدُ، تَمَامًا كَالشَّجَاعَةِ وَالكَرَمِ، أَجَلٌ، أَنَّ لِلْإِيمَانِ مَرَاتِبَ، مِنْهَا الدُّنْيَا، وَمِنْهَا الْعُلْيَا، وَمِنْهَا وَسْطُ بَيْنَهُمَا، وَلَكِنْ لَيْسَ مَعْنَى هَذَا أَنَّ الْمَرْتَبَةَ الضَّعِيفَةَ مِنَ الْإِيمَانِ لَا أَثَرَ لَهَا إِطْلَاقًا، أَوْ لَهَا أَثَرُ الضَّدِّ، فَإِنَّ الْإِيمَانَ، مَهْمَا ضَعُفَ فَلَا بُدَّ أَنْ يَتَلَاءَمَ مَعَ إِرَادَةِ اللَّهِ وَأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَيَخْرُسَ صَاحِبُهُ مِنَ الْكَذِبِ وَالرِّيَاءِ، وَمَا إِلَيْهِ مِنْ آثَارِ الْهَرَقَةِ وَاللَّامُبَالَاةِ.

وَنَقُولُ: إِذَا كَانَ الْمُؤْمِنُ لَا يَذْنُبُ أَبَدًا، فَأَيَّ فَرْقٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَغْصُومِ؟

الجواب:

لَا فَرْقَ بَيْنَ الْمَغْصُومِ وَالْمُؤْمِنِ مِنْ حَيْثُ تَرَكَ الذُّنُوبَ وَعَدِمَ أَزْتِكَابَهَا، وَإِنَّمَا الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا مِنْ جِهَاتٍ أُخْرَى وَهِيَ:

١- أَنَّ الْإِيمَانَ يَخْتَلِفُ شِدَّةً وَضَعْفًا، وَالْعِصْمَةَ لَا يَتَّصِرُ فِيهَا ذَلِكَ، فَهِيَ فِي سَيِّدِ الْأَنْبِيَاءِ، كَمَا هِيَ تَمَامًا فِي أَيِّ نَبِيٍّ مِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

٢- أَنَّ الْإِيمَانَ قَدْ يَزُولُ بِالْمَعْصِيَةِ، ثُمَّ يَعُودُ ثَانِيَةً بِالتَّوْبَةِ، وَلَا يَتَأْتِي ذَلِكَ فِي الْعِصْمَةِ، لِأَنَّهَا مَتَى تَبَيَّنَتْ دَامَتْ، وَلَا تَزُولُ بِحَالٍ.

٣- أَنَّ الْمَغْصُومَ لَا يَخْطِيءُ بِعِلْمِهِ وَمَعْرِفَتِهِ أَبَدًا، فَأَقْوَالُهُ وَأَفْعَالُهُ كُلُّهَا أَنْعَكَاسٌ عَنِ الْوَاقِعِ، أَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَخْطِيءُ، وَيُصِيبُ، وَهُوَ فِي الْحَالِّينِ مَا جُورَ، عَلَى شَرِيطَةٍ أَنْ يَتَحَفَظَ وَيَحْتَرَسَ، وَبِكَلِمَةٍ أَنَّ الْمَغْصُومَ مُنْزَعٌ عَنِ الْخَطَا وَالْخَطِيئَةِ أَمَّا الْمُؤْمِنُ فَمُنْزَعٌ عَنِ الْخَطِيئَةِ دُونَ الْخَطَا.

(١) انظر، خُطْبُ نَهْجِ الْبَلَاغَةِ: ١٠٥/٤، أَلْحِكْمَةُ: (٤٥٨).

٤- أَنَّ الْعُلَمَاءَ اخْتَلَفُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ: هَلِ السَّلُوكُ وَالْعَمَلُ جُزْءٌ مِنَ الْإِيمَانِ أَوْ أَنَّ الْإِيمَانَ صِفَةٌ نَفْسِيَّةٌ تَسْتَقِلُّ عَنِ الْعَمَلِ... وَبَدِيهَةٌ أَنَّ هَذَا التَّنَزَّاعَ لَا يَتَأْتِي فِي الْعِصْمَةِ، لِأَنَّ الْعَمَلَ يَرْتَبِطُ بِهَا أَشَدَّ الْإِرْتِبَاطِ، وَلَا يَنْفَكُ عَنْهَا، وَمَهْمَا يَكُنْ، فَتَنْحُنْ مِنَ الْقَائِلِينَ بِأَنَّ السَّلُوكَ وَالْعَمَلَ جُزْءٌ مِنَ الْإِيمَانِ - كَمَا قَدَّمْنَا وَدَلَّلْنَا الْآيَاتِ الَّتِي سَلَبَتْ الْإِيمَانَ عَنِ غَيْرِ الْعَامِلِينَ مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(١).

وَلَوْ كَانَ الْإِيمَانُ الشَّرْعِيُّ مُجَرَّدَ الْإِعْتِقَادِ الْمُسْتَقِلِّ عَنِ الْعَمَلِ لَكَانَ مَثَالِيًّا غَيْبِيًّا لَا يَمْتِ إِلَى الْمَوْضُوعَاتِ الْحِسِّيَّةِ بِسَبَبٍ... وَلَا أَسْتَطِيعُ بِخَالٍ أَنْ أَتَصَوَّرَ إِنْسَانًا يَتَّصِفُ بِالْإِيمَانِ وَهُوَ يَتْرَكُ شَيْئًا مِنْ دِينِ اللَّهِ مَخَافَةَ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، أَوْ طَمَعًا بِمَا فِي يَدِهِ مِنَ الْحُطَامِ... أَجَلْ، قَدْ يَغْصِي الْمُؤْمِنُ وَيَذْنُبُ، وَلَكِنَّهُ يُبَادِرُ إِلَى مَحْوِ الذَّنْبِ بِالتَّوْبَةِ، تَمَامًا كَمَا يُبَادِرُ إِلَى غَسْلِ ثَوْبِهِ وَجِسْمِهِ مِنَ الْقَذَرَاتِ وَالْأَوْسَاحِ، أَمَا إِذَا أَصَرَ، وَلَمْ يَنْدَمْ، وَبَقِيَ عَلَى غَفْلَتِهِ، حَتَّى النَّفْسُ الْأَخِيرُ فَمَا هُوَ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْمُؤْمِنِينَ فِي شَيْءٍ.

نَحْنُ بَشَرٌ، وَلَسْنَا مَلَائِكَةً وَلَا أَنْبِيَاءَ، وَفِينَا عَاطِفَةٌ وَشَهَوَاتٌ، وَمَيُولٌ وَرَغَبَاتٌ، وَلَنَا قُلُوبٌ وَأَعْصَابٌ مِنْ لَحْمٍ وَدَمٍ، لَا نَسْتَطِيعُ التَّحْكِيمَ بِهَا، وَالسَّيْطَرَةَ عَلَيْهَا فِي كُلِّ آيٍ وَحِينٍ - إِذَنْ - وَقُوعَنَا بِالْخَطِيئَةِ لَيْسَ بِالشَّيْءِ الْغَرِيبِ، وَإِنَّمَا الْغَرِيبُ هُوَ الْإِصْرَارُ عَلَى الْخَطِيئَةِ.

وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ مَعْنَى أَنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا تَرَكَ وَاجِبًا، أَوْ فَعَلَ حَرَامًا أَتَنَزَّعَ مِنْهُ وَصَفٌ

الْإِيمَانُ الشَّرْعِيُّ حَقِيقَةٌ وَوَاقِعًا، قَالَ الرَّسُولُ الْأَعْظَمُ ﷺ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ خَلَعَ عَنْهُ الْإِيمَانُ كَخَلَعِ الْقَمِيصِ»^(١).

وَقَالَ ﷺ: «لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ مَنْ لَمْ يَأْمَنْ جَارُهُ بِوَائِقِهِ»^(٢).
قُلْتُ: وَمَا بِوَائِقُهُ؟ قَالَ: غَشْمُهُ، وَظَلْمُهُ»^(٣).

وَلَنْ يَمُودَ إِلَيْهِ الْإِيمَانُ الشَّرْعِيُّ أَبَدًا إِلَّا بِالتَّوْبَةِ الصَّادِقَةِ النَّصُوحَةِ الَّتِي أَشَارَ إِلَيْهَا الْإِمَامُ زَيْنُ الْعَابِدِينَ ﷺ بِقَوْلِهِ:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَتُوبُ إِلَيْكَ فِي مَقَامِي هَذَا مِنْ كَبَائِرِ ذُنُوبِي وَصَغَائِرِهَا، وَبَوَاطِنِ سَيِّئَاتِي وَظَوَاهِرِهَا، وَسَوَالِفِ زَلَّاتِي وَحَوَادِثِهَا، تَوْبَةً مَنْ لَا يُحَدِّثُ نَفْسَهُ بِمَعْصِيَةٍ، وَلَا يُضْمِرُ أَنْ يَعُودَ فِي خَطِيئَةٍ وَلَكَ يَا رَبِّ شَرْطِي إِلَّا أَعُودَ فِي

(١) أنظر، صحيح البخاري: ٢/٨٧٥ ح ٢٣٤٣، صحيح مسلم: ١/٧٦ ح ٥٧، مُسْتَدْرَكُ أَخْتَد: ٢/٢٤٣ ح ٧٣١٦، صحيح ابن جبران: ١/٤١٤ ح ١٨٦، سنن الترمذي: ٥/١٥ ح ٢٦٢٥، سنن الدارمي: ٢/١٥٦ ح ٢١٠٦، مَجْمَعُ الزَّوَائِد: ١/١٠٠، السنن الكبرى: ٣/٢٢٧ ح ٥١٦٩، سنن البيهقي الكبرى: ١٠/١٨٦، سنن أبي داود: ٤/٢٢١ ح ٤٦٨٩، سنن النسائي: ٨/٦٣ ح ٤٨٦٧، سنن ابن ماجه: ٢/١٣٩٨ ح ٣٩٣٦، الْمُعْجَمُ الْأَوْسَط: ١/١٧٠ ح ٥٣٤، الكافي: ٢/١١٦، وَسَائِلُ الشَّيْعَةِ: ١٥/٣٢٥، نَوَادِرُ الْأُصُولِ فِي أَحَادِيثِ الرَّسُول: ١/٣٦٨.

(٢) أنظر، صحيح البخاري: ٥/٢٢٤٠ ح ٥٦٧٠، صحيح مسلم: ١/٦٨ ح ٤٦، مُسْتَدْرَكُ أَخْتَد: ١/٣٨٧ ح ٣٦٧٢، الْفَرْدَوْسُ بِمَثُورِ الْبَطَاب: ٤/٣٥٦ ح ٧٩٢٥، صحيح ابن جبران: ٢/٣٦٤ ح ٥١٠، الْمُسْتَدْرَكُ عَلَى الصَّحِيحَيْنِ: ١/٥٣ ح ٢١، مَوَارِدُ الظَّمآن: ١/٣٧ ح ٢٦، مُسْتَدْرَكُ الرَّيْع: ١/٣٦٨ ح ٩٥٩، الْمُصَنَّفُ لِابْنِ أَبِي شَيْبَةَ: ٥/٢٢٠ ح ٢٥٤٢٢ و ١٠٢/٦ ح ٧، مَجْمَعُ الزَّوَائِد: ١/٥٣، سُبُلُ السَّلَام: ٣/١٣٩ و ٤/١٦٦ ح ٦، التَّرْغِيبُ وَالتَّرْهِيْب: ١/٥٨٤، دَلَائِلُ الْإِسَامَةِ: ٦٦، مُسْتَدْرَكُ أَبِي يَعْلَى: ١١/٣٧٥ ح ٦٤٩٠، الْمُعْجَمُ الْأَوْسَط: ٨/٦٩، مُسْتَدْرَكُ أَبِي دَاوُدَ الطَّيَالِسِيِّ: ١٩١، الْمُصَنَّفُ لِعَبْدِ الرَّزَّاقِ الصَّنْعَانِيِّ: ١١/٧ ح ١١٧٤٧، الْأَدَبُ الْمُفْرَد: ٣٧ ح ١٢١، تَأْوِيلُ مُخْتَلَفِ الْحَدِيث: ١٦١، مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ لِابْنِ أَبِي الدُّنْيَا: ١٠٦ ح ٣٤٢ و ٣٤٣، مَجْمَعُ الزَّوَائِد: ١/٥٣.

مَكْرُوهِكَ، وَضَمَانِي أَنْ لَا أَزِجَعَ فِي مَذْمُومِكَ، وَعَهْدِي أَنْ أَهْجُرَ جَمِيعَ مَعَاصِيكَ» ^(١).

هَذِي هِيَ التَّوْبَةُ بِمَعْنَاهَا الصَّحِيحُ، شَرَطَ يَقْطَعُهُ التَّائِبُ عَلَى نَفْسِهِ، وَضَمَانَ اللَّهِ وَعِنْدَ اللَّهِ، وَعَهْدَ لَنْ يَخْلِفَهُ أَبَدًا، وَإِذَا وَجَبَ الْوَفَاءُ وَالضَّمَانُ لِمَنْ هُوَ مِثْلُكَ أَوْ دُونَكَ، فَكَيْفَ إِذَا أُعْطِيَتْهُ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ؟..

وَقَبْلَ أَنْ أَدْعَ هَذَا الْفَضْلَ أُشِيرُ إِلَى أَمْرَيْنِ:

الْأَوَّلُ: أَنَّ مَفْهُومَ الْكَذِبِ لَا يَخْتَصُّ بِعَدَمِ مُطَابَقَةِ الْقَوْلِ لِلْوَاقِعِ، وَإِنَّمَا يَشْمَلُ كُلَّ دَعْوَى بِغَيْرِ حَقٍّ، فَالْمُرَائِي، وَالْمَغْرُورُ، وَالْمُتَكَبِّرُ، وَالْمُعْجَبُ بِنَفْسِهِ، وَالْجَاهِلُ يَتَّسِمُ بِسِمَةِ الْعُلَمَاءِ، وَيَلْبَسُ أَتَوَابِهِمْ، كُلُّ هَؤُلَاءِ، وَمَنْ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْكَذِبِ وَالْجَدَلِ وَالْتِفَاقِ، يَصْدُقُ عَلَيْهِمْ قَوْلُ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ: «الْمُؤْمِنُ لَا يَكُونُ كَذَابًا» ^(٢).
الثَّانِي: أَنَّ الْكَذِبَ قَبِيحٌ بِذَاتِهِ، يَجِبُ تَرْكُهُ، وَإِنْ لَمْ تَنْهَ عَنْهُ الْأَدْيَانُ وَالشَّرَائِعُ فَهُوَ يَحْمِلُ مَعَهُ الدَّلِيلَ عَلَى قُبْحِهِ، وَيَقْبِحُ ذَاتَهُ بِذَاتِهِ... وَيَكْفِي أَنَّهُ لَا أَسَاسَ لَهُ مِنَ الْوَاقِعِ، وَأَنَّهُ سِلَاحُ الضَّعِيفِ الْجَبَانَ، وَأَنَّ الْكَاذِبَ يَتَبَرَأُ مِنْهُ لَوْ نُسِبَ إِلَيْهِ، حَتَّى الْأَطْفَالُ يَسْتَقْبَحُونَ الْكَذِبَ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ صَاحِبَهُ مَمْقُوتٌ لَا يَثِقُ بِهِ أَحَدٌ، وَلَا يَرْكُنُ إِلَيْهِ فِي شَيْءٍ، وَلَوْ جَاءَ بِالصِّدْقِ لَا يُصَدَّقُ.

وَيَجُوزُ الْكَذِبُ فِي ثَلَاثٍ: الْمَكِيدَةِ فِي الْحَرْبِ، وَالْإِضْلَاحِ بَيْنَ النَّاسِ، وَوَعْدِ الزَّوْجَةِ، بِخَاصَّةٍ لِمَنْ جَمَعَ بَيْنَ اثْنَتَيْنِ. وَلَوْ كَانَتْ مُشْكِلَةً تَعَدَّدَ الزَّوْجَاتُ تَنَحَّلَ بِالْكَذِبِ لَطَارَ الرِّجَالُ فَرَحًا وَسُرُورًا...

(١) انظر، الصَّحِيفَةُ السَّجَّادِيَّةُ: الدُّعَاءُ الْعَادِي وَالتَّلَاوُنُ (دُعَاؤُهُ بِالتَّوْبَةِ). بِتَحْقِيقِنَا.

(٢) تَقَدَّمَ تَحْرِيجَاتُهُ.

وَبَعْدَ ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَقِفُ حَاجِزاً بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَرَحْمَةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ ، وَيَسُدُّ
جَمِيعَ الطُّرُقِ وَالتَّوَافِذِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَى اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ ، رَغْمَ أَنَّهَا بَعْدَدَ أَنْفَاسِ الْخَلَائِقِ ،
أَوْ أَكْثَرَ ... وَكَمَا أَنَّ الْكَذِبَ يَقْفِلُ التَّوَافِذَ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ فَإِنَّ الصَّدَقَ مِفْتَاحَ لَعْفَوِهِ
وَكَرَمِهِ ، وَالرَّجُلَ كُلَّ الرَّجُلِ مَنْ يَسْتَعْمِلُهُ ، بَلْ أَنَّ الصَّدَقَ مِفْتَاحَ النَّجَاحِ فِي هَذِهِ
الْحَيَاةِ ، وَبِهِ تُفْتَحُ الْأَبْوَابُ الَّتِي تُقْفَلُ فِي وَجْهِ الْكَاذِبِ الْمُحْتَالِ .

الثِّقَّةُ بِاللَّهِ

مَعْنَى الثِّقَّةِ بِاللَّهِ:

مَعْنَى الثِّقَّةِ بِاللَّهِ أَنْ تَعْتَقِدَ بِأَنَّ النَّفْعَ كُلَّهُ، وَالضَّرَّ كُلَّهُ بِيَدِ اللَّهِ وَحْدَهُ، وَأَنَّ أَهْلَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَوْ اجْتَمَعُوا وَتَكَاثَفُوا عَلَى أَنْ يَقْفُلُوا فِي وَجْهِكَ التَّوْفِيقَ كُلَّهَا، وَيَسُدُّوا عَلَيْكَ الطَّرِيقَ بِأَجْمَعِهَا لَجَعَلَ اللَّهُ لَكَ فَرْجًا وَمَخْرَجًا، مِنْ حَيْثُ لَا تَحْتَسِبُ الْفَرْجَ وَالْمَخْرَجَ إِلَّا مِنْهُ، وَأَنْ تَعْتَقِدَ أَيْضًا أَنَّ ذَنْبَكَ مَهْمَا عَظُمَ فَعَفُو اللَّهِ يَتَسَّعُ لَهُ، وَأَنَّكَ لَوْ وَقَعْتَ فِي أَعْظَمِ الشَّدَائِدِ فَإِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى خَلَاصِكَ حَتَّى فِي اللَّحْظَةِ الَّتِي تَهْوِي فِيهَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، أَوْ كُنْتَ فِي قَاعِ الْبَحْرِ تَلْفُظُ أَنْفَاسَ الْمَوْتِ، فَتَرْجُو وَتَأْمَلُ أَنْ يُنْقَذَكَ اللَّهُ، وَيَضَعَكَ عَلَى الْيَابَسَةِ صَحِيحًا مُعَافًى، وَأَنْتَ مَعَ النَّفْسِ الَّذِي يَنْصَلُ بِالْأَخِيرِ بِلَا فَاصِلٍ^(١).

(١) تَقَعُ بَلَدَةُ جُمُوشٍ فِي جَنُوبِ لُبْنَانَ جَبَلٌ غَامِلٌ قُرْبَ النَّطْبِيَةِ، وَيُوجَدُ فِيهَا الْآنَ رَجُلٌ، أَسَمُهُ حَسَنٌ طَالِبٌ نِعْمَةً، تَشَاجِرٌ مَعَ آخَرٍ، قَطَعْنَهُ هَذَا بِسَكِينٍ غَاصَتْ بِكَامِلِهَا فِي أَمْعَانِهِ، وَمَزَقَتْهَا تَمَزِيقًا، وَخَرَجَ مَا فِيهَا، وَأَشْرَفَ حَسَنٌ عَلَى الْهَلَاكِ، فَرَضَهُ أَهْلُهُ عَلَى عَدَدٍ مِنَ الْأَطْبَاءِ، مِنْهُمْ الْجَرَّاحُ الْمَعْرُوفُ نَسِيبِ الشَّابِ الْمَوْجُودِ حَالِيًا فِي صِيدَا، فَأَجْمَعَ الْأَطْبَاءُ كَلِمَةً وَاحِدَةً عَلَى أَنَّهُ مَيِّتٌ بَعْدَ لَحْظَاتٍ لَا مَحَالَةَ، وَأَنَّ الطَّيِّبَ لَا يُجْدِي شَيْئًا، وَقَبْلَ أَنْ يَلْفُظَ النَّفْسَ الْأَخِيرَ أَصَابَتْهُ غَفْوَةٌ رَأَى فِيهَا الْحُسَيْنَ بْنِ عَلِيٍّ سَيِّدِ الشُّهَدَاءِ (فَأَشْتَفَاتُ بِهِ)، فَوَضَعَ الْحُسَيْنُ يَدَهُ الشَّرِيفَةَ عَلَى مَكَانِ الْجُرْحِ، فَعَادَ كُلُّ شَيْءٍ صَحِيحًا كَمَا

وَإِنْ تَخَافُ اللَّهَ وَتَهَابَهُ، وَلَوْ أَتَيْتُهُ بِحَسَنَاتِ أَهْلِ الْأَرْضِ، وَأَنْ تَخْشَى الْعَاقِبَةَ
وَسُوءَ الْمَصِيرِ، وَأَنْتَ فِي تَمَامِ الصَّحَّةِ وَالْأَمَانِ، وَفِي أَوْجِ الْعِزِّ وَالْمَجْدِ، تَعْتَقِدُ كُلَّ
ذَلِكَ... وَتَلْتَزِمُ بِهِ، وَتَعْمَلُ بِمَا تَلِيهِ هَذِهِ الْعَقِيدَةُ فِي سِيرَتِكَ وَمُعَامَلَاتِكَ وَجَمِيعِ
حَرَكَاتِكَ وَسَكَنَاتِكَ... وَبِكَلِمَةٍ أَنْ تَجْعَلَ نَضْبَ عَيْنَيْكَ، هَذَا الشَّعَارَ الَّذِي خَاطَبَ
بِهِ الْإِمَامَ زَيْنَ الْعَابِدِينَ (عليه السلام) خَالِقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ:

«فَإِنِّي لَمْ أَصِبْ خَيْرًا قَطُّ إِلَّا مِنْكَ، وَلَمْ يَصْرِفْ عَنِّي سُوءَ أَقْطُ أَحَدٌ غَيْرُكَ، وَلَا
أَرْجُو لِأَمْرِ آخِرَتِي، وَدُنْيَايَ سِوَاكَ»^(١).

وَيَتَبَنَّى أَنْ نَكُونَ عَلَى عِلْمٍ بِأَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الثَّقَةِ بِاللَّهِ فِي شَيْءٍ أَنْ نَتَّكِلَ عَلَيْهِ بِلَا
عَمَلٍ، وَنَطْلُبَ الْحِطَّ مِنْهُ، وَنَحْنُ مِنَ الْبَطَالِينِ الْكُسَالِيِّ، وَإِلَّا فَلَمَّاذَا وَهَبْنَا هَذِهِ
الْأَعْضَاءَ وَالْحَوَاسِ، وَنَظَّمْ أَجْسَامَنَا بِأَدَقِ تَنْظِيمٍ، وَقَوْمَهَا بِأَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، وَأَوْدَعَ
فِينَا مِنَ الْمَلَكَاتِ وَالْفَرَازِ مَا نُسَخِّرُ بِهِ الْكَوْنَ بِمَا فِيهِ، حَتَّى الزُّهْرَةَ وَالْيَرِّيخَ... أَنْ
الثَّقَةَ بِاللَّهِ أَنْ نَعْمَلَ وَنُجَاهِدَ، ثُمَّ نَتْرِكَ الْبَاقِيَ لِلَّهِ، وَعَلَى اللَّهِ.

وَأَيْضًا لَيْسَ مِنَ الثَّقَةِ بِاللَّهِ أَنْ نَرْضَى عَنْ أَنْفُسِنَا بَلْ مِنَ الثَّقَةِ بِهِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ
سُبْحَانَهُ أَنْ نَعْتَرِفَ بِعُيُوبِنَا، وَنُقَرِّبَهَا، وَنَتُوبَ مِنْهَا، وَنَطْلُبَ الْغُفْرَانَ لَهَا، قَالَ الْإِمَامُ
زَيْنَ الْعَابِدِينَ (عليه السلام):

«إِلَهِي، لَمْ أَتَكَ ثَقَّةً مَنِّي بِعَمَلٍ صَالِحٍ قَدَّمْتُهُ، وَلَا شَفَاعَةَ مَخْلُوقٍ رَجَوْتُهُ إِلَّا

﴿كَانَ، وَقَامَ الرَّجُلُ مِنْ سَاعَتِهِ مُعَانِي كَأَنْ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ، وَهُوَ الْآنَ حَتَّى يُرْزَقَ، وَيَعْرِفَ ذَلِكَ جَمِيعُ أَهْلِ
حُبُوشِ الْبَالِغِ عَدَدَهُمْ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثَةِ آلَافِ نَسَمَةٍ، وَمِنْهُمْ صَدِيقَايَ الْعَلَامَتَانِ الشَّيْخَ عَبْدَ اللَّهِ نِعْمَةَ صَاحِبِ
فَلِاسَفَةِ الشَّيْخَةِ، وَأَخُوهُ الشَّيْخَ عَبْدِ الْحُسَيْنِ، وَهُمَا اللَّذَانِ أَخْبَرَانِي بِذَلِكَ، وَمَنْ شَاءَ أَنْ يَسْمَعَ وَيَرَى
فَلْيَتَّهَبْ إِلَى حُبُوشٍ، وَيَسْأَلْ عَنْ حَسَنِ نِعْمَةٍ. (مِنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ).

(١) انظر: الصَّحِيفَةُ السَّجَّادِيَّةُ الدُّعَاءُ الثَّامِنُ وَالْأَرْبَعُونَ (دُعَاؤُهُ فِي يَوْمِ الْأَضْحَى وَالْجُمُعَةِ). بِتَحْقِيقِنَا.

شَفَاعَةَ مُحَمَّدٍ وَأَهْلِ بَيْتِهِ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ سَلَامُكَ أَتَيْتُكَ مُقِرًّا بِالْجُرْمِ وَالْإِسَاءَةِ إِلَى نَفْسِي، أَتَيْتُكَ أَرْجُو عَظِيمَ عَفْوِكَ الَّذِي عَفَوْتَ بِهِ عَنِ الْخَاطِئِينَ، ثُمَّ لَمْ يَمْنَعْكَ طَوْلُ عُكُوفِهِمْ عَلَى عَظِيمِ الْجُرْمِ أَنْ عُدْتَ عَلَيْهِمْ بِالرَّحْمَةِ وَالْمَغْفِرَةِ»^(١).

عليه السلام والثقة بالله:

وَلَا أَعْرِفُ أَحَدًا أَقْوَى وَأَشْجَعَ وَأَجْرًا مِمَّنْ يَتَّقِ بِاللَّهِ يَتَّقِ الْمُؤْمِنِ الْعَارِفِ أَكْثَرَ مِنَ الْإِمَامِ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَإِنَّهُ يُنْطِقُ بِالصِّدْقِ، وَلَوْ عَلَى نَفْسِهِ، وَيَفْعَلُ الْحَقَّ، وَإِنْ أَغْضَبَ النَّاسَ أَجْمَعِينَ، وَيُخَارِبُ الْبَاطِلَ، وَلَا يَخْشَى لَوْمَةَ لَائِمٍ.

وَلَا أَعْرِفُ تَفْسِيرَ لِسْجَاعَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَبَطُولَتِهِ وَتَضَحُّيَّتِهِ مُوَافَقَةً إِلَّا بِهَذِهِ الثِّقَةِ الصَّادِقَةِ الْمُطْلَقَةِ، بَلْ أَنْ كَرَّمَهُ وَزُهِدَهُ، وَصَبْرَهُ وَتَوَاضَعَهُ، وَجَمِيعَ مَنَاقِبِهِ تَنْبَعُ مِنْهَا، وَتَصْدُرُ عَنْهَا، وَهَلْ مِنْ تَفْسِيرٍ لِقَوْلِهِ: «وَاللَّهِ لَوْ تَطَاهَرَتِ الْعَرَبُ عَلَى قِتَالِي لَمَا وَلَّيْتُ عَنْهَا، وَلَوْ أُمَكَّنَتِ الْفَرُصُ مِنْ رِقَابِهَا لَسَارَعْتُ إِلَيْهَا. وَسَاجِدٌ فِي أَنْ أُطَهَّرَ الْأَرْضَ مِنْ هَذَا الشَّخْصِ الْمَعْكُوسِ، وَالْجِسْمِ الْمَرْكُوسِ، حَتَّى تَخْرُجَ الْمَدْرَةُ مِنْ بَيْنِ حَبِّ الْحَصِيدِ»^(٢). هَلْ مِنْ تَفْسِيرٍ إِلَّا عَمَلُهُ وَيَقِينُهُ بِأَنَّ اللَّهَ مَعَهُ فِي كُلِّ حَالٍ، وَأَنَّ مَنْ تَسَلَّحَ بِسَلَاحِ اللَّهِ، وَقُوَّةِ اللَّهِ لَا يَخْشَى الْعَرَبَ وَالْعَجَمَ، وَلَا الْإِنْسَ وَالْجِنَّ مُجْتَمِعِينَ؟... أَنْ مَنْ أَيْقَنَ بِاللَّهِ حَقًّا لَا يُبَالِي أَقْبَلَتْ الدُّنْيَا أَوْ أَدْبَرَتْ، وَقَعَ عَلَى الْمَوْتِ، أَوْ وَقَعَ الْمَوْتُ عَلَيْهِ... وَقَدْ جَاءَ زُهِدُ عَلِيٍّ وَشَجَاعَتُهُ، تَمَامًا عَلَى قَدَرِ ثِقَتِهِ وَبَيَقْنِهِ بِخَالِفِهِ جَلَّ وَعَزَّ.

(١) أنظر: الصحيفة السجادية الدعاء الثامن والأربعون (دعاؤه في يوم الأضحى والجمعة). بتحقيقنا.

(٢) أنظر: نهج البلاغة: الرسالة (٤٥).

وَكُلَّنَا يَعْلَمُ أَنَّ مَنْ أَيْقَنَ بِعُطْفِ أَبِيهِ وَغِنَاهُ أَنْفَقَ عَنْ سِعَةِ ، وَأَنَّ مَنْ وَثِقَ بِقَوْمِهِ وَعَدَّتِهِ وَعَدَدَهُ جَابَهُ الْعُظْمَاءُ ، وَنَازَلَ الْأَقْوِيَاءُ .

أُنَبِّئُكُمْ عَلَى :

وَقَدْ وَرَثَ أَبْنَاءُ أَبِي الْحَسَنِ وَأَحْفَادُهُ الْمَعْصُومُونَ هَذَا الْإِيمَانَ ، وَهَذِهِ الثِّقَةَ الَّتِي تَتَحَدَّى الدَّهْرَ ، وَلَا تَعْبَأُ بِتَضَاهِرِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ ، وَرَثُوا هَذِهِ الثِّقَةَ عَنْهُ وَمِنْهُ ، وَتَجَاوَبَتْ أَرْوَاحُهُم الزُّكْيَةُ مَعَ رُوحِهِ الطَّاهِرِ ، وَالتَّقَتْ جَمِيعاً فِي ذُرَى خَالِقِهَا وَبَارِيهَا ... وَتَعَالَى مَعِيَ نَدْخُلُ هَذَا الْجَوْ النَّدِي الْعَاطِرَ ، وَنُسْتَقِي مِنْ هَذَا الْمَنْهَلِ النَّفْيِ الطَّاهِرِ ، مَنْهَلُ أَبِي مُحَمَّدٍ بَاقِر :

«إِلَهِي إِنْ رَفَعْتَنِي فَمَنْ ذَا الَّذِي يَضْعُونِي ؟ وَإِنْ وَضَعْتَنِي فَمَنْ ذَا الَّذِي يَرْفَعُونِي ؟ . وَإِنْ أَكْرَمْتَنِي فَمَنْ ذَا الَّذِي يُهِنُونِي ؟ . وَإِنْ أَهَنْتَنِي فَمَنْ ذَا الَّذِي يُكْرِمُونِي ؟ . وَإِنْ عَذَّبْتَنِي فَمَنْ ذَا الَّذِي يَرْحَمُونِي ؟ . وَإِنْ أَهْلَكْتَنِي فَمَنْ ذَا الَّذِي يَغْرِضُ لَكَ فِي عَبْدِكَ ، أَوْ يَسْأَلُكَ عَنْ أَمْرِهِ ؟ » ^(١) .

كُلَّنَا يَقُولُ : اللَّهُمَّ لَا تَمْلِكْ لَأَنْفُسِنَا نَفْعاً وَلَا ضَرّاً إِلَّا بِكَ ، وَلَكِنْ فِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ نَرْجُو وَنَخَافُ غَيْرَ اللَّهِ ، وَتَتَمَلَّقُ لِصَاحِبِ الْجَاهِ طَمَعاً فِي جَاهِهِ ، وَلَزَبَ الْمَالِ رَغْبَةً فِي مَالِهِ ، وَتُرَائِي وَتُظْهِرُ خِلَافَ مَا نَضْمُرُ طَلَباً لِمَدِيحِ النَّاسِ وَثَنَائِهِمْ وَنَحْطُ مِنْ كَرَامَةِ الْغَيْرِ ، وَنَنْصَبُ لَهُ الْمَكَائِدَ وَالْمَصَائِدَ ، وَنَنْشُرُ عُيُوبَهُ ، أَوْ نُكَبِّرُ الصَّغِيرَةَ مِنْهَا ، أَوْ نَفْتَرِ بِهَا إِفْتِرَاءً ، وَنَتَجَاهَلَ عَمَلَ الْمُخْلِصِينَ ، وَنَحْسُدُ النَّاجِحِينَ ، وَنُقَلِّلُ مِنْ قِيَمَتِهِمْ ، وَنُسْتَخَفُّ بِأَعْمَالِهِمْ تَبَريراً لِمَا فِيْنَا مِنْ نَقْصٍ ، أَوْ تَشْفِئاً مِنْ غَيْضٍ ، وَتَلْبِيَةِ

(١) أنظر ، الصَّحِيفَةَ السَّجَّادِيَّةَ الدُّعَاءَ الثَّامِينَ وَالْأَرْبَعُونَ (دُعَاؤُهُ فِي يَوْمِ الْأُحْضَى وَالْجُمُعَةِ) . بِتَحْقِيقِنَا .

لهوى... إذن، أين الثقة بالله، والتوكل عليه، والتسليم له؟ أين العلم بأنه وحده تبارك وتعالى الخافض الرافع، والصار النافع؟

أن العلم بقدرة الخالق يستتبع حتماً العلم بعجز المخلوق، وهذا العلم بدوره يلزم الثقة بالله، والإعراض عما سواه، ولا ينفك عنها بحال، وعلى ذلك فمن أهتم برضا المخلوق، وتهاون برضا الخالق فقد أساء الظن بالله، وأعتبر قدرته جلاً وعلاً دون قدرة عبيده ومخلوقاته، تبارك الله تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

الثقة بالله لا تتجزأ:

والثقة بالله سبحانه لا تتجزأ، فمن وثق به في شيء وثق به في كل شيء، ومن هنا كانت هذه الثقة أم الفضائل بكاملها، وإليها ترجع كل فضيلة ومنقبة فمن كان واثقاً به وجلّ وعزّ صبر وشابر، وضحي وآثر، وصدق وأخلص، وصفيح وتسامح، وأحسن الظن بالقریب والبعيد، وزهد في الدنيا وما فيها.

أما سوء الظن به تبارك وتعالى فاصل الرذائل ومعدنها، فمن لم يثق بخالقه ورآزه شحّ وجبن، ويأس وقنط، وضجر وتملّل، ونافق ودجل، وطمع وتذلل، وخان وتآمر، وسرق وتجسس، ورأى وتملق وحسد وحقد، وأساء الظن بالأنبياء والصلحاء، إلى غير ذلك من القبايح والرذائل.

وبعد، فما إنحنى مخلوق لمثله إلا من أعرض عن خالقه، وما تملق أحد لذي جاه أو مال إلا أساء الظن برآزه... وإذا أنشرح صدرك لفضل الله وكرمه فردّد مع إمامك الأعظم زين العابدين عليه السلام هذا الدعاء، وأعمل بما يوحى به إليك:

«اللَّهُمَّ يَا مُنْتَهَى مَطْلَبِ الْحَاجَاتِ، وَيَا مَنْ عِنْدَهُ نَيْلُ الطَّلِبَاتِ، وَيَا مَنْ لَا يَبِيعُ

نِعْمَةً بِالْأَثْمَانِ، وَيَا مَنْ لَا يُكَدِّرُ عَطَايَاهُ بِالْإِمْتِنَانِ، وَيَا مَنْ يُسْتَعْنَى بِهِ وَلَا يُسْتَعْنَى عَنْهُ، وَيَا مَنْ يُزْعَبُ إِلَيْهِ وَلَا يُزْعَبُ عَنْهُ، وَيَا مَنْ لَا تُغْنِي خَزَائِنُهُ الْمَسَائِلُ، وَيَا مَنْ لَا تُبْدِلُ حِكْمَتُهُ الْوَسَائِلُ، وَيَا مَنْ لَا تَنْقُطِعُ عَنْهُ حَوَائِجُ الْمُحْتَاجِينَ، وَيَا مَنْ لَا يُغْنِيهِ دُعَاءُ الدَّاعِينَ تَمَدُّحَاتُ بِالْفَنَاءِ عَنْ خَلْقِكَ وَأَنْتَ أَهْلُ الْغِنَى عَنْهُمْ، وَنَسَبَتُهُمْ إِلَى الْفَقْرِ وَهُمْ أَهْلُ الْفَقْرِ إِلَيْكَ فَمَنْ حَاوَلَ سَدَّ خَلَّتِيهِ مِنْ عِنْدِكَ، وَزَامَ صَرْفَ الْفَقْرِ عَنْ نَفْسِهِ بِكَ فَقَدْ طَلَبَ حَاجَتَهُ فِي مَظَانِّهَا، وَأَتَى طَلِبَتَهُ مِنْ وَجْهِهَا، وَمَنْ تَوَجَّهَ بِحَاجَتِهِ إِلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ أَوْ جَعَلَهُ سَبَبَ نُجْحِهَا دُونَكَ فَقَدْ تَعَرَّضَ لِلْجُرْمَانِ، وَأَسْتَحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ قُوْتَ الْإِحْسَانِ»^(١).

أَجَلْ، أَنَّ اللَّهَ لَا يَبِيعُ فَضْلَهُ، وَجُودَهُ، وَكَرَمَهُ بِالْأَثْمَانِ، وَالْأَمْوَالِ، لِأَنَّهُ كَرِيمٌ، وَالْكَرِيمُ يُعْطِي، وَلَا يَأْخُذُ، وَلِأَنَّهُ لَيْسَ بِتَاجِرٍ، فَالتَّاجِرُ يَطْلُبُ الْغِنَى وَالرَّيْحَ، وَاللَّهُ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ دَعَاكَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِلتَّجَارَةِ مَعَهُ، وَضَمَّنَ لَكَ الْفَوْزَ وَالْأَرْبَاحَ، وَزَادَ هُوَ بِنَفْسِهِ عَلَى نَفْسِهِ أَضْعَافًا وَأَضْعَافًا دُونَ أَنْ يُزَاحِمُهُ نِدًا، أَوْ يَزِيدَ عَلَيْهِ ضِدًّا... وَمَعْنَى التَّجَارَةِ مَعَ اللَّهِ أَنْ تَأْخُذَ بِنَيْدِ الضَّعِيفِ، وَتُنَاصِرَ الْمُحِقَّ، وَتُجَابِهَ الْمُبْطِلَ، وَتُحَوِّلَ بُكَاءَ الْيُوسَاءِ إِلَى الْفَرَحِ وَالسُّرُورِ، وَذَلَّ الضُّعْفَاءَ إِلَى الْعِزَّةِ وَالْكَرَامَةِ، وَجَهَلَ الْجُهْلَاءَ إِلَى الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ وَأَدَوَاءِ الْمَرْضَى إِلَى الصَّحَّةِ وَالْعَافِيَةِ، هَذِي هِيَ التَّجَارَةُ مَعَ اللَّهِ، وَالْعَمَلُ لِهَذَا الَّذِي يَتَقَبَّلُهُ، وَيَحْمَدُهُ وَيَشْكُرُهُ، وَيُسَبِّحُ عَلَيْهِ أَضْعَافًا كَثِيرَةً، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ الْإِمَامِ زَيْنِ الْعَابِدِينَ عليه السلام: «إِلَهِي... وَأَنْتَ الَّذِي زِدْتَ فِي السَّوْمِ عَلَى نَفْسِكَ لِعِبَادِكَ، تُرِيدُ رَبِّحَهُمْ فِي مُتَاجَرَتِهِمْ لَكَ، وَفَوْزَهُمْ بِالْوِفَادَةِ عَلَيْكَ، وَالزِّيَادَةِ مِنْكَ؛ فَقُلْتَ تَبَارَكَ اسْمُكَ، وَتَعَالَيْتَ: «مَنْ جَاءَ

(١) أَنْظُرِ، الصَّحِيفَةُ السَّجَّادِيَّةُ الدُّعَاءُ الثَّالِثُ عَشَرَ (دُعَاؤُهُ فِي طَلَبِ الْحَوَائِجِ).

بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ»^(١)، وَقُلْتُ: «مِثْلُ الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمِثْلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَابِلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ»^(٢)، وَقُلْتُ: «مَنْ ذَا الَّذِي يَقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصِطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ»^(٣)؛ وَمَا أَنْزَلْتُ مِنْ نَظَائِرِهِمْ فِي الْقُرْآنِ مِنْ تَضَاعِيفِ الْحَسَنَاتِ. وَقِفْ فَلْيَلَّا عِنْدَ قَوْلِهِ: «أَنْتَ الَّذِي زِدْتَ فِي السُّومِ عَلَى نَفْسِكَ لِعِبَادِكَ، تُرِيدُ رَبِّحَهُمْ فِي مُتَاجَرَتِهِمْ لَكَ، وَفَوْرَهُمْ بِالْوَفَادَةِ عَلَيْكَ، وَالزِّيَادَةِ مِنْكَ»^(٤).

أَنَّ الْمَعْرُوفَ عِنْدَ النَّاسِ - بَعْدَ أَنْ يَتِمَّ السُّومُ بَيْنَ الْبَائِعِ وَالْمُشْتَرِي - أَنْ يَأْخُذَ الْمُشْتَرِي بِمَقْدَارِ مَا يَدْفَعُ مِنَ الثَّمَنِ، وَأَنْ يَخْصِدَ الزَّارِعَ حَسَبًا يَزْرَعُ... أَمَّا عِنْدَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فَالْأَمْرُ عَلَى الْعَكْسِ، فَإِنْ مَنْ يَعْمَلُ لَوَجْهِهِ حَسَنَةً وَاحِدَةً أَعْطَاهُ بَدَلًا عَنْهَا أَضْعَافًا كَثِيرَةً، وَمَنْ زَرَعَ فِي حَقْلِهِ حَبَّةً وَاحِدَةً عَادَتْ عَلَيْهِ بِسَبْعِمِئَةٍ أَوْ أَكْثَرَ... ذَلِكَ أَنَّ الْمُشْتَرِي لَوْ دَفَعَ أَكْثَرَ مِمَّا يَأْخُذُ لَكَانَ مَغْبُوبًا، وَالْعُيْبُ ضَرَرٌ، وَهُوَ مُحَالٌ فِي حَقِّهِ تَعَالَى، وَإِذَا زَرَعَ الْإِنْسَانُ فِي حَقْلِهِ فِقَايَةً أَمَلَهُ أَنْ يَعُودَ بِعَشْرَةِ أَضْعَافٍ، لِأَنَّ خِصْبَ الْأَرْضِ مُحَدُودٌ، أَمَّا الْخِصْبُ فِي حَقْلِ اللَّهِ فَلَا يُحَدُّ بِحَدٍّ، وَسَلَامَ اللَّهِ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام، وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ الَّذِي قَالَ: «لَا مَالٌ أَعُودُ مِنَ الْعَقْلِ، وَلَا وَحْدَةٌ أَوْحَشُ مِنَ الْعُجْبِ، وَلَا عَقْلٌ كَالْتَنْدِيرِ، وَلَا كَرَمٌ كَالْتَقْوَى، وَلَا

(١) الْأَنْتَام: ١٦٠.

(٢) الْبَقَرَةُ: ٢٦١.

(٣) الْبَقَرَةُ: ٢٤٥.

(٤) أَنْظِرْ، الصَّحِيفَةُ السَّجَّادِيَّةُ الدُّعَاءُ الْخَامِسُ وَالْأَرْبَعُونَ (دُعَاؤُهُ لَوُدَاعِ شَهْرِ رَمَضَانَ). بِنَحْوِهَا.

قَرِينَ كَحُسْنِ الْخُلُقِ، وَلَا مِيرَاثَ كَالْأَدَبِ، وَلَا قَائِدَ كَالْتَوْفِيقِ، وَلَا تِجَارَةَ كَالْعَمَلِ
الصَّالِحِ، وَلَا رِبْحَ كَالثَّوَابِ، وَلَا وَرَعَ كَالْوُقُوفِ عِنْدَ الشُّبْهَةِ، وَلَا زُهْدَ كَالزُّهْدِ فِي
الْحَرَامِ، وَلَا عِلْمَ كَالْتَفَكُّرِ، وَلَا عِبَادَةَ كَأَدَاءِ الْفَرَائِضِ، وَلَا إِيمَانَ كَالْحَيَاءِ وَالصَّبْرِ،
وَلَا حَسَبَ كَالْتَوَاضُعِ، وَلَا شَرَفَ كَالْعِلْمِ، وَلَا عِزًّا كَالْحِلْمِ، وَلَا مَظَاهِرَةً أَوْثَقُ مِنَ
الْمُشَاوَرَةِ»^(١).

(١) أنظر، نهج البلاغة: الحكمة (١١٢).

نَارِ جَهَنَّمَ

مَا هِيَ حَقِيقَةُ الْعَذَابِ الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ جَلَّ وَعَزَّ: ﴿وَفِي الْأَخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾^(١).

وإِلَى أَيِّ حَدِّ بَلَغَ مِنَ الشَّدَةِ وَالْقَسْوَةِ؟ وَهَلْ هُوَ أَشَدَّ وَطْأً مِنْ آلَامِ هَذِهِ الْحَيَاةِ، وَالْمَوْعِظَاتِ مِنَ غَمَزَاتِ الْمَوْتِ وَسَكَرَاتِهِ؟

أَجَل، أَنْ أَقْلَ الْقَلِيلِ مِنْهُ أَشَدُّ وَأَقْسَى مِنْ آلَامِ الدُّنْيَا مُجْتَمَعَةً، وَمَعَهَا أَضْعَافُ أَمْثَالِهَا، وَقَدْ خَافَ، وَاسْتَعَاذَ مِنْهَا الْمَعْصُومُونَ عَنِ الْخَطَا وَالْخَطِيئَةِ، فَكَيْفَ بَنَّا نَحْنُ؟ خَافُوا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ لِأَنَّهُمْ أَعْلَمَ النَّاسَ بِهِ، وَأَعْلَنُوا هَذَا الْخَوْفَ وَوَصَفُوا هَوْلَهُ، ثُمَّ بَيَّنُّوا سَبِيلَ النِّجَاةِ مِنْهُ، كَيْ لَا نَخْشَعَ وَنَعْتَدِرَ، قَالَ الْإِمَامُ زَيْنُ الْعَابِدِينَ عليه السلام:

«مَوْلَايَ وَآزَحَمْنِي إِذَا انْقَطَعَ مِنَ الدُّنْيَا أَثَرِي، وَأَمَحَى مِنَ الْمَخْلُوقِينَ ذِكْرِي، وَكُنْتُ مِنَ الْمُنْسِيَّينَ كَمَنْ قَدْ نَسِيَ مَوْلَايَ وَآزَحَمْنِي عِنْدَ تَغْيِيرِ صُورَتِي وَحَالِي إِذَا بَلَى جِسْمِي، وَتَفَرَّقَتْ أَعْضَائِي، وَتَقَطَّعَتْ أَوْصَالِي، يَا غَفْلَتِي عَمَّا يَرَادُ بِي»^(٢).

(١) الْخُرَيْد: ٢٠.

(٢) أَنْظِرْ، الصَّحِيفَةُ السَّجَّادِيَّةُ الدُّعَاءُ الثَّالِثُ وَالْخَمْسُونَ (دُعَاؤُهُ فِي التَّذَلُّلِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ). بِتَحْقِيقِنَا.

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ نَارٍ تَغْلُظُ بِهَا عَلَى مَنْ عَصَاكَ، وَتَوْعَدَتْ بِهَا مَنْ صَدَفَ عَنْ رِضَاكَ، وَمِنْ نَارٍ نُورُهَا ظُلْمَةٌ، وَهَيْئُهَا أَلِيمٌ، وَبَعِيدُهَا قَرِيبٌ، وَمِنْ نَارٍ يَأْكُلُ بَعْضُهَا بَعْضٌ، وَيَصُولُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ وَمِنْ نَارٍ تَذُرُ الْعِظَامَ رَمِيمًا، وَتَسْقِي أَهْلَهَا حَمِيمًا، وَمِنْ نَارٍ لَا تُبْقِي عَلَى مَنْ تَضَرَّعَ إِلَيْهَا، وَلَا تَرْحَمُ مَنْ أَسْتَغْفَفَهَا، وَلَا تَقْدِرُ عَلَى التَّخْفِيفِ عَمَّنْ خَشَعَ لَهَا وَاسْتَسَلَّمَ إِلَيْهَا تَلْقَى سُكَّانَهَا بِأَحْرَ مَا لَدَيْهَا مِنْ أَلِيمِ النَّكَالِ وَشَدِيدِ الْوَبَالِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عِقَابِهَا الْفَاعِرَةِ أَفْوَاهُهَا، وَحَيَاتِهَا الصَّالِقَةِ بِأَنْبِيَائِهَا، وَشَرَابِهَا الَّذِي يَقْطَعُ أَمْعَاءَ وَأَفْسِدَةَ سُكَّانِهَا، وَيَنْزِعُ قُلُوبَهُمْ، وَأَسْتَهْدِيكَ لِمَا بَاعَدَ مِنْهَا، وَأَخَّرَ عَنْهَا»^(١).

نَارِ الدُّنْيَا تَرْسِلُ النَّوْرَ، وَتُبَدِّدُ الظُّلَامَ، وَيَهْتَدِي بِهَا النَّاسُ إِلَى الصَّالِ، وَنَارِ جَهَنَّمَ تُحِيلُ النَّهَارَ الْمُضِيَّ إِلَى لَيْلٍ بَهِيمٍ، نَارِ الدُّنْيَا تَخْمَدُ بِالْمَاءِ وَالتُّرَابِ، وَنَارِ جَهَنَّمَ وَقُودُهَا الْأَخْجَارُ وَالْجِبَالُ، وَالشَّرَابُ وَالرَّمَالُ، وَالنِّسَاءُ وَالرِّجَالُ، وَإِذَا صَبَتْ مِيَاهُ الْبَحَارِ وَالْأَنْهَارِ عَلَى جَمْرَةٍ مِنْهَا اسْتَحَالَتْ إِلَى دُخَانٍ وَلَهَبٍ، «نَارٍ شَدِيدٍ كَلْبُهَا، عَالٍ لَجْبُهَا، سَاطِعٍ لَهَبُهَا، مُتَغَيِّظٍ زَفِيرُهَا، مُتَأَجِّجٍ سَعِيرُهَا، بَعِيدٍ خُمُودُهَا، ذَاكِ وَقُودُهَا، مَخُوفٍ وَعِيدُهَا، عَمٍ قَرَارُهَا، مُظْلِمَةٍ أَقْطَارُهَا، حَامِيَةٍ قُدُورُهَا، فَطِيعَةٍ أُمُورُهَا»^(٢) كَمَا قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) :

وَأَيْسَرُ مَكَانٍ فِي جَهَنَّمَ يَزْدَحُمُ بِالْأَفَاعِي وَالْعَقَارِبِ، لَوْ نَفَثَتْ قَطْرَةٌ سَمٍّ فِيهَا عَلَى الْأَرْضِ لَسَاخَتْ بِأَهْلِهَا، وَأَهْوَنُ شَرَابِهَا يَقْطَعُ الْأَمْعَاءَ وَالْأَغْضَاءَ وَيَنْزِعُ الْقُلُوبَ وَالْأَفْسِدَةَ، يَسْقِيهِ إِلَى عَطَاشَى جَهَنَّمَ زَبَانِيَّةٌ غِلَظُ شَدَادٍ، مَعَ مَقَارِعٍ مِنْ

(١) أنظر، الصَّحِيفَةُ السَّجَّادِيَّةُ الدُّعَاءُ الثَّانِي وَالثَّلَاثُونَ (دُعَاؤُهُ فِي صَلَاةِ اللَّيْلِ). بِتَحْقِيقَتِنَا.

(٢) أنظر، نَهْجُ الْبَلَاغَةِ: الْخُطْبَةُ (١٩٠).

حَدِيدَ بِأَكْوَابٍ مِنْ وَبَاءٍ وَبَلَاءٍ، لَوْ وَقَعَتْ قَطْرَةٌ مِنْهُ فِي مِيَاهِ الدُّنْيَا أَسْتَحَالَتْ إِلَى حَنْظَلٍ وَعَلَقَمٍ.

وَأَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ كُلُّهُ أَنْ لَا يَجِدَ الْمُبْتَلَى مُنْغِذًا لِلخُرُوجِ، وَلَا مَسْلَكًا لِلهَرُوبِ، وَلَا صَدِيقًا يَشْكُو إِلَيْهِ، وَلَا وَالِدًا يُصْغِي لَهُ، وَلَا وَالِدَةً تَحْنُو عَلَيْهِ، وَلَا جَاهٌ يُجَدِّدُهُ، وَلَا مَالٌ يَنْفَعُهُ، وَلَا نَسَبٌ يَشْفَعُ بِهِ، وَلَا تَوْبَةٌ تُلْطَفُ وَتُخَفَّفُ، وَلَا شَيْءٌ أَبَدًا إِلَّا الْحَسْرَةُ وَالنَّدَامَةُ عَلَى مَا فَرَّطَ فِي جَنْبِ اللَّهِ، وَمَا فَعَلَ مِنْ مَعْصِيَتِهِ، وَتَرَكَ مِنْ طَاعَتِهِ، لَا شَيْءَ إِلَّا النَّارَ الَّتِي لَا تُبْقِي عَلَى مُتَضَرِّعٍ، وَلَا تَرْحَمُ لِمُسْتَعِظٍ، وَلَا تُخَفِّفُ عَنْ خَاشِعٍ وَمُسْتَسْلِمٍ.

أَجَلَ لَا شَيْءٍ أَشَدَّ وَأَعْظَمَ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ، وَلَكِنْ الْخَلَاصُ مِنْهَا سَهْلٌ يَسِيرٌ وَقَدْ حَدَّدَ الْإِمَامُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام طَرِيقَةَ بَهْذِهِ الْبَسَاطَةِ، وَهَذِهِ الْحِكْمَةُ: «الْإِيمَانُ عَلَى أَرْبَعٍ دَعَائِمٌ: عَلَى الصَّبْرِ، وَالْيَقِينِ، وَالْعَدْلِ، وَالْجِهَادِ. وَالصَّبْرُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعٍ شُعَبٍ: عَلَى الشَّوْقِ، وَالشَّقَقِ، وَالزُّهْدِ، وَالتَّرَقُّبِ: فَمَنْ أَشْتَقَّ إِلَى الْجَنَّةِ سَلَا عَنْ الشَّهَوَاتِ؛ وَمَنْ أَشْفَقَ مِنَ النَّارِ اجْتَنَبَ الْمَحْرَمَاتِ؛ وَمَنْ زَهَدَ فِي الدُّنْيَا اسْتَهَانَ بِالْمُصِيبَاتِ؛ وَمَنْ أَرْتَقَبَ الْمَوْتَ سَارَعَ إِلَى الْخَيْرَاتِ» ^(١). إِذَنْ، فَلْتَكُنْ نَارَ جَهَنَّمَ مِنَ الشَّدَةِ مَا تَكُونُ، وَأَضْعَافُ أَضْعَافِ مَا هِيَ عَلَيْهِ، فَأَنْتَ فَلْتَكُنْ نَارَ جَهَنَّمَ مِنَ الشَّدَةِ مَا تَكُونُ، وَأَضْعَافُ أَضْعَافِ مَا هِيَ عَلَيْهِ، فَأَنْتَ عَنْهَا فِي مَنَآئِ، وَعَنْهَا فِي أَمْنٍ وَأَمَانٍ، مَا دُمْتَ فِي مَنَآئِ عَنِ الْحَرَامِ، وَمَاذَا يَهْمُكَ مِنْ قَوَانِينِ اللُّصُوصِيَّةِ، وَتَشَدُّدِهَا فِي الْعُقُوبَةِ إِذَا لَمْ تَكُنْ لُصًّا؟ وَهَلْ يَسُوءُكَ حِسَابُ الْمُجْرِمِينَ وَعِقَابُهُمْ إِذَا كُنْتَ بَرِيئًا؟ بَلِ الْعَكْسُ هُوَ الصَّحِيحُ...

(١) انظر: نهج البلاغة: الحِكْمَةُ (٣١).

ثُمَّ هَلْ مِنْ شَيْءٍ أَيْسَرُ مِنْ أَنْ لَا تَظْلَمَ وَلَا تُكَذِّبَ، وَلَا تَحْفَدَ وَتُرَاوَعَ؟. وَآيَ شَيْءٍ أَخَفَ مِنْ تَجَنُّبِ الشَّرِّ وَالْأَذَى؟ وَإِذَا لَمْ تَعْمَلِ الْخَيْرَ لِلنَّاسِ وَأَسْعَادَهُمْ فَلَا تَضَعُ الْأَشْوَكَ وَتَحْفَرِ الْحُفْرَ فِي طَرِيقِهِمْ، وَلَا تَرشَقُهُم بِالطُّوبِ وَالْحِجَارَةِ... أَنْ اللَّهَ رُؤُوفٌ رَحِيمٌ بِعِبَادِهِ، وَلَا يَظْلِمُ أَحَدًا، وَلَكِنْ نَحْنُ نَظْلِمُ أَنْفُسَنَا، وَنُلْقِي بِهَا فِي الْهَلَكَاتِ.

تَذَكَّرْتُ الْآنَ أَنِّي قَرَأْتُ فِيمَا قَرَأْتُ أَنَّ وَعَظًا لِمَا أَطَالَ وَأَفَاضَ فِي وَصْفِ جَهَنَّمَ وَهَوْلِهَا قَالَ لَهُ أَحَدُ الْمُسْتَمْعِينَ: لَقَدْ عَرَفْنَا جَهَنَّمَ وَأَفَاتَهَا، فَمَتَعْنَا بِذِكْرِ الْجَنَّةِ وَنَعِيمِهَا. وَعَلَى ذَلِكَ فَإِنَّ الْجَنَّةَ لَا هُمُومَ فِيهَا وَأَسْقَامَ، وَلَا أُنْدَادَ وَأَخْصَامَ وَلَا تَفْكِيرَ فِي مُسْتَقْبَلٍ أَوْ مَصِيرٍ، لَا شَيْءَ سِوَى السَّرُورِ وَالْأَفْرَاحِ، وَالصَّحَّةِ وَالْأَمَانِ، اللَّذَّةِ وَالنَّعِيمِ، «إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُخْلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ»^(١) وقال تعالى: «مِثْلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ، وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ»^(٢)، وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ... وَالطَّرِيقُ إِلَى الْجَنَّةِ هُوَ طَرِيقُ النَّجَاةِ مِنَ النَّارِ بِالذَّاتِ، قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: «فَمَنْ أَشْتَأَقَ إِلَى الْجَنَّةِ سَلَا عَنِ الشَّهَوَاتِ»^(٣). أَيْ تَرَكَ الْمُحَرَّمَاتِ.

(١) الْحَجَّ: ٢٣.

(٢) مُحَمَّدٌ: ١٥. جَاءَ فِي وَصْفِ الْغُورِ أَنَّ الْوَاحِدَةَ مِنْهُنَّ لَوْ أَطْلَتْ عَلَى الْأَرْضِ لَأَضَاتُهَا جَمِيعًا، وَلَقَهَرُ نُورُهَا نُورَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ مَعًا. وَفِي فَضْلِ سَابِقٍ ذَكَرْنَا وَصْفَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ مُلْخَصًا مِنْ كِتَابِ «الْإِنْسَانِ رُوحَ لَا جَسَدَ». (مِنْهُ ٥٠).

(٣) أَنْظَرِ، نَهَجَ الْبَلَاغَةَ: الْحِكْمَةَ (٣١).

وَبَعْدَ، فَتَحْنُ نَخَافُ اللَّهَ وَعَذَابَهُ، وَنَسْتَجِيرُ بِهِ مِنْهُ وَلَكِنْ نَرْجُو عَفْوَهِ وَكَرَمَهُ،
وَلَيْسَ مِنْ شَكٍّ أَنْ كَفَّةَ الرَّجَاءِ هِيَ الْأَرْجَحُ لِأَنَّهَا عَلَى كَرَمِ الْمَرْجُو أَدَلُّ، وَأَنَّ
لِلرَّاجِينَ شَأْنًا عِنْدَ اللَّهِ كَشَأَنِ التَّائِبِينَ، بِخَاصَّةٍ إِذَا رَدُّوهُ مُخْلِصِينَ مَعَ إِسْمَاهِمِ
الْأَعْظَمِ زَيْنِ الْعَابِدِينَ عليه السلام :

« اَللّٰهُمَّ لَا تُعْرِضْ عَنِّيْ اِعْرَاضَ مَنْ لَا تَرْضٰى عَنْهُ بَعْدَ غَضَبِكَ وَلَا تُؤَيِّسْنِيْ مِنَ
الْاَمَلِ فِيْكَ فَيَغْلِبَ عَلَيَّ الْقَنُوطُ مِنْ رَحْمَتِكَ وَلَا تَمْنَحْنِيْ بِمَا لَا طَاقَةَ لِيْ بِهِ فَتَنْهَظْنِيْ
مِمَّا تُحْمَلُنِيْهِ مِنْ فَضْلِ مَحَبَّتِكَ وَلَا تُزِيلْنِيْ مِنْ يَدِكَ اِزْسَالًا مِنْ لَا خَيْرَ فِيْهِ، وَلَا
حَاجَةَ بِكَ اِلَيْهِ، وَلَا اِنَابَةَ لَهُ وَلَا تُزِمْ بِيْ رَمِيٍّ مِنْ سَقَطَ مِنْ عَيْنِ رِعَايَتِكَ، وَمَنْ
اَشْتَمَلَ عَلَيْهِ الْخِزْيُ مِنْ عِنْدِكَ، بَلْ خُذْ بِيَدِيْ مِنْ سَقَطَةِ الْمُرَدِّينَ، وَوَهْلَةِ
الْمُنْعَسِفِينَ، وَرَازِلَةِ الْمَغْرُورِينَ، وَوَزْطَةِ الْهَالِكِينَ وَعَافِنِيْ مِمَّا اَبْتَلَيْتَ بِهِ طَبَقَاتِ
عِبْدِكَ وَاِمَانِكَ، وَبَلِّغْنِيْ مَبَالِغَ مَنْ عُنِيَتْ بِهِ، وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ، وَرَضِيتَ عَنْهُ،
فَأَعَشْتَهُ حَيِّدًا، وَتَوَفَّيْتَهُ سَعِيدًا » ^(١).

آمِينَ. آمِينَ. رَبِّ الْعَالَمِينَ. بِمُحَمَّدٍ وَآلِهِ الْأَكْرَمِينَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ
أَجْمَعِينَ.

وَلَسْتُ أَجِدُ شَيْئًا أَبْلَغُ فِي الْمَوْعِظَةِ أَخْتَمُ بِهِ هَذَا الْفَضْلَ الرَّهِيْبَ الْمَهِيْبَ مِنْ
قَوْلِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ لَوْلَدِهِ الْحَسَنِ عليه السلام، وَهُوَ يُوصِيهِ :
« وَإِذَا وَجَدْتَ مِنْ أَهْلِ الْفَاقَةِ مَنْ يَحْمِلُ لَكَ زَادَكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَيُؤَا فَيْكَ بِهِ
غَدًا حَيْثُ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ فَأَغْنِنَهُ وَحَمِّلْهُ إِثْمَهُ، وَأَكْثِرْ مِنْ تَرْوِيدِهِ وَأَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْهِ،
فَلَعَلَّكَ تَطْلُبُهُ فَلَا تَجِدُهُ. وَأَغْنِنِمْ مِنْ اسْتَقْرَضَكَ فِي حَالِ غِنَاكَ، لِيَجْعَلَ قَضَاءَهُ لَكَ

(١) أنظر، الصَّحِيفَةَ السَّجَّادِيَّةَ الدُّعَاءَ السَّابِعَ وَالْأَرْبَعُونَ (دُعَاؤُهُ فِي يَوْمِ عَرَفَةَ). بِنَحْوِ قَوْلِنَا.

فِي يَوْمٍ عُسْرَتِكَ» ^(١).

وَأَكْتَفَى بِالتَّعْلِيقِ عَلَى هَذِهِ الْجُمْلَةِ الْبَالِغَةِ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : «خَتَمُهُ مِنْكَ
وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ» ^(٢).

(١) أنظر . نَهْجُ الْبَلَاغَةِ : الرِّسَالَةُ (٣١).

(٢) الْمُطَفِّينَ : ٢٦.

الحُبِّ فِي اللَّهِ

مَحَبَّةُ اللَّهِ:

لَيْسَ مَعْنَى حُبِّكَ اللَّهُ أَنْ تَجْتَزَّ كَلِمَاتِ الْحُبِّ، وَتُرَدِّدَهَا بَيْنَ شَفَتَيْكَ، بَلْ أَنْ تُحِبَّ اللَّهُ فِي عِبَادِهِ، فِي تَخْفِيفِ آلَامِهِمْ، وَتَضْمِيدِ جَرَاحِهِمْ، وَأَنْ تَطْلُبَ الْهَدَايَةَ وَالرَّشَادَ لِلْأَشْرَارِ وَالْمُذْنِبِينَ، وَأَنْ لَا تُعْصِيَ اللَّهَ فِي قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ، وَأَنْ تَقُوضَ الْأُمُورُ إِلَيْهِ، فَلَا تَرْضَى إِنْ أُعْطِيَ، وَتَحْتَاجُ إِنْ مَنَعَ، بَلْ تَذْكُرُهُ وَتَشْكُرُهُ فِي الْحَالَيْنِ عَلَى السَّوَاءِ، وَلَا تَهْتَمُّ إِلَّا بِطَاعَتِهِ، وَتَأْدِيَةِ مَا عَلَيْكَ مِنْ وَاجِبٍ.

قَالَ الْإِمَامُ زَيْنُ الْعَابِدِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ):

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَطَيِّبْ بِقَضَائِكَ نَفْسِي، وَوَسِّعْ بِمَوَاقِعِ حُكْمِكَ صَدْرِي، وَهَبْ لِي الثَّقَةَ لِأَقْرَ مَعَهَا بَأَنَّ قَضَاءَكَ لَمْ يَجْرِ إِلَّا بِالْخَيْرَةِ، وَأَجْعَلْ شُكْرِي لَكَ عَلَى مَا زَوَيْتَ عَنِّي أَوْفَرَ مِنْ شُكْرِي إِيَّاكَ عَلَى مَا حَوَّلْتَنِي»^(١).

أَنَّ الْمُحِبَّ حَقًّا لَا يُحِبُّ فِي حَالِ دُونَ حَالٍ، بَلْ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ، وَيُنْزِعُهُ نَفْسُهُ عَنِ الْأَطْمَاعِ وَالْأَغْرَاضِ، أَمَا مَنْ يَشْكُرُ إِنْ أُعْطِيَ، وَيَتُورُّ إِنْ مَنَعَ فَهُوَ مُحِبٌّ لِنَفْسِهِ وَأَنَانِيَّتِهِ، وَمِنْ أَجْلِهَا يَرْضَى وَيَغْضَبُ، وَمِنْ هُنَا قَالَتْ رَابِعَةُ الْعَدَوِيَّةُ:

(١) انظر: الصَّحِيفَةُ السَّجَّادِيَّةُ: الدُّعَاءُ الْخَامِسُ وَالثَّلَاثُونَ (دُعَاؤُهُ فِي الرِّضَا بِالْقَضَاءِ) بِتَحْقِيقِنَا.

«إِلَهِي إِذَا كُنْتُ أَعْبُدُكَ رَهْبَةً مِنَ النَّارِ فَأَخْرِقْنِي بِنَارِ جَهَنَّمَ، وَإِذَا كُنْتُ أَعْبُدُكَ رَغْبَةً فِي الْجَنَّةِ فَأَخْرِمْنِي مِنْهَا» ^(١).

بَلْ قَالَ الْحَلَّاجُ فِي بَعْضِ شَطَحَاتِهِ مَا مَعْنَاهُ: «إِنِّي أَسْتَمْتَعُ بِعَذَابِ اللَّهِ، لِأَنَّهُ يُنْسَبُ إِلَيْهِ، تَمَامًا كَمَا يَسْتَمْتَعُ الْعَاشِقُ بِعَذَابِ الْمَعْشُوقِ» ^(٢).

الْحُبُّ فِي اللَّهِ:

الْحُبُّ فِي اللَّهِ عِلَاقَةٌ نَشَأَتْ بَيْنَ أَثْنَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ فِي كَنْفِ الطَّاعَةِ وَالْإِخْلَاصِ لِلَّهِ، وَكُلُّ صِلَةٍ دُونِهَا هِيَ صِلَةٌ شَخْصِيَّةٌ، أَمَّا صِلَةُ الْحُبِّ فِيهِ تَعَالَى فَإِنَّهَا مَبْدَأِيَّةٌ لَا شَائِبَةَ فِيهَا لِلذَّاتِ وَالْأَنَانِيَّةِ. أَنَّهَا أَنْجَذَابُ إِيْمَانٍ إِلَى إِيْمَانٍ، وَإِخْلَاصٌ إِلَى إِخْلَاصٍ، لَا أَنْجَذَابُ تَاجِرٍ إِلَى تَاجِرٍ، وَبَاطِلٌ إِلَى مُسْتَهْلِكٍ... وَلِأَنَّهَا تَسْتَمِدُّ وَجُودَهَا وَقُوَّتَهَا مِنَ اللَّهِ كَانَتْ أَثْبَتُ الصَّلَاةِ وَأَرْسَاهَا إِطْلَاقًا، لَا يُزَالُهَا شَيْءٌ وَلَا يُزَعِّزُهَا شَيْءٌ إِلَّا إِذَا زَالَ الْإِيْمَانُ.

قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي تَالِبٍ:

«لَوْ صَرَبْتُ خَيْشُومَ الْمُؤْمِنِ بِسَيْفِي هَذَا عَلَى أَنْ يُبْغِضَنِي مَا أَبْغَضَنِي؛ وَلَوْ صَبَبْتُ الدُّنْيَا بِجَمَائِعِهَا عَلَى الْمُنَافِقِ عَلَى أَنْ يُحِبَّنِي مَا أَحْبَبَنِي» ^(٣).

قَالَ أَبُو أَبِي الْحَدِيدِ: «الْخَيْشُومُ أَقْصَى الْأَنْفِ، وَالْجَمَّاتُ جَمْعُ جَمَّةٍ مَكَانٍ يَجْتَمِعُ فِيهِ الْمَاءُ، وَهِيَ اسْتِعَارَةٌ» ^(٤)، وَمُرَادُ الْإِمَامِ فِي هَذَا الْفَصْلِ إِذْكَارُ النَّاسِ

(١) لَمْ أَغْثِرْ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ.

(٢) لَمْ أَغْثِرْ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ.

(٣) أَنْظَرِ، نَهْجُ الْبَلَاغَةِ: الرِّسَالَةُ (٤٤).

(٤) أَنْظَرِ، لِسَانُ الْعَرَبِ: ١٢/١٧٨، الْمَجْمُوعُ: ١/٣٥٣، الدِّيْبَاجُ عَلَى صَحِيحِ مُسْلِمٍ: ٢/٢٥.

بِحَدِيثٍ: «يَا عَلِيُّ، لَا يُبْغِضُكَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يُحِبُّكَ مُنَافِقٌ... وَهِيَ كَلِمَةٌ حَقٌّ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْإِيمَانَ وَبُغْضَهُ ﷺ لَا يَجْتَمِعَانِ، لِأَنَّ بُغْضَهُ كَبِيرَةٌ، وَصَاحِبُ الْكَبِيرَةِ عِنْدَنَا لَا يُسَمَّى مُؤْمِنًا، وَأَمَّا الْمُنَافِقُ فَهُوَ الَّذِي يُظْهَرُ الْإِسْلَامَ وَيُبْطِنُ الْكُفْرَ، وَالْكَافِرُ بِعَقِيدَتِهِ لَا يُحِبُّ عَلِيًّا ﷺ لِأَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْخَبَرِ الْمَحَبَّةَ الدِّيْنِيَّةَ» ^(١).

وَقَالَ حَفِيدُهُ الْإِمَامُ زَيْنُ الْعَابِدِينَ ﷺ:

«وَأَلْبَسَ قَلْبِي الْوَحْشَةَ مِنْ شِرَارِ خَلْقِكَ. وَهَبْ لِي الْإِنْسَ بِكَ وَبِأَوْلِيَائِكَ، وَأَهْلَ طَاعَتِكَ، وَلَا تَجْعَلْ لِفَاجِرٍ، وَلَا كَافِرٍ عَلَيَّ مِثَّةً، وَلَا لَهْ عِنْدِي يَدًا، وَلَا يَبِي إِلَيْهِمْ حَاجَةٌ، بَلْ أَجْعَلْ سُكُونَ قَلْبِي، وَأَنْسَ نَفْسِي، وَأَسْتَفِنَائِي، وَكَفَايَتِي بِكَ، وَبِخِيَارِ خَلْقِكَ» ^(٢).

وَقَالَ الْإِمَامُ مُحَمَّدُ الْبَاقِرُ بْنُ الْإِمَامِ السَّجَّادِ ﷺ:

«وَإِذَا أَرَدْتُ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ فِيكَ خَيْرًا، فَانْظُرْ إِلَى قَلْبِكَ، فَإِنْ كَانَ يُحِبُّ أَهْلَ طَاعَةِ اللَّهِ، وَيَبْغِضُ أَهْلَ مَعْصِيَتِهِ فَفِيكَ خَيْرٌ، وَاللَّهُ يُحِبُّكَ، وَإِذَا كَانَ يَبْغِضُ أَهْلَ طَاعَةِ اللَّهِ، وَيُحِبُّ أَهْلَ مَعْصِيَتِهِ فَلَا خَيْرَ فِيكَ، وَاللَّهُ يُبْغِضُكَ، وَالْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ» ^(٣). وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ أَنَّ مَنْ يُكْرَمُ أَهْلُ الدُّنْيَا، وَيَتَجَاهَلُ أَهْلُ الْإِيمَانِ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ، وَلَا أَحَدٌ أَجْرًا عَلَيْهِ مِنْهُ.

وَقَالَ مَنْ شَايَعَ وَتَابَعَ: نَحْنُ نَأْتِلُفُ أَتْبَاءَ الدُّنْيَا لِنَرْفَعَ عَنْ طَرِيقِهِمْ مَظْلَمَةَ عَنِ مَظْلُومٍ، وَنُحَقِّقَ مَصْلَحَةَ لِلْعُمُومِ.

(١) أنظر، شرح نهج البلاغة: ١٨/١٧٣.

(٢) أنظر، الصَّحِيفَةُ السَّجَّادِيَّةُ: الدُّعَاءُ الْخَادِي وَالْعُشْرُونَ (دُعَاؤُهُ إِذَا خَرَنَهُ أَمْرٌ). بِتَحْقِيقِنَا.

(٣) أنظر، صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ: ٥/٢٢٨٣ ح ٥٨١٧، صَحِيحُ مُسْلِمٍ: ٤/٢٠٣٤ ح ٢٦٤٠، صَحِيحُ أَبِي

جَبَانَ: ١/٣٠٨ ح ١٠٥، سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ: ٤/٥٩٥ ح ٢٣٨٥، سُنَنِ الدَّارِمِيِّ: ١/١٠٤ ح ٣١٢.

وَجَوَابَنَا عَلَى ذَلِكَ :

أَوَّلًا: إِنَّا نَعْرِفُ أَكْثَرَ مِنْ وَاحِدٍ مِنَ الْمُتَزَلِّمِينَ لِلظَّالِمِ بِدُونِ قَيْدٍ أَوْ شَرْطٍ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَجْلِبْ خَيْرُ الْإِنْسَانِ، أَوْ يَدْفَعْ ضَرًّا عَنْ إِنْسَانٍ، وَلَمْ يَصْلَحْ شَيْئًا فَاسِدًا مِنْ مُفْسِدٍ، أَوْ يَقُومَ أَعْوَجَاجًا مِنْ مُنْحَرَفٍ، بَلْ أَزْدَادَ سَيِّدِهِ الطَّاعِيَةَ فَسَادًا يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ مِنْ صُحْبَتِهِ، بَلْ نَعْرِفُ رَجُلًا بِشَخْصِهِ وَأَسْمِهِ يَتَّخِذُ مِنْ صُحْبَةِ الرُّعَمَاءِ وَسَبِيلَةَ لِلدُّسِّ عَنِ الْأَبْرِيَاءِ، وَيُحَرِّضُ الْأَشْرَارَ عَلَى التَّنْكِيلِ بِالْأَخْيَارِ، وَيُوْغِرُ عَلَيْهِمُ الصَّدُورَ بِالْكَذِبِ وَالْإِفْتِرَاءِ، لَا لَشَيْءٍ إِلَّا لِأَنَّهُمْ أَرَادُوهُ لِلدِّينِ لَا لِلدُّنْيَا، وَلِلْخَيْرِ لَا لِلشَّهَوَاتِ، أَرَادُوهُ عُتُونًا صَالِحًا لِلسَّلَفِ الصَّالِحِ، وَأَبَى إِلَّا أَنْ يَكُونَ لِلطَّمَعِ وَالْجَشَعِ.

ثَانِيًا: أَنَّ صَاحِبَ الدُّنْيَا لَا يَخْتَفِلُ بِصَاحِبِ دِينٍ إِلَّا إِذَا أَتَّخَذَ مِنْهُ وَمِنْ دِينِهِ وَسَبِيلَةَ لِدَعْمِ كَيَانِهِ، وَمَحَالٌ أَنْ يَقْبَلَ النَّصِحَ، حَتَّى مِنْ الْأَنْبِيَاءِ إِذَا صَادَمَ هَوَاهُ... وَقَدْ دَلَّنَا التَّجَارِبُ أَنَّ الْمُخْلِصِينَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْدِّينِ لَا وَقَعَ لَهُمْ فِي هَذَا الزَّمَانِ عِنْدَ السِّيَاسِيِّينَ وَالْمُتَزَعِّمِينَ، وَأَنَّهُمْ لَا يَقْرُبُونَ أَيْ مُعَمِّمٍ إِلَّا إِذَا أَنْسَلَخَ عَنْ دِينِهِ وَصَارَ مِنْ شَرِطَتِهِمْ وَجُنُودِهِمْ... وَقَدِيمًا قِيلَ: «مَنْ دَاخَلَ أَهْلَ الدُّنْيَا دَخَلَ مَعَهُمْ». هَذَا إِذَا دَاخَلَهُمْ بِقَصْدِ الصَّلَاحِ وَالْإِضْلَاحِ، فَكَيْفَ بَمَنْ تَابَعَهُمْ طَمَعًا فِي الْحُطَامِ، وَرَغْبَةً فِي الْمَدِيحِ وَالنَّثَاءِ مِنَ الْعَوَامِ.

أَنَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ، وَيَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ حَقًّا لَا يَسْأَلُ أَحَدًا غَيْرَهُ، وَلَا يَقْبَلُ عَلَى مَخْلُوقٍ مِثْلَهُ. قَالَ الْإِمَامُ زَيْنُ الْعَابِدِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ):

«اللَّهُمَّ وَلِيَّ إِلَيْكَ حَاجَةٌ قَدْ قَصَّرَ عَنْهَا جُهْدِي، وَتَقَطَّعَتْ دُونَهَا حِيلِي، وَسَوَّلَتْ لِي نَفْسِي رَفْعَهَا إِلَى مَنْ يَرْفَعُ حَوَائِجَهُ إِلَيْكَ، وَلَا يَسْتَغْنِي فِي طَلِبَاتِهِ عَنْكَ، وَهِيَ

زَلَّةٍ مِنْ زَلَلِ الْخَاطِئِينَ، وَعَثْرَةٌ مِنْ عَثَرَاتِ الْمُذْنِبِينَ ثُمَّ أَتَتْهُ بِتَذْكِيرِكَ لِي مِنْ غَفْلَتِي، وَنَهَضْتُ بِتَوْفِيقِكَ مِنْ زَلَّتِي، وَرَجَعْتُ وَنَكَصْتُ بِتَسْدِيدِكَ عَنْ عَثْرَتِي. وَقُلْتُ سُبْحَانَ رَبِّي كَيْفَ يَسْأَلُ مُخْتَاَجٌ مُخْتَاَجاً وَأَنْتَ يَرْغَبُ مُعْذِمٌ إِلَى مُعْذِمٍ فَقَصَدْتُكَ، يَا إِلَهِي، بِالرَّغْبَةِ، وَأَوْفَدْتُ عَلَيْكَ رَجَائِي بِالثِّقَةِ بِكَ وَعَلِمْتُ أَنَّ كَثِيرَ مَا أَسْأَلُكَ يَسِيرُ فِي وَجْدِكَ، وَأَنَّ خَطِيرَ مَا أَسْتَوْهِبُكَ حَقِيرٌ فِي وَشْعِكَ، وَأَنَّ كَرَمَكَ لَا يَضِيقُ عَنْ سُؤَالِ أَحَدٍ، وَأَنَّ يَدَكَ بِالْعَطَايَا أَعْلَى مِنْ كُلِّ يَدٍ»^(١).

يَقُولُ الْإِمَامُ: كَيْفَ تَخْضَعُ وَتُسْتَغْفِرُ مَنْ هُوَ مِثْلَكَ فِي الْعَدَمِ وَالْإِحْتِيَاجِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ؟. كَيْفَ تَقِفُ عَلَى بَابٍ مِنْ إِذَا نَزَلَتْ بِهِ نَازِلَةٌ أَلْتَجَأُ إِلَى بَابِ اللَّهِ؟... أَلَا تُنْزِعُهُ وَجْهَكَ عَنْ عَبْدٍ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ نَفْعاً وَلَا ضَرراً، وَتَلُوذُ بِخَالِقِ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ، وَقَاضِي الْحَاجَاتِ، وَكَافِي الْمُهَمَّاتِ؟.

أَمَّا قَوْلُ الْإِمَامِ: «وَسَوَّلْتُ لِي نَفْسِي رَفْعَهَا إِلَى مَنْ يَرْفَعُ حَوَائِجَهُ إِلَيْكَ». فَقَدْ أَرَادَ بِهِ أَنْ يَكْشِفَ عَنْ أَخْطَائِنَا، كَيْ لَا تَكْثُرَ، وَلَا نَرْجُوا أَحَدًا إِلَّا مَنْ يَقْدِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَلَا يَقُوتُهُ شَيْءٌ، وَلَا يَعُوزُهُ شَيْءٌ... وَكَيْ يُؤَكِّدَ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ سَلَكَ نَفْسَ الطَّرِيقِ الَّذِي سَلَكَهُ إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْكَوَاكِبَ، حَيْثُ أَلَزَمَهُمُ الْحُجَّةَ حِينَ أَقْبَلَ مَعْبُودُهُمْ وَقَالَ: «فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْأَفْلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْسَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لِأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْقُومُ إِلَهِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِلَهِي وَجْهَتْ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ

(١) انظر، الصَّحِيفَةُ السَّجَّادِيَّةُ الدُّعَاءُ الثَّالِثُ عَشَرَ (دُعَاؤُهُ فِي طَلَبِ الْحَوَائِجِ).

الْمُشْرِكِينَ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ، قَالَ أَتُحْجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ»^(١).
وبعد، فَإِنَّ لِلنَّاسِ هُمُومًا وَحَاجَاتٍ، تَخْتَلِفُ مَظْهَرًا، وَتَتَّحِدُ جَوْهَرًا... لَذَا قَالَ
قَائِلٌ: إِنِّي أَخْلَصْتُكَ مِنْ جَمِيعِ هُمُومِكَ، عَلَى شَرِيطَةٍ أَنْ تَأْخُذَ بَدَلًا عَنْهَا هُمُومَ
شَخْصٍ آخَرَ... قَالَ هَذَا لِيَقِينَهُ بِأَنَّهُ لَا يُوجَدُ إِنْسَانٌ بِلَا هُمُومٍ.

وَأَحْفَظُ هَذَا الْحَدِيثَ الشَّرِيفَ، لَعَلَّ اللَّهَ تَعَالَى يَنْفَعَكَ بِهِ: «إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ
اللَّهَ، وَإِذَا أَسْتَعْنَيْتَ فَاسْتَغْنِ بِاللَّهِ، وَإِنْ أَسْتَطَعْتَ أَنْ تَعْمَلَ لِلَّهِ بِالصَّدَقِ فِي الْيَقِينِ
فَأَفْعَلْ، وَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ ذَلِكَ فَإِنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَأَعْلَمُ أَنَّ
النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ بَعْدَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا»^(٢).

(١) الأَنْقَامُ: ٧٦-٨٠.

(٢) أَنْظِرْ. مُسْتَدْرَكٌ: ٢٩٣/١ ح ٢٦٦٩. سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ: ٤/٦٦٧ ح ٢٥١٦. الْمُسْتَدْرَكُ عَلَى
الصَّحِيحَيْنِ: ٣/٦٢٣ ح ٦٣٠٣. مُبْتَلِ السَّلَامِ: ٤/١٧٦ ح ٥. الْأَحَادِيثُ الْمُخْتَارَةُ: ١٠/٢٥ ح ١٥.
الْمُعْجَمُ الْأَوْسَطُ: ٥/٣١٦ ح ٥٤١٧. مَجْمَعُ الزَّوَائِدِ: ٧/١٨٩.

إِخْوَانِي فِي اللَّهِ

مَا شَرَعْتُ بِالْكِتَابَةِ فِي مَوْضُوعٍ مَا إِلَّا تَوَلَّدَ فِي خَاطِرِي مَوْضُوعٌ آخَرُ قَبْلَ أَنْ
أَنْتَهِيَ مِنَ الْأَوَّلِ... وَقَدْ أَسَجَلُهُ، وَكَثِيرًا مَا أَهْمَلُهُ وَقَبْلَ أَنْ أَنْهِيَ الْفَصْلَ السَّابِقَ -
الْحُبُّ فِي اللَّهِ - أُوحِيَ إِلَيَّ بِهَذَا الْفَصْلِ، فَسَجَلْتُهُ بِعُنْوَانٍ «إِخْوَانِي فِي اللَّهِ» لِلصَّلَةِ
الْعَمِيقَةِ بَيْنَ الْفَصْلَيْنِ، إِذَنْ، مِنَ الْخَيْرِ أَنْ تَقْرَأَ ذَلِكَ أَوَّلًا، وَتُسَنِّي بِهَذَا.

لَا شَيْءَ يُعَمِّرُ الْقُلُوبَ بِالسَّعَادَةِ وَالْهَنَاءِ، وَيُضَاعَفُ مِنْ أَفْرَاحِهَا، إِنْ كَانَتْ
مَسْرُورَةً مُبْتَهَجَةً، وَيَبْدَدُ مِنْ أَخْزَانِهَا إِنْ كَانَتْ بَائِسَةً يَائِسَةً... مِثْلَ الصَّدَاقَةِ
وَالْأَصْدِقَاءِ.

لَا شَيْءَ أَجْمَلَ وَأَثَمَنَ مِنَ الصَّدَاقَةِ، لِأَنَّهَا أَعْظَمُ نِعَمِ الْحَيَاةِ عِنْدَ مَنْ يَفْهَمُ
الْحَيَاةَ.

لَا شَيْءَ أَقْوَى وَأَثَمَنَ مِنَ الصَّدَاقَةِ، لِأَنَّهَا أَرْوَاحُ مُتَالِفَةٍ مُتَكَاتِفَةٍ بِالذَّاتِ، لَا
بِتَوْسِطِ الْمُشَارَكَةِ فِي الدَّمَاءِ وَالْأَنْسَابِ.

لَا شَيْءَ يُغْنِي عَنِ الْأَصْدِقَاءِ أَبَدًا، حَتَّى الْجَاهُ وَالْمَالُ، وَحَتَّى النِّسَاءُ وَالْعِيَالُ،
بَلْ وَحَتَّى الصَّحَّةُ وَالْأَمَانُ.

لَا شَيْءَ يُوَازِي الصَّدَاقَةَ، لِأَنَّهَا حُبٌّ وَوَلَاءٌ، وَتَضَامُنٌ وَأَصْطِفَاءٌ، وَصِدْقٌ
وَصَفَاءٌ، وَتَفَاعُلُ الرُّوحِ مَعَ الرُّوحِ، وَانْجَذَابُ الْقَلْبِ لِلْقَلْبِ، وَاسْتِجَابَةُ الْعَقْلِ

للعقل .

وَمَنْ عَاشَ بِدُونِ أَصْدِقَاءَ فَقَدْ عَاشَ فِي مَفَازَةٍ مُوحِشَةٍ مُظْلِمَةٍ، وَإِنْ كَانَ فِي جَنَّةٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، وَمَنْ عَاشَ بِهِمْ فَهُوَ فِي نَعِيمِ اللَّهِ وَالْإِنْسَانِيَّةِ، وَإِنْ كَانَ فِي قَفَرٍ مُخِيفٍ، لَا سَبِيلَ فِيهِ وَلَا دَلِيلَ .

فَالْإِنْسَانُ بِمَعْنَاهِ الْإِنْسَانِي، وَإِنْ كَثُرَ مَالُهُ، وَآمَدَ جَاهُهُ يَظَلُّ يَحْسُ وَيَشْعُرُ أَنَّ فِي حَيَاتِهِ فَرَاغًا وَنَقْصًا إِذَا فَقَدَ الْأَصْفِيَاءَ وَالْأَوْفِيَاءَ... لِأَنَّهُمْ يَمْنَحُونَ الْحَيَاةَ الْبَهْجَةَ وَالْمَسْرَةَ .

وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيَّ بِالكَثِيرِ مِمَّا اسْتَحَقُّ، وَمَا لَا اسْتَحَقُّ، وَيَكْفِي أَنَّهُ جَلَّ وَعَلَا حَبَّبَ إِلَيَّ الْكِتَابَ وَالْقَلَمَ، وَالْبَحْثَ وَالدَّرْسَ، وَمَنْحَنِي صَبْرًا دَائِمًا، وَعَقْلًا فَاهِمًا لِكَثِيرٍ مِمَّا أَقْرَأُ وَأَسْمَعُ، وَقَلَمًا يَنْتَرِعُ الْوَقْتُ مِنَ الْقَارِيءِ، وَيُؤْثِرُ فِيهِ مِنْ حَيْثُ يُرِيدُ، أَوْ لَا يُرِيدُ .

وَإِذَا فَتَحَ اللَّهُ عَقْلِي بَعْدَ الصَّبْرِ وَالْعَنَاءِ فَلَقَدْ أَنْعَمَ عَلَيَّ بِخَيْرِ الْأَصْدِقَاءِ - بَعْدَ الْغُرْبَةِ وَالْتَّصِفِيَّةِ - وَجَعَلَنِي أَشْعَرَ بِالسَّعَادَةِ مِنْ أَجْلِهِمْ، وَلَوْلَاهُمْ لَمَا كَانَ لِي شَيْءٌ آسَفَ عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ، أَنْعَمَ عَلَيَّ بِهِمْ عَفْوًا، وَبَدُّونَ جُهْدَ وَثْنٍ، وَكُلَّمَا طَالَتِ الْأَيَّامُ كُلَّمَا أَرْدَادَتْ هَذِهِ الصَّدَاقَةَ قُوَّةً وَمَتَانَةً، وَسَمَتُ إِلَى أَعْلَى فَالْأَعْلَى، وَهَذَا هُوَ الْمَقْيَاسُ الْوَحِيدُ لَتَمْيِيزِ الصَّدَاقَةِ الْمُسْتَقَرَّةِ مِنَ الْمُسْتَوْدَعَةِ، وَالصَّحِيحَةِ مِنَ الزَّائِفَةِ الَّتِي يَظُنُّ، وَتَرَاءَى أَنَّهَا صَدَاقَةٌ، وَمَا هِيَ فِي وَاقِعِهَا إِلَّا سُرَابٌ .

صَادَقْتُ فِي مَا مَضَى - أَكْثَرَ مِنْ وَاحِدٍ، وَلَمَّا طَالَ الزَّمَنُ، وَتَكَرَّرَتِ التَّجَرُّبَةُ تَبَيَّنَ بوضوحٍ وَجَلَاءٍ أَنَّهُمْ يَفْقِدُونَ عَنَاصِرَ الصَّدَاقَةِ بِطَبِيعَتِهِمْ وَفِطْرَتِهِمْ، وَبَدِيهَةٌ أَنَّ هَذِهِ الْعَنَاصِرَ نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ شُبِّحَانَهُ يَمْنَحُهَا لِمَنْ يَشَاءُ، وَيَمْنَعُهَا عَمَّنْ يَشَاءُ، تَمَامًا كِنِعْمَةِ

السَّمْعَ وَالْبَصَرَ، وَالْعَقْلَ وَالذِّكَاءَ، لَذَا عَذَرْتَهُمْ، وَخَطَّأَتْ نَفْسِي، عَذَرْتَهُمْ عَلَى الرِّغْمِ أَنَّهُمْ لَا يَعْذِرُونَ أَحَدًا، وَلَا يُؤْمِنُونَ أَبَدًا بِأَنَّ خَيْرَ النَّاسِ مَنْ يَغْذِرُ النَّاسَ... وَأَيْضًا أَغْذَرَهُمْ فِي ذَلِكَ، لِأَنَّهُمْ يَفْقَدُونَ هَذَا الْحِسَّ.

وَأُضِدَّقَاتِي، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ، تَتَوَافَرُ فِيهِمْ هَذَا الْعِنَاصِرُ بِكَامِلِهَا... أَنَّهُمْ نَاجِحُونَ فِي أَخْلَاقِهِمْ وَمَقَاصِدِهِمْ... فَأَحَبُّ مَا يُحِبُّونَ الصَّدَقَ وَالْإِخْلَاصَ وَالْوَفَاءَ، وَأَبْغَضُ مَا يُبْغِضُونَ الْكَذِبَ وَالنَّفَاقَ وَالرِّيَاءَ... يُحِبُّونَ الْخَيْرَ لَوَجْهِ اللَّهِ وَالْخَيْرِ... لَا يَلْتَمِسُونَ لِفَاعِلِهِ الْعَثَرَاتِ، وَلَا يُقَلِّلُونَ مِنْ قِيَمَتِهِ بِالتَّأْوِيلَاتِ وَلَا يُشَبِّطُونَ مِنْ عَزِيمَتِهِ بِالْإِفْتِرَاءَاتِ... بَلْ يُشَجِّعُونَهُ عَلَى الْمُضِيِّ فِي سَبِيلِهِ، وَيُغْرَوْنَهُ بِالْمَزِيدِ... لَا مَكَانَ أَبَدًا فِي قُلُوبِهِمُ لِلْغُرُورِ، وَلَا لِلْحِقْدِ، وَلَا لِلْحَسَدِ وَأَسْأَلَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَنْ يُكَثِّرَ مِنْ حُسَادِهِمْ.

يَسْتَمْتِعُ بَغَضِ بَصُحْبَةٍ بَغْضٍ، وَيَشْعُرُ نَحْوَهُ بِالتَّعَطُّفِ، وَيَتَمَنَّى أَنْ يَكُونَ أَخُوهُ خَيْرَ النَّاسِ، وَأَرْفَعَ دَرَجَةً وَأَسْعَدَ حَقًّا.

لَمْ يَخْطُ أَحَدُهُمْ خُطْوَةً إِلَّا اتَّقَى مَعَ أَخِيهِ، وَمَا نَطَقَ بِكَلِمَةٍ إِلَّا عَبَّرَ عَنْ رَأْيِهِ.. اتَّحَدُّوا فِكْرًا وَهَدَفًا وَسَبِيلًا... وَمَا اجْتَمَعُوا إِلَّا اسْتِفَادَ كُلٌّ مِنْ كُلِّ عِلْمًا وَخُلُقًا. وَلَيْسَتْ الْحَيَاةُ عِنْدَهُمْ قِيلًا وَقَالًا، وَلَا كَسَلًا وَاهْمَالًا، وَلَا جُلُوسًا إِلَى جَاهِلٍ مِنْ غَيْرِ طَائِلٍ.. وَإِنَّمَا هِيَ الْجُهْدُ وَالصَّبْرُ، وَالْقَلَمُ وَالْكِتَابُ، وَالتَّذَاكُرُ وَالتَّنَادُّسُ، ثُمَّ الْإِتِّجَاعُ النَّافِعُ الْخَالِدُ الَّذِي تَعَدُّوْا بِهِ حُدُودَ زَمَانِهِمْ وَمَكَانِهِمْ.

أَنَّ الْعَالَمَ فِي مَفْهُومِهِمْ هُوَ الَّذِي لَا يَنْقَطِعُ عَنِ الْكِتَابِ، يُثَقِّفُ نَفْسَهُ بِاسْتِمْرَارٍ وَيَعْرِفُ كَيْفَ يَسْتَفِيدُ عِلْمًا، وَيُقِيدُ، وَيَسْأَلُونَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَنْشُرَ الْعِلْمَ، وَيُكَثِّرَ مِنَ الْعُلَمَاءِ، لِأَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الْحَيَاةَ مَعَ الْجُهْلَاءِ وَالسُّفَهَاءِ... وَلَئِنَّهُمْ مِنْ رِجَالٍ

مَبَادِيءِ الَّذِينَ يُفَدُّونَ الْعِلْمَ لِلْعِلْمِ، لَا مِنْ أَصْحَابِ الْأَهْوَاءِ وَالْأَغْرَاضِ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ مِنْ عِلْمِهِمْ أَدَاةَ لَفْرِضِ دَنِيٍّ، وَيَنْبَشُونُ الْحُفْرَ فِي طَرِيقِ السَّالِكِينَ وَيُمُوهُونَ أَفْوَاهَهَا بِالتُّرَابِ وَالْحِجَابِ.

أَنْ أَصْدِقَانِي لَا يَتَصَوَّرُونَ أَبَدًا أَنْ يَرْتَفِعُوا إِنْ سَقَطَ غَيْرُهُمْ، أَوْ يَسْقُطُوا إِنْ أَرْتَفَعَ...

لَقَدْ تَصَادَقْنَا، لَأَتْنَا نَحْبَ الصِّدْقِ، وَتَصَافَيْنَا، لَأَتْنَا نَحْبَ الصَّفَاءِ، وَهَذَا هُوَ الْحُبُّ فِي اللَّهِ وَفِي اللَّهِ، وَتَحَدَّثْتُ عَنْ أَصْدِقَائِي، لَأَتِّي أَحِبَّهُمْ، وَأَحَبُّ كُلِّ مَنْ يَفِي لَصَدِيقِهِ، وَيَتَحَدَّثُ عَنْهُ، لِأَنَّ الْوَفَاءَ أَمُّ الْفَضَائِلِ.

وَبَعْدَ، فَإِنْ لَدِي الْكَثِيرُ مِنَ الْكَلَامِ عَنْ أَصْدِقَائِي، أَدْعُهُ إِلَى فُرْصَةِ أُخْرَى. وَلَكِنْ شَيْئًا وَاحِدًا يَهْمَنِي أَنْ أَقُولَهُ، وَلَا بُدَّ لِي أَنْ أَقُولَهُ، كَيْ لَا يُخْدَعَ الْقَارِيءُ بِقَوْلِي:

وَيَظُنُّ أَنَّنَا نَنْظُرُ جَمِيعًا إِلَى النَّاسِ بِمَنْظَرٍ وَاحِدٍ. بَلْ أَنْ لِكُلِّ مِنَّا مَنْظَرًا وَحُجَّتَهُ.

فَصَدِيقِي الْأَوَّلُ يَرَى أَنَّ سُوءَ الظَّنِّ بِكُلِّ إِنْسَانٍ هُوَ الْأَصْلُ، حَتَّى يَثْبُتَ الْعَكْسُ، وَحُجَّتُهُ أَنَّ الزَّمَانَ فَاسِدٌ، وَهُوَ لَا يُرِيدُ أَنْ يَنْزَلِقَ وَيَتَوَرَّطَ، عَلَى أَنَّهُ لَا يُرْتَبُ أَيُّ أَثَرٍ فِي الْخَارِجِ عَلَى سُوءِ ظَنِّهِ سَلْبًا وَإِيجَابًا إِلَّا مَعَ الدَّلِيلِ الْقَاطِعِ.

وَالْأَصْلُ عِنْدِي أَنَا هُوَ حُسْنُ الظَّنِّ، حَتَّى يَسْتَبِينَ لِي غَيْرُ هَذَا، أَوْ تَقُومُ بِهِ الْبَيِّنَةُ، وَدَلِيلِي أَنَّ ظَاهِرَ الْأَفْعَالِ حُجَّةَ كَظَاهِرِ الْأَقْوَالِ، وَأَنْ أَفْتَرِاضَ حُسْنِ النِّيَّةِ بِالنَّاسِ حَسَنَ عِنْدَ اللَّهِ وَالنَّاسِ.

أَمَّا صَدِيقِي الثَّانِي فَيَتَوَقَّفُ لَا يُسِيءُ الظَّنَّ وَلَا يُحْسِنُهُ، وَمُسْتَنْدَهُ أَنَّ «الْوُقُوفَ

عِنْدَ الشُّبْهَةِ خَيْرٌ مِنَ الْإِفْتِحَامِ فِي الْهَلَكَةِ» ^(١).

وَيَقُولُ صَدِيقِي الثَّالِثُ: أَنَّ التَّوَقُّفَ فِي الشُّبْهَاتِ الْمَوْضُوعِيَّةِ لَا مَضَرَّ لَهُ، حَتَّى عِنْدَ الْإِخْبَارِيِّينَ، وَسُوءَ الظَّنِّ إِطْلَاقًا، تَمَامًا كَحُسْنِهِ إِطْلَاقًا، مِنْهُمَا يُنَافِي الْإِحْتِيَاطَ، إِذْ قَدْ نُسِيَ الظَّنُّ بِالْمُحْسِنِ، أَوْ نُحْسِنَ الظَّنَّ بِالْمُسِيءِ، وَالْأَجْدَرُ الْأَفْضَلُ هُوَ الْأَعْتِدَالُ ^(٢).

وَسَرَّ هَذَا الْإِخْتِلَافُ أَنَّ الْأَوَّلَ قَدْ مَرَّ بِأَكْثَرٍ مِنْ تَجَرِبَةٍ، وَأَحْسَنَ الظَّنِّ بِأَكْثَرٍ مِنْ وَاحِدٍ، ثُمَّ خَابَ قَالَهُ، وَالثَّانِي عَلَى طَبْعِهِ لَا يَسْتَأْنَسُ، وَلَا يَسْتَوْحِشُ لِلْوَهْلَةِ الْأُولَى، بَلْ يَضِرُّ وَيَنْتَظِرُ، أَمَّا الثَّالِثُ فَقَدْ دَابَّ مِنْذُ الصَّغَرِ عَلَى الْبَحْثِ وَالْجِدَالِ، وَتَقْوِيمِ الْأَرْأَاءِ وَالْأَفْكَارِ بِمَنْطِقِ الْعَقْلِ وَالْعِلْمِ ^(٣).

وَمِنْهُمَا كَانَ السَّرُّ وَيَكُونُ فَإِنِّي أَفْضَلُ أَلْفَ مَرَّةٍ أَنَّ أَحْسِنَ الظَّنِّ بِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّ عَلَى أَنْ أَسِيءَ الظَّنَّ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ، أَفْضَلُ خَطَأِي فِي ذَلِكَ عَلَى صَوَابِي مَعَ الْعِلْمِ

(١) أنظر: الكافي: ١/ ٥٠ ح ٩. تُحْفُ الْمَقُولُ: ٢١٤. الْأَحْكَامُ لِيَحْيَى الْهَادِي: ٢/ ٢٢٢. كِتَابُ الرَّهْدِ

لِحُسَيْنِ ابْنِ سَعِيدٍ الْكُوفِيِّ: ١٩ ح ٤١. عُيُونُ الْحِكْمِ وَالْمَوَاعِظُ: ٦٨. الْمَحَاسِنُ: ١/ ٢١٥.

(٢) قِيلَ لِقَالِهِ: مَنْ أَسْوَأُ النَّاسِ خَالًا؟ قَالَ: مَنْ لَا يَتَّقِي بِأَحَدٍ لِسُوءِ ظَنِّهِ، وَلَا يَتَّقِي بِهِ أَحَدٌ لِسُوءِ فِعْلِهِ.

أنظر: مُعْدِنُ الْجَوَاهِرِ: ٢٢. عُيُونُ الْحِكْمِ وَالْمَوَاعِظُ: ٢٩٥. فَيْضُ الْقَدِيرِ شَرَحَ الْجَامِعِ الصَّغِيرِ:

٣/ ٥١٠. شَرَحَ نَهْجَ الْبَلَاغَةِ لِابْنِ أَبِي الْخَدِيدِ: ١٨/ ٢٧٩.

وَقِيلَ لِصُوفِيٍّ: مَا صَنَاعَتُكَ؟ قَالَ: حُسْنُ الظَّنِّ بِاللَّهِ. وَسُوءُ الظَّنِّ بِالنَّاسِ.

وَكَانَ يُقَالُ: مَا أَحْسَنَ ظَنِّي إِلَّا أَنْ فِيهِ الْعَجْزُ، وَمَا أَفْجَحَ سُوءُ ظَنِّي إِلَّا أَنْ فِيهِ الْحَزْمُ.

أنظر: شَرَحَ نَهْجِ الْبَلَاغَةِ لِابْنِ أَبِي الْخَدِيدِ: ١٨/ ٢٧٩ و: ٢٠/ ٢٩٤. الْبَدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ:

١٣/ ٢٠٥.

(٣) أَعْطَيْتُ الْأَرْقَامَ لِلْأَخْلَاءِ عَلَى أَسَاسِ السَّبْقِ فِي الزَّمَانِ. وَذَكَرْتُ الثَّلَاثَةَ عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ دُونَ الْحَضَرِ، لِأَنَّ لِي بَقَاةَ أُخْرَى مِنَ الْأَصْدِقَاءِ. وَلِكُلِّ نَظَرَتِهِ إِلَى النَّاسِ. وَفِي الْحَيَاةِ تَخْتَلِفُ حَسَبَ بَيْتَتِهِ وَتَقَاتَتِهِ. (بِهَيْئَةٍ).

بَأَنِّي وَقَعْتُ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ فِي هَذَا الْخَطَا، وَأَنْتَقِدَنِي مَنْ أَنْتَقَدَ، وَأَتَهْمَنِي مَنْ أَتَهَمَ
 سَامِحُهُ اللَّهُ... وَأَقْسَمُ بِمَا أُدِينُ وَأَعْتَقِدُ أَنِّي لَسْتُ نَادِمًا مَا دُمْتُ صَادِقًا فِي نِيَّتِي،
 مُخْلِصًا فِي مَقْصَدِي.

وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ الْمَسْئُولُ أَنْ يُعْطِيَ الْأَصْدِقَاءَ مِنِّي أَكْثَرَ مِمَّا أَعْطَانِي مِنْهُمْ، وَأَنْ
 يَسْعِدَهُمْ بِي كَمَا أَسْعِدَنِي بِهِمْ، أَنَّهُ خَيْرُ مَسْئُولٍ.

حُقُوقُ الْجِيرَانِ

تُقَسَّمُ أَحْكَامُ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ إِلَى نَوْعَيْنِ :

عِلَاجِيَّةٌ ، وَقَائِيَّةٌ ، وَمِنَ الْعِلَاجِيَّةِ وَجُوبُ التَّوْبَةِ عَلَى الْمُذْنِبِينَ ، وَكُفَّارَةُ الْعَهْدِ وَالتَّذْرِ الْيَمِينِ ، وَكُفَّارَةُ الْقَتْلِ ، وَالْإِفْطَارُ فِي شَهْرِ الصَّيَامِ ، وَمِنْهَا أَيْضاً الْحُدُودُ ، وَالْقَصَاصُ ، وَالذِّيَّاتُ .

وَمِنَ الْأَحْكَامِ الْوَقَائِيَّةِ تَرْكُ الْمُحَرَّمَاتِ ، وَالِإِبْتِعَادُ عَنِ الشُّبُهَاتِ ، بَلْ وَفِعْلُ الْوَاجِبَاتِ ، يَتَّقِي بِهَا الْمُطِيعُ عَذَابَ الْآخِرَةِ .

وَهُنَاكَ أَحْكَامٌ فِيهَا شَيْءٌ مِنَ النَّوَاعِينِ ، كَحُقُوقِ الْجَارِ أَوْ التَّأَكِيدِ عَلَى هَذِهِ الْحُقُوقِ عَلَى الْأَصَحِّ ... فَإِنَّهَا وَقَائِيَّةٌ مِنْ حَيْثُ أَنَّهَا تَقِي الْجَارَ ، وَتَبْتَعِدُ بِهِ عَنِ الْمُسَاحَنَاتِ وَالْمُنَازَعَاتِ الَّتِي تَخْذُلُ - فِي الْغَالِبِ - بَيْنَ الْمُتَجَاوِرِينَ لِأَسْبَابِ تَافَهَةٍ ، أَوْ غَيْرِ تَافَهَةٍ يَسْتَدْعِيهَا قُرْبُ الدَّارِ وَنَوَافِذِهِ ، وَأَطْفَالُهُ ، وَهِيَ عِلَاجِيَّةٌ مِنْ حَيْثُ أَنَّهَا تُوجِبُ الصَّبْرَ وَضَبْطَ الْعَاطِفَةِ وَالْأَغْصَابَ لَوْ حَصَلَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ وَمَنْ أَطْلَعَ عَلَى هَذِهِ الْحُقُوقِ رَأَى أَنَّهَا لَا تَخْتَلِفُ عَنِ الْحُقُوقِ الْعَامَّةِ لِلْإِنْسَانِ عَلَى أَخِيهِ الْإِنْسَانِ إِلَّا بِالتَّشَدُّدِ وَالتَّأَكِيدِ ، وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ ﷺ : « مَنْ

آذَى جَارُهُ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ رِيحَ الْجَنَّةِ، وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمَ وَيُسَمَّى الْمَصِيرِ^(١).
 وَبَدِيهَةٌ أَنَّ الْأَذَى مُحَرَّمٌ مِنْ حَيْثُ هُوَ، وَيَسْتَدْعِي الْعَذَابَ، سَوَاءً أَحْصَلَ عَلَى
 الْجَارِ أَمْ غَيْرَ الْجَارِ، وَلَكِنَّ الْحِكْمَةَ فِي هَذَا التَّخْصِيسِ وَهَذِهِ الْمُبَالَغَةُ هُوَ التَّحْفِظُ
 مِنْ حَدُوثِ مَا يُعَكِّرُ الصَّفْوَةَ، وَيُؤَدِّي بِالْجِيرَانِ إِلَى الْأَحْقَادِ وَالْأَضْغَانِ.
 وَقَدْ جَمَعَ الْإِمَامُ زَيْنُ الْعَابِدِينَ عليه السلام هَذِهِ الْحُقُوقَ بِدُعَائِهِ لِجِيرَانِهِ فِي الصَّحِيفَةِ
 السَّجَّادِيَّةِ وَهَذَا مُلْخَصُهَا:

- ١- الرَّفْقُ.
- ٢- قَضَاءُ الْحَاجَةِ ...
- ٣- عِيَادَةُ الْمَرِيضِ.
- ٤- هِدَايَةُ طَالِبِ الرُّشْدِ.
- ٥- مُنَاصَحَةُ طَالِبِ الْمَشُورَةِ.
- ٦- زِيَارَةُ الْغَائِبِ إِذَا حَضَرَ.
- ٧- كِتْمَانُ السِّرِّ، وَعَدَمُ إِشَاعَةِ مَا يَرَاهُ مِنْ عُيُوبٍ.
- ٨- نُصْرَةُ الْمَظْلُومِ.
- ٩- إِعَارَةُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْجَارُ مِنَ الْأَدَوَاتِ.
- ١٠- غَضُّ الطَّرْفِ عَنِ الْعَوْرَاتِ.
- ١١- التَّوَاضُّعُ.
- ١٢- تَرْكُ الْحَسَدِ.
- ١٣- الْحُبُّ لِلْجَارِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ.

(١) أنظر، قَرِيبٌ مِنْ هَذَا فِي الْبَحْرِ الرَّائِقِ: ٥٥/٧، سُبُلُ السَّلَامِ: ١٣٩/٣.

وَهَذِهِ الصَّفَحَاتُ - كَمَا تَرَى - لَا يَخْتَصُّ حُسْنَهَا وَرُجْحَانَهَا مَعَ الْجِيرَانِ فَقَطْ ،
بَلْ تَعَمُّ الْجَمِيعَ ، وَلَكِنَّهَا تَتَأَكَّدُ مَعَ الْجَارِ دَفْعًا لِمَا يَسْتَدْعِيهِ الْجَوَارُ مِنَ النَّزَاعِ ،
وَالشَّجَارِ ، وَلَا شَيْءٌ أَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ مِمَّا خَتَمَ بِهِ الْإِمَامُ دُعَاؤُهُ ، حَيْثُ قَالَ :
« اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ ، وَأَزْرِفْنِي مِثْلَ ذَلِكَ مِنْهُمْ ، وَاجْعَلْ لِي أَوْفَى
الْحُظُوظِ فِيمَا عِنْدَهُمْ ، وَزِدْهُمْ بَصِيرَةً فِي حَقِّي ، وَمَعْرِفَةً بِفَضْلِي ، حَتَّى يَسْعَدُوا
بِي ، وَأَسْعَدَ بِهِمْ آمِينَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . » ^(١) .

وَبَعِيدٌ أَنْ يَغْتَرَفَ الْجَارُ بِفَضْلِ جَارِهِ كَأَنَّهُ مَنْ كَانَ إِلَّا إِذَا رَاعَى هَذِهِ الْحُقُوقَ ، أَوْ
الْصِّفَاتِ الَّتِي أَشْرَنَا إِلَيْهَا .

وَبَعْدَ ، فَإِنَّ هَذِهِ الصَّفَحَاتِ ، وَمَا إِلَيْهَا لَيْسَتْ إِلَّا مَظْهَرُ الْوَحْدَةِ بَيْنَ أَبْنَاءِ الْبَشَرِيَّةِ
جَمْعًا ، وَإِلَّا اعْتَرَفًا بِقِيَمَةِ الْإِنْسَانِ بِمَا هُوَ إِنْسَانٌ قَرِيبًا كَانَ أَوْ بَعِيدًا عَالَمًا كَانَ أَوْ
جَاهِلًا ، وَإِنَّمَا تَتَأَكَّدُ فِي الْجَارِ لِأَسْبَابٍ طَارِئَةٍ ، تَمَامًا كَالْأَمْرِ بِدَفْعِ السَّيِّئَةِ
بِالْحَسَنَةِ ... فَإِنَّ الْحَسَنَةَ رَاجِحَةٌ بِذَاتِهَا ، سَوَاءً أَكَانَ هُنَاكَ سَيِّئَةٌ تَدْفَعُ بِهَا ، أَمْ لَمْ
يَكُنْ ، وَلَكِنَّهَا تَكُونُ أَفْضَلَ وَأَرْجَحَ إِذَا تَرْتَّبَ عَلَيْهَا دَفْعُ السَّيِّئَاتِ قَبْلَ أَنْ تَحْدُثَ ،
أَوْ رَفْعُهَا وَاسْتِثْصَالُهَا بَعْدَ الْوُقُوعِ وَالْحُدُوثِ .

(١) انظر ، الصَّحِيفَةُ السَّجَّادِيَّةُ : الدُّعَاءُ السَّادِسُ وَالْعُشْرُونَ (دُعَاؤُهُ لِجِيرَانِهِ ، وَأَوْلِيَائِهِ) . بِتَحْقِيقِنَا .

1. The first part of the paper is devoted to a general discussion of the problem.

2. In the second part, we consider the case of a single particle.

3. The third part is devoted to the case of a system of particles.

4. In the fourth part, we consider the case of a continuous medium.

5. The fifth part is devoted to the case of a system of continuous media.

6. In the sixth part, we consider the case of a system of continuous media.

7. The seventh part is devoted to the case of a system of continuous media.

8. In the eighth part, we consider the case of a system of continuous media.

9. The ninth part is devoted to the case of a system of continuous media.

10. In the tenth part, we consider the case of a system of continuous media.

11. The eleventh part is devoted to the case of a system of continuous media.

12. In the twelfth part, we consider the case of a system of continuous media.

13. The thirteenth part is devoted to the case of a system of continuous media.

14. In the fourteenth part, we consider the case of a system of continuous media.

15. The fifteenth part is devoted to the case of a system of continuous media.

16. In the sixteenth part, we consider the case of a system of continuous media.

17. The seventeenth part is devoted to the case of a system of continuous media.

18. In the eighteenth part, we consider the case of a system of continuous media.

19. The nineteenth part is devoted to the case of a system of continuous media.

20. In the twentieth part, we consider the case of a system of continuous media.

21. The twenty-first part is devoted to the case of a system of continuous media.

22. In the twenty-second part, we consider the case of a system of continuous media.

23. The twenty-third part is devoted to the case of a system of continuous media.

24. In the twenty-fourth part, we consider the case of a system of continuous media.

المُحْسِنِ وَالْمُسِيءِ

للمسيء:

قَدْ يَكُونُ الْإِنْسَانُ مُسِيئًا مِنْ جِهَةٍ، وَمُحْسِنًا مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، وَقَدْ تَتَضَاعَفُ
الْإِسَاءَةُ بِإِعْتِبَارِ ثَالِثٍ: يَكُونُ مُسِيئًا حَيْثُ يَتَرْتَّبُ عَلَى فِعْلِهِ نَتَائِجُ سَيِّئَةٍ، وَيَكُونُ
مُحْسِنًا إِذَا رَأَى نَفْسَهُ أَنَّهُ مُسِيءٌ فَلَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ: «مَنْ رَأَى أَنَّهُ
مُسِيءٌ فَهُوَ مُحْسِنٌ»^(١). وَفِيهِ أَيْضًا: «التَّدْمُ تَوْبَةٌ»^(٢).

وَتَتَضَاعَفُ الْإِسَاءَةُ إِذَا اسْتَهَانَ بِهَا صَاحِبُهَا، وَلَمْ يَكْتَرِثْ، قَالَ أَمِيرُ
الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: «أَشَدُّ الذُّنُوبِ مَا اسْتَهَانَ بِهِ صَاحِبُهُ»^(٣).

وَفِي الْحَدِيثِ: «لَا صَغِيرَةٌ مَعَ إِضْرَارٍ، وَلَا كَبِيرَةٌ مَعَ اسْتِغْفَارٍ»^(٤).
وَلَيْسَ مَعْنَى تَقْسِيمِ الْمُسِيءِ إِلَى هَذِهِ الْجِهَاتِ أَنَّ الْإِسَاءَةَ تُحَدَّدُ عَلَى أَسَاسِ

(١) أنظر، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٣١٧/٢٠، الْحِكْمَةُ (٦٤١). وَقَدْ نَسَبَهَا إِلَى الْإِمَامِ عَلِيِّ عليه السلام.

(٢) أنظر، صحيح ابن حبان: ٣٧٧/٢ ح ٦١، الْمُشْتَدُّ عَلَى الصَّحِيحِينَ: ٢٧١/٤ ح ٧٦١٢.

الْأَحَادِيثُ الْمُخْتَارَةُ: ١٠٢/٦ ح ٢٠٨٨، مَوَارِدُ الطَّمَانِ: ٦٠٨/١ ح ٢٤٥٢، سُنَنِ التَّيْهَقِيِّ الْكُبْرَى:

١٠٥٤/١٠، سُنَنِ أَبِي نَاجِيَةَ: ١٤٢٠/٢ ح ٤٢٥٢.

(٣) أنظر، خطب نهج البلاغة: ٨١/٤، الْحِكْمَةُ (٣٤٨).

(٤) أنظر، مَسَالِكُ الْأَفْهَامِ: ١٦٨/١٤، الْكَافِي: ٢٨٨/٢ ح ١، الْوَسَائِلُ: ٢٦٨/١١ ح ٣، الْجَامِعُ الصَّغِيرُ

لِلشَّيْطَانِيِّ شَرْحُ الْمَثَاوِي: ٣٦٥/٢.

الشُّعُور، وَأَنَّهُ مَقْيَاسُ الْحُسْنِ وَالْقُبْحِ، كَلَّا فَإِنَّ الْحُسْنَ حُسْنَ بَذَاتِهِ، أَوْ بِنَتَائِجِهِ وَالْقُبْحُ كَذَلِكَ، وَإِنَّمَا الشُّعُورُ يُوجِبُ التَّخْفِيفَ مِنْ عَقُوبَةِ الْمُسِيءِ إِذَا رَاجَعَ نَفْسَهُ وَأَنْتَفَدَهَا، كَمَا يُوجِبُ التَّشَدُّدَ إِذَا أَصَرَ، وَرَأَى أَنَّهُ قَدْ أَحْسَنَ صُنْعًا.

وَشَرَّ النَّاسِ، وَأَكْثَرُهُمْ إِسَاءَةً مَنْ يَهْتَمُّ بِعُيُوبِ النَّاسِ، فَيَسْتَبْعَهَا، وَيُضِيفُ إِلَيْهَا، وَيُلْفِقُ مَعَهَا، ثُمَّ يُشِيعُ وَيُذِيعُ، وَيَتَفَنَّ فِي الشَّرْحِ وَالتَّفْصِيلِ، وَالتَّفْسِيرِ وَالتَّأْوِيلِ، وَلَا يَحْفَلُ إِطْلَاقًا بِمَا يَتَرْتَبُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ شَرٍّ وَفَسَادٍ... وَهُوَ فِي ذَاتِ الْوَقْتِ يَذْهَلُ عَنْ عُيُوبِهِ، وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ، وَلَا دَوَاءَ لِهَذَا الْفَاجِرِ الشَّرِّيرِ، بَعْدَ أَنْ مَاتَ قَلْبُهُ، وَتَمَكَّنَ الشَّيْطَانُ مِنْهُ، وَيَسُّسُ أَهْلَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ مِنْ تَوْبَتِهِ وَهَذَايَتِهِ، وَلَا دَوَاءَ لَهُ إِلَّا أَنْ تَرْفَعَ شَكْوَاكَ عَلَيْهِ إِلَى مَحْكَمَةِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ الَّتِي لَا تُخْفِي عَلَيْهَا خَافِيَةً فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، وَلَا تَسْأَلُكَ عَنْ حُجَجِ الْإِفْتِتَاحِ، وَلَا تَطْلُبُ مِنْكَ الْبَيِّنَةَ، أَوِ الْيَمِينَ، وَلَا تَقْبَلُ الشَّفَاعَاتِ وَالْوَسَاطَاتِ، وَلَا تَعْمِلُ مَعَ كَبِيرٍ أَوْ صَغِيرٍ، وَلَا غَنِيٍّ أَوْ فَقِيرٍ، أَرْفَعَ دَعْوَاكَ إِلَى مَحْكَمَةِ اللَّهِ الْعَلِيِّ الْأَعْلَى، وَتَسْتَرَى رَأْيَ الْعَيْنِ مَاذَا يَحِلُّ غَدًا بِهَذَا الْمُسْتَهْتَرِ الْمُتَرَدِّ وَغَدِ آتٍ لَا مُحَالَهَ، تَمَامًا كَمَا يَأْتِي مَوْعِدُ الْمُحَاكَمَةِ الَّذِي يُعِينُهُ الْقَاضِي فِي الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ، أَرْفَعَ دَعْوَاكَ إِلَيْهَا بِهَذَا الْإِسْتِدْعَاءِ وَقُلْ كَمَا قَالَ الْإِمَامُ زَيْنُ الْعَابِدِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) :

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَمَنْ أَرَادَنِي بِسُوءٍ فَاصْرِفْهُ عَنِّي، وَأَذْخِرْ عَنِّي مَكْرَهُ، وَأَذْرَأْ عَنِّي شَرَّهُ، وَزِدْ كَيْدَهُ فِي نَحْرِهِ وَأَجْعَلْ بَيْنَ يَدَيْهِ سُدًّا حَتَّى تُفْعِمِي عَنِّي بَصْرَهُ، وَتُصِمَّ عَنْ ذِكْرِي سَمْعُهُ، وَتُثْقِلَ دُونَ إِحْطَارِي قَلْبَهُ، وَتُخْرِسَ عَنِّي لِسَانَهُ، وَتَقْمَعَ رَأْسُهُ، وَتَذِلَّ عِزُّهُ، وَتَكْسُرَ جَبَرُوتُهُ، وَتَذِلَّ رَقَبَتُهُ، وَتَنْفَسَخَ كِبَرُهُ، وَتُؤْمِنَنِي مِنْ جَمِيعِ ضَرِّهِ، وَشَرِّهِ، وَغَمَزِهِ، وَهَمَزِهِ، وَلَمَزِهِ، وَحَسَدِهِ، وَعَدَاوَتِهِ، وَحَبَائِلِهِ،

وَمَصَايِدِهِ، وَرَجَلِهِ، وَخَيْلِهِ، إِنَّكَ عَزِيزٌ قَدِيرٌ»^(١).

أَرْفَعْ هَذَا الدُّعَاءَ، أَوْ الْإِسْتِدْعَاءَ إِلَى اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ، وَأَنْتَظِرُ مَصِيرَ الْحَقُودِ وَالْحُسُودِ عَلَى شَرِيطَةِ أَنْ تُكَافِئَهُ بِالصَّبْرِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ وَطَاعَةِ اللَّهِ فِيهِ وَفِي سِوَاهُ... وَحَسْبُكَ أَنْ يَكُونَ عَدُوَّكَ عَدُوًّا لِلَّهِ لِعُدْوَانِهِ وَمَعْصِيَتِهِ، وَأَنْ تَكُونَ حَبِيبَ اللَّهِ لَطَاعَتِكَ وَتَقْوَاكَ، وَعَلَى أَبِي الْحَسَنِ الَّذِي قَالَ: «فَمَا هُمَّكَ، وَشُغْلُكَ بِأَعْدَاءِ اللَّهِ؟»^(٢). فَضْلُ التَّحِيَّاتِ وَالصَّلَوَاتِ.

الْمُحْسِنُ:

وَقَدْ يَكُونُ الْمُحْسِنُ مُسِيئًا مِنْ جِهَةٍ، كَمَا لَوْ أَعْجَبَ وَتَبَاهَى بِعَمَلِهِ وَإِحْسَانِهِ، قَالَ تَعَالَى: «قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَى»^(٣).

وَقَدْ يَزِدَادُ الْإِحْسَانَ إِحْسَانًا، كَمَا لَوْ تَوَاضَعَ فَاعَلَهُ، وَلَوْ يَرِ أَنَّهُ الْمُحْسِنُ «الْكَبِيرُ» أَوِ الصَّغِيرُ، قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: «لَا يَسْتَقِيمُ قَضَاءُ الْحَوَائِجِ إِلَّا بِثَلَاثٍ: بِإِسْتِغْفَارِهَا لِتَغْظُمَ، وَبِاسْتِكْنَامِهَا لِتُظْهَرَ، وَبِتَعَجُّلِهَا لِتَهْتَوَى»^(٤).

وَخَيْرُ النَّاسِ وَأَحْسَنُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ مَنْ عَمِلَ بِوَصِيَّةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ لَوْلَدِهِ الْإِمَامِ الْحَسَنِ عليه السلام: «يَا بَنِيَّ أَجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَانًا فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ، فَأَخْبِثْ لَغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَأَكْزِرْ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا، وَلَا تَظْلِمْ كَمَا لَا تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ، وَأَحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ، وَاسْتَقْبَحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبَحُهُ مِنْ غَيْرِكَ،

(١) أَنْظِرْ، الصَّحِيفَةُ السَّجَّادِيَّةُ: الدُّعَاءُ الثَّالِثُ وَالْمُشْرُونَ (دُعَاؤُهُ بِالْعَافِيَةِ). بِتَحْقِيقِنَا.

(٢) أَنْظِرْ، نَهْجُ الْبَلَاغَةِ: الْجُحْمَةُ (٣٥٢).

(٣) الْبَقَرَةُ: ٢٦٣.

(٤) أَنْظِرْ، نَهْجُ الْبَلَاغَةِ: الْجُحْمَةُ (١٠٠).

وَأَرْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا تَرْضَاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ، وَلَا تَقُلْ مَا لَا تَعْلَمُ وَإِنْ قُلْ مَا تَعْلَمُ، وَلَا تَقُلْ مَا لَا تُحِبُّ أَنْ يُقَالَ لَكَ»^(١).

وَالْكَلِمَةُ الْجَامِعَةُ لِذَلِكَ وَغَيْرِ ذَلِكَ هِيَ قَوْلُهُ: «فَأُخْبِتُ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ». فَإِنَّهَا وَصِيَّةُ الْأَنْبِيَاءِ الْمُرْسَلِينَ، وَالْأَيْمَةُ الْمَعْصُومِينَ، وَقَدْ أَطَالَ فَلَأَسْفَةَ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ الْكَلَامَ حَوْلَ هَذِهِ الْوَصِيَّةِ الذَّهَبِيَّةِ، مَعَ عِلْمِ الْجَمِيعِ بِأَنَّهُ لَيْسَ فِي مَقْدُورِ أَيِّ إِنْسَانٍ أَنْ يَهَبَ حُبَّ نَفْسِهِ لغيره، أَوْ يَجْعَلَ حُبَّهُ لِلغَيْرِ مُعَادِلًا لِحُبِّهِ لِنَفْسِهِ، بِخَاصَّةٍ إِذَا كَانَ الْمَطْلُوبُ حُبَّهُ أُخْبِتِيًّا عَنِ الْمُحِبِّ ...

وَقَالَ الْفِيلَسُوفُ الْأَلْمَانِي هِيجل: «الْقَصْدُ مِنْ هَذِهِ الْوَصِيَّةِ أَنْ يَنْسَبَ المرءُ إِلَى أَخِيهِ قَدْرًا مُساوِيًا مِنَ الْإِحْسَاسِ بِالْحَيَاةِ، لِأَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا يَسْتَمِدُّ الْحَيَاةَ مِنْ مُصَدَّرٍ وَاحِدٍ»^(٢).

وَهَذَا الْمَعْنَى وَإِنْ كَانَ أَقْرَبُ مِنَ الْمَعْنَى الَّذِي ذَكَرَهُ شُوبِنهور، وَهَارْتْمَان وَغَيْرُهُمَا إِلَّا أَنَّهُ بَعِيدٌ عَنْ دَلَالَةِ اللَّفْظِ، لِأَنَّ الْحُبَّ شَيْءٌ، وَالْإِحْسَاسُ شَيْءٌ آخَرٌ. وَالصَّحِيحُ: «فَأُخْبِتُ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ».

تَعْبِيرُ ثَانٍ عَنْ قَوْلِكَ: «يُحِبُّ عَلَيْكَ أَنْ تَرَى لِغَيْرِكَ مِنَ الْحَقُوقِ مِثْلَ الَّتِي تَرَاهَا لِنَفْسِكَ، وَتَرَى عَلَيْكَ مِنَ الْوَاجِبَاتِ مِثْلَ الَّتِي تَرَاهَا عَلَى غَيْرِكَ. وَأُبَلِّغُ مِنْ هَذَا وَأَعْمَقُ قَوْلُ الْإِمَامِ: «أَجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَانًا فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ».

وَلَيْسَ مِنْ شَكٍّ أَنَّ هَذَا سَهْلٌ يَسِيرٌ، لَا ضَرَرَ فِيهِ وَلَا حَرَجَ، وَأَيُّ بَأْسٍ فِي أَنْ

(١) انظر، نهج النبلاغة: الرسالة (٣١).

(٢) انظر، موسوعة الفلاسفة لعبد الرحمن بدوي: ١٧٤ / ٢.

يُقَالُ لَكَ: لَا تُسِيءْ إِلَى أَحَدٍ، كَمَا لَا تُرِيدُ أَنْ يُسِيءَ أَحَدٌ إِلَيْكَ، وَعَامِلُ النَّاسِ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُعَامِلُوكَ، وَاتَّمَسِ الْأَعْذَارَ لِعُيُوبِهِمْ كَمَا تَلْتَمِسُ لِعُيُوبِكَ وَلَا تَقْسُ فِي حُكْمِكَ عَلَى أَحَدٍ كَمَا تُرِيدُ أَنْ لَا يَقْسُوا أَحَدٌ فِي حُكْمِهِ عَلَيْكَ.

أَمَّا سِرُّ هَذِهِ الْوَصِيَّةِ فَيَكْمُنُ فِي عَظَمَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الَّتِي تَتِمَثَّلُ وَتَتَجَسَّمُ فِي كُلِّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِهَا، قَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ: «أَنَّ الْكَوْنَ كُلَّهُ لَا يُسَاوِي شَيْئاً بِجَانِبِ حَيَاةِ إِنْسَانٍ وَاحِدٍ» أَيَّ أَنَّ الْإِنْسَانَ أَشْرَفَ مِنَ الْكَوْنَ بِأَرْضِهِ وَسَمَائِهِ، بِشَمْسِهِ وَقَمَرِهِ، وَجَمِيعِ كَوَاكِبِهِ، وَمَا فِيهَا، وَكَأَنَّ هَذَا الْقَوْلَ مَا خُوِذَ مِنَ الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ: «الْمُؤْمِنُ أَكْبَرُ حُرْمَةٍ مِنَ الْكُفَّةِ وَمِنْ مَلِكٍ مُقَرَّبٍ»^(١).

إِذَنْ، مَنْ أَعْتَدَى عَلَى إِنْسَانٍ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ، وَأَضْمَرَ لَهُ الشُّوْءَ فَقَدْ أَعْتَدَى عَلَى الْكُفَّةِ، بَلْ عَلَى الْكَوْنَ بِكَامِلِهِ.. هَذَا إِلَى أَنْ مَبْدَأُ «أَحْسِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ» لَوْ طَبَّقَ لَضَمِنَ لِلنَّاسِ، كُلِّ النَّاسِ الْأَمْنُ، وَالْعَدْلُ، وَالرِّفَاقَةُ.

(١) نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْكُفَّةِ فَقَالَ: «مَرْحَباً بِكَ مِنْ نَيْتٍ! مَا أَعْظَمَكَ، وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكَ! وَاللَّهِ إِنَّ الْمُؤْمِنَ أَكْبَرُ حُرْمَةٍ مِنْكَ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ لِأَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مِنْكَ وَاحِدَةً، وَمِنْ الْمُؤْمِنِ ثَلَاثَةٌ: دَمُهُ، وَنَالُهُ، وَأَنْ يَنْظُرَ بِهِ ظَنُّ الشُّوْءِ». أَنْظَرَ، الْمُتَعَجِّمُ الْكَبِيرُ: ٣١/١١، مُسْتَدَدُ الشَّامِيِّينَ: ٣٩٦/٢ ح ١٥٦٨، شَرَحَ نَهْجَ الْبَلَاغَةِ لِابْنِ أَبِي الْحَدِيدِ: ٢٧٨/١٨، مَوَارِدُ الظُّلْمَانِ: ٣٥٩، كُشْفُ الْخَفَاءِ: ٢٩٢/٢، تَفْسِيرُ آيِنِ كَبِيرِ: ٢٢٨/٤، الدَّرُّ الْمَنْشُورُ: ١٣٢/١، الشُّفَا بِتَعْرِيفِ حَقُوقِ الْمُصْطَفَى: ٩٣/٢، سُنَنِ آيِنِ مَسَاجِدَ: ٢٢٩٧/٢ ح ٣٩٣٢، سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ: ٢٥٥/٣ ح ٢١٠١، مَجْمَعُ الزَّوَائِدِ: ٢٩٢/٣، تَحْقِيقَةُ الْأَخْوَذِيِّ: ١٥٣/٦.

[illegible]

الْفَهْرَسُ الْفَنِيَّةُ الْعَامَّةُ

١ - فَهْرَسُ الْآيَاتِ

٢ - فَهْرَسُ الْأَحَادِيثِ

٣ - فَهْرَسُ الْمَصَادِرِ



فهرس الآيات

الآية	رقمها	الصفحة
البقرة		
﴿قَوْلَ مَعْرُوفٍ وَمَغْفِرَةَ خَيْرٍ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا﴾	٢٦٣	٥٠٤
﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ﴾	٢٦١	٤٧٧
﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ آلَهُ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾	٢٤٥	٤٧٧
﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ﴾	١٧١	٤٤٩
﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾	٢١٩	٤٣٦
﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ﴾	٢٦٨	٢٣٠
﴿لَا يَكْثِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا أَوْشَعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾	٢٨٦	٣٢٣
﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾	٢٣	١٧٣
﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ رَقِيتُونَ﴾	١١٦	١٠٩
﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾	١١١	١٠٢
﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَّبِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾	٢٢٢	٣٦٥
﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾	٨٦	٣٥٩
﴿لَنْ نُصِبرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاجِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا﴾	٦١	٤٩
﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ﴾	١٢٠	٢٤٨
﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوًا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾	١٦٨	٢٩٦

الآيَةُ

رَقْمُهَا

الصَّفْحَةُ

آلِ عِزْرَانَ

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾

١٢٨ ٢٠٥

﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾

١٥٤ ٢٠٥

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْمُرِ اللَّهُ الَّذِينَ﴾

١٤٢ ١٩٩

﴿يَتَأَهَّلُونَ الْكِتَابَ لَمْ يَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾

٧٢-٧١ ١٧٦

﴿فَأَتُوا بِالْتَّوْرَةِ فَاتْلَوْهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

٩٣ ١٧٥

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾

٨٥ ١٤٧

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾

١١٦ ٣٦٠

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾

١٨٥ ٣٥٧

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾

١٦٩ ٣٤٨ و ٣٤٣

﴿وَالرَّسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ﴾

٧ ٣٢٨

﴿قُلْ يَتَأَهَّلُ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا﴾

٦٤ ٣٠٦

﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ﴾

١٩٩ ٢٧٥

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾

١١٠ ٨٦

﴿وَمَا يَنْهَى عَنْ الْعِلْمِ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾

٧ ٧٩

النِّسَاءُ

﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾

٥٩ ٢١٠

﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾

٢٤ ٢١٧

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ﴾

٦٥ ٤٦٧

الآية	رَفَعَهَا	الصَّفْحَة
﴿وَأَتَيْنَهُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَاتَا خُدُومَهُ شَيْئًا﴾	٢٠	٢٠١
﴿فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾	٥٩	٢٠٤ و ٢٦٦
﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾	١١٣	٣١٥
﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لئَلَّاءَ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى﴾	١٦٦	٣٠٣
﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ﴾	١٤٩ - ١٥١	٢٧٢
﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا﴾	٨٢	٢٦٥

الضائفة

﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾	٤٥	٢٠٤
﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَةَ﴾	٦٠	١٧٦
﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾	٧	١٧٦
﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا﴾	٧٠	١٦٦
﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾	٣٢	١٦٠
﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا﴾	٢	١٦٠
﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾	٣٨	٣٦٧
﴿لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾	٨٧	٣٥٨
﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾	١١٩	٣٥٥
﴿لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ﴾	٨٧	٢٩٦
﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاانُ قَوْمٍ عَلَى أَنْ تَتَّخِلُوا أَعْدِلُوا﴾	٨	٢٧٦

الآية	رَقْمَهَا	الصفحة
الأنعام		
﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ﴾	٥٢	٣٢١
﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى الْكُوكِبَ قَالَ هَذَا رَبِّي﴾	٧٦ - ٨٠	٤٨٩
﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ﴾	١٦٠	٤٧٦
﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾	١٥٢	٢٧٦ و ٢٠٧
﴿اللَّهُ أَغْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾	١٢٤	١٧١
﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَيْرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾	٣٨	٢٨٩
﴿وَلَوْ أَنَّ نَارًا نَزَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكِيَّةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى﴾	١١١ - ١١٢	٢٧٠
﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَعَرَّتْهُمْ﴾	٧٠	٢٤

الأعراف

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ أَبْعَدِهِمْ خَلِيفَةً عِجْلًا﴾	١٤٨	٢٦٩
﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾	٧٣	١٥٧
﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾	٦٥	١٥٧
﴿وَإِلَى مَذِينَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾	٨٥	١٥٧
﴿وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْنَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾	١٨٨	١٥٢
﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَعَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ﴾	٥١	٣٥٤
﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾	١٨٨	٢٧٨
﴿وَإِذَا أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ أَلٍ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ﴾	١٤٢	٢٦٨
﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾	٢٨	٢٥٧

الآية	رَقْمُهَا	الصفحة
﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ﴾	١٥٧	٢٥٧

الأنفال

﴿وَيَكُونُ الَّذِينَ كُلُّهُمُ لِلَّهِ﴾	٣٩	٢٠٥
---	----	-----

التوبة

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾	١١١	١٩٩
﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا﴾	٣٤-٣٥	٣٦٠
﴿لَهُم مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ﴾	١١٦	٢٩٦

يونس

﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ﴾	٩٤	١٧٢
﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾	١٦	١٧١
﴿أَمْ مِّن يَّعْلِكَ السَّمْعُ وَالْأَبْصَارُ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ﴾	٣١	١٣٩
﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ ۖ إِلَّا هُوَ﴾	١٠٧-١٠٩	٩٧
﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ﴾	٥٢	٣٥٥
﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ﴾	٢٦	٣٢٤

هود

﴿قَالُوا يَنْتُحَ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَلَنَا فَأْتِنَا﴾	٣٢	٩٨
--	----	----

الآية	رَقْمُهَا	الصفحة
يُوسُفُ		
﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾	٦٧	٢٠٩
الرُّعْدُ		
﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَمَا بَكَتُ فِي الْأَرْضِ﴾	١٧	١٥٨
﴿بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾	٣١	٢٩٦
إِبْرَاهِيمَ		
﴿وَأَدْخِلِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ﴾	٢٣	٣٥٥
﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾	٤٨	٣٤٤
الحَجَرِ		
﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾	٤٨	٤١٤
﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾	٩	١٦٧ و ٢٠٦
النَّحْلِ		
﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ﴾	١٠٣	١٧٥
﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾	١٠٥	٤٦٥
﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾	٨٩	٣٠٣
﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ﴾	٩٠	٢٥٦

الآية	رَفَمَهَا	الصفحة
الانزواء		
﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾	٧٢	٣٥٦ و ٣٥٣
		٤٢٢
﴿وَقَالُوا أَءِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفَّتًا ءَأِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾	٤٩	١٩١
﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْءَانُ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾	٩	١٢١ و ١٦٠
﴿وَمَا أُوْتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾	٨٥	١٤٠
﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾	٨	٩٨
﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلْ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ﴾	٨٤	٩٥
﴿أَءِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفَّتًا ءَأِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾	٤٩	٣١٦
﴿قُلْ لِّبِنِ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا﴾	٨٩	٢٩٠
﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ الْأَسْبَعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾	٤٤	٢٨٧
﴿وَقَالُوا لَنْ نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ﴾	٩٠-٩٣	٢٦٩
﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ﴾	٤٤	٨٨
﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا﴾	٨٥	٥٥

الكهف

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ﴾	٢٩	٣٢١
﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾	١١٠	٢٦٠ و ٢٧٨
﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾	٥٤	٣٩

الآية	رَقْمُهَا	الصفحة
﴿إِنَّ لَكَ الْأَتَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾	١١٨	٤٠٩
﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾	١١٤	٢٥

الْأَنْفِيَّةُ

﴿لَا يَخْزَنُهُمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ﴾	١٠٣	٤١٤
﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾	١٠٧	١٣٣ و ١٥٨
		٣٦٠
﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾	٢٣	٢٥٢

الْحَجَّ

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾	٢٣	٤٨٢
﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى﴾	٨	٤٠ و ١٤٧
		٢٩٢
﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾	٧٣	١٤٦
﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمَا فِي الْأَرْضِ﴾	٦٥	٣٥٨
﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا﴾	٥	٣١٧
﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ﴾	٧٣	٣١٤
﴿وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾	٦٨	٢٩٢
﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُم فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ﴾	٧٨	٢٤

الآية	رقمها	الصفحة
المؤمنون		
﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا﴾	١١٥	٣٢٥

النور

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾	٢	٣٦٧
﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجَعُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾	٤١	٢٨٧
﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾	٣٥	٤٩

الفرقان

﴿يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾	٧	١٤٨
﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ﴾	٤٣	١٢٥

الشعرا.

﴿وَأَرْزِلْ فِى الْجَنَّةِ لِلْمُتَّقِينَ﴾	٩٠	١٩٩
﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾	١٠٧	١٦١
﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ﴾	٨٨-٨٩	٣٥٤

القصص

﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُوا أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾	٨٦	١٧٠
﴿وَأَبْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ﴾	٧٧	٢٧٨ و ٣٥٨

الآية	رَقْمُهَا	الْصَّفْحَةُ
الزُّوم		
﴿وَيُؤْمَلِكُ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ﴾	٥ - ٤	٨٤
﴿فَظَرَّتْ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ﴾	٣٠	٣٠٧ و ٣٠

لُثْمَان		
﴿يَبْنِيْ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ﴾	١٦	١٧٤

السَّخْدَةُ		
﴿يُدْبِرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾	٥	٣٤٣

الْأَخْزَاب		
﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولٌ﴾	٤٠	٣٠٣
﴿يَنْبِئُ النَّبِيَّ لَسْتَنْ كَأَحَدٍ مِنَ الْنِّسَاءِ﴾	٣٢	٤٧

سَبَا		
﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي﴾	٣	٣٢٨
﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾	٦	٧٦

فَاطِر		
﴿يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾	٢٨	٣٢٨

الآية	رَقْمَهَا	الصَّفْحَة
﴿إِنَّ اللَّهَ يُمِصُّكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ﴾	٤١	٧٧

يُس

﴿قُلْ يُخْبِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾	٧٩	١٩٢
﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا﴾	٣٣	١٣٩
﴿قَالَ مَنْ يُخِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُخْبِيهَا الَّذِي﴾	٧٨ - ٧٩	٣٣٢
﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾	٨٣	١٤٥ و ٣٣٨
﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾	٨٢	٤٨ و ٣١٦
﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى﴾	٨١	٣١٧
﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾	٣٨	٧٧

الضافات

﴿فَاتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾	١٥٧	١٧٥
--	-----	-----

الرُزْم

﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾	٦	٣٣١
---	---	-----

غافر

﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ﴾	٦٠	٤٣١
﴿مِنْهُمْ مَّنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَّمْ نَقْصُصْ﴾	٧٨	١٥٧

الآيَة	رَقْمَهَا	الصفحة
فُجِّلَتْ		
﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾	٤٦	٤٣٩
﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾	٤٢	٨٢ و ٧٩
		٢٠٦
﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ﴾	٦	٢٦٠

الشورى

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾	٤٨	٢٧٨
﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾	١١	١٧٣ و ٤٧

الرؤف

﴿فَأَنَّا أَوَّلَ الْعَبْدِينَ﴾	٨١	١٤٥
---------------------------------	----	-----

الجنات

﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾	٢٤	٣١٦
---	----	-----

الأخفاف

﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾	٩	١٦٦
--	---	-----

الآية	رقمها	الصفحة
مخفد		
﴿مِثْلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَرُ مِنْ مَاءٍ﴾	١٥	٤٨٢
﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾	٨-٧	١٥٥
﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَا بَغْضَكُمْ﴾	٤	١١٩
﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ الْقُرْآنِ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾	٢٤	٧٦

الخبرات

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾	١٣	٢٧٧
--	----	-----

الذاريات

﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾	٤٩	٧٧
---	----	----

الطور

﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾	٧-٦	٣٤٥
--	-----	-----

النجم

﴿وَلَقَدْ يَسْرَنَّا الْقُرْآنَ أَنْ لِيَذَّكَّرَ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾	٤٠	٣٨٤
﴿أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾	١	٣٤٤

رَقْمَهَا الصَّفْحَة

الآيَة

الرَّحْمَنُ

٦٤ ٢٢١ و ٢٢٢

﴿مُذْهَبًا مَّتَانٍ﴾

الْخَبِيدُ

٢٠ ٤٧٩

﴿وَفِي الْأَخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾

الْمُجَادِلَةُ

٢٢ ٣٦٠

﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ

١١ ٧٤

﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾

الْمُفْتَحَةُ

٨ ٢٠٧

﴿لَا يَنْهَنُكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتُلُواكُمْ فِي الدِّينِ﴾

١ ٢٩٢

﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ﴾

الْصَّف

٣ ٣٥٥

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾

١٠-١١ ٣٥٣

﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَدْلَكُم عَلَى بَجَرَةٍ﴾

الْجُمُعَة

٨٥

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ﴾

الآية	رقمتها	الصفحة
التخريم		
﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبًا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾	٨	٤٣٢
الملك		
﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي﴾	١٦	٢٩٦
النجم		
﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾	٤	١٥٠
المنارج		
﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ﴾	٤	٣٤٣
المذير		
﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾	٣٨	٣٢٣
﴿يَتَأْتِيهَا الْمُدِيرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثَنَابَكَ فَطَهِّرْ﴾	٥-١	١٨٢
التكوير		
﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾	٦	٣٤٥

الآية	رَقْمُهَا	الصفحة
الْإِنْفِطَارُ		
﴿إِنَّ الْأُبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾	١٣ - ١٤	٣٥٥
﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾	٣	٣٤٥
الْمُطَفِّفِينَ		
﴿جَحَنَّمُهُ مِمْسَكَ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾	٢٦	٤٨٤
الْإِنْشِقَاقُ		
﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ وَإِذَا﴾	١ - ٥	٣٤٥
الْغَاشِيَةِ		
﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾	٢١ - ٢٢	٢٧٨
الْإِعْلَاقُ		
﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾	١٦ - ١٧	٣٥٧
الْفَجْرِ		
﴿يَتَأْتِيَنَّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ أَرْجَعِي إِلَىٰ رَبِّكَ﴾	٢٧ - ٢٨	٣٤٣

الآية	رَقْمَهَا	الصفحة
العلق		
﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾	١ - ٥	١٧٢
﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾	١	١٨٤

البقرة		
﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾	٥	٢٥

المائدة		
﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾	٦	٣٢١

الاحزاب		
﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾	٤ -	٢٧٧

فَهْرَسُ الْأَحَادِيثِ

الصفحة	طَرَفُ الْحَدِيثِ
١٩	أَصْلُ دِينِي الْعَقْلُ
٢٤	لَيْسَ بِعَاقِلٍ مَنْ أَنْزَعَ بِقَوْلِ الزُّورِ فِيهِ
٢٤	أَعْمَلُوا كُلَّ مُيسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ
٤٦	تَكَلَّمُوا فِي خَلْقِ اللَّهِ، وَلَا تَكَلَّمُوا فِي اللَّهِ
٣٠٧ و ٧٤	إِنَّمَا بُعِثْتُ تُتِمِّمُ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ
٧٤	بُعِثْتُ بِالْحَقِيقَةِ السَّهْلَةِ السَّمْحَةِ!
٧٥	الْعِلْمُ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ
٢٩٨ و ٧٥	أَطْلُبُوا الْعِلْمَ وَلَوْ بِالصَّيْنِ
٧٥	مَعْرِفَةُ الْعِلْمِ دِينٌ يُدَانُ بِهِ
٧٦	أَعْلَمَ النَّاسُ مَنْ جَمَعَ عِلْمَ النَّاسِ إِلَى
٨٨	مَا رَأَيْتُ شَيْئًا إِلَّا رَأَيْتُ اللَّهَ قَبْلَهُ
١٢٢	أَنَا دُونَ مَا تَقُولُ، وَفَوْقَ مَا فِي نَفْسِكَ
١٢٢	فَإِنِّي لَسْتُ فِي نَفْسِي بِفَوْقٍ أَنْ أُخْطِئَ
١٥٠	مَا أَحَبُّ أَنْ يَكُونَ لِي مِثْلُ أَحَدٍ ذَهَبًا أَنْفَقَهُ
١٥١	كُنَّا إِذَا أَحْمَرَّ النَّبَأُ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ

الصفحة	طَرَفُ الْحَدِيثِ
١٥٢	لَقَدْ رَأَيْنَا يَوْمَ بَدْرٍ وَنَحْنُ نَكُودُ بِرَسُولِ
١٥١	خَيْرِ الْأُمُورِ أَوْسَطُهَا - أَوْسَطُهَا
١٥١	لَيْسَ خَيْرُكُمْ مَنْ تَرَكَ الْحَيَاةَ، وَطَبِيعَتَهَا
١٥١	لَيْسَ خَيْرُكُمْ مَنْ تَرَكَ الدُّنْيَا لِلْآخِرَةِ
١٥٢ و ٣٥٨	الْمُؤْمِنِ الْقَوِي خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ
١٥٢	مَا بَالَ أَقْوَامٌ قَالُوا كَذًا وَكَذًا، لَكِنِّي أَصْلِي
١٥٣	أَنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَا
١٥٣	تَدْمَعُ الْعَيْنُ، وَيَحْزَنُ الْقَلْبُ فَلَا نَقُولُ مَا
١٥٦	يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ مَا تَطْلُبُونَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ؟
١٥٩	إِنَّمَا مِثْلِي وَمِثْلُ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي كَمِثْلِ رَجُلٍ
١٧٠	أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا مِمَّنْ لَا يُوزَنُ بِهِ شَيْءٌ
١٧٧	رُبَّمَا كَانَ الدَّوَاءُ دَاءً، وَالدَّاءُ دَاءً
١٧٧	وَدَاوَنِي بِالتِّي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ
١٧٩	مَا بَالَ أَقْوَامٌ يَفْعَلُونَ كَذًا وَكَيْتُ
١٧٩	مَا حَمَلَكَ عَلَى هَذَا؟
١٨٠	أَلَمْ تُهْدِهِ لَنَا؟
١٨٠	أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، وَلَا تَعُدْ إِلَيَّ مِثْلَهَا
١٨٠	يُغْنِيكَ اللَّهُ بِمَا يُغْنِي الْمُؤْمِنِينَ
١٨١	وَاللَّهُ مَا عَلَى رَجُلٍ الْأَرْضُ مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ
١٨٢	أَوْ مُخْرَجِي هُم؟

الصفحة

طرف الحديث

- ١٨٢ سيدخل عليكم من هذا الباب رجل
١٨٣ كف آذاك عن الناس فإنه صدقة
١٨٣ ينس الرأ إلى المعاري العذوان
١٨٣ أسوأ الناس حالاً من لم يتق بأحد لسوء
١٨٤ ورُب بعيد أقرب من قريب، وقريب أغف
١٨٤ ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم
١٨٧ ما جالس هذا القرآن أحد الإقام عنه
١٨٧ مثل ما بعثني الله به من الهدى والبعث
١٨٧ اتقوا الله في هذه البهائم أطعموها
١٨٨ أرود إليها ولدها
١٨٨ الرفق يمن، والخرق شوم
١٨٨ المثلة حرام حتى بالكلب العقور
١٨٩ خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم
١٨٩ من كان له صبي فليستصاب له
١٩٠ لا تغضب فكرر السؤال، ولكن الجواب له
١٩٠ فالمسلم من سلم المسلمون من نسيه
١٩٠ تطعم الطعام، وتقرىء السلام على من
١٩٧ يا أهل القليب، يا عتبة بن ربيعة، يا شينة
١٩٩ إذا قبض الله أرواح المؤمنين صبي هذا
١٩٩ أقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم

الصفحة	طَرَفُ الْخَبِيثِ
١٩٩ و ٣٥٥	مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ
٢٠٠	أَلَا وَمَنْ أَكَلَهُ الْحَقُّ فَإِلَى الْجَنَّةِ
٢٠٢	كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ سَبِيلُهَا
٢٠٢	إِذَا رَأَيْتُمْ أَهْلَ الْبِدْعِ مِنْ بَعْدِي فَأَظْهَرُوا
٢٠٢	مَنْ تَبَسَّمَ فِي وَجْهِ مُبْتَدِعٍ فَقَدْ أَعَانَ
٢٠٢ و ٢٠٤	أَحْبَبُوا أَعْدَاءَكُمْ، بَارَكُوا لِأَعِينِكُمْ
٢٠٤	الْحَلَالَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ، وَالْحَرَامَ مَا حَرَّمَ
٢٠٤	أَحْبَبُوا أَعْدَاءَكُمْ، بَارَكُوا لِأَعِينِكُمْ، أَحْسَنُوا
٢٠٥	أَنْ دَمَ الْمَسِيحُ عَلَى الْيَهُودِ وَأَوْلَادُهُمْ
٢٠٧ و ٢٩٩	وَمَنْ خَرَجَ قَيْدَ شَيْبَرٍ عَنِ الْجَمَاعَةِ فَقَدْ خَلَعَ
٢٠٧	وَمَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ مَاتَ مَيِّتَةً
٢١١	عَمَّارٌ تَقْتُلُهُ الْفِئَةُ الْبَاغِيَّةُ
٢١١	أَمَا إِنَّكَ سَتُقَاتِلُ عَلِيًّا، وَأَنْتَ لَهُ ظَالِمٌ
٢٢٨	أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ، وَكَمَالُ مَعْرِفَتِهِ
٢٣٠	أَسْتَنْزِلُوا الرِّزْقَ بِالصَّدَقَةِ
٢٣٠	إِذَا أُمِّلَقْتُمْ فَتَاجِرُوا اللَّهَ بِالصَّدَقَةِ
٢٣١	فَإِنَّ الْعَبْدَ إِنَّمَا يَكُونُ حَسَنُ ظَنٍّ بِرَبِّهِ
٢٣١	مَنْ يَلِي حِسَابَ الْخَلْقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟
٢٣٢	لَا يَصْدُقُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَكُونَ
٢٣٢	لَوْ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى كِتَابًا إِنَّهُ مُعَذِّبٌ رَجُلًا

الصفحة	طَرْفُ الْحَدِيثِ
٢٣٢	وَعِزَّتِي وَجَلَالِي إِنِّي لَا أَتَقْبِلُ الصَّلَاةَ إِلَّا
٢٣٢	أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ كَرِهَ إِلْحَاحَ النَّاسِ بَعْضُهُمْ
٢٣٣	فَوَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ
٢٣٤	لَعَلَّكَ ظَنَنْتَ قَصَاءَ لَازِمًا، وَقَدْرًا خَاتِمًا
٢٣٤	وَيَحْكُ! لَعَلَّكَ ظَنَنْتَ قَصَاءَ لَازِمًا، وَقَدْرًا
٢٣٧	لَا جَبْرَ وَلَا تَفْوِيضَ بَلْ أَمْرٌ بَيْنَ
٢٦١	إِنَّمَا بُعِثْتُ تَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ
٢٧٧ و ٢٠٧	أَيُّهَا النَّاسُ رَبِّكُمْ وَاحِدٌ، وَأَبُوكُمْ وَاحِدٌ
٢٧٩ و ٣٥٤	أَعْمَلْ لِدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَدًا
٢٧٩	لَوْ وَضَعْتَ الشَّمْسُ فِي يَمِينِي، وَالْقَمَرُ
٢٨٠	لَا تَطْرُقُونِي كَمَا أَطْرَقَ النَّصَارَى عِيسَى
٢٨٠	هُوَ عَلَىكَ، فَإِنِّي أَبْنُ أَمْرَأَةٍ كَانَتْ تَأْكُلُ
٢٨٠	لَا تَقُومُوا إِلَيَّ كَمَا يَقُومُ الْأَعَاجِمُ
٢٨١	أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ جَلَدْتُ لَهُ ظَهْرًا فَهَذَا
٢٨٣	اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَعْتَنَيْتَنِي عَلَى خَتْمِ كِتَابِكَ
٢٩٢	مَا حَاجَجْتُ جَاهِلًا إِلَّا حَجَنِي
٢٩٦	لَيْسَ مِنِّي إِلَّا عَالِمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ
٢٩٧	مَنْ ظَنَّ أَنَّ لِلْعِلْمِ غَايَةَ فَقَدْ بَخَسَهُ
٢٩٧	لَيْسَ الْحَسَدُ مِنَ خُلُقِ الْمُؤْمِنِ إِلَّا
٢٩٧	مُجَالَسَةُ الْعُلَمَاءِ عِبَادَةٌ

الصفحة	أحاديث
٢٩٧	عالم ينتفع بعلمه أفضل من سبعين
٢٩٧	احسد في طلب العلم من خلق
٢٩٧	دا علم لا ينفع من غممه، ولا يضر
٢٩٨	الحكمة ضالة المؤمن، فخذ الحكمة
٢٩٨	خذ الحكمة، ولا يضررك من أي وعاء
٢٩٨	خذ الحكمة أنى كانت، فإن الحكمة
٢٩٩	لا تجمعوا ما لا تأكلون، ولا تبثوا
٢٩٩	من سره بحبوبة الجنة فليزم
٣٠٠	ومن خرج قيد شبر عن الجماعة فقد خلم
٣٠٠	ومن عارق الجماعة مات ميتة
٣٢١	بين الناس عبيد الدنيا، والذين يعق
٣٢٣	ملككم راع، وخل راع مسؤول
٣٢٤	يسأل العبد غدا عن عمره فيما أفناه
٣٢٧	إذا أردت أن تعصي الله جل وعز فلا تأكل
٣٢٨ و ٤٥٦	سبحانك أخشى خلقك لك أعلمهم
٣٢٨	لعلماء أمناء الله على خلقه
٣٤١	العلم مقرون بالعمل، فمن عَمِل عَمِل
٣٤١	الحباء والذين مع العقل حيث كان
٣٤٢	معرفة رأس مالي، والعقل أصل ديني
٣٤٦	حتى إذا بلغ الكتاب أجله

الصفحة	طريف الحديث
٣٥٤	إِنَّ أَهْلَ الْمَعْرُوفِ فِي الدُّنْيَا هُمْ أَهْلُ
٣٥٤	الله فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ
٣٥٤	خَيْرِ النَّاسِ مَنْ أَنْتَفَعَ النَّاسُ بِهِ
٣٥٥	مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْماً
٣٥٥	مَنْ كَتَمَ عِلْماً جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
٣٥٥	مَنْ لَقِيَ النَّاسَ بِوَجْهَيْنِ وَلِسَانَيْنِ جَاءَ يَوْمَ
٣٥٦	يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ عَلَى هَيْئَةِ الذَّرِّ يَطَّأُهُمْ
٣٥٦	مَنْ خَافَ النَّاسَ مِنْ لِسَانِهِ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ
٣٥٦	إِنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرْفاً يَرَى ظَاهِرَهَا مِنْ بَاطِنِهَا
٣٥٧	إِنَّ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عُدْوَانٌ مُتَقَاوِمَانِ
١٥١ و ٣٥٨	لَيْسَ خَيْرُكُمْ مَنْ تَرَكَ الْحَيَاةَ، وَطَبِيعَتُهَا
١٥١ و ٣٥٨	لَيْسَ خَيْرُكُمْ مَنْ تَرَكَ الدُّنْيَا لِلْآخِرَةِ
٣٥٨	الْمُؤْمِنِ الْقَوِي خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَيَّ اللهُ
٣٥٩	طَلَبَ الدُّنْيَا مُكَاثِراً مُفَاخِراً لَقِيَ اللهُ
٣٦٠	حُبَّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ
٣٦٠	مِثْلُ الْحَرِيصِ عَلَى الدُّنْيَا كَمِثْلِ دُوْدَةِ الْقَرَى
٣٦٠	الرَّبُّ مَسْحَنِي لِأَبْشَرِ الْمَسَاكِينِ وَأَرْسَلَنِي
٣٦٢	وَلَوْ شِئْتُ لَاهْتَدَيْتُ الطَّرِيقَ، إِلَى مُصَفًى
٣٦٢	الدُّنْيَا مَنْزِلُ صِدْقٍ لِمَنْ صَدَقَهَا، وَمَسْكَنُ
٣٦٣	وَمَتَجَرُّ أَوْلِيَائِهِ، أَكْتَسَبُوا فِيهَا الرَّحْمَةَ

الصفحة

طُرُفُ الْحَدِيثِ

- ٣٦٥ أَنْ عَبْدًا أَذْنَبَ فَاسْتَغْفَرَ اللَّهَ، فَغَفَرَ لَهُ ثُمَّ
- ٣٦٦ مَنْ مَاتَ عَلَى التَّوْحِيدِ لَمْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ غَيْرُهُ
- ٣٨٤ عَرَفْتُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بِفَسْخِ الْعَزَائِمِ
- ٤٠٨ عَبْدِي أَطْعَمَنِي تَكُنْ مَثْلِي، تَقُولُ لِلشَّيْءِ
- ٤٠٩ لَيْسَ فِي الْجَنَّةِ شَيْخٌ وَلَا عَجُوزٌ
- ٤٢٢ أَهْلُ الْمَعْرُوفِ فِي الدُّنْيَا أَهْلُ الْمَعْرُوفِ
- ٤٢٣ مَا كَانَ عَلَيْكَ لَوْ سَكَتَ
- ٤٢٥ مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ، فَلَمْ يَفْعَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ
- ٤٢٦ مَنْ لَا يَرْحَمَ لَا يَرْحَمَ
- ٤٢٧ لَا يَجِبُ لِأَحَدٍ أَنْ تَغْفِرَ لَهُ بِإِسْتِحْقَاقِهِ
- ٤٣١ فَسَمِيتُ دُعَاءَكَ عِبَادَةً، وَتَرَكْتُ أَسْتِكْبَاراً
- ٤٣٢ اَللّٰهُمَّ هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ بِكَ، وَمَحَلُّ الْمُعْتَزِّ بِ
- ٤٣٢ يَا حَلِيمُ أَنْتَ الَّذِي فَتَحْتَ لِعِبَادِكَ بَاباً
- ٤٣٧ وَخَلَّصَنِي مِنَ الْحَسَدِ
- ٤٣٨ اَللّٰهُمَّ وَإِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِي بِالتَّوْبَةِ
- ٤٣٨ وَأَرْزُقْنِي الرِّغْبَةَ فِي الْعَمَلِ لَكَ لِأَخِرَتِي،
- ٤٤٠ رُفِعَ عَنِّ أُمَّتِي تِسْعَةٌ: الْخَطَأُ، وَالنَّسْيَانُ،
- ٤٤١ وَأَرْزُقْنِي التَّحَفُّظَ مِنَ الْخَطَايَا، وَالْإِحْتِرَاسَ
- ٤٤١ مُؤَثِّرًا لِرِضَاكَ عَلَى مَا سِوَاهُمَا فِي الْأَوَّلِيَاءِ
- ٤٤٢ وَضَعَ عَنَّا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ، وَلَمْ يُكَلِّفْنَا

الصفحة	طريف الحديث
٤٤٣ و ٤٤٥	وَأَكْفَيْنَا طُولَ الْأَمَلِ، وَقَصَّرَهُ عَنَّا بِصِدْقِ
٤٤٤	فُرْتُ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ
٤٤٤	وَاللَّهُ لَأَبْنُ أَبِي طَالِبٍ أَنَسُ بِالْمَوْتِ
٤٤٦	وَأَقْبَضَ عَلَى الصَّدْقِ نَفْسِي، وَأَقْطَعَ مِنْ
٤٤٨	وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَكَّبَ فِينَا آلَاتِ الْبَسْطِ،
٤٥٠	فَأَمَّا الْعَاصِي أَمْرَكَ، - الْخِطَابَ لِلَّهِ جَلَّ
٤٥٠	وَأِنْ أَهْلَكْتَنِي فَمَنْ ذَا الَّذِي يَغْرِضُ لَكَ
٤٥٣	وَأِنْ جَانِبُ مِنْهَا أَعْدَوْدَبَ، وَأَخْلَوْنِي
٤٥٥	اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى حُسْنِ قَضَائِكَ
٤٥٦	سُبْحَانَكَ أَخْشَى خَلْقِكَ لَكَ أَعْلَمُهُمْ بِكَ
٤٥٧	الصَّلَاةَ عَمُودَ الدِّينِ
٤٥٧	وَقَفْنَا فِيهِ عَلَى مَوَاقِيتِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ
٤٦٠	يَا إِلَهِي لَوْ بَكَيْتُ إِلَيْكَ حَتَّى تَسْقُطَ أَشْفَارُ
٤٦٠ و ٤٦٢	ثُمَّ لَمْ أَرْفَعْ طَرْفِي إِلَى آفَاقِ السَّمَاءِ
٤٦١	يَفْعَلُونَ مَا يَقُولُونَ، وَلَا يَقُولُونَ مَا لَا
٤٦٢	سُبْحَانَكَ مَا عَبْدُكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ
٤٦٢	ثُمَّ لَمْ أَرْفَعْ طَرْفِي إِلَى آفَاقِ السَّمَاءِ
٤٦٢	سَيِّئَةٌ تَسُوءُكَ خَيْرٌ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ حَسَنَةٍ
٤٦٢	أَنَّ الذَّنْبَ خَيْرٌ لِلْمُؤْمِنِ مِنَ الْعُجْبِ
٤٦٣	الْعُجْبُ كُلُّ الْعُجْبِ حَبَّةُ الْكُفْرِ

الصفحة	طَرَفُ الْحَدِيثِ
٤٦٥	أَيُّكُونُ الْمُؤْمِنُ جَبَانًا؟
٤٦٥	لَا يَجِدُ عَبْدٌ طَعْمَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَتْرَكَ
٤٦٥	الْإِيمَانَ أَنْ تُؤَيِّرَ الصَّدَقَ حَيْثُ يَضُرُّكَ
٤٦٨	لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ
٤٦٨	لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ مَنْ لَمْ يَأْمَرْ جَارَهُ بِوَائِقِهِ!
٤٦٨	اللَّهُمَّ إِنِّي أَتُوبُ إِلَيْكَ فِي مَقَامِي هَذَا
٤٦٩	الْمُؤْمِنُ لَا يَكُونُ كَذَابًا
٤٧٢	فَإِنِّي لَمْ أَصِْبْ خَيْرًا قَطُّ إِلَّا مِنْكَ
٤٧٢	إِلَهِي، لَمْ أَتِكَ بِثِقَةٍ مِنِّي بِعَمَلٍ صَالِحٍ قَدَّمْتُهُ
٤٧٣	وَاللَّهِ لَوْ تَطَاهَرَتِ الْعَرَبُ عَلَى قِتَالِي لَمَّا
٤٧٤	إِلَهِي إِنْ رَفَعْتَنِي فَمَنْ ذَا الَّذِي يَضْعُونِي؟
٤٧٥	اللَّهُمَّ يَا مُنْتَهَى مَطْلَبِ الْحَاجَاتِ
٤٧٧	أَنْتَ الَّذِي زِدْتَ فِي السُّؤْمِ عَلَى نَفْسِكَ
٤٧٧	لَا مَالَ أَعُوذُ مِنَ الْعَقْلِ، وَلَا وَحْدَةً أَوْحَشُ
٤٧٩	مَوْلَايَ وَأَرْحَمَنِي إِذَا أَنْقَطَعَ مِنَ الدُّنْيَا
٤٨٠	اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ نَارٍ تَغْلُظُ بِهَا
٤٨٠	نَارٌ شَدِيدٌ كُلُّبُهَا، عَالٍ لَجْبُهَا، سَاطِعٍ لَهْبُهَا
٤٨١	الْإِيمَانُ عَلَى أَرْبَعِ دَعَائِمَ: عَلَى الصَّبْرِ
٤٨٢	فَمَنْ أَسْتَأْثَقَ إِلَى الْجَنَّةِ سَلَا
٤٨٣	اللَّهُمَّ لَا تُعْرِضْ عَنِّي إِعْرَاضَ مَنْ لَا تَرْضَى

الصفحة

طريف الحديث

٤٨٣

وَإِذَا وَجَدْتَ مِنْ أَهْلِ الْفَاقَةِ مَنْ يَحْمِلُ لَكَ

٤٨٣

وَطَيْبٍ بِقَضَائِكَ نَفْسِي، وَوَسَّعَ بِمَوَاقِعِ

٤٨٦

لَوْ ضَرَبْتُ خَيْشُومَ الْمُؤْمِنِ بِسَيْفِي هَذَا

٤٨٧

يَا عَلِيَّ، لَا يَبْغِضُكَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يُحِبُّكَ

٤٨٧

وَالْبَيْسَ قَلْبِي الْوَحْشَةَ مِنْ شِرَارِ خَلْقِكَ

٤٨٧

وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ فِيكَ خَيْرًا، فَانْظُرْ

٤٨٨

اللَّهُمَّ وَلِيَّ إِلَيْكَ حَاجَةٌ قَدْ قَصَّرَ عَنْهَا

٤٨٨

وَسَوَّلْتُ لِي نَفْسِي رَفَعَهَا إِلَى مَنْ يَرْفَعُ

٤٩٠

إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا أَسْتَعْنَتْ فَاسْتَعْنِ

٤٩٤

الْوُقُوفَ عِنْدَ الشُّبُهَةِ خَيْرٌ مِنَ الْإِقْتِحَامِ

٤٩٧

مَنْ آذَى جَارَهُ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ رِيحَ الْجَنَّةِ

٤٩٩

وَأَرْزُقْنِي مِثْلَ ذَلِكَ مِنْهُمْ، وَاجْعَلْ لِي أَوْفَى

٥٠١

مَنْ رَأَى أَنَّهُ مُسِيءٌ فَهُوَ مُحْسِنٌ

٥٠١

النَّدَمُ تَوْبَةٌ

٥٠١

أَشَدُّ الذُّنُوبِ مَا اسْتَهَانَ بِهِ صَاحِبُهُ

٥٠١

لَا صَغِيرَةَ مَعَ إِضْرَارٍ، وَلَا كَبِيرَةَ

٥٠٢

وَمَنْ أَرَادَنِي بِسُوءٍ فَأَصْرِفْهُ عَنِّي

٥٠٢

فَمَا هُمُكَ، وَشُغْلُكَ بِأَعْدَاءِ اللَّهِ؟

٥٠٢

لَا يَسْتَقِيمُ قَضَاءُ الْحَوَائِجِ إِلَّا بِثَلَاثٍ

٥٠٢

يَا بَنِيَّ اجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَانًا فِيمَا بَيْنَكَ

الصفحة

طُرِفَ الْحَدِيثُ

٥٠٣

فَأُحِبُّ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ

٥٠٤

أَجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَانًا فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ

٥٠٥

الْمُؤْمِنِ أَكْثَمُ حُرْمَةً مِنَ الْكَعْبَةِ

فَهْرَسُ الْمَصَادِرِ الْمَطْبُوعَةِ وَالْمَخْطُوطَةِ

١. الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، كِتَابُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْحَيِّ الْقَيُّومُ.

خَرْفُ الْأَلْفِ

٢. الْإِتْحَافُ بِحُبِّ الْأَشْرَافِ، لِلشَّيْخِ الرَّافِعِيِّ (ت ١١٧٢ هـ ق)، تَحْقِيقُ: مُحَمَّدُ جَابِرٍ، الْمَطْبَعَةُ الْهِنْدِيَّةُ الْعَرَبِيَّةُ ١٢٥٩ هـ وَطَبْعَةُ - مَضَر ١٣١٣ هـ، وَأَعِيدَ طَبْعُهُ فِي - إِيْرَانِ ١٤٠٤ هـ

٣. الْأَخْبَارُ الطَّوَالُ، لِأَحْمَدَ بْنِ دَاوُدَ الدِّينَوْرِيِّ (أَبُو حَنِيفَةَ ت ٢٨٢ هـ) تَحْقِيقُ: عَبْدُ الْمُنْعَمِ عَامِرٍ. طَبْعَةُ دَارِ الْمَسِيرَةِ - بَيْرُوتَ، طَبْعَةُ دَارِ إِحْيَاءِ الْكُتُبِ الْعَرَبِيَّةِ سَنَةِ (١٩٦٠ م).

٤. الْإِخْتِصَاصُ، الْمُنْسُوبُ لِمُحَمَّدَ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ النُّعْمَانِ الْعُكْبَرِيِّ الْمَعْرُوفِ بِالشَّيْخِ الْمُفِيدِ، نَشَرُ جَمَاعَةُ الْمُدَرِّسِينَ. قُمْ: إِيْرَانِ.

٥. الْإِسْتِبْصَارُ فِي نَسَبِ الصَّحَابَةِ مِنَ الْأَنْصَارِ، عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ مُوْفِقُ الدِّينِ أَبْنِ قُدَامَةَ (ت ٦٢٠ هـ). تَحْقِيقُ: عَلِيٌّ نَوِيْهَضُ. طَبْعَةُ بَيْرُوتَ.

٦. الْإِسْتِيعَابُ فِي مَعْرِفَةِ الْأَضْحَابِ، يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدَ الْقُرْطَبِيِّ أَبُو عُمَرَ الْمَشْهُورُ بِأَبْنِ عَبْدِ الْبَرِّ السَّمَرِيِّ، (ت ٤٦٣ هـ). تَحْقِيقُ: عَلِيٌّ مُحَمَّدٌ مَعُوضُ دَارِ الْكُتُبِ الْعِلْمِيَّةِ. بَيْرُوتَ - لُبْنَانِ. وَتَحْقِيقُ عَلِيٌّ الْبَجَاوِيُّ. طَبْعَةُ الْقَاهِرَةِ

وَبِهَامَشِ الإِصَابَةِ .

٧. أَسَدُ الْغَايَةِ فِي مَعْرِفَةِ الصَّحَابَةِ ، لِأَبِي الْحَسَنِ عِزِّ الدِّينِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي الْكَرَمِ مُحَمَّدَ ابْنِ مُحَمَّدَ بْنِ عَبْدِ الْكَرِيمِ الشَّيْبَانِيِّ الْمَعْرُوفِ بِأَبْنِ الْأَثِيرِ الْجَزْرِيِّ (ت ٦٣٠ هـ ق) ، تَحْقِيقٌ : مُحَمَّدُ إِبرَاهِيمَ ، طَبْعَةٌ - الْقَاهِرَةُ ١٣٩٠ هـ ، وَطُبِعَ بِالْأُفْسْتِ فِي الْمَكْتَبَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ لِلْحَاجِّ رِيَّاضَ ، وَطُبِعَ الْمَطْبَعَةُ الْوَهْبِيَّةُ بِمَضَرَ .

٨. الإِصْبَاحُ عَلَى الْمَصْبَاحِ فِي مَعْرِفَةِ الْمَلِكِ الْفَتَّاحِ ، الْإِمَامِ النَّاصِرِ لِدِينِ اللَّهِ إِبرَاهِيمَ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ أَحْمَدَ الْمُؤَيَّدِي ، تَحْقِيقٌ : السَّيِّدُ الْعَلَّامَةُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ حُسَيْنِ شَايَمَ ، طُبِعَ مُؤَسَّسَةُ الْإِمَامِ زَيْدِ الثَّقَافِيَّةِ .

٩. الْإِمَامُ زَيْدُ حَيَاتِهِ وَعَصْرِهِ وَآرَاؤُهُ وَفِقْهُهُ . مُحَمَّدُ أَبُو زُهْرَةَ . الْمَكْتَبَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ . بَيْرُوتُ - لُبْنَانُ .

١٠. الْإِشْرَافُ عَلَى فَضْلِ الْأَشْرَافِ ، لِإِبْرَاهِيمَ الْحَسَنِيِّ الشَّافِعِيِّ السَّمْعُودِيِّ الْمَدَنِيِّ تَحْقِيقٌ : سَامِي الْغُرَيْرِي ، طُبِعَ دَارُ الْكِتَابِ الْإِسْلَامِيِّ .

١١. الإِصَابَةُ فِي تَمْيِيزِ الصَّحَابَةِ ، مُحَمَّدُ بْنُ حَبِيبِ الْبَغْدَادِيِّ . طَبْعَةٌ مَوْلَايَ عَبْدِ الْحَفِيفِ . الْقَاهِرَةُ (١٣٢٨ هـ) .

١٢. الإِصَابَةُ فِي تَمْيِيزِ الصَّحَابَةِ ، (بِهَامَشِ الْإِسْتِيعَابِ لِابْنِ عَبْدِ الْبَرِّ) . أَحْمَدُ ابْنُ حَجَرٍ الْعَسْقَلَانِيُّ (٧٧٣ - ٨٥٢ هـ) . دَارُ الْعُلُومِ الْحَدِيثَةِ . وَطُبِعَاتُ أُخْرَى لِأَحَقَّةِ .

١٣. الْأَعْلَامُ ، قَامُوسُ تَرَاجِمٍ لِأَشْهُرِ الرُّجَالِ ... خَيْرُ الدِّينِ بْنِ مَحْمُودَ بْنِ مُحَمَّدَ ابْنِ عَلِيٍّ بْنِ فَارَسَ ، أَيْلُولُ سِبْتَمْبَرِ ١٩٩٢ م دَارُ الْعِلْمِ بَيْرُوتُ - لُبْنَانُ .

١٤. أَعْلَامُ النِّسَاءِ ، عُمَرُ رِضَا كَحَالَةَ سَنَةِ (ت ١٤١٣ هـ) مُؤَسَّسَةُ الرِّسَالَةِ بَيْرُوتُ - لُبْنَانُ .

١٥. الْأَغَانِي ، لِأَبِي الْفَرَجِ الْإِصْبَهَانِيِّ (ت ٣٥٦ هـ) ، تَحْقِيقٌ : خَلِيلُ مُحْيِي

الدِّين دَارِ الْكُتُبِ الْمَصْرِیَّةِ، الطَّبَعَةُ الْأُولَى ١٣٥٨ هـ، وَكَذَا طَبَعَةُ دَارِ الْفِكْرِ بَیْرُوتَ عَامَ (١٤١٢ هـ).

١٦. أَمَالِي الْمُرْتَضَى، عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ الْقَلَوِيِّ، طَبَعَةُ مَصْرَ عَامَ ١٣٢٥ هـ.
- ١٩٠٧ م بِتَحْقِيقِ / مُحَمَّدٍ أَبُو الْفَضْلِ إِبْرَاهِيمَ، دَارُ الْكِتَابِ الْعَرَبِيِّ - بَیْرُوتَ، لُبْنَانُ.
١٧. أَمَالِي الشَّيْخِ الطَّوْسِيِّ، لِأَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدَ بْنِ أَحْسَنِ الطَّوْسِيِّ مَنْشُورَاتُ الْمَكْتَبَةِ الْأَهْلِيَّةِ، أَوْفَسِيَّتْ مَكْتَبَةُ الدَّائِرِيِّ، قُمْ - إِيْرَانُ، وَالْمَطْبَعَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ، طَهْرَانَ ١٤٠٤ هـ وَطَبَعَةُ مُؤَسَّسَةِ الْبَحْثِ دَارُ الثَّقَافَةِ قُمْ ١٤١٤ هـ.
١٨. الْإِمَامَةُ وَالسِّيَاسَةُ، لِأَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ مُسْلِمٍ الْمَعْرُوفِ بِأَبْنِ قُتَيْبَةَ الدِّيْنُورِيِّ (ت ٢٧٦ هـ)، مَكْتَبَةُ وَمَطْبَعَةُ مُصْطَفَى بَابِي الْحَلْبِيِّ، مَصْرَ ١٣٨٨ هـ.
١٩. السِّيْرَةُ الْحَلْبِيَّةُ (إِنْسَانُ الْعُيُونِ فِي سِيْرَةِ الْأَمِينِ الْمَأْمُونِ)، عَلِيِّ بْنِ بُرْهَانَ الشَّافِعِيِّ الْحَلْبِيِّ، دَارُ الْفِكْرِ الْعَرَبِيِّ بَیْرُوتَ ١٤٠٠ هـ.
٢٠. الْأَنْسَابُ، عَبْدِ الْكَرِيمِ مُحَمَّدَ السَّمْعَانِيِّ (ت ٥٦٢ هـ)، طَبَعَةُ لَيْدِنَ، وَبِتَحْقِيقِ: عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمَعْلَمِيِّ الْيَمَانِيِّ، طَبَعَةُ - بَیْرُوتَ، الطَّبَعَةُ الْأُولَى ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م دَارُ الْجَنَانِ بَیْرُوتَ - لُبْنَانُ.
٢١. أَنْسَابُ الْأَشْرَافِ، لِأَحْمَدَ بْنِ يَحْيَى بْنِ جَابِرِ الْبَلَّاذُرِيِّ، (ت ٢٧٩ هـ)، تَحْقِيقُ: كَمَالُ الْحَارِثِيِّ، طَبَعَةُ مَكْتَبَةِ الْخَانَجِيِّ - مَصْرَ ١١٢٥ هـ، طَبَعَةُ مَكْتَبَةِ الْمُتَنَّى بِقَدَادَ ١٣٩٦ هـ، وَتَحْقِيقُ الْأَحْمُودِيِّ، مُؤَسَّسَةُ الْأَعْلَمِيِّ بَیْرُوتَ.
٢٢. أَوَائِلُ الْمَقَالَاتِ، لِلشَّيْخِ الْمُفِيدِ، مَنْشُورَاتُ مَكْتَبَةِ الدَّائِرِيِّ، إِيْرَانُ، قُمْ.

خَرْفُ الْبَاءِ

٢٣. الْبِدَايَةُ وَالنَّهَایَةُ، لِأَبِي الْفَدَاءِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ كَثِيرٍ الدَّمَشْقِيِّ، تَحْقِيقُ: عَلِيٍّ

شِيرِي، دَارُ الْكُتُبِ الْعِلْمِيَّةِ، الطَّبْعَةُ الْخَامِسَةُ، (١٤٠٩ هـ)، مَطْبَعَةُ السَّعَادَةِ مَضَرَ
عَامَ ١٣٥١ هـ.

٢٤. الْبِدَايَةُ وَالنَّهَايَةُ، مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْحَرِّ الْكَتَّانِي (ت ١٣١٢ هـ). طَبْعَةُ
الْقَاهِرَةِ (١٣٥١ - ١٣٥٨ هـ).

٢٥. الْبَحَارُ، لِلْعَلَّامَةِ الْمَجْلِسِيِّ. طَبْعَةُ سَنَةِ (١٤١٢ هـ). مُؤَسَّسَةُ الْوَفَاءِ
بَيْرُوت: لُبْنَان، وَأَيْضاً طَبْعَةُ إِيرَانَ، طَبْعَةُ سَنَةِ (١٣٩٤ هـ) إِيرَانَ.

٢٦. بِشَارَةُ الْمُصْطَفَى لِشَيْعَةِ الْمُرتَضَى، عَمَادُ الدِّينِ أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ
الطَّبْرِيِّ، الْمَطْبَعَةُ الْحَيْدَرِيَّةُ، النَّجَفُ الْأَشْرَفُ، الطَّبْعَةُ الثَّانِيَّةُ ١٣٨٣ هـ، وَنُشِرَ
مَطْبَعَةُ الْخَانَجِي مَضَرَ ١٤٠٠ هـ.

٢٧. الْبُلْدَانُ، لِأَبِي بَكْرٍ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْهَمْدَانِيِّ الْمَعْرُوفِ بِأَبْنِ الْفَقِيهِ، طَبْعَةُ
النَّجَفِ الْأَشْرَفِ، طَبْعَةُ لَيْدَن.

٢٨. الْبَيَانُ وَالتَّبَيُّنُ، لَعَمْرُو بْنِ بَحْرِ الْجَاحِظِ، (ت ٢٥٥ هـ ق)، شَرَحَ حَسَنُ
السَّنْدُوبِيِّ، نُشِرَ دَارُ الْجَاحِظِ ١٤٠٩ هـ، وَمَطْبَعَةُ الْإِسْتِقَامَةِ، الطَّبْعَةُ الثَّلَاثَةُ الْقَاهِرَةُ
١٣٦٦ هـ، وَطَبْعَةُ دَارِ الْوَعْيِ سُورِيَا ١٤٠٢ هـ.

٢٩. بُلُوغُ الْأَرْبِ وَكُنُوزُ الذَّهَبِ فِي مَعْرِفَةِ الْمَذْهَبِ، لَعَلِيِّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْقَاسِمِ
أَبْنِ مُحَمَّدَ بْنِ الْإِمَامِ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْحَسَنِيِّ الشَّهَارِيِّ الصَّنْعَانِيِّ، تَحْقِيقُ عَبْدِ اللَّهِ
بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَحْمَدَ الْحُوثِيِّ، طَبِعَ مُؤَسَّسَةُ الْإِمَامِ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ الثَّقَافِيَّةِ.

حَرْفُ النَّاءِ

٣٠. تَاجُ الْعَرُوسِ فِي جَوَاهِرِ الْقَامُوسِ، مُحَمَّدُ مُرتَضَى الزُّبَيْدِيِّ. طَبْعَةُ مَضَرَ.

٣١. تَاجُ اللَّغَةِ وَصَحَاحُ الْقَرِيْبَةِ. لِلْجَوْهَرِيِّ. طُبِعَ عَامَ ١٢٨٢ هـ. مَضَرَ (مُجْلَدَانِ).

٣٢. التَّارِخُ. خَلِيفَةُ بْنُ خَيْطَاطٍ (ت ٢٤٠هـ). تَحْقِيقُ أَكْرَمِ ضِيَاءِ الْعُمَرِيِّ. طَبْعَةٌ دِمَشْقَ (١٩٧٧م).
٣٣. تَأْرِخُ بَغْدَادَ لِأَحْمَدَ بْنِ عَلِيٍّ الْخَطِيبِ الْبَغْدَادِيِّ، طَبْعَةٌ دَارِ السَّعَادَةِ مَضَر.
٣٤. تَأْرِخُ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ، (بِاللُّغَامَانِيَّةِ)، لِكَارِلِ بَرُوكْلَمَانِ، تَرْجَمَةُ الدَّكْتُورِ عَبْدِ الْحَلِيمِ النَّجَّارِ، الْأَجْزَاءُ الثَّلَاثَةُ الْأَوَّلُ، الطَّبْعَةُ الرَّابِعَةُ دَارُ الْمَعَارِفِ الْقَاهِرَةِ، وَأَمَّا الْأَجْزَاءُ الثَّلَاثَةُ الْآخَرُ، تَرْجَمَهَا، الدَّكْتُورُ يَعْقُوبُ بَكْرٌ، وَالدَّكْتُورُ رَمْضَانَ تَوَّابٌ.
٣٥. تَأْرِخُ الْيَعْقُوبِيِّ، أَحْمَدُ بْنُ أَبِي يَعْقُوبَ بْنِ جَعْفَرِ الْعَبَّاسِيِّ الْمَعْرُوفِ بِالْيَعْقُوبِيِّ، طَبْعَةُ النَّجَفِ الْأَشْرَفِ ١٣٥٤هـ.
٣٦. تَثْبِيتُ إِمَامَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، لِلْإِمَامِ يَحْيَى الْهَادِي (مَخْطُوطٌ) بِالْجَامِعِ الْكَبِيرِ، مَجْمُوعٌ (٢٤) تَحْتَ رَقْمٍ «٤١٤».
٣٧. التَّارِخُ يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ (ت ٢٣٣هـ)، رَوَايَةُ عَبَّاسِ الدُّورِيِّ. تَحْقِيقُ: أَحْمَدُ مُحَمَّدُ نُورِ سَيْفٍ. طَبْعَةُ مَكَّةَ الْمُكْرَمَةِ ١٩٧٩م.
٣٨. التَّارِخُ الْكَبِيرُ لِمُحَمَّدَ بْنِ إِسْمَاعِيلَ الْبُخَارِيِّ، طَبْعَةُ حَيْدَرِ آبَادِ الدَّكْنِ.
٣٩. تَأْرِخُ الثَّرَاثِ الْعَرَبِيِّ. سَرْكِينُ فَوَّادٍ. تَرْجَمَةُ: فَهْمِي أَبُو الْفَضْلِ وَمَحْمُودُ حَجَّازِي. طَبْعَةُ الْقَاهِرَةِ (١٩٧٧م).
٤٠. تَأْرِخُ أَبْنِ خُلْدُونِ، الْمُسَمَّى التَّارِخُ أَوْ الْعِبَرِ وَدِيَوَانِ الْمُبْتَدَأِ أَوْ الْخَبَرِ. عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْمَشْهُورِ بِأَبْنِ خُلْدُونِ (ت ٨٠٨هـ)، طَبْعَةُ دَارِ الْكِتَابِ الْعَرَبِيِّ بَيْرُوتَ ١٩٧١هـ.
٤١. تَأْرِخُ الْخُلَفَاءِ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ السَّيْطُوطِيِّ (ت ٩١١هـ)، تَحْقِيقُ مُحْيِي الدِّينِ عَبْدِ الْحَمِيدِ، طَبْعَةُ الْقَاهِرَةِ، ١٩٥٩م؛ طَبْعَةُ دَارِ السَّعَادَةِ مَضَرِ عَامَ (١٤١٦هـ).

٤٢. تَارِيخُ الْخَمِيسِ فِي أَحْوَالِ أَنْفُسِ نَفِيسٍ، لِحُسَيْنِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ الْحَسَنِ الدَّمَشَقِيِّ (ت ٩٦٦ هـ)، طَبْعَةُ الْقَاهِرَةِ ١٢٨٣ هـ.

٤٣. تَارِيخُ دِمَشْقَ، حَفْزَةُ بْنُ أَسَدِ الْقَلَانِسِيِّ (ت ٥٥٥ هـ). طَبْعَةُ بَيْرُوتِ عَامِ (١٩٠٨ م).

٤٤. تَارِيخُ دِمَشْقَ، عَلِيِّ بْنِ الْحَرْبِ بْنِ عَسَاكِرَ (ت: ٥٧١ هـ). طَبْعَةُ دِمَشْقَ ١٩٥١ - ١٩٥٤ م. طَبْعَةُ (١٩٨٢ م).

٤٥. تَارِيخُ الْإِسْلَامِ، مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عُثْمَانَ الذَّهَبِيِّ، (ت ٧٤٨ هـ) مَكْتَبَةُ الْقُدْسِيِّ الْقَاهِرَةِ (١٣٦٨ هـ تَحْقِيقُ بَشَّارِ عَوَادٍ مَعْرُوفٍ طَبْعَةُ الْقَاهِرَةِ ١٩٧٧ م).

٤٦. تَارِيخُ الْإِسْلَامِ السِّيَاسِيِّ وَالذِّينِيِّ وَالثَّقَافِيِّ وَالْإِجْتِمَاعِيِّ، الدُّكْتُورُ حَسَنُ إِبْرَاهِيمَ، طَبْعَةُ دَارِ الْكِتَابِ بَيْرُوتَ ١٤٠١ هـ.

٤٧. تَارِيخُ الْإِسْلَامِ وَوَفَيَاتُ الْمَشَاهِيرِ وَالْأَعْلَامِ، لَشَمْسِ الدِّينِ مُحَمَّدَ بْنِ أَحْمَدَ الذَّهَبِيِّ (ت ٧٤٨ هـ ق)، تَحْقِيقُ: عُمَرَ عَبْدِ السَّلَامِ تَدْمَرِيٍّ، طَبْعَةُ دَارِ الرَّائِدِ الْعَرَبِيِّ - الْقَاهِرَةِ ١٤٠٥ هـ، وَنُشِرَ دَارُ الْكِتَابِ الْعَرَبِيِّ - بَيْرُوتَ ١٤١١ هـ وَطَبْعَةُ حَيْدَرِ آبَادِ الدِّكَنِ ١٣٥٤ هـ.

٤٨. تَارِيخُ الطَّبَرِيِّ تَارِيخُ الرُّسُلِ وَالْأُمَمِ وَالْمُلُوكِ، لِأَبِي جَفَرٍ مُحَمَّدَ بْنِ جَرِيرِ الطَّبَرِيِّ (... - ٣١٠ هـ)، تَحْقِيقُ مُحَمَّدُ أَبُو الْفَضْلِ إِبْرَاهِيمَ دَارُ الْمَعَارِفِ الْقَاهِرَةِ (١٩٦٠ م) طَبْعَةُ أَوْرُبَا، طَبْعَةُ الْإِسْتِقَامَةِ مَصْرَ.

٤٩. تَارِيخُ أَبْنِ عَسَاكِرَ (تَارِيخُ دِمَشْقَ)، الْأَجْزَاءُ الَّتِي حَقَّقَهَا الْمَحْمُودِي، تَرْجَمَةُ الْإِمَامِ عَلِيِّ وَالْإِمَامِ الْحَسَنِ وَالْإِمَامِ الْحُسَيْنِ.

٥٠. تَارِيخُ مُخْتَصَرِ الدَّوْلِ. أَبْنِ نَعْمٍ يَغْفُورِيُوسَ الْمَلْطِيِّ (ت ٦٨٥ هـ). طَبْعَةُ بَيْرُوتَ (١٩٥٨ م).

٥١. تَارِيخُ الْيَعْقُوبِي، لِابْنِ وَاضِحٍ. طَبْعَةٌ دَارِ صَادِرِ بَيْرُوتَ. وَأَيْضاً النَّجَفُ.
٥٢. تَثْبِيَتُ الْإِمَامَةِ، لِلْإِمَامِ يَحْيَى الْهَادِي، مَوْجُودٌ تَحْتَ رَقْمِ (٢٠٦) مِنْ الْمُتَحَفِ الْبَرِيطَانِيِّ.
٥٣. التُّحَفُ شَرْحُ الزُّلْفِ، لِمَجْدِ الدِّينِ الْمُؤَيَّدِيِّ، تَحْقِيقٌ: مُحَمَّدٌ يَحْيَى سَالِمُ عَزَانَ، وَعَلِيِّ أَحْمَدَ الرَّازِحِيِّ. صَنْعَاءُ مُؤَسَّسَةُ أَهْلِ الْبَيْتِ لِلرُّعَايَةِ الْإِجْتِمَاعِيَةِ ١٩٩٤ م.
٥٤. تَثْبِيَتُ دَلَائِلِ النَّبَوَّةِ، لِلْقَاضِي عَبْدِ الْجَبَّارِ، طَبْعَةٌ دَارِ الْمَلَائِينِ لِلْعِلْمِ بِبَيْرُوتَ ١٤٠٢ هـ.
٥٥. التُّحَفَةُ اللَّطِيفَةُ فِي تَارِيخِ الْمَدِينَةِ الشَّرِيفَةِ. مُحَمَّدٌ عَبْدُ الرَّحْمَنِ السَّخَاوِيُّ (ت ٩٠٢ هـ). طَبْعَةُ الْقَاهِرَةِ (١٩٥٧-١٩٥٨ م).
٥٦. تَذَكُّرَةُ الْحِفَاطِ، مُحَمَّدٌ أَحْمَدُ بْنُ عُسْمَانَ الذَّهَبِيِّ، (ت ٧٤٨ هـ ق)، تَحْقِيقٌ: أَحْمَدُ السَّقَا، طَبْعَةُ - الْقَاهِرَةِ ١٤٠٠ هـ، طَبْعَةُ حَيْدَرِ آبَادِ الدِّكْنِ ١٣٨٧ هـ طَبْعَةُ دَارِ إِحْيَاءِ الثَّرَاثِ الْعَرَبِيِّ مَكْتَبَةُ الْحَرَمِ الْمَكِّيِّ بِمَكَّةِ الْمُكْرَمَةِ.
٥٧. تَذَكُّرَةُ الْخَوَاصِ (تَذَكُّرَةُ خَوَاصِ الْأُمَّةِ)، لِيُوسُفَ بْنِ فَرَعْلِيِّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْمَعْرُوفِ بِسَبْطِ ابْنِ الْجَوَزِيِّ، الْحَنْبَلِيِّ ثُمَّ الْحَنْفِيِّ، نَزِيلُ دِمَشْقَ (ت ٦٥٤ هـ)، طَبْعَةُ - بَيْرُوتَ الثَّانِيَةِ ١٤٠١ هـ، طَبْعَةُ النَّجَفِ الْأَشْرَفِ، طَبْعَةُ مَضَرَ.
٥٨. التَّرْغِيبُ وَالتَّرْهِيْبُ. عَبْدِ الْعَظِيمِ بْنِ عَبْدِ الْقَوِيِّ الْمُنْذَرِيِّ (ت ٦٥٦ هـ). تَحْقِيقٌ: مُصْطَفَى عِمَّارَةَ. بَيْرُوتَ (١٩٦٨ م).
٥٩. تَفْسِيرُ الْكَشَافِ، لِأَبِي الْقَاسِمِ جَارِ اللَّهِ مَحْمُودِ بْنِ عُمَرَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ
٦٠. التَّنْبِيْهِ وَالْأَشْرَافِ. لِلْمَسْعُودِيِّ. طَبْعَةُ مُصَوَّرَةٍ عَنِ الطَّبْعَةِ الْأُورُوبِيَّةِ. مَكْتَبَةُ خَيَّاطِ عَامِ ١٩٦٥ م. بَيْرُوتَ - لُبْنَانَ، وَكَذَا طَبْعَةُ دَارِ الصَّائِي -

١٢٦٦ هـ).

٦١. تحف السُّقاة، لأبي محمد الحسن بن علي الحراني المعروف بأبن شُعته،
ترجمة للشهاب الإسلاميين - قسم، الطبعة الثانية ١٤٠٤ هـ، وانتشارات جامعة
بغداد - وزارة دار إحياء التراث العربي ١٤٠٦ هـ.

٦٢. التذكرة لعبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي التكري الحنبلي
الدمشق (ابن الحوزي الحنفي)، طبعة خبار آتاد الدكن

٦٣. ترجمة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام من تاريخ دمشق الكبير، لعلي بن
أبي المظفر، دار أبي عساكر، طبعة دمشق.

٦٤. ترجمة الإمام الحسن عليه السلام من كتاب الطبقات الكبير القسم الغير المطبوع،
لأبي أحمد الأحمدي (٢٣٠ هـ)، تحقيق: السيد عبد العزيز الطباطبائي، نُشر
مكتبة آل البيت لإحياء التراث، ١٤١٥ هـ.

٦٥. ترجمة الإمام الحسن عليه السلام من تاريخ دمشق الكبير (٥٧١ هـ)، تحقيق:
مشارقة المأمودى، مؤسسة المأمودى، (١٤٠٠ هـ).

٦٦. تفسير روح البغاة، لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمد الألوسي،
مكتبة المكتبة المصنوية بغداد ١٣٩٦ هـ.

٦٧. تفسير القرآن العظيم، (تفسير ابن كثير)، لإسماعيل بن عمر بن كثير
مصري النجاشي، (٧٧٤ هـ)، طبعة بيروت دار المعرفة ١٤٠٧ هـ، طبعة دار
إحياء التراث العربي، طبعة دار صادر.

٦٨. تفسير البيضاوي، (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)، لأبي سعيد عبد الله
ابن عمر الشيرازي البيضاوي، طبعة دار النفائس ١٤٠٢ هـ، وطبعة مصطفى
محمد - مصر.

٦٩. تفسیر الکشاف، لأبي القاسم جَار الله مُحَمَّد بن عُمر بن مُحَمَّد بن أَحمد الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ)، طبعة دار المعرفة بيروت، قم، دار البلاغة.
٧٠. تفسیر الثعلبي (الكشف والبيان في التفسير)، لأحمد بن مُحَمَّد بن إبراهيم النيسابوري، (ت ٤٣٧ هـ)، مطبوع الجزء الأول على الحجر، و (مخطوط) في مكتبة المرعشي النجفي العامة.
٧١. تفسیر الجلالين، لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، طبعة القاهرة ١٣٦٤ هـ.
٧٢. تقريب التهذيب، مُحَمَّد بن حبيب البغدادي (ت ٢٤٥ هـ). تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف. طبعة القاهرة (١٣٨٠ هـ).
٧٣. تهذيب التهذيب، لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ ق)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، طبعة دار الكتب العلمية الطبعة الأولى - بيروت ١٤١٥ هـ، ومطبوعة مجلس دائرة المعارف النظامية الهند ١٣١٥ هـ، الناشر، دار صادر بيروت - مصور من طبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد - الهند ١٣٢٥ هـ.
٧٤. تهذيب تاريخ دمشق الكبير لابن عساكر، الشيخ عبد القادر زبدان. دار المسيرة بيروت: لبنان.
٧٥. تهذيب الأحكام، لأبي جعفر مُحَمَّد بن الحسن الطوسي (المتوفى ٤٦٠ هـ)، تحقيق الحجة السيد حسن الخراسان، الطبعة الثالثة، بيروت دار الأضواء عام (١٤٠٦ هـ).
٧٦. تهذيب الأسماء واللغات، يحيى بن شرف محي الدين (ت ٦٧٦ هـ). طبعة القاهرة (١٣٤٩ هـ).

٧٧. تَهْذِيبُ الْكَمَالِ، يُونُسُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمَرْي (ت ٧٤٢ هـ). طَبْعَةُ دَارِ الْمَأْمُونِ دِمَشْقَ، وَمَطْبَعَةُ مُؤَسَّسَةِ الرِّسَالَةِ.
٧٨. تَهْذِيبُ التَّهْذِيبِ: مُحَمَّدُ بْنُ حَبِيبِ الْبَغْدَادِيِّ (ت ٢٤٥ هـ) طَبْعَةُ حَايِدِ آبَاد (١٣٢٥ هـ).
٧٩. تَارِيخُ الْأَنْبِيَاءِ. السَّيِّدُ حُسَيْنُ اللُّوْاسَانِي. مَنُشُورَاتُ لُوسَانَ. بَيْرُوتُ - لُبْنَانُ.
٨٠. تَيْسِيرُ الْمَتَّانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْقَادِرِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ الْقَادِرِ. نُسخة خُطَّتْ سَنَةَ (١٣٥ هـ).
٨١. تَيْسِيرُ الْمَطَالِبِ فِي أَمَالِي الْإِمَامِ أَبِي طَالِبٍ. لِلنَّاطِقِ بِالْحَقِّ أَبِي طَالِبٍ يَحْيَى بْنُ الْحُسَيْنِ (٤٢٤ هـ / ١٠٣٢ م). رَوَايَةُ جَعْفَرِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ السَّلَامِ (٥٧٧ هـ / ١١٧٧ م).

خَزَفُ الشَّاءِ

٨٢. الثَّقَاتُ، لِأَبِي حَاتِمٍ مُحَمَّدَ بْنِ حَبَّانَ بْنِ أَحْمَدَ التَّمِيمِيِّ الْبَسْتِي، (٣٥٤ هـ) الطَّبْعَةُ الْأُولَى، مَطْبَعَةُ مَجْلِسِ دَائِرَةِ الْمَعَارِفِ الْعُثْمَانِيَّةِ بِحَايِدِ آبَادِ الدَّكْنِ، الْهِنْدِ، عَامَ ١٣٦٩ هـ.

خَزَفُ الْجِيمِ

٨٣. جَامِعُ الْأُصُولِ فِي أَحَادِيثِ الرَّسُولِ، لِأَبِي السَّعَادَاتِ مَجْدِ الدِّينِ الْمُبَارَكِ بْنِ مُحَمَّدَ ابْنِ مُحَمَّدٍ الْمَعْرُوفِ بِأَبْنِ الْأَثِيرِ الشَّيْبَانِيِّ الشَّافِعِيِّ، (ت ٦٠٦ هـ) طَبْعَةُ الْفَجَّالَةِ مِصْرَ ١٤٠٦ هـ.

٨٤. جَامِعُ الْبَيَانِ عَنْ تَأْوِيلِ الْقُرْآنِ، أَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدَ بْنَ جَرِيرِ الطَّبْرِيِّ (الْمُتَوَفَّى ٣١٠ هـ).

٨٥. الْجَامِعُ الصَّحِيحُ (سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ)، لِأَبِي عِيْسَى مُحَمَّدَ بْنَ عِيْسَى بْنِ سَوْرَةَ التِّرْمِذِيِّ (ت ٢٩٧ هـ) تَحْقِيقٌ: أَحْمَدُ مُحَمَّدُ شَاكِرٌ، دَارُ إِحْيَاءِ الثَّرَاثِ، بَيْرُوت.

٨٦. الْجَامِعُ الصَّحِيحُ (صَحِيحُ مُسْلِمٍ) بِشَرْحِ النَّوَوِيِّ، لِمُسْلِمِ بْنِ الْحَجَّاجِ بْنِ مُسْلِمٍ الْقُشَيْرِيِّ النِّشَابُورِيِّ (ت ٢٦١ هـ ق)، تَحْقِيقٌ: مُحَمَّدُ فُؤَادُ عَبْدُ الْبَاقِي، دَارُ الْحَدِيثِ، الْقَاهِرَةُ، الطَّبْعَةُ الْأُولَى ١٤١٢ هـ.

٨٧. الْجَامِعُ الصَّغِيرُ، فِي أَحَادِيثِ الْبَشِيرِ النَّذِيرِ جَلَّالِ الدِّينِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ جَلَّالِ الدِّينِ السِّيُوطِيِّ (ت ٩١١ هـ ق)، الطَّبْعَةُ الْأُولَى - الْقَاهِرَةُ ١٣٦٥ هـ.

٨٨. الْجَامِعُ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ، لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدَ بْنَ أَحْمَدَ الْقُرْطُبِيِّ (ت ٦٧١ هـ)، طَبْعَةُ الْفَجَّالَةِ الْقَدِيمَةِ مَضَرٌ، والطَّبْعَةُ الْأُولَى، دَارُ إِحْيَاءِ الثَّرَاثِ الْعَرَبِيِّ، تَصْحِيحُ أَحْمَدُ عَبْدُ الْعَلِيمِ الْبَرْدُونِيُّ.

٨٩. الْجَامِعُ الْمُخْتَصَرُ فِي عُنْوَانِ التَّوَارِيخِ وَعُيُونِ السَّيْرِ. عَلِيُّ بْنُ أَنْجَبِ ابْنِ السَّاعِيِّ (ت: ٦٧٤ هـ). تَحْقِيقٌ: مُصْطَفَى جَوَادٌ. طَبْعَةُ بَغْدَادَ (١٩٣٤ م).

٩٠. الْجَرَحُ وَالتَّعْدِيلُ، عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي حَاتِمٍ مُحَمَّدَ بْنَ إِدْرِيسَ الْمُسْنَدِ (ت ٣٢٧ هـ). تَحْقِيقٌ: عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمَعْلَمِيُّ الْيَمَانِيُّ. حَيْدَرُ آبَاد.

٩١. جَوَاهِرُ الْعَقْدَيْنِ فِي فَضْلِ الشَّرَفَيْنِ شَرَفِ الْعِلْمِ الْجَلِيِّ وَالتَّسَبُّبِ الْعَلِيِّ، لِعَلِيِّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْحَسَنِ السَّمُودِيِّ (٨٤٤ - ٩١١ هـ)، تَحْقِيقٌ: الدَّكْتُورُ مُوسَى بِنَايُ الْعَلِيلِيُّ، مَطْبَعَةُ الْغَانِي بَغْدَادَ ١٤٠٥ هـ، نَشْرُ وَزَارَةِ الْأَوْقَافِ الْعِرَاقِيَّةِ.

٩٢. الْجَمَلُ، لِلشَّيْخِ الْمُفِيدِ. طَبْعَةُ الْحَيْدَرِيَّةِ. النَّجَفُ الْأَشْرَفُ. الْعِرَاقُ. سَنَةُ (١٣٨١ هـ ق).

٩٣. جَمَهْرَةُ أَنْسَابِ الْعَرَبِ، عَلِيّ بن أَحْمَد بن جَزَم (ت: ٦٥٥هـ). تَحْقِيقُ: عبد السلام هَارُون. طَبْعَةُ الْقَاهِرَةِ (١٩٦٢ م).
٩٤. الْجَوَاهِرُ الْمُضِيئَةُ فِي طَبَقَاتِ الْحَنَفِيَّةِ. عَبْد الْقَادِر بن مُحَمَّد (ت ٧٧٥هـ). طَبْعَةُ: حيدر آباد (١٣٣٢ هـ). وَتَحْقِيقُ: عَبْد الْفَتَّاحِ الْحَلَو، طَبْعَةُ الْقَاهِرَةِ.

خَرْفُ الْحَاءِ

٩٥. الْأَحْكَامُ السُّلْطَانِيَّةُ، لِأَبِي الْحَسَنِ عَلِيّ بن مُحَمَّد الْبَصْرِيِّ الْبَغْدَادِيِّ الْمَوْرِدِيِّ، الطَّبْعَةُ الْأُولَى مَضْرُوءٌ، ١٣١٩ هـ.
٩٦. الْأَحْكَامُ لِابْنِ خَزَم، لِعَلِيّ بن أَحْمَد بن خَزَم الْأَنْدَلُسِيِّ، أَبُو مُحَمَّد، دَارُ الْحَدِيثِ، الْقَاهِرَةُ، ١٤٠٤ هـ، طَبْعَةُ ١.
٩٧. الْأَحْكَامُ لِلْأَمْدِيِّ، لِعَلِيّ بن مُحَمَّد الْأَمْدِيِّ، أَبُو الْحَسَنِ، دَارُ الْكِتَابِ الْعَرَبِيِّ، بَيْرُوت ١٤٠٤ هـ، تَحْقِيقُ: الدُّكْتُورُ سَيِّدُ الْجُمَيْلِيِّ.
٩٨. الْأَحْكَامُ فِي الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ كِتَابُ السَّيْرِ (مَخْطُوط) لِلْإِمَامِ يَحْيَى بن الْحُسَيْن وَرَقَهُ.
٩٩. الْحَاكِمُ فِي مَعْرِفَةِ عُلُومِ الْحَدِيثِ، لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّد بن عَبْدِ اللَّهِ بن الْحَاكِمِ النَّيْشَابُورِيِّ (ت ٤٠٥ هـ)، طَبْعَةُ دَارِ الْكِتَابِ الْعَرَبِيِّ.
١٠٠. حَلِيَّةُ الْأَوْلِيَاءِ وَطَبَقَاتُ الْأَصْفِيَاءِ، أَحْمَد بن عَبْدِ اللَّهِ. أَبُو نَعِيمٍ الْإِسْهَابَانِيُّ (الْمُتَوَفَّى ٤٣٠ هـ).
١٠١. حَيَاةُ الصَّحَابَةِ، لِمُحَمَّد بن يُوسُفِ الْيَاسِ الْهَنْدِيِّ، طَبْعُ لَاهُور.
١٠٢. حَيَاةُ الْحَيَوَانِ الْكُبْرَى، مُحَمَّد بن مُوسَى الدَّمِيرِيِّ (ت ٨٠٨ هـ). طَبْعَةُ الْمَكْتَبَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ - بَيْرُوت.

١٠٣. الحَيَّوَان، لِلجَّاحِظ. طَبْعَةُ الْقَاهِرَةِ ١٣٦٥ هـ، وَكَذَا طَبْعَةُ الْحَلِيبِي مِنْ سَنَةِ (١٣٥٧ هـ).

١٠٤. الْحَمَّاسَةُ. هِبَةُ اللَّهِ عَلَيَّ الشَّجَرِي (ت ٥٤٢ هـ). تَحْقِيقُ: عَبْدِ الْمُعِينِ مَلُوحِي وَأَسْمَاءُ الْحِمَصِيِّ. طَبْعَةُ دِمَشْقَ (١٩٧٠ م).

١٠٥. حَيَاةُ الصَّحَابَةِ. مُحَمَّدُ يُونُسُ الكَانْدَهْلُوي. تَحْقِيقُ: عَلِيِّ شِيرِي دَارُ إِحْيَاءِ الثَّرَاثِ الْعَرَبِيِّ، بَيْرُوتَ: لُبْنَانُ.

حَرْفُ الْخَاءِ

١٠٦. الْخَرَائِجُ وَالْجَرَائِحُ، لِأَبِي الْحُسَيْنِ سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الرَّائِدِيِّ الْمَعْرُوفِ بِقُطْبِ الدِّينِ الرَّائِدِيِّ (ت ٥٧٣ هـ)، تَحْقِيقُ وَنَشْرُ: مُؤَسَّسَةُ الْإِمَامِ الْهَدِيِّ عليه السلام - قُمُ، ١٤٠٩ هـ.

١٠٧. خَصَائِصُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ - ضَمِنُ السُّنَنِ، الْحَافِظُ النَّسَائِيُّ (٣٠٣ هـ) دَارُ الْكُتُبِ الْعِلْمِيَّةِ - بَيْرُوتَ.

١٠٨. خَصَائِصُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، لِلْحَافِظِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَحْمَدَ بْنِ شُعَيْبِ النَّسَائِيِّ. دَارُ الْكِتَابِ الْعَرَبِيِّ، بَيْرُوتَ: لُبْنَانُ.

١٠٩. الْخَصَائِصُ الْكُبْرَى (كَفَايَةُ الطَّالِبِ اللَّيْبِ فِي خَصَائِصِ الْحَبِيبِ)، جَلَّالُ الدِّينِ السِّيَوَطِيُّ. طَبْعَةُ دَارِ الْكِتَابِ الْعَرَبِيِّ.

١١٠. خُلَاصَةُ تَهْذِيبِ تَهْذِيبِ الْكَمَالِ. أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْخَزَرَجِيُّ الْأَنْصَارِيُّ (ت ٩٢٣ هـ). طَبْعَةُ بُولَاقَ (١٣٠١ هـ)، وَكَذَا طَبْعَةُ سَنَةِ (١٣٩١ هـ).

حَرْفُ الدَّالِّ

١١١. دَائِرَةُ مَعَارِفِ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ، مُحَمَّدٌ فَرِيدٌ وَجَدِي. دَارُ الْمَعْرِفَةِ، بَيْرُوت.
١١٢. دَائِرَةُ الْمَعَارِفِ الْإِسْلَامِيَّةِ، نَقَلَهَا إِلَى الْعَرَبِيَّةِ مُحَمَّدٌ ثَابِتُ الْفَنَدِي وَآخَرُونَ. دَارُ الْمَعْرِفَةِ. بَيْرُوت - لُبْنَان.
١١٣. الدَّرُ الْمَنْشُورُ فِي طَبَقَاتِ رَبَّاتِ الْخُدُورِ، الْعَامِلِي - زَيْنَب (ت ١٣٣٢ هـ). طَبْعَةُ الْقَاهِرَةِ (١٣١٢ هـ).
١١٤. الدَّرُ الْمَنْشُورُ فِي التَّفْسِيرِ بِالْمَأْثُورِ، جَلَّالُ الدِّينِ السِّيُوطِي (ت ٩١١ هـ). دَارُ الْفِكْرِ بَيْرُوت: لُبْنَان.
١١٥. دَلَائِلُ النُّبُوَّةِ، أَبُو نَعِيمٍ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْأَصْبَهَانِي (ت ٤٣٠ هـ). نَشْرُ دَارِ الْوَعْي - حَلَب (١٣٩٧ هـ).
١١٦. دَلَائِلُ النُّبُوَّةِ، أَبُو بَكْرٍ أَحْمَدُ بْنُ الْحُسَيْنِ الْبَيْهَقِي (٤٥٨ هـ) نَشْرُ دَارِ الْوَعْي حَلَب ١٣٩٧ هـ.
١١٧. دُولُ الْإِسْلَامِ، مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عُثْمَانَ الذَّهَبِيِّ: (ت ٧٤٨ هـ). تَحْقِيقُ: فَهِيمُ مُحَمَّدٌ شَلْتُوتٌ وَمُحَمَّدٌ مُصْطَفَى إِبْرَاهِيمَ. طَبْعَةُ الْقَاهِرَةِ (١٩٧٤ م).
١١٨. دِيَوَانُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَسَيِّدِ الْبُلْغَاءِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ. النَّاشِر: دَارُ النُّجْمِ. بَيْرُوت - لُبْنَان.

حَرْفُ الْهَاءِ

١١٩. الْهِدَايَةُ الْكُبْرَى، لِحُسَيْنِ بْنِ حَمْدَانَ لِلْخُصْيِيِّ «٣٥٨ هـ»، طُبِعَ سَنَةِ ١٤٠٦ هـ، مُؤَسَّسَةُ الْبَلَاغِ.

حَرف الذَّال

١٢٠. الذُّرَيْة الطَّاهِرَة، لمُحمَّد بن أَحَمَد الدَّولَابِي (مَخْطُوط)، وَتَحْقِيق: مُحمَّد جَوَاد الجَلَالِي، مُؤَسَّسَة النُّشْر الإِسْلَامِي ١٤٠٧ هـ.
١٢١. ذَخَائِر العُقْبَى فِي مَنَاقِب ذَوِي الْقُرْبَى، لُمَحَبِّ الدِّين أَحَمَد بن عَبْدِالله الشَّهْر بِالمَحَبِّ الطَّبْرِي، (ت ٦٩٤ هـ ق)، نُشِرهُ حُسَام الدِّين القُدْسِي بِالقَاهِرَة ١٣٥٦ هـ.
١٢٢. ذِكْر أَخْبَار إِصْبَهَانَ، لِأَبِي نَعِيم أَحَمَد بن عَبْدِالله الإِصْبَهَانِي (ت ٤٣٠ هـ) تَحْقِيق سَيِّد كَسْرَوِي حَسَن، دَار الكُتُب العِلْمِيَّة، بِيْرُوت.
١٢٣. ذَيْل المُذِيل فِي تَارِيخ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لِابْن جَرِير الطَّبْرِي مُلْحَق بِأَحَد أَجْزَاءهِ مِنْ تَارِيخ الأُمَم وَالمُلُوك مُؤَسَّسَة الأَعْلَمِي بِيْرُوت.

حَرف الرَّاء

١٢٤. رِبْع الأَبْرَار، لِأَبِي القَاسِم جَار الله مَحْمُود بن عُمَر بن مُحمَّد بن أَحَمَد الزَّمْخَشَرِي (ت ٥٣٨ هـ).
١٢٥. رِجَال النَّجَاشِي، لِأَبِي العَبَّاس أَحَمَد بن عَلِي النَّجَاشِي تَحْقِيق مُحمَّد جَوَاد النَّائِنِي طَبْعَة دَار الأَضْوَاء بِيْرُوت.
١٢٦. رَشْفَة الصَّادِي مِنْ بَحُور فَضَائِل بَنِي الهَادِي، لِأَبِي بَكْر بن شَهَاب الدِّين العَلَوِي، الحُسَيْنِي الشَّافِعِي، طَبْع مَصْر ١٣٠٣ هـ.
١٢٧. الرَّوْض الأَنْف، لِعَبْد الرَّحْمَن بن عَبْدِالله السُّهَيْلِي (٥٨١ هـ) تَحْقِيق طَه عِبْد الرَّؤُوف سَعْد طَبْعَة القَاهِرَة.
١٢٨. الرِّيَاض النَّصْرَة فِي فَضَائِل العَشْرَة، لُمَحَبِّ الدِّين الطَّبْرِي الشَّافِعِي (ت ٦٩٤ هـ ق)، طَبْعَة بِيْرُوت ١٤٠٣ هـ، وَطَبْعَة ثَانِيَة فِي مَصْر، وَدَار الغَرْب

- الإِسْلَامِي بَيْرُوت ١٩٩٦ م، تَحْقِيق: عِيسَى عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدَ مَانِعِ الْحُمَيْرِي.
١٢٩. رَوْضَاتُ الْجَنَاتِ فِي أَحْوَالِ الْعُلَمَاءِ وَالسَّادَاتِ. مُحَمَّدُ بَاقِرُ الْمُوسَوِي. الخَوَاسِرِي الْأَصْبَهَانِي.
١٣٠. الرُّوضُ النَّضِيرُ شَرْحُ مَجْمُوعِ الْفِقْهِ الْكَبِيرِ، لَشَرَفِ الدِّينِ الْحُسَيْنِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ صَالِحِ السِّيَاغِي: ١/ ٧٧، طَبَعَ مَكْتَبَةُ الْمُؤَيَّدِ الطَّائِفِ سَنَةَ ١٩٨٦.

حَرْفُ الرَّاي

١٣١. زَادَ الْمَسِيرُ فِي عِلْمِ التَّفْسِيرِ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْجَوَازِي الْبَغْدَادِي (٥٠٨ هـ) الْمَكْتَبُ الْإِسْلَامِي بَيْرُوت.
١٣٢. زَادَ الْمَعَادُ فِي هَدْيِ خَيْرِ الْعِبَادِ. مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ ابْنُ الْقِيَمِ (ت ٧٥١ هـ). تَحْقِيق: شُعَيْبُ الْأَرْنَأُوطُ وَعَبْدُ الْقَادِرِ الْأَرْنَأُوطُ. طَبْعَةُ بَيْرُوت.
١٣٣. الزُّهْدُ، الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدَ بْنِ حَنْبَلٍ (ت ٢٤١ هـ). طَبْعَةُ دَارِ الْكُتُبِ الْعِلْمِيَّةِ - بَيْرُوت.
١٣٤. الزَّيْدِيَّةُ، الدُّكْتُورُ أَحْمَدُ مُحَمَّدُ صُبْحِي. النَّاشِرُ: الزَّهْرَاءُ لِلْإِعْلَامِ الْعَرَبِي. الْفَاهَرَةُ - مَضَر.
١٣٥. الزَّيْدِيَّةُ قِرَاءَةٌ فِي الْمَشْرُوعِ، وَبَحْثُ فِي الْمَكُونَاتِ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ إِسْمَاعِيلَ حَمِيدِ الدِّينِ، مَرْكَزُ الرَّائِدِ لِلدِّرَاسَاتِ وَالْبَحْثِ الطَّبْعَةُ الْأُولَى عَامَ (١٤٢٤ هـ).
١٣٦. الزَّيْدِيَّةُ، عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ إِسْمَاعِيلَ حَمِيدِ الدِّينِ، طَبَعَ مُؤَسَّسَةُ الْإِمَامِ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ الثَّقَافِيَّةِ. الْعِلْمِيَّةِ - بَيْرُوت.

حَرْفُ السَّيْنِ

١٣٧. سُبُلُ السَّلَامِ شَرْحُ بُلُوغِ الْمَرَامِ مِنْ جَمْعِ أَدْلَةِ الْأَحْكَامِ، لِمُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ الْكَحْلَانِيِّ ثُمَّ الصَّنْعَانِيِّ الْيَمْنِيِّ، مَطْبَعَةُ مُصْطَفَى الْبَابِيِّ الْحَلَبِيِّ وَأَوْلَادِهِ بِمَنْصَرٍ، الطَّبْعَةُ الرَّابِعَةُ ١٣٧٩ هـ.

١٣٨. سُبُلُ الْهُدَى وَالرَّشَادِ، لَصَّالِحِ الشَّامِيِّ. طَبْعَةُ مَضَرَ.

١٣٩. سِرُّ السَّلْسَلَةِ الْعُلُويَّةِ (مَخْطُوطٌ)، حَيَاةُ الْإِمَامِ زَيْدٍ.

١٤٠. سَفِينَةُ الْبَحَارِ، الْمُسَمَّيَّةُ سَفِينَةَ بَحَارِ الْأَنْوَارِ وَمَدِينَةَ الْحُكْمِ وَالْآثَارِ. عَبَّاسُ

أَبْنُ مُحَمَّدٍ رِضَا الْقُمِيِّ. طَبْعَةُ النَّجَفِ سَنَةِ ١٣٥٥ هـ.

١٤١. السَّقِيفَةُ (أَوْ) أَيْمَةُ الشَّيْخَةِ، سَلِيمُ بْنُ قَيْسٍ الْكُوفِيُّ الْهَلَالِيُّ الْعَامِرِيُّ

(الْمُتَوَفَّى ٩٠ هـ). طَبْعَةُ مُؤَسَّسَةِ الْأَعْلَمِيِّ. بَيْرُوت - لُبْنَانُ.

١٤٢. السُّنَنُ الْكُبْرَى، لِأَبِي بَكْرٍ أَحْمَدَ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ الْبَيْهَقِيِّ

(ت ٤٥٨ هـ)، تَحْقِيقُ: مُحَمَّدٌ مُحْيِي الدِّينِ عَبْدُ الْحَمِيدِ، دَارُ إِحْيَاءِ التُّرَاثِ

الْعَرَبِيِّ - بَيْرُوت ١٤٠٥ هـ. وَتَحْقِيقُ: مُحَمَّدُ عَبْدُ الْقَادِرِ عَطَا، طَبْعَةُ دَارِ الْكُتُبِ

الْعِلْمِيَّةِ، الطَّبْعَةُ الْأُولَى - بَيْرُوت ١٤١٤ هـ مُصَوَّرَةٌ مِنْ دَائِرَةِ الْمَعَارِفِ الْعُثْمَانِيَّةِ،

حَيْدَرُ آبَادِ الدَّكَنْ ١٣٥٣ هـ.

١٤٣. سُنَنُ أَبْنِ مَاجِهَ، لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدَ بْنِ يَزِيدَ بْنِ مَاجِهَ الْقَزْوِينِيِّ

(ت ٢٧٥ هـ)، تَحْقِيقُ: فُوَادُ عَبْدُ الْبَاقِي، دَارُ إِحْيَاءِ التُّرَاثِ، بَيْرُوت، الطَّبْعَةُ

الْأُولَى ١٣٩٥ هـ. وَنَشَرُ دَارِ الْفِكْرِ، طَبْعَةُ - بَيْرُوت ١٣٧١ هـ.

١٤٤. سُنَنُ التِّرْمِذِيِّ، لِأَبِي عِيْسَى مُحَمَّدَ بْنِ عِيْسَى بْنِ سَوْرَةَ التِّرْمِذِيِّ

(ت ٢٩٧ هـ) تَحْقِيقُ: أَحْمَدُ مُحَمَّدُ شَاكِرٌ، دَارُ إِحْيَاءِ التُّرَاثِ، بَيْرُوت.

١٤٥. سُنَنُ الدَّارِ قُطْنِي، لِأَبِي الْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ عُمَرَ الْبَغْدَادِيِّ الْمَعْرُوفِ بِالْأَبِي

قطني، (ت ٢٨٥ هـ) تَحْقِيقُ: أَبُو الطَّيِّبِ مُحَمَّدٌ أَبَادِي، عَالِمُ الْكُتُبِ، بَيْرُوت، الطَّبَعَةُ الرَّابِعَةُ ١٤٠٦ هـ، طَبَعَةُ بُولَاقِ بِالْقَاهِرَةِ.

١٤٦. سُنَنُ النَّسَائِيِّ، الْحَافِظُ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ (٣٠٣ هـ). طَبَعَةُ دَارِ الْكُتُبِ الْعِلْمِيَّةِ. بَيْرُوت - لُبْنَان.

١٤٧. سُنَنُ أَبِي دَاوُدَ، لِأَشْعَثِ السَّجِسْتَانِيِّ الْأَزْدِيِّ (ت ٢٧٥ هـ ق)، إِعْدَادُ وَتَعْلِيلُ: عِزَّتْ عَبْدِ الدَّعَاسِ، طَبَعَةُ دَارِ الْحَدِيثِ الطَّبَعَةُ الْأُولَى - جَمَص ١٣٨٨ هـ وَطَبَعَةُ مُصْطَفَى الْبَابِيِّ - مَضَر ١٣٩١ هـ.

١٤٨. سِيرُ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ، مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عُثْمَانَ الذَّهَبِيِّ (ت ١٣٧٤ م). تَحْقِيقُ: مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْبَاحِثِينَ تَحْتَ إشرَافِ: شُعَيْبِ الْأَرْنَأُوطِ. مُؤَسَّسَةُ الرِّسَالَةِ بَيْرُوت - لُبْنَان.

١٤٩. السِّيَرَةُ النَّبَوِيَّةُ، لِأَبِي مُحَمَّدَ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ هِشَامَ بْنِ أَيُّوبِ الْحَمِيرِيِّ، (ت ٢١٣ أو ٢١٨ هـ ق)، تَحْقِيقُ: مُصْطَفَى السَّقَا، وَإِبْرَاهِيمَ الْأَنْتَابَرِيِّ، وَعَبْدَ الْحَفِيزِ شَلْبِي، مَكْتَبَةُ الْمُصْطَفَى، قَم، الطَّبَعَةُ الْأُولَى ١٣٥٥ هـ.

١٥٠. السِّيَرَةُ النَّبَوِيَّةُ بِهَامِشِ السِّيَرَةِ الْحَلِيَّةِ، لِأَحْمَدَ بْنِ زَيْنِي بْنِ أَحْمَدَ دَحْلَانَ (ت ١٣٠٤ هـ) طَبَعَةُ دَارِ الْكِتَابِ الْعَرَبِيِّ بَيْرُوت ١٤٠٨ هـ.

١٥١. سِيرَةُ الْهَادِي إِلَى الْحَقِّ يَحْيَى بْنُ الْحُسَيْنِ رَوَايَةُ عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْعَبَّاسِيِّ الْعَلَوِيِّ: تَحْقِيقُ سُهَيْلُ زَكَار، دَارُ الْفِكْرِ بَيْرُوت.

حَرْفُ الشَّيْنِ

١٥٢. شَذَرَاتُ الذَّهَبِ فِي أَخْبَارِ مَنْ ذَهَبَ، لِأَبِي الْفَلَاحِ عَبْدِ الْحَيِّ الْمَعْرُوفِ بِأَبْنِ الْعِمَادِ (ت ١٠٨٩ هـ ق)، تَحْقِيقُ: الْأَرْنَأُوطِ، طَبَعَةُ - بَيْرُوت، وَدِمَشْقُ

١٤٠٩ هـ، ونَشَر مَكْتَبَةُ الْقُدْسِي، الْقَاهِرَةُ ١٣٥٠ هـ.

١٥٣. شَرْح الْبَحْرِ الرَّائِقِ، لِزَيْنِ الدِّينِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْمَعْرُوفِ بِأَبْنِ نُجَيْمِ الْمَضَرِيِّ الْحَنْفِيِّ.

١٥٤. شَرْحُ الْهَاشِمِيَّاتِ، لِمُحَمَّدٍ مَحْمُودِ الرَّافِعِيِّ، الطَّبَعَةُ الثَّانِيَّةُ شَرَكَةُ التَّمَدُّنِ بِمَصْرَ، وَطَبَعَةُ بَيْرُوتِ ١٤٠٢ هـ.

١٥٥. شَرْحُ نَهْجِ الْبَلَاغَةِ، لِلشَّيْخِ مُحَمَّدٍ عَبْدِهِ، طَبَعَةُ دَارِ الْكِتَابِ الْعَرَبِيِّ ١٤٠٦ هـ، طَبَعَةُ الْفَجَّالَةِ الْجَدِيدَةِ - مَصْرَ ١٤٠٣ هـ.

١٥٦. شَرْحُ نَهْجِ الْبَلَاغَةِ؛ لِلخُوَيْنِيِّ، طَبَعَةُ دَارِ الْفِكْرِ بَيْرُوتِ ١٤٠٦ هـ.

١٥٧. شَرْحُ نَهْجِ الْبَلَاغَةِ، لِأَبْنِ أَبِي الْحَدِيدِ الْمُعْتَزَلِيِّ (ت ٦٥٦ هـ)، تَحْقِيقُ: مُحَمَّدُ أَبُو الْفَضْلِ، طَبَعَةُ - بَيْرُوتِ ١٤٠٩ هـ.

١٥٨. شَرْحُ نَهْجِ الْبَلَاغَةِ، لِأَبْنِ أَبِي الْحَدِيدِ، عَبْدَ الْحَمِيدِ بْنِ هِبَةَ اللَّهِ (ت: ٦٥٥ هـ)، طَبَعَةُ بَيْرُوتِ (١٣٧٤ هـ). وَتَحْقِيقُ: مُحَمَّدُ أَبُو الْفَضْلِ إِبْرَاهِيمَ. طَبَعَةُ دَارِ إِحْيَاءِ الْكُتُبِ الْعَرَبِيَّةِ - مَصْرَ.

١٥٩. شَرْحُ شَافِيَّةِ أَبِي فِرَاسٍ فِي مَنَاقِبِ آلِ الرَّسُولِ وَمَثَالِ بْنِ الْعَبَّاسِ، طَبَعَةُ الْهِنْدِ.

١٦٠. الشِّفَاءُ بِتَعْرِيفِ حَقُوقِ الْمُضْطَفَى، لِقَاضِي أَحْمَدَ بْنِ عِيَّاضَ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ مُوسَى بْنِ عِيَّاضِ الْيَحْصِي، أُنْدَلِسِي الْأَصْلُ، (٤٩٦ هـ - ٥٤٤ هـ) طَبَعَةُ بَيْرُوتِ.

١٦١. شَوَاهِدُ التَّنْزِيلِ لِقَوَاعِدِ التَّفْضِيلِ، لِأَبِي الْقَاسِمِ عُيَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ النَّيْسَابُورِيِّ الْمَعْرُوفِ بِالْحَاكِمِ الْحَسْكَانِيِّ (مِنْ أَعْلَامِ الْقَرْنِ الْخَامِسِ، وَالْمُتَوَفَّى بَعْدَ سَنَةِ ٤٧٠ هـ)، تَحْقِيقُ: مُحَمَّدُ بَاقِرُ الْمُحَمَّدِي، مُؤَسَّسَةُ الطَّبْعِ وَالنَّشْرِ،

- طَهْرَان، الطَبْعَةُ الْأُولَى - ١٤١١ هـ.
١٦٢. شَرْحُ شَوَاهِدِ الْمُغْنِي. جَلَّالُ الدِّينِ السَّيُوطِي (ت ٩١١ هـ) طَبْعَةُ مَضَر سَنَةِ (١٣٢٢ هـ).
١٦٣. شَرْحُ الْمُوَاهِبِ اللَّدْنِيَّةِ لِمُحَمَّدَ عَبْدِ الْبَاقِي الزَّرْقَانِي (١١٢٢ هـ) دَارُ الْمَعْرِفَةِ بَيْرُوتَ.
١٦٤. شِفَاءُ الْعَلِيلِ. أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدَ شَهَابِ الدِّينِ الْخَفَّاجِي (ت ١٠٦٩ هـ). تَحْقِيقُ: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمُنْعَمِ خَفَّاجِي. طَبْعَةُ الْقَاهِرَةِ.

حَرْفُ الصَّادِ

١٦٥. صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ، لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدَ بْنِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمُغِيرَةِ الْجَعْفِيِّ الْبُخَارِيِّ، (ت ٢٥٦ هـ)، تَحْقِيقُ: مُصْطَفَى دِيبِ الْبَغَا، دَارُ أَبْنِ كَثِيرَ، بَيْرُوتَ، الطَبْعَةُ الرَّابِعَةُ ١٤١٠ هـ، وَمَطْبَعَةُ الْمُصْطَفَائِي ١٣٠٧ هـ.
١٦٦. شَرْحُ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ، عَبْدُ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، لِمَحْمُودَ بْنِ أَحْمَدَ الْعَيْنِيِّ (ت ٨٥٥ هـ ق)، مَطْبَعَةُ الْفَجَّالَةِ الْجَدِيدَةِ - مَضَر ١٣٧٦ هـ.
١٦٧. صَحِيحُ التِّرْمِذِيِّ، لِعِيسَى بْنِ سُوْرَةَ التِّرْمِذِيِّ، (ت ٢٩٧ هـ ق)، طَبْعَةُ بَيْرُوتَ ١٤٠٥ هـ. مَطْبَعَةُ الْمَكْتَبَةِ السَّلَفِيَّةِ بِالْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ.
١٦٨. الصَّحِيحُ مِنْ سِيرَةِ النَّبِيِّ الْأَعْظَمِ ﷺ، السَّيِّدُ جَعْفَرُ مُرْتَضَى الْعَامِلِي. دَارُ الْهَادِي دَارُ السَّيْرَةِ. بَيْرُوتَ - لُبْنَانُ.
١٦٩. صَحِيحُ مُسْلِمَ، لِأَبِي الْحُسَيْنِ مُسْلِمَ بْنِ الْحَجَّاجِ الْقُشَيْرِيِّ النِّسَابُورِيِّ، (ت ٢٦١ هـ ق)، تَحْقِيقُ: مُحَمَّدُ فُوَادُ عَبْدَ الْبَاقِي، طَبْعَةُ - بَيْرُوتَ ١٣٧٤ هـ. دَارُ الْحَدِيثِ - الْقَاهِرَةِ، الطَبْعَةُ الْأُولَى ١٤١٢ هـ، وَدَارُ إِحْيَاءِ التَّرَاثِ الْعَرَبِيِّ، بَيْرُوتَ.

١٧٠. صَفْوَةُ الصَّفْوَةِ، لِأَبِي الْفَرَجِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَلِيٍّ الْجَوَازِيِّ (٥٩٧ هـ).
مُؤَسَّسَةُ الْكُتُبِ الشَّافِعِيَّةِ. بِيْرُوت: لُبْنَان. وَتَحْقِيقُ: مَاخُورِي قَلْعَجِي.
١٧١. الصَّوَاعِقُ الْمَحْرَقَةُ، لِابْنِ حَجَرِ الْهَيْثَمِيِّ (٩٧٤ هـ). تَحْقِيقُ: عَبْدِ الْوَهَّابِ
اللُّطَيْفِ. مَكْتَبَةُ الْقَاهِرَةِ.

خَزَفُ الطَّاءِ

١٧٢. طَبَقَاتُ أَعْلَامِ الشَّيْخَةِ، لِلشَّيْخِ آقَا بُزْرُكِ الطَّهْرَانِيِّ، مُؤَسَّسَةِ إِسْمَاعِيلِيَّانِ،
قَم، الطَّبْعَةُ الثَّانِيَّةُ.
١٧٣. الطَّبَقَاتُ الْكُبْرَى، لِمُحَمَّدِ بْنِ سَعْدِ الْوَاقِدِيِّ الزُّهْرِيِّ (ت ٢٣٠ هـ)، دَارُ
صَادِر، بِيْرُوت ١٤٠٥ هـ، طَبْعَةُ أَوْرُبَا، طَبْعَةُ لَيْدِن.
١٧٤. طَبَقَاتُ الشَّافِعِيَّةِ، لِعَبْدِ الْوَهَّابِ بْنِ عَلِيٍّ تَاجِ الدِّينِ السَّبْكِيِّ (٧٧١ هـ)،
تَحْقِيقُ: الْحَلُو، وَالطَّنَاحِي، دَارُ إِحْيَاءِ الْكُتُبِ الْعَرَبِيَّةِ بِالْقَاهِرَةِ ١٣٩٦ هـ.
١٧٥. طَبَقَاتُ الْحِفَاطِ، لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ جَلَّالِ الدِّينِ السِّيُوطِيِّ (ت ٩١١ هـ)،
طَبْعَةُ بُولَاق.
١٧٦. طَبَقَاتُ الْحَنَابِلَةِ، لِأَبِي يَعْلَى، تَحْقِيقُ: مُحَمَّدُ حَامِدُ الْفَقِي، مَطْبَعَةُ السُّنَّةِ
الْمُحَمَّدِيَّةِ.
١٧٧. طَبَقَاتُ الْفُقَهَاءِ، لِأَبِي إِسْحَاقِ الشَّيْرَازِيِّ الشَّافِعِيِّ (٣٩٣ هـ)، طَبْعُ دَارِ
الرَّائِدِ الْعَرَبِيِّ، الطَّبْعَةُ الثَّانِيَّةُ ١٤٠١ هـ.
١٧٨. طَبَقَاتُ الْمُفَسِّرِينَ لِعَلَاءِ الدِّينِ مُحَمَّدِ بْنِ هَذَايَةِ اللَّهِ الْحَسَنِيِّ الْخَيْرِيِّ
(ت ٩٦٧ هـ) (مَخْطُوط).
١٧٩. طَبَقَاتُ الْمُفَسِّرِينَ، لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ جَلَّالِ الدِّينِ السِّيُوطِيِّ

- (ت ٩١١ هـ)، أخذ بالواسطة.
١٨٠. طَبَقَاتُ النُّحَاة، لعبد الرَّحْمَن بن أَبِي بَكْر جَلَال الدِّين السِّيَوطِي (ت ٩١١ هـ)، أخذ بالواسطة.
١٨١. طَبَقَاتُ الْفُقَهَاء. إِبْرَاهِيم بن عَلِي الشَّيرَازِي، أَبُو إِسْحَاق (ت ٤٧٦ هـ). تَحْقِيق: إِحْسَان عَبَّاس. الطَّبَعَةُ الثَّانِيَّة - بَيْرُوت ١٩٨١ م، وَكَذَلِكَ طَبَعَةٌ - بَغْدَاد.
١٨٢. طَبَقَاتُ فُقَهَاءِ الْيَمَن وَرُؤَسَاءِ الزَّمَن. عُمَر بن عَلِي الْجَعْدِي (ت بعد ٥٨٦ هـ) ابْن أَبِي سَمَرَةَ. تَحْقِيق: فُؤَاد السَّيِّد. طَبَعَةُ الْقَاهِرَةِ (١٩٥٧ م).
١٨٣. طَبَقَاتُ الْمُعْتَزَلَةِ. أَحْمَد بن يَحْيَى الْمُرتَضَى. تَحْقِيق: سَوَسَنة دِيفَلد فِلْزِر. النَّاشِر فِرَانز شَتَاينِر. المَطْبَعَةُ الْكَاثُولِيكِيَّة. بَيْرُوت (١٣٨٠ هـ).
١٨٤. طَبَقَاتُ النُّحَوِينِ وَاللُّغَوِين. مُحَمَّد بن الْحَسَن الزُّبَيْدِي (ت ٣٧٩ هـ). طَبَعَةُ الْقَاهِرَةِ (١٩٥٤ هـ).

حَزَفُ الْعَيْنِ

١٨٥. الْعِبَرُ فِي خَبَرِ مَنْ غَبَرَ. الذَّهَبِيُّ مُحَمَّد بن أَحْمَد بن عُثْمَان (ت ٧٤٨ هـ). بَتَحْقِيق: الدُّكْتُور. صِلَاح الدِّين المُنْجِد. بَتَحْقِيق: فُؤَاد السَّيِّد. طَبَعَةُ الْكُؤِيت (١٩٦٠ - ١٩٦٩ م).
١٨٦. الْعَقِيدَةُ وَالشَّرِيعَةُ فِي الْإِسْلَام، إِبْنَس جُولد تَسِيَهَر.
١٨٧. الْعَقْدُ الْفَرِيد، أَحْمَد بن مُحَمَّد بن عَبْد رَبَّه الْأَنْدَلِسِي (ت ٣٢٨ هـ). دَارُ الْكُتُبِ الْعِلْمِيَّة. بَيْرُوت: لُبْنَان. وَبَتَحْقِيق أَحْمَد أَمِين وَجَمَاعَةُ، طَبَعَةُ الْقَاهِرَةِ. وَتَحْقِيق: مُحَمَّد سَعِيد الْعَرِيَان.
١٨٨. عُمْدَةُ الطَّالِب فِي أَنْسَابِ آلِ أَبِي طَالِب، لِابْنِ عَنبَه أَحْمَد بن عَلِي جَمَال

- الدِّينِ الحُسَيْنِي (ت ٨٢٨ هـ)، المَطْبَعَةُ الحِيدَرِيَّةُ النَّجَفُ الْأَشْرَفُ عَامَ ١٣٨٠ هـ.
١٨٩. عُيُونُ الْأَثَرِ، لِأَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَحْيَى الْمَشْهُورِ بِأَبْنِ سَيِّدِ النَّاسِ (ت ٧٣٤ هـ ق)، طَبْعَةُ دَارِ الْمَعْرِفَةِ - بَيْرُوتَ ١٤٠١ هـ، طَبْعَةُ الْقُدْسِي ١٣٥٦ هـ.
١٩٠. عُيُونُ أَحْبَارِ الرِّضَا عليه السلام، لِأَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدَ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ بَابُويهِ الْقُمِّي الْمَعْرُوفِ بِالشَّيْخِ الصَّدُوقِ (ت ٣٨١ هـ)، مَنَشُورَاتُ الْمَكْتَبَةِ الْحِيدَرِيَّةِ، النَّجَفُ الْأَشْرَفُ.
١٩١. الْعَقْدُ الثَّمِينُ فِي تَبْيِينِ أَحْكَامِ الْأُتَمَّةِ الْهَادِينَ، الْإِمَامُ الْمَنْصُورُ بِاللَّهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حَمْزَةَ الْيَمَنِي (٥٦٦ - ٦١٤ هـ)، تَحْقِيقٌ: عَبَّاسُ الْوَجِيهِ، صَدَرَ عَنْ مُؤَسَّسَةِ الْإِمَامِ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ عليه السلام الثَّقَافِيَّةِ ..
١٩٢. الْعَقْدُ الثَّمِينُ فِي تَارِيخِ الْبَلَدِ الْأَمِينِ. مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ الْفَاسِي (ت ٨٣٢ هـ). تَحْقِيقٌ: السَّيِّدُ وَالطَّنَاحِي. طَبْعَةُ الْقَاهِرَةِ.
١٩٣. الْعَقْدُ الثَّمِينُ فِي إِثْبَاتِ وَصَايَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام لِلْقَاضِي الْحَافِظِ الصَّابِطِ الْمُحَدَّثِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ مُحَمَّدِ الشُّوْكَانِيِّ الْيَمَانِيِّ الصَّنْعَانِيِّ الْمُتَوَفَّى بِمَدِينَةِ صَنْعَاءَ فِي جُمَادَى الْأُخْرَى سَنَةِ ١٢٥٠ هـ. بِتَحْقِيقِنَا.
١٩٤. الْعِلَلُ وَمَعْرِفَةُ الرِّجَالِ. أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدَ بْنِ حَنْبَلٍ (ت ٢٤١ هـ). تَحْقِيقٌ: الدُّكْتُورُ طَلَعْتُ قُورَجُ بِيكْتُ وَدَاوُدُ إِسْمَاعِيلُ جِرَاحُ أَوْغَلِي. طَبْعَةُ أَنْقَرَه (١٩٦٣ م).
١٩٥. عِلَلُ الْحَدِيثِ. عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ إِدْرِيسَ الرَّازِي، أَبْنُ أَبِي خَاتَمٍ (ت ٣٢٧ هـ). تَحْقِيقٌ: مُحَبُّ الدِّينِ الْخَطِيبِ. طَبْعَةُ الْقَاهِرَةِ (١٣٤٣ هـ).
١٩٦. عُلُومُ الْحَدِيثِ (الْفَلَكَ الدَّوَّارِ). إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدِ الْوَزِيرِ. تَحْقِيقٌ: مُحَمَّدُ يَحْيَى سَالِمُ عَزَانَ. ١٤١٥ هـ / ١٩٩٤ م. مَكْتَبَةُ التُّرَاثِ الْإِسْلَامِيِّ. صَعْدَةُ، دَارُ التُّرَاثِ. صَنْعَاءَ. ج. ي.

١٩٧. عُمْدَةُ الْقَارِئ (شَرْحُ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ). بَدْرُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ الْعَيْنِي (٨٥٥ هـ). دَارُ إِحْيَاءِ التُّرَاثِ الْعَرَبِيِّ - بَيْرُوت.
١٩٨. الْعُمْدَةُ. الْحَسَنُ بْنُ رَشِيقٍ (ت ٤٥٦ هـ). تَحْقِيقُ: مُحَمَّدُ مُحْيِي الدِّينِ عَبْدِ الْحَمِيدِ طَبْعَةُ الْقَاهِرَةِ.

خَرْفُ الْغَيْنِ

١٩٩. الْغَارَات، لِأَبِي إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ سَعِيدِ الْمَعْرُوفِ بِأَبْنِ هِلَالِ الثَّقَفِيِّ، مَنَشُورَاتُ أَنْجَمِ آثَارِ مَلْيٍ - طَهْرَان.
٢٠٠. الْغَدِيرُ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْأَدَبِ، عَبْدُ الْحُسَيْنِ أَحْمَدُ الْأَمِينِيُّ النَّجْفِيُّ.
- ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م. دَارُ الْكِتَابِ الْعَرَبِيِّ. بَيْرُوت - لُبْنَان.
٢٠١. غَايَةُ النَّهْيَةِ. مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدَ الْجَزْرِيِّ (ت ٨٣٣ هـ). تَحْقِيقُ: بَرَجِسْتَرَسَر. طَبْعَةُ الْقَاهِرَةِ (١٩٣٢ م).

خَرْفُ الْفَاءِ

٢٠٢. الْفِتْنَةُ الْكُبْرَى عَلَيَّ وَبَنُوهُ، لِلدَّكْتُورِ طَهْ حُسَيْنٍ، طَبْعُ دَارِ الْهِلَالِ.
٢٠٣. فَتَحُ الْبَارِي شَرْحُ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ، مُحَمَّدُ بْنُ حَبِيبِ الْبَغْدَادِيِّ (ت ٢٤٥ هـ). طَبْعَةُ بُولَاق (١٣٠١ هـ). طَبْعَةُ السَّلَفِيَّةِ (١٣٩٠ هـ).
٢٠٤. فَتَحُ الْبَارِي شَرْحُ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ، لِأَحْمَدَ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ حَجَرِ الْعَسْقَلَانِيِّ، (ت ٨٥٢ هـ ق)، النَّاشِرُ: دَارُ إِحْيَاءِ التُّرَاثِ الْعَرَبِيِّ، بَيْرُوت، وَالْمَطْبَعَةُ السَّلَفِيَّةُ مَضَر ١٣٨٠ هـ، وَتَحْقِيقُ: عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بَازٍ - الْقَاهِرَةُ ١٣٩٨ هـ.
٢٠٥. أَلْفَتْحُ الْقَدِيرِ (تَفْسِيرُ)، لِمُحَمَّدَ بْنِ عَلِيٍّ الشُّوْكَانِيِّ، (ت ١٢٥٠ هـ)، دَارُ

- إحياء التُّراث العربي، طَبْعَةُ دَارِ الْكُتُبِ الْعِلْمِيَّةِ بَيْرُوت ١٤٠٣ هـ.
٢٠٦. الفُتُوح، أَحْمَدُ بْنُ أَعْتَمَ الْكُوفِي. أَجْزَاء. دَائِرَةُ الْمَعَارِفِ الْحَيْدَرِيَّة.
- النَّجَف ١٩٦٢ م / ١٣٨٢ هـ.
٢٠٧. فُتُوح الْبُلْدَان، أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى الْبَلَّاذِرِي (ت ٢٧٩ هـ). تَحْقِيق: رِضْوَانُ مُحَمَّدٍ رِضْوَان. السَّعَادَةُ، الْقَاهِرَةُ (١٩٩ م)، وَكَذَا طَبْعَةُ (١٣١٩ هـ).
٢٠٨. الْفَخْرِي فِي أَنْسَابِ الطَّالِبِينَ، لِلْسَّيِّدِ عَزِّ الدِّينِ بْنِ أَبِي طَالِبِ إِسْمَاعِيلِ بْنِ الْحُسَيْنِ. تَحْقِيق: السَّيِّدِ مَهْدِي الرَّجَائِي. مَكْتَبَةُ آيَةِ اللَّهِ الْعُظْمَى الْمَرْعَشِي. قُم (١٩٨٩ م / ١٤٠٩ هـ).
٢٠٩. الْفَرْدُوسُ بِمَأْثُورِ الْخِطَابِ، لِأَبِي شَجَاعِ شِيرَوِيهِ بْنِ شَهْرْدَارِ بْنِ شِيرَوِيهِ أَبِنْ فَنَّا خُسْرُو الدَّيْلَمِيِّ الْهَمْدَانِيِّ (إِلْكِيَا) (ت ٥٠٩ هـ ق)، تَحْقِيق: السَّعِيدُ بْنُ بَسِيُونِي زَغْلُولِ طَبْعَةُ دَارِ الْكُتُبِ الْعِلْمِيَّةِ بَيْرُوت، الطَّبْعَةُ الْأُولَى ١٤٠٦ هـ، وَ ١٤١٩ هـ.
٢١٠. فَرَائِدُ السَّمُطَيْنِ فِي فَضَائِلِ الْمُتَرْضَى وَالْبُتُولِ وَالسَّبْطِينَ وَالْأَيْمَةِ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمْ، لِإِبْرَاهِيمَ أَبِنْ مُحَمَّدٍ بْنِ الْمُؤَيَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْجُوَيْنِيِّ الْحُمُوْنِيِّ، (ت ٧٢٢ هـ أَوْ ٧٣٠ هـ ق)، تَحْقِيق: مُحَمَّدٌ بَاقِرُ الْمُحْمُودِيِّ، طَبْعَةُ مُؤَسَّسَةِ الْمُحْمُودِيِّ بَيْرُوت ١٣٩٨ هـ.
٢١١. الْفِئَةُ الْمَنْسُوبُ لِلْإِمَامِ الرِّضَا عليه السلام، مُؤَسَّسَةُ آلِ الْبَيْتِ عليه السلام لِإِحْيَاءِ التُّرَاثِ، قُم، نَشْرُ الْمُؤْتَمَرِ الْعَالَمِيِّ لِلْإِمَامِ الرِّضَا عليه السلام - مَشْهَدُ الْمُقَدَّسِ طَبْعَةُ (١٤٠٦ هـ).
٢١٢. فَيْضُ الْقَدِيرِ، لِمُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ الشُّوْكَانِيِّ، (ت ١٢٥٠ هـ)، طَبْعُ دَارِ الصَّحَابَةِ.
٢١٣. فَيْضُ الْقَدِيرِ شَرْحُ الْجَامِعِ الصَّغِيرِ، لِأَبِي زَكَرِيَا يَحْيَى بْنِ مُحَمَّدٍ عَبْدِ

الرؤوف المناوي (ت ١٠٣١ هـ ق)، الطبعة الأولى - القاهرة ١٣٥٦ هـ.

٢١٤. الفُصولُ المُهمّةُ في معرفة الأئمّة. عليّ بن مُحمّد الصّباغ المالكي (٨٥٥ هـ). مُؤسّسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت. (١٤٠٨ هـ)، وكذا طبعة الحيدريّة - النّجف. العِراق عام (١٣٨١ هـ)، وكذا طبعة دار الحديث قم.

٢١٥. الفضائل، لأبي الفضل سديد الدين شاذان بن جبريل بن إسماعيل بن أبي طالب القمي (ت ٦٦٠ هـ)، طبعة دار الكتاب العربي بيروت ١٤٠٦ هـ، والمطبعة الحيدرية النّجف الأشرف، الطبعة الأولى ١٣٣٨ هـ.

٢١٦. الفقيه (من لا يحضره الفقيه)، لأبي جعفر مُحمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه القمي المعروف بالشّيخ الصدوق (ت ٣٨١ هـ)، طبعة مُؤسّسة النّشر الإسلامي قم. مُؤسّسة الأعلمي - بيروت، الطبعة الخامسة ١٤٠٠ هـ.

٢١٧. فضائل الصّحابة، لأبي عبد الله أحمد بن مُحمّد حنبل الشّيباني (٢٤١ هـ)، تحقّق: وصي الله بن مُحمّد عبّاس، دار العلم، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ، وطبعة جامعة أمّ القرى السّعودية.

٢١٨. فضائل الخمسة من الصّحاح الستة، لمُرتضى الحسيني الفيروز آبادي، مُؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٧٣ م.

٢١٩. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التّفسير. مُحمّد بن عليّ الشّوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) بدون ذكر لرقم وتأريخ الطبع. طبعة دار المعرفة. بيروت - لبنان.

٢٢٠. الفهرست، لأبي جعفر مُحمّد بن الحسن المعروف بالشّيخ الطوسي (ت ٤٦٠ هـ ق)، طبعة - بيروت ١٤١٢ هـ.

٢٢١. فيض القدير، لمُحمّد بن عليّ الشّوكاني، (ت ١٢٥٠ هـ)، طبع دار

الصَّحَابَةُ .

٢٢٢. فَوَاتُ الْوَفِيَّاتِ . مُحَمَّدُ بْنُ شَاكِرِ الْكُتَيْبِيِّ (ت ٧٦٤ هـ) . تَحْقِيقٌ : إِحْسَانُ عَبَّاسٍ . طَبْعَةُ بَيْرُوت (١٩٧٣ م) .
٢٢٣. فِي رِحَابِ أَيْمَةِ أَهْلِ الْبَيْتِ . مُحْسِنُ الْأَمِينِ . طَبْعَةُ دَارِ التَّعَارُفِ . بَدُونُ ذِكْرِ لَزَقَمٍ وَتَارِيخِ الطَّبْعِ . بَيْرُوت - لُبْنَانُ .

خَزَفُ الْقَافِ

٢٢٤. الْفَلَسَفَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ فِي أَعْمَالِ الْفَلَسُوفِ الْإِسْلَامِيِّ الْعَظِيمِ صَدْرِ الدِّينِ الشَّيرَازِيِّ ، مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْقَوَامِيِّ الشَّيرَازِيِّ (٩٧٩ هـ - ١٠٥٠ هـ) .
٢٢٥. فَلَاسَفَةُ التَّوْحِيدِ وَالْوَلَايَةِ ، الشَّيْخُ مُحَمَّدُ جَوَادُ مُغْنِيَّةٍ .
٢٢٦. قَامُوسُ الرِّجَالِ فِي تَحْقِيقِ رَوَاةِ الشَّيْخَةِ وَمُحَدِّثِهِمْ ، لِمُحَمَّدِ تَقِيِّ بْنِ كَاسِمٍ التُّسْتَرِيِّ (ت ١٣٢٠ هـ) ، مُؤَسَّسَةُ النَّشْرِ الْإِسْلَامِيِّ ، قُمْ طَبْعَةُ الثَّانِيَةِ ١٤١٠ هـ .
٢٢٧. الْقَامُوسُ الْمُحِيطُ ، لِمُحَمَّدِ بْنِ يَعْقُوبَ الْفَيْرُوزِ آبَادِي ، مَطْبَعَةُ مُصْطَفَى الْبَابِي الْحَلْبِيِّ الْقَاهِرَةِ ، الطَّبْعَةُ الثَّانِيَةُ ١٩٥٢ م .
٢٢٨. الْقَامُوسُ ، لِمُحَمَّدِ مُزْتَضَى الزَّيْدِيِّ (ت ١٢٠٥ هـ ق) ، طَبْعَةُ دَارِ إِحْيَاءِ الثَّرَاثِ الْعَرَبِيِّ - بَيْرُوت ١٤٠٥ هـ .
٢٢٩. قِصَصُ الْأَنْبِيَاءِ . عَبْدُ الْوَهَّابِ النَّجَّارِ . طَبْعَةُ دَارِ إِحْيَاءِ الثَّرَاثِ الْعَرَبِيِّ . بَيْرُوت - لُبْنَانُ .
٢٣٠. الْقَوْلُ الْمُبِينُ فِي فَضَائِلِ أَهْلِ الْبَيْتِ الْمُطَهَّرِينَ :، مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ سُلَيْمَانَ الْعَزِي ، طَبْعُ مُؤَسَّسَةِ الْإِمَامِ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ الثَّقَافِيَّةِ .

حَزَفُ الْكَافِ

٢٣١. الكافي (الأصول)، المطبعة الإسلامية. عام (١٣٨٨ هـ. ق). طهران، ثمَّ طَبِعَ سَنَةَ (١٣٧٧ هـ. ق) الحيدري. طهران - إيران.
٢٣٢. الكامل في التاريخ، لأبي الحسن علي بن أبي الكرام مُحَمَّد مُحَمَّد بن عبد الكريم الشَّيباني المعروف بِأَبْنِ الأَثِير (ت ٦٣٠ هـ). غُني بِمَرَاجَعَةِ أَصُولِهِ: نُخْبَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ. دَارُ الْكِتَابِ الْعَرَبِيِّ. بَيْرُوت - لُبْنَان.
٢٣٣. كَنْزُ الْعَمَالِ فِي سُنَنِ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ، لِعَلَاءِ الدِّينِ عَلِيِّ الْمُتَّقِيِّ أَبْنِ حُسَامِ الدِّينِ الْهِنْدِيِّ (ت ٩٧٥ هـ)، تَصْحِيحُ صَفْوَةِ السَّقَا، مَكْتَبَةُ التَّرَاثِ الْإِسْلَامِيِّ - بَيْرُوت، الطَّبْعَةُ الْأُولَى ١٣٩٧ هـ، وَطَبِعَ دَارُ الْوَعْيِ حَلَبَ ١٣٩٦ هـ.
٢٣٤. كَشَفُ الْغُمَةِ فِي مَعْرِفَةِ الْأَيْمَةِ، لِعَلِيِّ بْنِ عَيْسَى الْإِرْبِلِيِّ (ت ٦٨٧ هـ)، تَصْحِيحُ هَاشِمِ الرِّسُولِيِّ الْمَحَلَاتِيِّ، دَارُ الْكِتَابِ الْإِسْلَامِيِّ، بَيْرُوت، الطَّبْعَةُ الْأُولَى ١٤٠١ هـ، طَبْعَةُ تَبْرِيزِ بَدُونِ تَارِيخ.
٢٣٥. كَشَفُ الْمُرَادِ، لَجَمَالِ الدِّينِ أَبِي مَنْصُورِ الْحَسَنِ بْنِ يُوسُفَ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ الْمُطَهْرِ الْجَلِيِّ (ت ٧٢٦ هـ) طَبْعَةُ دَارِ الْفِكْرِ، وَدَارُ إِحْيَاءِ التَّرَاثِ بَيْرُوت.
٢٣٦. الْكَشَافُ عَنْ حَقَائِقِ التَّنْزِيلِ وَعُيُونِ الْأَقَاوِيلِ فِي وَجُوهِ التَّأْوِيلِ. أَبِي الْقَاسِمِ جَارِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ الْخَوَارِزْمِيِّ (٤٦٧ - ٥٣٨ هـ) وَمَعَهُ: حَاشِيَةُ الْجُرْجَانِيِّ وَكِتَابُ الْإِنْصَافِ. ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م. دَارُ الْفِكْرِ. بَيْرُوت - لُبْنَان.
٢٣٧. كَشَفُ الظُّنُونِ. عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ إِدْرِيسِ الرَّازِيِّ، أَبْنِ أَبِي حَاتِمٍ (ت ٣٢٧ هـ). طَبْعَةُ أَسْتَانْبُولِ (١٩٤١ م).
٢٣٨. الكافي (الأصول)، المطبعة الإسلامية. عام (١٣٨٨ هـ. ق). طهران، ثمَّ طَبِعَ سَنَةَ (١٣٧٧ هـ. ق) الحيدري. طهران - إيران.

٢٣٩. الكامل في الصُّعفاء . عبدالله بن عدي (ت ٣٦٥ هـ) . تحقيق : عبدالمعطي قلعجي . طبعة بيروت ١٩٨٤ م .

٢٤٠. كتاب الأصول ، الإمام المرتضى لدين الله محمد بن الإمام الهادي يحيى بن الحسين بن الإمام القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الإمام الحسن ابن الإمام الحسن بن الإمام علي بن أبي طالب : (ت ٣١٠ هـ) . تحقيق : عبدالله بن حمود العزي ، طبع مؤسسة الإمام زيد الثقافية .

٢٤١. الكنى والأسماء . محمد بن أحمد الدوالي (ت ٣١٠ هـ) . طبعة حيدر آباد (١٣٢٢ هـ) .

٢٤٢. الكنى والأسماء . مسلم بن الحجاج (ت ٢٦١ هـ) . تقديم : مطاع الطرايشي . طبعة دمشق ١٩٨٤ .

٢٤٣. اللباب في تهذيب الأنساب . لابن الأثير صاحب التاريخ . طبعة مصر ١٣٥٦ - ١٣٦٩ هـ .

٢٤٤. الكاشف المختصر المحتاج إليه من تاريخ ابن الدبستي . محمد بن أحمد ابن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨ هـ) . تحقيق : مصطفى جواد . طبعة بغداد (١٩٥١ - ١٩٧٧ م) .

٢٤٥. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، لمصطفى بن عبدالله القسطنطيني (ت ١٠٦٧ هـ ق) ، طبعة - القاهرة ١٣٨٩ هـ .

٢٤٦. كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون ، حاجي خليفة ، منشورات مكتبة المشي ، بغداد .

٢٤٧. اللباب في تهذيب الأنساب . لابن الأثير صاحب التاريخ . طبعة مصر ١٣٥٦ - ١٣٦٩ هـ .

٢٤٨. كَيْفَ يَحْيَا الْإِنْسَانُ «تَغْلِيْقُ الْفَيْلْفُوسِ الصِّينِيِّ» «لِابْنِ يُونَانَج».

حَرْفُ اللَّامِ

٢٤٩. اللَّبَابُ، لِأَبِي السَّعَادَاتِ مَجْدِ الدِّينِ الْمُبَارَكِ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ مُحَمَّدِ الْمَعْرُوفِ بِأَبْنِ الْأَثِيرِ الشَّيْبَانِيِّ الشَّافِعِيِّ، (ت ٦٠٦ هـ)، طَبْعَةُ بُولَاق.
٢٥٠. لِابْنِ النَّقُولِ فِي أَسْبَابِ النَّزُولِ، لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ جَلَّالِ الدِّينِ السَّيُوطِيِّ (ت ٩١١ هـ)، طَبْعَةُ مُصْطَفَى الْبَابِيِّ الْحَلَبِيِّ.
٢٥١. لِسَانَ الْعَرَبِ، لِأَبِي الْفَضْلِ جَمَالِ الدِّينِ مُحَمَّدَ بْنِ مُكْرَمِ بْنِ مَنْظُورِ الْأَفْرِيقِيِّ الْمَصْرِيِّ، (ت ٧١١ هـ ق)، الطَّبْعَةُ الْأُولَى دَارِ صَادِرٍ - بَيْرُوت ١٤١٠ هـ.
٢٥٢. لِسَانَ الْمِيزَانِ، لِأَبِي الْفَضْلِ أَحْمَدَ بْنِ عَلِيِّ بْنِ حَجَرِ الْعَسْقَلَانِيِّ (ت ٨٥٢ هـ ق)، تَحْقِيقُ: عَادِلِ أَحْمَدَ عَبْدِ الْمَوْجُودِ، وَعَلِيِّ مُحَمَّدَ مُعَوِضَ، طَبْعَةُ دَارِ الْكُتُبِ الْعِلْمِيَّةِ بَيْرُوتَ، الطَّبْعَةُ الْأُولَى ١٤١٦ هـ.

حَرْفُ الْمِيمِ

٢٥٣. مَجْمَعُ الرُّجَالِ، لِمُحَمَّدَ قَاسِمِ بْنِ الْأَمِيرِ مُحَمَّدَ الطَّبَّاطِبَانِيِّ الْحَسَنِيِّ الْحُسَيْنِيِّ الْقَهْطَائِيِّ (ت ١١٢٦ هـ)، تَحْقِيقُ: ضِيَاءِ الدِّينِ الْأَصْبَهَانِيِّ، مُؤَسَّسَةُ إِسْمَاعِيلِيَّانَ، قُمْ.
٢٥٤. مَآثِرُ الْإِنَافَةِ فِي مَعَالِمِ الْخِلَافَةِ، لِأَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْقَلْقَشَنْدِيِّ (ت ٨٢١ هـ) تَحْقِيقُ: عَبْدِ السَّاتَرِ فَرَّاجَ، طَبْعَةُ عَالَمِ الْكُتُبِ بَيْرُوتَ.
٢٥٥. الْمِئْتَةُ الْمُخْتَارَةُ، لِعَمْرُو بْنِ بَحْرِ الْجَاحِظِ بْنِ مَحْبُوبِ الْكَتَّانِيِّ اللَّيْثِيِّ (ت ٢٥٥ هـ).

٢٥٦. مَا أَنْزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ فِي عَلِيٍّ، لِمُحَمَّدِ بْنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ مَرْوَانَ (الْحَبَّام).

٢٥٧. مَجْمَعُ الزَّوَائِدِ وَمَنْبَعُ الْفَوَائِدِ، لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي بَكْرٍ الْهَيْثَمِيِّ (ت ٨٠٧ هـ)، تَحْقِيقُ: عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدَ دَرَوِيش، طَبْعَةُ دَارِ الْفِكْرِ، الطَّبْعَةُ الْأُولَى - بَيْرُوت ١٤١٢ هـ)، مُصَوَّرَةٌ عَنْ طَبْعَةِ الْقُدْسِيِّ ١٣٨٩ هـ، طَبْعَةُ - الْقَاهِرَةِ الثَّانِيَّةُ بِدُونِ تَأْرِيخٍ.

٢٥٨. الْمَحَاسِنُ، لِأَبِي جَعْفَرٍ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ خَالِدِ الْبَرْقِيِّ (ت ٢٨٠ هـ)، تَحْقِيقُ: السَّيِّدِ مَهْدِي الرَّجَائِيِّ، الْمَجْمَعُ الْعَالَمِيُّ لِأَهْلِ الْبَيْتِ - قُمْ، الطَّبْعَةُ الْأُولَى ١٤١٣ هـ.

٢٥٩. الْمُخْتَصَرُ، الْحَسَنُ بْنُ سُلَيْمَانَ الْجَلِيِّ، طَبْعَةُ النَّجَفِ الْأَشْرَفِ.
٢٦٠. الْمُحَلَّى، لِأَبِي مُحَمَّدَ عَلِيٍّ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ سَعِيدِ بْنِ حَزَمِ الظَّاهِرِيِّ، دَارُ الْفِكْرِ.

٢٦١. مُرُوجُ الذَّهَبِ وَمَعَادِنُ الْجَوْهَرِ، لِأَبِي الْحَسَنِ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ الْمَسْعُودِيِّ (ت ٣٤٦ هـ)، تَحْقِيقُ: مُحَمَّدُ مُحْيِي الدِّينِ عَبْدِ الْحَمِيدِ، مَطْبَعَةُ السَّعَادَةِ، الطَّبْعَةُ الرَّابِعَةُ - الْقَاهِرَةُ ١٣٨٤ هـ.

٢٦٢. مُسْتَدْرَكُ الْوَسَائِلِ وَمُسْتَنْبَطُ الْمَسَائِلِ، لِلشَّيْخِ الْعِمْرَانِ حُسَيْنِ التَّوْرِيِّ، طَبْعَةُ طَهْرَانَ نَاصِرِ خَسْرُو.

٢٦٣. الْمُسْتَدْرَكُ عَلَى الصَّحِيحَيْنِ، لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْحَاكِمِ النَّيْسَابُورِيِّ، دَارُ الْكُتُبِ الْعِلْمِيَّةِ - بَيْرُوت، الطَّبْعَةُ الْأُولَى ١٤١١ هـ، طَبْعَةُ حَيْدَرِآبَاد.

٢٦٤. مُسْنَدُ الْإِمَامِ الرِّضَا عليه السلام، الْمَنْسُوبُ إِلَى الْإِمَامِ الرِّضَا، مُؤَسَّسَةُ الْإِمَامِ

- المهدي (عجل الله تعالى فرجه) - قم، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ.
٢٦٥. مُسْنَدُ الْإِمَامِ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ زَيْنِ الْعَابِدِينَ، جَمَعَ عَلِيُّ بْنُ سَالِمِ الصَّنْعَانِيِّ، طَبْعَةُ دَارِ الصَّحَابَةِ ١٤١٢ هـ. طَهْرَانُ دَارِ الْكُتُبِ الْإِسْلَامِيَّةِ، الطَّبْعَةُ الثَّانِيَّةُ.
٢٦٦. مُسْنَدُ أَحْمَدَ، لِمُحَمَّدَ بْنِ حَنْبَلِ الشَّيْبَانِيِّ (ت ٢٤١ هـ ق)، تَحْقِيقُ: عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدَ الدَّرَوِيشَ، طَبْعَةُ دَارِ الْفِكْرِ، الطَّبْعَةُ الثَّانِيَّةُ - بَيْرُوتُ ١٤١٤ هـ، طَبْعَةُ جَامِعَةِ الْقُرْآنِ السُّعُودِيَّةِ، طَبْعَةُ دَارِ الْعِلْمِ ١٤٠٣ هـ.
٢٦٧. مُسْنَدُ أَبِي مَاجَةَ، لِمُحَمَّدَ بْنِ يَزِيدَ الْقَزْوِينِيِّ (ت ٢٧٥ هـ ق)، تَحْقِيقُ: فُؤَادُ عَبْدِ الْبَاقِي، نَشْرُ دَارِ الْفِكْرِ، طَبْعَةُ - بَيْرُوتُ ١٣٧١ هـ، دَارُ إِحْيَاءِ الثَّرَاثِ، بَيْرُوتُ، الطَّبْعَةُ الْأُولَى ١٣٩٥ هـ.
٢٦٨. مُسْنَدُ الطَّيَالِسِيِّ، لِسُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ الطَّيَالِسِيِّ (ت ٢٠٤ هـ ق)، طَبْعَةُ دَارِ الشَّادِرِ - بَيْرُوتُ ١٤٠٢ هـ.
٢٦٩. الْمُوطَّأُ الْإِمَامِ مَالِكِ الْأَصْبَحِيِّ الْحِمَيْرِيِّ. تَحْقِيقُ: مُحَمَّدَ فُؤَادَ عَبْدِ الْبَاقِي. مَكْتَبَةُ الثَّقَافِيَّةِ. بَيْرُوتُ - لُبْنَانُ بِالإِضَافَةِ إِلَى طَبْعَاتٍ أُخْرَى، وَكَذَا طَبْعَةُ الْقَاهِرَةِ.
٢٧٠. مَصَابِيحُ السُّنَّةِ، الْبَغْوِيُّ الشَّافِعِيُّ، طَبَعَ مُحَمَّدَ عَلِيٌّ صَبِيحٌ.
٢٧١. مَطَالِبُ السُّؤُولِ فِي مَنَاقِبِ آلِ الرَّسُولِ، لِكَمَالِ الدِّينِ مُحَمَّدَ بْنِ طَلْحَةَ الشَّافِعِيِّ (ت ٦٥٤ هـ)، النَّجْفُ الْأَشْرَفُ، وَنُسْخَةُ خَطِيئَةٍ فِي مَكْتَبَةِ الْمَرْعَشِيِّ قُمْ.
٢٧٢. الْمُصَنَّفُ، عَبْدِ الرَّزَّاقِ بْنِ هَمَّامِ الصَّنْعَانِيِّ (٢١١ هـ). تَحْقِيقُ: حَبِيبُ الرَّحْمَنِ الْأَعْظَمِيِّ. مَنَشُورَاتُ الْمَجْلِسِ الْعِلْمِيِّ، طَبْعَةُ بَيْرُوتُ سَنَةِ (١٣٩٠ هـ) وَمَا بَعْدَهَا.
٢٧٣. الْمَعَارِفُ، لِأَبِي مُحَمَّدَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُسْلِمِ الْمَعْرُوفِ بِأَبْنِ قُتَيْبَةَ الدِّينَوْرِيِّ (ت ٢٧٦ هـ ق)، حَقَّقَهُ وَقَدَّمَ لَهُ ثُرُوتُ عُكَاشَه: مَنَشُورَاتُ الشَّرِيفِ الرَّضِيِّ الطَّبْعَةُ

الأولى ١٤١٥ هـ.

٢٧٤. مَعَالِمُ التَّنْزِيلِ، لِمُحَمَّدِ الْحُسَيْنِ بْنِ مَسْعُودِ الْفَرَّاءِ الْبَغَوِيِّ (ت ٥١٦ هـ ق)،
تَحْقِيقُ: خَالِدُ مُحَمَّدَ الْعَكِ، وَمَرْوَانَ سَوَّارَ، نَشَرُ دَارَ الْمَعْرِفَةِ، الطَّبَعَةُ الثَّانِيَّةُ -
بَيْرُوتَ ١٤٠٧ هـ.

٢٧٥. مَعَالِمُ الْعِتْرَةِ النَّبَوِيَّةِ وَمَعَارِفُ الْأَيْمَةِ أَهْلِ الْبَيْتِ الْفَاطِمِيَّةِ، لِأَبِي مُحَمَّدٍ تَقِيِّ
الدِّينِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ الْمُبَارَكِ بْنِ الْأَخْضَرِ الْجَنَابِذِيِّ الْحَنْبَلِيِّ
(٥٢٤-٦١١ هـ)، (مَخْطُوطٌ)، وَمَطْبُوعٌ فِي بَيْرُوتَ ١٤٠٧ هـ.

٢٧٦. مُعْجَمُ الْبُلْدَانِ، لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ شَهَابِ الدِّينِ يَاقُوتَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْحَمَوِيِّ
الرُّومِيِّ (ت ٦٢٦ هـ)، طَبَعَةُ دَارِ إِحْيَاءِ الثَّرَاثِ الْعَرَبِيِّ بِبَيْرُوتَ الطَّبَعَةُ
الأولى ١٣٩٩ هـ ق.

٢٧٧. الْمُعْجَمُ الصَّغِيرُ، لِأَبِي الْقَاسِمِ سُلَيْمَانَ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ أَيُّوبَ بْنِ مُطِيرِ
اللَّخْمِيِّ الشَّامِيِّ الطَّبْرَانِيِّ (ت ٣٦٠ هـ)، تَحْقِيقُ: مُحَمَّدُ عُثْمَانُ، دَارُ الْفِكْرِ،
بَيْرُوتَ، الطَّبَعَةُ الثَّانِيَّةُ ١٤٠١ هـ.

٢٧٨. الْمُعْجَمُ الْأَوْسَطُ، أَبُو الْقَاسِمِ سُلَيْمَانُ بْنُ أَحْمَدَ الطَّبْرِيِّ (٣٦٠ هـ). مَكْتَبَةُ
الْمَعَارِفِ - الرِّيَاضِ. الطَّبَعَةُ الْأُولَى (١٤٠٧ هـ). قَامَ بِإِخْرَاجِهِ: إِسْرَاهِيمُ مُظْفَرُ
وآخَرُونَ. تَحْتَ إشرَافِ: مَجْمَعِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ - مَصرَ.

٢٧٩. الْمُعْجَمُ الْكَبِيرُ، لِأَبِي الْقَاسِمِ سُلَيْمَانَ بْنِ أَحْمَدَ اللَّخْمِيِّ الطَّبْرَانِيِّ
(ت ٣٦٠ هـ)، تَحْقِيقُ: حَمْدِي عَبْدَ الْمَجِيدِ السَّلْفِيِّ، دَارِ إِحْيَاءِ الثَّرَاثِ الْعَرَبِيِّ،
بَيْرُوتَ الطَّبَعَةُ الثَّانِيَّةُ ١٤٠٤ هـ.

٢٨٠. الْمَغَازِي، لِمُحَمَّدِ بْنِ سَعْدِ الْوَاقِدِيِّ الرَّهْرِيِّ، (ت ٢٣٠ هـ)، تَحْقِيقُ:
الدَّكْتُورَ مَارْسُونِ جُونِسَ، مُؤَسَّسَةَ الْأَعْلَمِيَّ لِلْمَطْبُوعَاتِ، بَيْرُوتَ، وَطَبَعَةُ مَصرَ،

الذَّارِ الْعَامِرَةِ .

٢٨١. الْمُغْنِي، لِأَبِي مُحَمَّدٍ مُوفِقِ الدِّينِ مُحَمَّدَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ قُدَّامَةَ الْمَقْدِسِيِّ (ت ٦٢٠ هـ)، دَارُ الْكِتَابِ الْعَرَبِيِّ بِبِزْرُوت ١٣٥٩ هـ، طَبْعَةُ مُحَمَّدَ عَلِيٍّ صَبِيحٍ وَأَوْلَادِهِ .

٢٨٢. الْمُغْنِي، لِأَبِي مُحَمَّدَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ قُدَّامَةَ الْمَقْدِسِيِّ، عَلَى مُخْتَصَرِ لِأَبِي الْقَاسِمِ عُمَرَ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَحْمَدَ الْخَرَقِيِّ مَطْبَعَةُ الْمَنَارِ - مَضْرُ ١٣٤٢ هـ .

٢٨٣. مُغْنِي الْمُحْتَاجِ إِلَى مَعْرِفَةِ مَعَانِي أَلْفَاظِ الْمِنْهَاجِ، الشَّرْحُ لِلشَّيْخِ مُحَمَّدَ الشَّرِيفِيِّ الْهَجَرِيِّ، دَارُ إِحْيَاءِ التَّرَاثِ الْعَرَبِيِّ، بِبِزْرُوت .

٢٨٤. مَنَاقِبُ آلِ أَبِي طَالِبٍ، لِأَبِي جَعْفَرٍ رَشِيدِ الدِّينِ مُحَمَّدَ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ شَهْرِ أَشُوبِ الْمَازَنْدَرَانِيِّ (ت ٥٨٨ هـ)، الْمَطْبَعَةُ الْعِلْمِيَّةُ قُمْ، طَبْعَةُ النَّجَفِ الْأَشْرَفِ .

٢٨٥. مَنَاقِبُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، لِمُحَمَّدَ بْنِ سُلَيْمَانَ الْكُوفِيِّ الْقَاضِي (ت ٣٠٠ هـ)، تَحْقِيقُ: مُحَمَّدَ بَاقِرِ الْمَحْمُودِيِّ، مَجْمَعُ إِحْيَاءِ الثَّقَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، قُمْ، الطَّبْعَةُ الْأُولَى ١٤١٢ هـ .

٢٨٦. مَنَاقِبُ الْمَغَازِلِيِّ، لِأَبِي الْحَسَنِ عَلِيٍّ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ مُحَمَّدَ الْوَاسِطِيِّ الشَّافِعِيِّ الْمَعْرُوفِ بِأَبْنِ الْمَغَازِلِيِّ (ت ٤٨٣ هـ)، إِعْدَادُ: مُحَمَّدَ بَاقِرِ الْمَحْمُودِيِّ، دَارُ الْكُتُبِ الْإِسْلَامِيَّةِ، طَهْرَانَ، الطَّبْعَةُ الثَّانِيَّةُ ١٤٠٢ هـ .

٢٨٧. مَقَاتِلُ الطَّالِبِيِّينَ، أَبُو الْفَرَجِ عَلِيٌّ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ مُحَمَّدَ الْقَرَشِيِّ الْإِصْبَهَانِيِّ الْأُمُورِيِّ (٢٨٤ - ٣٥٦ هـ). شَرْحُ وَتَحْقِيقُ: السَّيِّدُ أَحْمَدُ صَقَرٍ. مُؤَسَّسَةُ الْأَعْلَمِيِّ . بِبِزْرُوت - لُبْنَانُ .

٢٨٨. مَقَاتِلُ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَضْرَعُ أَهْلِ بَيْتِهِ وَأَصْحَابِهِ بِكَرْبَلَاءَ (الْمُسْتَهَر: مَقَاتِلُ

- أَبِي مِخْنَفٍ)، أَبُو مِخْنَفٍ لُوطُ بْنُ يَحْيَى. مَكْتَبَةُ الْعُلُومِ الْعَامَةِ. الْبَحْرَيْن. مَكْتَبَةُ الْخَيْر. صَنْعَاء - ج. ي. (مُصَوَّرٌ عَنْ أَصْلِ مَخْطُوطٍ) يَقَعُ فِي (١٤٤) صَفْحَةً.
٢٨٩. مُثْقَلُ الْحُسَيْنِ، لِمَوْفِقِ بْنِ أَحْمَدَ الْمَكِّي الْخَوَارِزْمِيِّ الْحَنْفِيِّ (ت ٥٦٨ هـ)، تَحْقِيقٌ: مُحَمَّدُ السَّمَاوِيُّ، مَكْتَبَةُ الْمُفِيدِ، قُمْ، وَطُبِعَ مَطْبَعَةُ الزَّهْرَاءِ ١٤١٥ هـ.
٢٩٠. مُتَّخَبُ كَنْزِ الْعُمَالِ، عَلِيُّ بْنُ حَسَّامِ الدِّينِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ (٨٨٥ - ٩٧٥ هـ). دَارُ إِحْيَاءِ الثَّرَاثِ الْعَرَبِيِّ. بَيْرُوت - لُبْنَان.
٢٩١. مَوْدَةُ الْقُرْبَى، لِلسَّيِّدِ عَلِيِّ بْنِ شَهَابِ الدِّينِ الْحُسَيْنِيِّ الْقَلَوِيِّ الشَّافِعِيِّ الْهَمْدَانِيِّ، طُبِعَ ١٩٩٠ م.
٢٩٢. مِيزَانُ الْإِعْتَدَالِ فِي نَقْدِ الرِّجَالِ، لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدَ بْنَ أَحْمَدَ الذَّهَبِيِّ، (ت ٧٤٨ هـ ق)، تَحْقِيقٌ مُحَمَّدُ الْبَجَاوِيُّ، طَبْعَةُ دَارِ الْمَعْرِفَةِ لِلطَّبَاعَةِ وَالنَّشْرِ بَيْرُوت ١٩٦٣ م، وَطُبِعَ الْقَاهِرَةُ ١٣٢٥ هـ، دَارُ الْفِكْرِ بَيْرُوت.
٢٩٣. الْمُعَمَّرُونَ وَالْوَصَايَا، لِأَبِي حَاتِمِ السَّجِسْتَانِيِّ (ت ٢٥٠ هـ)، تَحْقِيقٌ: عَبْدُ الْمُنْعَمِ عَامِرٌ، الطَّبْعَةُ الْمِیْمَنِيَّةُ بِمَصْرَ ١٣٥٦ هـ.
٢٩٤. الْمِيعَارُ وَالْمَوَازَنَةُ، لِأَبِي جَعْفَرِ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْإِسْكَافِيِّ (ت ٢٤٠ هـ)، تَحْقِيقٌ: مُحَمَّدُ بَاقِرُ الْمَحْمُودِيِّ.

حَرْفُ النُّونِ

٢٩٥. النِّهَايَةُ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ وَالْأَثَرِ، لِأَبِي السَّعَادَاتِ مُبَارَكِ بْنِ مُبَارَكِ الْجَزَرِيِّ الْمَعْرُوفِ بِأَبْنِ الْأَثِيرِ الشَّيْبَانِيِّ الشَّافِعِيِّ (ت ٦٠٦ هـ)، تَحْقِيقٌ: طَاهِرُ أَحْمَدَ الزَّارَوِيِّ، مُؤَسَّسَةُ إِسْمَاعِيلِيَّانِ، قُمْ، الطَّبْعَةُ الرَّابِعَةُ ١٣٦٧ هـ.
٢٩٦. نُورُ الْأَبْصَارِ فِي مَنَاقِبِ آلِ بَيْتِ النَّبِيِّ الْمُخْتَارِ، لِمُؤْمِنِ بْنِ حَسَنِ مُؤْمِنِ

السَّابِلْنَجِي (ت ١٢٩٨ هـ)، طَبْعَةُ دَارِ الْكُتُبِ الْعِلْمِيَّةِ، بَيْرُوت، الطَّبْعَةُ
الأولى ١٣٩٨ هـ.

٢٩٧. نُظِمَ دُرُّ السَّنَطِينِ فِي فَضَائِلِ الْمُصْطَفَى وَالْمُرْتَضَى وَالْبَتُولِ وَالسَّبْطِينِ،
جَمَالُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ الرَّزَنْدِي، (٦٩٣ - ٧٥٠ هـ)، طَبْعَ بَيْرُوت، دَارُ
الثَّقَافَةِ لِلْكِتَابِ الْعَرَبِيِّ ١٤٠٩ هـ.

٢٩٨. نَهَايَةُ الْإِرْبِ فِي فُنُونِ الْأَدَبِ، لَشَهَابِ الدِّينِ التَّوِيرِيِّ (ت ٧٣٢ هـ ق)،
تَحْقِيقٌ: كَمَالُ مَرْوَانَ طَبْعَةُ - الْقَاهِرَةِ ١٢٤٩ هـ.

٢٩٩. نَهَايَةُ الْإِرْبِ فِي مَعْرِفَةِ أَنْسَابِ الْعَرَبِ، لِأَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْقَلَقَشَنْدِيِّ
(ت ٨٢١ هـ ق)، نَشْرُ إِدَارَةِ الْبَحْثِ الْعِلْمِيَّةِ، طَبْعَةُ - بَيْرُوت ١٤٠٢ هـ.

٣٠٠. نَشْأَةُ الْفِكْرِ الْفَلَسْفِيِّ فِي الْإِسْلَامِ الدَّكْتُورُ عَلِيُّ سَامِي النَّشَارِ، الْقَاهِرَةُ دَارُ
التَّعَارُفِ سَنَةِ ١٩٨٥.

حَرْفُ الْوَاوِ

٣٠١. الْوَافِي، لِمُحَمَّدٍ مُحْسِنِ بْنِ مُرْتَضَى الْفَيْضِ الْكَاشَانِيِّ، نَشْرُ مَكْتَبَةِ الْإِمَامِ
أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِصْفَهَانَ ١٤٠٦ هـ.

٣٠٢. الْوَافِي بِالْوَفِيَّاتِ، لَصَفِيِّ الدِّينِ خَلِيلِ بْنِ أَبِيكَ الصَّفْدِيِّ، دَارُ النَّشْرِ
فَرَانزِشْتَانِيز - قَيْسَبَادَانَ.

٣٠٣. وَفِيَّاتُ الْأَغْيَانِ وَأَنْبَاءُ أُنْبَاءِ الزَّمَانِ، لَشَمْسِ الدِّينِ أَبِي الْعَبَّاسِ أَحْمَدَ بْنِ
مُحَمَّدِ الْبَرْمَكِيِّ الْمَعْرُوفِ بِأَبْنِ خِلْكَانَ (ت ٦٨١ هـ ق)، تَحْقِيقٌ: الدَّكْتُورُ إِحْسَانُ
عَبَّاسٍ، طَبْعَةُ دَارِ صَادِرٍ - بَيْرُوت ١٣٩٨ هـ.

٣٠٤. وَسَائِلُ الشَّيْعَةِ إِلَى تَحْصِيلِ مَسَائِلِ الشَّرِيعَةِ، مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ الْحَرِّ

العاملي، طبع مؤسسة آل البيت ١٤١٤ هـ.

٣٠٥. وقعة صفين، لنصر بن مزاحم المنقري، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، القاهرة، الطبعة الثانية ونشر مكتبة السيد المرعشي النجفي قم ١٣٨٢ هـ.

حزف الباء

٣٠٦. يتابع المودة لذوي القربى، لسليمان ابن إبراهيم القندوزي الحنفي (ت ١٢٩٤ هـ)، تحقيق: علي جمال أشرف الحسيني، طبعة أسوة الطبعة الأولى - قم ١٤١٦ هـ، والطبعة الحيدرية في النجف الأشرف.

٣٠٧. اليمن عبر التاريخ، لأحمد حسين شرف الدين، الرياض مطابع الأوفست ١٩٨٠ م.

٣٠٨. يتيمة الدهر في محاسن أهل القصر، أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية.